نظام الملك

الحسن بن علي بن إسحق الطوسي «٤٠٨ - ٤٨٥ هـ»
كبير الوزراء في الأمة الإسلامية
دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره

المؤلف
دكتور عبد الهادي محمد رضا محبوبة

الدار المصرية اللبنانية

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ١٦٩٠٦ / ١٩٩٨
الترقيم الدولى: 3 - 477 - 270 - 977
تجهيزات فنية : **آر ـ تك**
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من السودان
تليفون: ٣١٤٣٦٣٢
طبع : **آمون**
العنوان: ٤ فيروز – متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ – ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولي : رمضان ١٤١٩ هـ ـ يناير ١٩٩٩م
تصميم الغلاف الفنان : **محمد حجى**


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــداء

إلى والدىّ، اللذين ربيّانى صغيراً ولم ينتفعا بى كبيراً. . أهدى أول نتاج علمى كان ثمرة لحنانهما ورعايتهما لى. . اعترافًا بفضلهما وتخليدًا لذكراهما.

اللهم ارحمهما كما ربّيانى صغيرا. .

وإلى أستاذى الفاضل، المرحوم دكتور يحيى الخشّاب ـ الأب الروحى ـ الذى علمنى حرفًا صغت منه كلمات، ومن هذه جملاً وعبارات، أقدّم هذا الجهد المتواضع الذى تّم بإشرافه، والذى كان يتمنّى أن يطبع على حساب الجامعة ـ كما أوصت لجنة المناقشة ـ قبل وفاته. .

تغمّدهم الله بواسع رحمته. .

وأسكنهم جميعًا أعالى جنّاته. .

إنه سميعٌ مجيب.

د/ عبد الهادى رضا محبوبه

القاهرة ـ القبة : فى ١٩ صفر ١٤١٩ هـ

١٤ يونيه ١٩٩٨م.

تعريفٌ بالكتاب ومؤلفه

بقلم الأستاذ الدكتور: مصطفى الشكعة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل وخير الأنبياء صلاةً دائمةً مباركةً، عليه وعلى آله الطاهرين وعلى صحابته الطيبين وعلى كل من سار على سنته واستمسك بشريعته إلى يوم الدين.

وبعد فإن كلاًّ من هذا الكتاب النفيس الذى بين أيدينا ومؤلفه الفاضل ليسْ فى حاجة إلى تقديم، ذلك لأن الكتاب عنوانًا ومنهجًا ومحتوًى يقدم نفسه للقارئ بأفضل مما يقدمه قلم متواضع يحمله مثلى ويخط به سطورًا مهما تأنق فى صوغ كلماتها وسهر فى تجميع مقاصدها، فإنها ـ بغير شك ـ قاصرة عن أن تلبى الحاجة التى تموج فى خاطر القارئ حين يشرع فى قراءة كتاب يحمل اسم أشهر وزير فى أمة الإسلام هو أبو علىّ الحسن بن علىّ الطوسى المعروف بـ«نظام الملك» المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .

وكذلك الأمر فيما يتصل بمؤلف الكتاب الأستاذ العلامة الدكتور عبد الهادى رضا محبوبة، ولكن ثمّت وشائج نبيلة ربطت بين قلبينا، وروابط أخوة موصولة رافقت حياتينا، لأنه زميل دراستى الجامعية فى كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول منذ عقد الأربعينيات من هذا القرن، وقد ساعدت شمائل الدكتور عبد الهادى وما حمله قلبه من نبائل الحب وشحنات البر والوفاء ما قد عمّق الروابط بيننا فبارك أصولها ونمّى فروعها، ومن ثمّ صار كلٌّ منّا من أكثر الناس معرفة بشئون صاحبه وشجون رفيقه، الأمر الذى جعلنى أقحم قلمى ليخط سطورًا قليلة يعرّف القارئ من خلالها بمعلومات وجيزة عن المؤلف وعن الكتاب.

فأمّا الأخ الأستاذ الدكتور عبد الهادى رضا فهو مسلم عربى عراقى المولد ولكن كلاّ من العراق ومصر تتقاسم هويته الثقافية المتمثلة فى علمه وعروبته وإسلامه، ذلك لأنّه قضى بمصر نحو خمسة عشر عامًا من شرخ شبابه مجتمعةً. متواصلةً حينًا، ومنفرطةً متفرقةً حينًا آخر حصل فى خلالها على جميع إجازاته العالية والعليا بدءًا بالليسانس وانتهاءً بالدكتوراه عام ١٩٥٩م، وإن هذا القدر من حياته المباركة الذى قضاه فى مصر مترع بأسباب السعادة متزاحم بقوافل الذكريات التي تحمل ذاكرتى منها الشىء الكثير الذى لا يتسع هذا التقديم الموجز لذكر نماذج منها، وإن الذى يعيش فى مصر هذه السنوات الطويلة ما كان متصلاً منها وما كان متفرقا، لابد أن يخلف رواسب من الحب للأرض والمكان وأواصر من الود للسكان والإخوان، وهكذا لا يزال الدكتور عبد الهادى مستمسكًا بهذه القيم ملتزمًا بهذه الذكريات، ومن ثمّ فهو ثمرة فتية يتنازع رحيقها كلٌ من القطرين الشقيقين مصر والعراق.

وللدكتور عبد الهادى رضا نشاط علمى عريض فى جامعات العراق وجامعة الكويت، وهو الأب الشرعى لجامعة البصرة، فهو منشؤها وواضع أولى لبناتها وزارع حجر الأساس لكلياتها، وقد ظل الدكتور عبد الهادى رئيسًا لها خمس سنوات تقريبًا حتى خرّجت الجامعة على يديه الدفعة الأولى من أبنائها.

والدكتور عبد الهادى رضا من العلماء المتواضعين المتسمين بلين الجانب وقلّة الكلام ووفرة العلم، فإن داره سواءٌ فى أثناء عمله فى العراق أو الكويت تضم مكتبةً كبيرةً حوت كل نفيس من الكتب، وكل ثمين من الأسفار، بل إنه لمزيد من الحقيقة كانت الداز تضم مكتبتين كبيرتين وليس مكتبة واحدة، فالمكتبة الثانية تخص زوجته وشريكة حياته وقسيمة دربه كبيرة شاعرات عصرنا الأخت العالمة الناقدة الشاعرة الأستاذة نازك الملائكة، وللقارئ أن يتصور كم تضم مكتبتان لمثل هذين الزوجين الرفيعين من جواهر العلوم وكنوز المعارف، إنهما ـ وقد ترهّبا فى محراب المكتبة الكبيرة ـ استطاعا أن يستوعبا من صنوف المعرفة ما لم يتوفر لغيرهما اللهم إلاّ للقليل من قرنائهما. وغنى عن البيان ـ وتلك

حالهما ـ أن يكون قد تخرَّج على أيديهما آلاف من طلاب الجامعات، ومئات ممن حصلوا تحت إشراف كلٍّ منهما على إجازات الماجستير والدكتوراه.

تلك سطور قليلة موغلة في الإيجاز للتعريف بمؤلف الكتاب.

فماذا بعد ذلك عن الكتاب نفسه؟ هذا الضرب من الأسئلة مما لا تجوز الإجابة عنه في مثل هذا المقام اللهم إلاّ بكتاب آخر ويكون الحال أنئذ ضرباً من الدعابة، ولكن الميسور في هذا المقام ذكر بعض ما يتيسر تقريره من حقائق حول شخصية الوزير «نظام الملك» أشهر وزير في سيرة تاريخ الأمة الإسلامية على وفرة ما حفلت بها مسيرتها من وزراء عظام من أمثال البرامكة: خالد ويحيى والفضل وجعفر وزراء المنصور والمهدى والرشيد، ومن أمثال: أبى الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وزيرى بنى بويه، ومن أمثال: عبد الرحيم البيسانى المشهور بالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى الذى كان صلاح الدين يقول عنه: «نصرت بقلم عبد الرحيم»، فإذا ما عبرنا إلى الأفق الأندلسى وقع بصرنا على الوزير العالم السياسى المؤرخ الفقيه الكاتب الوشاح الشاعر لسان الدين بن الخطيب.

وإذا كانت هذه المقدمة القصيرة لا تتسع لمثل هذا الحديث الذى حفلت المكتبة العربية قديمًا وحديثًا بكثير من الكتب عن الوزراء والوزارة وآدابها وتقاليدها ومؤهلاتها وغير ذلك، فإنه يجمل بنا أن نخفّف العبء على القارئ لنعبر إلى الشاطئ الذى يخص الوزير «نظام الملك» لنذكر القليل من مؤهلاته ومآثره.

كان «نظام الملك» فارسيّا من منطقة طوس، ولكن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، فالمرء في الإسلام بعمله وليس بنسبه، وهو ـ أى نظام الملك ـ من أبناء الدهاقين وهم الزراع وملاك الأراضى، وقد ولد سنة ٤٠٨ هـ في قرية يقال لها «نوقان»، وقام أبوه بتحفيظه القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ وتعليمه الفقه والأدب والشعر، وقد أولى حديث رسول الله اهتمامًا خاصًا بحيث صار محدثًا، وكان يقول: «إنى أعلم أنى لست أهلاً لذلك، ولكنى أريد أربط نفسى في قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ».

ولما شبّ عود «نظام الملك» اتصل بخدمة ابن شاذان والى بلخ وكان يكتب له، ولكن هذا الوالى كان يصادره كل عام، فهرب واتصل بوالد السلطان ألب أرسلان، ثم صار وزيرًا لألب أرسلان نفسه عشر سنين فلمّا اغتيل سنة ٤٦٥هـ تولى وزارة ابنه السلطان ملكشاه لمدة عشرين عامًا، فكانت مدة توليه الوزارة ثلاثين عامًا تقريبًا.

وكان الوزير «نظام الملك» -شأن أكثر وزراء ذلك الزمان- كريماً جواداً محبّاً للعلم والعلماء وكان يجلس كلاًّ من أبى المعالى إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى (صاحب الرسالة) على مسنده، وفى ذلك يقول السبكى فى «طبقات الشافعية»: «مجالسه معمورة بالعلماء، مأهولة بالأئمة والزهاد، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه. ويلقبه السبكى «بالوزير الكبير العالم العادل، دولته كلها فضل، وأيامه جميعها عدل، ووقته وابل بالسماح مغدق، ومجلسه بجماعة العلماء صباح مشرق».

إن وزيراً هذا شأنه كان من البدهيات أن يهتم بتعليم الناس اهتمامه بإكرام العلماء فكان أول من أنشأ المدارس، وفى عبارة أخرى أشهر من بنى المدارس والمساجد والأربطة والخانقاوات، فقد أنشأ إحدى عشرة مدرسة أو بالأحرى هى كليات طبقًا لمصطلحات زماننا واختار لها كبار العلماء وكثيراً ما كان يسهم فى اختبارهم قبل تقلدهم وظائفهم، فبنى هذه المدارس المشهورة فى بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهراة، وأصبهان وعسكر مكُرُم، والبصرة، ومرو، وآمل طبرستان والموصل، وطوس، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب والموظفين.

وكان «نظام الملك» فارسًا فاتحًا مظفراً، ففى عهد وزارته امتدت حدود دولة ملكشاه من كاشغر إلى بيت المقدس طولاً، ومن قرب قسطنطينية إلى بحر الهند غربًا.

لقد أجمع العلماء على الثناء عليه بشمائل لم يوصف بها حاكم من قبل باستثناء الراشدين الخمسة .. من هؤلاء العلماء الذين شملوا الوزير بالثناء

الوافر الأمير العالم أبو نصر بن ماكولا، ومنهم إمام الحرمين الجوينى وغيرهما.

ومن شمائل «نظام الملك» الذى لا أتردد فى وصفه بكبير وزراء الأمة الإسلامية أنه ما جلس قط إلاّ على وضوء، ولا توضأ إلاّ وتنفّل، يقرأ القرآن ولا يتلوه مستندًا إعظامًا له، وإذا أذّن المؤذن أمسك عن كل شغلٍ هو فيه وأجابه، ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولا يمنع أحدًا من الدخول عليه خاصةً وقت الطعام.

لقد نشر «نظام الملك» العدل والعلم، والجود، والخير، والعمران، والرخاء، وأعزّ جانب المسلمين وحصّن الثغور، ومع ذلك فقد مات غيلة رغم شيخوخته وفناء وقته فى خدمة الرعيّة، إذ طعنه شاب متظاهر بالصوفية فكانت الطعنة قاتلة لزينة وزراء المسلمين بعد إفطار العاشر من رمضان سنة ٤٨٥ هـ فحمل إلى أصبهان حيث جرى دفنه فيها.

وكان من أجلّ ما رُثى به ما أنشأه شبل الدولة أبو مقاتل بن عطية بن مقاتل البكرى قائلاً:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة

نفيسة صاغها الرحمـٰن من شرفِ

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها

فردّها غيرةً منه إلى الصَدَفِ

إن الأمر الذى يدعو إلى العجب أن آخر كلام نطق به «نظام الملك» وهو يحتضر: «لا تقتلوا قاتلى، فإنى قد عفوت عنه»، ثم تشهد ومات.

وبعد.. فهل يحاول وزراء المسلمين المعاصرون أن يعرفوا شيئًا عن الوزير «نظام الملك» وأن يقلدوه ولو فى القليل؟! إذن لأفلحوا وأفلح معهم المسلمون.

وبعد مرّةٍ أخرى أقول: هذه كلمات مختصرات أردت أن أحيّى بها أخى

وصديقى العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الهادى رضا محبوبه مؤلف هذا الكتاب النفيس وصاحبه، فحيّاه الله وأسعد زمانه، ونضّر أيامه، ووهبه وكل من حوله نعمة صحة الدين والدنيا وبارك لهم حلاوة إيمانهم، والله سبحانه المستعان.

مصر الجديدة فى : ٢٠ من صفر ١٤١٩ هـ

١٥ من يونية حزيران ١٩٩٨م

مصطفى الشكعة

تقديم موجز

بقلم المؤلّف

كان هذا النمط - دراسة الشخصيّات ومكانتها فى التاريخ - مألوفًا لدى المختصين ثمّ مالوا عنه إلى ضروب أخرى تعنى بدراسة الفنون والموضوعات أو الظواهر الأدبية والأحداث التاريخية فى بيئات خاصة لفترات معيّنة.

ولا شك بأن مرحلة الانتقال هذه كانت بدافع اليسر والوصول إلى نتائج قيمة واضحة أجدى على القارئ وأجدر بالفائدة لان دراسة الأشخاص تتطلب بحثًا شاملاً للبيئة والعصر اللذين عاش فيهما الأشخاص فتأثروا بهما وأثّروا فيهما. وتتبعًا للأحوال والأعوام التى سبقتهما لتلمس التيارات الاجتماعية التى تلاشت أو بقيت والتى نمت أو ضعفت لتبين ما أضفته تلك الشخصية على التاريخ من مظاهر تقدمية أو رجعية أو محافظة وما أسدته إلى الإنسانية من بعث لأمجاد ماضية أو إثارة لأحقاد بشرية دفينة.

وليست شخصية الوزير - نظام المُلك المتوفى سنة ٤٨٥ هـ - ممن جهلها التاريخ فقد عرفه المؤرخون وكتبوا عنه فى لغات شتى منذ قرون خلت ولكن بأسلوب الترجمات القديم المتعارف الذى أخذ يتناقله الخلف عن السلف. أما دراسته دراسة علمية مستوفاة لجميع نواحى حياته فلم أظفر لها بكتاب حتى اليوم سوى مؤلف واحد فى «الأردية» نهج مؤلفه طريقة القدماء فى تأليفه.

لقد مرت بى - وأنا طالب فى معهد الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة - فى الخمسينات - شخصيات إسلامية كان لها أعمق الأثر فى نفسى وتوجيهى وكان فى طليعتها وزيرنا - نظام الملك - حيث كنا نتدارس مع أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الخشّاب[1] نصوصًا من كتاب «سياستنامة» فلفت نظرى تفكير مؤلفه

(١) زوج الأستاذة الفاضلة المرحومة سهير القلماوى- وقد أنجب منها الدكاترة: عمر، وياسين - فكانا خير خلف لخير سلف.

الخصب وسيرته الحافلة بأنواع النشاط والحركة وإيمانه الصادق فى معتقده وثباته الذى لا يثنيه رغبة أو رهبة.

ومن ناحية أخرى، فقد وجدتُ فى سيرته تاريخًا حافلاً لتلك الفترة الحاسمة من تاريخنا وجلاءًا لمسائل مازالت غامضة فى سياسة الخلفاء العباسيين ومن عاصرهم من سلاطين آل سلجوق. ولأن فى تحقيق ذلك جميعه تاريخًا لبغداد العراق وأنا من أبنائها الذين أرى لزامًا علىّ أن أساهم فى البحث عن سالف مجدها وغابر تاريخها. ومن ذلك الحين وجدتنى أنزع إلى تتبع حياة الرجل وجمع ما قيل فيه وألّف عنه ولمّ شمل تراثه والإحاطة به إلى أن هيأت لى الظروف تقديم هذه الدراسة المتواضعة فى سيرتهِ وعصره وآثاره.

وقد اعتمدت فى دراسته على المصادر الفارسية بعد آثاره العربية لأن الفرس - فى اعتقادى - أعلم بأخبار بلادهم وأطلع على دخائل سياستهم ونفوس ساستهم ولأنه عاش بين ظهرانهم وفى ربوعهم وروُوا عنه من الأقاصيص والأحدوثات ما لم تذكره المصادر العربية. أمّا تلك الآثار التى خلفها لنا فقد أوليتها عناية خاصة، وفضلت عرضها عرضًا يعتمد على التعليق والمقارنة، وترجمت ما لم يترجم منها إلى العربية.

ولما كان لعلاقته بالمجتمع عن طريق البارزين من رجال السياسة والعلم من أثر بالغ الأهمية فقد عنيت بملاحقة هذه الصلات وتحليل هذه العلائق وإيضاح ما حدث بينه وبين أتباعه وبين مناوئيه من صنوف الخصومة معتمدًا فى هذا كله على تراجم عدد كبير من أعلام عصره فى مواضعها المختلفة. ثم بذلت جهدًا لا يقل عن سابقه فى ما كتبه العرب فى ثنايا مصنفاتهم فى التاريخ والطبقات وبخاصة القديمة والقريبة من عهد «النظام» أو المعاصرة له كدمية القصر للباخرزى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، والمنتظم لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. وحاولتُ بعد هذا الاطلاع على ما كُتب عنه فى لغات أجنبية مختلفة وإن كانت مترجمة فوجدت فيها من اللمحات والملاحظات ما نفعنى فى تصوّر أهداف «النظام» فى الحكم وفى الدولة وتوضيح معالم شخصيته.

وقد انتهى بى البحث كمقدمة لهذه الدراسة إلى أن الوزارة نظام عرفه المسلمون حيث بدا مشورة وكتابة وانتهى إلى وظيفة إدارية تنفيذًا تارة وتفويضًا أخرى: وإن أبا سلمة الخلال الوزير العباسى الأول كان عربى اللسان، والسلالة، من قبيلة هَمْدان اليمانية، وليس مولى منسوبًا إلى هَمَذان المدينة الفارسية المعروفة فى إيران، وإن «نظام الملك» كان أكبر الوزراء الإسلاميين مقامًا ودهاءً حيث استطاع أن يضع التاج على مفرق سلطانيه ـ ألب ارسلان وملكشاه ـ وأن يتحكم فى الخلافة العباسية من ورائهما طوال ثلاثين عامًا وأن يشاركهما فى فتوحاتهما حتى وصل حكم الخلافة الإسلامية إلى أقصى حدودها سعةً وانتشارًا: من الهند والصين شرقًا إلى شمال إفريقيا وجنوب أوربا غربًا.

فإذا استطاع هذا البحث أن يصل بى إلى أعماق هذا الوزير ويكشف لى عن دوافعه التى كانت تحمله لأن يبرز فى منشآته العلمية وسلطته الحربية، ثم يجلو لى حقيقة الوضع الاقتصادى والدينى والسياسى والعلمى فى عهده، وكيف استطاع أن ينفذ إلى الحكم ويعيش إمبراطورًا يسوس الخلافة الإسلامية فى عهدى القائم والمقتدر ومن ورائهما مدى ثلاثين عامًا، فإذا استطاع البحث أن يبلغ بى ذلك فإنى أعدّه بداية حسنة يمكن التوسع فى بعض أجزائه والتعمق فى بعضها الآخر عند إعادة النظر فيها وإعادة طبع الكتاب بعون الله وتوفيقه.

ومن الجدير بى أن أعترف بأنى لست من الفراسة أو الخبرة فى تحليل النفوس بحيث أقطع بكمال جميع ما وصلت اليه من نتائج وأحكام، وأن أستطيع الجزم بصحتها ودقتها بشكل تام، على أنى ـ يشهد الله ـ لم أقف منه فى كل ما انتهيت من حكم له أو عليه موقف القاضى المتهم له أو المحامى المدافع عنه، وإنما حاولت قدر المستطاع أن التزم الحياد توخيًا للحقيقة وتحقيقًا للغرض من البحث العلمى معتقدًا بسلامة قول الفقهاء: «المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته» ـ أى أن الأصل هى البراءة.

وإنى وإن كنت أتحاشى المبالغة فى نزاهة «النظام» وحدة ذكائه ومدى عبقريته، إلاّ أنه يصحّ أن يتخذ القارئ من حياته مثلاً أعلى للسياسى الهادف ومن سيرته نموذجًا صالحًا للإيمان الصادق وقدوة حسنة للثبات على المبدأ والسعى الحثيث لتحقيقه، وإن كان فى سبيل ذلك خطرًا على حياته وهدرًا لدمه، كما حدث «للنظام» نفسه حيث اغتيل عام ٤٨٥هـ، على يد فدائى من الباطنية فى زىّ صوفى.

د/ عبد الهادى محمد رضا محبوبه

القاهرة ـ القُبّة/ ش سوزان مبارك

فى ١٩ يوليو ١٩٩٨م

■ الباب الأول ■

خلاصة الخلاصة حول نظام الوزارة

تمهيد - الوزارة العربية في الشرق الإسلامى: قبيل عصر الرسول ﷺ حتى القرن الخامس الهجرى

تمهيد : (الدوافع لكتابة هذا الباب)

لقد آثرت وأنا أحاول دراسة شخصية الوزير «نظام الملك» أن أغتنم هذه الفرصة فأمهد لها بخلاصة ضافية عن نشأة الوزارة وتطورها فى دولة الخلفاء حتى عصر «النظام»، بل وجدت ذلك لزامًا علىّ جديرًا بدراستى حيث رأيت غلو الدارسين للنظم الإدارية فى الإسلام بأنها مستقاة من منابع أجنبية ليس للعرب فضل فيها. فهى إمّا شرقية مستمدة من الفرس أو الهنود أو منهما معًا وإمّا غربية مقتبسة من اليونان أو الرومان أو من هؤلاء وأولئك جميعًا.

وقد انتهيت من ذلك كله إلى نتيجة وإن كانت - كما يبدو - بديهية، فقد أدى بى البحث إلى أن نظام الوزارة فى الإسلام لم يكن ساسانيًا بالمعنى الذى تخيله أولئك الدارسون كما لم يكن رومانيًا كما تصوره الآخرون، وإنما هو ظاهرة حضارية تعاونت على إيجادها عوامل اجتماعية من ثقافة وسياسة ودين طبقًا لناموس الطبيعة المتطورة وتحقيقًا لنتيجة التفاعل بين الإنسان والزمان والمكان. . كما توصلت إلى أنه فى عهد «نظام الملك» قد بلغ الذروة من ناحية مراسيم الوزير وتحديد اختصاصاته والاعتراف بأهمية منصبه وأثره فى تقدم الدولة ومعرفة الأعباء الملقاة على عاتقه سواء ما يتصل بعلاقته مع رئيسه أو مرءوسيه.

وسيكون حديثنا بالطبع قاصرًا على الناحية الحضارية من الوزارة؛ لتفسير نشأتها وتطورها التاريخى ثم منزلتها، ووظائفها. أمّا الناحية التشريعية من حيث

وجوبها أو جوازها وموقف المشرّع من الوزير إذا قصرّ فى أداء مهمته ومتى يلزم عزله أو نقله وأمثال ذلك، فإنها من الموضوعات الفقهية فى كتب الأحكام السلطانية.

إن الحديث عن تاريخ ـ الوزارة ـ لغةً ومنصبًا عند العرب قبل الإسلام وبعد ظهوره حتى نهاية العصر العباسى، طويل يستوعب كتابًا بأبواب وفصول، خصوصًا بعد ارتباطها بالخلافة التى انقسمت إلى ثلاث دول:

الأولى: العباسية فى بغداد، ثم الأموية فى الأندلس، والفاطمية فى القاهرة.. والتى شارك فى استخدامها: السلاطين والملوك والأمراء. لذلك فضلت تقديم خلاصة الخلاصة إلى القارئ من الجزء الأول الخاص بدراسة هذا النظام وقد قسّمته إلى ثلاثة فصول، والاكتفاء بالجزء الثانى الذى يختص بسيرة «نظام الملك» وزير السلاجقة الأوائل.

ومن الله التوفيق، وهو حسبى ونعم الوكيل.

* * *

• الفصل الأول

الوزارة فى اللغة العربية

- *ورودها فى القرآن والحديث.*
- *وفى مؤتمر سقيفة بنى ساعدة.*
- *وفى عصر الخلفاء الراشدين.*
- *وفى أواخر العصر الأموى.*
- *وفى المعاجم اللغوية.*

توطئة : (الدوافع لكتابة هذا الباب)

لم يكن هذا اللفظ بالمستغرب على آذان العرب حين سمعوه على لسان الرسول فى القرآن تارة وفى الحديث أخرى، ولو كان غريبًا عليهم لما جاء فيهما، ولما استعملوه فى حوارهم السياسى فى سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول مباشرة، وليست هذه المواضع الثلاثة بخافية على الدراسين ولكننا نجد من مستلزمات البحث عرضها بإيجاز؛ لأنها الوثائق التاريخية التى لا تقبل الجدل والشك فى فهم العرب لهذا اللفظ واستعماله فى معناه الوظيفى فى الحكم على معنى القيادة والزعامة منذ وقت مبكّر.

أ) ورودها فى القرآن :

لقد كان هارون وزيرًا لموسى كما أخبر القرآن عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾[1].

فكانت هذه الآية جوابًا على سؤال موسى فى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾[2].

وقد أجمع المفسرون على أن معنى الآية دعاء موسى ربه بالسماح له لأن يتخذ من هارون وزيرًا له ليقوى به ظهره ومركزه الاجتماعى، وفى هذا المعنى تأكيد لحاجة شعر بها العرب آنذاك، وتنبيه على ضرورة دنيوية لا يستغنى عنها

---

(١) سورة الفرقان ـ الآية ٣٥.

(٢) سورة طه ـ الآيات ٢٩ ـ ٣٣.

الملوك وإن علموا الكثير من أمورها فإن موسى بن عمران عدّه القرآن نبيّا مرسلاً ووصفه كليمًا لله، ومع ذلك فقد دعى ربه أن يجعل له وزيرًا من أهله ليشاركه فى إدارة أعماله وقد حقق الله له ما تمناه.

ب) وفى الحديث :

وقد روى عن الرسول ﷺ بهذا الصدد حديثان قال فى أحدهما: إن لى وزيرين فى السماء ووزيرين فى الأرض باللذان فى السماء جبريل وميكائيل.. واللذان فى الأرض هما أبو بكر وعمر[1] ثم يرد تأييدٌ لذلك يدعّم صحة هذا الخبر وصدق نسبته للرسول على لسان (زيد بن على) حين طلب إليه جماعة من الغلاة أن يلعن الخليفتين كشرط للمبايعة فقال: والله ما أكتب لألعن وزيرى جدى، فرفضوه فسموا بالرافضة[2].

وقال فى ثانى الحديثين وقد اسندوه إلى عائشة فورد بصورة مختلفة، ولكنه واحد من غرضه ومؤداه.. قالت: قال رسول الله: «إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق إن نسى ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكّره وإن ذكره لم يعنه»[3] وفى عهد الرسول ﷺ ما أُثر عن ـ زيد بن ثابت ـ أنه قال: «نحن أنصار الله ووزراء رسوله ردًا على خطيب من تميم»[4].

ج) وفى مؤتمر السقيفة :

وكان قد اجتمع كبار المهاجرين والأنصار يتداولون الرأى فيمن يستخلف الحكم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال سعد بن عبادة ـ زعيم الأنصار: «الإمامة فينا وفيكم، منا أمير ومنكم أمير». فقال أبو بكر زعيم

(١) النورى: تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١٨٨، وحسن المحاضرة ج٢ ص ١٤٢.

(٢) عبد الحى الكتانبى ـ التراتيب الإدارية ج١ ص ١٧.

(٣) ابن الأثير: النهاية ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٤) الطبرى ج ٣ . ١١٦.

قريش: «نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإمامة فى قريش دون غيرها ونحن الأمراء وأنتم الوزراء»[1]، وبويع أبو بكر خليفة على المسلمين.

د) وفى عهد الخلفاء الراشدين :

وجاء عهد الخليفة الثانى عمر وقام بأعمال جسام فى التنظيمات الإدارية، ومما حكى عنه بصدد موضوعنا أنه كتب إلى أهل الكوفة: «أنى بعثت إليكم عمّار بن ياسر أميرًا وبعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا وآثرتكم به على نفسى فخذوا عنه»، فقدم الكوفة وابتنى دارًا إلى جانب المسجد..

وفى عهد الإمام على[2] كتب إلى واليه بمصر - مالك الأشتر النخعى: «أن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا»، كما روى عنه أنه حينما طلب إليه المبايعة بعد مقتل عثمان أنه قال: «التمسوا غيرى فأكون لكم وزيرًا خيرٌ من أن أكون أميرًا»[3].

هـ) وفى أواخر العهد الأموى :

ولعل آخر نص نتلقاه فى استعمال هذا اللفظ وشيوع معناه فى عهد الدولة الأموية كان عند بداية قيام الدولة العباسية فقد روى المسعودى عن المنقرى أنه قال: «سئل بعض شيوخ بنى أمية عقب زوال الملك عنهم: ما كان سبب زوال ملككم/ فقال: إننا انشغلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفقده رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخرجت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مُرافقيهم على منافعنا وأمضوا أمورًا أخفوا علمها عنّا...»[4].

و) وأخيرًا فى المعاجم اللغوية :

ثمّ جاءت القراميس العربية شارحة هذا اللفظ مفصّلة معانيه ولعل فى إيجاز

---

(١) نشوان الحميرى - الحور العين ص ٢١٢، وابن الأثير - النهاية ج٤ ص ٢٠٧.
(٢) طبقات ابن سعد - مجلد ٢ قسم ٢ ص ١١٧.
(٣) ابن أبى الحديد - شرح نهج البلاغة ج١ ص١٥٦، ١٣٠، ١٦٠، ومحمد عبده - شرح النهج ج٣ ص٩٢.
(٤) المسعودى - مروج الذهب جـ ٢ قسم ٢ ص ١١٧.

تلك المعانى التى فصّلتها كبار المعاجم اللغوية من الفائدة ـ التى ينبغى ألاّ نغفلها ـ لإيضاح الغرض الذى نقصده وتأييد الهدف الذى نرمى إليه.

فهذا ابن منظور فى لسانه يقول: «وأصل الوزر: الجبل المنيع، وكل ما التجأت إليه وتحصّنت به، فهو وزر. والوزر: الحمل الثقيل، والذنب لثقله، وجمعها أوزار ومنه أوزار الحرب»(١).

والوزير حباه الملك الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه وقد استوزره وحالته الوزارة والوزارة بالكسر أعلى. ووازره على الأمر أعانه وقوّاه والأصل آزره. قال ابن سيده: «ومن هاهنا ذهب بعضهم إلى أن الواو فى وزير بدل من الهمزة، وفى التنزيل: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴾(٢).

قال: الوزير الجبل الذى تعتصم به لينجى من الهلاك وكذلك وزير الخلافة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجئ إليه. وقيل لوزير السلطان: وزير لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه فى تدبير المملكة أى يحمل ذلك. الجوهرى: الوزير: الوزارة كالوكيل المتواكل لأنه يحمل عنه وزره أى ثقله، وقد استوزر فلان فهو يؤازر الأمير ويتوزر له.

وفى حديث السقيفة: «ونحن الأمراء وأنتم الوزراء» جمع وزير، وهو الذى يؤازره ويتحمل عنه حمله من الأثقال والذى يلتجئ الأمر إلى رأيه وبتدبيره فهو ملجأ ومفزع».

وفى معاجم اللغة: «وزرت الشىء أزره وزراً» أى حملته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٣).

وفى التهذيب: وأمّا الاتزار فهو من الوزر، ويقال: وازرنى فلان على الأمر وآزرنى والأول أفصح. وقال: أوزرت الرجل فهو مؤزر.. جعلت له وزيراً يأوى إليه. وآزرت من المؤازرة»(٤).

(١) أوزار الحرب: أثقالها من معدات وأدوات وتبعات.

(٢) سورة طه ـ الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٣) سورة الأنعام ـ من الآية ١٦٤.

(٤) لسان العرب ـ مادة وزر ج٧ ص ١٤٦.

وقال الزبيدى فى تاج العروس على القاموس: «ومن المجاز: الوزير ـ كأمير ـ حباه الملك الذى يحمل ثقله عنه ويعينه برأيه، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجئ إليه».

وقد قيل لوزير السلطان وزير: لأنه يزر عنه أثقال ما أسند إليه فى تدبير المملكة، أى يحمل ذلك.

قال الزمخشرى: «وزير الملك الذى يؤازره أعباء الملك أى تحامله، وليس من المؤازرة: المعاونة لأن واوها عن همزة وفعيل منها ـ أزير ـ وأوزره أوثقه وحباه. والوزير علم من الأعلام»[1] وفى نهاية ابن الأثير قال: «وفى حديث السقيفة.. نحن الأمراء وأنتم الوزراء: جمع وزير وهو الذى يؤازره فيحمل عنه ما حمل من الأثقال. والذى يلتجئ الأمير إلى رأيه وتدبيره فهو ملجأ ومفزع»[2].

*** نتائج وملاحظات:**

والذى يمكننا استنتاجه من النصوص السابقة شيئان مهمان فى موضوعنا هذا. أولهما: ما يتصل باشتقاق اللفظ وأصله. والثانى: بمعناه ودلالته.

أمّا الأول: فإن هذا المصطلح الحضارى عربى أصيل إذ جرت عادة مؤلفى المعاجم وقواميس اللغة أن يثبتوا عند شرح النصوص أنّ هذا للفظ معرّب أو أنه فارسى معرّب أو أنه دخيل. وقد يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيقول: «إنه معرّب بلا خلاف». ومما يلفت النظر ويدعو إلى الانتباه ألّا نجد واحداً من هذه النقول جميعها من أشار إلى ذلك سوى الثعالبى، حيث قال: «وقيل هو فارسى معرّب وأصله من الزَوْر، وهو عندهم اسم للشدّة والقوة والمعنى فيه أن يشدّ صاحب الدولة ويقوّيه ويعينه على ما هو بصدده، والأظهر أنه من المساعدة والاعانة[3].

(١) تاج العروس فى شرح القاموس ـ مادة وزر ج٣ ص ٢٠٢..

(٢) ابن الأثير ـ النهاية جـ ٤ ص ٢٠٨..

(٣) الثعالبى هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤٢٦هـ فى كتابه تحفة الوزراء ص٤١.

وثانى الشيئين: وهو لا يقل أهمية عن سابقه أن معنى الوزارة كما تفيده تلك النصوص إنما هو حمل الأعباء كافة عن الخليفة أو السلطان. وليست معاونته فيها كما ذهب ابن خلدون عند تفسيرها [1]، وذلك لأن الوزارة مشتقة إمّا:

١ ـ من الوَزر بالفتح والتحريك بمعنى الجبل وكل معقل يلجأ إليه وهو المعنى الحسى الأصل، ثم انتقل إلى معنى الملجأ والمعتصم ومنه الآية: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾[2].

٢ ـ من الوزر بالكسر والتسكين بمعنى الثقل والسلاح ثم تدرج إلى معنى الإثم والذنب لأنه حمل ثقيل، ومن الأول قوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3].

ومن الثانى قولهم على المجازر «أوزار الحرب» أثقالها وآلاتها.. وأحدها الأزر وقيل لا واحد له.

٣ ـ من الأزر وهو الظهر ومنه انتقل المعنى إلى القوة والمساندة كما يقوّى الظهر الجسم ويسنده وعليه الآية: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[4].

ويرى كثير من المؤرخين أنها مأخوذة من الثانى، ومنهم عدا من سبق ذكره «ابن خلكان»، وأن الوزارة مشتقة من الوزر كأن يحمل الثقل من السلطان[5].

ويعلّل الزمخشرى لذلك تعليلاً صرفيّا، لأن الصرف وإن اختص بالاشتقاق وتغاير الحروف فإنه يتصل بالمعنى كالنحو فيقول: «لأن واوها من همزة، وفعيل منها أزير ـ كما ذكرنا قبل قليل[6] على أننا وجدنا من يؤيد ابن خلدون فيما ذهب إليه وهو أبو إسحاق الزجّاج حيث يقول: «إن الوزير معناه، الذى يعتمد عليه الخليفة ويلجأ إلى رأيه»[7].

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١١٥.
(٢) سورة القيامة ـ الآية ١١.
(٣) سورة الأنعام ـ من الآية ١٦٤.
(٤) سورة طه ـ الآية ٣٢.
(٥) ابن خلكان ـ الوفيات ج١ ص٤٤٥.
(٦) الزمخشرى ـ أساس البلاغة ـ مادة وزر ص٤١٧.
(٧) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٩

وقد فرّق بعضهم بين وزارتين فحدَّد الأولى: بالخلافة، والثانية: بالسلطنة، فخصّ وزير الخلافة بالاعتماد على رأيه واللجوء عند الحاجة إليه، ووزير السلطان بحمل الأثقال عنه بما أسند إليه من تدبير المملكة.

تلك هى الجذور الأصيلة التى اشتق منها لفظ (الوزارة) وهى موجودة فى العربية منذ فجر الإسلام وقبيل ظهوره بدليل استعماله فى القرآن والحديث، وليس هناك ما يبرر التردد فى أصلها أو إرجاعها إلى أصل فارسى وإن وجد ما يماثلها فى النطق أو يشاكلها فى الحروف. والوزارة كالخلافة مصطلح عربى أصيل فى مبناه ومعناه واستعماله.

لقد توصلت إلى هذا الرأى، ومن طريف الاتفاقات أن أجد من يؤيده فى ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٢ لأحمد أمين إذ رأيته يؤيدنى على أن أصل الكلمة عربى. خلافًا لما ذهب إليه بعض المستشرقين بأن أصلها VICIIRA ومعناها الأمر والتقدير.

ومهما اختلفت مصادر الاشتقاق التى أنتقل منها ومال بعضهم إلى واحد منها وآخرون إلى غيره فإنى أفضل رأى القلة ومنهم «ابن خلدون» وإن جاز لنا تفضيل أحد الرأيين، لأن المعاونة هو المعنى الذى يوحيه هذا اللفظ عند إطلاقه مع اختلاف درجة الوزير. فالوزارة إن كانت من المؤازرة والمساندة للسلطان فى تدبير أموره، وإن كانت من الوزر فهى المشاركة له فى حمل أثقاله سواء أكان إثمًا أم عبئًا، وإن كانت من الأزر فهى المساهمة فى تقوية شأن السلطان وإعلاء كلمته.. وإن مفهوم الآية الكريمة التى هى الوثيقة الأولى فى معنى هذا اللفظ تؤيد هذا المعنى، كما تميل إلى أن الأزر الذى جاء متممًا للوزارة فى الآية نفسها إنما هو المصدر الصحيح لاشتقاقها.

والشىء الأخير الذى ينبغى أن نختتم به موضوع أصل اللفظ ومؤداه والذى أجد فيه سندًا لفكرة أصالته العربية، وما وصل إلينا من تاريخ الوزارة فى الدولة الساسانية، فإن الألفاظ التى استعملت ألقابًا للوزير هى:

١ ـ هزاربار: ومن قبل كانت هزاربانى بمعنى رئيس ألف رجل أيام الاكمينيين.

٢ ـ هزاريت دارن أرياتش ومعناها صاحب الأمر الكبير عند الأرمن.

٣ ـ بزرك فرما دار ـ مضافًا إليه ـ إيران وغير إيران. أحيانًا بمعنى الحاكم الكبير لإيران وغيرها.

٤ ـ ودر أندر زبد ـ بمعنى ناصح أو أمين البلاط أحيانًا أخرى [١]

وهى كما نرى لا تتفق مع لقب ـ وزير ـ العربية فى اللفظ والمعنى.. أمّا من ناحية اللفظ فلا موجب للتدليل على وضوحه. وأمّا من ناحية معناه فإنها بعيدة كل البعد عن تحمل المشاق والتبعية والمشاركة للخليفة، بحمل الأعباء والمسئولية، لأن معنى الرياسة والحكم ثم النصح التى تؤديها ألقاب «كبير الحكام» الساسانى لا يمكن أن تشتقها من لفظ وزير العربى.

وسنعالج هذه المسألة مرة ثانية عند الحديث عن منزلة هذا المَنْصب ورتبة الوزير، وثالثة خلال اختصاصاته لمعرفة الفروق الكبيرة من ناحية اللفظ والدرجة والوظيفة.

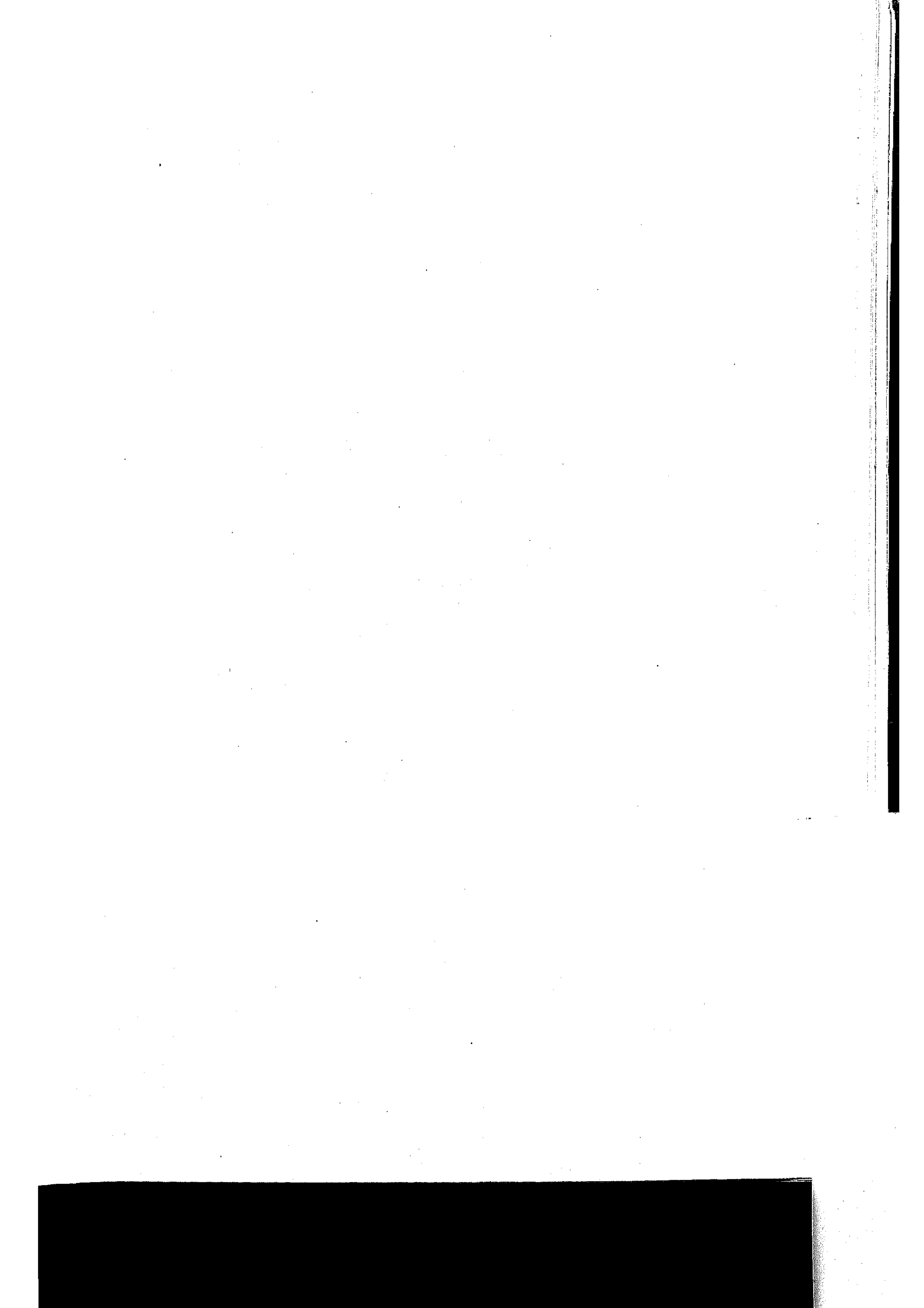
* * *

(١) كرستنسن ـ إيران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة الدكتور يحيى الخشّاب والدكتور عبد الوهاب عزّام ص ١٠٠، ١٠١.

• الفصل الثانى

منزلة الوزارة فى الدول الاسلاميّة

- *أهمّيتها ، العلاقة بين الخلافة وبينها.*
- *أنواعها ، وشرائطها وتقاليدها.*
- *والتطور فيها .*



١ - منزلتها في الدول الإسلامية:

تعتبر الوزارة فى نظر المتخصصين ببحوث الأحكام السلطانية «ولاية عامة فى الأعمال العامة» [١].. فهل هذه الخصوصية تأتى بعد منصب الخلافة إذا كان الوزير تابعًا لها، وبعد مركز السلطنة إذا كان ملحقًا بها؟.. هذا لو أنصف صاحبها وعرف حقه [٢]، وقد تفوقهما معًا إذا لوحظت الناحية العملية من وظيفتها وما ينجم عنها من صلاح أو فساد، وقوة أو ضعف حتى عدّها «الشيزرى» وهو من أعاظم المؤلفين فى سياسة الملوك فى تلك العصور: أولى أركان المملكة الخمسة، وجعل بعدها على التوالى: الرعية والقوة والحصون[٣].. ويقصد بالقوة: الحكومة، والحصون: الجيش. كما قال عنها ابن خلدون: إنها «أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية.. وأرفعها ما كانت الإعانة فيها عامة»[٤].

ولو رجعنا إلى المسوغ القانونى والشرعى يوم ذاك لوجدنا «المصلحة العامة» هى العامل المشترك لتنصيب الخليفة والوزير على السواء. وكما نجده اليوم من أول أسباب التعيين والنقل والفصل فى جميع الدوائر الحكومية، ويبلغ بعض المشرعين آنذاك أن يعتبر «نيابة الوزير المشارك له - للخليفة - أو التدبير أصح فى تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل»[٥].

---

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص ١٧.

(٢) القلقشندى - صبح الأعشى ج١١ ص٣٧.

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله - المنهاج المسلوك فى سياسة الملوك جـ ١٤ ص ٢٠.

(٤) المقدمة ص ١١٥.

(٥) الماوردى - الأحكام السلطانية ج٢٢ ص٦- المقدمة ١١٤.

إن المدونات التاريخية تمدّنا بمعلومات تدل على أن الوزير كان ممثلاً للخليفة أو السلطان فى تدبير شئون المملكة لذلك ساواه فى شروطه، بل زيد فبه اشتراط الكفاية فى شئون الحرب والمال والخبرة بتفاصيلها إذا كانت الوزارة تفويضية، إذ عليه مدار الوزارة وبه تنظيم السياسة. بحيث عدّه بعضهم شريكًا للملك فى أموره مستمدًا هذا المعنى من قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾[1].

وفسر الآية بأن يكون معينًا فى أمر النبوة وأداء الرسالة إذ هى الأصل فى ذلك[2]

. إن أهمية هذا المنصب تبدو بجلاء من ناحيتين:

ذاتية: تظهر ما يحمله اللفظ من عظم التبعية والمسئولية وما يوحيه من عظيم المنزلة. واجتماعية: تتبين بما يتحمله الوزير من أعباء الوساطة بين السلطان والرعيّة. فإذا تذكرنا أن الخليفة فى نظر المشرعين هو الواسطة بين الله والناس فى تطبيق أحكامه والتزام مصالح عباده، عرفنا بأن الوزير يُتم دور الوساطة بين الخليفة والناس سواء أكانوا ولاة أم رعايا باعتباره المسئول الأول عن رفع المظالم وتحقيق العدل ورعاية مصالح الناس، بعد أن فوّض إليه الأمر.. ويؤيد هذا ما تلمحه من تفضيل بعض اللغويين كسر الواو على فتحة لما يدل عليه من إلقاء المسئولية وتحمل الوزر كما سبق ذلك آنفًا [3].

وشعر الملوك بذلك حتى رأينا من الخلفاء من يربط بين طاعة الوزير - وطاعتهم وطاعة الله ودخول الجنة من ناحية، وبين معصيته ومعصيتهم ودخول النار من ناحية أخرى[4] وكما رأينا السلطان ملكشاه يرسل بالمتظلمين عنده إلى «النظام» وهو يقول له[5] : «كيف يكون حالى غدًا عند الله إذا طولبت بحق

(١) سورة طه - الآية ٣٢.

(٢) مخطوطة مجهولة المؤلف: تذكرة الملوك فى أحسن السلوك ورقة ٢٩.

(٣) انظر ما ذكره ابن منظور عن ابن سيده ج٧ ص١٤٦، وما قاله الزبيدى عن الزمخشرى ج٣ ص٦٠٢.

(٤) لقد صدر توقيع الخليفة الناصر بتولية وزيره محمد القمى بذلك (الفخرى ص ١٣٥).

(٥) ابن الجوزى - المنتظم - حوادث سنة ٤٨٥هـ فى ترجمة السلطان ملكشاه.

المسلمين، وقد قلدتك الأمر لتكفينى مثل هذا الموقف، فإن وقع على الرعيّة ظلم لم يحدث إلّا بك وأنت المطالب به، فأنظر بين يديك».

٢ ـ الصلة بين الخلافة والوزارة:

وإنه لممّا يهمنا ويهم كل دارس تحديد العلاقة بين الوزارة والخلافة فالسلطنة قبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى فى البحث.

عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلاً فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما ذكر فيه الوظائف السلطانية، وعدّ فى أولها ـ الوزارة ـ ثم الحجابة فديوان الأعمال والجبايات وديوان الرسائل والكتابة، ويدخل تحت هذه الدواوين ما نسميه بالإمارة والشرطة[١].

كان هذا بعد أن أوجز فصلاً فى الخطط الدينية الخلافية أبان فيه الدوائر التابعة للخليفة كإمامة الصلاة والفتيا والجهاد والحسبة والسكة والنظر فى المظالم ثم العدالة[٢]. . والذى يستنتج من ذلك ومما قاله الماوردى فى هذا الصدد أيضًا: «إن الوزارة وظيفة سياسية ليست من الخلافة أو خططها، إذ إن منصب الوزير ـ ولو كان مثل الخليفة ـ إنما هو للنظر فى أمور الخلافة التى تتصل بدنيا الناس وشئون معايشهم الدنيوية ومصالحهم العمرانية طبقًا لتعاليم الدين».

وغير بعيد أن يكون لهذه النتيجة التى انتهينا إليها صلة بأسباب الخلاف التى كانت تظهر حينًا وتختفى أحيانًا بين «نظام الملك» وبين وزير الخلافة ـ فإنه كما يبدو ـ كان يرى فيه ممثلاً للخليفة ـ من الناحية الدينية ـ ويشرف على مصالحه الخاصة والدوائر الملحقة بقصره، وليس من حقه التدخل فى الشئون العامة والمصالح السياسية.

---

(١) المقدمة ص ٢١١، ٢٢٣.

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٧ ـ ٢٣ القاهرة.

وكان لموقف بعض الخلفاء المسلمين من العلماء أو تكليفهم فى مناصب الوزارة أن توّهم بعض المستشرقين فادعى بأن الخلفاء كانوا يأبون أن يستوزروا[1] العلماء وسمّاهم أصحاب الطيالس، إلّا أن الذى يدل عليه واقع الأحداث ونصوص المشرعين أن الخلفاء كانوا ـ وهذا ينبغى أن يكون ـ يفضلون مشاهير الكتّاب وخبراء الميادين لحاجة الدولة فى تلك العصور إلى صناعة الإنشاء وفنون الحرب. أمّا العلماء ويقصد بهم فى الغالب الفقهاء والقضاة فإنهم كانوا بعيدين كل البعد عن ذلك.. ثم إن الحادث الذى استشهد به وبنى حكمه عليه فإنه على ندرته بل فرديته إنما يدل على تحرّج الخلفاء من استيزار القضاة ـ أصحاب الطيالس ـ وليس العلماء بالمعنى الشامل، لأن العلم كما نعرف ولما سيأتى من شرائط الوزارة، وجواب «المقتدر» على من أشار إليه باستيزار القاضى ـ محمد بن يوسف ـ بقوله: «خشية أن يقال ليس فى المملكة كاتب يصلح للوزارة، أو أنه زجّ العلماء فى غير اختصاصهم وانحرف بهم عن هوايتهم».[2] إن جواب الخليفة على اقتضابه ولا نستطيع إبداء الرأى فى ظروفه وعلاقته الشخصية بالقاضى، فإنه يؤيد ما ذهبنا إليه.

ولأحمد أمين تعليل يدعم وجهة نظرنا من ناحية ويكشف لنا عن بعض أسباب اختيار الخلفاء وزرائهم من الفرس، وتاريخ الوزراء يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ فى اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة... وهذه القدرة الكتابية التى كان يشترطها الخلفاء فى الوزير كانت من أكبر الأسباب فى قصر الوزارة على الفرس ـ غالبًا ـ لأن العرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية [3].

---

(١) الصابى ـ الوزراء ص ٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢.

(٣) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج١ ص ١٧٤.

وشيء آخر لم يشر إليه - أحمد أمين - فى أثناء حديثه عن ثقافة الوزراء يمكن أن نستخلص منه سببًا ثانيًا لانصراف الخلفاء عن استيزار العلماء. ذلك هو أن الوزراء بحكم مناصبهم يضطرون أن يحصلوا على ثقافة واسعة فى اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ وأحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم. أمّا العلماء فإن معرفتهم ضيّقة فى غير مادة اختصاصهم أو المسائل التى تعدّ وسيلة لها.

٣ - أقسامها وشرائطها، والتنفيذ والتفويض من أنواعها:

ولم تختص الوزارة أو تتميز عن غيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى، وكما خضعت فى ميلادها للقانون الطبيعى العام فى الحياة وهو التغيّر فكذلك كانت عندما نمت وترعرعت - فهى تقوى تارة وتضعف أخرى نتيجة للظروف التى تحوط بها، وهى تتوحد مرة فى شخص معين وتنقسم تارة فى عدة أشخاص. وحينما تحدث المعنيون عن نظم الدولة وتشريح قوانينها أطنبوا فى أقسامها، ودفعهم التقسيم إلى تفصيل شرائطها واختصاصات القائمين بها.

ويجدر بنا ونحن نحاول الاهتداء إلى نوع السلطة التى كان يتمتع وزيرنا - «نظام الملك» بها، ودرجتها أن نستعرض بإيجاز ما أورده الكاتبون فى هذا الباب. وقد قسّموها من حيث مؤهلات أصحابها إلى وزارة سيف ووزارة قلم، وبقيت تنتقل بين أرباب السيوف وأصحاب الأقلام، فتارة يليها هذا وأخرى ذاك، إلّا أنها فى أرباب القلم أكثر[1].

ومن طريف ما يشير إليه القلقشندى بهذه المناسبة من رسوم وعادات كـ«التزام الوزير بالوقوف فى جملة الأمراء القائمين فى مجلس السلطان إذا كان من أرباب السيوف، والجلوس كما يجلس أصحاب الأقلام إذا كان صاحب قلم[2]. وقد يجمع بين المؤهلين فيلقب بذى الرئاستين أو بصاحب السيف والقلم»،[3] ولهم على ذلك فى تاريخ الوزراء أمثلة وإن كانت قليلة.

---

(١) القلقشندى - صبح الأعشى ج١١ ص١٤١.
(٢) المصدر السابق ج١١ ص ١٤٩.
(٣) الماوردى ص٤.

وقد صنّفوها من حيث درجة اختصاصاتها إلى ضربين أيضا، دعوا الأولى وزارة تفويض والثانية وزارة تنفيذ. ولأن الوزير فى الأولى نائب عن الخليفة فى ولاية عامة.. وكيل عنه فى الأعمال العامة، فقد فرضوا فيه من الشرائط ما فرضوه فى الخليفة من الحرية والعدالة، والبلوغ ثم العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام، وسلامة الأعضاء والعقل والحواس [1]. وهذه هى نفسها شروط الخلافة أيضًا، إلّا أنه لخطورة هذا المنصب فى نظرهم فقد زادوا فيه بوافر الخبرة العامة بأمور الحرب والخراج، وأعفوه من شروط النسب فى قريش الذى افترضوه فى الخليفة على رأى الأكثرية.

ولا تنعقد هذه الوزارة مالم تجر بتقليد يصدر بلفظ الخليفة كأن يقول: قلدتك إلى مالا نهاية نيابة عنى، أو قد فوّضنا إليك الوزارة[2] لأنها ولاية تفتقر إلى عقد، والعقود لا تصحّ إلّا بالقول الصريح.[3]

وكما ميزوا الخلافة على وزارة التفويض بأشياء، فإنهم خصّوا وزير التفويض بأشياء منها: النظر فى المظالم، وتولى الجهاد، والمباشرة بتنفيذ الأمور بنفسه أو الاستنابة فيها، لأن شرائط الرأى والتدبير فى كل هذه الأشياء معتبرة فيه.[4]

ولما كانت اختصاصات وزارة التنفيذ محددة وليس لصاحبها حق إبداء الرأى أو تدبير أمر، لذلك لم يوجبوا فيه ما اشترطوه فى وزير التفويض لأنه وسيط بين الخليفة والرعايا والولاة، يؤدى عنه ما أمر وينفذ عنه ما ذكر ليقرّ منها ما وافق الصواب،[5] فهو معين فى تنفيذ الأمور وليس بوالٍ عليها ولا متقلد لها، فإن شورك فى الرأى كان باسم الوزارة أخصّ وإن لم يشارك فيه كان باسم

(١) الماوردى ص٤، وأبو يعلى ج٤ ص١٨، ويستبدل أبو يعلى الخراج بالسياسة، ويشترطها فى الخليفة ص٤٢٣.

(٢) أبو يعلى ص١٣.

(٣) الماوردى ص١٨.

(٤) أبو يعلى - الأحكام السلطانية ص١٤.

(٥) الماوردى ص٢٠.

الوساطة والسفارة أشبه[1]. ومن هنا لم يجد الفقهاء ضرورة إصدار تقليد لاستيزاره وإنما يكتفى بمجرد الأذن له. ومن ناحية العقيدة فقد جوزوا فيه أن يكون ذمياً[2] على أن تتوفر فيه صفات أخرى خلقية كالأمانة والصدق والنزاهة ونفسية كالذكاء وقوة الحافظة[3]، فإذا شارك فى الرأى وجب أن تكون فيه التجربة والحنكة التى تؤدى إلى صواب الرأى وصحة التدبير[4].

ومن جهة عدد الوزراء فقد أباحوا أن يكون للخليفة وزير تفويض وآخر للتنفيذ وأن يقلد وزيرى تنفيذ فى وقت واحد ومكان واحد، ولا يصحّ له مثل هذا فى وزارة التفويض لأنه «ربما تعارض فى العقد والحل والتقليد والعزل»[5] تمشيًا مع قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[6].

ومن هنا انبعثت مشكلة وقفوا عندها طويلاً وفصلوا فيها كثيراً، وهى فيما إذا عقد الخليفة لوزيرى تفويض قالوا: فإذا كانت لكل منهما فى عموم النظر فهى باطلة لما قدمنا من دليل وتعليل، وينظر لوقت تقليدهما فإن كان ذلك واحدًا بطلا معًا، وإن سبق أحدهما الآخر صحّ تقليد السابق وبطل تقليد المسبوق[7].

ولو رجعنا إلى تفاصيل ما قالوه فى هذا الصدد لعرفنا أن مردّ ذلك يعود إلى الانفراد بالرأى والتنفيذ، فحيثما يتحقق التفرد بمصائر الناس والحكم على علاقاتهم وأعمالهم كانت الشروط أكثر والمسئولية أعظم، لذا يضيف ابن طباطبا شرطًا يحتاج لتطبيقه إلى ثقافة واسعة وممارسة طويلة، فما دام الوزير وسيطًا بين الخلفاء والرعيّة فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العوام؛ ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة، والصدق رأس ماله[8].

---

(١) «ولا مقلدًا لها» الماوردى ص٢١، واليعقوبى «يشترك» ص١٥، ١٦.
(٢) أبو يعلى ص١٦، والماوردى ص٢٢.
(٣) أبو يعلى ص١٦، والماوردى ص٢٢.
(٤) نفس المصدر ص١.
(٥) نفس المصدر ص١٦، والماوردى ص٢٢.
(٦) سورة الأنبياء - من الآية ٢٢.
(٧) نفس المصدر ص١٦، والماوردى ص٢٢.
(٨) الفخرى ص١٢٥.

ويرى ابن خلدون تقسيمها إلى تنفيذية وتفويضية نتيجة الصراع بين السلطتين: الخليفية والوزيرية. وفي استبداد الثانية بالأولى أحيانًا يستدعي الأمر صاحبها إلى استتابة الخليفة إيّاه لتصحّ أحكامه من ناحية الشرع[1]. كما صحّت أحكام الخليفة بالبيعة من أهل الحل والعقد، وبذلك تكون وزارة تفويض.

هذا هو الأمر الطبيعي في إيجاد الخلق وسائر الأشياء، ثم جاء الفقهاء يحددون موقف هذه المخلوقات ويحللونها، إلّا أن الذي يسترعي الانتباه كما نعرفه عن تفويض بعض الخلفاء لوزيرهم وهم على حال أشدّ ما يكون زهوًا وقوةً وسعة نفوذ، وإنما فوّضوا الأمر لغيرهم طواعية واختيارًا لينصرفوا إلى متعهم ولذائذهم كما فعل الخلفاء العباسيون الأوائل. فليس كما يرى ابن خلدون من أسباب التقسيم بقوله: «فانقسمت الوزارة حينئذٍ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائمًا على نفسه، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما سيكون الوزير مستبداً عليه»،[2] إلّا إذا كان القصد وصفًا لبعض الأحوال وليس تعليلاً لها.

ومهما يكن من أمر فإن وزارة التنفيذ لا يصحّ أن تكون قسيمة لوزارة التفويض إذ إنها ليست وزارة بالمعنى العلمي الصحيح، وإنما هي أشبه بالوسيط بين الخليفة والرعيّة وأقرب إلى السفارة بينه وبين رجال الحكومات[3]، لذلك لم يؤرّخ الصابي لوزارة الخلفاء في عهد آل بويه إذ اعتبرهم أدنى إلى الكتّاب منهم بالوزراء.[4]

ومن ناحية التاريخ الزمني لهذا التقسيم فإننا نستطيع القول - على وجه الترجيح - إنه رأى فقهي جاء متأخرًا عن وجوده كما ذكره ابن خلدون. غير أننا لا نستطيع القول بمثل ذلك عن أي القسمين أسبق من صاحبه زمنًا، فإن أبا سلمة الخلال كان وزيرًا مفوضًا للسفّاح، ولكن شخصية الخليفة تطغى عليه

(١) الماوردي ص٢٢، وأبو يعلى ص١٥، ١٦.
(٢) المقدمة ص ١١٦.
(٣) الماوردي ص ٢٥.
(٤) تاريخ الوزراء - أبو هلال الصابي ص٣ - ميتز: الحضارة ص١٥.

حتى قضت على حياته، وكذلك الأمر فى وزراء الخلفاء الذين بعدهما إلى عهد الرشيد ونكبته بآل برمك مع أنهم كانوا وزرائه المفوضين، إلّا أننا مع كل ذلك ومما درجناه من أمثلة وشواهد يمكننا القول بأن الوزارة بدأت مرحلة تطورها الأول متأرجحة بين التنفيذ والتفويض. وكان الصراع فى تغلّب سلطان الخليفة أو الوزير واضحًا جدًا. ولم يكن الوزير يبلغ مرحلة التفويض والتفرد بالحكم حتى يُقتل وتصادر أمواله وتُسبى نساؤه ويُسجن هو والمقربون إليه، فكانت الوزارة فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول أقرب إلى التنفيذية منها إلى التفويضية مهما بلغ صاحبها من جاه وسلطان. أمّا بعد ذلك وحينما ضعف الخلفاء العباسيون صارت الوزارة تفويضية إمّا برضا واقتناع منهم بسلامة ذلك أو إكراه وعلى خلاف ما يرغبون.

وعند المقارنة بين النظم الإدارية فى القديم والحديث يطيب لبعضهم أن يجعل من منصب رئيس الوزارة اليوم نظيرًا له فى وزير التفويض بالأمس الغابر، مثلما طاب لغيرهم فجعل من رئيس الوزراء عند ملوك الفرس الساسانيين أصلاً للوزارة فى خلافة بنى العباس، على أنه وإن كانت هناك وجوه شبه بين المنصبين يمكن تلمسها إذا اجتهد الدارس فى البحث عنها ولكن بينهما من وجوه التغاير فى الشرائط والاختصاصات وطرق التعيين مالا يمكن أن يصحّ القول فيه بأن منصب وزير التفويض يكاد ينطبق على منصب رئيس الوزراء كما تعرفه الأمم الحديثة الآن[١]، فإن الأخير مرتبط فى تفويضه بأعضاء مجلس الوزراء. وهذا المجلس لا يصحّ له قرار ما لم يقرّه مجلس الأمة، وهؤلاء بدورهم خاضعون فى أحكامهم للدستور والبلاط فى آنٍ واحد، فى حين تجد وزير التفوّيض لا يتقيد بهذه كلها لأنه كما عرّفه الماوردى ـ أنه يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإخضاعها لاجتهاده، فهو نائب الخليفة فى كل شيء، وليس عليه إلّا عرض أحكامه عليه لإعلان ولائه وإخلاصه، واطلاعه على سير الأمور إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك. وله حق التولية والعزل

(١) الريس ـ النظم ص ٢١٥.

والنظر فى بيت المال والمظالم وقيادة الجيوش للجهاد حتى قيل: إن كل ما صحّ فى الإمام صحّ فى الوزير[١] .

وفوق ذلك فإن المعلومات المباشرة التى لدينا عن نفوذ وسلطان - بزرك فرمادار- رئيس الوزراء - قليلة[٢]، فى حين نجدها واضحة معينة، وإن لم تكن محددة ثابتة بالنسبة للوزير فى العصر العباسى، إذا ما اطلعنا على كتب الآداب والإحكام السلطانية التى ظهرت خلال تلك العصور حتى القرن الخامس الهجرى - كما نجد أيضًا سلطان الوزير فى العهد الإسلامى واسعًا ونفوذه أقوى مما كان عليه فى العصر الساسانى حيث يستشار رجل الدين الأكبر - الموبدان موبد - فى كل صغيرة وكبيرة فى الشئون الدينية.

٤ - تقاليد تعيين الوزير:

وكانت العادة المألوفة فى التعيين أنه عندما يقع نظر الخليفة أو السلطان على شخص واتفق معه على ذلك يسجل حينئذ عقد يوقعه كلٌّ من الطرفين حسب الشروط المتفق عليها، وتختلف صيغته باختلاف درجة المنصب وهو ما يسمى بالمرسوم أو التقليد[٣] ، وبالفارسية بالمواضعة - مواضعت.

والذى يبدو أن الوزير هو الذى يضع صيغة المرسوم ويثبت الشرائط التى يريد تحقيقها والتى جرى التفاوض بشأنها واتفق عليها [٤]، وكان مما يشترطه الوزير آنذاك ما يضمن له البقاء والسلامة بقدر المستطاع، فيطلب مثلاً النصّ على عدم إصغاء السلطان للوشاية والنميمة لئلا يتغير عليه ويعرّض نفسه للهلكة، وأن يكون تحت إشرافه ديوان الجند وديوان الوكالة وهو بمنزلة إدارة الخاصة الملكية لكى يضمن خضوع الجيش ورجال القصر له وكما يفعل رؤساء الوزراء اليوم أحيانًا، وأن يجعل له الحق فى تعيين موظفى ديوان المخابرات

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص٢١.

(٢) ؛كرستنسن ص١٠١ - ترجمة د. عزام الخشاب.

(٣) وجمعها تقاليد ويراد بها هنا صورة المرسوم الذي يعين به الوزير وما يماثله فى الدرجة. وقد أخذت عن أصلها اللغوى من قلدته أمر كذا إذا أوليته إيّاه. قال الجوهرى: وهو مأخوذ من القلادة فى العنق، يقال قلدت المرأة فتقلدت. . قال ومنه التقليد فى الدين أيضًا، ويشتمل على طرة ومتن، أمّا الطرة فعنوانها - تقليد شريف لفلان بكذا. القلقشندى - صبح الأعشى ج١١ ص١٠١.

(٤) البيهقى ص ٣٧٩.

السرية وكبار عمال البريد لتصله الأخبار من سائر الجهات ويطّلع على ما يجرى فى الولايات والأمصار.

وقد حفظت لنا المدونات التاريخية صوراً من تلك الرسوم يرجع عهدها إلى وقت مبكر يهمنا منها ما حصل بين السلاطين ووزرائهم فى عصر «نظام الملك»: فمن أمثلة ذلك المرسوم الذى عيّن بموجبه الخليفة القائم بأمر الله وزيره فخر الدولة بن جهير قال فيه: «ولما غدا منصب الوزارة موقوفًا على الابن طالما جزوا بهم نواص الخطوب رأى أمير المؤمنين تسليم مقاليدها إليك، إذ كنت أحق بها وأهلاً لها، وممن يجمع بعد الشتات شملها، فطوقك من قلائدها ما هو بأعطافك ألصق، وبتمام أوصافك أليق، ووفّاك فيها حقوق النظر، واشتراطه بحكم توحدت فى إحراز أدواتها التى لا يبلغ أحد لك منها مدى، ولا يجد طامع إلى مساجلتك يداً... إلخ[١]. وكذلك المرسوم الذى عقد بين السلطان «محمود الغزنوى» ووزيره: أحمد بن الحسن الميمندى[٢] ثم ابنه السلطان ـ مسعود[٣] ـ والوزير أحمد بن عبد الصمد[٤].

وكان «النظام» من المعجبين بهذين الوزيرين، وكانت سيرتهما قدوة له فى أعماله وأقواله ولاسيما ثانيهما «ابن عبد الصمد»، فقد اتخذ من حياته السياسية نموذجًا يقتدى به فى تدبير أمور الملك ويستشهد به فى كتابه ـ الوصايا ـ الذى وضعه فى نظام الوزارة وواجبات الوزير، خاصةً كما سنرى هذا فى موضعه عند حديثنا عن مؤلفاته.

* * *

(١) متز ـ الحضارة الاسلامية ج١ ص١٦١.

(٢) كان فى أول أمره جابيًا ثم صار رئيساً لديوان المراسلات فالمحاسبات ثم رئيسًا لديوان الجند فوزيرًا للسلطان محمود ثم لابنه مسعود إلى أن توفى سنة ٤٢٤ هـ (البيهقى ص ١١٦).

(٣) هو أبو عبد الجبار وكان رجلا ذكيا يجيد الكتابة والحساب والمعاملات فضلاً عن خبرته الحربية فقد استطاع أن ينقذ جيشًا كبيرًا ويعبر به نهر جيجون، وتدرج إلى وظائف الكتابة حتى صار وزيرًا لمسعود بعد وفاة الميمندى (العينى ج٢ ص٦٤، ٦٥، والبهيقى ص ٣٩٠)

(٤) انظر الملاحق تحت عنوان «مراسيم الدفن».

• الفصل الثالث

الوزارة كتابةً فمنصباً إدارياً

- قبيل - وأثناء - عهد الرسول ﷺ .

- وفى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين.

- ومن أبى سَلَمة إلى ابن المسلمة فى القرن الخامس الهجرى.

* أعراض ضعفها وأسبابه .

١ - الوزارة قبل الإسلام وفى عهد الرسول:

الوزارة ـ كما عرفنا ـ نظام قديم من نظم الحكم فقد ورد ذكره فى تاريخ البابلين والفراعنة واليونان والرومان، مثلما كان عند الساسانيين فى كتاب الأفستا واليهود فى العهد القديم ـ التوراة ـ، لذا قال عنها السيوطى: «إنها وظيفة قديمة كانت للملوك من قبل الإسلام بل من قبل الطوفان»[١]. وقد توصلنا آنفًا إلى أن استعمالها فى القرآن على لسان موسى منذ أربعة عشر قرنًا وفى كتاب العهد القديم قبل ذلك بكثير، مما يدلنا على قدم هذا المنصب وليس عند العرب فقط وإنما عند أمم أخرى سبقتهم زمنًا، وربما فاقتهم آنذاك مدنية وحضارة.

وقد أشارت المصادر وهى كثيرة ـ إلى وجود هذا المنصب عند العرب دون لفظه قبل الإسلام عند ملوك اليمن والشام والحيرة[٢] وأطلقوا على من يقوم بوظيفته أسماء منها: الراهن والزعيم والكافى والكامل.. تريد بذلك أنه مرتهن بالتدابير زعيم بصواب الرأى، كاف للملك مهمات الأمور، كامل الفضائل[٣].

ثم ظهر الإسلام وقد تغيرت بظهوره معالم واندثرت عوالم واستحدثت بين الدول خطوط جديدة على سطح الأرض ولكبر حدود الدولة الناشئة لم تثبت بعد، وقواعدها لم تستقر وترسخ، وأعمالها لم تتفرع وتتنوع وتتعقد أيضًا، فلا يحتاج ولى الأمر إلى أكثر من مشير إذا لزم الأمر أو مجلس شورى يلجأ إليه إذا اقتضت الحاجة وتأزم الوضع.

(١) السيوطى ـ حسن المحاضرة ج٢ ص١٤٩، ١٥٠، والمسعودى ـ التنبيه ص ٣٤٠.
(٢) المسعودى ـ التنبيه والأشراف ص ٣٢٩.
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٩.

وهكذا فعل الرسول عندما قام بأعباء الحكم بعد البعث. فلم تكن هناك دولة للعرب فى الحجاز وهو مهبط رأسه وموطن نشأته وتكوين دولته، وقد اعتمد على الكتّاب من نبهاء قومه فيما اعتمد عليه لتثبيت كتابه ونشر رسالته وتدوين تشريعاته وتبليغ زعماء القبائل والحكومات المجاورة له.

ولعلّ من دوافع الحكمة فى بعثته أميًا، بالإضافة إلى ما هو مشهور من حكم ـ لئلاّ يعتمد فى كتابة الوحى على نفسه أو على واحد من المقربين إليه فحسب فإن هذا العديد من الكتبة شهادة صادقة بصحة ما كُتب، ودقة ما أُثبت، وفى استشارتهم لمهمات الأمور ضمان لمصاير الناس حتى لا تعجز هذه الرسالة عن السير وتتعطل عن الخطو، فكان من كتّابه وزراؤه وكان وزراؤه مستشاريه ـ وكان الخلفاء الراشدون الأربعة الذين استخلفوا بعده من جملة وزرائه، فكان يقرّب إليه من أصحابه ـ أبا بكر وعمر وعلى وغيرهم ـ فيفاوضهم فى مهماته الخاصة والعامة[1] .

٢ ـ فى عهد الراشدين والأمويين:

ولمّا استخلف الراشدون محمدًا ساروا على نهجه واتخذوا من سيرته نموذجًا يسيرون بموجبه، فكان كل واحد منهم يقرّب إليه من أصحابه من يأنس إليه ويثق بنزاهته وأمانته، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى عهد كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره ـ محمد ـ وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر، ومروان بن الحكم مع عثمان [٢].

وما أن تقلد بنو أميّة زمام الحكم حتى مالوا به نحو الدنيا واتجهوا بالدولة هذه الوجهة التى يرونها إمّا نتيجة لمطامعهم أو تأثرًا بنظم الإمبراطورية الرومانية بحكم جوارهم، أو لهما معًا حتى عرف معاوية مؤسس هذه الدولة بمقصورته وشدة عنايته بالحجابة حتى عُدت أول منصب بدئ به، كما اعتبر هو

(١) المقدمة ص ٣٢.

(٢) السيوطى ـ حسن المحاضرة ص ١٤٩. عن ابن كثير فى تاريخه، وابن خلدون ـ المقدمة ص ١١٥.

أول من عنى بذلك [1]. أمّا ما يتصل بالوزارة فكان عهدهم امتدادا لخلافة الراشدين وتوسّعًا بطيئًا فى صلاحيات الوزارة كما سنذكر أسباب ذلك.. فقد أوردت المصادر العربية والفارسية جميعًا ـ قائمة بأسماء كتّابهم تحت عنوان «وزراء الدولة» الأموية، اثنى عشر شخصًا [2].. من أشهرهم عمرو بن العاص وزير معاوية، وقيل: زياد بن أبيه[3]، وروح بن زنباع وزير عبد الملك، ورجاء بن حيوة وزير هشام بن عبد الملك.. ثم عبد الحميد بن يحيى الكاتب وزير مروان[4]، إلا أنّه لم يطلق على واحد منهم لقب وزير ولا خوطب بسمة الوزارة.. إذ لم تكن لها رتبة تعرف مدة بنى أمية وصدرًا من دولة السفاح، بل كان كل من أعان الخلفاء على أمرهم يقال له فلان وزير. فلان بمعنى أنه مؤازرٌ له لا أنه متولٍ رتبة خاصة يجرى لها قوانين وتنتظم بها دواوين[5].

والذى يظهر أن الدولة الأموية قد احتفظت باسم الكاتب والمشير دون تلقيب بالوزارة طوال عهد خلفائها الأربعة عشر.. ويعلّل معظم المؤرخين لذلك بأن ملوك بنى أمية تستكبر أن تخاطب كاتبًا لها بالوزارة وتقول: الوزير مشتق من المؤازرة والخليفة أجلّ من أن يحتاج إليها[6] حتى قال السيوطى وهو يتحدث عن عمرو بن العاص كوزير لمعاوية: «وإن كان له وزيرًا فإنه أجلّ قدرًا وأعظم أمرًا من أن يجرى معه مجرى الوزراء[7]».

غير أننى أظن ـ ولا أظن فيما ظننت مجانبة للصواب ـ لذلك سببًا آخر ينبغى أن يؤخذ بنظر الاعتبار، ذلك هو ما يوحيه هذا اللفظ من معانى الجلال والقدسية من ناحية والمشاركة فى تدبير الأمور والسلطان من ناحية أخرى. فقد أطلق فى القرآن على هارون وزير موسى وأخيه وخليفته من بعده ـ كما

(1) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١١٦، ١١٨.
(2) خزندمير ـ دستور الوزارة ص ٢٠.
(3) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج١ ص١٧١ عن الطبري.
(4) السيوطي ـ حسن المحاضرة ص ١٤٩ عن ابن كثير.
(5) المصدر السابق ص ١٥٠.
(6) المسعودى ـ التنبيه والأشراف ص ٣٣٩.
(7) السيوطي ـ حسن المحاضرة ص ١٥٠.

استعمل فى الحديث لأبى بكر وعمر وزيرى الرسول، وخليفتيه بعد وفاته. وغير خافٍ على ملوك بنى أمية تاريخ هذا اللفظ ولم يضعف أو يتبدل معناه فى أذهانهم بعد، فكيف يصحّ إذن أن يطلق لقب الوزير على كاتب صغير؟ وكيف يشركون معهم فى الحكم أشخاصًا هم فى غنى عن مؤازرتهم كما يتصوّرون وفى خوف من مساهمتهم، وفى استخلافهم الملك كما يظنون؟

الوزارة تطور لنظام الكتابة:

فالوزارة بدأت بالكتابة ـ فى هذا العهد ـ التى تعطى للكاتب من قِبَل الخليفة، وتصدر بشكل توقيعات بعد تداول الرأى والوصول به إلى قرار حاسم، ثم قوى أمر الكتابة بتوسع المملكة، وتحضّر العائشين فى ظلالهما وأخذت ميزات الكاتب وفائدته وضرورته تتضح كلما كثرت الأعمال وازداد عدد العمال والولاة، وبذلك أخذ نفوذهم يقوى ومكانتهم ترتفع والحاجة إليهم تشتد حتى وجدنا سلسلة هؤلاء الكاتبين تنتهى بعبد الحميد وابن المقفع فكانا نقطة التحول من الكتابة نظامًا إلى الوزارة منصبًا.

وعلى هذا نستطيع القول ولا نظننا خاطئين بأن الوزارة تطور لنظام الكتابة فى زمن الخلافتين الراشدية والأموية.. وذلك لأن الكتابة كصناعة لسانية وقلمية وأدبية كانت حينذاك ولم تزل حتى اليوم من أعظم الوسائل لبلوغ منصب الوزارة ولم تكن الحاجة إليها ماسة حينما كان الخلفاء ورجال الحاشية يعبرون عن الغرض المقصود بأبلغ العبارات، إذ إن اللسان العربى لذلك العهد بقى على حاله ولم يفسد بالمخالطة وإنما احتيج لصاحبها من حيث الخط[1] وحفظ السرية والتشاور فى الأمور.. ولأن عبارة ابن خلدون تدل بوضوح على أن الوزارة لفظ مستعمل لهذا المعنى فى العهد الأموى فهو يقول: «ثم استفحل الملك بعد ذلك ـ أى بعد عهد معاوية واتخاذه الحجابة فظهر المشاور والمعين فى أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير، فكانت الوزارة

(١) المقدمة ص ١١٥.

أرفع رتبهم يومئذ، هذا فى سائر دولة بنى أمية فكان النظر عامًا للوزيـر»[1]. ولذا أقبل الخلفاء العباسيون على المستعربين من الفرس يستوزرونهم لتقدمهم فى هذه الصناعة لأن العرب: «كانـوا أهـل فصاحـة لسانيـة أكـثر منهـم أهل بلاغة كتابية»[2]وهم أحوج ما يكون إلى الكاتب لا إلى الخطيب ولهـذا ألّف ابن قتيبة كتابـه اللغـوى المشهـور باسـم «أدب الكـاتب» الـذى عـدّه ابـن خلدون أحد أربعة كتب فى أصول الأدب وأركانه كما ألّف الصولى كتابًا بهذا الاسم بحث فيه الكتابة والخط والقلم والقرطاس وأمثال ذلك ممّا يساعد الكتّاب على إتقان العربية.

ومن هنا اشتهر نفر من الخلفاء بوزرائهم الكاتبين واشتهر فريق من الوزراء بكتّابهم البارزين وكانت الكتابة سلمًا يرتقى بصاحبه إلى الوزارة لأنها كما يقول صاحب المثل السائر - هى الخوض فى كل فن. فإذا ساغ لكل ذى علم أن ينسب نفسه إليه فيقال: فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم فلا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة لما يفتقر إليه الكاتب من معرفة بكل علم[3].

إذا عرفنا ذلك، وعرفنا مدى اعتماد هؤلاء وأولئك على كتّابهم فى وضع صيغ الرسائل والعهود والخطابات وأمثالها خامرنا الشك فى نسبة الكثير مما وصلنا إلى أصحابه، كما نقطع جازمين بنسبة معظم ما ينشر وبخاصة السياسى منه - إلى غير ذويه وأربابه.

وإنه لمـاّ يعجبنى ويعجب كل قارئ لابن خلدون عرضه المنطقى لتطور نظام الوزارة بإسلوب علمى معلّل، وكيف بدأ نشأته ونموّه فى دولة العرب شرقًا وغربًا وقبل الإسلام وبعده. والذى يظهر من كلامه أن الوزارة بدأت حياتها - قبل الإسلام بجباية الأموال وإنفاقها، وحماية الرعيّة بالجند والحرب ولم تكن مشاركته فى الحرب ومفاوضته فيه[4]. وبمجىء الإسلام قد تغير النظر فيها إلى

(١) المقدمة ص ٢١٢.
(٢) احمد أمين - ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٤.
(٣) ابن الأثير - المثل السائر ص ٥، ٦، ٤٦ - ٤٨.
(٤) المقدمة ص ١١٥، ١١٦.

الاستعانة بالمشورة وتبادل وجهات النظر قبل البت فى الأمور وتنفيذها وفى نزول الآية ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[1] تنبيه إلى ضرورة المشاورة.

وإطلاق لفظ وزير على المشاور من قبل العرب العارفين ـ كما سبق ـ[2] تأييد لما ندعيه.. ثم صار نظر الوزير عامـًا فى أحوال التدبير والمفاوضات وسائر الحمايات والمطالبات وما يتبعها فى ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك[3].

وابن خلدون هنا لم يسلم من تناقضة فى قوله: فإنه فى الوقت الذى يدلّل على تسمية مستشارى الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين وكتابهم بالوزراء تراه يعلّل لعدم معرفة المسلمين لهذا اللقب كأنه حقيقة علمية بسذاجة الإسلام وأمية العرب حينذاك[4]. ولعلّه يقصد بهذا: عدم شيوع استعماله، كما يعنى بسذاجة الإسلام: بساطته وعدم التعقيد فى أحكامه.

وبذلك يتضح أن الوزارة قد اتخذت فى حياتها التطورية دورًا جديدًا جمعت فيه مزايا سابقة مضافًا إليها المعارضة فى الرأى والنظر فى مختلف الأمور... فهى لم تختلف فى عهد هذه الدولة على قصره عن سلّم التطور الصاعد وخطته النامية وأخذت تقوى وتتأصل رويدًا وتتسع وتتفرع تدريجًا على الرغم مما يقال بأن الخلافة قد استحالت إلى ملك عضوض وأن ملكًا هذا شأنه لا يرجى منه أن يعتمد على الشورى، وأن يلجأ ملوكه إلى المؤازرة عند الحاجة ليتحمل عنهم الوزراء أثقال الحكم وأعباءه عند الملمات ويحملون آثام الحاكمين عند المنازعات والظلامات.

وعلى الرغم مما كان يخامر ملوك هذه الدولة الذين خلفوا معاوية وورثوا عنه مظاهر الأبهة والملكية والعنجهية القبلية، مماّ لم تعرفه سيرة الرسول ولم يألفه الخلفاء الراشدون ويباعد بينهم وبين وزير فى اختصاصاته وواجباته، وعلى الخليفة نحوه من الالتزامات والحقوق مالا يتفق والغرور القومى والشخصى ولا يمكن التخلص، من آثاره السيئة.

(١) سورة آل عمران ـ من الآية ١٥٩.
(٢) المصدر المقدمة ص ١١٥، ١١٦.
(٣) المصدر السابق ص ١١٥، ١١٦.
(٤) المصدر السابق ص ١١٥، ١١٦.

قد يقال ذلك وقد يكون صحيحًا ما يقال إلى حد ما، ولكننا نرى، فضلاً عما تقدم أن اختصاصات الوزير لم تتضح بعد. والحاجة لقيام شخص معين فى مهمات الوزارة لم يعدّ ضروريًا ما لم يشعر الخلفاء بمسيس الحاجة إليه.. وفوق هذا وذاك فقد كان لكل واحد من ملوكهم أتباع وحاشية فإذا حدث أمرٌ صعب استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة فكلّ منهم يجرى مجرى وزير[1].

٣ ـ فى العهد العباسى:

ثم جاءت دولة بنى العباس راسخة شامخة وبسطت جناحيها شرقًا وغربًا حتى شملت ظلال تلك الغمامة الراكضة التى استحثها الرشيد حينما رآها عابرة أجواز الفضاء فخاطبها بقوله: «أمطرى أنّى شئت فإن خراجك سيعود إلى خزانتى. حينئذٍ كان طبيعيًا أن تزدهر الوزارة وتنمو دوحتها المورقة لأن الحاجة إلى جنيها أصبحت شديدة، فعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته فى الدولة»، وفوضت إليه مصاير الناس وموارد الخزينة بعد أن اتسعت حدودها وتضاعفت مواردها[2].

وبانتقالنا إلى هذا العهد وما رافقه من استقرار فى الملك وتوطيد لدعائمه وتوسيع فى رقعته، وتداخل فى أعماله وتعقّد فى مسائله أخذت الوزارة طابعًا ثالثًا جمعت فيه بين الخصيصتين السابقتين: التنفيذ والرأى ثم الاستقلال فيهما، وهو معنى التفويض، كما يدل عليه ظاهر النصوص.

قيل لمّا ولىّ الوزارة ـ يحيى بن خالد البرمكى، قال له الرشيد: «فوّضت إليك أمر الرعيّة وخلعت ذلك من عنقى وجعلته فى عنقك، فولّ من شئت واعزلّ من شئت، وأيّد قوله هذا بأن أعطاه قائمة وكان هذا إفراطًا كبيرًا فى ثقته بالوزارة[3]. وبذلك ارتفعت منزلته وأصبح الآمر الناهى دون منازع، وليس للخليفة عليه سوى الإشراف على شئون الدولة والاطلاع على أحوالها فهو الذى ينظّم خطط الحرب وهو الذى يخطّ مسوّدات الرسائل والعهود ويضع قواعد

(١) ابن طباطبا ـ الآداب السلطانية ص ١٢٦.
(٢) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٣٨.
(٣) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ج١٣ ص ٤٢ ـ ترجمة بدران.

التعيين والإعفاء والنقل ويشرف على موارد الخزينة من قبض وخرج. وأسند إليه النظر فى الأموال جمعها وتفريقها وفى الجيوش تنظيمها فى السلم والحرب والنظر فى القلم لصون أسرار السلطان؛ ليحفظها من الضياع والشيوع فصار اسم الوزير جامعًا لخطتى القلم والسيف، وحتى دعى جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظرته[1]. وبذلك تمهدت قواعد الوزارة وتقررت قوانينها وسمّى الوزير وزيرًا وكان يسمّى قبل ذلك كاتبًا ومشيرًا[2].

وعلى هذا يمكننا تقسيمها حسب مراحل تطورها إلى كتابة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين فوزارة تنفيذ فى الدولة الأموية ثم وزارة تفويض فى الخلافة العباسية، حيث لم يكن قد وجد هذا المنصب الأخير فى أيام السفاح وليس فى عهد المنصور ولا المهدى، وأول وزير مفوّض عرف هو جعفر البرمكى، ثم الفضل بن سهل فى عهدى الرشيد والمأمون[3].

الوزارة من أبى سلمة إلى ابن المسلمة:

وكما يجمع المؤرخون على أن الوزارة منصب قديم فإنهم يتفقون على أن أول من استعمل لفظ الوزير كمرتبة محدّدة لطبقة معينة من موظفى الدولة فى خلافة بنى العباس، وأن أول من أطلق عليه هذا اللقب: أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال[4]. ومن الطريف أن يحمل لقب وزير لأول مرة فى تاريخ الوزارة فى الإسلام رجل عربى من هَمْدان إحدى قبائل اليمن العظيمة[5]. وقد يظنه بعضهم لأول وهلة أنه من هَمذَان إحدى مدن إيران الشهيرة، أو أنه مولى فارسى[6]. وقد شاع لقبه بالوزير قبل أن يستتبّ الأمر لبنى العباس وكانت

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٦.
(٢) ابن طباطبا ـ الآداب السلطانية ص ١٣٦.
(٣) مير على ـ مختصر تأريخ العرب ص ٢٥٥.
(٤) المسعودى ـ التنبيه والأشراف ص ٣٣٩، ٣٤٠، الإعلان بالتوبيخ ص ١٢٥، ١٢٦.
(٥) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج٢ ص ١٩٧.
(٦) احمد أمين ـ ضحى الإسلام ج١ ص١٧٢.

المكاتبات ترسل إليه بعنوان: الأمير حفص بن سليمان وزير آل محمد، وبخاصة من قبل أبى مسلم الخراسانى[1].

ومن المؤسف حقاً أن تكون خاتمة حياته القتل على يد أبى مسلم قيل: بموافقة من الخليفة ـ السفاح ـ بعد أن خدم الدولة وعرّض نفسه للمخاطر فى سبيلها وكان له الفضل الكبير فى تأسيسها فقد عاش فى الكوفة زمنًا يمثل دور ضابط الاتصال بين رجال الدعوة لآل محمد ثّم فى (الحميمة) من أعمال دمشق وبين خراسان، كما جعل من الكوفة همزة الوصل بين هاتين المدينتين[2].

ولم يكن حال الوزارة فى عهد المنصور بخير منه فى عهد أخيه أبى العباس السفاح من قبل. فقد كان مستبدّا برأيه معتمدًا على كفاءته، وكان الوزراء على وجل وخوف من بطشه فلا يظهر لهم أبهة ورونق[3]. ففى عهده حدثت أول مصادرة لوزير، فإنه بعد تأكده من خيانة وزيره ـ أبى أيوب الموريانى ـ نكبه وقتله سنة ١٥٣ هـ هو وأقاربه، واستصفى أموالهم[4] بعد أن قضى على ـ أبى الجهم بن عطية الجاهلى ـ حينما عرف أنه عيّن عليه من أبى مسلم الخراسانى.

ومهما يكن من أمر العلاقة بين الخليفة والوزير سواء أكانت طردية أم عكسية قوية أم ضعيفة فإنها بلغت مرحلة من الضعف والانحلال بحيث لم يبق لهما سوى الاسم، وصار تعيين الخليفة أو الوزير وعزلهما بيد قواد الجيش من الترك والفرس، وصار المال هدفًا لكل واحد منهما حتى أصبحت الوزارة مطمع كل ثرى وإن كان جاهلاً بليدًا. ومن هنا عجز الوزراء عن النهوض بأعباء الوزارة فلم يستطيعوا التوفيق بين مطامع الخلفاء المقدسة الموروثة عن السلف وبين أطماع الحكام المستبدين، وصار الخلفاء ألعوبة كالوزراء بيد قادة السيف. فهذا الخليفة: الراضى لم يوكل أمر الوزارة إلى ابن رائق حتى يستبدّ بها دون الخليفة ويترفع عن لقب الوزير فيمنحه الخليفة لقب أمير الأمراء، فيصير هو الآمر الناهى فى كل شىء ويشير على الخليفة بأن يولّى الوزارة ـ للفضل بن جعفر بن الفرات.

(١) الجهشيارى ـ الوزراء والكتّاب ص ٤٨.
(٢) الفخرى ص ١٣٦.
(٣) الفخرى ص ١٥٦.
(٤) الفخرى ص ١٨٥.

وسرعان ما يأمر بعزله ويخلع الخليفة الراضى ويجيء بالمتقّى للخلافة ويأتى بالبريدى أبى عبد الله للوزارة، ولكن لم يمض عليه شهر حتى نهب العسكر داره وانهزم إلى ـ واسط ـ فجيء بالبريدى للمرة الثانية حتى هجاه أبو الفرج الأصفهانى بقصيدة طويلة استهلها بقوله:

يا سماء أسقطى ويا أرض ميدى   قد تولى الوزارة ابن البريد

ثم جيء بعده بعلىّ بن أبى علىّ بن مقلة فلم تمر به عدة أيام حتى خُلع خليفته ـ المتقى ـ وما أن حلّ بعده المستكفى الذى لم يعرف فى عهده سوى وزير واحد هو أبو محمد بن على السامرى، فلم تتجاوز أيامه ٤٢ يومًا حتى قُبض عليه وعيّن كتّابه يُديرون شئون دار الخلافة تحت حكم البويهيين، الذى استمر فى عهد الخلفاء المطيع والطائع والقادر إلى أن بويع الخليفة القائم سنة ٤٢٢ هـ الذى أقرّ ابن المسلمة فى وزارته.

وإذا جاز لنا أن نتصور للوزارة طرفين وان ما بينهما من صعود وهبوط فإن نقطة الأوج كانت هى أيام البرامكة فى عهد الرشيد قبل سخطه عليهم وانتقامه منهم، وكانت السفلى فى أيام ابن المسلمة حيث لقى أفظع أنواع التعذيب والتشهير وأقذع ألوان الإذلال والتنكيل على يد أبى الحارث البساسيرى الذى قام بانقلاب عسكرى ضد الخليفة القائم وحكومته والدعوة للخلافة الفاطمية بمصر والذى قضى عليهما طغرلبك مؤسس الدولة السلجوقية بدخوله بغداد عام ٤٤٧هـ، كما قضى على الدولة البويهية وأعاد إلى الخلافة العباسية مجدها الغابر، ولو شاء لقضى عليها أيضًا بدلاً من أن يستظل بظلها ويستخدمها لبقائه.

التنكيل بالوزراء:

وعلى الرغم من أن الوزارة تمثل المنصب الثانى فى الدولة بعد المسئول الأول سواءٌ أكان خليفةً أم سلطانًا أم ملكًا أم أميرًا، فإن الوزراء وبخاصة أبو سلمة لاقوا من الهوان والسجن والمصادرة وبالتالى التشهير والقتل ولاسيما فى العهد البويهى وقبيل بروز السلاجقة، لذلك رأيت من المفيد أن أعرض أمام القارئ قائمة موجزة بأسماء الوزراء الذين عانوا تلك الصنوف من المآسى خلال الحكم

العباسى إلى حين ظهور سلاطين السلاجقة الثلاثة الأوائل: طغرلبك، وألب أرسلان، وملكشاه، وباستشارة الوزير «نظام الملك» الذى نتحدث عن سيرته فى الصفحات القادمة:

١ ـ أبو سلمة الخلال: الذى قُتل على يد أبى مسلم الخرسانى بإيعاز من الخليفة السفاح.

٢ ـ أبو أيوب المورياني: نكبه المنصور وقتله واستصفى أمواله مع أقاربه.

٣ ـ البرامكة: لم يرتفع نجم وزارتهم حتى نكبهم الخليفة الرشيد.

٤ ـ الفضل بن الربيع (وزير الأمين): انتهت حياته بالتشريد بعد قتل الخليفة الأمين واستيلاء المأمون على الخلافة.

٥ ـ الفضل بن سهل (وزير المأمون): كان مصيره أفظع من سابقه، حيث قتله فى طوس سنة ٢٠٢هـ.

٦ ـ محمد بن عبد الملك بن الزيات: قبض عليه المتوكل بعد أن أثبت جدارته فى عهد الواثق ومن قبله المعتصم.

٧ ـ أبو جعفر محمد بن الفضل الجرجانى: حيث خلعه المتوكل لشيخوخته.

٨ ـ أبو صالح محمد بن داود (وزير المستعين بالله): حيث هرب خوفًا على حياته من تهديد الأتراك بقتله.

٩ ـ أبو جعفر أحمد بن إسرائيل الأنبارى: حيث وثب عليه الأتراك وضربوه واستصفوا أمواله ولم تنفع شفاعة الخليفة المعتز به، وقد ضُرب حتى مات.

١٠ ـ العباس بن الحسن: أقرّه المقتدر على وزارته بعد وفاة أخيه المكتفى فقد وثب عليه الحسين بن حمدان وجماعة من الجند وقتلوه.

١١ ـ الحسن بن الفرات: حيث اضطر المقتدر لإعادته للوزارة ثلاث مرات

انتهت بالقبض عليه وقتله سنة ٣١٢هـ على الرغم من أنه هو الذى قضى على انقلاب عبد الله بن المعتز وإعادة المقتدر إلى عرش الخلافة.

١٢ ـ عبد الرحيم بن عيسى الجراح: حيث لم تمر فترة قصيرة على وزارته حتى قُبض عليه فى عهد الخليفة الراضى.

١٣- على بن عيسى الجراح: حيث لم يستقر عليه الخليفة المقتدر، فسرعان ما سجنه وجاء بحامد بن العباس.

١٤- عبيد الله بن محمد الكلواذانى: استوزره المقتدر أيضًا، وقد وثب عليه الجند ورجموه فانقطع فى داره إلى أن مات.

١٥- الحسن بن القاسم بن عبيد الله بن وهب: حيث قبض عليه المقتدر حينما ظهر عجزه، وأبعد عن العراق أيام الراضى، وكانت خاتمة حياته القتل، فقد أرسل إليه ابن مقلة من حمل رأسه إلى دار الخلافة.

وحينما يكون خلع الخليفة وتنصيب غيره مكانه حتى لو كان من بنى العباس وتعيين الوزير وعزله وإحلال غيره محله ولو كان جاهلاً بليدًا، ويكون هذا وذاك بيد قادة الجيش، تكون حينئذٍ بداية النهاية للخلافة العباسية فى بغداد. ولئن تّم سقوطها بعد قرنين تقرِيبًا فذلك بسبب السلاجقة الأوائل الذين دعّموا الخلافة والوزارة وجدّدوا الحياة فيهما بحيث استمرت طوال هذه الفترة إلى حين هجوم هولاكو على بغداد وقضائه على آخر خليفة عباسى ـ المستعصم ـ سنة ٦٥٦هـ.

لذا نرى أن الانتعاش الوزارى بلغ ذروته فى عهد السلاجقة بفضل وزيرهم «نظام الملك». فعندما استرد الخلفاء نفوذهم الزمنى أحيوا هذا المنصب من جديد[١]، وسرت فى أوصاله روح الحياة الهانئة المستقرة وغدا الوزراء ينعمون برفعة الجاه وعلو المنزلة وحرية الرأى إلى حدٍ كبير.

* * *

(١) الفخرى ص ٢٥٤.

■ الباب الثانى ■

عصر ـ نظام الملك ـ وزير السلاجقة الأوائل

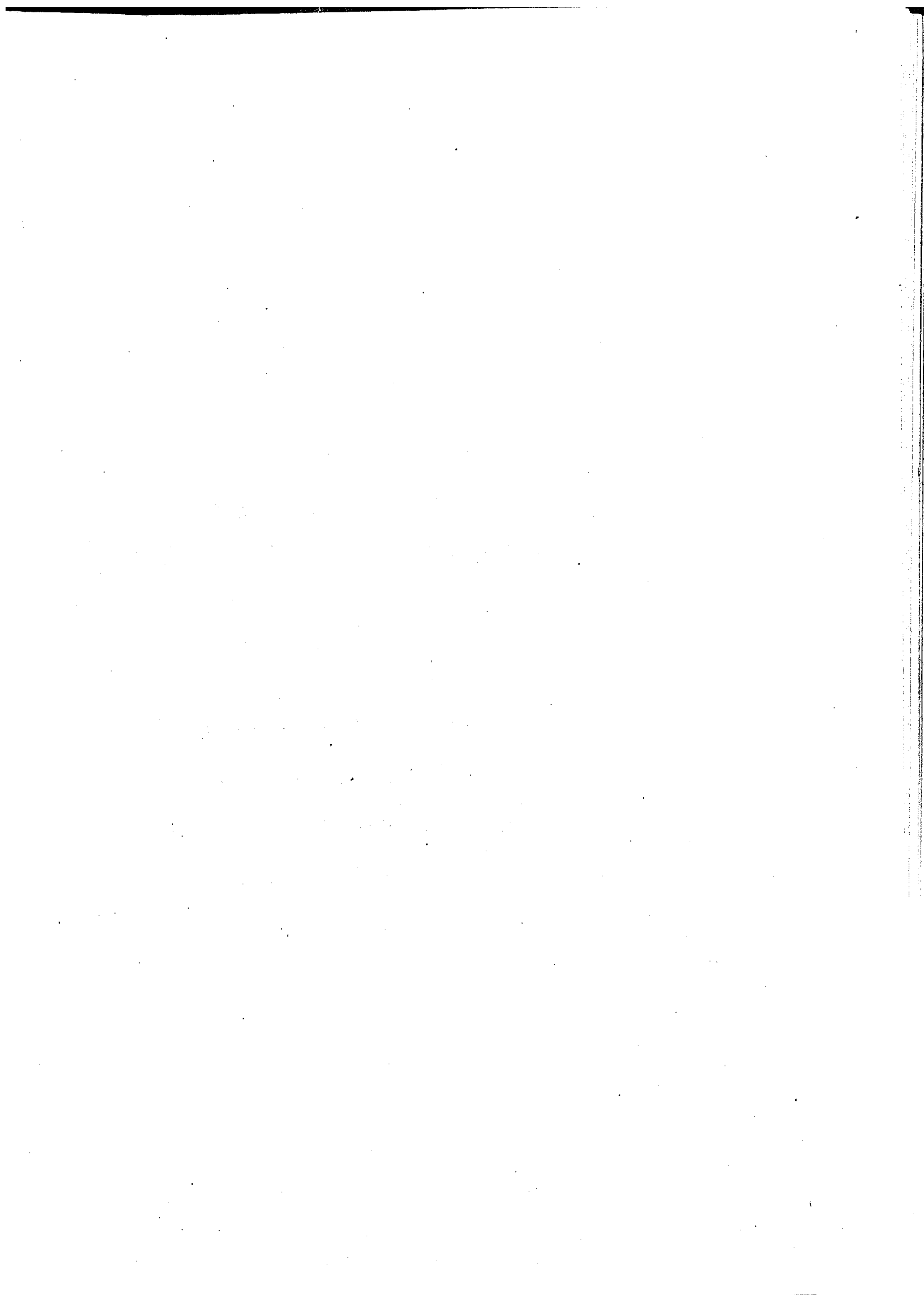
الشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى
« الحادى عشر ميلادى »

الفصول المختارة من النواحي التالية:

الفصل الأول : الناحية الدينية.

الفصل الثاني : الناحية العلمية والأدبية.

الفصل الثالث : الناحية السياسية.



تمهيـد : (الالتزام بالنواحي الاجتماعية الثلاث)

اعتاد المعنيون بالدراسات التاريخية ـ الشخصية ـ أن يمهّدوا لها بمدخل عن العصر بمختلف ظواهره، وأن يقسّموه إلى نواحيه السياسية والدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، ثم درج المعاصرون على هذه الطريقة حتى صارت سنّة ينتهجها كل باحث ويقتدى بها كل دارس، وصار الكتاب الخالى من هذا الباب، فى نظر معظم القارئين ـ إن لم يكن جميعهم ـ ناقصًا وعُدّ مؤلفه مقصّرًا.

ونحن إذ نلزم أنفسنا بهذا التقليد الذى تعارف عليه الباحثون ونتخذ من هذه الدراسة الفاحصة لشخصية الوزير «نظام الملك» بابًا لاستعراض أهمّ مناحى الحياة فى عصره الذى تعمره مختلف التيارات الفكرية وتغمره شتى الملابسات المذهبية والسياسية، نود أن نشير إلى ما فى هذه الطريقة من مجازفة لا تتفق والمنهج العلمى الحديث ولا تأتلف وأسلوب البحث الدقيق، لأن وصف ألوان التفكير فى عصر من العصور، واستعراض أحداثه، وأسلوب الحياة فيه، ثم استنتاج القواعد وإرسال الأحكام فى ضوء ذلك إنما يتوقف على دراسات مستوفاة للعصر من كل نواحيه، وهذا ما لم يستكمل لعصور تاريخنا بعد، وبخاصة القرن الخامس الهجرى.

ثم ذلك التقسيم الذى سار عليه الكاتبون للتاريخ (ونحن إذ نسير بموجبه) إلى نواحٍ ذات عناوين مختلفة، نرى من الضرورى أن ننوّه باستحالة الفصل

بينها لأنها جميعها مظاهر اجتماعية تكيّف بها ومن أجلها الإنسان، كما تكيّفت به ومن أجله حتى أصبح هو وهى مظهراً واحداً للحياة العامة آنذاك.

عوامل كثيرة تؤثر فى توجيه التاريخ وتشكيل الجماعات، ويتعاون جميعها للسيطرة على اتجاهات الناس وأحيانًا يطغى بعضها على البعض الآخر حتى يعرف بها ذلك العصر ويتطبّع بلونها، غير أنه لا يمكن لواحد منها أن يتفرد بالتأثير على سير التاريخ وتغيير مجراه، فالقادة الذين يتزعمون الانقلابات والنهضات أو الحروب، ويوجهون تاريخ أمة ما وجهة جديدة ليسوا فى الواقع إلاّ نتيجة مجموعة عوامل طبيعية واجتماعية ونفسية تضافرت لتكوين الحركة الناشئة. وحينما يتغلب عامل منها فى فترة من تاريخ أمة لسبب من الأسباب، يكون هو عنوان ذلك العصر، وبه يشتهر ويعرف، كما حدث للعامل الدينى فى العصور الوسطى، والعصر الذى نؤرّخ له، ومازال أثره باقيًا سواء باتخاذه وسيلة لمطامع سياسية، أو اعتباره غاية تهون دونها النفوس. وكما نراه اليوم من بروز العامل الاقتصادى على غيره فى الدول الرأسمالية والاشتراكية على حدٍ سواء.. وإن اختلفت فى الهدف والوسيلة والتقاليد.

ومن المؤسف حقًا أننا لا نجد حتى القرن العشرين مجتمعًا قد نَعِمَ بالتوازن والانسجام بين ظواهره كما خاب فى التوازن بين طبقاته.. فالدين كما ذكرنا آنفًا كان العامل المسيطر فى القرون الوسطى، وقد أبلى بلاءً حسنًا، وابتلى الناس فيه بلاءً سيئًا، فأريقت من أجله الدماء، وامتهنت الكرامات.. ثم اختلف موقف السياسة فسخّرت جميع مرافق الحياة لخدمتها، وتنفيذ مقاصدها، فحدّت من حريات الأفراد والجماعات واستخدمت الفكر والعلم والفن لتوسيع نفوذها وبثّ الدعاية لها، ووجّهت العقل الوجهة التى تتلاءم وأغراضها.

أمّا من ناحية تاريخها الزمنى، فحيث لا يمكننا الفصل بينها كذلك لا نستطيع الجزم بتقدم واحدة منها على غيرها، فقد كان الإنسان بعد الكهف أو الغابة يعيش فى جو من الأساطير إن شئت سمّها دينًا أو علمًا، كانت هى

التى تحدد علاقاته مع غيره، ثم تطورت هذه جميعًا، وتطور هو معها إلى أن صار وصرنا كما نرى.

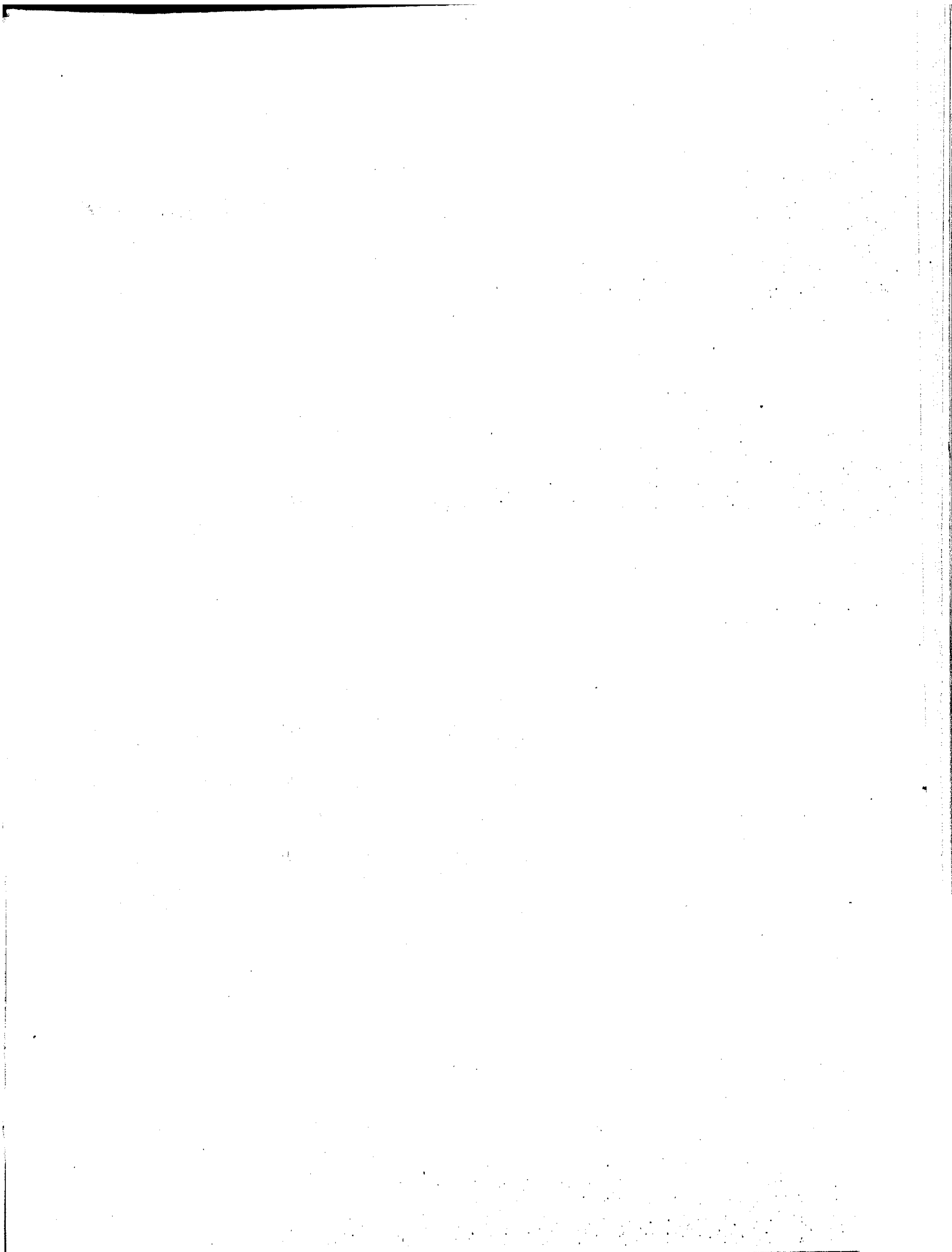
ولذلك كله، وتجنبًا للإطناب واختصاراً للموضوع، سأكتفى بدراسة ثلاث نواحٍ تاريخية هى الأكثر بروزًا على الحياة آنذاك، والأقوى أثرًا على سلوك الوزير - نظام الملك - حينذاك: وهذه الجوانب هى: الناحية الدينية، والناحية العلمية، والناحية السياسية، التى سنتناولها تباعًا فى الفصول الثلاثة بدلاً من خمسة مضافًا إليها الناحية الاجتماعية والناحية الاقتصادية اللذان حذفا اختصاراً للموضوع.

* * *

● الفصل الأول

الناحيــة الدينيــة

تمهيد .. نشوء الفرق الإسلامية.. الخلط بينها.. أهمها فى هذا العصر: المعتزلة، الحنابلة، الأشاعرة، الشيعة، الباطنية .. خطرها وانتشارها، وسائل مقاومتها، موقف السلاجقة من الحركات المذهبية.. الصوفية: مصدرها، طرقها.. الغزالى والخيّام من أعلامها، وتأثر «النظام» بها.



تنوير: (تفكير الإنسان بموجد الكون)

منذ فجر التاريخ والعقول الواعية تتطلع إلى ما وراء الكون تبحث عن موجده: من هو؟ وكيف؟ وأين هو؟ ومتى كان؟ وماذا يبغى من خليقته؟... إلى آخر ما هنالك من مجاهيل وغيبيات تهفو لاستطلاعها وتحرص على إيضاحها والكشف عن غوامضها.

ومرّت دهور عانت أثناءها من ربقة العبودية للجماد والحيوان والنبات ألوانًا شتى حتى بزغ عصر الإيمان بشىء فوق هذه جميعًا، فى ذاته وصفاته، ذلك الشىء هو الله الواحد خالق تلك الأكوان وموجد هذه الكائنات.

وكان طبيعيًا بعد هذه النقلة من دنيا المحسوسات إلى عالم المعنويات أن يمر العقل بمرحلة أخرى لتصوّر ذات الله وتخيّل كنهه وحقيقته، وهل هو واحد أو أكثر، فكانت إثنينيّة المجوسية على يد زرادشت، وثلاثية المسيحية على يد حواريى عيسى.. إلى أن ظهر محمد ﷺ فتمثّلها واحدة لا تقبل التجزئة ولا المشاركة.. وغالى الموحدون بعد ذلك حتى توهموا الخالق والمخلوق واحدًا، وأنه قد حلّ فيهم فصاروا شيئًا واحدًا، كما عرفنا هذا عند فريق من الصوفية وفى طليعتهم ـ الحسين بن منصور الحلاّج ـ الذى نادى بوحدة الوجود، وادعى بحلول الذات القدسية فيه لفنائه فيها، لأن الله واحد وهو كل شىء وفى كل

شيء فالذات الإلهية فى الإسلام واحدة لا تقر التعدد كما تصوّرته المجوسية وتخيّلته المسيحية.

ولم تكن فكرة التوحيد هذه واضحة فى حقيقتها بيّنة فى جميع جوانبها، وإنما كان يحيطها الغموض والإبهام فلابد لتلمسها وإدراكها من فهم مجموعة الصفات المثلى الدالة عليها، وكما كان لفكرة التوحيد أثر كبير فى تطاحن الطوائف الإسلامية وانقسامها إلى مذاهب وفرق متعددة.. فقد صار الغموض أيضًا من البواعث الأساسية للتصوف والتغنى فى ابتكار طرائقه.

ولما كان التوحيد من أول العقائد فى الإسلام فليس فيه إله للخير وآخر للشر كما عند المجوس، وليس فيه إله للجمال وثان للرياح وثالث لغيرهما كما عند اليونان، وليس هو ثالث ثلاثة كما عبّرت عنه المسيحية وإنما هو واحد أحد، فرد صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.. لذلك سرح الفكر المسلم باحثًا عن صفاته حيث لم يعدّ له مجال البحث فى ذاته. وحينما انتهى الإسلام إلى هذه الفكرة فى الله الواحد ولم يبق مجال للجدل والنقاش فى ذاته وشركائه، فقد تحوّل البحث إلى صفاته كمًّا ونوعًا وتجسيمًا وتجريدًا.

ومهما يكن من أمر فإن الدين على اختلاف رسله ومذاهبه شعار ذلك العصر وأن فروضه شعيرة الناس فى كل مصر، وشاغلهم الذى يلهجون به فى كل وقت سواءً أكان إسلامًا أو يهوديةً أو مسيحيةً أو غيرها. فالقرآن والإنجيل والتوراة فى البيت والجامع والكنيسة، أول ما يتلقنه الطفل من تعاليم دينه. فإذا ما شبّ وترعرع كان ثانى ما يتعلم علومًا تنمو وتتسع باتساع فكره، ولكنها تخدم عقيدته وتقوى إيمانه.

وكان التسامح الدينى والتفاخر به من سمات هذا العصر الذى عاشه «النظام»، أمّا من الناحية الأولى فإن حرية العقيدة كانت ذات مظهرين غريبين: فهى بالنسبة إلى أهل الذمة حرية يتمتع بها هؤلاء إلى حد كبير، وهى بالنسبة إلى المسلمين أنفسهم مقيّدة يضيّق بها على الطوائف الأخرى مادامت تسبّب

اضطرابًا، أو يخشى منها على مركز الخلافة.. لذلك عانى الشيعة الباطنية والمعتزلة ومخالفيهم أصناف الإيذاء من القائمين بالحكم، ولقى الناس من هؤلاء ألوان الضرّ عندما أتيحت لهم السيادة وتسلموا السلطان.. وأمّا من الناحية الثانية فقد كان التعصب للمذهب على أشدّه يوقد فى النفوس الضغينة ويؤجّج الحقد والكراهية فيتنكر الأخ لأخيه والصديق لصديقه. وكان بعض زعماء الدين لا يقلون عن الناس حماسًا لمعتقدهم، ودعوة له، ودفاعًا عنه وتفاخرًا به. فقد سمع شيخ الإسلام/ الحافظ الكبير أبو إسماعيل عبد الله.. الأنصارى الهروى ينشد من على منبره:

أنا حنبلى ما حييت وإن أمت — فوصيتى للناس أن يتحنبلوا[١]

وقد كان القاضى «أبو يوسف» ممن يفتخر بالاعتزال، وفيه توسّع بالقدح فى العلماء الذين يخالفونه، وإذا قصد باب ـ النظام ـ يقول لخدمه: «استأذنوا لأبى يوسف القزوينى المعتزلى»[٢].

ومع تحمس العلماء لمذاهبهم ـ كما رأينا ـ فقد شهدنا منهم من ينتقل من مذهب لآخر وسواء أكان للسياسة أو المعرفة أو لمصالح الدنيا أثرها فى ذلك فإنه مما تسبّب فى بلبلة أذهان العامة وزعزعة فى إيمانهم، فإن أبا القاسم على ابن الحسين البغدادى الشافعى المتوفى سنة ٤٥٢هـ كاد يذهب إلى الاعتزال ثم رجع عنه وأشهد المؤتمن الساجى وغيره عليه[٣]. وإنّ أبا المظفر منصور بن محمد الحنفى ثم الشافعى المتوفى سنة ٤٨٩هـ ترك طريقته التى ناظر عليها ثلاثين سنة وتحوّل شافعيًا عام ٤٦٨هـ فاضطرب أهل مرو وتشوّش العوام[٤].

(١) الذهبى - سير أعلام النبلاء - مجلد ١١، ورقة ٥٢٦.
(٢) الذهبى - تاريخ الإسلام، ورقة ٧٤.
(٣) الذهبى ـ سير أعلام النبلاء ـ مجلد ١٢، ورقة ٢٦، ٤٣.
(٤) المصدر السابق.

ومما يميل بنا إلى أن أقوى الدوافع كان سياسيًا مانراه من انتقال أصحاب المذاهب إلى المذهب الشافعى واستقبال رجال الحكم وإكرامهم لهم[1].

وكما كان الصراع بين تلك المعتقدات وما تفرع عنها متواصلاً خلال القرون الأربعة فقد اشتدت وطأته فى القرن الخامس وحمى وطيسه فى الداخل حتى شمل ثلاثة «ميادين»: هى المدرسة والمسجد والديوان عدا الغزو الخارجى. وكانت السياسة فى الغالب هى الكبريت الذى يوقد شعلة الفتن والاضطرابات فى الميدانين الأوليين حتى يمتد لهيبها فيشمل السوق والشارع ويحرق الأخضر واليابس.

وكان للمتزمتين فى الدين من رؤساء الهيئة السياسية وشيوخ المذاهب آثار أخرى لا تقل فظاعة فى حياة الناس آنذاك فقد كانت الفتن الطائفية والدينية لاتخمد ولا تهدأ، فالمعارك بين السنّة والشيعة لا تنقطع حتى تبدأ بين الحنابلة والأشاعرة من أبناء السنّة أنفسهم ثم بين العامة من المسلمين واليهود تارة والنصارى تارة أخرى. وبذلك تراق الدماء وتكثر السرقات وتزداد الحرائق فى الدور والأسواق ويعمّ الخراب ويشتدّ البلاء وينتشر الوباء والغلاء[2].

وكان إذا اشتدّت الفتنة ووقعت الكارثة وأريقت الدماء، رفعت المصاحف وغلّقت أبواب الجوامع، وسار العامة فى مظاهرة إلى دار الخليفة للاستفسار ورفع الشكوى للخليفة وقد يكون لبعض رجال الطبقة الحاكمة يد فى إثارتها، كما لبعضهم الآخر موقف مشجّع فى الإغضاء عنها..

لذلك رأينا لزامًا علينا أن نعرض لأهم المذاهب التى شغلت أذهان القوم وطغت على عواطفهم وحددت علاقاتهم حبًا وبغضًا، سلمًا وحربًا. وأثّرت على حياة «النظام» وكشفت عن جانب من سياسته وتفكيره.

---

(١) الذهبى - السير ، مجلد ١٢، ورقة ٢٦.

(٢) المنتظم - حوادث سنين ص ٤٠٣، ٤٠٨، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨٢. وانظر العينى - عقد الجمان ص ٣١٢، ٣١٧، ٣٣٨، ٣٤٨، ٣٧٤ - حوادث سنين ص ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٣.

وليس من حقنا ونحن نستعرض تلك النزعات بوصفنا مؤرخين، أن نميل إلى واحدة منها فنقول هذه حق أو تلك باطلة، وإنما نرى من الضرورة التحدث عنها بمقدار ما لها من مساس فى حياة الجماهير وأثر فى النظم الاجتماعية العامة لنتبّين مدى تأثر المجتمع وانسياقه نحوها أو نلمس العوامل التى تعاونت على نشوئها وانتشارها.. فإن التاريخ لا يتخلص من الزيف ما لم يتحرّر المؤرّخ من بواعث الرغبة والرهبة وأسباب الأمل والألم ويتجرّد من دوافع التحامل والمجاملة.

والذى نستنتجه من كتب التاريخ أن الحنبلية والأشعرية من مذاهب أهل السنّة، والإمامية والإسماعيلية من مذاهب الشيعة، والاعتزال والتصوّف من المذاهب الشائعة عند الجميع هى النزعات التى كانت تذكّى الحماس فى النفوس وتطاح من أجلها الرؤوس، وأن الباطنية من الإسماعيلية هى النزعة التى كانت ترهبها وتخشاها حكومة ذلك العصر من بين النزعات السائدة آنذاك، إذ فى شيوعها قضاء على الدولة السلجوقية، وبالتالى على الخلافة العباسية، كما سيتضح لنا من خلال عرضنا العاجل.

* * *

نشوء الفرق الإسلامية :

وليست هذه الفرق وليدة القرن الرابع أو الخامس الهجرى ليصح لنا القول: بفارسيتها أو يونانيتها وليسوغ لنا الزعم بسياستها، فمنذ عهد الخلفاء الراشدين بدأت وجهات نظر أهل الرأى تتجلّى وأصبحت آراؤهم فى السياسة والدين تتكشف وتتضح، وبدأت أفكارهم تظهر مدعمة بالحجة ومنسجمة مع المنطق والدين، وإذا ما شك فى الرأى واعتبر أنه خروج على أصول العقيدة اجتهد العقل فى إيجاد تخريج له بحيث يتفق وقواعدها من ناحية، وينسجم وتقاليد المجتمع من ناحية أخرى.

منذ ذلك العهد ظهرت أول طائفة فى الإسلام جمعت فى خلافها بين الدين والسياسة، وكان دافعها لهذا الخلاف دينيًا قبل أن يكون سياسيًا، ولم تكن استماتتهم فى نشأة بدعتهم لنزعة مُلك ولا رياسة[1]، تلك هى فرقة الخوارج التى انبعثت عن معركة - صفين - وبعد نتيجة التحكيم بين على ومعاوية وتغلّب عمر بن العاص على أبى موسى الأشعرى بدهائه وخديعته. وكانت تقواهم فى تكفير مرتكب الكبيرة وحكمهم فى مسألة الإيمان خير دليل على الجمع بين السياسة والدين بل أقوى برهان على حل مشكلات السياسة فى ضوء أحكام الدين، وأصبح شعار- الدين والدولة توأمًا- مقبولاً لدى الجماهير فيما بعد.

وفى الوقت الذى خرج أولئك ظل فريق يشايع عليًا، ويناصر آله وذراريه، وكانوا كلما ازدادت جفوة الحاكمين لآل على ازداد هؤلاء بحكم الطبيعة وقاعدة - الحرص على ما منع - ميلاً وعنادًا واشتدّ عنادهم حتى أمسى حربًا وجهادًا.

ثم ظهرت بعد ذلك بقليل فرقة المعتزلة وكان أقرب تفاسير هذا اللفظ - كما نرى - إلى الصواب أنها جماعة من أنصار على آثروا البُعْد عن السياسة والانصراف إلى العلم والعبادة[2] حينما فوجئوا بتنازل الحسن بن على لمعاوية ابن أبى سفيان عن الخلافة.. وكان من أول تلك الجماعة عبد الله والحسن ابنا محمد بن الحنفية.. ثم جاءت مناقشة الحسن البصرى لمسألة الإيمان عند

(١) ابن خلدون - المقدمة ص ١٤٢.

(٢) هامش التبيين لابن عساكر أبو الحسن الطرائقى - رد أهل الأهواء والبدع.

الخوارج واعتقاده بأنه الكلمة والقصد دون العمل لدليل آخر على أن الخلافات المذهبية بدأت دينية فى وقت مبكر ثم تطور بعضها إلى دعم نزعات سياسية.

وهاتان الفرقتان اللتان يمكن أن يقال عنهما: إنهما نشأتا تشوبهما دوافع الحكم.. أمّا بقية الفرق فإنها بمثابة ردود الأفعال لمذهبى التشيع والخوارج: فالمرجئة لها وجهة نظر جديدة تخالف الخوارج فى صميم مذهبهم، ثم تطورت وتغيّرت ودخلتها مبادئ لم تكن فيها منذ نشأتها.. والقدرية دفاع عن شرعية التكاليف ونفى لكون القدر سابقًا للاختيار فى الأفعال قبال الجبرية واشتهر بذلك معبد بن خالد الجهنى، كما اشتهر بهذا جهم بن صفوان.

ولمّا أمعن المعتزلة فى الاعتماد على العقل ظهرت فرقة «الحشوية» المجسّمة والمشبّهة معتمدة على النقل، واحتدم الخلاف فى ذات الله وصفاته بين إفراط فى نفيها، وتفريط فى إثباتها حتى قال جهم: «إن الله لا يوصف بما يوصف به العباد، وأضاف إلى ذلك نفى الخلود ونفى الرؤية، وأذاع القول بخلق القرآن، دون تفرقة بين وصف الخالق والمخلوق فإن علم الله حضورى، وعلم الناس حصولى وكذلك فى باقى الصفات»[1].

واختلف المعتزلة أنفسهم فى مسائل: فخرج واصل بن عطاء على أستاذه الحسن البصرى فى عقوبة مرتكب الكبيرة إذا كان مؤمنًا فردّ مخالفًا أستاذه: فى منزلة بين منزلتين: الإيمان والكفر فصاروا فرقًا، كما اختلف المجسّمة فى مثلها فصاروا طوائف وشيعًا... وكان من الطبيعى أن يجيىء أبو الحسن الأشعرى، وسطًا بين طرفين ووسيطًا للتسوية بين خصمين عنيدين، وحكَمًا عدلاً بين الفريقين المتطرفين ففصّل مسألة الخلق والإيمان تفصيلاً صار منه مذهب جديد لا يعترف به المعتزلة ولا يرضى به الحشوية ولا الحنابلة، ولاعتدال تخريجاته فى مسائل الخلاف لقيت قبولاً لم يشهده الاعتزال حتى فى عصر المأمون فقد انضم إليه جميع المالكية وثلاثة أرباع الشوافع وثلث الحنفية وقليل من الحنابلة[2].

ولسنا نختلف مع الزاعمين بأن هذه المسألة - على اختلاف آراء أصحاب الطوائف فيها - قد طبّقت على أشخاص الخلفاء وغيرهم من الحكام فرفضت

---

(١) العواصم فى القواصم.

(٢) المقدسى - مقدمة التبيين ص ١٦.

بعضهم وارتضت بعضهم، وحاربت بعضًا آخر فكانت بذلك مثار ظن الباحثين أنها مسألة سياسية، وأن معتنقيها فرق سياسية فصدرت من وراء ابتداعها ونقاشها لهذه المسائل أغراضًا فى الحكم.

ولعل فى اعتناق بعض الخلفاء لهذه المذاهب عند ظهورها ما يبدد الشك فى اتجاهها السياسى وتعصبهم للمخالفين وإن كانوا موالين لهم، ما يدل على أنه ليس من دافع لذلك غير الدين، فالخوارج كما نعلم قوم غضبوا على التحكيم فى كتاب الله، حتى صار شعارهم «لا حكم إلاّ لله»، وغضبوا على - علىّ - وكفّروه وقاتلوه حتى قتلوه لأنه رضى بالتحكيم، وحاربوا خلفاء بنى أمية ببسالة وتضحية متواصلة حتى أوشكوا أن يقضوا عليهم، وإلى أن أطلق عليهم بعض المؤلفين اسم «الشراة» أي الذين باعوا أنفسهم لله[1]، من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[2].

وإن نظريتهم فى الخلافة على طرافتها ومرونتها فى انتخاب الخليفة دون تمييز بين قرشى وحبشى، إلاّ أنها انتهت بشرط الخضوع إلى أمر الله خضوعًا تامًا وإلاّ وجب عزله[3].

وليس أصدق عليهم من قول - عمر بن عبد العزيز - لبعضهم: «إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا لطلب دنيا أو متاع.. ولكنكم أردتم الآخرة وأخطأتم سبيلها».

وأمّا الشيعة فكانت نظرتهم للخلافة التى دعوها باسم - الإمامة - دينية خالصة - ثيوقراطية - حتى قالوا: بأنها من المصالح العامة التى تفوّض فى بدايتها إلى نظر الأمة، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفالها بل يجب عليه تعيين الإمام[4]، فكأنما الإمامة عندهم جزء من النبوة.

ولم ينفرد الشيعة بتشريع الإمامة كأنها واحدة من مسائل الفقه وإنما نجد الماوردى من الشافعية يقول: «إن الإمامة أصل يستقر عليه قواعد الملّة وتنتظم

(١) احمد أمين - فجر الإسلام ص ٢٥٧.
(٢) سورة البقرة - من الآية ٢٠٧.
(٣) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٢٥٩.
(٤) ابن خلدون - المقدمة.

بـه مصالـح الأمـة ثم إنها موضوعـة لخلافـة النبـوة فى حراسـة الديـن وسياســة الدنيـا»[1].

وأمّا المرجئة ثالثة هذه الفرق فإنها بمثابة رد الفعل لسابقتيها من حيث تكفيرهما للخلفاء والخروج عليهم بالسيف علانيةً أو سرًا.. لذلك كانت سلبية. وربما التقت بالخوارج من حيث إرجاء الحكم على أحد المسلمين إلى الله وجده لأنه يعلم السرّ وما تخفى الصدور.. وفى نص ابن عساكر ما يدلنا على ذلك[2]، لاعتقادهم بتأجيل العمل وعدم اشتراطه كجزء من الإيمان، وبقولهم هذا فقد بعدوا عن الحروب، واكتفوا ببحث مسألة الكفر والإيمان لأنها نقطة الخلاف فكان رأيهم فيها بكفاية الاعتقاد بالقلب، سواء أدى الفرائض أم لا... وسواء أعلن الإسلام أو الكفر بلسانه أم لا، كما يدلنا على ذلك نص ابن حزم[3].

وعلى هذا فقد بدأت هذه الفرق نزعاتها دينية فى حقيقتها وانتهت كما بدأت دينية ثمّ سياسية حين انضمّت لها حكومات وصارت لها قوانين، ولهم فيها آثار وآراء وأحكام.

وربما كان فى نقطة النزاع، وهى مسألة «الإيمان» ما يرشدنا إلى أن الخلاف فيها أكثر مما كان فى الخلافة نفسها وأنها كانت عنصرًا أساسيًا فى تفكيرهم وجدلهم لا يقل عنها. وربما كان من خير الأمثلة على ذلك الحركة الإسماعيلية فإنها كما نظن لم تكن فى بداية تكوينها ذات أهداف سياسية ثابتة، وغاية اقتصادية مقررة، وإنما اتضحت هذه كلها بعد نشوء الحركة وتطورها، وبعد نمو الفكرة ونضوجها، وبعد ظروف وملابسات أملت بذلك على زعمائها وقادتها. وهكذا نشأ فى معظم الحركات الثورية سخط على الوضع الراهن فغضب وثورة عاتية عليه، فإذا خمدت بقى وميضها يتقد خلال الرماد إلى أن تتهيأ له الظروف فيشتعل مرة أخرى.

(١) الأحكام السلطانية ص٢ ـ ط مصر ،سنة ١٣٢٧هـ.

(٢) أحمد أمين – فجر الإسلام ص ٢٧٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٤.

ومن الخير لمثل هذه الحركات ألّا تنجح فى بدايتها وألّا تجد الطريق معبّدًا ممهدًا أمامها فإنها تتخذ - كما أرى ـ من نشأتها عوامل لتعويضها ومن العقبات تجارب تستفيد منها. فدعوى «دى ساسى»، و«دوزى»، و«خويه»: «أن الإسماعيلية حركة سياسية دينية نظّمها عبد الله بن ميمون القداح لاتبعد عن الصواب مادام الدين جزءًا منها»، ولو قُدّم الدين على السياسة فى تعبيره لكان أقرب إلى الصواب كما نرجح، لأن الفكرة الإسماعيلية كغيرها من المذاهب قد امتد بها الزمن، ومازالت حيّة ترزق فى عالمنا الحديث، أسهم فى تكوينها وتبديلها رجال كثيرون، فلا يصح الحكم على آخرها بما بدأت فيه حياتها، ولا يصدق القول فى أصلها على ما تفرع منها.

ولم يطب لنلّينو[1] أن يحيد عن زمرة المستشرقين القائلين بدوافع السياسة قبل الدين فزعم أن لكل حزب سياسى عند المسلمين مذهبًا دينيًّـا أيضًا لعدم تمييز الدنيا والدين فى أمور الحكومة، ولكننا حين نستذكر المسائل الدينية التى دعت للاختلاف ونشأة الفرق ندرك مدى الخطأ فى كلّية «نلّينو» الشاملة لجميع النزعات، وإن كانت أكثرها اعتدالاً وقبولاً.

الخلط عند المؤرخين:

والذى أودّ أن أختم به الحديث ـ وأنا أحاول هذه الاستقصاءة السريعة ـ تصحيح خطأ سار عليه المؤرخون طوال القرون الفائتة. ذلك هو أن الشيعة هم من شايع عليًا دون نظر لمن خرج على مبادئه، وأهدافه.. فالشيعة ـ كما نعلم- فرق كثيرة وطوائف عديدة، ومنهم من غالى فى على بن أبى طالب وادعى ألوهيته، ومنهم من اعتدل فى ولائه وتوسط فى حبه، وأدرك مقاصده وفهم حقيقته وشخصيته وأغراضه وسار على هديه ومنهاجه. ومن أشهر هؤلاء الإمامية ـ الاثنا عشرية ـ والزيدية.

ونحن إذ نقرأ ما كتبه المؤرخون عن طوائف الشيعة من الإسماعيلية

(١) تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٢.

والقرامطة والباطنية لنحس بالخلط بينها من ناحية ونشعر بحلقات مفقودة فى هذا الموضوع الطويل الأمد المترامى المكان من ناحية أخرى، فقد نشأت تلك الفرق بعد وفاة الرسول، وشملت الحجاز والعراق واليمن ونجد والبحرين وإيران وشمال أفريقيا. . . فهل يا ترى أنها فرق مختلفة أو أنها امتداد لفكرة الإسماعيلية. . وهل الفاطميون بمصر من الشيعة الباطنية أم لا . . . . ؟.

إن استقراءنا لتاريخ الدعوات الإسلامية وغيرها يدلنا على تطورها بمرور الأزمان بحيث لو رجعنا إلى مبادئها وجدنا البون شاسعًا بين بدايتها وما انتهت إليه، وقد يكون الفرق كبيرًا حتى ليخيل إلينا أنها دعوة جديدة. . وهى فى الواقع جديدة بما وصلت إليه وإن كانت العلائق بينها كثيرة والأسس متوافقة.

ومن هنا نرى - النظام - يربط بين المزدكية قبل الإسلام والباطنية والرافضة بعده. ونرى من العلماء من يخلط بين المجوسية والإسماعيلية، والقرامطة والخوارج، وبين هؤلاء والشيعة. واختلط الحديث عن كل فرقة وصار واحدًا، ومنهم من يعرض أحداث القرامطة ونقلهم للحجر الأسود إلى الكوفة مثلاً وتعرضهم للحُجّاج، وكذلك معارك الحشاشين ودسائسهم، كل ذلك تحت عنوان فضائح الباطنية.

فهذا ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ يقول: «والخرمية أصحاب بابك وهم فرقة من فرق المزدكية وهم أيضًا شرّ مذهب الإسماعيلية ومن كان على قول القرامطة وبنى عبيد وعنصرهم»[(١)].

وهذا أبو منصور البغدادى يقول: «وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ولم يجسروا على إظهاره خوفًا من سيوف المسلمين». . وقال أيضًا: «وقد اختلف المتكلمون فى بيان أغراض الباطنية فذهب أكثرهم إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوسية بالتأويلات التى يتأولونها فى القرآن والسنّة»[(٢)].

---

(١) الخرّم لفظ فارسى بمعنى المرح الإباحى.

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٧١، ١٧٢.

وهذا عبد القاهر يقول: «والذى يصح عندى أنهم دهرية زنادقة يقولـون بقِـدَم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليـه الطبع»[1].

وجاء ابن الأثير بعد ذلك وأورد من النصوص التاريخيـة مـا يـدل علـى عـدم التفريق بين القرمطى والعلوى[2] كما يدل على أنهم يكفّرون بقيـة طوائـف الشيعة.

وبهذه الأقاويل لمشاهير كتّاب الملل والنحل والتاريخ ما يدلنا على مدى الخلط بين تلك الطوائف من جهة والتحامل على الشيعة الإمامية باسم الباطنية من جهة أخرى. ولو كان القرامطة والفاطميون على مذهب واحد وكانوا من الباطنية وعلى وفاق لما غزوا مصر مرتين بعد فترة وجيزة من الفتح الفاطمى وذلك فى عامى ٩٧٠، ٩٧٤م.

وهكذا استمر هذا الخلط أو التعميم بين تلك الفرق والأحكام عليها أولها، متناسين خصائص التطور التاريخى لكل فكرة مثلما هى لكل مولود حى.. وكما انتهوا بتراثنا الحضارى إلى أصل ساسانى أو يونانى فإنهم وصلوا بفروع التفكير المذهبى ـ الدينى ـ على اختلاف ألوانه إلى منبع فارسى: فالقرامطة والحشاشون والباطنية من الإسماعيلية، وهؤلاء من الشيعة، والشيعة والروافض ينتميان بنسب إلى المزدكية والمانوية والمجوسية.. ويصبح الخلط التاريخى ليـس فى النحل الإسلامية فحسب وإنما فى الملل الفارسية أيضًا. ولذا نرى ـ كمثل على ما نظنه، بأن الإسماعيليه والقرامطة والباطنية إنما هـى مذاهـب ثلاثـة لكـلٍّ منها موطنه وزمنه ودوافعه وأهدافه ومبادئه وأغراضه. أمّا المقاصد المشتـركة والتعاليم المتشابهة فإنها لا توجب وحدتها.. فالإسلام، وإن كان لا يخلو من تشريعات مقدسة سابقة عليه، فإنه يعتبر دينًا جديدًا بما تضمنه من توسط بين المادية والروحية الذى كان نتيجة للتقدم العقلى والوجدانى الذى

(١) المصدر السابق ص ١٧٧.

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٥٤ ـ ٧٤.

أعقب اليهودية والمسيحية، فليس بين هذه المذاهب إلاّ ما نلمسه من علائق ومتشابهات كما بين سائر المعتقدات.. وليست الباطنية امتدادًا للإسماعيلية أو القرمطة، وإن اتفقت هذه على هدم الديانات، فإن الديانات السماوية الثلاث مع اختلافها تعاونت على مناوأة الشرك وعبادة الأوثان. فإذا لوحظت الفروق فى التعاليم والطقوس ودرجات الدعاية فوق ذلك ـ كان فى ذلك ما يدلنا على أنها استفادت من بعضها وليست هى هى..

كل التعميمات تدفعنا للدعوة إلى وضع الحدود العلمية، والتعاريف الدقيقة والتحدث عن كل واحدة من تلك المسميات بخصوصها بحيث تتميز لدى الباحث كما تتضح عند الدارس. ومع أن الحديث عن كل واحد من تلك النحل والمذاهب وهى كثيرة لا تستوفيه رسالة كهذه فقد آثرت أن أعرض ما يخص موضوعنا بإيجاز فى الصفحات التالية.

وكان فى مقدمة المذاهب التى عنيت بالبحث فى الله والإنسان وعلاقتهما، وظلت آثارها عالقة فى النفوس شاغلة للعقول حتى القرن الخامس الهجرى والتى سنوجز الحديث عنها: «المعتزلة والحنابلة والأشعرية والشيعة والباطنية ثم الصوفية»، لما لها من أثر فعّال فى عصر «النظام» وعلى حياته وتكوين شخصيته فلا نظن أحدًا من دارسى العقائد ممن يجهل ـ أبا الحسن الأشعرى ـ وكيف خرج على الحنابلة والمعتزلة بعد أن كان حنبليًا فى الفروع معتزليًا فى الأصول، وكان ـ نظام الملك ـ على مذهبه فى الأصول، شافعيًا فى الفروع، وكيف ناهض الشيعة الباطنية على اختلاف نحلهم، وقرّب إليه الكثير من المتصوفة على تباين أهوائهم واختلاف منازلهم وطرائقهم.

١ - المعتزلة:

وهم قوم صاحبوا العقل وناصبوا الجمود والنقل.. والاعتزال إيمانٌ بالعقل وقدرته على إدراك بواطن الأشياء قبال الآخذين بظواهرها.. ولأول مرة فى التاريخ الإسلامى للعلم نسمع عن تلميذ يقف أمام أستاذه يحاوره فى مسألة

المؤمن مرتكب الكبيرة، ثم يعتزله ويأتى برأى جديد يخالف فيه سائر الفرق الإسلامية. وهو أنه فى منزلة بين المنزلتين: الكفر والإيمان.

ولعلّ من المفيد أن نشير إلى خلاصة ما توصل إليه هؤلاء من مسائل كانت مثار الجدل والخصام حينذاك، وقالوا فى مرتكب الكبيرة كالزنا والخمر وهو مؤمن: إنه فى منزلة بين المنزلتين، يعنون بذلك إنه ليس بمؤمن ولا كافر، وإن القرآن مخلوق محدث وليس بقديم، وإن إعجازه فى الصرفة لا إنه معجز فى نفسه ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لأتوا بمثله.. وأن أفعال الخير من الله وأفعال الشر من الإنسان وأن الله غير مرئى يوم القيامة[1].

وكان جرأة من المعتزلة أن يعلنوا رأيهم صريحًا واضحًا فى ذات الله وصفاته. وأن صفاته عين ذاته.. وأنه لا علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا إرادة ولا كلام «صفات المعانى»، وقد وافقتهم على قولهم هذا الجهمية والرافضة، وعارضهم الحشوية والمجسمة، فقالوا: إن لله علمًا كالعلوم وقدرة كالقدر وسمعًا كالأسماع وبصرًا كالأبصار، وكما تلقت فكرتهم تلك الضربات من الطوائف الأخرى كالظاهرية والحنابلة إذ الاتحاد فى نظر هؤلاء وحتى بعض الأشاعرة وهم من المعتزلة نفى للصفات التى أثبتها الله لنفسه[2]، ولذا دعوهم والقدرية معًا بأهل التعطيل أو المعطلة[3].

وانتصر المأمون للمعتزلة وقرّبهم ونأى بمن لم يقل برأيهم، وتفاقم الخطب أمام «الواثق» وهلك كثيرون إلى أن حذّر «المتوكل» المناقشات فى الملل والنحل وبذلك أخمد الفتن المذهبية - ولكنه مع ذلك - فقد قضى على حركة العقل؛ وبهذا وجدت نزعات التجسيم والتبطين والتعدد سبيلاً للانتشار.

ولقى الفكر اضطهادًا يوم طغى العقل نفسه واستبد بعقول الناس. وأشدّ ما كان ذلك فى عهدى المأمون والمعتصم فقد فرضا على الناس نظرية خلق القرآن

(١) عز الدين بن الكميلى - العزيز المحلى، ورقة ٩٠. ويرى المؤلف أن الزمخشرى والماوردى وغيرهما منهم.

(٢) ابن عساكر - تبيين كذب المفترى ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق ص١٤٩.

ومسائل الاعتزال الأخرى بحيث لم تقبل شهادة شاهد، ولا يستقضى قاض ولايفتى مفت لا يقول بخلق القرآن[1]. ويبقى الفكر فى محنة مادام مفروضًا من قبل فئة على أخرى، فكيف إذا كان من ذوى السلطان، وصار تشريعًا ملزمًا اعتناقه من سائر الطوائف ومختلف الطبقات. ونحن نعلم أن الفكر لم يكن يومًا ما وقفًا على أمة أو جنس إنما هو هبة تشمل الناس جميعًا وإن اختلفت فى الكم والدرجة عند الأفراد.

ولقد وجد علماء المذاهب حرجًا فى مجادلة هؤلاء خشية من غضب الحكام لأن معظم الوظائف كانت بأيديهم، فمنهم الوالى والقاضى. وبقى الأمر كذلك إلى أن ظهر أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤هـ فكان يتقصدهم بنفسه ليناظرهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾[2]

وقد ذهب كثير من المعتزلة إلى تأويل كلام الله وسنّة نبيه، وصرّفها عن ظاهرها إلى معانٍ مجازية تتفق ومقاصد الاعتزال لأن التأويل ـ ولا مفرّ منه عند تحكيم العقل ـ يتميز بتوضيح غوامض الأمور، وتوسطه فى تفسير ظواهر الأشياء، ولذا لم يستطع الأشاعرة التخلص منه فسلكوا طريقه عند الحاجة لإثبات تنزيه الله عن سمات النقص والآفات[3].. فكان لهم فضل الرد على طوائف المجسّمة، والدفاع المشرّف عن أصول الدين ولهم فى ذلك عدة مؤلفات مازال معظمها مخطوطًا فى أمهات المكتبات[4]. وبرز فيهم مجموعة شعراء وإليهم يرجع الفضل فى تأسيس «علم الكلام» للدلالة على ما وراء الطبيعة ويقصد به الحكمة بدلاً من الفلسفة، إذ إنّ ابن رشد المتوفى سنة: ٢٦٠ هـ أول من عرف الفلسفة اليونانية.

---

(١) ابن عساكر ـ تبيين كذب المفترى ص ١١٦.
(٢) سورة هود ـ الآية ١١٨، ومن الآية ١١٩.
(٣) المصدر السابق ص ٣٨٨.
(٤) من أهمها ـ تثبيت دلائل النبوة ـ للقاضى عبد الجبار ـ مكتبة على باشا بالآستانة.

ولم يتطرق الشك إلى أحد من المؤرخين ـ كما نعلم ـ فى حسن نوايا المعتزلة، أو الحط من مكانتهم العلمية، وقدرتهم الفائقة فى المحاجة وردّ الخصوم وإن اتهموهم بالاعتماد على العقل اعتماداً أثبت المحدثون خطأه، وأن العقل عاجز عن تفسير كل شىء. وأرجعوا بدعتهم هذه إلى المناقشات التى كانت تجرى بينهم وبين خصومهم من ذوى الآراء المنحرفة فدخلت عقولهم وأفسدتها إذ كان المعتزلة فى القرون الأولى على خلاف هذه الأهواء، وإنما أحدثها بعضهم فى الزمن المتأخر[١].

وعلى الرغم من تسفيه هذا المذهب ومجادلتهم أصحابه حتى عُبِّر عنهم «بالحثالة» أحد علماء ذلك العصر البارزين[٢]، فقد فشا بالعراق وخراسان وما وراء النهر وذهب إليه جماعة من مشاهير الفقهاء[٣]، من مختلف المذاهب فى مختلف العلوم أمثال: أبى يوسف القزوينى من السنّة، والسيد المرتضى وأكثر الإمامية من الشيعة والمأمون وأبى نصر الكندرى من الرافضة.

وكان الرفض -فى الواقع ـ اتهامًا يوصم به كبار المعتزلة فقد اتهم هذان بذلك من قبل كثير من المؤرخين العرب والفرس، فابن كثير اعتبر قول المأمون بتفضيل «على» بعد الرسول ثانى بدعة قالها بعد قوله بخلق القرآن وكذلك اليافعى فى تاريخه ـ مرآة الجنان ـ والشوشترى فى مجالسه[٤].

وغير بعيد بأن الخلاف المذهبى بين «النظام» والكندرى من أوائل الأسباب لاختلافهما فى المنهج السياسى، فقد كان «النظام» شافعيّا على مذهب الأشعرى، كما سنرى تفصيل ذلك فيما بعد[٥] وكان الكندرى حنفيّا على مذهب المعتزلة[٦] فى الأرجح.

---

(١) الخطابى ـ معالم السنن .

(٢) ابن العربى ـ العواصم من القواصم جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٣٥٦.

(٤) الشوشترى – مجالس المؤمنين جـ ٢ ص ٢٦٩ .

(٥) انظر ص ٣٤٨ من البحث.

(٦) ابن عساكر ـ التبيين ص٨٨ ، إذ قيل: إنه معتزلى رافضى، وقيل: كان سلطانه معتزليّا والوزير شيعيّا (القزوينى – آثار البلاد ص ٣١٧).

ومادامت سياسة الحكم دينية فلابد لواحد منهما أن يترك الأمر لصاحبه، وأن يتغلب على غريمه وليس غريبًا أن ينتصر «النظام» في هذا الميدان على الرغم من أنه يخالف سلطانه في مذهبه لأن «النظام» لم يكن شديدًا قاسيًا على الديانات والمذاهب من حوله ولأنه يعتقد بسلامة الجدل واتخاذ وسائل الإقناع بتفضيل مذهب على آخر، ولذا اعتمد على فتح المدارس، وأرسل إليها العلماء، واتخذ من المنبر وسيلة للدعوة والإرشاد دون لجوء إلى السب واللعن والنفى والتضييق.

وكانت بدعة لعن الطوائف التى قام بها «الكندرى» بموافقة سلطانه طغرلبك وأمره بها خطباء المساجد من الأعمال التى أغضبت زعماء الحنابلة والأشعرية عليه فمنهم من خرج عن نيسابور عاصمة السلطنة السلجوقية حينذاك ساخطًا، ومنهم من لزم بيته حتى مات[١]، واعتبرها رجال الفرق المطاردة من المحن الكبرى التى حلّت بالعالم الإسلامى سنة ٤٤٥هـ والتى أنشأوا فى وصفها الرسائل الطوال والفتاوى الكثار وكانت نهايتها بمنع اللعن وإعزاز العلماء وعودة المنفيين منهم على يد «النظام» مما ساعد على نشر اسمه واستتباب الأمر له[٢].

٢- الحنابلـة:

وكان من مألوف زعماء الطوائف أن يؤلفوا لأبناء الطائفة رسالة خاصة باسم الاعتقاد، يحوى أصول المذهب، ومسائل الخلاف بينهم وبين المذاهب الأخرى يلقونه على رؤوس الأشهاد فى المناسبات ويتدارسونه فى سائر الأوقات، وقد وصل إلينا من ذلك: الاعتقاد الحنبلى والقادرى والنظامى، كما سنشير إلى كل واحد منها فى موضعه.

وكان مما يتضمن اعتقاد الإمام «أحمد بن حنبل» تفسير آى الصفات تفسيرًا ماديًا خالصًا، فذهب إلى أن لله نفسًا.. وقرأ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[٣]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٤].

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٦٤.
(٢) نفس المرجع ص١٠٩، وانظر: تفاصيل هذا الحادث ص ١٥٠ـ ١٥٢ من هذا الفصل.
(٣) سورة آل عمران ـ من الآية ٣٠.
(٤) سورة الأنعام ـ من الآية ٥٤.

ولكن ليست كنفس العباد متحركة صاعدة مترددة فى أبدانهم، بل هى صفة له فى ذاته خالف بها النفوس المجبولة ففارق الأموات.. وأنه يُرى فى الآخرة بالأبصار، وترى يومئذٍ وجوهًا ناضرة إلى ربها ناظرة.. ولو لم يرد النظر بالعين ما قرنه بالوجه.. وذهب إلى أنه تعالى قديم بصفاته فهو قادر حى عليم سميع بصير، بيد ووجه وعلم وسمع وبصر، ولكن ليست كالصوّرة المصورة والأعيان المخطّطة. وأن من قال: «إنه عز وجلّ لم يكن موصوفًا حتى وصفه الواصفون فهو بذلك خارج عن الدين. والدار إذا ظهر فيها القول بخلق القرآن والقدر وأمثالها فهى دار كفر.. إلخ[1]».

أمّا الجانب السياسى فى ضوء الدين فيتضمن شروط الإمامة من نسب فى قريش ما أقاموا الصلاة وواجبات الإمام، واعتراف أهل الحل والعقد له، وعدم جواز الخروج عليه.

ومنه نستنتج أن نظرية خلق القرآن إنما جاءت كنتيجة لبحث الصفات، فإن الله على رأى (ابن حنبل) متكلم وأنه يتكلم بالصوت والحرف بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[2].

وكل كتاب أنزله الله غير مخلوق إذا سلّم له أنه كلام الله[3].. وأن الله قديم.. لأن الحنابلة ـ كما نعرف ـ لا يطمئنون إلى العقل فى إصدار الأحكام لأنه لا يعلم به فرض شىء ولا إباحته ولا تحليل شىء ولا تحريمه[4].

ولم يكن ابن حنبل وهو المحدث الثقة كما عبّر عنه الإمام الشافعى أكثر من مرّة متزمتًا فى فهمه لدينه متعصبًا فى حرصه على الإيمان، وإنما كان لنسبه وزهده وطريقة دراسته وأسفاره، ولما شاهده من انصراف عن السنّة وهى ثانى مصادر التشريع بعد الكتاب إلى العقل وتحكيمه فى قواعد الدين وانحراف الناس إلى اللهو والمجون، وانشغال الحاكمين فى العبث والفسوق.. كل ذلك

(١) القاضى أبو الحسن محمد بن أبى يعلى.
(٢) سورة النساء ـ من الآية ١٦٤.
(٣) أبو يعلى الفراء ـ طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٢٩٦.
(٤) أبو يعلى الفراء ـ الأحكام السلطانية ص٣.

حمله على الدعوة للإسلام بحماس بالغ، والعودة إلى البساطة فى تفسير نصوصه، والأخذ بظواهر الآيات والمأثور من الحديث دون التأويل.

وكان طبيعيًا أن يميل الهاشميون إلى مذهب ـ ابن حنبل ـ إذ فيه من المحافظة على أصول الدين والتزمت فى تطبيقها ما لم يجدوه فى المذاهب الأخرى، وكان «أبو الوفاء بن عقيل[1] وأبو جعفر الهاشمى[2]، وأبو إسماعيل الأنصارى الهروى» من طليعة الحنابلة فى عصر «النظام».

ولتزمتهم واعتدادهم بأغلبية الشعب واعتمادهم على الخليفة فقد كانوا مثار قلق واضطراب دائمين، ففى سنة ٤٦٠هـ قاموا بثورة ضد شيخ المعتزلة «أبو على بن الوليد» لإظهار مذهبهم وتجمهروا بجامع المنصور وقرءوا الاعتقاد وكتاب التوحيد لابن خزيمة. ثم حضروا الديوان واتفقوا على لعن من خالفه واستمعوا إلى الاعتقاد الذى جمعه الخليفة القادر ثم انصرفوا[3].

وكان مثير هذه الفتنة وقائدها الشريف «أبو جعفر بن موسى» الهاشمى ـ قد استنكر على ابن عقيل تردده على «ابن الوليد» المعتزلى فخاف على نفسه واختفى مدة ثم أظهر توبته[4]، ولم تأت سنة ٤٦٤هـ حتى اجتمع الحنابلة يتزعمهم الشريف المذكور فى جامع القصر وضموا إلى صفوفهم أبا إسحق الشيرازى وأصحابه من الشافعية وطلبوا من الحكومة قلع المواخير وتتبّع المفسدين ومنع بيع النبيذ وضرب دراهم تقع بها المعاملة عوض القراضة وتقدموا إلى الخليفة بذلك، فهرّب المفسدات وكبست الدور وأريقت الأنبذة[5]. ووعد بتنفيذ ما تبقى.

وكيف يتصور الحنابلة وهم رجال الأثر وأنصار مذهب النقل والخبر أن

---

(١) الذهبى ـ سير أعلام النبلاء، مجلد ١١ ورقة ٥٢٦، ٥٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة - ابن رجب - جـ ١ ورقة ١٦.

(٤) المصدر السابق - ابن رجب - جـ ١ ورقة ١٧.

(٥) المصدر السابق - ابن رجب ـ جـ ١ ورقة ١٨.

يفصلوا بين الله وكلامه وقد روت الأخبار الصحاح أنه العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، المحيط بكل شيء. فالقرآن إذن لم يكن مخلوقًا بعده قط، وإنما هو معه ومنه، لأنه الدليل عليه، والحجة على وجوده، والبرهان على مقدرته ووحدانيته وعلمه.

وكيف يتصور المعتزلة وهم أصحاب مذهب العقل، وأرباب نحلة التوحيد والعدل أن القرآن وهو كلام الله المنزّل على رسوله الأمين، جزء منه لا يتجزأ وأنه أزلى كان معه يوم كان، فكل شيء سواه إنما هو دونه وبعده، وإنما خلق بأمره وإرادته، والقرآن واحد من سائر مخلوقاته، وإن كان من أرفعها درجة وأعظمها منزلة لأنه كلام الله تعالى جلّ شأنه.

ولم تزل الحنابلة ببغداد فى قديم الدهر وعلى مر الأوقات تعتضد بالأشعرية على أصحاب النفى لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات حتى حدث الاختلاف على يد «أبى نصر القشيرى» وفى زمن «النظام الملك» ووقع بينهم الانحراف لانحلال النظام، ولم يزل فى الحنابلة طائفة تغلوا فى السنّة وتدخل فيما لا يعنيها[1].

ولعل من أسباب مهادنة الخلفاء وحاشيتهم للحنابلة وتغاضيهم عنهم وتقريبهم، ما عرف عن الإمام «أحمد» من أحاديث بمنع الخروج على ظلمة الولاة ومنع رواية أحاديثهم[2].

وكان «النظام» يكرم رؤساء هذه الطائفة ـ مثلما يحترم بقية زعماء الطوائف، وله معهم مطارحات ومساجلات، وكان يعقد لهم الندوات يستمع فيها لمناقشات أصحابه لهم، ومن هؤلاء «أبو إسماعيل الهروى الأنصارى» فقد كان على شدة تعصبه لمذهبه واعتزازه به كثير التوسط «للنظام»، وموضع تجلّة واحترام فلم يدخل عليه إلا أكرمه وبجّله[3].

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ١٦٣.

(٢) المقدسى ـ مقدمة التبيين ص ١٧.

(٣) الذهبى ـ سير أعلام النبلاء جـ ١١ ورقة ٥٢٨.

وكان الحشوية[1] وهى طائفة غلت فى الحنبلة، فقد أجروا الآيات على ظاهرها، وتحجرت عقولهم فى تأوليها، وقالوا: بتفويض التأويل إلى الله فيما يتعذر إجراؤها على ظاهرها، فكانوا بالتزامهم جانب الجمود العقلى أن شاع لفظ الحشو بمعنى: الجهل، والحشوية: الجهلة والعامة.. حتى قال أبو تمام:

أرى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم   شعوب تلاقت دوننا وقبائل

ففسرها التبريزى بقوله: «أراد بالحشو العامة».

٣- الأشاعرة:

ويحسن بنا ونحن نريد التعرف إلى عقيدة «النظام» الديّنية أن نلقى نظرة خاطفة أيضًا على الأشعرية: مذهبه الذى كان يبرز من خلال أقواله وأفعاله وأن نستمع إلى ما ذكره المقريزى عنه حيث قال:

«وحقيقة مذهب الأشعرى[2] أنه سلك طريقًا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال وبين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم. وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه، فمال إليه جماعة، وعوّلوا على رأيه[3]». ولقد كان ما ذكره صاحب الخطط عن حقيقة المذهب صحيحًا كله إلاّ أن غموض الإيجاز يكتنفه، لذلك نرى ضرورة بيان ما قصد إليه، ولعلّ خير من يوضح هذا الغامض مؤسس المذهب نفسه.. فقد حكى عنه أنه صعد منبر الجمعة فى البصرة، وقال على رؤوس الأشهاد: «من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا فلان بن

(١) الحشو بفتح الشين وسكونها. قال ابن عبد السلام وهم المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، ومنهم من يتستر بمذهب السلف. وقال السبكى: وقد سموا بذلك لأن منهم المجسمة أو هم والجسم حشو. ومن مذهبهم جواز أن يكون فى الكتاب والسّنة ما لا معنى له، وقيل فى سبب تسميتهم أيضًا قول الحسن البصرى عنهم إلى تلاميذه: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أى جانبها لمّا وجد كلامهم ساقطًا وكانوا يجلسون أمامه.
(شفاء الغليل ـ حرف الحاء)

(٢) هو أبو الحسن عبد الله بن قيس الأشعرى: المتوفى سنة ٣٢٤هـ تتلمذ على يد زوج أمه ـ أبى على محمد الجبائى سنة ٣٠٦هـ. انظر ترجمته فى التبيين ص ١٤٨ ـ وابن خلكان جـ١ ص ٣٢٦ ـ والبداية والنهاية جـ١١ ص ١٨٧ ـ وشذرات الذهب جـ ٢ ص٣٠٣ ـ وخطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٦٠.

(٣) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٣٥٨.

فلان، كنت أقول: بخلق القرآن وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن العباد يخلقون أفعال الشر وها أنا ذا تائب من الاعتزال»[1].

ومادمنا بصدد تبيين أصول المذهب الذى يدين به «النظام» فلابد من الرجوع أيضًا إلى ما قاله أستاذ الأشاعرة لهذا العصر أبو القاسم القشيرى لإيضاح مسائله الخلافية.. يقول: «وما نقم من الأشعرى إلّا أنه قال بإثبات القدر لله خيره وشره، نفعه وضره، وإثبات صفات الجلالة لله، من قدرة، وعلم وإرادة، وحياة وبقاء، وسمع وبصر وكلام، ووجه ويد»[2].

والذى يظهر لنا ولكل قارئ للنصوص السابقة أن الاعتزال اعتقاد فى ثلاث مسائل هى خلق القرآن، ونفى الرؤية، وقدرة الإنسان على فعل الشر أمّا الخير فمن الله.. وأن الأشعرية إذن هى القول بقدم القرآن، ورؤية الله، والخيروالشر منه، وبقدره وقضائه، وفرّق فى مسألة خلق القرآن بين الحروف المتقطعة والأصوات وبين معانيها بعد أن تكون جملاً وعبارات.. فالأولى: مخلوقة محدثة، والثانية: قديمة أزلية قدم الخالق تعالى[3]. وفصّل فى مسألة الإيمان بين المسلم والمؤمن فمن ارتكب كبيرة كالزنا والسرقة والخمر وهو مؤمن لا يكون كافرًا فلا يخلد فى النار[4]. ومنه نعلم أن مسائل الخلاف هذه إنما تدور حول الصفات، وأن الأشاعرة يسمّون بالصفاتية لإثباتهم صفات الله تعالى القديمة[5].

وأمّا الجانب الدينى السياسى فإنه قال: بموالاة عثمان وعلى وتفضيل المقدم على المؤخر خلافًا لما قاله الخوارج بكفرهما، وأن كلا من طلحة والزبير وعائشة مجتهد مصيب، خلافًا للمعتزلة والروافض. ومن ناحية العلاقة بين

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٠.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٧٦، والسبكى ـ الطبقات جـ٣ ص ٢٤٣، وابن عساكر ـ التبيين ص ١١١.

(٣) ابن عساكر ـ التبيين ص ١٥٠.

(٤) المصدر السابق ص ١٦٠.

(٥) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٣٦٠.

الرعيّة والإمام فقد أوجب الطاعة والخضوع وألزم بالدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم وضلال من رأى الخروج عليهم[1]. وتثبت الإمامة بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين.. أما معاوية وعمرو بن العاص فإنهما بغيا على الإمام الحق ـ على بن أبى طالب ـ فقاتلهم مقاتلة أهل البغى.. وأهل النهروان ـ الشراة ـ هم المارقون على الدين. وأن عليّا كان على الحق فى جميع أحواله والحق معه حيثما دار[2].

وعُدّ موقف الأشعرى هذا توسطًا بين الطوائف الأخرى، واعتبر رأيه فى مسائل الخلاف اعتدالاً، لذلك مال إلى مذهبه عدد وفير من أعلام الفقهاء فى مختلف العصور، وكان من أشهرهم فى القرن الخامس الهجرى أبو بكر محمد الباقلانى من المالكية، وكان أبو القاسم القشيرى، وأبو المعالى الجوينى، وأبو إسحق الشيرازى، والإمام الغزالى من الشافعية[3]، ولاعتداله ـ الأشعرى ـ كان مؤلفو الطبقات من سائر المذاهب يترجمون له، فقيل: إنه مالكى، وقيل: حنفى، وقيل إنما كان شافعى المذهب، وحكى أنه كان حنبليّا ثم تشفع وردّ عليهم. والحنابلة أحق بذلك حيث يصرح الأشعرى فى مناظراته معهم: «إنه على مذهب أحمد بن حنبل»[4].

ومن النقول عن الأشعرية ما يدلنا على أنهم نصّبوا أنفسهم أنصارًا للشريعة، ونظارًا على تخرصات المبتدعة من القدرية والمعتزلة والرافضة والباطنية وغيرهم[5]، وتصديه ـ الأشعرى ـ لهم فى كل مجلس وملاحقته لهم فى كل بلد، وتأليفه الكتب فى الرد عليهم، والتشهير بضعف آرائهم، والباطنية كما توحى نصوصهم من الرافضة وغلاة الشيعة وأشدهم تسترًا وابتداعًا.

---

(١) ابن عساكر - التبيين ص ١٦١.

(٢) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٣٦٠.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٨.

(٤) المقدسى - مقدمة التبيين ص١٧.

(٥) ابن عساكر - التبيين ص ٢٢٢.

٤- الشيعـــة :

لم يكن التشيّع وليد القرن الخامس الهجرى أو الذى قبله، وإنما كان نتيجة ظروف وملابسات عقائدية وسياسية معًا حدثت بعد موت الرسول مباشرة أو قبله بقليل، فقد مال جماعة مـن الصحابـة المهاجريـن ثـم التابعـين إلـى إمامـة ـ على ـ وأبنائه من فاطمة. وشاعت هذه الفكرة وعلقت فى النفوس على مر الأزمان، وصار لها أنصار ينادون بها، ويذودون عنها حتى أصبحت خطرًا على الخلافة القائمة، وأصبحت هذه تسعى للقضاء على الدائنين بها، لأن التشيع فى جوهره دعوة لآل على دون غيرهم من أسرة الرسول.

وكان من أظهر خصائص التشيع فكرة الإمامة، وأن الإمام قد منحته العناية الإلهية خصلتين لانجدهما فى غيره هما: العلم والعصمة.. لأنه وارث الرسول والحارس على تحقيق رسالته، وخالط هذه الفكرة بعض التخيلات الغامضة الغريبة ونشطت الدعاية لها وبولغ فى تفسيرها والقصد منها وشاعت بين طوائف الشيعة على اختلاف نحلهم وتباعد مواطنهم.

وطال أمده ودخل فيه من أعلام المسلمين ممنّ أوتى حظًا وافرًا من العلم ونصيبًا كبيرًا من الذكاء والفهم، يستطيع أن يفلسف المذهب ويعضده بالحجة والبرهان، حتى اتضحت خصائصه ومبادؤه، فى الأصول والفروع والكلام والفقه، ولقى من المناوئين له ما اضطر معتنقيه إلى التكتم والخفاء بدافع التقية تارة والإعلان والمجاهرة إذا أنسوا أمنًا تارة أخرى.

وقد لجأت الشيعة بحكم الظروف التى أحاطت بها إلى نوع من المباطنة ودعوها باسم ـ التقية – إمّا من التقوى والزهد، أو بدافع اتقاء الأذى والضرر، ويشترك فيها السنّـة والشيعة على السـواء وإن اختلفوا فى شروطهـا وتطبيقهـا إلّا أن أكثر الخوارج قالوا: «إن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب الدين»[1]. وبهذا التستر والتكتم صار التشيع وبالاً على نفسه وعلى

(١) أحمد أمين – فجر الإسلام ص ٢٧٤.

المذاهب الإسلامية الأخرى. فقد انتُسب إليه من رجال الأديان الأخرى كثيرون وأدخلوا فى الإسلام وبخاصة التشيع منه أشياء من العقائد والفلسفات القديمة.

ومن هنا اندّس فيه من المبادئ والطوائف المنحرفة عدد كبير حيث أخذت تعمل تحت ستار هذا الاسم، ومن هنا أيضًا تسرّبت إلى المذهب نفسه أحاديث مصطنعة فنقلت إليه نظريات التناسخ والحلول عن مذاهب غريبة عن الإسلام وفطرة العرب، ومن ثمّ دخلت فيه نزعات الغلو فى آل البيت وبلغت عند بعضهم من التقديس درجة التأليه ولمناهضيهم أشد البغضاء والكراهية.

وكان اختلاط مذاهب الشيعة شائكًا معقدًا بحيث أعجز الناقدين عن التفريق بينها والداعين لها. وكان التعصب الدينى أو دواعى السياسة عاملين آخرين لعدم التمييز بين الصحيح والفاسد منها، أو التحامل المقصود للنيل من بعض زعمائها.

وقد بلغ الخوف أو التعصب المذهبى أقصاه قبيل عهد «النظام» وخلاله حتى ليُسأل الرجل عندما يتقدم بطلب وظيفة عن مذهبه، فإن لم يجب سئل عن بلده لتعرف حقيقة عقيدته، فإن كان شيعيًا أعيد إلى داره سالمًا، ومهما دافع عن نفسه فإنه لايقبل له قول مادام قد عرف بأنه شيعى[٢]. وإن كان موظفًا من قبل ثم علم بأنه من الشيعة فُصِل من عمله، ويلام الملك أو الأمير على توليته واعتبر عدوًا للدولة والسلطان إذ لم يكن يعرف عن الشيعى إلاّ أنه رافضى، وليس بالرافضى فقط إلاّ أنه باطنى والباطنية لا تعترف بخلافة بنى العباس فضلا عن الأمويين.

والذى يهوّن من هذا الإجراء التعسفى، ويقلّل من خطبه وخطره نقد التاريخ للقائمين به، هو استعمال هذا اللفظ. فقد كان يطلق على الباطنية والرافضة[٢]، وغلاة الشيعة كما كان يطلق على الزيدية والإمامية، من معتدلى هذه الطائفة..

(١) سياستنامة ص ١٢١ - ١٢٣.

(٢) ابن خلكان - الوفيات جـ ٤ ص٤٠٦.

وفى تعميم لفظ التشيع وما تفرع منه بصيغه المختلفة نوع من التجوّز الواسع الذى لا يخلو من الفضول ومجانبة الدقة التى يتوخاها العلم والحق. إذ الشيعة ـ كما بيّنا سابقًا ـ طوائف مختلفة وعديدة.

والذى يبدو من خلال الأحداث ودلائل النصوص أن القصد من لفظ الشيعة عند شنّ الحملة عليهم والنيل من مشايخهم وآرائهم، إنما كان يشمل الرافضة والقرامطة والباطنية وأمثالهم[1].

وقد لعبت الباطنية من فرق الشيعة كلفظ وجماعة دورًا كبيرًا فى حياة الناس على اختلاف طبقاتهم وتنوع أجناسهم وأديانهم طوال القرون الفائتة، وقد بلغت الذروة فى نشاطها الفكرى والسياسى خلال القرن الخامس الهجرى، وكافحها «النظام» بمثل ما استعملته من وسائل الدعاية، غير أنها قضت عليه فى النهاية قبل أن تلقى حتفها على يد الأيوبيين فى مصر والشام، والمغول فى فارس والعراق.

وخلاصة القول: إن الشيعة طوائف عديدة مهما فرض بينها من علاقات ومتشابهات فإنها لا تكاد تتفق فى بعض المسائل إلاّ وتختلف فى بعضها الآخر، وإن اتفاقها غالبًا فيما ليس بأصل المذهب ولا الغرض منه.. وإنه بقدر هذا الاختلاف والتعارض فى الرأى يقوم المذهب الجديد، ويتسع، وتعمّ مدارسه ومبادئه، وتنتشر.

وسنحاول تبين ذلك فى تلخيصنا الآتى عن الباطنية وإن كان بحاجة إلى مزيد من التفصيل.

٥- الباطنية والظاهرية والإسماعيلية:

لقد أطلق هذا اللفظ على الشيعة تجوزًا وتسامحًا كما أطلق لفظ الشيعة على كل من شايع عليًا توسعًا، لأن الجامع المشترك بين هؤلاء جميعًا الستر وكتمان

(١) ومن معانى الرفض الزعم بأن على بن أبى طالب افضل من العباس وأن ولده أحق بالخلافة.

العقيدة اتقاء من ضرّ المناوئين وأذى المخالفين حتى صارت التقية من شعائرهم جميعًا.

وقد أطلقه بعضهم دون تحديد أو تعيين حتى شمل المجوسية، والمزدكية والمانوية من شرائع الفرس القديمة، كما أطلقوها على القرامطة والإسماعيلية والخرمية مع العلم بالفروق الكثيرة بين كل واحدة وأخرى من تلك الديانات قبل الإسلام وبعده. وليست القرمطة فى البحرين سوى ثورة اقتصادية أشبه بثورة الزنج فى البصرة، وإن شابها شىء من تعاليم فى الدين أو الزندقة والإلحاد. وأنها تختلف عن غيرها من طوائف الشيعة بالوسائل والغايات.

وقد احتلّ هذا اللفظ مكانًا واسعًا فى قواميس اللغة العربية كما احتلت الباطنية نفسها مكانًا أوسع فى معاجم الملل والنحل وموسوعات التاريخ والسير، وقد ذهب الباحثون فى دلالتها مذاهب شتى.

فالباطنية ـ كما عرّفها المقريزى ـ علم تأويل شرائع الإسلام وصرَفها عن ظواهرها إلى أمور زعموها من عند أنفسهم[1].

والباطن قبال الظاهر لغة.. أول ما يتبادر إلى الذهن من معانى اللفظ، والبواطن على هذا قوم ادعوا بأن للشريعة ـ كتابًا وسنة ـ ظاهرًا وباطنًا، وأن هذا الباطن علم لا يدركه إلّا نبىّ أو وصىّ وهو الإمام المفترض الطاعة[2]، كما قد يطلق هذا اللفظ ويراد به الشيعة الأولون والإسماعيلية، وقد يشمل ما ينطوى عليه لفظ الشيعة أحيانًا حتى يصبح مرادفًا، وهذا هو الخلط الذى ينبغى أن يتجنبه الباحثون.

غير أننا إذا علمنا بأن الظاهرية فئة تستنبط الأحكام من ظواهر النصوص وتبطل الرأى وتنفى القياس فى الأحكام[3] إذ إن الله قد أكمل الدين وأوضح

(١) المقريزى – الخطط جـ ٢ ص ٣٥٧.

(٢) المسعودى – التنبيه والإشراف ص ٤.

(٣) السمعانى ـ الأنساب ـ مادة «ظاهرى».

السبيل . . حينئذٍ خامرنا الشك فى دقة تلك المقابلة أو صحتها، وأن الظاهرية أقرب إلى مناقشة المعتزلة أصحاب الرأى والعقل منها إلى مناهضة التأويل والتبطن، إذ إن هذه الطائفة الآخذة بالظاهر فى العقائد هى فى طرفى التشبيه كالأولى فى التعطيل وكلا الطائفتين فى الأصل خبيثتان وما تفرع عنهما خبيث[1]. ولأن المراد بالبواطن مغزى الآيات دون ما عرف من معانيها فى اللغة، وأن منزلة الظاهر من الباطن ـ عندهم ـ منزلة القشرة من اللب[2].

والظاهرية بنظر أعلام المؤلفين فى العقائد والسير نحلة وليست مذهبًا وغير خفى ما يوحيه لفظ «نحلة» من معانى الانتحال والاختلاف والذى تقابله الطوائف الأخرى بالتنديد والامتعاض، فالسمعانى حينما أراد تعريف الظاهرية قال: «هم جماعة ينتحلون مذهب ـ داود بن على الأصبهانى ـ صاحب الظاهر» وعنه قال أحمد بن خلف: «إنه أول من أظهر انتحال الظاهر ونفى القياس فى الأحكام قولاً واضطر إليه فعلاً وسمّاه دليلاً». وقد حكى عن أحمد بن حنبل أنه قال: بحدوث القرآن فلم يجالسه[3]. وبهذا كان التشابه بينها وبين الحنبلية من وجوه وإن كان بينهما من ناحية أخرى اختلافات وفروق.

وإذا ألقينا نظرة فى ضوء ما نقرأ للفرقتين من آراء وما تتخذانه للتفسير من وسائل نجد بين الظاهرية والباطنية تقاربًا فى المعنى وإن كان بينهما تقابل فى منطوق الاسم كما سنشير لذلك فى خاتمة الفصل. وبذلك ابتليت الظاهرية وأوذى أصحابها كالمعتزلة والباطنية بحيث التجأوا إلى التخفى والتلويح[4] فى مناقشاتهم إذا جالسهم العلماء وهم من أصحاب الظاهر.

ويظن بعضهم: أنها طائفة سياسية اتخذت من الدعوة إلى إمامة إسماعيل

---

(١) أبو بكر بن العربى المعافرى – العواصم من القواصم جـ ٢ ص ١٧ .

(٢) السمعانى ـ الأنساب – مادة «باطنى».

(٣) السمعانى ـ الأنساب – مادة «ظاهرى».

(٤) العواصم جـ ١ ص ٥٩ .

ابن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحًا للوصول إلى ما تصبو إليه[1] من نشر مبادئها.

أمّا لماذا اتخذت من إسماعيل دون غيره إمامًا لدعوتهم؟ فهذا ما لا نستطيع سوى التكهن فيه تكهنًا أقرب إلى الظن منه إلى الرجحان، فإن سيرة إسماعيل الغامضة فى أيام أبيه وبعد وفاته، وما وردت حولها من روايات مختلفة، كل ذلك كان أدعى للتمسك والانتساب إليه والدعوة باسمه.

وأمّا سياسة هذه الطوائف فقد يصح إدعاؤها فيما يتصل بالمذاهب الفقهية فإنها قد تأثرت إلى حدٍ ما بعوامل سياسية.. أمّا المذاهب التى تعتمد على خلاف فى مسائل الفكر المجرد فى علم الكلام ـ ما وراء الطبيعة ـ فليس من شك أنها عقيدية إلى حد كبير، ولا سلطان للسياسة على تحويرها أو التفكير فيها.

وينقل اليمانى[2] والغزالى[3] والشهرستانى[4] عنهم أشياء مضطربة ونسبوا إليهم إباحة المنكرات والتحلل من كل خلق كما اتهموهم باليهودية لاستخدامهم اليهود فى أعمالهم، وتشكيك الناس فى القرآن والديانات[5].

ويغالى بعضهم فى اتهامهم غلو الباطنية نفسها فى معتقداتها ويقصد الإسماعيلية، فحكموا عليهم بالكفر والحلول وأن الله يحل فى كل رسول أو إمام[6]. وكان أول من أفتى بإلحادهم هو الشيخ فخر الإسلام/ أبو المحاسن الرويانى[7]. وكفّروا من شك فى كفرهم وأنهم

(١) النويرى ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٢٣ ورقة ٥٦.

(٢) كشف أسرار الباطنية ص١٠، ١٩.

(٣) الرد على الباطنية ص ٥٢٤.

(٤) الملل والنحل ص ١٤٨.

(٥) الرسغنى - المختصر ص ١٨٠.

(٦) العواصم جـ ١ ص ٦١.

(٧) زويان ناحية بين طبرستان وبحر الخزر من بلاد مازندران. جاء إلى قزوين وحذّر الناس من خداعهم فلمّا عاد بعثوا إليه من قتله. (القزوينى - آثار البلاد وأخبار العباد (مادة روبان).

أكفــر مــن اليهــود والنصــارى لأنه: «لا تحــل مناكحتهــم ولا تؤكــل ذبائحهــم»[1].

واتهمهم آخرون بتأويل أحكام الشريعة الإسلامية إلى مثل: أحكام المجوس فأباحوا البنات والأخوات وشرب الخمر والتمتع باللذات وحكوا عن فريق من أشياعهم فى البحرين أنهم أجازوا اللواط، وأوجبوا قتل الغلام الذى يمتنع عن الفجور به[2]. فالتأويل عند ناصر خسرو من آلى بمعنى ساعد لأن تأويل الشريعة يساعد المؤمن على فهمها، وهو علم العاقبة وهو من النص بمثابة الروح من الجسد والرائحة الذكية من المسك[3].

وحينما جرى النقاش بين الشافعية والحنابلة فى قبول توبتهم قال الشريف أبو طالب الزينبى من الأحناف: «لا تقبل». وأفتى أبو بكر الشاشى الشافعى بقبولها، وما أن وصل المنشور ـ محضر المجلس ـ إلى الخليفة المستظهر بالله حتى وقّع عليه. يُقتَلون دون قبول توبتهم حسبما رآه «مالك» إمام دار الهجرة، فإنهم أخبث الطوائف مقالة وأسخفها حجة ودلالة. فكانت أول مسألة حكم فيها بمذهب مالك بمدينة السلام بعد أحوال وأعوام[4]. أما «النظام» فعلى الرغم من قسوته عليهم واعتبارهم من المرتدين عن الإسلام فإنه لا يوجب قتالهم إلّا بعد مناظرتهم[5].

ولا يصحّ لنا بعد هذا أن نعتمد الاعتماد كله على المصادر التاريخية أو الطائفية فإن كتب المللّ والنحلّ مشحونة بالمختلقات والمزاعم التى ينسبها المؤلفون لأصحاب المذاهب من غير تثبّت من صحتها. وماذا نقول عن المؤرخين وقد سبقنا السبكى بالقول عنهم: «إنهم ربما وضعوا من أناسٍ ورفعوا أناسًا إمّا

(١) المحبّى - خلاصة الأثر جـ ٣ ص ٢٦٨.
(٢) الرسغنى - مختصر الفرق بين الفرق ص ١٧٥.
(٣) سياستنامة.
(٤) السيرة المؤيدية ـ ديوان المؤيد ـ نشر محمد كامل حسين.
(٥) أبو بكر المعافرى - العواصم جـ ١ ص ٦٠ سياستنامة.

لتعصب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل ممن لا يوثق به» . . إلى أن يقول: «والجهل فى المؤرخين أكثر» . . ثم يتهم الذهبى بالتعصب المفرط ضد أهل الدين «الفقراء» وأئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة ومدح المجسّمة ثم يدعو له بالغفران[1].

ومثل هذا نجده فى ـ الفرق بين الفرق للبغدادى ـ والفِصَلْ لابن حزم، والفهرست لابن النديم، الأمر الذى اضطر الإمام الرازى أن يشير إليه وهو يتحدث عن كتاب «الملل والنحل للشهرستانى»[2].

ومن الغريب المجحف أن يقف الباحثون المحدثون ما وقفه كتّاب القرن الخامس وما بعده فى وصف تلك الطوائف وإصدار الأحكام عليها، فهناك من الظروف الغامضة والملابسات التى أحاطت بها منذ نشأتها وخلال تطورها ما يجدر بالباحثين التنبيه إليها ودراستها دراسة علمية فى ضوء كل ذلك، لنصل إلى أحكام عادلة فى تاريخ ماضينا الفكرى والحضارى.

إن الأمانة العلمية تقتضينا التمييز بين النحل والمذاهب ورئيسها عند التحدث عنها والبحث عن مبادئها ودراسة قواعدها عند الحكم عليها . . فإن فرقة الحشاشين ـ مثلاً ـ وإن كانت تمت الى الإسماعيلية بصلة ولكنها تختلف عن أخواتها من الفرق الباطنية فهى ـ كما أرجّح ـ أقرب الى الديانات الفارسية بما تسرب إليها من آراء وأغراض لأن المنطقة التى نبتت فيها من بلاد فارس وما جاورها مازالت المجوسية والمانوية والمزدكية باقية فيها. وأن الباطنية ـ ولست مدافعًا عن كل ما يؤثر عنها من أعمال واتجاهات ـ تختلف عن الإسماعيلية وإن اتفقت معها أحيانًا لدوافع سياسية ومصالح اجتماعية مشتركة، حتى لتستطيع القول: بأن الحشاشين ليسوا من الباطنية أو الإسماعيلية وإن أخذت عنها التستر ونقلت منها بعض المبادئ والفلسفات العقدية فنحن لا نعرف عن خلفاء

---

(١) السبكى ـ طبقات الشافعية الكبرى جـ ١ ص ١٩٧.

(٢) مكتبة عاشر أفندى بالآستانة.

الإسماعيلية وأعلامها سواء بالمغرب أو مصر أنهم تعدوا حدود ما أنزل الله فى كتابه، ولانعرف أحدًا منهم قام بحوادث الاغتيال من أجل العرش أو بفعل المنكرات أو دعى إليها وانغمس فى الملذات كما اشتهر أحيانًا بلاط بنى العباس، ولم تذكر لنا المصادر التى رجعنا إليها شيئًا من ذلك فضلاً عن تزمتهم فى الدين وتشددهم مع الخارجين على قواعده..

لقد أثبت المؤرخون ورجال الملل والنحل أن نقولاً من أقاويلهم كانت موضع جدل وحماس عنيفين، فقد سجل الغزالى والباقلانى والشهرستانى واليمانى والرسغنى كثيرًا من تلك الأقاويل فى تصانيفهم يوم كانت معتقدات القوم وكتبهم أسرارًا مكتومة لا يعرف منها إلاّ الشوارد والنبوءات، وصنّف هؤلاء وغيرهم كتبًا فى الرد عليهم ولم يعرضوا لوصف مذهب هذه الطائفة. بل كلٌّ منهم يصف منها مالا يحكيه الآخر مع إنكار هذه الطائفة لها[١].

ومرّت السنون متعاقبة لا نعرف عنها سوى أقوال خصومها إلى أن هيئ لنا من نشر ما عثر عليه من كتبهم[٢]، فعرفنا عنها شيئًا غير يسير، وعرفنا أن ليس كل من يخفى تعاليمه الدينية كان باطنيًا، وليس كل من يبطن فى عقيدته صار إسماعيليّا، وإنما تشترك الطوائف الإسماعيلية مع الباطنية فى أشياء هى من ناحية التشريع الإمعان فى التأويل والتفسير. ومن الناحية الاجتماعية التستر والخفاء لأنهم بلغوا من غلوهم فى معانى الدلالات اللفظية والكونية مرحلة لا تحتملها سائر الطبقات من حولهم وتعتبرهم من الزنادقة فى مروقهم وإلحادهم.. ثم تختلف عنها فى أشياء عدة.

(١) المسعودى - التنبيه والإشراف ص ٣٩٥ ط - ليدن ١٨٩٣م.

(٢) كامل حسين - المؤيد فى الدين والمجالس المستنصرية وغيرهما والمجالس المؤيدية للشيرازى، والافتخار للشيرازى، ورحلة ناصر خسرو ودراسة عنه للخشّاب، وعبقرية الفاطميين: محمد حسن الأعظمى، وجامعة الجامعة - تحقيق عارف تامر، ورسائل إخوان الصفا وخلان الوفا.

فالباطنية على هذا النحو ـ كما نرجّح ـ نزعة تأثرت بكلام الفلاسفة الأوائل[١]، وصنّفوا كتبهم على نهجهم والتجأوا إلى كتمان معتقدهم لأنهم كانوا ممن يقولون فى الله أنه موجود ولا موجود، ولا عالم ولا جاهل[٢]، وأمثال ذلك: من أقوال يخالفون بها معتقدات الناس ويشذون بها عن معارفهم وأساليب تفكيرهم.

ومما يعتقده «الباطنية» أن لكل شىء ظاهرًا وباطنًا وأن الباطن هو الأصل[٣]، والعالم السفلى الذى نعيش فيه إن هو إلاّ ظاهر لعالم علوى لا يدرك أسراره إلاّ الخاصة من الناس، وأن بواطن الأشياء تتقارب وتلتقى وتأتلف، وأن الناس لو عرفوا بواطن ذلك لاستراحوا واتفقوا وما اختلفوا[٤] وأن الخاصة هم الدعاة بدرجاتهم المختلفة، ثم الأئمة.

وقد ولعوا بالظاهر والباطن معًا حتى ادعوا بأن الإمام موجود فى هذا العالم إمّا ظاهر مكشوف، وإمّا باطن مستور، فإذا كان الإمام ظاهرًا يجوز أن تكون حجته مستورةً، وإذا كان الإمام مستورًا فلابد أن تكون حجته ودعاته ظاهرين؛ لأن العقول الفاحصة المدركة ـ على حد تعبيرهم ـ من خصائص الأنبياء والأئمة من بعدهم فلابد للعامة من الرجوع إلى إمام يشرح لهم أمور دنياهم ويفسر لهم شئون أخراهم ويوضح الغامض من آى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولكن أبا العلاء المعرّى من فلاسفة وشعراء هذا العصر لم يجد ملاذًا سوى العقل فيرد على نظريتهم فى الإمامة بقوله:

---

(١) أبو بكر المعافرى – العواصم جـ ٢ ص ١٧٤.

(٢) الشهرستانى – الملل والنحل ص ١٤٨.

(٣) الغزالى – الرد على الباطنية ص ٥.

(٤) الكوثرى – مقدمة كشف أسرار الباطنية ص ٩.

(٥) الشهرستانى – الملل والنحل ص ١٤٦.

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء[1]

ثم يقول: فى موضع آخر:

أيها الطفل إن خصصت بعقل فاسأله فكل عقل - نبّى[2]

وفكرة الإمام عند الباطنية - قرامطة وغيرهم - بمنزلة النقطة المركزية فى الدائرة أو المحور الذى تدور حوله تعاليمهم فهو الذى يعرف معنى الآى والحديث فى الكتاب والسنّة، وهو المعصوم من الخطأ[3]، فى حين يحمل ذنوب أتباعه. وليس على الأتباع سوى لزوم الطاعة.

وذهبوا فى شغفهم بالباطن أن جعلوا من مفردات القرآن والحديث رموزاً بعيدة المعانى وتفننوا فى التأويل حتى استنبطوا عبادات الظاهرية بتفاسير لا يقرها الدين الصحيح وتأولوا التأويل وأبلغوه إلى مراتب يسمونها البلاغ[4]. حتى صارت شعائرهم حروفًا ورموزاً لا تخطر على بال أحد، ولا يفهم لها معنى ما لم يتعلمها على أيدى الدعاة وأتباع المذهب.

زعم كثير من المؤرخين أن الباطنية مذهب أسّسه جماعة على رأسهم «ميمون بن ديصان» المعروف بالقداح مولى جعفر الصادق ومحمد بن الحسين الملقب بـ«زيدان» فى سجن والى العراق[5] ثم رفع علم الدعوة - عبد الله بن ميمون - فى أوائل القرن الثالث الهجرى بعد أن رتّب قواعده واستنّ أحكامه ونظّم درجات دعاته. ووصل كثير من المؤرخين بينها وبين الفرق التى سبقتها فى الإسلام وقبله وربط بعضهم بينها وبين الآراء الفلسفية التى انحدرت من حكماء الهنود وفلاسفة اليونان، وادعى أحدهم بأن الإسماعيلية عقيدة رافقت الكون منذ ابتدائه، وأنها قديمة

---

(١) اللزوميات جـ ١ ص ٥٥ و جـ ٢ ص ٤٣٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المعافرى - العواصم جـ ١ ص ٤٣.

(٤) التنبيه والإشراف المسعودى ص ٣٩٥.

(٥) الرسغنى - مختصر الفرق بين الفرق ص ١٧١.

عاصرت القرون والأجيال وستبقى إلى ما لا نهاية.. وزعم أن من الإسماعيلية أفلاطون وتلميذه أرسطو فى الجمهورية، والفارابى فى المدينة الفاضلة وابن سينا فى حى بن يقظان(١).

ولا أظننا بحاجة - أمام هذه المزاعم - إلى تكرار القول بأن: إرجاع كل ظاهرة فكرية إلى مصادر أجنبية وإيصالها بجذور بعيدة الغور قديمة سواءٌ أكانت يونانية، أم فارسية، أم هندية تتعارض مع واقع الحياة المتطورة ومنطق العلم الصحيح. إذ إن طُرق التفسير ووسائل التعبير عند الباطنية على اختلاف نحلهم تتصل بالعربية اتصالاً وثيقًا.. وإن كان هناك شبه بينها وبين العقائد الأخرى فإن العقائد جلها إن لم تكن كلها متشابهة فى جوهرها مهما تعددت الأشكال التى ظهرت بها واختلفت الأزمان والأمكنة التى نشأت فيها.

ولنلمس مدى خطورة هذه الطائفة ومقدار علاقتها بغيرها من الطوائف المماثلة لها بنظرهم ينبغى أن نرجع إلى الوراء أحد عشر قرنًا ونيّفا لنستذكر فرقة ولدت باسم القرامطة نسبة إلى داعيتها الأول - حمدان بن الأشعث - الملقب بقرمط، وهم أصل الباطنية، الذين كان هلاك الدين على أيديهم، كما عبّر عنهم ابن ظافر، وهو يؤرّخ للفاطميين فى مصر.. ثم قال: «أمّا مذهب ملوكها فالكفر الصريح والنفاق الذى خالف فيه الباطن الصريح.. كانوا دعاة لمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق يقتتلون الناس باسمه ويذكرون أنه حى يرزق»(٢).

---

(١) عارف تامر - أربع رسائل إسماعيلية - المقدمة ص ٢٥ - ٢٧ - منشورات دار الكتاب ببيروت - سنة ١٩٥٢م.

(٢) ابن ظافر الأزدى - أخبار الدولة المنقطعة، ورقة ٤٠.

خطرها:

وعند الموازنة بين العقائد لتبيين مقدار أشدّها خطرًا على الإسلام فإنهم اعتبروا الباطنية أشد خطورة من أى مذهب آخر بل من أية عقيدة أخرى حتى لو كانت كفرًا وإلحادًا، لذا نجد ـ عبد القاهر البغدادى ـ يقول وهذا بعض ما قاله: «واعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم. بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال»(١).

والذى يبدو لتعقب خطوات تلك الحملة العنيفة التى تعاون عليها الخلفاء وحاشيتهم ومكّنوا فرق الإسلام من المعتزلة والشيعة والمرجئة والخوارج والأشاعرة ـ كالجبائى ـ والنوبختى والأشعرى والبصرى والكلاّبى وغيرهم(٢). إن الباطنية تشمل فرقًا متعددة وإن غلبت على فرقتين من الشيعة كالفاطميين فى مصر والحشاشين فى فارس، وأنه قد بولغ فى التشنيع عليهم حتى أصبح هذا اللفظ وسيلة لتبرير قتل من يُتَّهم بها، وهذا ما شهدناه فى عصر «النظام».

والذى يبدو كذلك أن الحملة هذه أصبحت سياسية لذا قد تضاعفت وبلغت أشدّها يوم أن انتقلت الباطنية من حقل الجدل النظرى والمعرفة لإدراك الحقيقة التى تضفى على الدين سموّها وعُمقَها إلى ميدان الحياة العامة والتشريع العملى الذى هو الجزء الاجتماعى الأصيل فى الدين والغرض من إيجاده ونشره، فكان سرعان ما يُتهم بذلك كل خارج على الحكم يخشى منه فتصادر أمواله ويشنق.

ودّب الرعب فى قلوب الناس، وخشى السلاطين من المقربين إليهم خوفًا من أن يكونوا من الباطنية. ويستمر «البغدادى» فى وصف الفزع الذى استولى على الناس منهم واستغلال الجبناء هذا الاسم لاتهام أعدائهم به ليتخلصوا منهم

(١) عبد القاهر البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٢٦٥ ، ٢٦٦.

(٢) المسعودى - التنبيه والإشراف ص ٣٩٥.

«وسعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغض[1]، ويتعدى الرعب والخوف منهم بحيث تخشى الجماهير ملوكها، إذا أحست بميلها نحو الباطنية فيبطشوا به كما جرى على ملك كرمان، وحتى فنى فى هذه الاضطهادات خلق كثير»[2].

وأغلب الظن أن شهرة الباطنية بالعنف والقتل واتهام كل قاتل مجهول الهوية بالباطنية ـ وهو كثير فى التاريخ، مما ساعد على بعث الخوف فى النفوس، كما أن اتفاق رجال الحكم على مطاردتهم مما جرأهم على اغتيال من يخافونه على حياتهم ويخشونه على عقيدتهم، فضلاً عن التعاليم والطرق العقيدية التى كانت تدفعهم إلى التفانى فى سبيل مذهبهم وإطاعة زعمائهم، كل هذا جعل من المؤرخين من يدعوهم بالفداوية، كلما تحدثوا عن القرامطة فى البحرين منذ المائة الثانية إلى حين ظهورهم فى أصبهان باسم النزارية أيام السلطان ملكشاه أو المستعلوية الذين نزلوا بإقليم طرابلس من بلاد الشام[3].

ومّما ينبغى التنبيه إليه أن الفدائية ـ فى الواقع ـ فرقة من الباطنية تروّض نفسها على الفداء بأرواحها من أجل الدين ومشايخه. ولصاحب مصر بهم مزية يخافه بها أعداؤه فى جميع الممالك لأنه يرسل من يقتل عدوه ولا يبالى إن قتل بعده، ومن بعثه السلطان منهم إلى عدوه فجبن عن قتله، قتلوه أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه حتى يقتلوه. ويسمون أنفسهم المجاهدين ويقال لكبيرهم «أتابك» المجاهدين، وعادتهم المنع عن مخالطة الناس.

ثم يصف لنا صاحب المسالك ما يدل على ذلك، وكيف ترتب القوائم بأسمائهم وتحفظ عند كاتم السر، وإذا حضروا لمقابلته لا يدخل عليه غير واحد

---

(١) البغدادى - أخبار آل سلجوق ص ١٣.

(٢) المصدر السابق ص ٦٣.

(٣) ابن كنان ـ حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، ورقة ١١٠.

منهم وأنه يختبرهم فيما يصيرون إليه بالحالة التى يدخلون منها على العدو بالمشاهدة فإن وجد التصوير لائقًا عرض على السلطان فى خلوة بين خواص الأمناء من خدّام الملك، وإن كان التدبير فى الحيلة غير واقعى أدخلوا غيره حتى يقبل تدبيرهم، وعلى كاتم السر كلفتهم فى مضيفهم مدة إقامتهم وتوجههم[1].

ومن ثمّ صارت الباطنية سلاحًا ذا حدين يشهره الملوك والولاة أحيانًا ضد الناقمين على السياسة الساخطين على الوضع القائم.

وسائل مقاومتها:

ذكر ابن خلدون: «أن العصبية هى منشأ الرئاسة والسلطان أو الدولة وهى عبارة تدلنا عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة أو الجاه، وقوامها فى نظره الاتصال برابطة النسب والقرابة، وما إليها من الروابط المماثلة»[2]. هكذا ربط ابن خلدون بين العصبية والحكم وجعل من رابطة الدم دعامة لنشأة الدولة إذا كان النسب بعد الدين هو الأساس الذى ترتكز عليه الهيئة الحاكمة منذ بداية الحكم الأموى حتى نهاية الخلافة العباسية بحيث أصبح علمًا يحتل أعلامه المكانة المرموقة فى بلاط الخلفاء ومجالس الوزراء والأمراء، وقد ألّفوا فى أصول العرب وقبائلهم الشىء الكثير. ولتفاخرهم بالأنساب واعتزازهم بمآثر السلف فقد وضعت أشجار النسب وجرّد من أغصانها من هو عربى أصيل وألحق فيها من الأعاجم عدد غير قليل.

وقد اتخذت الخلافة العباسية وسلاطينها الموالين لها من تلكما الدعامتين الأساسيتين هدفًا ذا وجهين لمقاومة الدعوة الفاطمية، وشنت حربًا لا تكل ولا تهدأ لنقضها وهدمها. أمّا من الوجهة الأولى فقد شككّت الناس بانتسابهم إلى

(١) المصدر السابق ـ حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، ورقة ١١٠.

(٢) المقدمة ص ١٢٥، ٢٢٨.

فاطمة من طريق إسماعيل بن جعفر الصادق مادام إسماعيل قد مات فى أثناء حياة والده[١]، ولم يخلف وارثًا سوى محمد الذى مات هو الآخر ولم يعقب[٢].

وحينما شعر العباسيون بخطر الفاطميين دعوا علماء بغداد وعلى رأسهم نقباء الطالبيين والعلويين فسجّلوا محضرًا بزيف أنسابهم وأعلنوه للرأى العام، ففى ربيع الآخر من سنة ٤٠٢هـ اجتمع رهط كبير من علية القوم والساسة والعلماء وقرروا بطلان نسب الفاطميين إلى على من فاطمة وأن «معد بن إسماعيل» خليفة مصر آنذاك إنما ينتسب إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد الذى ينتسب إليه الديصانية وأنهم كفار وزنادقة وملحدون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، وأنهم أيضًا عطّلوا الحدود وأباحوا الفروج وأحلّوا الخمور وسفكوا الدماء وسبّوا الأنبياء وادعوا الربوبية.

وختم على ذلك من العلويين الشريف الرضى وأخوه المرتضى، ومن الفقهاء أبو حامد الإسفرايني وأبو الحسن القدورى، ومن القضاة أبو محمد بن أحمد وأبو عبد الله البسطامى.. ووزّع هذا المنشور فى أنحاء البلدان وقرئ فى العواصم على المنابر ليعرفه الخواص والعوام.

ومن الوجهة الثانية: فقد شنوا حملة واسعة النطاق، تضافر على إعلانها جهود رجال الحكم والقلم جميعًا لاعتقادهم بأن للدعوة الدينية أثرًا فى تقوية الدولة[٣]. فظهر خلال هذا القرن من كتب الفرق باللغتين الفارسية والعربية مثل: الفرق بين الفرق للبغدادى (٤٢٩ هـ/ ١٠٢٧م)، والفِصَلْ فى الملل والنحل لابن حزم (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)، وبيان الأديان بالفارسية لأبى المعالى (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، الملل والنحل للشهرستانى (٥٤٨هـ / ١١٥٣م). ثم

(١) الرسغنى - مختصر الفرق بين الفرق ص ١٧١.

(٢) جهانكشاه جـ ٣.

(٣) ابن خلدون - المقدمة ص ١٤٢ ـ الفصل الثالث.

يجيىء الخليفة المقتدى فيكلف الإمام الغزالى بوضع كتاب فى الرد عليهم فيرسل إليه كتاب: «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية». . يقول عنه - أبو بكر المعافرى: «إنه قد برع فيه وإن كان القاضى أبو بكر - يقصد الباقلانى - قد سبقه إليه. . وهذا السلطان - ملكشاه - يرسل إليه بمثل ذلك التكليف فصنّف له كتابًا بالعجمية سمّاه «حجة الحق»[1] ثم ألّف القسطاس المستقيم والمنقذ من الضلال لنفس الغرض.

والذى يبدو أن هذه الخطة فوق أنها مدبّرة كانت عنيفة قاسية فقد تحامل القائمون فيها على الفاطميين واختلقوا لهم من الأعمال والأقوال ووصموهم بما عرف عن الباطنية وغيرهم، فإن إسماعيلية معد والمعز إلى عهد المستنصر تختلف اختلافًا وإن كان يسيرًا عما صارت إليه بعد ذلك، ففى عهد الخليفة الأخير انشق دعاتهم إلى نزارية ومستعلية، وذهب إسماعيلية العراق والشام وخراسان إلى إمامة الأول وكان منهم طائفة الحشاشية والدروز، والآخرين إلى الثانى وكان منهم جماعة مصر وهم أكثر العقائد الفاطمية الإسماعيلية اعتدالاً.

على أن هذا الغلو من قبل الدعاة لم يكن خافيًا على الخلفاء الفاطميين أنفسهم منذ البداية، ولم يكن أمره برضا منهم. . لذا وجدنا المعز لدين الله يستنكر مقالات دعاتهم مما لا يتفق مع مبادئهم فيقول: «تنتهى إلينا أخبار عن بعض من يزعم أنه يتولانا وبعض من يدعى أنه يدعو إلينا من الغلو فينا والقول بما لم نقله فى أنفسنا وبما لم يسمعه أحد منا حتى كأنهم أعلم منا بما يقولونه فينا ونحن نبرأ إلى الله من كذبهم علينا وتقوّلهم فينا وتأويلهم الكتب كالقرآن والشريعة الإسلامية عنّا. .- إلى آخر ما هنالك من نص بمعرفة الغيب أو ادعاء النبوة والرسالة وليس لهم من العلم سوى ما ورثوه عن جدّهم الرسول، ومن المنزلة غير الإمامة كسائر عباد الله الدالين عليه»[2].

(١) أبو بكر المعافرى - العواصم من القواصم جـ ١ ص٦٠.

(٢) يشيرون بذلك إلى أمثال - ناصر خسرو - وكتابه - وجه دين - انظر ترجمته برحلته ومقدمتها للمرحوم يحيى الخشّاب.

ومن ناحية النسب فإننا نميل مع القائلين من المؤرخين بصحة نسب الفاطميين كابن الأثير وابن خلدون وابن طباطبا والمقريزى وغيرهم من القدامى وبعض المحدثين، فإنه بالرغم من الشكوك التى أثيرت فى نسبهم فلا نعرف أن الفرس أو اليهود قد ساندوا حركتهم إلاّ بمقدار ما يتصل بمصالحهم. وكان سعيد بن ميمون القداح[1] هو - عبيد الله المهدى ـ وهو إنما نشأ فى سلمَّية من بلاد الشام.

وأسهم فى هذه الحملة غير هؤلاء فإن «نظام الملك» بإنشائه المدارس النظامية لإيقاف تيار الدعوة الفاطمية والرد على المذاهب غير الحنفية والشافعية وصدّ زحف الباطنية وأصحابها ذوى المبادئ الخبيثة ـ على حد تعبيره فلم يكتف بإنشاء مدارسه تلك والحملة التى قام بها العلماء لكشف فضائح الباطنية وهتك أستارهم وهو المحرك الأول لها، وإنما أراد أن يغمس قلمه فى مداد المؤلفين.. وأن يسايرهم فى حركة الكتّاب والناشرين، فما أن طلب إليه السلطان ملكشاه أن يضع دستوراً فى إدارة المملكة حتى يستغل هذه المناسبة فيلفت نظره إلى خطر الباطنية فى أكثر من موضع فى كتابه ـ السياسة ـ ثم يفرد لبيان مخاطرهم وضرورة القضاء عليهم تسعة فصول أرجعهم فيها إلى المزدكية وربط بينهم وبين القرامطة والفاطميين وأوضح عن مبلغ خطرهم على الدولة الإسلامية حيث دعاهم فيها بذوى المبادئ الخبيثة. تارة والمخرّبة تارة أخرى[2] على غرار ما هو شائع لدينا اليوم من اتهام لبعض الأحرار والمجدّدين بذوى المبادئ الهدّامة ـ كالنازية أو الشيوعيه إذا وجد الحاكم فيها معارضة لسياسته وخطراً على حياته وحكمه كأن التاريخ يعيد نفسه.

ومع أننا لانشك فى وجود مثل هذه المبادئ المخرّبة الهدّامة عند حدوث أسبابها ومناسباتها فلا يصحّ لنا أن نجحد ـ فى نفس الوقت ـ أثرها فى تطور

(١) مخطوطة ابن حيون ـ ورقة ١٢٥ ، ١٣٧ ـ مكتبة جامعة القاهرة.

(٢) سياستنامة.

الحضارات الإنسانية، وأنه بقدر ما خدمت المثالية الأفلاطونية فى تقدمها فقد أفادت من تلك النقوض الفكرية التى دعا إليها الأبيقوريون، وأن كثيراً من المبادئ التى نسميها هدّامة أو مخرّبة وندعو أصحابها بالهدّامين المخرّبين لم تمض عليها فترة من الزمن حتى تصبح ديدن الجيل الجديد وعقيدته البنّاءة المعمّرة. ولعلّ من خير الأمثلة - كدليل على صواب ذلك - ما نعرفه عن نظريات: كوبرتيكس وجاليليو وكبلر وموقف الكنيسة الغاضب منها وإطلاق اسم الهدّامة عليها حتى قضت على ذويها.

ولئن صحّ ما قلناه - ولا نظنّه إلا صحيحًا، فليس الاتهام بالمبادئ الهدّامة من مستحدثات العصر الذى نعيش فيه وإنما قد حلّ محل البدعة فى العصور السوالف مع فارق يسير بينهما من حيث اتصال السابق فى الدين واللاحق فى السياسة، وما دام الفصل بين الحكم والعقيدة من مشكلات العلم كان من الممكن استعمال أحدهما فى موضع الآخر.

وكان من الطريف تعبير «النظام» عنها: «بالمبادئ المخرّبة» بدلاً من البدعة والمبتدعة لشعوره بأنها أقرب إلى السياسة منها إلى الدين. وأخيراً.. فليس هناك - فى واقع الأمر - مبادئ هدّامة بالمعنى الشائع فى الأذهان وكما يدور على ألسنة الناس إذ لو أتيح لنا استعراض الاصطدامات والمتضادات التاريخية لما وجدنا ألوان الحضارات التى نحيا فى ظلالها - بنظر العلم - سوى انعكاسات لتلك المجموعة من المبادئ المختلفة لأن البناء لا يكون إلاّ بعد هدم، ولأن معظم تلك المبادئ السلبية لابد لها من رد فعل إيجابى سواءُ أكان ذلك فى الدين أم الأخلاق أم العلم.

انتشارها:

وعلى الرغم من تعاون الجهات المختلفة عدة قرون على مكافحتها بشتى الطرق ومختلف الوسائل، والصراع الدموى الذى شهده القرن الخامس لمطاردة أنصارها والقضاء على حركتهم، فإنها تفشت فى سائر الأمصار، وصار لها أعوانها ومريدوها من بلاد المغرب إلى ما وراء النهر.

والذى يهمنا فى هذه الرقعة الواسعة: فارس ومصر والعراق، وبعبارة أخرى أدق حواضرها نيسابور والقاهرة وبغداد. هذه المراكز الثلاثة التى كانت مبعث قلق واهتمام لوزيرنا «النظام»، كما كانت المسرح الذى شهد تنفيذ سياسته الدينية من ناحية أخرى.

لقد كانت خراسان شافعية المذهب[1]، كما كانت بخارى حنفية وكانت بلخ نقطة التقاء المذهبين، ثم تغلبت أولى هذه المناطق منذ عهد محمود الغزنوى وأبنائه من بعده[2]، حيث انتقلوا إليه أسوة بخلفائه من بنى العباس.

والشافعية ـ كما عرفنا ـ أميل إلى النقل وأبعد عن الاعتزال من الحنفية التى تقول بالرأى القياسى. أمّا الحنبلية فهو مذهب للنقل، ولم يعرف الإمام أحمد إلاّ من رجال الحديث ـ كمالك ـ حتى لنجد ما يبرر القول: بأنه ليس صاحب مذهب، وإن روت الحنابلة وبخاصة الظاهرية ما لم يعرف عنه أيام حياته. وهى مذهب قريش والأئمة ـ كما روى بعضهم عن الرسول ـ من قريش وهو مذهب مطلبى، ولآل عبد المطلب أنصار عديدون تشدّ أزرهم فكرة الخلافة فى نسل الرسول؛ لذلك نراها انتشرت فى الشام ومصر والعراق واليمن وأزاحت من أمامها مذهب مالك وأبى حنيفة.

وحطّ الفاطميون رحالهم فى القاهرة المعزية بعد أن مهد لدخولها القائد «جوهر الصقلى»، وما أن استقرت لهم الأحوال واستتب الأمن حتى بثوا دعاتهم فى كل جهة ومكان داخل مصر وخارجها وكانت أطماعهم فى الشرق لا تنتهى إلاّ بسقوط بغداد والقضاء على خلافة بنى العباس التى تهدّد عرشهم وتختلف معهم فى عقيدتهم.

ووقفت الخلافتان كل واحدة منهما للأخرى بالمرصاد وتدبر ضدها المؤامرات وتكيل لها الاتهامات وتنعتها بأحط الصفات، وكانت الخلافة العباسية أقوى

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٥٥.

(٢) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٢ ص ٢٠٣.

جيشًا وأكثر أتباعًا فى حين كانت خلافة الفاطميين الفتيّة أضعف جندًا وأقل أنصارًا، ولكن لم تمر الأعوام وهى قليلة بالنسبة للنصر الذى حازته حتى بلغت دعايتها معظم أنحاء المشرق الإسلامى وتغلغلت فى حواضره ولقيت صدورًا رحبة وآذانًا صاغية من بعض العلماء والمتعلمين وراجت بعد قليل فى أوساط العامة والغوغاء وبخاصة المتشيعة كما لقيت معارضة من قبل الحاكمين ورجال السياسة.

لقد اتصل الفاطميون بملوك الشرق ومنّوهم بشتى الأمانى قبيل هذا القرن ولكنهم لم يجدوا منهم قبولاً ولدعاتهم استقبالاً فقد كتبوا «للنوح بن منصور» والى خراسان فأمر بقتل دعاتهم ـ وكتبوا إلى ناصر الدولة محمد بن إبراهيم ابن سنجور فأجاب بالآية: «يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. . . إلخ»، وبعثوا إلى قابوس بن وشمكَير الزيادى ـ رسولاً فأجابه بقوله: «لا أذكرك إلا على المستراح ـ وهو المرحاض ـ ثم انتهز الخليفة الفاطمى فرصة الخلاف بين السلطان محمود والخليفة القادر بالله من أجل تلقيبه فأرسل إليه داعيته ـ القاهرتى ـ للاعتراف بخلافة مصر ومذهبها ويغدق عليه ما يريد من ألقاب فقد ذهبت محاولته أدراج الرياح أيضًا بمنحه لقب ـ أمين الملّة من قِبَلْ خليفة بغداد[1].

ولكن الدعوة الفاطمية على الرغم من مقاومة خلافة بغداد وعلمائها انتشرت فى الشرق الإسلامى حتى عمّت بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وبغداد وخراسان وبلاد ما وراء النهر والحجاز واليمن والبحرين[2]. . وكان ذلك لأسباب منها ضعف الخلافة العباسيّة وسلطة آل بويه معًا، الأمر الذى ضاعف مطامع القادة الأتراك وجرأهم على الخليفة العباسى.

(١) النظام – سياستنامة ص ١٢١ـ ١٢٦.

(٢) المقريزى – الخطط جـ ٢ ص ٢٥٨.

ومن الأسباب التى روّجت للفاطميين دعوتهم أنهم حققوا للشيعة فكرة العبدوية (أى المهدويّة) وأخرجوها إلى دنيا الواقع بعد أن كانت خيالاً تسرح فيه الأوهام وتختلف فى صحتها وخطئها الأفهام، يهدينا إلى هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير من أنه جاء إنسان إلى على بن عيسى[1] وأخبره أن فى جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر[2] بالأخبار فأحضره وسأله واعترف، وقال: «ما صحبت أبا طّاهر إلا لمّا صحّ عندى أنه على الحق، وأنت وصاحبك - أى الخليفة - كفّار تأخذون ما ليس لكم ولابد لنا من حجة فى أرضه وأمامنا المهدى فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب، ولسنا كالرافضة والاثنى عشرية الذين يقولون بجهلهم: إن لهم إمامًا ينتظرونه ويكذّب بعضهم بعضًا. فقال له على بن عيسى: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبّر الوزارة، كيف تطمع فى أننى أسلّم قومًا مؤمنين إلى قومٍ كافرين يقتلونهم؟! لا أفعل ذلك».

إن هذا الحوار بين الوزير العباسى والقرمطى المجهول الاسم يرشدنا إلى إيضاح فكرة المهدويّة عند الشيعة التى حار فى تفسيرها بعض الباحثين أحيانًا، وأنها حقيقة تتمثل فى القائم الأول بالأمر من أبناء على وأن القرامطة مشتركون مع الفاطمية بإمامة إسماعيل، وأن جلّهم إن لم يكونوا كلّهم يعتقدون فى صحة نسب الفاطميين وحقهم فى الإمامة، وأنهم بعد هذا يكفّرون طوائف الشيعة فضلاً عن بقية مذاهب المسلمين.

يضاف إلى تلك الأسباب فى شيوع الباطنية: إهمال سلاطين السلاجقة الأول لأمر «المخبرين»، فإنهم بعد قتلهم للبساسيرى وقضائهم على فتنته الداخلية وإرجاعهم الخليفة القائم لمنصبه على يد - طغرلبك - وتسجيلهم

(١) وزير الخليفة المقتدر بالله العباسى.

(٢) أبو طاهر الجنابى.

الفتوحات الخارجية، خامر سلطانهم الثانى - ألب أرسلان - الغرور بقوة حكومته وساوره الكبرياء لبطش جيشه فترك أمر تعيين «المخبرين» ولم يقبل اقتراح وزيره «النظام» فى العناية بهم لينقلوا إليه «أخبار الأقاصى والأدانى». . وقال: «لا حاجة بنا إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر وكان له غرض أخرج الصديق فى صورة العدو، والعدو فى صورة الصديق»[1]، فوجد الباطنية بذلك وسيلة لنشر دعوتهم دون خوف من رقيب.

وكان طبيعيًا أن تختار الباطنية - بغداد - دون غيرها من الحواضر والمدن مركزًا يمد تلك الحركة بالقوة على اختلاف أشكالها؛ لأن بغداد عاصمة الخلافة العباسية المناوئة لهم؛ ولأنها موطن الخليفة الذى يمثل السلطان الروحى فى العالم الإسلامى؛ ولأن الخليفة لا يملك نفوذًا سواه فأصبح من الضعف بحيث لا يخشى بأسه ولا يرتقب بطشه؛ ولأن أهل بغداد وسكان ضواحيها أكثر الشعوب التابعة لها حضارة وأرغد عيشًا وأرقّ مزاجًا حتى اشتهرت بالظرف والظرفاء، والزنادقة والمجّان.

وكان لابد للباطنية أن يستندوا فى تحقيق مبادئهم إلى سلطان خارجى قوى يناصرهم مادامت تلك المبادئ واحدة وليست من مواليد هذه البيئة التى وفدت عليها. وكان لابد وأن تكون الإسماعيلية فى الشرق الإسلامى مؤيدة من قبل الفاطميين بمصر، وأن يمدّها هؤلاء بالمال والرجال من طرف خفىّ تارة وعلانية إذا أمنوا ذلك تارة أخرى، كما رأينا هذا فى موقعة البساسيرى سنة ٤٥٠ هـ.

إن نظرة الشعوب إلى الحياة بما فيها الدين تختلف باختلاف ظروفها البيئية من أحوال فى الاجتماع والاقتصاد والعلم والعدل.. ولم نجد فى ذلك العصر بيئة توافرت فيها وسائل الترف وأسباب الجد واللهو كبغداد، فإنها جمعت فى هذا الوقت بين عبث الماجنين وتحرّج المحافظين.. بين فريق فى تزمته وتشدّده فى

(١) البندارى - آل سلجوق ص ٦٣، والنظام - سياستنامة ص ٦٥.

تطبيق قواعد الدين أميل إلى الرجعية كالمشبهة والحنابلة، وآخر فى تبذله وتحلله من قيود العقيدة ونظرته الساخرة أو الحائرة إليها أقرب إلى الإلحاد والزندقة كغلاة الباطنية والمجسّمة.

وكان فى كل ذلك ما يحفّز الإسماعيلية على جعل بغداد وكرًا يتراسل منه دعاتهم فى الشرق ويلتقون فيها لتبادل الرأى ووضع الخطط لبث قواعد المذهب، ومما يروى أن الحسين بن حمدان الخصيبى كان قد التحق بعبد الله ابن محمد جنان الجنبلائى[1] عند مروره بمصر وتتلمذ على يديه، وأخذ عنه فكرة التأويل الباطنى وخلفه فى الزعامة الدينية التى جعل مركزها فى العراق ـ كرخ بغداد ـ وألّف كتابًا سمّاه ـ راسباشى ـ أى كن مستقيمًا ـ وقدّمه إلى عضد الدولة البويهى خلال إقامته ثم سافر إلى حلب، وقدّم كتابه الآخر باسم ـ الهداية الكبرى ـ فى تراجم أهل البيت إلى سيف الدولة الحمدانى ـ وبقى فيها إلى أن توفى سنة ٢٤٦هـ[2].

ومن الغريب ـ وليس غريبًا فى واقع الأمر ـ أن ينشقّ الغلاة على أنفسهم فتكون الإسماعيلية المؤلهة لـ«علىّ» ضد الخصيبيّة الحلولية.

وظلت بغداد ميدانًا للتطاحن المذهبى حتى القرن الخامس الهجرى لأنها ملتقى الثقافات والأديان والأجناس.. وليس ببعيد أن يكون للباطنية يد فى إثارة الفتن بين المذاهب السنّية كما كانت سببًا فى إشعال أوارها ضدهم.. وربما كانت تستغلّها فى الدعاية لنفسها لانشغال هذه الفرق بمعاركها.

وهى على هذا تتفق مع الشيعة ـ على تباين نحلهم ـ فى أن الخلافة يجب أن تتخذ من آل محمد، ولكن هؤلاء يضيّقون دائرة الحصر فى أبناء على

(١) من بلد جنبلا من عراق العجم.

(٢) والحسين هذا هو الذى زاره المتنبى، وروى عنه أحاديث كثيرة وليس ببعيد أن يكون قد تأثر بتعاليمه، فظهرت فى شعره حتى اتهم فى ميله الباطنى.

وفاطمة.. ففى بلاد فارس ولاسيما خراسان كانت حركات التشيع ضد الحكومة القائمة مستمرة دون انقطاع ولم تخمد أو تهدأ الدعاية لها حيث كانت سلالة «على» تتمتع بنفوذ قوى فى نفوس الأهالى[١].. وفى عهد الأمير - نوح بن نصر السامانى[٢] وعلى مرأى ومسمع من أبيه الذى تنازل له، حدثت مذبحة الشيعة فى خراسان مبتدئة بنخشهابى وأنصاره وعلى أثرها عاش رجال الشيعة مستترين[٣].

وليس من شك فإن مثل هذا الاضطهاد الدينى يؤدى إلى انحراف بالمذهب فيشوب الغموض بعض مبادئه، وتدخل فيه زيادات بمرور الزمن لا تمت إلى أصوله بشىء ويبتدع القائمون به من وسائل الدعاية للمذهب والدفاع عن أنفسهم ما لم يخطر ببال المناوئين له لو لم يكن ذلك الضغط على حريات المعتنقين له.

لقد وجدت الشيعة على اختلاف طوائفها - من آل بويه بعد استيلائهم على حركة الخلافة العباسية ببغداد، ومن نهضة الفاطميّين بعد دخولهم مصر خير مشجّع لها فى هذين البلدين ، وما يدخل من الأقاليم تحت نفوذها. وعلى هذا فقد كان الباطنيون - من طوائف الشيعة - يجدون فى البويهيين سندًا لهم أحيانًا وحرية مطلقة لبث دعاتهم فى أغلب الأحايين. لهذا كان يحزنهم إن حاربوا آل بويه وإن لم يكونوا منهم على الرغم من تظاهر بعضهم بذلك كمناورة سياسية يقومون بها لشن حرب باردة لإخضاع الخليفة وكسب رضا الجهات التى تعطف

(١) بارتولد - تاريخ تركستان ص ٢٤٢.

(٢) المقدسى - ناصر وفى سياستنامة «منصور».

(٣) هذه الرواية يسردها «نظام الملك» ولكن الفهرست يصف إخمادها بصورة مختلفة كما يخالف «النظام» ما جاء فى التاريخ حيث يقرر أن ارتقاء نوح إلى العرش قد تم بعد موت والده، غير أن رأى المؤرخ المعاصر - نرشاث - ص ٩٤، فإن ارتقاء نوح قد حدث فى ١٠ نيسان سنة ٩٤٢م أى بعد وفاة والده سنة ٩٤٢م بأيام.
(بارتولد - تركستان).

على الباطنية أو الموالية لها. . ولهذا أيضًا أثار حفيظتهم انتصار السلاجقة على الديالمة وأضمروا للدولة السنّية الجديدة العداء وأعدّوا الخطط للإيقاع برجالها عندما تحين الفرص المواتية.

وكان لتأسيس الخلافة الفاطمية فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع[1] الهجرى أثره الكبير فى انتشار الدعوة الشيعية وتشجيع القائمين بها، وقد تغلغلت رسلهم فى خراسان وانتشر مذهبهم في أنحائها، وجذبوا إلى صفوفهم مشاهير الرجال والعلماء مثل: حسين بن على المروزى وغيره، وعلى يد تلميذه محمد بن أحمد نخشهابى - انتقلت الدعوة إلى بخارى واعتنقها كثير من الرؤساء حتى أصبح الأمير نفسه باطنيّا قرمطيّا. وحتى مال إليها بعد ذلك بقليل من أحرار الفكر أمثال: أبى العلاء المعرّى، ووالد الشيخ الرئيس ابن سينا، والخيّام، وناصر خسرو، وابن الصباح، وأسّس الأخيران طائفة عرفت فيما بعد باسمهما.

وما أن طلع القرن الخامس الهجرى حتى كانت الإسماعيلية - أساس العقيدة الباطنية، قد غزت خراسان ، وما وراء النهر وبعث الحاكم بأمر الله الفاطمى داعيته عبد الله بن على العلوى القاهرتى[2] إلى السلطان - محمود الغزنوى - فناظره الشيخ عبد القاهر بن طاهر البغدادى بنيسابور فأفحمه وتغلب عليه وأمر القادر بالله - الخليفة العباسى - بقتله، وأخرج البغدادى مصنّفه فى الرد عليهم - الفَرق بين الفِرق - على أثر فوزه بتلك المناظرة[3].

واتخذ الغزاونة منذ عهد محمود فى مطلع هذا القرن سياسة الشدة والعنف لصدّ تيار الباطنية الزاحفة من المغرب، وللقضاء على التشيّع الذى خلّفه آل بويه

---

(١) من المعروف: أن مصر فتحها - جوهر الصقلى - سنة ٣٥٨ هـ وبنى القاهرة المعزّية سنة ٣٥٩ هـ ثم كتب إلى المعز لدين الله بالانتقال اليها.

(٢) من أهل مدينة قاهرت - فى أقصى المغرب ومن ذرية الحسن المثنى. الأنساب للسمعانى فى قاهرتى وطبقات السبكى ص ١٦ جـ٤.

(٣) ياقوت - معجم الأدباء جـ ٦ ص ٣١١.

فى شرق فارس والعراق حتى بلغت قسوتهم درجة من الاضطهاد الدينى الذى وصمت به دولة آل سبكتكين وبخاصة محمود، حيث أخذ يلاحق الإسماعيلية ومن يتهم بالميل إليها من الأعلام، فلم يدخل خوارزم حتى قبض على الشيخ عبد الصمد الحكيم أستاذ البيرونى فأمر بقتله لمّا قيل بإنه على مذهب القرامطة الإسماعيلية، وكاد أن يلقى تلميذه أبو الريحان البيرونى حتفه كذلك لولا شهرته فى علم النجوم وحاجة الملوك إلى أمثاله آنذاك[1].

موقف سلاطين السلاجقة و«النظام» من الحركات المذهبية:

وانتهج سلاطين آل سلجوق سياسة ملوك آل سبكتكين فى ملاحقة الشيعة بمختلف نحلهم وطوائفهم وانتقل الكفاح من البويهيين بعد أن قضى عليهم إلى الفاطميين الدولة الفتيّة التى تهدد المذهب السنّى والخلافة العباسية التى تحميه فى آن واحد. وكانوا أقل تعصبًا وغلظة منهم ولا سيما تجاه الديانات الأخرى من النصرانية واليهودية، يشهد على ذلك إطلاقهم سراح الإمبراطور رومانس ديوجينوس، ومعاملتهم الرعايا من المسلمين[2] بخلاف ما كان يلقونه من قبل. ولعل فى احتمال تمسحهم قبل دخولهم الإسلام ما يبرر أو يؤيد تساهلهم الدينى مع الذميين من أهل الكتاب.

وليس هناك من النصوص الدقيقة ما يدلنا دلالة قاطعة على أول داخل فى الإسلام كان من أمراء السلاجقة الأوائل، كما لا نجد الدليل الثابت على مسيحيتهم قبل إسلامهم، وإن ظن بعضهم من مستشرقى الروس ذلك مستدلين بالأسماء ـ ميكائيل وموسى وإسرافيل أبناء سلجوق ـ التى وردت فى الكتاب المقدس[3] ـ التوراة.

(١) ياقوت ـ معجم الأدباء جـ ٦ ص ٣١١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة سلاجقة.

(٣) المصدر السابق ـ مادة سلاجقة ص ٢٥ الترجمة.

ومهما يكن من أمر فليس لدينا من النقول ما يرشدنا إلى أول داخل فى الإسلام ولا متى أو كيف اعتنق الإسلام؟ ولئن كانت الروايات تفرض فى سلجوق ذلك بعد أن قويت الصلات مع أهل - جند - المسلمين فإنه مما لاشك فيه أن طغرلبك بن ميكائيل، وأخواه محمد وجغرى بك داود كانوا من الأحناف المسلمين وعنهم أخذ الدين الإسلامى ينتشر فى آل سلجوق.

وكان مما يعتقده السلاجقة أن الخليفة إمام أهل السنّة، وأنه يجب عليهم الدفاع عنه بحدّ السيف فإن المذهب باقٍ مادام السيف فى يد الأتراك[1]. لذلك كانت علاقتهم به حسنة غالبًا وكان جامع الدين يقضى على الخلافات السياسية والحزازات العنصرية والشخصية فى معظم الأحوال إلى أن ساءت فى أواخر عهد السلطان ملكشاه واشتدت على أثر اغتيال وزيره «النظام»، حيث لم يجد جامع الدين طريقًا للحدّ من نوايا السلطان السيئة وطمعه فى سلطات الخليفة. ولذلك كان موقفهم عنيفًا أمام طوائف الإسماعيلية والخارجين على الخلافة.

وكان الفضل فى موقفهم ذلك يعود إلى الوزير «نظام الملك» ولولا حنكته السياسية واعتداله فى عقيدته للقى العلماء وبخاصة الحكماء من غير أهل السنّة ما لاقوه من عنت وعسف قبيل عهده وبعد وفاته، فقد اضطهد الشاعر الفردوسى لاتهامه بالتشيع وحبّ أهل البيت[2] من قبل السلطان محمود الغزنوى فضلاً عما شهدناه من اضطهادات، وكان يمنح البراءات التى تثبت صحة اعتقاد حاملها[3]. ثم قتل الوزير - الطغرائى وأبو المعالى الميانجى الصوفى بتهمة الزندقة فى الثلث الأول من القرن السادس الهجرى[4].

وفيما ذكره أبو بكر بن المعافرى فى عواصمه من وصف لحال المشرق

---

(١) كلمة رواها أبو حنيفة على لسان هاتف من الكعبة قالها له (راحة الصدور للراوندى ص١٧).

(٢) نظامى عروضى - جهار مقالة ص ٤٩.

(٣) ابن الأثير - الكامل جـ ٩ ص ١٣٩.

(٤) وله رسالة شكوى الغريب عن الأوطان إلى علماء البلدان. كتبها فى أيام حبسه ببغداد.

الإسلامى وهو شاهد عيان جاس خلال هذه الديار فى عشر التسعين وأربعمائة أى بعد اغتيال «النظام» بخمس سنوات، خير دليل على ما نزعمه. فهو يقول فى رحلته[1]: «ولو شاهدتم الشام والعراق لرأيتم دينًا ظاهرًا وعلمًا وافرًا وأمنًا متسقًا وشملاً منتظمًا». وبموت الملك العادل فى سنة ٤٨٦هـ وبموت الخليفة المقتدى ظهرت الفتنة بأرض خراسان وقامت الباطنية، وتمكنت الروم فغزت الشام واستولت على ثالث مشاهد الإسلام، ومحت كلمة الإسلام عن المسجد الأقصى وقتل فيها غداة الجمعة لاثنى عشر بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ ثلاثة آلاف ما بين عابد وعالم، ذكر وأنثى وفيها قتلت العالة الشيرازية بقية السلسلة فى جملة النساء[2].

لقد كان المذهب الباطنى شعار الدولة الفاطمية بمصر وذيوعه فى أية منطقة من المناطق التابعة للخلافة إيذانًا بزوال الحكم العباسى فى تلك المنطقة، لذلك فقد تضافرت جهود الخلافة والسلطنة معًا على قمع كل حركة باطنية حتى لو كان الداعى لها من السلاجقة.. الأسرة الحاكمة نفسها.. وكان المذهب السنّى دين الدولة الرسمى لخلافة بنى العباس فى بغداد يحمل بين طياته اعترافًا بالحكم القائم والحاكمين، فإذا ما أزيل من بلدٍ ما كان معناه زلزلة العرش العباسى.

هذه الظاهرة توضح لنا جانبًا من الدوافع لقيام السلاجقة بحركة الإصلاح الدينى ورفعهم لواءها بحماس بالغ، وتفانى «النظام» فى رسم خطوطها بأمانة وإخلاص. فليس بغريب على شخص كـ«نظام الملك» أن يكون متزمتًا فى عقيدته، متشددًا فى مذهبه فإنه من نسل فارسى والفرس بل الموالى جميعًا عرفوا بذلك أكثر مما عرف به عرب البادية[3].

---

(١) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ١ ص١٧٥، والبيهقى ـ تاريخ الحكماء ص ١٢٢.

(٢) أبو بكر بن العربى المعافرى ـ العواصم من القواصم جـ ٢ ص ٢١٢.

(٣) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٩٠ ، ٩١.

ولم يكن «النظام» يعترف فى الواقع بغير مذهبين من مذاهب الإسلام هما: الحنفى (مذهب الخلفاء والسلاطين من آل سلجوق غالبًا)، ثم الشافعى (مذهبه الذى نشأ عليه من الطفولة، وأخذ يدافع عنه ويسعى لنشره بحماس بالغ بكل ما أوتى من قوة)[١]. أمّا بقية المذاهب الأربعة فلم يكن موقفه منها عدائيا، وما نقله المؤرخون من تنكيل السلاجقة بالشيعة والحنابلة فى عهد «النظام» فإنما كان مردّه إلى حفظ الأمن الذى أخلّ به أولئك وهؤلاء، وليس بتعصب «النظام» أو تدخل السلطان.

لقد رمى أحد الباحثين «نظام الملك» بالتعصب المذهبى، وعزا إليه الخلاف بينه وبين الحسن بن الصباح الذى تسبّب فى طرده من ديوان السلاجقة، والذى أدى إلى اعتناقه المذهب الإسماعيلى واتصاله بدعاة الفاطمية[٢]. وقد يكون فيما اتهم به نصيب من الصحة لما بدا على «النظام» من ميل للأشعرى وتحمس لنشر مذهبه، على أنه من الصعوبة بمكان أن نعلّل لاسماعيلية ابن الصباح وللخلاف بينهما وإخراجه من بلاط السلطان، إذ المعروف أن من أسباب الخلاف بينه وبين زميله «النظام» منافسته الشديدة على المنصب الذى طمع فيه وعمل لإزاحة «النظام» عنه بحبك المؤامرات ضده، والتقرب من السلطان قبل اتهامه بالباطنية والدعوة للفاطمية.

وعلى الرغم من أن التعصب للعقيدة كان مزية تعدّ من فضائل الملوك والوزراء حينذاك وليس من مفاخر خلفاء المسلمين وسلاطيهم فحسب، إذ روى «النظام» عن سلطانه أنه كان يقول: «وا أسفاه لو لم يكن وزيرى شافعى المذهب»، وكان يردد قولته هذه فى مناسبات شتى حتى كان الوزير دائم الخوف والهم من تعصب السلطان لمذهبه ونقده المرير للشافعى[٣]، فليس لدينا من

(١) النظام ـ سياستنامة ص ٧٢ (الترجمة).

(٢) طه شرف ـ دولة النزارية ص ٤١ ، ٤٢.

(٣) سياستنامة ص ٧٢ (الترجمة).

الوثائق ما يؤكد أنه كان متعصبًا لمذهبه كالسلطان وكل ما تفيده النصوص والأحداث أنه كان مؤمنًا بمعتقده متحمسًا له جدّ التحمس، وهناك- كما نعرف - فرق بين التعصب والتحمس لا يخفى على الباحث المدقق، بل ربما كان من مزاياه البارزة أنه كان يتغاضى عن النزعات الدينية إلى الحدّ الذى يخشى منها خطرًا على الدولة القائمة، وأنه كان يقرّب إليه العلماء من شتى الطوائف، حتى الشيعة المعتدلين، فهم حيث دخل عليه رسول الروم وكان يلبس خاتمًا على الطريقة الشيعية[1] فظنّه شيعيًا وأخبر ملكه بذلك وخاف الوزير على نفسه من بلوغ هذا الخبر إلى سلطانه، وحتى كان مجلسه جامعًا لأعلام الطوائف المختلفة.

الفتن المذهبية فى عهد «النظام»:

وللدولة - كما يرى ابن خلدون - خواص وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها، وكان من ميزات هذا العصر اهتمام الناس بعقائدهم وعقد الندوات لبحث مسائلها المختلفة وتعيين مسائل الخلاف ومناقشتها، وقد تستغل منابر الجوامع أحيانًا للدعوة إلى عقيدة والتنديد بأخرى فضلاً عن حلقات الدرس التى تنتظم فى المساجد والمدارس وبيوت العلماء ودواوين الأمراء والوزراء. وقد بلغ من اهتمام الناس بمسائل الدين أن يطوف العلماء فى أمهات البلدان ويعقدون مجالس المناظرة للدفاع عن عقيدتهم والدعوة لنشرها[2]. وأنه لم تناقش مسألة منها إلاّ تناقلتها الأقلام والألسنة وعلّقوا عليها بين مدافع عنها ومنتقد لها. وقد تُسبّبُ اضطرابًا فى المجتمع يصل بهم إلى معارك دامية.

ويحسن بنا الإشارة إلى حادثتين وقعتا فى عهد «النظام» كان لهما أثرهما الكبير على شهرته كما كان لهما دلالتهما على لباقته وحسن تصرفه، ففى عام ٤٤٩هـ كان أولى الحادثتين، وقد اهتزت له دنيا الشرق الإسلامى من نيسابور

(١) المصدر السابق ص ٧٢.

(٢) الذهبى - سير أعلام النبلاء جـ ٢ ورقة ١٤١ ترجمة أبى عبد الله محمد بن الصاعدى.

إلى بغداد، وبلغت موجته الصاخبة أراضى الحجاز فقد أراد طغرلبك عند تأسيسه عرش السلاجقة أن يظهر للملأ تعصبه الدينى ضد المبتدعة، وكان حنفيًا سنيّاً[1]. فأمر بلعنهم على المنابر أيام الجمع واستغلّ هذا وزيره الكندرى فقرن اسم الأشاعرة بأسماء أرباب البدع للتشفى والتسلى، لأنه كان معتزليًا حنفيّا، وأبعد بعضهم عن المناصب وقرّب الحنفية إليه. واللعن براءةٌ من المطعون وعدم اعتراف به كما أن الدعاء إقرارٌ به وولاءٌ له. لذا خرج أبو القاسم القشيرى وأبو المعالى الجوينى قاصدين الحجاز معلنين استنكارهما على سوء الوضع والحجر على حرية العقائد. وما أن جاء «النظام» إلى الحكم حتى أعاد النازحين إلى أوطانهم وأدناهم إليه وجعل منهم ألسنة صدق فى الثناء عليه والدعاء له وعيّن لهم المساجد والمدارس وعقد لهم الحلقات والمجالس.

وألّف القشيرى فى ذلك رسالة أسماها «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة»[2] وهجا الوزير الكندرى بأبيات قال فيها:

عميد الملك ساعَدَتْ الليالى ... على ما شئت فى درك المعالى

فلم يك منك شىء غير أمر ... بلعن المسلمين على التوالى

فقابلك البلاء بما تلاقى ... فذق ما تستحق من الوبال

والذى نستنتجه من كلام «الذهبى» عند ترجمته لابن صاعد[3] الصاعدى سنة ٤٨٣هـ أنه ـ لتعصبه فى أخريات أيامه ـ هو الذى أغرى بعض الطوائف على بعض حتى غيّرت الخطبة وشرع اللعن على المنابر مما أدى إلى إيحاش العلماء وأنه حينما أبطله «النظام» فى عهد ألب أرسلان ألزمه بيته مدة إلى عهد ملكشاه حيث ولىّ القضاء[4].

---

(١) سياستنامة ص ٧٢٠ (الترجمة).

(٢) ابن عساكر ـ تبيين كذب المفترى ص ١٠٨ ، ١٠٩.

(٣) هو أبو نصر أحمد بن محمد بن صاعد بن محمد الصاعدى ولد سنة ٤١٠هـ. سمع وأملى مجالس، وكان يقال له شرح الإسلام.

(٤) الذهبى – أعلام النبلاء ١٢ ورقة ٢ ـ وتاريخ الإسلام مجلد ١٢ ورقة ٣٠.

وسواءٌ أكان باعث هذه الفرقة بين طوائف المسلمين، وواضع هذا الغلّ على عقولهم لئلا يفكروا بغير مذهب الخلفاء.. سواءٌ أكان هو «طغرلبك» ليرضى الخليفة العباسى، أم وزيره الكندرى ليتودد إليهما والتشفى من رجال المذاهب الأخرى، أم هو «الصاعدى» لتزمته وتعصبه لدينه فإن «للنظام» فضل القضاء على مبعث التفرقة وجمع الشمل، وبه حطّم ذلك القيد ليتحرر العقل من نِيرهْ.

وحلّت سنة ٤٦٩هـ وحدثت فيها فتنة أبى نصر بن القشيرى فكانت محنة أخرى ابتلى بها الشوافع والحنابلة جميعًا وقتل بسببها أناس وجرح آخرون. ففى هذه السنة وصل «ابن القشيرى» بغداد يحمل إذنًا من «النظام» بالوعظ فى مدرسته وجلس فيها منددًا بالحنابلة، ومتهمًا لهم بالتجسيم، واحتشد عامة الطائفتين وتراموا بالآجر، واندحر طلبة النظامية ومن لف حولهم إلى سوقها وغلّقوا دونهم الأبواب وهتفوا - المستنصر بالله يا منصور - يعنون «العبيدى» صاحب مصر ويقصدون التشنيع بالخليفة العباسى لممالأته الحنابلة ولاسيما ابن عمه الشريف «أبو جعفر»[1] وكتب فقهاء الشافعية إلى «النظام» يشكون الحنابلة ويسألونه المعونة وأرسل إليه الشاعر «أبو الحسن محمد بن على بن أبى الصقر الواسطى» قصيدة يصف له فيها اختلال النظام وكثرة القتلى والجرحى واستمرار المعارك، ويستحثّه على حسم الداء بالحزم والحسام يقول منها:

يانظام الملك قد حُلّ ببغداد النظام ... وبقى القاطن فيها مستهانًا مستضام
وبها أودى له قتلى غلام وغلام ... والذى منهم تبقى سالمًا فيه سهام
ياقوام الدين لم يبق ببغداد مقام ... عظم الخطب وللحرب اتصال ودوام
فمتى لم تحسم الداء أياديك الحسام ... ويكف القوم فى بغداد قتل وانتقام
فعلى مدرسة فيها ومن فيها السلام ... واعتصام بحريم ليس من بعد حرام

فلمّا بلغته أنباء الفتنة وما جرى خلالها من إيذاء وتطاول العامة على طلاب مدرسته وتطويقهم لها والقتل بجوارها عظم عليه ذلك فأعاد «كوهرا» أمين شحنة ببغداد وحمّله رسالة إلى الخليفة المقتدى تتضمن الشكوى من ابن جهير.

(١) ابن رجب - ذيل طبقات الحنابلة - ورقة ١٦ جـ ١.

لقد ذكر العينى هذه الفتنة فى حوادث سنة ٤٧١هـ بينما ذكرها غيره فى حوادث عام ٤٦٩هـ والذى يبدو أن المعارك بين الحنابلة والشوافع استمرت خلال هذه الأعوام حتى سنة ٤٧٣هـ[(١)] حيث عقد بين زعماء الفرقتين صلح بمحضر الوزير - ابن جهير - أبدى فيه الشريف أبو جعفر من الجرأة والصراحة ما يدل على شدة تعصبه لمذهبه وتفانيه فى سبيل مبادئه: فما أن قبّل الشيخ أبو إسحق الشيرازى رأسه وقال له: «أنا ذلك الذى تعرف وهذه كتبى فى أصول الفقه أقول فيها خلافًا للأشعرية حتى أجابه: قد كان ما تقول إلاّ أنك لمّا كنت فقيرًا لم تظهر لنا ما فى نفسك. فلمّا جاء الأعوان والسلطان، وخواجا بـرزك - يعنى النظام - أبديت ما كان مخفياً»... وما إن قام أبو سعيد الصوفى فقبّل يد الشريف وتلطّف، حتى رد عليه قائلاً: «أيها الشيخ إذا تكلم الفقهاء فى مسائل الأصول فلهم فيها مدخل، وأمّا أنت فصاحب لهو وسماع وتغيّر فمن زاحمك على ذلك حتى داخلت المتكلمين والفقهاء فأقمت سوق التعصب». ثم توجه نحو ابن القشيرى وقال له: «لو جاز أن يشكر أحد على بدعته لكان هذا الشاب لأنه بادهنا فى نفسه، ولم ينافقنا كما فعل هذان»... ثم التفت إلى الوزير فقال: «أىّ صلح بيننا؟ الصلح بين مختصمين على ولاية أو دَينًا أو تنازع فى ملك. فأمّا هؤلاء القوم فإنهم يزعمون أننا كفّار، ونحن نعتقد ما يعتقدونه وهذا الإمام - يقصد المقتدى - يصدع المسلمين وقد كان جدّاه (القائم والقادر) أخرجا اعتقاديهما للناس وقرئ عليهم فى دواوينهم وحمله عنهما الخراسانيون والحجيج إلى أطراف الأرض ونحن على اعتقادهما[(٢)]» فخرج فى توقيع الخليفة: «بلغنى من حضور ابن العم كثر الله فى الأولياء مثله.. والحمد لله الذى جمع الكلمة وضمّ الألفة... إلخ»[(٣)].

وبعد: فإن الباطنية تلتقى بالصوفية فى أشياء منها: تأويل النصوص الدينية،

---

(١) العينى - عقد الجمان، حوادث سنين ٤٦٩ - ٤٧٢ ورقة ٢٣ - ٢٣٤، ٣٤٨.

(٢) المصدر السابق - حوادث سنين ٤٦٩ - ٤٧٣ ورقة ٣٣٧، ٣٣٤، ٣٤٨.

(٣) ابن رجب البغدادى - ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ورقة ٢٦.

واختراع هؤلاء طرقًا وأولئك أشكالاً للعبادة توصلهم إلى معرفة الله[1]. ثم الاعتراف بالإمام المعصوم وأن كلاً منهما يتعلق بمشتبه الآيات والآثار[2].

٦ـ المتصوّفة :

وكان التصوّف خاصة من النزعات التى عاصرت «النظام» وملأت عصره ضجيجًا وأثّرت على مجرى حياته بل كان من أهمها تأثيرًا على نزعاته الوجدانية واتجاهاته السياسية، وربما كان ينحرف به أحيانًا عن دواعى السياسة ومقتضيات الحكم فيغضب ذوى الجاه والسلطان، إذ كان متصوّفًا يحب أنصارها ويغدق عليهم ويقرّبهم إليه، لأن التصوّف ـ كما نرى عند «النظام» ـ قناعة بالحياة وزهد فى متاعها ـ وسلوك لكشف مجاهيلها ومعرفة ما وراءها. وهذه هى السعادة عندهم وعنده. وهو ـ أى التصوف ـ بهذا ظاهرة اجتماعية وطريق للمعرفة، كما أنه علاج نفسى يشيع فى جوانبها الطمأنينة والهدوء، وهو فضلاً عن ذلك لا يتعارض مع أشعرية «النظام» فى الأصول وشافعيته فى الفروع.

وهوه ـ كما زعمنا ـ ظاهرة اجتماعية، فإننا حينما نجتمع إلى فريق من المتصوّفة ونعود بالذاكرة إلى ما كتب عنهم وعنها، وأمعنّا الفكر فى ذلك يتَضح لنا أنها ليست مذهبًا عقليًا فى غوامض الكون أو ما وراءه فحسب، وإنما هى سلوك عازف عن ملذات الدنيا وزخارفها ومغريات الحياة، وهو الزهد فى كل شىء طوعًا واختيارًا، خير من أن يكون كراهية وإجبارًا.

وبهذا يكون التصوّف ظاهرة كغيرها من ظواهر المجتمع، حدثت نتيجة لعوامل عدة انحرفت بمجموعة من الأفراد إلى ناحية جانبية من الحياة لتعويض ما فقدوه منها.. وكان هؤلاء يجدون فى عزوفهم وزهدهم وانزوائهم ومرقّعاتهم راحةً واطمئنانًا لنفوسهم وهدوءًا واستقرارًا لنوازعها، وربما كان فى هذا الأسلوب المعاش من الخيال والإلهامات ما يشجعهم على المواظبة والتمادى

(١) طه حسين ـ ذكرى أبى العلاء ص ٨٤، ٨٥.

(٢) المعافرى ـ العواصم جـ ١ ص ٩.

فيه.. وفيه من تخفيف هموم المسئولية وأداء الواجبات ما يدعو إلى الاستمرار على هذه المعيشة الساذجة الرتيبة، لذا وجدنا من بينهم من يسجّل تلك الخواطر ويعلّل تلك الحياة الهانئة المستقرة.. ثم تطورت الحياة وتعقدت مشاكلها وتضاعفت طلبات الفرد، وتفتحت عن آمال جديدة وتزايدت أمانيه وتكشفت عن رغبات عديدة. وهو بعد لم يجد لتحقيقها سبيلاً فلاذ مئات من الناس إلى أفنية المساجد والزوايا، وأروقة الربط والتكايا.. وظهر في وسطهم علماء ومشايخ، شغلوا فراغهم في الدرس والبحث والكتابة، ونقلوا عن الأوائل والطوائف من أمثالهم ما يطيب لهم إلى أن صارت الصوفية مذهبًا له طرائقه وأهدافه.

ولئن صدق ظني - ولا أخاله إلاّ صادقًا - أن التصوّف - إذن - بدأ ظاهرة اجتماعية ونسكًا قبل أن يكون عقيدة وفلسفة، كما عند الحلاج وأمثاله كـ «محيي الدين بن عربي» وغيره، وأن هذه الظاهرة وليدة عوامل اقتصادية وثقافية ونفسية، وليست دينية أو عقلية خالصة ثم تطورت إلى ما نراها عليه اليوم من تقاليد في الأزياء والسلوك، وآراء غامضة في العقيدة، وأن شيوعها في عصر من العصور وفي بيئة معينة من الناس ثم تنويع طرقها والتفنن في الرياضة وأساليبها يدلنا على أنها انعكاس لرغبات تمور في أعماقهم وتموج في جوانحهم ويضيقون بها ذرعًا فتتفجر وتنتشر وتتنوع تبعًا لتلك الدوافع النفسية والعوامل الاجتماعية. لذلك رأيناه قد ظهر في الغرب باسم الرهبنة كما ظهر في الشرق باسم التصوّف، وأنه انتشر في فترة من الزمن تكاد تكون متشابهة في كل أمة.

وقد كان من حسن طالع الباحثين أن الصوفية المستحدثة مازالت باقية ولم تكن كغيرها من ظواهر الحياة التي نقرأ عنها ولا نرى لها أثرًا، وقد أتيحت لي - من بين الباحثين - الفرصة فشهدت حفلاتها في إيران كما رأيت حلقاتها في مصر. وحاولت أن أندمج بين صفوف الفريقين لأشعر بشعورهم وأحسّ بمحسوساتهم.. وإن كنت - ولست أدري - إن كانت نشوة الذاكرين

ومشاعرهم فى درجة واحدة أم لا؟ . . . إذ إن هذه تختلف بما وُهب الناس من إرهاف الحواس وما ملكوا من ثقافة وتهذيب وإيمان. ولكنى أعلم أننا عند الغيبوبة نلتقى جميعًا فى عالم خيالى ممتع لذيذ بعيد عن عالم الواقع المرير.

وقد يكون التصوّف إحدى وسائل المعرفة ـ وهو لاشك يسعى لذلك ـ ولكنها ليست وحدها الدافع إليه فهناك من حقائق الحياة المريرة مايترك أثرًا فى النفس لا يمكن لإنسان تناسيه، وهناك من الشقاء أنواع يولد كما يولد الناس وينمو معهم ويترعرع كما يترعرع الأطفال فلا يجدون من التعاسة مفرًا ولا خلاصًا أينما غدوا وراحوا فكأنما الألم الموجع من طبيعة الطبيعة، والحزن الممض من خليقة الخليقة، وكأن الخير والسعادة والسرور لا تكون إلاّ بالشر والشقاء كما يولج الليل النهار، ويختم الموت الحياة.

ومَن مِن الناس من نجا من المكاره، وخلص من الشدائد والمصائب، ولم يبتل بنائبةٍ فى أهله أو بليّة فى جسمه، وإن صبر وناضل تفاديًا لرزء أو طمعًا فى متعة فعلام، وإلام يكون صبره وكفاحه؟ . . أتدوم لذائذه ومشاعره بها بعد نفاذها؟ فلِمَ يواصل الليل بالنهار سعيًا وراء المال ويكدّ ويتعب مرهقًا أعصابه ومجهدًا نفسه ثم يعاجله الموت ويرجع من حيث أتى إلى تراب فيلجأ بعد صراع قليل أو كثير إلى نظرة للحياة منحرفة إمّا إيجابية متطرفة لا تعرف هوادة من الاستمتاع بملذاتها والانهماك فى ملاهيها، وإمّا سلبية متطرفة لا تعرف لذة فى مال أو جاه أو طعام أو زواج . . ولذلك عزفت رابعة العدوية وهى من المنصرفات عن الزواج وسار على شاكلتها كثير من المتصوّفة فأعرضوا عنه حتى عدّ التصوّف رهبنة . . وحتى ردّد المعارضون له ما جاء على ألسنة السلف: لارهبانية فى الإسلام.

فإذا صدق ما ظنناه من أن الحياة مُرّة فى واقعها مؤلمة فى حقيقتها تافهة زائلة فى متعها ولذائذها أدركنا أن التصوّف بطرقه المستحدثة المختلفة ليس إلاّ وسيلة للمغفرة وطريقة لتخدير التنبّه والوحى ولتعطيل قوى الإحساس بذلك الواقع المرّ وتلك الحقيقة المحزنة . . وليس من فرق بينها وبين الوسائل الأخرى التى

يلجأ إليها الإنسان ليتخلص من الألم والهم والغم، وأنها لا تختلف عن المخدرّات والمسكّنات وأمثالهما إلاّ بأشكالها وطرق تعاطيها والتمتع بها، وأن هذه محرمة وتلك مما أحلّها رجال التشريع.

والتصوف كما قلنا من وسائل المعرفة لأنه - كما نعلم - ليس فكرًا ولئن خاب العقل أن يحقق للإنسان جميع مطالب الحياة كما أخفق أن يكون فى حلوله لمشاكلها يقينيًا واقعيًا، فقد عرفنا له قواعد وقوانين آلت فيما بعد إلى الشك بعد اليقين ثم الرفض كنظرية «نيوتن» فى الجذب وهندسة إقليدس فى الخطوط والأبعاد فالأشكال والحجوم، ثم ذهبت تذروها الرياح بعد أن كانت حقائق ثابتة لا يأتيها الباطل من قريب أو بعيد.

ومرّت أعوام بل قرون كان العلماء يحنون الظهور وليس الرءوس فقط إجلالاً للفلسفة الأفلاطونية الحديثة بما فيها من نتائج وأقيسة فى المادة والروح والذّرة والطاقة، ثم ظهر بعد ذلك خطأها وإذا بالمادة لا تفنى وهى والطاقة سواء، وإذا بالذرة تتجزأ أو يتغيَّر وزنها بتغير المكان. وأخذ العلماء يدنون رويدًا إلى الاعتقاد بعدم كفاية العقل لإدراك عالم الغيب إذ إنه مهما بلغ من قوة فالعلم يهديه والصدفة ترشده والحاسبة عماده.

ولعل من أعاجيب الفكر - وهو أعجوبة الأحياء - أن يخدع المؤمنين به فيتصورون أنه كل شىء فى الناس والحياة، وأن ما يبتدعه من قوانين حضارية وما يتوصل إليه من نتائج فى العلوم والفنون تفى بحاجاتهم ورغباتهم وتملك عليهم كل مشاعرهم فيعيشون فى هناء واطمئنان غير أنه لا يمضى وقت - طال أو قصر - حتى يتبين الخطأ فى ذلك القانون أو ينكشف الوهم فى تلك النتيجة، ويعود الإنسان إلى سالف ضلاله وسابق حيرته لأن العلم نفسه أصبح بنظره أداة شك، حيث دفعه إلى القلق والاضطراب والريب فى نفسه والعالم وما وراءه. وكان عليه للتخلص من كل ذلك أن يختار طريقًا واحدًا من اثنين. . . إمّا الزهد فى الحياة الدنيا وقد يبلغ به نسكه وتعشقه فيه إلى حد التنكيل بالحياة فيعذب جسمه ويروّض نفسه على الصبر، وإمّا الإقبال عليها

بكل جوارحه فيدفع به هواه وحبّه لها إلى الاستهتار والمجون، متناسيًا الحديث الذى يروى: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا.

وافترق الحائرون فمنهم من جحد وكفر، ومنهم من ارتاب وتردد بين الاعتراف تارة والنكران أخرى، وراح فريق ثالث إلى إيمان العجائز حيث لم يجدوا طريقًا تركن إليه نفوسهم وتستقر عليه أفئدتهم، وكان من هؤلاء القشيرى والأنصارى الهروى والشيرازى والغزالى وعلى رأسهم الجوينى، وكان الشعراء من أولئك المعرّى والخيّام من أعيان القرن الخامس الهجرى فى عصر «النظام».

وحينما عجز العقل عن معرفة الحقيقة، وكَلَّ الفكر عن إدراك الحقّ المطلق عادت الحيرة إلى النفوس من جديد فاندفعت تبحث عن طريق آخر غير العقل يهديها ويبلغ بها مأمنها ومستقرها، فهرعت إلى النفس تستلهمها وتستوحيها وركنت إليها لتستجوبها وتستهديها.

إن ما وراء الطبيعة غير الطبيعة فهو موضوع يختلف عنه فى ماهيته وكنهه وهو عالم غيبى غير محسوس. فإذا أراد الإنسان معرفته فلابد أن يتخذ له منهجًا آخر، لأن البحث فيما وراء المحسوسات لا يمكن الوصول إليه عن طريق الحواس، فلابد من الاعتماد على البصيرة بدلاً من البصر والاستلهام والوحى بدلاً من الاستقراء والمقارنة.

أمّا كيف يكون الإنسان بصيرًا ملهمًا يستمد المعرفة عن طريق الوحى؟ فهذا ما يحتاج إلى رياضة جسمية ونفسية، ومعتقد خاص يبدأ بالتوبة إلى الله عن كل ملذات الدنيا لتصفو النفس وتسمو، وليس من طريق لارتفاعها ونقائها غيره إذ لا ينال العلم بذلك إلاّ بطهارة النفس وتزكية القلب وقطع العلائق بينه وبين البدن وحسم زخارف الدنيا من المال والجاه، والخلطة بالجنس الآخر والإقبال على الله بالكلية، علمًا دائمًا، وعملاً مستمرًا[1]. ثم يعلو الإنسان ويرتقى معارج الوصول بقدر ما يخلص فى توبته، ويصدق فى عمله ونيته إلى أن يغدو

(١) المعافرى ـ العواصم جـ ١ ص ١٩.

روحًا تستطيع أن تحل فى الملأ الأعلى فتبصر ما لا طاقة لأعين الناس مشاهدته، وتسمع ما تعجز الآذان البشرية عن سماعه حتى تنكشف له الغيوب ويرى الملائكة ويطّلع على أرواح الأنبياء ويسمع كلامهم. ووراء هذا غلو ينتهى إلى القول بمشاهدة الله يدخلونه فى باب الكرامات[1].

ولم يقنع هؤلاء بمعرفة وجود الله لأن هذا ممكن باستقراء ظواهره، والاستنتاج بالعقل من أفعاله، كما قال الشاعر:

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الخالق

بل يطمعون فى أكثر من هذا، يريدون معرفة ذاته، وإدراك حقيقته وهذه لا تكون إلاّ عن طريق تجربة روحية لتلتقى الروح بالروح فترتفع الحجب عن العيون. وتكشف الروح للروح من عجائب الأسرار.

ومادام الله الخالق روحًا تبعث الحياة فى كل شىء، والكائنات جميعًا قبسًا من فيوض روحه للحياة، فلابد أن تكون مخلوقاته جميعًا حيّة مثله ترتبط به وتتكّون منه ومنها كونًا واحدًا[2] له نظام ثابت هادف لا مجال للصدفة فيه.

وكان يتنازع معرفة ما وراء الطبيعة: الروح وعمادها الذوق، والعقل الذى لايمكنه التخلى عن الحواس وكان أول من لجأ إلى الروح لتكون وسيلة للمعرفة ـ أفلاطون ـ وكان أول خارج عليه واعتمد على العقل: هو تلميذه ـ أرسطو.

والغاية عند المتكلمين والمتصوّفة واحدة.. هى معرفة الحق فأولئك يرونها من طريق العقل والبرهان، وهؤلاء يجدونها بواسطة القلب عن طريق الوحى والإلهام.

ولاختلافهما فى الواسطة فقد اختلفا فى النتيجة.. فقد توصل المتكلمون وعلى رأسهم الأشعرى إلى وحدة الذات الإلهية المستقلة. وانتهى المتصوّفة وفى

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٨.

(٢) يدين الراهب جيد رد انوبروفو (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)م، وسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧)م بوحدة الوجود ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٦. واسبينوزا ـ الأخلاق ص ١٥.

طليعتهم الحلاّج إلى وحدة لله شاملة، وقال أولئك: بفعل الله فى كل شىء، وقال هؤلاء: بوجوده فى كل شىء[1].

مصدرها:

وقد تأثر المسلمون بما قرأوه وسمعوه وشاهدوه وبما فرضته عليهم حياتهم الخاصة وبيئتهم المحددة فكان لهم من ذلك كله صوفية خاصة لها طابعها، ولها خصائصها وميزاتها، ووسائلها وأغراضها، مهما تأثرت بغيرها. وإذا كان هناك من تأثير على الصوفية فى الإسلام فإنما كان أكثر ما جاءها عن طريق الأفلاطونية الحديثة، وهى فى واقع الأمر ـ أفلاطونية مصرية.

إن أول ما يتداعى إلى الذهن عند الحديث عن التصوف الإسلامى، هو الرهبنة المسيحية ـ لما بينهما من موافقات وصلات، فالرهبانية ـ كشعيرة من شعائر المسيحية المغالية فى التسامح، العازفة عن المال، إنما هى ردّ فعل لما وصلت إليه اليهودية من تمسّك بالوثنية، وتطرف فى المادية فهى إسراف فى الزهد، ودعوة إلى العزلة، وحرمان النفس من متع الحياة، وعزوف عن الزواج واحتقار للمرأة والجنس ثم امتهان للجسم باعتباره مادة فانية حتى عاش فريق من الرهبان فى بعض الفترات أشعث أغبر، رثّ الثياب وسخًا يريد بذلك إرهاق جسده حتى صار عالة على المجتمع الذى يزداد كلما مرت السنون إمعانًا فى الفجور والموبقات، كلّما ازدادوا إسرافًا فى تعذيب الجسم وإرهاق النفس.

وهى أخيرًا ـ تشابه الرهبنة ـ فى نتائجها السلبية إن لم تكن السيّئة حيث لم توفق على الرغم مما فعلت من إذلال للجسم وامتهان للنفس إلى حل مشكلته المادية فى الدين والدنيا، ولم تنجح فى بسط أجنحة السعادة الصحيحة، على المجتمع الذى تحلّ فيه، وإنما سبّبت انحلالاً فى الأسرة، وبلبلة فى

(١) دى بور ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ـ ترجمة أبو ريدة.

العقيدة، واضطرابًا فى الفكر حتى وجدنا فى زعمائها من يتظاهر بها ويلبس الصوف شتاءً وصيفًا وحينما يتوفى ينكشف أنه خلّف مالاً مدفونًا يزيد على أربعة آلاف دينار كأبى الحسن البسطامى المتوفى سنة ٤٩٣هـ شيخ رباط ابن المحلبان، بينما نجد آخر حين دنت منه الوفاة فى نفس العام قالت له زوجته: «إنك تفتضح إذ لم يوجد لك كفن». فيقول لها: «لو وجد لى كفن لافتضحت»[١].

لذلك كان موقف الإسلام مما انتهت إليه الرهبنة عنيفًا. فقد نهى النبى (صلى الله عليه وسلم) عنها بكلمته المأثورة: «لا رهبنة فى الإسلام» كما ينهى عن المحرمات واعتبر ما ركّب الله عليه الإنسان طبيعيًا سليمًا، فأيّد غريزته وعواطفه ووجهها توجيهًا معتدلاً لا تقتير فيه ولا تبذير، وطلب إليه السعى فى مناكبها ليأكل من رزقه[٢]. والنظر فى ملكوت السموات والأرض لينعم بمعرفة أسراره ويستخدمها فى إسعاده فكان العرب بذلك أمة وسطًا بين الإفراط والتفريط فى مرافق الحياة ومطالب العيش الهانئ السعيد. إن هذا الموقف يحمل فى طياته دليلاً على أن الجانب السلبى والذى سارت عليه الرهبنة والذى انتهت إليه الصوفية لا يعترف به الإسلام وإن كان قد أضيف له من مبتدعات العرب والمسلمين على مرور الأعوام الشىء الكثير.

بدأ التصوّف - عند العرب - زهدًا فى مُتَعْ الحياة - وإعراضًا عن ملذاتها اللاهية، وليست عزوفًا عن الحياة ذاتها وامتناعًا عن أطايبها النافعة المشروعة..

وليس لدينا من الوثائق الثابتة - مع الأسف - ما يرشدنا إلى هذا الطراز من العيش قبل الإسلام غير أن حياة التقشف والزهد كانت ولاشك موجودة كما

---

(١) المنتظم جـ ٩ ص ١١٦.

(٢) لقوله تعالى: ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ سورة الملك / ١٥.

دلّت الأخبار وقد عرف بها جماعة فى ذلك العهد وإن لم تشتهر أسمائهم. وبعد ظهور الدين الجديد مباشرة مال إليها نفر من الصحابة. وزعم مؤرخو الصوفية من المتصوّفة أن عليّا بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين كان فى طليعتهم وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فنسبها إلى الرسول نفسه واعتبره زعيمهم.

ومهما يكن من أمر فإن زعم القائلين بتصوّف هؤلاء وغيرهم من الخلفاء والعلماء لم يخرج عن دائرة الحق والصواب مادامت الصوفية نسكًا وتقى يومذاك، وإنها لمذهب عربى يستمد مبادؤه من نصوص الدين، وطريقته من طبيعة العرب البداة مادام لم تصل إليها بعد آراء السابقين فيتأثروا بها. فليس هؤلاء جميعًا من المتصوّفة بالمعنى الذى انتهت إليه بعد انتشار الإسلام ودخول الأجناس المختلفة فيه، وتأثر الجماعات بما وصلها من نقول، واندفاعها بما يعتمل فى نفوسها من عوامل اجتماعية ودينية واقتصادية.

ثم دخلها بعد مرور زمن - ما دخل على غيرها من تبديل وتغيير لتطور الحياة بجميع مظاهرها الفكرية والعلمية وغيرها، فلم يعدّ لأساليب اللغة - وظاهر اللفظ أهميتها الأولى، وراح كبار المذهب يغوصون فى أعماق الآى والحديث، ويدعون للتبحر فى كل واردة وشاردة، ولم يكتفوا بالمعانى والتأويلات الظاهرة وإنما صار لكل معنى معنى، ولكل تأويل تأويل، وظهرت فى كتب القوم وترددت على ألسنتهم كلمات أشبه بالأرقام والرموز لا يعرفها إلاّ من تعلمها، وراض نفسه على تفهمها، ولم يعدّ هذا نهجهم فحسب، وإنما تغيّرت مظاهر الحياة عندهم فلباسهم الخشن وأكلهم الغث وابتعادهم عن المرأة والاختلاط بالناس مألوف وأصبح كل ذلك من علاماتهم الاجتماعية المفارقة، لأن التقشف ومايزال وسيلة لافتتان العوام بأصحابه[1].

كل هذا جعل من الباحثين من يوصل بين التصوّف العربى والغربى أو

(١) ابن عساكر - تبيين كذب المفترى ٣٩٢.

الفارسى ومنهم من يجعل من هذا أصلاً لذاك، ومنهم من يربط بين الصوفية والباطنية وبينهما وبين التشيّع، والتشيّع والاعتزال[1]، ربطًا وثيقًا ويعللون لذلك بالظواهر المشتركة بين هذه الفرق من تأويل الكتاب والسنّة. مع أن التصوّف ـ كما ذكرنا ـ وسيلة من وسائل المعرفة وليس طقسًا دينيًا اسلاميًا كما هو فى الرهبنة المسيحية فإن لها مسوحها وسلبيتها وفرديتها وانزواء أصحابها. بخلاف الصوفية الإسلامية فإن صاحبها ينتمى إلى شيخ طريقة ويجتمع بأتباعه ويتصل بالمجتمع ويتزوج منهم ويتبادل وإياهم وجوه التعاون فى المنافع، وأما التأويل فإنه صفة مشتركة فى سائر المذاهب الإسلامية، ولعلّه يشمل الأديان الأخرى أيضًا.

طرقها:

لقد عرفنا ـ مما سبق ـ أن التصوّف سلوك وجدانى يهدف لمعرفة الحقيقة وليس فى نظره شيئًا آخر سوى الله، وبهذا يشعر بالسعادة التى هى الاطمئنان، وليست السعادة شيئًا ثانيًا غيره. وبهذا لا نجد تعبيرًا أصدق على السعادة، وأدنى إلى حقيقتها ـ على اختلاف الناس فيها من (النفس المطمئنة)[2]. هذه السعادة هى التى كانت الغرض من التصوّف.. أمّا موضوعه فهو طريق الوصول إلى هذه الغاية المنشودة.

وللمتصوّفة من أجل الوصول ـ طريقة بل طرق تختلف باختلاف الوسائل التى تؤدى إلى معرفته.. ومن هنا كان الفرق بين التصوّف والإسلام، إذ عيّن الإسلام سبيل الوصول للحقيقة بالعلوم والعبادات أى بتهذيب النفس وتثقيف العقل معًا، فى حين حدد لها الأول طريق القلب وتصفيته بأنواع الرياضات. وما عدا ذلك مما يزرى بالإنسان ويشين بالمجتمع من وسائل الرياضة التى

---

(١) طه حسين ـ ذكرى أبى العلاء ص ٨٤، ٨٥.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ سورة الفجر / ٢٧-٣٠.

تضنى الجسم وتشلّ الحركة وتضرّ بالصالح العام فليست من صميم الإسلام، ولذلك عدّها بعضهم بدعًا وعدّ أصحابها من المبتدعة ومن ثمّ كان هناك فرق بين الصوفى والمتصوّف كما بين السمو والتسامى، والطبع والتطبع، والفطرة والمحاكاة. ومن هنا جاءت فكرة الرياضة النفسية لمن حرموا الموهبة النظرية، لأن الصوفية ليست علمًا مكتسبًا أو معرفة تقوم على قراءة الكتب وجمع المعلومات فحسب. وإنما تتطلب استعدادًا فطريًا وقبولاً حسنًا لمبادئها أو تقبلاً نفسيًا لتعاليمها، وبهذا يبدأ المنتسب أول مرتبة فيها فيتدرب على وسائلها ثم يرتفع تدريجيًا إلى أعلى الرتب وهى مرتبة التماثل الأسمى. وهى مرتبة الصوفى العارف بالله الذى أدرك الحقيقة وعرف الله، وهى فى الواقع، مرتبة لا تخضع لأى قيد يفرضه عليها الزمان والمكان ولهذا قيل: «إن الصوفي من لا مذهب له»[1]. . . . وما قبلها إنما هى مراتب للمتصوّفة ليتمرنوا عليها. .

يحدثنا أبو بكر المعافرى فى عواصمه وقد عاصر الغزالى و«النظام»، وقام برحلة إلى المشرق وزار بغداد فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ أى بعد وفاة «النظام» بخمسة أعوام، ويصف لنا لقاءه لأبى حامد فى مدرسة السلام ـ يقصد النظامية ـ وقد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ٤٨٦هـ، ثم يحكى لنا ما دار بينهما من نقاش عنها فيقول: وقال لى أبو حامد: «إن القلب إذا تطهر من علاقة البدن المحسوس، وتجرّد للمعقول انكشفت له الحقائق»[2]. . «وبخاصة فيما وراء الكون لأن العقل يقف عند نهاية مادياته، ولأن الصوفية ترى أن المعقول فوق المحسوس، وإنّا وإن كنّا فى عالم الحسّ أبدانًا فنحن فى عالم العقل قلوبًا. والقلوب لاتزال تقطع بينها وبين الأبدان العلائق وتحسم المقاطع حتى لا تبقى بينها وبين البدن علاقة»[3].

ولاعتمادهم على القلب وكثرة ترديده على ألسنتهم فقد سمّاهم «الطرطوشى»

---

(١) الشوشترى ـ مجالس المؤمنين جـ ٢ ص ٦.

(٢) المعافرى ـ العواصم جـ ١ ص ٣٠.

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٨.

بأرباب القلوب لما فيهم من حب الإيثار[1] والبذل فى سبيل الآخرين.. لأن القلب ـ عندهم ـ منبع الوحى والإلهام وموطن المحبة.. ومبعث الودّ والانسجام، ولأن المعرفة عن طريق القلب موهبة فى حين تكون بواسطة العقل مكتسبة. ومازلنا نرى آثار هذه الفكرة ماثلة فى بعض مصطلحات العلوم العربية وبخاصة النحو، فإن أفعال العلم والظن والرجحان ـ عَلِمَ، وحسب ورأى وظن ـ تسمى بأفعال القلوب..

وظن المتصوّفة أنهم بالقلب قد كشفوا الحقيقة وعرفوا الله وبطرائقهم قد استوحوا الغيب واتصلوا بعالمه وأدركوا مجاهيله، ولو سألتهم ماذا عرفتم وإلى أين انتهيتم؟ لما سمعت منهم سوى: «لا يعرف اللّه إلاّ اللّه». والقلوب به هائمة والعقول حائرة. فتارة يقولون هو.. وتارة ما هو.. وأخرى هو ما هو؟ وبذلك عادوا من حيث ذهبوا ولجأ أعلامهم إلى العقل فى بحوثهم عن الماهية والوجود وأيهما أسبق من الآخر بعد أن ادعوا التجرد منه والانفكاك عن سلطانه.

ويعجب الدارس لحياة الصوفية وآثارهم أن يرى هذا الخلط الفاضح بين الزهد والإباحة، والإشراك فى الحلول والفناء فى الله ـ وحدة الوجود ـ وقد يصل هذا بالدارس إلى تفسيره بالمفارقات والمتناقضات ويعلّله بالقلق النفسى.

وإنا لواجدون فى البلبلة الفكرية والشك فى العقائد، والشعور بالضائقة الاقتصادية، والطموح إلى حياة مرفهة أو أكثر رفاهة، كل ذلك كان مدعاة إلى الزهد فى الحياة والعزلة عن الناس والانطواء على النفس... فإذا ما وجد الشاعر بالحاجة متنفسًا لحرمانه فى زاوية أو رباط اعتكف داخله أو إذا ما أحسّ راحة واطمئنانًا فى جامع أو ضريح قبع فيه فإن فى انزوائه هدوءًا لنفسه، وفى عزوفه عن ملذاته فى الحياة بمحض إرادته ـ كما يخيل إليه- استقرارًا لها وتخلصًا من أعبائها، وإن فى ما ينتظره فى جنان الخلد إيناسًا لروحه من هذه الوحشة القاتلة.

فإذا ما وجدنا فى سِيرة بعض المتصوفة ـ كالنظام مثلاً ـ ما ينقض ذلك

---

(1) الطرطوشى ـ سراج الملوك ص ١٧.

لقدرته على التمتع بملذات الحياة وهو مع ذلك زاهد فيها، فليس من شك بأن لنوع الثقافة والتهذيب اللذين تلقنهما أثرًا كبيرًا فى توجيهه فضلاً عن قلة هذه النماذج بين المتصوفة. لذلك يضرب به المثل إذا وجد فى واحد من المجتمعات، وأصبح فى نظرهم من أولياء الله الصالحين.

ومما دفع بالصوفية إلى هذا الغلو وجرّهم إلى ذلك الخلط، حياتهم المليئة بالتأملات والرؤى التى ندر أن يتحمس لها أنصار الواقعية وأصحاب مذهب الطبيعة والعقل للفرق بين هؤلاء وأولئك فى طريقة الوصول إلى ما وراء الطبيعة والكشف عن السرّ الذى حارت به عقول البرية.

وبين الصوفية المغالية فى وحدة الوجود كما وصل إليها الحلاّج وتلاميذه، والوجودية المعاصرة وجوه شبه فهما يشتركان فى الإيمان بالله، ويصلان بين القدر وأفعال الإنسان.. ثم يختلفان فى الانطلاق من كل قيد نحو تمثيل نزعات النفس وشهواتها دون اهتمام بفضيلة أو مبالاة برذيلة، وعلى هذا كانت قصص الوجودية الحديثة(١).

إن نظرية الوحدة هذه لتذكرنا بمسألة ـ خلق القرآن التى ملأ العالم الإسلامى صداها من قبل، وصارت حديث المجالس: هل القرآن وهو كلام الله، مخلوق؟ وهل هو جزء منه أم هو هو؟ هل كان يوم كان وعلم يوم علم بوجوده، ولا بداية لوجوده كما لا أولية لعلمه؟! إن فى النظريتين وثبة فكرية تحاول الوصول إلى الوحدة بين الكلام والمتكلّم والخالق والمخلوق، وغير بعيد أن تكون هى البذرة التى أثمرت الفكرة الجانحة التى تقول بوحدة الوجود عند الحلاّج وصحبه من قبل، والتى أوحت بوجودية «سارتر» فى العصر الحديث.

التصوف و«النظام»:

وكانت بغداد وأصبهان ـ يوم ولد النظام ـ تضيق بالمشبهة والصوفية وغيرهم من الحلولية والمجسّمة، فإذا انفرد لهم أحد من العلماء، وأنكر مقالتهم عدلوا

(١) مثل قصة ـ البير كاسو ـ التى تستعرض حياة وجودى استهان الجريمة بلا موجب لها إلاّ بدافع من رغبات نفسه التى لا تذعن لقيد ولا تؤمن إلاّ بالوجود، ولا تطلب الحياة إلاّ بأيسر الطرق وأهون السبل.

عنه كما حدث لأبى الحسن بن ماشاذه الأصبهانى المتوفى سنة ٤١٤هـ[١].
وضاق أحرار العلماء باتهام الناس لهم حتى ليصف لنا أحد المعاصرين حيرته بماذا يجيب لو سأله سائل أو حاوره محاور. هذا هو ابن مندة[٢] المحدّث الفقيه يقول: «قد عجبت من حالى فإنى قد وجدت.... إلخ».

وقذفت الأقدار بـ«نظام الملك» فى هذا الوسط المضطرم بالأفكار المغالية، المليء بالصراع الطائفى وقد أصبحت حواضر العالم الإسلامى كذلك تعجّ بالآراء المختلفة، وتموج بالمذاهب المتناقضة وأضحى الناس بين متهم ومدافع وشاك وموقن، فمن معتزلة يؤمنون بالعقل إيمان العوام بالجنّ وأشباحه إلى حنابلة يعتقدون بالنقل اعتقاد المشبهة بالتجسيم، وكان الصراع بين العقل والنقل مستمرًا طوال القرون الأربعة يشتدّ حينًا ويهدأ حينًا وينتصر أحدهما على الآخر ثالثًا، إلى أن ظهرت بينهما طائفة المتصوّفة واتخذت لنفسها طريق التقوى لمعرفة الحقيقة، ولمّا يمضى عليها ردح من الزمن حتى أصيبت هى الأخرى بعدوى الغلو الذى وقعت فيه شقيقتاها من قبل..

وكان طبيعيًا أن يختار شخص كـ«النظام» طريق الصوفية بعد أن عرفنا عنه أنه آثر الشافعية من بين المذاهب الأربعة فى الفروع والأشعرية من بين المدارس الكلامية فى الأصول، وهما معتقدان يشهد لهما تاريخ انتشارهما بالتوسط والاعتدال.

لم ينظر - النظام - إلى التصوّف كرد فعل عاطفى واجتماعى ولا للمتصوّفة كطائفة بدت على أقوالها وأفعالها صور انعكاسات لذلك الفعل، وإنما اعتقد أن الصوفية السليمة - كما يبدو لنا من سيرته معهم - سلوك لمعرفة الحقيقة وطريقة

(١) ابن عساكر - التبيين ص ٢٢٩.
(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمن العبدى الأصبهانى المتوفى سنة ٤٦٢هـ، وقيل ٤٦٤هـ وله تصانيف فى الرد على المبتدعة، وكان أبو إسماعيل الأنصارى يقول عنه: إن مضرته فى الإسلام أكثر من منفعته أطلق عبارات بدع خارجية أزرى فيها بعضهم - سامحه الله، وله محاسن وهى تواليفه حاطب ليل، يروى الغث والسمين وينظم ردىء الشعر مع الدرّ الثمين (الذهبى - سير أعلام النبلاء - مجلد ١١ ص ٤٥١).

لنشدان السعادة الحقّة. وأن المتصوّفة فريق تثقف عقله بعد الدراسة المستفيضة وتهذبت نفسه على الصفاء والمحبة.

ويتفق «النظام» مع الصوفية ـ كما يظهر من أقواله ـ بأن الحياة المطمئنة تعتمد على الجانب الروحى أكثر من غيره، ولكنه وجد المتصوّفة وقد تعددت طرقهم وزاغت بصائر فريق منهم عن الطريق السوىّ فتمثل الخالق والمخلوق سواء وراح يتعاطى الراح باسم الروح ويتغنى بالداعر الماجن ويهتز راقصًا بدعوى الاتصال به والفناء فى ملكوته وبلغ الهوس بهؤلاء مرحلة التشبيه والحلول؛ فقرّب إليه جماعة من أعلم فقهاء المتصوّفة فى عصره وتواضع معهم على تنفيذ خطة ينقذ بها المتصوفة من براثن الغلو فى العقيدة والانفراد والعزلة عن المجتمع وبذل جهده فى تعليمهم، وطالب بتأليف الكتب لتثقيفهم وتوجيههم وأنفق عليهم أكثر ما يفتح عليه من رزق[1].

وبمجالسته ومدارسته لهذا الفريق من العلماء أصبح من المتبحرين فى الصوفية والمشجعين عليها وربما كان ممن دفع بالغزالى فى اعتناق طريقها والانضمام إلى حلقة المريدين من أتباعها، إذ كان مجلسه ـ كما سنرى ـ يضم خيرة أعلامها أمثال: القشيرى والجوينى والشيرازى وأمثالهم، وبذلك ظهر من الفقهاء المتصوّفة طبقة مستنيرة استطاعت أن تحوّل التصوف إلى منهج اجتماعى مرن قابل للتطور بعد أن كان نظامًا جامدًا ضيق الأفق لا يقبل تحويرًا ولا تبديلاً، وبذلك تطورت الصوفية فأصبحت بفضل هؤلاء الأعلام إيجابية عملية بعد أن كانت تجريدية نظرية، وأصبح المتصوف يكدّ ويعمل ليأكل من عرق جبينه تعففًا من أموال الآخرين أو تخوفًا من حرمته، وتطور السلوك فأصبح موازنة بين متطلبات الجسد والنفس من غير إرهاق فى ملذة ولا إشباع فى تخمة أو حرمان من متعة، وهذا ما نستطيع أن نسميه «بالنسك الإيجابى» وهى ظاهرة لم نعرفها من قبل عصر «النظام» ولئن عرفت فلم تبرز وتنتشر كما كان فى هذه الفترة، وبذلك كانت صوفية هذا العصر ليست فى شىء من صوفية الحلاّج

(١) الذهبى – سير أعلام النبلاء جـ ١١ ورقة ١٥١.

وابن العربى ورابعة العدوية فى ظاهرها الرسم والخرقة كما وصفها ابن تيمية[1] وباطنها الوحدة والفناء فى ذات الله، وإنما هى صوفية رأت المال والآمال زائلة والجاه والمسرّات آفلة فاتجهت بروحها نحو الله ورأت الأعمال الصالحة باقية فتوجهت بجسدها نحو الدنيا وبروحها نحو الآخرة.

غير أن الذى لاشك فيه ولا نظنه إسرافًا فى القول هو أن صوفية هذا العصر قد شملها الاجتهاد كما شمل التشريع ودخلها التحليل كما دخل الأصول، حتى صارت علمًا يدرس بعد أن كانت طريقة رياضية يمر بها المرتاض بين المقام والحال والمشاهدة وصار التصوف مذهبًا فى الحياة، له قواعده وموضوعه وغايته، وسلوكًا له أسلوبه وتراتيله وطريقته ومعهدًا له منهجه وتلاميذه وأساتذته. وكان من أبرز علماء هذه المدرسة ـ أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة القشيرية التى عرفت باسمه والحارث بن أسد المحاسبى حيث سلكا طريقة متوسطة بين الغلو والتقصير ونجحت فى آثارها أمم انتسبت إلى الصوفية، وكان فيها سابقًا من غلا وطفّف، وكاد الشريعة وحرّف[2].

وتناول المريدون رسالة القشيرى فى التصوف بالدرس والإفادة، ومازالت حتى اليوم من أهم المراجع فى موضوعها وليست فى محافل الصوفية فحسب، وبذلك نال إعجاب نقدة المؤرخين كابن خلدون حتى ضرب بقرّاء رسالته المثل وسمّاهم (الوارثين)، فإنه عند الحديث عن حملة الشريعة قال: وممن حملها إنصافًا وتحققًا دون نقل فهو من الوارثين مثل رسالة القشيرى، ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة[3].

وظهر إلى جنب هذين من الفقهاء أبو إسحق الشيرازى عميد النظامية فى بغداد، وأبو المعالى الجوينى رئيس النظامية فى نيسابور، ثم أبو حامد الغزالى والأسدى الطوسى[4]، وبابا طاهر العريان، وأبو سعيد بن أبى الخير، والشيخ

(١) المعافرى ـ العواصم جـ ١ ص ١٩ . والخرقة إشارة إلى زى الصوفية المسمى بـ «المرقّعات».
(٢) المعافرى ـ العواصم جـ ١ ص ١٩ .
(٣) المقدمة ص ١٠٩ .
(٤) رضا شقق زادة ـ تاريخ الأدب الفارسى ص١٨ ، وراجعه كذلك من ص ٦٤- ٨٠ الترجمة العربية.

العطار[١]، وأبو الفضل البيهقى، وعبد الله الأنصارى. ومن الشعراء سنائى المتوفى سنة ٥٤٥هـ، وعمر الخيّام المتوفى سنة ٥١٥هـ، ومن الباطنية ناصر خسرو، وحسن الصباح وشيخ الصوفية أبو على الفارمذى الخراسانى[٢]، وشيخ الشيوخ أبو سعد بن درست النيسابورى وأمثالهم، وهيبة الله بن عبد الوارث الشيرازى[٣].. وغيرهم.

وكان من هؤلاء الأعلام من يحضر مجلس «النظام» ويستمع لوعظهم وإرشادهم وكان منهم من يذهب بنفسه لحضور مجلسه ويصغى إلى توجيهاته ودرسه وكانوا منه بمنزلة الأجرام تدور حوله بأبعاد مختلفة.. فهذا يحترمه ويحبه، وذاك يجلّه ويقرّبه، وثالث يتغالى فى ولائه[٤]، ورابع إذا دخل مجلسه قام له وأجلسه إلى جنبه، وخامس يخلى له مكانه ويجلسه فيه[٥].

الغزالى والخيّام:

ومن قبيل التمثيل لما كان عليه التصوّف فى هذا العصر ومادخله من تحوير يحسن بنا التحدث بإيجاز عن اثنين لازما «النظام» وكان لهما شأن كبير فى حياته أحدهما شاعر حكيم، والآخر فيلسوف عالم، وهما: الغزالى والخيّام.. ففى التحدث عنهما - بإيجاز- كشفٌ لأسباب الصلة بينهما وبين الوزير.

الإمام الغزّالى:

لقد ضمن «النظام» من أبى حامد الغزالى خير مساعد له لتنفيذ خطته وكان عند حسن ظنه إلى حين وفاته، وكان قد وقع له فى مجلس «النظام» وملاقاة الفحول ومناظرة الخصوم فى فنون العلوم ما أقبل «النظام» عليه، إذ لمس فيه

(١) عزّام - التصوف وفريد الدين العطّار ص ٨.

(٢) الذهبى - سير أعلام النبلاء - مجلد ١١ ص ٥٠٦، ٥٥١.

(٣) السير - مجلد ١٢، ص ٤.

(٤) الذهبى - سير أعلام النبلاء - مجلد ١١ ص ٥١٦، ٥٥١.

(٥) القزوينى - آثار البلاد - مادة نيسابور.

وقدة فى الذهن ولباقة فى الحديث ودربة فى اللسان واسترسالاً فى المناقشة وحجة قوّية فى التدليل[1]، فانتقاه مدرسًا لنظامية بغداد فأقبل بكليته عليها ولقيت محاضراته قبولاً قلَّ نظيره من مدرسيها وتلامذتها، غير أنه لم يقتل صاحبه «النظام» على يد الباطنية حتى أخذ يقرأ فى كتبهم ويؤلف فى الرد عليهم ولم يمض عام على هذا الحادث حتى اعتزل التدريس واستتاب أخاه وقام بجولته الشهيرة من بيت الله الحرام إلى دمشق واعتكف فى منارة جامعها، ثم سار إلى بيت المقدس ومصر، وزار المشاهد والترب، وكان خلال ذلك يروّض نفسه ويكلفها مشاق العبادة حتى عاد إلى بغداد وعقد مجالس الوعظ وانصرف إلى التأليف ورفض الرجوع إلى التدريس حينما طلب إليه فخر الملك العودة إليه. ويحكى لنا أنه قد وقع فى ورطة التشكيك عندما قرأ كتب الباطنية والفلاسفة أيام (شبابه) ولم ينقذه منها سوى طريقة التصوّف التى استراحت إليها نفسه[2] واختار الزهد والعبادة وبالغ فى تهذيب أخلاقه[3].

ولعلّ فى اغتيال صديقه «النظام» على يدىّ أحد الإسماعيلية الباطنية ما دفع به إلى التصوّف وانحرف إلى الغلو فى مبادئه وطرقه حتى أوغل فيه وأكثر معهم التصوّف فخرج على الحقيقة، وحاد فى أكثر أقواله عن الطريقة وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق. وكان قبل ذلك تاجًا فى هامة الليالى وعقدًا فى لبّة المعانى[4] إلى أن يقول عنه المعافرى أيضًا: «وكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإسلام فيه عين وقرعوا عليه سنا من ندم، وقاموا فى التأسف عليه على قدم»[5]. وكما بالغ المؤرخون فى الحديث عن الباطنية فقد غالوا فى سيرة الإمام الغزالى زعيم الحركة ضدهم..

---

(١) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٢٧٦ ـ مادة طوس.

(٢) المنجّد ـ المقتفى من دراسات المستشرقين جـ ١ ص ١٥ بروكلمان.

(٣) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٢٧٦ ـ مادة صوف.

(٤) المعافرى ـ العواصم جـ ٢ ص ٨٥، ٨٦.

(٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٥، ٨٦.

وكان هذا طبيعيّا لأن من يذم شيئًا يمجّد نقيضه. . وما كان الغزالى فى واقع الأمر الذى يستحق جميع ذلك الإطراء والتمجيد، فإنه قد وقف من الفكر الحرّ موقفًا سلبيّا وأخذ ينعى على الفلاسفة وعلى المعتزلة اعتمادهم على العقل حتى جمدت العقول وركدت سوق الفلسفة. . ومن ناحية شخصيته فقد سخّره رجال السياسة لأغراضهم فألّف كتابه «فضائح الباطنية» بناء على طلب الخليفة المستظهر بالله وأخرج كتابه «حجة الحق» بالفارسية تنفيذًا لرغبة السلطان ملكشاه ثم اتخذ لنفسه صوفية سلبية عكف بسببها عن الحياة العامة سوى التأليف والوعظ والعبادة. . وما كان بفاعل هذا فى عهد «النظام».

على أننا ينبغى ألاّ ننكر على أبى حامد إيمانه بما قال وكتب وأن ما أوثر عنه من مؤلفاته التى تربو على الخمسين تدل على عمق تفكيره فضلاً عن شدة إيمانه وأن جهاده العلمى خلال السنوات الثلاث التى انتدب فيها للتدريس فى عهد «النظام» واستمراره بعده يعظ ويحاضر ويؤلف وينشر إلى أن مات سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م لدليل آخر على صدق نيته وحسن طويته. ولا يخامرنا الشك بأنه فى تهافته قد أفاد الفلسفة بنقده لآراء الفلاسفة وهدم نظرياتهم ونبّه الدارسين الذين يتلقون نظريات ما وراء الطبيعة إلى ضرورة التمحيص والتحقيق وإن لم تظهر فائدة ذلك فى أيامه فقد رأيناها بعد وفاته على يد ابن رشد فى كتابه «تهافت التهافت» ردًا على ما قاله الغزالى: «والعلم ولا سيما النظرى المجرّد لا ينمو إلاّ بالنقد». ويجب ألاّ ننسى كلمته الرائعة ونحن نختتم الحديث عنه: «ليس فى الإمكان أبدع ممّا كان».

الخيّام الحائر:

وهو ثانى المثلين فقد تشكك المؤرخون فى عقيدته كما شكّ هو نفسه فى حقيقته، ودنياه، وآخرته. وقد اتهموه والمعرّى كذلك فى الدعوة إلى الباطنية لريبهما فى الكتب المنزّلة والرسل والآخرة وإباحتهما شرب الخمر[1]. واعتبره آخرون ماجنًا داعرًا لايعرف من حياته سوى الخمرة والمرأة. وعدّه فريق ثالث

---

(١) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٢٧٠.

شاعرًا صوفيّا[1]، ورابع بعيدٌ عنهما وأنه لم يكن متصوّفًا وليس من شعرائهم وإنما سخر بهم[2].

ولسنا ننكر على هؤلاء آراءهم فى الخيّام وأحكامهم عليه ولكن الذى يبدو لقارئ رباعياته الفارسية ومتتبع سيرته الصحيحة، يجد أن هذه جميعها صور مختلفة، تمثل جوانب متعددة من حياته أو أنها فترات مرّت به أو مرّ بها وقد خالطت فكره وقلبه فحكم عليه المؤرخون بمقتضاها حكمًا عامّا، غير أن تلك الأدوار قد انتهت إلى شيء واحد هو الحيرة التى لازمته طوال عمره وأخذت بيده إلى «الجبر» من ناحية والتشاؤم من ناحية أخرى، فقد كان الخيّام زاهدًا فى الحياة عازفًا عن الجاه والسلطان، كما أشار الى هذه الصفة فيه زميله «النظام»[3].

وكان أعزبًا يرى السعادة فى العزوبة والوحدة. وقد جرّه إلى ذلك جوابه الضائع التائه على كل سؤال يدور فى خلده ويتساءل عنه لتستقر نفسه وتهدأ روحه.. هذا الكون كيف بدأ وكيف ينتهى. ولِمَ كان كذلك؟ وهو: لماذا جاء ومن أين جاء وإلى أين ذاهب؟.. إلى آخر ما هنالك من خلجات ينبض بها القلب الشاك، وخطرات تمر بالعقل المرتاب.

هذه الحيرة قادته إلى الجبر فهو كالماء يجرى شاء أو لم يشأ وهو كالريح تهب ولا تدرى أين تروح[4]. فهو فى بداية الوجود ونهايته ضال لا يعرف الحقيقة وهو فى وجوده مسيّر لا يملك حرية المصير، وبذلك خرج إلى فلسفة جديدة فى الأخلاق كانت نتيجة لهذه المقدمات، وبذلك كان متصوّفًا ولكن ليس كبقية الصوفية، وبذلك أيضًا انتهى إلى منزلة بين المنزلتين فلا هو مؤمن بكل ما قيل ولا هو كافر بجميع ما سمع.

كان الخيّام قبل تسعة قرون ضالاً يشكو مرارة جهله بالكون وما وراءه ومازال

(١) نيكولا الفرنسى، وآريرى.

(٢) عبد الوهاب عزام - مجلة الجامعة المصرية - السنة الثالثة ١٩٣٢م - العدد الثانى ص ١٥.

(٣) النظام - الوصايا ص ٣ - الترجمة - مخطوطة بقلم المؤلف.

(٤) انظر رباعياته: ترجمة الشاعر - الصافى النجفى - عن الفارسيّة مباشرة.

الإنسان على الرغم من تطوره خلال هذه الحقبة الطويلة يجهل أشياء كثيرة فى حياته منها المحسوس، ومنها غيره فهو يجهل حقيقة الكهرباء والمغناطيس وهو يجهل ماهية النفس والعقل والروح لأنها خارج نطاق المحسوسات ولا وزن لها ولا قياس. ولئن جهل هذه الأخيرة فما عذره فى الأولى فكيف إذن يهتدى إلى الحق ومعرفة ما وراء الطبيعة بواسطة شىء لا يعرف بعد ما هو: كيف يعرف ما وراء الكون ذلك العالم الغيبى المجهول عن طريق العقل وهو لما يزل مجهولاً؟ أمجهولٌ يبصر مجهولاً، وليس العقل سوى لفظ يحجب جهلاً:

أعمى يقود بصيرًا لا أبالكم قد ضلّ من كانت العميان تهديه

فلابد لنا من طريق آخر لمعرفته لأنها ليست لها حدود وما كان كذلك ليس لإدراكه طريق واحد. فالعقل منذ تبعه الإنسان لم يصل به إلى الحقيقة الثابتة، ومما ظنناه بالأمس أنه من العلم اليقينى غدا اليوم من أساطير الأولين.

وهو مادام يجهل كل شىء فهو يؤمن بكل ما يقال له إيمان العجائز كما فعل معاصره «الجوينى»[1]، أو يكفر بكل شىء كما فعل غيره من الشعراء السابقين أمثال: «طرفة بن العبد» وما دام لا يعرف إلاّ حياة زائلة قصيرة فليغتنمها بالتهجد والعزلة أحيانًا أو السكر بالخمرة الإلـهية أو الشيطانية أحيانًا أُخر. وهو لحيرته وضلاله وجبره كان متشائمًا فى الحياة كصاحبه المعرّى وقد ضمّن رباعياته كل هذه المعانى الفلسفية والأخيلة التى كان يتمناها لنفسه فى حياته، لأن النفوس شاعرة غير علمية وما كان يستطيع أن يكون كأحد الشعراء المتصوّفة يعيش فى دنيا الخيال وهو الرجل العالم وما كان له أن يحيا بطبيعة العالم وهو يحمل إحساس الشعراء لذلك صارت حياته مزيجًا معتدلاً مؤلفًا من هذه النزعات جميعها. ولو كان غير ذلك لكان من الفاجرين الفسّاق ولما قرّبه «النظام» إليه، ولئن صحّ هزؤه بالمجتمع والحياة وإقباله على الخمرة والمرأة فمن الصعوبة بمكان الجزم بنكرانه الحشر والميعاد ودعوته للكفر والإلحاد ولو كان كذلك لأبعده «النظام» عنه.

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم، وابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

ولسنا ندرى بعد ذلك كله: هل نعدّ «النظام» من المتصوّفة وهو الوزير الذى أسهم فى الحروب وخاض فى بحيرات من الدماء واتهم فى قتل بعض الأبرياء ولبس الحرير ولعب النرد وسكن القصور وأكل ما لذ وطاب؟!.

الذى نميل إليه بعد أن توصلنا إلى ما انتهى إليه التصوّف فى هذا العصر وأنه تصوف إيجابى عملى يتصل بالحياة الدنيا والأخرى معًا ويعتمد على أساس من العلم والعقيدة جميعًا، لا نجد ما يمنع من عداده بين المتصوّفة وإن لم يكن فى طليعتهم. فلم تذكر المصادر أنه كان يغشى مجلس لهو لأمير أو سلطان أو أنه أقام حفل شراب أو أنه كان يتعاطى النبيذ أو الجعة وبخاصة بعد أن صار وزيرًا على الرغم من أن تعاطيهما عادة مألوفة على موائد الوزراء ورجال الدولة، وإنما كان ينهى سلطانه عن إدمانهما فى المناسبات.

وكان يؤدى الصلوات فى أوقاتها وإذا سمع المؤذن ترك العمل مهما كان نوعه، وكان زاهدًا عابدًا يروى الأحاديث للتبرّك بصاحبها ويحضر مجالس الوعظ ليستمع للخطباء فى أيام الجمع ويبكى، ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ويتمنى أن يكون له كوخ فى جبل ينزوى فيه ويكتفى من دنياه برغيف حتى يتفرغ لعبادة الله[1] عزّ وجّل.

* * *

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم، وابن الأثير ـ الكامل ٤ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

• الفصل الثانى

الناحية العلمية والأدبية

التمهيد: عصر الإثمار باسم حرية التفكير فى العلوم والفنون.

العلوم العقلية فى هذا العصر: الفلسفة وابن سينا والغزالى.. الفقه ومشاهير الفقهاء.. علم الكلام وأعلامه.. التنجيم والفلك والرياضيات، ثم الطب وظواهرها فى مجتمع القرن الخامس.

العلوم النقلية وميزتها فى هذا العصر: القرآن والحديث.. التاريخ.. البلاغة والنحو.. الأدب وخصائصه.. ذوو اللسانين، مانسب إلى «النظام» من شعر.

تمهيـــد:

لقد كان الدين ـ كما انتهينا من قبل ـ هو الهدف للدولة فى تلكم القرون الأربعة، باسمه تغزو وتفتح فى الخارج، ومن أجله تقضى على المارقين والخارجين على الحكم فى الداخل، دون تفريق بين الدين والدولة، أو تمييز بين السياسة والعقيدة.. إلى أن تبلورت فكرة السيادة الدنيوية ونضجت نظم الحكم فصار الدين والدولة توأمين يسيران جنبًا إلى جنب.. وليسا شيئًا واحدًا فهما توأمان يجب أن يعيشا معًا، وأن يتعاونا لإسعاد الرعيّة، وأن تجعل الحكومة من الأول عمادًا لها ليكون فلسفتها فى الحكم ولتنظيم شئون الناس وضمان مصالحهم، وعلى الحاكم أن يتعهدهما بالرعاية والعناية على السواء من أجل بقائهما وخير المجتمع الذى يحلاّن فيه.

ومادام الدين من الدولة بمنزلة التوأم، وهو الذى يرشد الفرد إلى واجباته نحوها ونحو نفسه وخالقه.. فلابدّ من دراسة أحكامه وأصوله ولابدّ له من تعلم فروعه وما يمهّد لها من علوم وفنون، فى اللغة والنحو والبلاغـة، فقـد ورث هذا القرن علومًا لسانية وأخرى عقلية كانت جميعها فى خدمة الدين وإيضاح فروعه وأصوله، بحيث تحوّل بعضها إلى معتقدات كأنها جـزء من الدين أو أحد مظاهره.

وبينما كانت الحرب سجالاً عبر الحدود من أجل نشر الدين كانت فى

الداخل نهضة فكرية تعنف حينا وتخف أحيانًا تظهر تارة باسم الدين.. وأخرى باسم العلم، وإن شئت فسمّها علمية دينية أو دينية علمية أو ثورة الفكر العالم المتدين. ولقد تحدثنا آنفًا عن مظاهر هذه الثورة باسم الدين، والآن سننتقل إلى الحديث بإيجاز عن ثورة العقل العالم باسم حرية التفكير جاهدين تلمس الخطوط البارزة التى تمثّلت فى هذه الفترة من عصر الإثمار.. عصر الوزير «النظام».. إذ لم يكن العصر الذى عاش فيه وزيرنا ـ كما يخيل إلينا ـ عصر تجديد فى الاجتماع والعلم والسياسة ـ وإنما كان عصر جَنْى واستثمار.

ومما يكشف لنا عن تخطى الفكر دور النضج إلى عهد الإثمار فى هذا العصر تلك المكتبة الضخمة فى العلوم والفنون والآداب، والتى حوت من مؤلفات القوم ودواوين الشعر عدداً هائلا، وقد جمع بين تركيز الفكرة وعمق النظرة، وغزارة المعلومات كما سنشير لأسماء أهمها فى ثنايا هذا الفصل.

ولم تكن الفترة التى عاشها «النظام» هادئة مستقرة لينصرف بكليته لإحياء المعارف الإنسانية وتعميمها.. كما لم يكن سلاطينه.. وهم «من الأتراك الذين عرفوا بجناياتهم على العلم[1]» فى تلك العهود لانصرافهم للحروب، مما يساعد على مضاعفة نشاط الوزير لتحقيق ما يرمى إليه من نشره، ولكنه على الرغم من كل ذلك فقد بذل قصارى جهده فى سبيل تحقيق هدفه، وربما كان لسياسة الحكم الفاطمى التى بنت منافستها على العلم أثر كبير فى مواصلة جهود «النظام» لتعزيز الدعوة العلمية التى كانت تعضد المذهب السنّى.. مذهب الدولة فى الشرق ضد التشيع الباطنى ـ مذهب الحكومة الفاطمية فى مصر، وذلك بإنشائه المدارس النظامية قبال الأزهر الشريف.

والحق أن هذا العهد وبخاصة الفترة التى كان «النظام» وزيراً فيها ـ من نوادر العهود التى حفلت بأنواع العلوم وزخرت بجهابذة العلماء، والتى لم يشهد لها التاريخ الإسلامى نظيراً فيما بعد.. وربما كانت خاتمته، فبعد أن امتدت ساحة

(١) المختار السائغ من شعر ابن الصائغ ص ١١.

الدولة الإسلامية وتباعدت أطرافها أخذت الأمم المختلفة بلغاتها ومعارفها وحضاراتها الموروثة تحترب فيما بينها وتصارع الحضارة العربية الجديدة.. وكان أن خرجت اللغة الأم العريقة ظافرة منتصرة وظلّلت بأجنحتها تلك الرقعة الواسعة من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلنطى.. غير أنها سرعان ما خبت جذوتها وتضاءلت شعلتها بعد قرنين من وفاة «النظام» على أثر فتح المغول لهذه البلاد.

وقد تجلى نشاط «النظام» فى هذه الناحية العلمية والتى تليها - السياسية - أكثر مما سبق من النواحى الاجتماعية الأخرى.. بحيث كشفت لنا عن قوة شخصيته وصدق نواياه وسلامة أهدافه فى العلم والسياسة.. فلم يكد يتسلم منصب الوزارة حتى شرع فى تأسيس «نظامياته» وبثّها فى حواضر العالم الإسلامى.. وهيّأ لرواد العلم ما يحتاجون إليه من زادٍ ومواد.. وقرّب إليه العلماء وشجّعهم على مواصلة البحث والتدريس وأغدق عليهم الأرزاق لاعتقاده بأن العلم قوام الدين كما أن الدين عماد الدولة وأن العدل أساس الملك.. ومادام يريد لأمته دولة عادلة فلابد له من نشر العلم كما عممّ الدين.. ولابد له من أن يمهد لذلك بإنشاء المدارس وغيرها كما مهّد لهذا بإعداد الجيش.

وعند تصنيف - العلماء - لتلك العلوم قسّموها إلى مجموعتين: عقلية ونقلية. وكانت الفلسفة - كما يبدو لنا - هى جماع الصنفين وثمرة القسمين، لأن مادتها العلوم جميعًا وغايتها الاهتداء إلى كشف قواعد عامة واستنتاج أحكام شاملة فى الحياة والكائنات وما وراء الطبيعة.

من العلوم العقلية:

١ - الفلسفة:

وافتنّ العلماء فى هذه الحقبة من التاريخ بالفلسفة ولاسيما فلسفة اليونان وشغف آخرون بعلوم الدين وتحمسوا له وبخاصة عقيدة الأشعرى

على مذهب الشافعى واختلطت لديهم مشكلات الفلسفة بمعضلات الدين.. أو أنهم شاءوا ذلك فصار بنظرهم من يقول بخلق القرآن وأن الإنسان قادر على أفعاله يعتقد اعتقاد الفلاسفة وبذلك يتهم أصحاب «عبد الصمد» من الحنابلة أهل النقل «أبا على بن الوليد» من المعتزلة أهل الرأى والعقل فيهجمون عليه وعلى داره وتقوم الفتنة عام ٤٥٦هـ[1].. وقام فريق من هؤلاء يرفع شأن الفلسفة على حساب الشريعة وأخذ فريق من أولئك يدعو لدراسة الفلسفة ـ أى الحكمة والمنطق واستعمالهما أداة ضد خصومهم كالغزالى، ولعلّ هذا مما دعاه إلى تأليف كتابه ـ التهافت ـ ودعا فريق آخر للتوفيق بين الشريعة والفلسفة لاعتقادهم بأن الغرض منهما واحد[2] وهو خدمة الدين.

وبذلك كان الدين هو الحافز الأول وله الفضل الأكبر فى نشاط هذه الحركة خلال القرون الأربعة السابقة حتى نهاية القرن الخامس الهجرى، وبذلك ليس من صائب الرأى من يعلّل لتلك الحركة بالسياسة وحدها كما ليس من صحيح القول الزعم بأن الفلسفة فى هذا العصر إنما هى استمرار وتكرار لفلسفة العصور السابقة، وأن الغزالى فى تآليفه ولا سيما فى تهافته.. إنما كان يعمل لنقض الفلسفة ولغرض الدفاع عن الدين فقط. وبذلك فقد أتت الفلسفة ثمارها فى هذا العصر بعد أن نُقلت عن اليونان وتتلمذت على أساتذتها، فغدت فلسفة إسلامية مستقلة الفكر واضحة المعالم بيّنة التعاريف والحدود، عميقة الحجة مدعّمة الآراء بالبرهان.

ابن سينا :

وآية ذلك.. ابن سينا أبو على الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م.. طليعة الفلاسفة الصوفية فى مطلع القرن الخامس الهجرى

(١) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٥٨.

(٢) ابن حزم ـ الفصل جـ ١ ص ٩٤.

الـذى بزّ أقرانه كأبى إسحاق الكندى والفـارابى والـرازى . . فى التفكيـر العظيم والتعبير الفلسفى الرصين وإن كتابيه ـ القانون ـ فى الطب ـ والشفاء[1] ـ فى العلوم الفلسفية لتدلنا على ثراء ابن سينـا العـلمى وحصافـة رأيه . . ولاسيـما بمـا قدّمه لنـا مـن بحـوث عن الحواس الباطنية وعن النفـس . . وقصيدتـه فى النفـس لا تحتـاج شهرتها وذيوعهـا إلـى ذكـر فإنهـا على تضمنـها لمعـانٍ فلسفيـة قد بلغت الذروة فى أسلوبها الجميل وتصويرها الرائع . . ويعدّ ـ ول ديورانت ـ كتابىّ الشفاء والقانـون ـ أرقى مـا وصـل إليه التفكيـر الفلسـفى فـى العصـور الوسـطى ومـن أعظم البحوث فـى تاريـخ العقـل الإنسانى[2].

وإنـه كان فيلسوفًا لا يميـل إلى التقليد لأن العقل عماده ولذلك لم يتأثر بأقوال أبيه عن الإسماعيلية وبقى يشتغل بمسائل الفـقه والكـلام والفلسفـة، وكـان كلّما استعصت عليه مسـألة ذهـب إلـى الجامـع وصلـى وابتهـل إلـى اللّه ليفتح له المغلق ويسهّل العسير . . وكان كلما شعر بالضعـف ـ كما حـدّث عن نفسه ـ أو النوم فى القراءة والكتابة تناول قدحًا من الشـراب ليصحـو وتعـود إليه قوته .

ولعل ابن سينا أول من حاول أن يوفق ليس بين الفلسفة اليونانية والعقيدة الإسلامية فحسب وإنما بينهما معًا والصوفية جميعًا[3].

ولإقبال علماء العصر على الفلسفة وشغفهم بدراسة علومها وبلوغهم مرحلتها فقد شاعت فكرة التوفيق بينها وبين الشريعة حتى لا يبقى مجال لتكفير الآخذين بها بحيث بلغت بلاد المغرب فنرى ـ ابن حزم القرطبى (٣٨٤-٤٥٦هـ) حينما يصل بحديثه عن الفلسفة يقول: «وأمّا معناها وثمرتها

(١) نشر جزء من النص العربى لهذا الكتاب كما طبع ملخصه باسم «النجاة مع القانون فى روما» سنة ١٥٩٣م (مجلة المجمع العلمى فى بغداد).

(٢) قصة الحضارة جـ ١٢ ص ٢١١. الترجمة.

(٣) المنجّد ـ المنتقى ص ١٦٨.

والغرض المقصود بتعلمها ـ على الحقيقة ـ ليس شيئًا غير إصلاح النفس بأن تستكمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعيّة، وهذا نفسه لا غير هو الغرض فى الشريعة. هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة[1] إلاّ بنظر من جهل بأحدهما أو بهما معًا»[2].

ثم جاء ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥هـ بعد ذلك وقام بمحاولة أخرى للتوفيق بينهما ولا نظن نصرًا رافق فيلسوفًا كالنصر الذى رافقه فى انتصاره للفلسفة، وإن كتابه ـ تهافت التهافت ـ فى الرد على تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى، وكتابه ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ خير دليل على فوز العقل الحرّ والتفكير الفلسفى ممثلين فى شخصية هذا الفيلسوف العربى. إذ عن فيلسوف العرب ـ الكندى ـ أخذ ابن سينا والفارابى وغيرهما معنى الفلسفة[3].

وقد كانت مؤلفات ابن سينا الفلسفية مطمح أنظار المتطلعين للدراسات العليا فلم تكد تخرج للوجود ويتسامع بها الناس حتى قرأها كثيرون وتأثروا بها، ومن هؤلاء ـ أبو العلاء المعرّى[4] ـ شاعر عصر «النظام» وزميلاه «الخيّام والصبّاح»[5] حيث اتفق الشاعران معه فى القول بالجبرية.

الغزالـــى:

أفاد ـ الغزالى ـ من كتب ابن سينا وهو يطريه ويثنى على فلسفته كما يشيد بالفارابى[6] عند التحدث عنه، وكان كزميله هذا وكأستاذه ـ الجوينى ـ مجتهدًا

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ١ ص ٩٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الأهوانى: أحمد فؤاد ـ معانى الفلسفة ص ٤٢.
(٤) طه حسين ـ ذكرى أبى العلاء.
(٥) البيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص ١١٠.
(٦) الغزالى ـ تهافت الفلاسفة ص ٩.

لا يميل إلى التقليد، وأن خروجه إلى التصوّف بعد أن بذل جهداً لمعرفة ما كتبه أصحاب الملل والنحل والمذاهب ويئس من إدراك المعرفة الصحيحة[1] من أدلة تحكيمه للعقل.

مهما قيل عن الغزالى وشطحاته الصوفية التى ضيّقت النطاق على عقله وحصرت عقول الآخرين فلا يستطيع باحث إلاّ أن يعدّه من أكابر فلاسفة هذا العصر، إذ إن نقده لبعض نظريات الفلسفة ونعيه على المتفلسفين إنما هو من الفلسفة وإن كتبه بأسلوبها وموضوعاتها، ومناهج العرب فيها إنما كانت من صميم فلسفة ذلك الوقت.

لقد عالج الغزالى فى مؤلفاته بعض المسائل التى مازالت موضع قبول وردّ حتى عصرنا الحاضر وكل ما كان يعترض عليه من مشكلات فلسفية إنما ينحصر فى نظريات قدامى الفلاسفة.. فى قدم العالم واعتقاد الدارسين فيها دون تمحيص ولا بحث، ولذلك ينحى باللائمة على الذين يحكمون بالظن والتخمين من غير تحقيق ولا يقين[2]، ولذلك هو يطرى الفارابى وابن سينا ويعدّهم من طبقة الفلاسفة المحققين[3].

والذى يؤخذ على الغزالى فى كتبه التى تربو على الخمسين مؤلفًا، وبخاصة ما كان منها فى الرد على الفلاسفة أنه كان قاسيًا فى نقده مقذعًا فى سبّه، ساخرًا بذَوى الرأى هازئًا بآرائهم. وهذه ليست من خلال الناقد المتجرد.. ولا هى من تقاليد النقد النزيه وهو العالم الفيلسوف المتصوّف..

ونحن إذ نستمع إليه يقول فى معرض حديثه عن الأنبياء: «إنه لم يذهب

(١) المنجد ـ المنتقى جـ ١ ص ١٥ (بروكلمان).

(٢) الغزالى ـ تهافت الفلاسفة ص٨.

(٣) المصدر السابق ص٩.

إلى إنكارهم إلاّ شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ولا يعبأ بهم فيما بين النظار، ولا يعدون إلاّ فى زمرة الشياطين الأشرار.. وغمار الأغبياء والأغمار.. ليكفّ من غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر يدل على حسن رأيه.. ويشعر بفطنته وذكائه.. إلخ[(١)]» فإنما يخيّل إلينا أن الناقد غير الغزالى.. وأن صاحب هذا القلم متحامل غضوب لا يرعى للعقل حرمة ولا يلحظ لآداب الجدل والمناقشة قاعدة.

ومع هذا فإنه كما يقول «بور Boer» أعمق من تضلّع فى دراسة الفلسفة الإسلامية من المستشرقين: «إن فى اتخاذ الغزالى تلك الطريقة المبتكرة من التصوف والاقتناع الداخلى أعمق - وأيم الحق - من فلسفة المقلّدين». ونحن نقول: إنه فلسف التصوّف حين سلك طريق التألّه وترك التدريس واتخذ بجوار بيته مدرسة وخانقاه إلى أن مات سنة ٥٠٥هـ[(٢)]، وإنه قد حالفه التوفيق - كما نظن فى فلسفته بقدر ما خالفه فى عزلته وانطوائه، على أنه ما كان ليرضى من الصوفية - وهو الصوفى الحق - شطحاتهم وسفاسفهم[(٣)]، كما لا يرضيه من الفلاسفة اعتمادهم على العقل وحده دون استقراء وتتبّع ولجوء إلى القلب بغية الوصول إلى الحق عن طريق الإلهام.

٢- الفقـــه:

والفقه وإن كان مختصًا فى الحقوق بتشاريع الدين - فإنما هو من الفلسفة وليس واحدًا من العلوم الموصّلة إليها لأنه إمّا اجتهاد فى مسألة، أو استنتاج لحكم، أو تحليل لقاعدة.. فهو إذًا فلسفة التشريع، لأن المدارس الفقهية - كما يقول

---

(١) المصدر السابق ص ٦ ، ٧.

(٢) ابن عساكر - التبيين ص ٣٩٩.

(٣) الفقرة ١٠٤ من رسالته «أيها الولد».

«رتر» المستشرق الألمانى: «والتفكير الدينى فى الإسلام يمثل الفلسفة العربية أكثر ما يمثلها جمهور الفلاسفة أتباع أرسطو كالفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم».

وعهد الإثمار في الفقه يتجلى بما ظهر فى هذه الفترة من فقهاء ثم ما قام به هؤلاء من مؤلفات وما بلغته هذه من التنظيم والتعليل، وإبداء وجهات النظر فى المشكلات الشرعية فى دقة لا نجد لها نظيراً من قبل. وقد تجلّت هذه واضحة فى كتب الأئمة كالقشيرى والجوينى والغزالى. وبدت أكثر وضوحًا فى الآثار التى استخلصت من أحكام الشريعة فى نظم الإدارة والحكم، وواجبات الملوك بعد أن كانت داخلة فيها ممزوجة[1] بها وجعلت منها مدوّنة ذات موضوع خاص دعته بالأحكام السلطانية وآدابها.

وكان خير من يمثل عهد الإثمار فى هذا الباب الماوردى الشافعى المذهب المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى كتابه «الأحكام السلطانية» وأبو يعلى محمد بن الحسن ابن الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٤٥٨هـ، فقد عالج الموضوع كلّ منهما حسب وجهة نظر المذهب الذى ينتمى إليه معالجة بلغت من الدقة وحسن التبويب بحيث أصبحت مرجعًا قلّ أن نرى له مثيلاً حتى فى العصر الحديث.

وقد أعجب بهذه الظاهرة المستشرق الألمانى - شاخت - حتى وصفها بالنهضة العظيمة التى بلغها علم الفقه فى القرن الخامس للهجرة وقال عنها: «إنه لابد أن يكون ذلك التنسيق للفقه الذى نشاهد أكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة فى وقت واحد تقريبًا: للحنفية على يد القدورى، وللشافعية على يد الغزالى، وللمالكية على يد سعيد بن خليل»[2].

ومهما يكن من أمر ذلك فقد ظهر فى عهد «الوزير» عدد كبير من الفقهاء

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص٢.

(٢) مجلة الشرق - المجلد ٢٣ - سنة ١٩٣٥م - ص ٥٤٧.

البارزين وظهر لهم من المصنفات فى الفقه عدد ضخم فى حجمه، عميقٌ فى مادته، وصارت بعد مرور وقت قصير - لكلٍّ واحد من أولئك الأعلام - مدرسة تكتظ بالتلاميذ وتزدحم بالأساتيذ.. يكتب فيها ما يملون ويدرس ما يكتبون.. ولم يلبث أن يشيع الكتاب فى مختلف الأوساط المتعلمة وتحتفظ الخزانات بنسخ منه للإعارة والنقل والتعليق والحواشى عليه.

وقد يكون للخلاف بين السنّة والشيعة أثر فى تقدم التشريع الإسلامى وكثرة المؤلفات فيه.. إذ كانت المنافسة بين أعلام الطائفتين على أشدها ولاسيما فى هذا العصر. وثمة سبب آخر ساعد على تقدم التشريع الإسلامى حتى بلغ مرحلة التفقه والفلسفة هو تضافر جهود العلماء من مختلف المذاهب لدراسة الشريعة وتنظيمها وتعليل أحكامها، إذ المعروف بأن الاعتزال والتشيع والأشعرية مذاهب تختلف فى التشريع مثلما هى فى العقائد والكلام. وكان الاجتهاد فى هذا العصر هو الصفة البارزة فى الفقه والأصول معًا حتى لتجده شرطًا أساسيًا فى تعيين المحتسب كما نص عليه (الماوردى) فى أحكامه[1]، وقسّمه إلى عرفى وشرعى وقال عن الأول: ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف، والثانى: ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالشرع[2].

مشاهير الفقهاء:

وسواءٌ أكان هذا أو ذاك فالاجتهاد فى التشريع الإسلامى أمرٌ لاشك فيه والتجديد من صفات المجتهد التى لا تكون إلاّ بعد تبحرّه فى العلوم واستجماعه شرائط الإمامة من العربية والكلام والأصول ومعرفة الكتاب والسنّة[3] - كما يقول - أبو إسحاق الإسفراينى المتوفى سنة ٤١٨هـ. وأنه على الرغم من توافر هذه الشروط فى كثير من أعلام المسلمين - على اختلاف العصور - لم يستفد

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣.

(٣) ابن عساكر- التنبيه، ص ٢٤٤.

منه، وبخاصة عند السنّة مثلما استفيد منه فى هذا العصر فالشيخ - أبو إسحاق الشيرازى - يخالف إمامه الأشعرى فى مسألة «إن الأمر لا صيغة له»[(١)].

وكان الشيرازي هذا من أبرز فقهاء هذا العصر وقد ظهر له من التآليف عددٌ كبير منها: «التنبيه والمهذب، واللمع».

والقاضى أبو المحاسن الرويانى الطبرى المقتول سنة ٥٠١هـ، صنّف كتبًا كثيرة منها كتاب «التجربة» وكتاب «الشافى» وكتابًا آخر كبيرًا سمّاه «البحر». يقول ياقوت: «رأيت جماعة من فقهاء خراسان يفضّلونه على كل ما صنّف فى مذهب الشافعى، وكان (النظام) يكرّمه»[(٢)].

وأبو سعد بن مأمون المتوفى سنة ٤٧٨هـ ألّف كتاب «التتمة» الذى تمّم به كتاب الإبانة لشيخه - أبى القاسم الفورانى - وكتبًا أخرى فى الفقه[(٣)].

وكان «النظام» لايسمع بواحد من هؤلاء الفقهاء إلاّ بنى له مدرسةً أو رباطًا وأجرى عليه رزقًا ليتفرغ للعلم والتعليم والعبادة فلم يكد يطرق سمعه حال «أبى المظفر الإسفرايينى» الفقيه الأصولى المتوفى سنة ٤٧١هـ حتى ارتبطه بطوس[(٤)].

ثم الإمام أبو المعالى الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ فقد بنى له «النظام» المدرسة النظامية بنيسابور بعد عودته من دار هجرته إلى الحجاز، وبقى يدرس نحو ثلاثين سنة وكان يحضر حلقة درسه قرابة ثلثمائة رجل من الأئمة والطلبة وتخرج عليه جماعة من الفحول وأولاد الصدور. وصنّف الكتب الكثيرة من أشهرها - النظامى والغياثى - برسم الحضرة النظامية وأنفذها إلى «النظام» فحلّاً من نفسه موضع الرضا والقبول وقابلهما بما يليق من الشكر والخلع والهدايا

---

(١) نفس المصدر ص ٢٧٦-٢٧٨.

(٢) هو عبد الواحد إسماعيل بن محمد بن أحمد الرويانى، من رؤوس الفقهاء فى أيامه بيانًا واتقانًا. قتل شهيدًا فى مسجد الجامع بأمل طبرستان. ياقوت - معجم البلدان - مادة روبان جـ ٢ - ص ٨٧٣.

(٣) هو المتولى عبد الرحمن بن مأمون بن يحيى النيسابورى درس بنظامية بغداد بعد الشيرازى ثم عُزل بابن الصباغ ثم أعيد إليها بعد مدة. توفى كهلاً ببغداد بعد عشية (السير، مجلد ١١ ص ٥٦١).

(٤) هو شاهفير بن طاهر بن محمد (التبيين ص ٢٧٦).

والمرسومات والمراكب الممتعة[1]. . . ولمّا وجد من «النظام» هذا التشجيع انصرف إلى التصنيف وألّف «نهاية المطلب فى دراية المذهب» وغيره.

ومن فقهاء الإمامية فى هذه الفترة السيد المرتضى[2] والشيخ الطوسى[3] والطبرسى[4]. ومما يؤسف له ـ فى هذه المناسبة ـ وهو أسفٌ لا ينحصر بمؤلفات هذا القرن فقط: أن يتضخم كتاب «العبادات على حساب المصالح العامة والمعاملات»، وأن يشغل أذهان الفقهاء أنفسهم، ويقضوا أعمارهم، ويشغلوا الناس معهم فى أمور لا تتصل بواقع حياتهم ومشكلات مجتمعهم كالرسائل التى كتبوها فى الطهارة والنجاسة وصنوف العبادات المستحبة من أوراد وأذكار بحيث لا تتفق ومشاغل الحياة، ولا يمكن أن تكون من الفروض الدينية النافعة بأى حال من الأحوال.

٣- علم الكلام:

ويطلق عليه ـ الأصول والتوحيد ـ أيضًا، ونشأ نتيجة لتطور الفكر وتفشّى الجدل الذى اعتمد على المنطق، وانتشار ترجمات الفلسفة اليونانية فى الإلاهيّات.

---

(١) التبيين ص ٢٧٦-٢٨٦، وانظر تفصيل حوادثه ص ٣٥٤ من البحث.

(٢) علم الهدى أبو القاسم على بن الحسين بن الإمام موسى الكاظم: له التصانيف الكثيرة المشهورة منها: الانتصار فى الفقه، والخلاف والذريعة فى أصول الفقه، والذخيرة فى الأصول، والشافى فى الإمامة، وجعل توجيه العلم والعمل، وطيف الخيال وغرر الفوائد ودرر القلائد المشهورة بأمالى المرتضى وغيرها كثير من أهمها: ديوانه الكبير. توفى سنة ٤٣٦هـ (انظر أدب المرتضى ومقدمة ديوانه تحقيق الأديب: رشيد الصفار).

(٣) هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى، يلقب بشيخ الطائفة. توفى سنة ٤٦٠هـ، وله كتاب فى التفسير «التبيان الجامع لعلوم القرآن» وله فى الحديث كتابا «التهذيب» و«الاستبصار» وفى الفقه كتاب «النهاية» وكتاب «المبسوط» فى واحد وثمانين جزءًا وكتاب «الخلاف». . . وله كتب أخرى فى الأصول والرجال منها «الفهرست» وهو مطبوع فى النجف (القمى عباس ـ الكنى والألقاب ص ٣٥٧).

(٤) أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى. . . صاحب كتاب «مجمع البيان فى التفسير» وله فى الفقه كتاب «الوسيط والوجيز والجوامع». توفى سنة ٥٤٨هـ.
(القمى عباس - الكنى والألقاب ص ٤٠٤).

والكلام «كالفقه» لايختلف عن الفلسفة إلاّ بالسمعيات المنقولة عن الرسول.. فهو علم عميق فى عالم واسع لا نهاية لأطرافه، يحلّق الفكر فيه ويحوم حول غامض يحاول أن يجلّيه ويكشف عنه فتارة يهتدى وأخرى يخفق وهو فى الحالتين لا يدرى أضلّ أم أصاب كبد الحقيقة.

وقد توّهم أحد المستشرقين فاتهّم - الكلام - بالسياسة وأنه - وهو علم التوحيد يرسم الصورة التى تستهدفها الدولة فى العهود المختلفة.. ثم قال: «وإنه جزء منها وليست السياسة جزءًا منه» وقد قال ذلك - توماس هيوز - فلقى معارضة شديدة فى القرن السابع عشر[1].

ولانظن القول حقًا مادام الدين كان رائد الطليعة الأولى من الخلفاء ومادام الدين هو الهدف الأعلى من السياسة والحكم. ولئن كانت الفواصل بين السياسة والدين غير واضحة الحدود ولا بيّنة المعالم فى الحكومة الإسلامية فلا يستطيع مؤرّخ أن يرسل حكمًا عامًا باستغلال الدين فى سبيل النفوذ السياسى، وتوجيه العلم والفكر الوجهة التى يريدها، فإن من المعقول ألاّ نخضع الفكر لحاكم مستبدّ، ولئن اضطر لذلك فترة من زمن فلابد أن ينطلق فيكسر القيود ويخرج على الحكام وعلى القواعد المألوفة التى اصطنعها هو نفسه أحيانًا.

وهذا ما لحظناه على الفكر الإسلامى، فقد تطور بعد وقت قصير وحلّق فى أجواء ما بعد الطبيعة وسجّل ما تمثّل له وتصوره، ثم اختلفوا فيما تمثّلوه وجادلوا فيما تصوروه وصار لكل صاحب رأى مدعّم بالحجّة مستند على دليل له أنصار وله مدرسة وتلاميذ ودعاة فى مختلف الأمصار.

وهناك شىء آخر يدلّنا على أن بحوثهم فى «الكلام» لا تتعدى الدين، ولم يكن الغرض منها سوى التحقيق فى أصول أحكامه.. فقد روت المصادر أن الشافعى كان يتحاشى النظر فى «الكلام» لئلا يشغله عن الفقه، وقد حذّر وهو إمام المذهب الشافعى من الاشتغال به وله فى ذلك تعليل طريف ومحاجة رقيقة

---

(١) عنان - المذاهب الاجتماعية الحديثة.

مع سائل له فى التوحيد يوم كان فى مصر. . قال بعد حديث طويل: «أتدرى كم نجم فى السماء؟. قال السائل: فقلت لا. فقال: فكوكب من هذه الكواكب الذى تراه تعرف جنسيته. . طلوعه وأفوله مما خلق؟ فقلت: لا. قال فشيء تراه بعينك خلق ضعيفًا من خلق اللّه لست تعرفه ثم تتكلم فى علم خالقه. . ولا تتكلف علم ما لا يبلغه عقلك[1] تناظروا فى شيء إن أخطأتم فيه يقال لكم أخطأتم ولا تناظروا فى شئ إن أخطأتم فيه يقال لكم كفرتم»[2].

وقد حاول ابن عساكر توجيه حذر الشافعى من علم الكلام، وأنه لا غاية له إلاّ كلام أهل البدع الذى يخالف الكتاب والسنّة[3]. وهى محاولة لا تخلو من تعسّف ظاهر لأن هذا المصطلح إذا أطلق ينصرف الذهن إلى علم الكلام بمعناه الواسع أولاً. . ولأن تعاليل الإمام تدل على قصده هذا أيضًا، بل إنما «خرج جماعة بالفلسفة ظنّا منهم أن علم الكلام فلسفة»[4].

وسواء أراد الشافعى هذا أو ذاك فإن الحكاية تدلنا على أن الدين هو الدافع لدراسة ـ الكلام ـ وهو العامل فى الخشية منه، وأن التمثيل بالنجوم للاستدلال على عظمة خالقها وغموض ما وراءها ليرشدنا ـ ولو من طرف خفى ـ إلى تنبيه القوم إلى أهميتها واهتمامهم فى دراستها. . وأنها الأجدر بالبحث لأنها أجدى نفعًا وأكثر فائدة وأقرب إلى الحقيقة والواقع.

وقد اشتهر فيه من أعلام هذا العصر. . النسفى المتوفى سنة ٥٣٧هـ وألّف كتابه «العقائد النسفية» فى التوحيد[5] الذى عنى به الفضلاء فشرحه المحقق التفتازانى. . ثم العقيدة النظامية لإمام الحرمين الجوينى.

---

(١) ابن عساكر ـ تبيين كذب المفترى ص ٣٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥١.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ١ ص ١٩٨.

(٥) هو نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن إسماعيل السمرقندى الحنبلى . . أصولى متكلم ألف كتبًا كثيرة منها «كلية الكلية فى الاصطلاحات الفقهية وزار الزمخشرى وحدثت بينهما مساجلة نحوية طريفة حول اسم عمر المرجح القمّى عباس ـ الكنى والألقاب جـ ٣ ص٢٠٧.

٤ - التنجيم والفلك والرياضيات:

وكان للاعتقاد بالقضاء والقدر أثره فى تقدم - التنجيم والفلك - كما كان لهما أثر أكبر فى رسوخ هذا الاعتقاد فى أذهان الخاصة والعآمة على السواء، وأقبل العلماء يتدارسون مواقع النجوم وطبائعها وأبعادها وحجومها، وحالات شروقها وغروبها ومدى صلتها بالأرض والناس الذين يعيشون على ظهرها.

والقضاء والقدر - كما تبينً من أمهات المسائل الدينية - فكرة غيبية لجأ إليها الإنسان عندما حار فى تعليل بعض الأحداث التى تقع له فى الحياة وعجز عن دفعها عنه، وهكذا كان موقفه عند كل مجهول لا يجد له تفسيرًا ولا يستطيع له تحويلاً... كالأمراض والغنى والفقر، والشهرة والغمر، فإنه أرجعها إلى فعل الكواكب وتأثيرها فى توجيه معاشه منذ ولادته.

وليس بمستبعد أن تفسير مظاهر الحياة بتحركات الأفلاك وطبائع النجوم من بقايا عبادة الإنسان لها حينما بهرته بتناسقها وبقائها وقوة ضوئها. لذلك يمكننا القول بأنه أسبق من تفسيرها بالقضاء والقدر، وأنه قد مال إليه حينما تزلزلت عقيدته فى قدرة النجوم ورأى أنها لاتملك لنفسها قوة فى شروق وأفول[١].

والفلك بفروعه كالقضاء والقدر: آراء فى المغيبات وأحكام تقديرية فى البعيد المجهول فكأنها من مواضيع ما وراء الطبيعة، لذلك اعتبرت واحدًا من فروع الفلسفة الرياضية... وكان الفلك بفروعه من ثقافات هذاالعصر التى ذاعت فى مختلف الأوساط، وقد بلغ شأوًا بعيدًا بحيث تميزت أنواعه بعد أن كانت متداخلة وكان يشتملها الفلك تارة والهيئة أخرى وعلم النجوم ثالثة، وعاف العلماء ماكان شعوذة ودجلاً كالتنجيم مثلاً وسخروا بأصحابه.

وكانت عنايتهم به لأغراض منها ما يتعلق بالدين كمواقيت الغروب

---

(١) الآيات ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لانعام آيه ٧٧، ٧٩ (هذه الآيات وردت فى القرآن على لسان سيدنا - إبراهيم الخليل - أبو الانبياء).

والشروق والزوال لتعيين مواعيد الصلوات والأهلّة بالنسبة لرمضان وموسم الحج والأعياد والخسوف والكسوف... ومنها ما يتصل بالحياة المعاشة لمعرفة الفصول لتحديد مواسم الأمطار والرياح والبرد والحر وأثر ذلك على المحاصيل الزراعية وعلى التجارة، وثالث هذه الأسباب اعتقادهم بتأثير الأجرام السماوية على أمزجة الناس وصحتهم وسعادتهم ونحسهم.

وقد قسّموه تبعًا لأغراضه تلك إلى أقسام ثلاثة: فما يبحث فيه عن عدد النجوم وأشكالها ومقاديرها وأبعادها سمّوه بعلم الفلك، وما يبحث فيه عن حركات النجوم ووصف ما يعرض لهامن أحوال وهى تجرى فى مداراتها دعوه بعلم الهيئة[١].. ثم ما يبحث فيه عن علاقة النجوم وطوالع البروج على الكائنات وأثرها فى حياة الناس أطلقوا عليه ـ علم الأحكام[٢] وهو التنجيم.

والذى يظهر لنا من ذلك أن التنجيم ليس فرعًا ثالثًا كما توهم المصنفون لأقسام العلوم وإنما هو النتيجة العلمية لتلك المعرفة النظرية للأجرام السماوية فى مسالكها.. وأن هذه الأقسام الثلاثة إنما هى لعلم واحد وتلك موضوعاته.. من ناحيتها التجريدية والتطبيقية.. ومما يدعّم هذا ما ذكره ـ نظامى عروضى ـ عن أبى الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م من أن الهيئة والأحكام من الشرائط الأربعة التى ينبغى أن تتوافر فى المنجّم بعد الهندسة والحساب[٣].

ويضعه «ابن سينا» من أكبر مصنفى العلوم فى أوائل القرن الخامس الهجرى ضمن العلوم العقلية ويجعل من فروعه ـ الزيجات والتقاويم[٤]. ومما يلفت النظر ويدلنا على تقدم الفلك والرياضة فى هذا العصر عمل «الزيج الجلالى» فإن التقويم السنوى الذى وضع فى عهد السلطان ـ ملكشاه ـ وبناء على توصيات وزيره «النظام» وتحت إشرافه كان أفضل من الفريغورى، وذلك لأن

---

(١) نللينو ـ تاريخ علم الفلك عند العرب فى القرون الوسطى ص ١٨.

(٢) سرّ الأسرار والسياسة فى مد الرياسة المنسوب إلى أرسطو ص ٨٦، وكذلك الرسالة الثامنة من رسائلهم مبادئ علم النجوم جـ ١/ ٥٦.

(٣) جهار مقاله ص ٦٢ (الترجمة).

(٤) تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ص ١١١-١١٢ جـ ١.

هذا يؤدى إلى خطأ ثلاثة أيام من كل عشرة آلاف سنة مع أن التقويم العربى لا يؤدى إلاّ إلى خطأ يومين فى مثل ذلك الدور[1].

كل هذا يدلنا على شئ ذى أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة العالمية فضلاً عن الإسلامية ذلك أن العلوم الرياضية، والتطلع إلى دراسة الأجواء ومعرفة أسرارها بلغ من الرقى بحيث قد شيّد فضلاً عن التقويم مرصد للكواكب بناء على طلب السلطان ـ ملكشاه ـ ووزيره النظام سنة ٤٦٧هـ وكان ممن اشتركوا فى إعداده الخيّام، وأبو المظفر الاسفزارى، وميمون النجيب الواسطى[2] وغيرهم من مشاهير الرياضيين فى هذا العصر.

ومهما يكن نظر العلماء نحو النجوم فإن الاعتقاد السائد بأثرها على حياة الناس من حيث السعادة والشقاء، والفقر والغنى والصحة والمرض كان يسود العامة وبعض الخاصة لذلك لا نجد طبيبًا إلاّ وكان له إلمام بعلم النجوم حتى صار بمنزلة ـ علم النفس ـ بالنسبة لطب الأبدان فى العصر الحديث. لذلك كان للسلطان ملكشاه منجمه الخاص وهو ـ بهرام ـ وجماعة من أصحاب الرصد الذين يشيرون عليه بمحاسن الأيام فى الخروج إلى الصيد أو الحرب أو القيام بالاحتفال وتعيين موقع المحراب عند بنائه جامعًا وأمثالها[3]. وكذلك كان لوزيره «النظام» منجمّه الخاص وهو ـ الحكيم الموصلى ـ الذى لم يفارقه إلاّ عند شيخوخته ولم يكن سوى فراق فى السكن. أمّا الاستشارات والإرشادات إلى أسعد الأيام وأشقاها فإنها لم تنقطع إذ رجاه أن يبعث إليه من نيسابور كل عام تقويمًا وتحويلاً[4].

واشتهر فى الفلك والرياضيات فى هذا العصر عدد من العلماء كان فى

(١) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب (ترجمة زعيتر).

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم، حوادث ٤٦٣هـ وابن الأثير ـ الكامل، حوادث العام نفسه.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل، حوادث ٤٨٤ هـ جـ١٠ ص ٨٢، والمنتظم لابن الجوزى ـ واسمه درهم ـ حوادث ٤٨٥هـ.

(٤) نظام عروضى ـ جهار مقالة ص ٦٨، ٦٩ (ترجمة د/ يحى الخشاب وعبد الوهاب عزّام).

مقدمتهم «البيرونى»[1] الذى لم يعرف أحذق منه فى علم الفلك وقد شهد له العلماء فى أنواع الرياضيات والذى كان موضع تجلّة واحترام من قبل ملوك العصر يومذاك، وكذلك ـ الخيّام ـ زميل «النظام» فى مدرسته وبعد استيزاره.

٥- الطب:

وكانت نظرة الناس ـ آنذاك ـ إلى الأطباء ملؤها الإجلال والإكبار إذ الطبيب ـ حينذاك ـ ينبغى أن يكون ملمّا بأصناف العلوم، آخذًا بأطرافها، عارفًا بالفنون الرياضية.. وكان الخاصة ـ ولا سيما الحكام ـ يختصّ الواحد منهم بطبيب.. كما انفرد بمنجّم إذا لم يكن جامعًا بين الطب والتنجيم فى مستوى واحد.

ولئن كان الطب لم يبلغ المرحلة التى وصل إليها اليوم، إلاّ أنه ـ من غير شك ـ قد تفوَّق على العصور التى سبقته بما عرف عن مشاهير الحكماء فى هذا العصر. وربما كانوا قد سبقوا أطباء العصر الحديث بمراحل فى شعورهم بخطورة المهمة الملقاة على عواتقهم.. وخشيتهم عقاب الآخرة إذا تظلم المرضى إلى خالقهم، فابن بطلان البغدادى[2] المتوفى سنة ٤٤٤هـ يكتب إلى زميله ـ ابن رضوان ـ الفيلسوف المصرى رسالة يختمها بقوله: «وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفى بغصّة الجواب، فإن لنا موقف حساب، ومجمع ثواب وعقاب، يتظلم المرضى إلى خالقهم، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية فى هلاكهم». وقد خلّف «ابن بطلان» هذا كتابا سمّاه «دعوة الأطباء» قدّمه للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان.

وكان منهم «أبو الحسن سعيد بن هبة اللّه» المتوفى سنة ٤٩٤هـ طبيب

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو الريحانى البيرونى ـ مات السلطان محمود سنة ٤٢٢هـ وهو حى بغزنة، وكان فوق تبحره فى العلوم أديبًا لغويًا له فى ذلك تصانيف عدّة... وقد رأى ـ ياقوت ـ فهرس كتبه فى شتى العلوم فى وقف الجامع بمرو فى نحو الستين ورقة بخط مكتنز ـ ياقوت ـ المعجم جـ ١٧ ص ١٨٠: ١٩٠).

(٢) هو المختار بن الحسن بن عبدون، سافر إلى حلب ومصر واجتمع بابن رضوان وجرت بينهما مناظرات أدت إلى منافرة.. وعاد إلى أنطاكية مترهبًا فى أحد أديرتها إلى أن توفى.

الخليفة «المقتدى بأمر الله العباسى» وله كتاب «الأسباب والعلامات» وكتاب «الإقناع» فى الطب[1]، وقد تخرّج عليه «يحيى بن عيسى بن جزلة»[2] الطبيب البغدادى المتوفى سنة ٤٩٣هـ، صنّف كتاب «تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان» للخليفة المقتدى وكتاب «مناهج البيان فيما يستعمله الإنسان». وكتاب المنهاج جمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية.

ومن مجاهيل الأطباء الذين يجب أن نشير إليهم - ابن أبى صادق النيسابورى - المتوفى سنة ٤٧٠هـ[3]، وله كتاب الطب المعروف باسمه وقد فرغ من تأليفه سنة ٤٥٩هـ.

ومن مشاهير الطليعة فى ذلك العصر الشيخ الرئيس «ابن سينا» المتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٢٧م وله فى هذا العلم كتاب «القانون» الذى ظل مرجعًا يعتمد عليه الدارسون فى جامعات الغرب إلى أواخر عصر النهضة الأوروبية، كما تحدثنا عنه آنفا.

من العلوم النقلية:

وهى صنفان: روائية وتعتمد أكثر ما تعتمد على الرواة كالحديث والتاريخ، ولسانية.. تهدف إلى تقويم اللسان بالنطق الصحيح والارتفاع به إلى مستوى بلاغى.

وقد خلّف العرب مجموعة من العلوم اللسانية لا تقل عن نظيرتها العقلية

(١) وهو أبو الحسن يحيى، كان نصرانيًا ثم أسلم وصنّف رسالة فى الرد على النصارى.. وذكر فيها عوار مذهبهم ومصايب اليهود، وقد قرأ على ابن الوليد شيخ المعتزلة «الكلام والألفاظ المنطقية والمنطق». ولمّا مرض أوقف كتبه على مشهد الإمام أبى حنيفة.

(١) الكنى والألقاب جـ ١ ص ٢٣٣.

(٢) ذكره ابن أبى أصيبعة فى «عيون الأنباء» وقطب الدين اللاهيجى فى كتابه «محبوب القلوب» المخطوط- قال عنه صاحب «مطرح الأنظار» بالفارسية أن الوزير الكندرى قد استدعاه لمرض القولنج الذى أصابه وأرسل إليه فرسه الخاصة مع غلامه فامتنع عن الذهاب إليه وقال القنوع لا يرخص لخدمته السلطان، ومن أكره على الخدمة لا ينتفع بخدمته كالبازى الذى يكره على الصيد.. (وتوجد نسخة من كتابه فى مكتبة الطبيب «محمد الخليلى» فى النجف بخط يرجع إلى سنة ٤٩٩هـ).

والرواتية فى بعض صورها ـ جدة وأصالة وربما فاقتها دقة وتفصيلاً. . فقد عنوا بها قدر عنايتهم بالقرآن والحديث. . . وكان القرآن ـ كما يعتقد بعضهم ـ هو الحافز الأول فى ابتكار هذه المجموعة وتفريعها والدافع الوحيد للاهتمام باستنتاج قواعدها وتخريج أحكامها، واستنباط فصولها وأبوابها، فالنحو والصرف مثلا، دراسة لاشتقاق الكلمة ومعرفة أواخرها فى الجملة إعرابًا وبناءً. والبلاغة بحث فى أسلوب القرآن وطرق فهمه ومراميه فى القول[١] حتى عرّفها أبو هلال العسكرى: «بأنها الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن»[٢]. . . وحتى عدّها الجرجانى أحسن العلوم وأشرفها وألّف كتابه «دلائل الإعجاز» ليستدّل على ذلك[٣].

غير أننا ـ وإن كنا لانغفل أثر القرآن فى نشأة هذه المجموعة فإننا ينبغى ألاّ نهمل تأثير العقل النامى فى تطويرها وتنويعها. . وأن اختلاط العرب بالأمم وامتزاج ثقافاتهم من أولى العوامل فى نموها وازدهارها، كما أن حياة الأمن والاستقرار من ناحية وروح المنافسة بين الخلافتين العباسية والفاطمية والمذهبين السنّى والشيعى من العوامل التى ساعدت على تقدمها.

نحن نعلم كيف بدأت الخصومات فى قواعد اللغة وأساليبها إلى أن انتهت إلى فلسفتها وصارت لها مدارس فى الكوفة والبصرة ثم فى بغداد، وكيف توصل أساتذة تلك المدارس إلى اكتشافات فى أسرار اللغة واهتدوا إلى اختراعات فنون جديدة أضيفت إلى مجموعة اللغة فوصلت إلينا هذه المكتبة الضخمة الزاخرة بذخائر الأفكار. . الحافلة بجليل الآراء.

وكان سيرًا طبيعيًا أن تبدأ سنّة التطور الفكرى عند العرب بتلك المشادّة اللغوية بعد أن اختلطوا بالأعاجم، والتقت الثقافات اليونانية والفارسية

(١) الخولى ـ دائرة المعارف الإسلامية. . مادة بلاغة. وابن خلدون ـ المقدمة ص ٣٥٥، وابن الأثير ـ المثل السائر جـ ٣.

(٢) الصناعتين جـ ٢ (الطبعة الأولى).

(٣) الدلائل جـ ٤ (الطبعة الخامسة).

والهندية والرومانية بالعربية. . . وكان تطوراً سريعًا سابق عجلة الزمن بما انتهى إليه من ابتكارات واستنتاجات بمثابة البذرات النامية التى أثمرت بعد قليل من الزمن فبقى منه بين أيدينا ما نتدارسه ونرجع إليه بأسماء علوم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض وغيرها.

وقد تجتمع هذه كلها فى كتاب يحوى عدة أجزاء ومئات الصفحات تحت عنوان واحد هو التفسير مثلاً أو شرح ديوان أو إحدى المعلقات فكان الكتاب العربى أحيانًا يبلغ العديد من المجلدات مشتملاً على مختلف الموضوعات. وبذلك صار الفقيه أو المتكلم أو المنجّم موسوعة تضم بين جوانحها هذه المعارف وما يمهد لها ويتصل بها كما كان الكتاب موسوعة تضم بين دفتيها تلك العلوم وما يتعلق بها.

لم تجد فكرة الاختصاص ـ بالمعنى الذى نعرفه اليوم ـ أنصاراً لها فى مدرسة العلماء أو الأدباء فكثيراً ما يكون الفقيه والحكيم قد ألمّ بأطراف الفنون الأدبية حتى لينظم الشعر وينقد الشعراء كالبيرونى والمعرّى وأمثالهما. . . وكثيراً ما يكون الأديب قد أحاط بفروع العلوم حتى ليؤلف فيها كواحد من رجالها كالجاحظ. . مثلاً، إذ كان لابد لمن يدرس علم الشريعة ويدرك أصوله أو الذى يود أن يتضلع فى لغة القرآن ويتفهم مقاصدها ومعانيها أو يكون من الأدباء الهواة أو المحترفين أن يتقن ما لا يقل عن اثنى عشر فرعًا من علوم العربية حتى ظهر بينهم من درس فى سبعة عشر نوعًا من العلوم كأبى منصور عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ[١]. . ولذلك كان من العسير على الكاتب أن يأتى بمثل فى العلم أو الأدب، وقد تفرّد فى واحد منهما فضلاً عن التخصص فى واحد من فروعهما.

١ - القرآن والحديث:

ففى التفسير مثلاً نجد شواهد عديدة على هذا التوسع فى المعلومات والتضخم

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٥٤.

فى الكتاب، ومما روت الأخبار بهذا الخصوص أن «النسفى الماتريدى» (٤٦٠-٥٣٧هـ) ألّف كتابه «التيسير فى التفسير» ـ وقد جمع فيه الصرف والنحو واللغة والقراءات والكلام والفقه وأسباب النزول(١).

وقيل كذلك أن «المجاشعى التميمى» المتوفى سنة ٤٧٩هـ صنّف كتاب ـ الإكسير فى التفسير ـ فى خمسة وثلاثين سفرًا، ومؤلفًا فى النحو فى عدة مجلدات وآخر فى الدول فى أزيد من ثلاثين، وقد طوّف الدنيا واتصل بـ«نظام الملك»(٢) ومدحه بشعره.

ومثل هذا حكى عن «التفسير الكبير» لأبى يوسف القزوينى ـ المتوفى سنة ٤٨٨هـ ـ قال عنه الذهبى: « إنه لم ير من التفاسير كتابًا أكبر منه ولا أجمع للفوائد لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبثّ فيه معتقده». . وقال عنه فى موضع آخر نقلاً عن ابن النجار: «إنه فى خمسمائة مجلد. . حشا فيه العجائب حتى رأيت منه مجلدة فى آية واحدة. . هى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾(٣). . فذكر فيه السحرة والملوك الذين نفق عليهم السحر وأنواع السحر وتأثيراته»(٤).

وكان هناك غير هؤلاء من أعلام المفسرين ـ الواحدى النيسابورى ـ المتوفى سنة ٤٦٨هـ وله كتاب «البسيط والوسيط» وأبو عبد اللّه النهروانى المتوفى سنة ٤٩٣هـ مؤلف كتاب «القانون» وهو عشرة مجلدات فى اللغة والتفسير، وبه تخرّج أدباء أصبهان وتأدب أولاد «نظام الملك»(٥).

---

(١) هو أبو حفص عمر بن أحمد من كبار علماء الأحناف ولكتابه هذا عدة نسخ. انظر مجلة معهد المخطوطات جـ ١ المجلد الرابع ص ١١.

(٢) هو أبو الحسن على بن فضال بن على بن غالب القيروانى الفرزدقى. قيل إن إمام الحرمين وعده بألف دينار على كتاب «الإكسير» فلمّا فرغ من قراءته عليه لم يعطه شيئًا فوعده بأن يهجوه، فبعث إليه يستميحه العذر (السير جـ ١١ ص ٥٢٥).

(٣) سورة البقرة ـ من الآية ١٠٢.

(٤) هو القاضى عبد السلام محمد بن يوسف بن بندار شيخ المعتزلة وداعيته، أقام بمصر سنين وعاد منها إلى بغداد بأحمال من الكتب قيل ابتاعها بالخبز وقت شدة الغلاء، وقيل بالأثمان الغالية. . (تاريخ الإسلام للذهبى جـ ١٢ ورقة ١٧، والسير جـ ١١ ص ٥٧٤).

(٥) يعرف بابن الفتى وهو سليمان بن عبد الله أبى طالب بن محمد النهروانى ثم الأصبهانى.

أمّا الحديث فربما كانت العناية بنصوصه أقوى والاهتمام برواته أشد، وذلك لأن الشك فى صحة النص وصدق الرواة أخذ يتضاعف بمرور الأعوام وتزايد الوضّاع، وتكاثر المنتحل. . وهذا مما لم يحدث فى القرآن، لذلك كان لابد ـ لدارس الحديث وهو المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن ـ من التثبت أولا: من صحة الرواية وصدق السند وسلامة رجاله، وثانيًا: التأكد من فهم النص ومعرفة القصد منه ومدى تطبيقه. فكان لابد من فتح مدارس، وتخصّص أساتذة يقضون جلّ أوقاتهم ومعظم أعمارهم فى هذه الدراسة الواسعة.

وكان المعنيون بالحديث يطوفون البلدان من أجل سماع حديث عالى السند أو استملاء آخر على يد أستاذ اشتهر بالدقة والتحقيق. ومن أجل ذلك كانوا يفضلون لقاء الرجال على الدراسة فى الكتب، ولاسيما الحديث لاحتمال تحريف النسّاخ فيها.

ولمزيد عناية الناس وبخاصة الحكام بالحديث ورعايتهم للمحدّثين كانوا يؤسسون لهم الدور والربط ويظهرون الفرح إذا ولىّ أحدهم القضاء[1]، حتى عجّت حواضر العالم الإسلامى بالمحدثين وفى مقدمتها «بغداد» و «نيسابور» و «أصفهان»، وأقبل هؤلاء على دراسةالحديث نصًا ورواة، ودراسة تحليل ونقد. . . وشاعت هذه الدراسة فى أوساط المتعلمين بحيث قلّ أن نجد بين أساتذة الشريعة والفقهاء والمؤرخين من لم يكن راوية للحديث أو ألّف فيه أو فى رجاله. . وكان من هؤلاء من عرف بالفقر فيجمع بين التعلم والعمل. . كأبى سعد الخركوشى المتوفى سنة ٤٠٧هـ الذى كان يعمل القلانس[2] ومنهم من لا يجد عملاً فيطالع فى ضوء القمر كأبى منصور الأيوبى تلميذ ابن فورك المتوفى سنة ٤٢١هـ.

وكان سماع الحديث وروايته من الثقافات التى يسوغ للمرأة أن تشارك الرجل

---

(١) ذكره ابن عساكر فى ترجمة البسطامى حينما ردد العهد بقضاء نيسابور. توفى سنة ٤٠٨هـ (التبيين ص ٢٣٨).

(٢) ابن عساكر ـ التبيين .

فيها، فإذا سمعت ورويت نالها من التجريح والتعديل ما ينال الرجل فى السند والرواية.. وممن لمعت أسماؤهن فى هذا العصر: خديجة بنت موسى بن عبد الله الواعظة التى توفيت سنة ٤٣٧هـ[١]. وسبتة بنت القاضى عبد الواحد البجلى المتوفاة سنة ٤٤٧هـ، وخديجة الشاهجانية ـ ٤٦٠هـ[٢]، وفاطمة بنت الأقرع الكاتبة ـ ٤٨٠هـ[٣]، وفاطمة بنت الحسين بن فضلون الرازى ـ ٥١٢هـ وكان ممن روى عن أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن طلحة ـ مسند العراق المتوفى فى سنة ٤٥٣هـ من النساء كمال بنت المحدث عبد البر بن السمرقندى وتركنار بنت عبد الله الدامغانى، ونفيسة البرازة، وتجنّى الوهبانية، وشهدة بنت الأبرى[٤].

وهكذا لم تمض خمس سنوات على مطلع القرن الخامس حتى يتوفى الحاكم ـ أبو عبد الله بن البيع النيسابورى صاحب المؤلفات المشهورة فى الحديث التى أوصلها بعضهم إلى ألف وخمسمائة جزء وفى أولها «الصحيحان» بعد أن قضى ٨٤ سنة فى التطواف[٥] والكتابة فى الحديث.

ثم يتوفى بعد ست من هذا القرن ـ ابن فورك الأصبهانى النيسابورى ـ وقد بنى له أميرها محمد بن إبراهيم، الدار والمدرسة[٦].

ثم يتوفى بعد سبع منه ـ أبو سعد بن عثمان النيسابورى الخركوشى ـ بنى

(١) هى أم سلمة المعروفة: بابنة البقال.

(٢) من أهل كشميهن، قرأ عليها الأئمة كالخطيب وابن المطلب والسمعانى وأبى طالب الزيدى.

(٣) هى فاطمة بنت على المؤدب الكاتبة على طريقة ابن البواب وأُهِلّت لحسن خطها لكتابة عقد الهدنة إلى ملك الروم من الديوان العزيز وسافرت إلى بلاد الجبل الى عميد الملك الكندرى (المنتظم جـ ٩ ص ٤٠، والكامل جـ ١٠ ص٦٠، وابن الفرات جـ ٧ ص ٥١).

(٤) انظر ترجمتها فى السِّير للذهبى جـ ١٢ ورقة ٤٣، وسبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٢٤، وتاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٦٥ وجـ ٧ ص ٤٣، وبغية المتلمس ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٥) ابن عساكر - التبيين .

(٦) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٣٢.

فى سكنه المدرسة ودار المرضى ووضع فى المدرسة خزانة للكتب، وصنّف أعداداً من الكتب صارت تاريخًا لنيسابور(١).

وبعد ثمانية عشر عامًا بنى ـ أبو إسحاق الإسفراينى ـ مدرسته التى لم يُبن بنيسابور قبلها مثلها ودرس فيها وحدَّث وبلغ حدّ الاجتهاد لتبحره فى العلوم(٢).

واشتهر غير هؤلاء عدد كبير فى هذه المدينة منهم: أبو بكر أحمد البيهقى ـ رحل إلى العراق والحجاز والجبال... وألّف كتاب «معرفة السنن والآثار»(٣).. ومنهم أبو القاسم القشيرى الذى كان يعقد مجلس الاملاء فى الحديث طوال ثمانية وعشرين عامًا من سنة ٤٣٧هـ حتى توفى سنة ٤٦٥هـ وكان يذيّل أماليه بأبياته(٤).. وكان زاهداً متصوفًا حيث قلّ أن نجد محدّثا غير متصوف فى هذا العصر.

ونكتفى بعد هذا بمثالين فقط على محدّثى بغداد وأصبهان فى عصر «النظام» أولهما: أبو بكر المعروف بالخطيب البغدادى، وكتابه الشهير بتاريخها، والذى يحتوى على عشرين مجلداً ضخامًا. وقد ألّفه لحصر تراجم المحدثين الذين وفدوا إلى بغداد أو ولدوا فيها والتعريف بهم إلى الدارسين وبخاصة رواة الحديث وممليه(٥). وثانيهما: كان من مشاهير المحدثين بأصبهان وهو «أبو نعيم

---

(١) التبيين ص ٢٢٤-٢٣٦.

(٢) التبيين ص ٢٤٤.

(٣) كتب الحديث وحفظه.. طلب منه الأئمة الانتقال إلى نيسابور لسماع كتاب «المتصوفة» وغيره من تصانيفه.. فوصلها سنة ٤٤١هـ وعقد له المجلس لقراءة الكتاب وحضره الأئمة والفقهاء وبقى حتى مات سنة٤٥٨هـ (التبيين ص ٢٦٥).

(٤) كان هو المقصود بصحابة الكندرى وشتمه الأشاعرة (التبيين ص ٢٧١-٢٧٦).

(٥) كان يجتمع العلماء فى منزله بباب الشريف لقراءة التاريخ على الرغم من عيب بعضهم للتاريخ. أوقف جميع كتبه على المسلمين، وأخرجت جنازته من حجرة تلى المدرسة النظامية من نهر معلى سنة ٤٦٣هـ وتبعه الفقهاء وخلق عظيم (التبيين ص ٢٦٨: ٢٧١).

الحافظ» مؤلف حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الذى توفى سنة ٤٣٠هـ بعد أن بلغ من السن أربعة وتسعين عامًا[١].

وينبغى ألاّ تفوتنا ونحن نمثّل لمشاهير المحدثين فى شرق العالم الإسلامى، الإشارة إلى عنايتهم بالرواة وتحقيقهم فى سِيَرْ رجال السند من حيث الجرح والتعديل. وكان ممن ألّف فى هذا الموضوع أبو العباس النجاشى، المتوفى سنة ٤٥٠هـ[٢]، وقد اشتهر بكتابه فى الرجال.

٢- التاريخ:

ويحسن بنا ونحن نوجز القول فى العلوم النقلية أن نشير إلى التاريخ بوصفه واحدًا من هذه المجموعة المتميّزة فى هذا القرن.

والظاهرة التى بدت تتضح وتتخذ طابع الجنى والإثمار، بعد النضج والاختمار هى ظهور تواريخ المدن، وبذلك انتقل التاريخ إلى مرحلة الجمع بين الأشخاص وآثارهم بعد أن كان مختصا بواحد منهما. وربما كان تدوين المؤرخين قبلهم فى المسالك والممالك، وتقويم البلدان مما عجل فى إخراج هذا اللون من التاريخ إلى الظهور، وكان أول ما يلفت النظر فى هذا الباب تاريخ «بغداد» للخطيب المتوفى سنة ٤٦٢هـ، وتاريخ «تلمسان» لابن الأصغر المتوفى سنة ٤٦٥هـ، وتاريخ «جرجان» لعلى بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وتاريخ «شيراز» بالفارسية لهبة اللّه الشيرازى المتوفى سنة ٤٨٥هـ، وتاريخ «هَمذَان» لأبى شجاع محمد بن الحسن الهَمَذانى المتوفى سنة ٥٠٩هـ، وتاريخ «بيهق» بالفارسية لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٠هـ، ثم

---

(١) التبيين ص ٢٤٦.

(٢) هو أحمد بن على بن أحمد بن العباس من الإمامية الذين لايشق لهم غبار فى علم الرجال (القمى - الكنى والألقاب.

تاريخ «دمشق» لابن عساكر فى ثمان مجلدات (سنة ٤٩٩-٥٧١هـ)، وتاريخ «أبيورد» للشاعر الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧هـ، وتاريخ «سمرقند» للنسفى المتوفى سنة ٥٣٧هـ.

وكان لهذه الكتب جميعها لونها الخاص فى أسلوب العرض، وفى التحقيق، والاستقصاء للأحداث يختلف عما كانت عليه المدوّنات التاريخية فى العصور التى سبقت.

على أن العصر لا يخلوا من مؤرخين عنوا بالتاريخ العام فألّف ـ مسكويه ـ المتوفى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م ، الكتاب الذى عرف باسمه. ثم ألّف كتاب «أنس الفريد» وهو أحسن كتاب صنّف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف.[١] ويصفها «ميتز» بأنها: «من نوع يغاير كل المغايرة القصص القديمة التى ألّفها ابن قتيبة» وصاحب كتاب «العقد الفريد»، ففيها تجد لأول مرة الأسلوب القصصى الإسلامى[٢]. وألّف أبو الفضل البيهقى كتابه الذى اشتهر باسمه فى ثلاثين جزءاً دوّن فيها تاريخ دولة آل سبكتكين من سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م إلى سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م لم يصلنا منه سوى جزء واحد ضخم[٣].

ثم البيرونى ـ أبو الريحان محمد بن أحمد ـ المتوفى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م صاحب كتاب «الآثار الباقية فى القرون الخالية» و«تحقيق ما للهند من مقولة» والذى يعتبر بكتابه هذا من أعظم المؤرخين فى العقائد والديانات بل فى تاريخ المعارف الإنسانية عامة بأسلوب تحليلى معلّل.

---

(١) ميتز ـ الحضارة ص ٤١٩ عن تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٣١.

(٢) نفس المرجع.

(٣) قام بترجمته الأستاذان «د/ يحيى الخشّاب وصادق نشأت» مع تحقيقات وشروح قيّمة سنة ٩٥٧هـ.

٣- البلاغة والنحو:

لقد كان القرآن ـ بحق ـ هو محور الحركة الفكرية خلال القرون الخمسة الأولى من تاريخ حضارة العرب الإسلامية وكان قطبا هذا المحور هما: البصرة والكوفة، بينما كانت نقطة المركز هى بغداد عاصمة الخلافة.. ومن هذا المحور «الدينامى» شعّت أنوار النهضة العلمية نحو الأطراف فى الشرق والغرب. الشرق فى خراسان وما وراء النهر وفارس، والغرب فى سوريا ومصر والأندلس حتى قال الصاحب بن عباد: «هذه بضاعتنا ردّت إلينا» حينما تأمل بكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٣٨هـ. ولم يكن ابن عباد هذا عربيًا فى نسبه وإنما كان عربيًا فى لغته وثقافته، وكان يعتز بهما اعتزازه بأصله وحسبه.

وعلى هدى من هذا نستطيع القول بأن الكتب البلاغية للّغة العربيّة التى ظهرت فى هذا العصر والذى يليه إنما هى من ثمار بغداد ونظاميتها بالذات، وإن كان مؤلفوها من أصبهان أو جرجان، إذ كانت العربية لغة الأمة الفاتحة وثقافة الدين الإسلامى هى اللغة السائدة فى كل بلد تصل إليها يد تلك الأمة، ويرفرف على ربوعها علم ذلك الدين واضطرت اللغات التابعة إلى أن ينطوى بعضها على نفسه، وأن ينضوى بعضها الآخر تحت لواء اللغة الظافرة، فظلّت العربية بمجموعة علومها وفنونها هى طابع هذا العصر كما كانت من قبل.

ونالت هذه اللغة عناية فائقة من المتعلمين على اختلاف درجاتهم.. فبحثوا عبارتها وأسلوب الصياغة فى جملها وفقراتها، كما درسوا مفرداتها واشتقاق ألفاظها، فكان النحو والصرف والبلاغة، وألّفوا المطولاّت فى كل واحدة من هذه الفنون.. وكانت البلاغة التى هى جماع فنون اللغة العربية وموطن أسرارها ـ موضع اهتمام عِلية المثقفين فى هذا العصر، فينبغ ـ ابن سنان

الخفاجى المتوفى سنة ٤٦١هـ وعبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ، والراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ، والزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ. . ويخلّفون لنا من مؤلفاتهم: «سر الفصاحة» و«أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» ثم محاضرات الأدباء والمفردات. . فأساس البلاغة والكشّاف والمفصّل وربيع الأبرار التى مازالت من أمهات المراجع فى أصول النقد الأدبى وفن القول خلال عشرة قرون، والتى لم يؤلف مثلها حتى اليوم. . كما ترك بعض هؤلاء دواوين شعرية إن قلّت ضخامة عن كتبهم النثرية، فإنّها لا تقل نفاسة وجودة عنها.

وقد ضمّن الزمخشرى كتابه «المفصل» شرحًا مسهبًا لآراء النحاة واختلاف مذاهبهم فى عشرة أجزاء ضخام، كما فسّر فى كتابه «الكشاف» «آى القرآن» تفسيرًا بلاغيّا وكشف عن أسرار الإعجاز فيه وفى العربية معًا. وبذلك توصّل إلى وضع كتابه «أساس البلاغة».

وكان من ظواهر العناية بالمفرد والجملة والتلاعب باللفظ والبراعة فى تنسيق العبارة أن نقرأ مقامات الحريرى البصرى المتوفى سنة ٥١٦هـ، وأمالى بن الشجوى المتوفى سنة ٥٤٢هـ وصاحب كتاب الحماسة.

وبذلك حفل هذا القرن (عصر النظام) بمؤلفات ضخام فى النحو إلى جانب البلاغة مما لم يشهده القرن الرابع، حيث لم نر فيه سوى تلخيص لمفصل وتفصيل لمجمل أو شرح لمبهم[1]، فمن أبرز الأمثلة على ذلك كتاب ـ المفصّل ـ السابق الذكر فى عشرة مجلدات، وكتاب ـ العوامل المائة للجرجانى والعوامل والهوامل لشاعر الحرمين المجاشعى.

(١) عبد الرزاق محيى الدين ـ أدب المرتضى- رسالة دكتوراه. فى جامعة القاهرة.

٤- الأدب:

لقد كانت المُثلُ العليا وأبطالها هى هدف الشعراء فى كل زمان، ولاختلافها فى كل عصر ومصر فقد اختلفت أغراض الشعر باختلاف الأزمنة والأمكنة.. وقد ظل الدين والفضائل التى ينشرها هى المثل العليا التى يتغنى بها الشعراء، وبقى الحكام والوجهاء الذين يمثلونها أو يحمونها سواء تخلقوا بها أم ببعضها هم أبطال الشعر.. ومن ثمّة نشأ «الأدب الوصولى» أدب القصور الذى ينبض بمشاعر جلّها زائف وينطق عن أخيلة معظمها قريب أو تافه..

وأمّا من حيث الأسلوب فلم يسع الناظمون إلى ابتكار أو تجديد فى وزن أو قافية وإنما عكفوا على هيكل القصيدة لا يتخطّونه قيد أنملة وجمدوا على التعابير والمفردات والتشبيهات يرددونها بعد أن عاشوا طويلاً فى رحاب المعاجم وظلال الدواوين واستوعبت حافظتهم الكثير منها.. وبذلك زاد الشعر صنعة والنثر تكلفًا عمّا كانت عليه فى العصور الفائتة وبذلك دخله الحوشى والألفاظ العامية والأخيلة السقيمة والعبارات الركيكة.

وأدب القصور أو الأدب الوصولى يختلف ولاشك - عن غيره من ألوان الأدب فى طابعه ومعانيه كما اختلف فى واقعه وأغراضه. هو أدب ترف وتسلية قد يكون من دواعيه المنافسة والدعاية والمال والجاه وإشباع غرور الممدوح وأطماع المادح معًا.. وقد تكون هذه جميعًا.. فهو لهذا كان أكثر التزامًا بالأسلوب والزخرفة بالمحسنات البديعيّة، وأشد اهتمامًا بالألفاظ المنتقيات وتلوينها بالجناس والاستعارات، لأن تسلّى المترفين فى ندواتهم بالألفاظ وتمتعهم بجمال انسجامها وحسن تنسيقها لا يقل عن تلذذهم فى ندواتهم بشرب الراح وانتظام أدواته، وسماع الموسيقى وتنظيم آلاته.

وقد يكون لرأى الجاحظ فى البيان والتبيين: «إن المعانى فى السوق لمن يشاء أن يتناولها وإنما التفاضل فى تصويرها». وقد يكون لزعم عبد القاهرالجرجانى -

إمام النقّاد فى هذه الفترة: «أن التفاوت إنما هو فى نظم الكلام»[1]. حتى بدا الشعر فى هذا العصر وما تلاه من عصور.. صناعة فى اللفظ، وصياغة فى العبارة.. قد يكون لمذهب هذين فى النقد والأدب ما يبررهما من أثر لجمال الأسلوب فى النفس، غير أنه لايعدو أثر الأصباغ والمساحيق فى الصورة، وأنه قيّد العاطفة عن الانطلاق إلى عالم الإبداع فى المعانى والأخيلة البعيدة.

وقد يقال إن أدب المناسبات، وبخاصة شعر القصور، صائرٌ إلى الفناء عاجلاً أو آجلاً، لأنه لا يعبّرَ عن عواطف إنسانية مشتركة، غير أن هذا اللون من الشعر وإن خلق لهذا المصير كبعض الفنون والآداب إلاّ أنه لا يخلو من أخيلة شعرية ومعانٍ إنسانية ستبقى ما بقيت هذه على قيد الحياة، وسيتأثر بها الناس فى حياتهم اليومية مادامت أحاسيسهم بها.

ولهذا نستطيع القول بأن أدب القصور هذا لا يخلو من الفكرة السامية والخاطرة العالية والعبارة المشرقة والأسلوب الرقيق، ولشعرائه فى غير «الأدب ـ الوصولى» ـ جولات فنيّة حلّقوا بها فى أجواء خيالية واسعة فجاءوا بالمعنى الفريد والتعبير الجديد حتى ليخيل إليك وأنت تنشد لهم ـ وما أكثرهم وما أكثر ما قالوه فى هذا العصر ـ إنك فى أزهى عصور الشعر العربى، وهو خيال أقرب فى حقيقته إلى الواقع إذا تذكرت أبا العلاء المعرّى والأبيوردى والباخرزى.

هذا ما كان من أمر الشعر العربى، أما الفارسى فقد بلغ الذروة بعد أن مرّ بأدوار نمو وانتعاش تدريجية بدأت فى عهود الدويلات القومية الطاهرية والصفارية والسامانية ثم ازدهر فى عصر الغزنويين وبخاصة فى عهد «محمود» فكان من شعراء بلاطه العنصرى والمسجدى والفرّخى ثم انضم إليهم الفردوسى صاحب الشاهنامة، حتى بلغ من تقدم الشعر أن صار ينظم ارتجالاً وأن يجد له سوقًا رائجة.. فليس غريبًا أن نجده ـ بعد مرور

---

(١) القزوينى ـ آثار البلاد ـ مادة طوس ٤ عند ترجمة الفردوسى.

تلك الأطوار - وما لابسه من ظروف سياسية زادت شعور الحاكمين رعاية للشعراء الحماسيين ،ما لامسه أثناءها من ثقافات مختلفة. . . ليس غريبًا أن نراه - بعد ذلك كله - أدبًا شائقا فى مادته بعيدًا فى أخيلته ساميا فى معانيه، إذ إنه كان ثمرة تلك الأطوار الثقافية وخلاصة تلك الثقافات المتنوعة.

والذى يلحظ فى هذه الحقبة من تاريخ الأدب فى الشرق الاعتزاز بالعربية وافتخار الأدباء من الفرس بحيث نظموا بها، حتى أبدع لهؤلاء لقب - ذوى اللسانين - واشتهر بذلك طائفة كبيرة منهم بحيث أطلق لقب - أمير اللسانين - على الأديب أحمد بن الحسين الداريج. وقد كان من ولع بعضهم بالعربية أن ترجم المنظوم الفارسى إليها، وحفظت لنا المجاميع المحفوظة والمطبوعه من هذا القبيل أمثلة كثيرة على الشعر الرائع فى معناه الدقيق فى نقله.

وكثر عدد المغرمين بالعربية من الفرس حتى قلّ أن نجد أديبًا فارسيًا لاينظم بالعربية حتى عقد «ابن فندق» فصلاً للشعراء ذو اللسانين فى كتابه «بيهق» وحدها فكان عددهم يربو على العشرين وكانوا يتفننّون فى النظم باللغتين تفننًا يختلف باختلاف نزعات الشعراء الفنية، وكفايتهم اللغوية وقدرتهم على النظم.. فمنهم من نظم القصيدة فى بيت فارسى وآخر عربى، ومنهم من نظمها فى مصراع فارسى وآخر عربى ومنهم من جمع بين اللغتين فى الشطر الواحد فقال بعضهم مثلاً[1]:

يا أهل جلّين احفظوا آيتكم وذروا التبختّر وانقلوا سر قينكم

وقال آخر:

زدى اندْرد لِمْ آتشى نكارا ولم ترحم فؤادا مستعارا

على أن هذه الظاهرة الأدبية لهذا العصر لم تكن خاصة بالفرس وحدهم،

(١) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٢٤٤.

وإنما شاركهم فيها العرب كذلك فشهدنا منهم من أجاد الفارسية وألّف بها ونظم، وعند الفريقين كان الطابع العربى بكل خصائصه ومميزاته هو الذى يتجلى فى الكتاب والديوان.

وكان لكل بلاط فى هذا العصر شعراوءه، ولكل نادٍ جلساؤه فإن لدار الخلافة شعراء معروفين يمتدحونهم ويُعلون من شأنهم فى المناسبات كما للسلاطين والخلفاء..

* * *

الفصل الثالث

الناحيـة السياسيـة

- التمهيـد : مسألة الخلافة والإمامة والفرق بينهما.
- ضعف الخلافة العباسية. أعراضه وعلله.
- نشوء الدويلات.
-ميلاد الدولة السلجوقية.
- طغرلبك «المؤسس الأول» لدولة السلاجقة.
- عميد الملك الكندرى أول وزير لآل سلجوق.

تمهيـــد: (مسألة الخلافة والإمامة والفروق بينهما) :

ولمّاً انتهى بنا الحديث إلى الناحية السياسية يجدر بنا أن نشير إلى اختلاف الباحثين فى معناها وأهدافها والوسائل المؤدية لتنفيذها لنخلص إلى لون السياسة التى كان ينتهجها «نظام الملك» ونوع الطريق الذى يتخذه لتحقيق أهدافه لولا خوف الإطالة والخروج عن صميم الموضوع. على أن أقرب تلك المعانى إلى الذهن هى نُظُم الحكم وأول هذه النظم هى «الخلافة» التى ينبغى ألاّ يفوتنا الحديث عنها وإن كان مختصراً.

لقد كان لنظرية الخلافة - طراز الحكم آنذاك ومن هو الخليفة على المسلمين - صدى كبير فى مجتمع تلك العصور شمل مجامع العلم ومجالس الدين وعمّ القرون الأربعة حتى القرن الخامس، عهد وزيرنا «نظام الملك».

فالخليفة من حيث النسب أهو من آل محمد أم من قبيلته.. أهو من أبنائه من فاطمة وعلى أم من غيرهما.. أهو من قريش أم من العرب، ومن العرب أو المسلمين؟. ومن ناحية الخَلْق ما هى صفاته؟ ومن جهة الخُلق ما هى ميزاته؟ ثم ما هى طريقة تعيينه أهى موروثة أم بنص من سابقه أم بانتخاب؟ وهل الانتخاب مباشر أم بترشيح وهل الترشيح لواحد أم أكثر؟ وهل يكون انتخاب المسلمين ممثلاً فى ولاة الأمصار أم باجماع ذوى الرأى من أهل الحل والعقد؟

وكنتيجة لهذه النزعات فقد تنوعت الخلافات التى ظهرت طوال خمسة قرون تقريبًا: فكانت خلافة الراشدين والأمويين من قريش تمثل قبيلة النبى، وخلافة العباسيين من أعمامه تمثل أسرته، والفاطميين والعلويين تمثل أبناءه من على وفاطمة.

كل هذه كانت مسائل خلاف شاعت فى أندية القوم وتسبّبت فى انقسامهم وتفرّقهم إلى أن استقرت الخلافة فى قريش تحميها رهبة السيف وتحوطها هالة الدين فإذا فقدتهما أصبحت رمزًا يحكم باسمه القضاة والحكام ويستغله ذوو المصالح من الحاشية لاستمرار نفوذهم وتقوية سلطانهم، وهذا ما انتهت إليه الخلافة العباسية فى العصر الذى نتحدث عنه.

وبذلك شغلت مسألة الخلافة أذهان الناس خلال القرون الوسطى بحيث قلّ أن تشغله مسألة مثلها.. ولذلك تضافرت لعلاجها ومساندتها جهود الفقهاء وعلماء الدين ورجال السياسة وبحثها كل منهم من الزاوية التى يراها ولكنهم أجمعوا على تأييدها وضرورتها، فقد أفرد الإمام الشافعى فى كتابه «المبسوط» فى الفقه بابًا دعاه كتاب «الإمامة» وبذلك اعتبر هذا الموضوع جزءًا من الفقه بينما تحدّث عنها علماء الشيعة فى علم الكلام وأخضعوها إلى قواعد وأدلّة فى الجدل العقلى وانتهوا بها إلى أحكام مقرّرة كنظيراتها من مسائل هذا العلم.

وفى إحلالها من الطائفتين هذا الموضع دليل على مدى الخلاف بين الطائفتين فى هذا الموضوع وليس من الناحية السياسية باعتبار الإمامة رمزًا للحكم فقط وإنما من الوجهة العلمية الدينّية كذلك، وإشعار بمقدار صلتها بالدين وأنها أعلق به من السياسة. فالخلافة صارت بعد الاستدلال والمحاجة ثابتة فى «على» وأبنائه وأنهم معصومون بنظر الشيعة وإن كان الخروج على الإمام الجائر واجبًا عندهم أيضًا بينما هى عند الشافعية خاضعة للاجتهاد وذوى الرأى كما تخضع قواعد الشريعة الأخرى إذا

توافـرت لدى المجتهد أصول الفقـه وبلـغ مرحـلة القـدرة عـلى استنبـاط الأحكـام وتطبيقها.

فالإمامة رتبة وإن كانت أقل درجة من النبوة ولكنها أرفع منزلة من الخلافة بنظر الشيعة، وهى ـ كما يوحى لفظهـا مـن معـانٍ ـ بحـث فـى الرئاسـة العامـة والاستدلال على ضرورتها فى الحياة لتنظيم شئون الناس وإصلاح أمورهـم، لـذلك أطلـق الشيعـة علـى تـلك الدراسـة اسـم «الإمـامـة» وعـلى ـ على بن أبى طالب ـ اسم «الإمام» ولعلّ فى لفظى الإمـام والخليفـة بعـد الرجـوع إلى مصادرهمـا فـى اللغـة وملاحظـة مناسـبات استعمالهمـا ما يشـعر بهـذا الفـرق.

ومثل هذا الفرق بين الإمامة والخلافة هناك فارق بينهما وبين «المَلْك» الذى يستعمل فى تاريخ القرن الرابع والخامس كثيرًا بمعنى «السلطان» وإن اختلفا فى الدرجة. فقد نسبوا إلى الرسول حديثًا قال فيه: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكًا عضوضًا»[1]. وفى هذه المقابلة بين الخلافة والملك ما يشير إلى الفرق بينهما أيضًا، وقد لخّصه كتّاب المسلمين حتى لتشعر وأنت تقرأ ما كتبه ابن خلدون بعنوان (كيفية انتقال الخلافة إلى ملك): «القصد واضحٌ فى طبيعة كل منهما وأهدافهما، وأن من أبرز خصائص الخلافة تحرّى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق...»[2] فى حين نراها فى الملك القهر والتغلب. وعلى هذا الأساس اعتبر ابن خلدون دولة الراشدين وفريقًا من بنى أمية وأوائل بنى العباس خلافة وما عدا ذلك ملكًا.

لقد رأينا من الضرورى الإلماح إلى هذه الفروق بين الإمامة والخلافة أولاً وبينهما وبين الملك ثانيًا لنشير إلى أنها وما يتفرع عنها من أسئلة إنما كانت من المسائل التى ورثها عصرنا عن سابقه والتى كان لوزيرنا «النظام» فيها رأيه

(١) المواقف ـ شرح الجرجانى، جـ ٨ ص ٢٦٥.

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة.

الخاص كما سنتبينه فيما بعد، وللمعارك الطائفية بين الحنابلة وغيرهم تأثيرها كما تبيّن لنا ذلك من قبل.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الخلافة كالوزارة فرع من أصل فارسى ساسانى وزعم آخرون أنها مقتبسة من النظام الإمبراطورى الرومانى[1]. أليست تقاليد دار الخلافة تشبه فى هيبتها ورهبتها قواعد بلاط ملوك الفرس.. أليس إمبراطور الروم يستمد سلطاته من البابا كما يستمد سلطان المسلمين شرعيته وقوة نفوذه من الخليفة، فكان لابد أن تنتمى إلى واحد من تلكما النظامين القديمين. غير أن هذه مجرد افتراضات للربط بين الخلافة ونظيرها فى أمم مختلفة.

ولعلنا نجد مثل هذا بشكل أوضح عند الشيعة بالنسبة للإمام، ولكنه - مع ذلك - يختلف عن البابا، لأن الإمام بنظرهم هو الذى يصحّ أن يكون الخليفة وليس العكس. ولو تدبرنا الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرب منذ عهد الرسول حتى العصر العباسى لعرفنا حقًا أن الخلافة نظام دينى فى جوهره، سياسى فى شكله نشأ نتيجة لتلك الظروف ولم يكن تقليدًا لتنظيم سياسى سبق وجوده كما لم يكن إحياء لشىء يشبهه وإنمّا كان وليد بيئته ونتيجة الحاجة إليه.. ولأجل أن نفهم مركز الخليفة من الدولة ينبغى أن نتساءل هل الخليفة موظف سياسى أو أنه حاكم دينى؟. لقد أشرنا آنفًا إلى أن الخلافة - بنظرنا - نظام دينى قبل أن يكون سياسيًا ثم جمع بين السلطتين فصار الخليفة بعد أن كان داعية واعظًا مرشدًا لما يجب على الإنسان نحو أخراه أن يجمع بين ذلك وما ينظّم له شئون دنياه.

فالخلافة كما يبدو لنا نظام إسلامى عربى والخلفاء الذين ظفروا بالسلطتين تنتهى سلسلتهم فى الخليفة هارون الرشيد ولذلك لانجد بعده من استطاع أن يفوز بالقدسية الدينية ولا بالاحترام السياسى وأصبح الخلفاء ألعوبة بيد القواد من الفرس والأتراك وتلاشت تلك الهالة السماوية التى كان يهابها الناس

(١) ابن خلدون - المقدمة ص١٩٠.
(٢) ابن الأثير - الكامل.

ويخشون عواقبها واجترأ من بطانة الخليفة وممن استمد منه النفوذ من جرّه من يده وألقاه على الأرض[1] وأصبحت الخلافة بعد ذلك مشكلة من المشاكل السياسية بل مهزلة من المهازل الاجتماعية التى يتندر بها العوام وتلوكها ألسنة الرعاع.

ومن هنا وجد العلماء وقد يكون هذا بإشارة من الخلفاء أنفسهم ضرورة لتدارس الخلافة والعناية فى بحثها والكتابة عنها وبيان شرعيتها وصلاحها للمجتمع لتدارك ما أصابها من وهن وما اعتراها من خلل، ولكن فى الوقت نفسه كان بين الباحثين من يرى الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية[2].

وعلى الرغم من اختلافهم فى ذلك وفيمن يكون هو الخليفة وكيف ينبغى أن يكون فقد تبلورت نظرية الخلافة وأصبحت فى نظرهم نظامًا يجب الاعتراف به والإذعان لتقاليده وأخذت تعود للخليفة بالاسم هيبته ورهبته وبخاصة فى نفوس العوام وذلك بسبب موجة الإعدام بالجملة[3]، وما نقلته دار الخلافة من رسوم عن البلاط الفارسى فى كيفية مقابلة الخليفة ووضع الحجب بينه وبين زائريه بحيث كان المحظى من كبار الدولة هو الذى يسمح له بتقبيل يد الخليفة أو رجله أو طرف من ردائه أما بقية الرعيّة فيكفيهم رفع الستار لرؤياه فى المناسبات فقط[4].

وبذلك تغيَّر نظام الخلافة فى العصر العباسى وأصبح الخليفة أشبه بالإمبراطور الفارسى ولكنه ليس هو، وأقرب إلى الإمبراطور الرومانى وليس شيئًا منه، وأضحى الفرق بينه وبين ما كان عليه فى عهدى الراشدين والأمويين واسعًا من وجوه عدة بقدر ما هو منه لأسباب معدودة حتى ليمكن القول بأن واحدًا منهما أو كليهما يصحّ أن يكون الأساس للنظام الخليفى وإذا أريد البحث

(١) أرنولد ـ الخلافة ص ٢ ط لندن الترجمة.

(٢) البيرونى.

(٣) أرنولد ـ الخلافة.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم، حوادث ـ وابن الأثير ـ الكامل.

فيه أو عنه، فقد بدأ قريبًا إلى الملكية بعد وفاة الرسول والراشدين حتى استقر فى نهاية العصر الأموى. ثم بنى العباسيون خلافتهم على أساس من الدين ودعوى المساواة بين الأفراد والأجناس وحرية الآراء والمعتقدات ولكنهم لم يفوا بأكثر ما ادعوه فجعلوا الخلافة وراثية كما كانت من قبل.

لقد بذل العلماء كما أشرنا سابقًا جهودًا صادقة لدعم منصب الخلافة وتقوية مركز الخليفة مهما كانت دوافعهم لذلك فقد بحث الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ وغيره من أعلام القرن الخامس النظام الخليفى من الوجهة النظرية البحتة بما نستطيع أن نستنتج منه تأييده التام لضرورة بقاء الخلافة بينما كان معاصره البيرونى (١٠٣١م - ١٠٧٥م) قد اعترف بحقيقة الوضع الراهن وأبان عما بقى فى أيدى الخلفاء من سلطة تتعلق بالدين والعقيدة فحسب وعلّل لذلك بعدم قدرة الخليفة على ممارسة القضايا الدنيوية[١] .

ثم جاء «النظام» فى الوقت نفسه فأخذ برأى الماوردى بوجوب الخلافة وعاضد مذهب البيرونى فيما بعد واعتقد بضرورة بقاء نظام الخلافة كمنصب روحى فقط، والجمع بين السلطتين الروحية والزمنية مما يضعف مركزه ويقضى عليه.

ومن أسّس على هون يكون مصيره الضعف ثم الزوال، عاجلا أم أجلا وهذا ما سنراه فى العناوين التالية:

١ - ضعف الخلافة العباسية: علله وأعراضه :

وبعد جهد تحقق لبنى العباس حلمهم الذى راودهم طويلاً والذى هدروا من أجله الدماء الطاهرة[٢] وأزهقوا الأرواح الزكيّة وتربعوا على عرش الخلافة باسم العرب من آل محمد وأبناء عمومته وكان أشد من خافوه أبناء على وهم سلالة النبى وأكثر ما حذِروه هم العرب لميل بعضهم إلى العلويين، وبعضهم الآخر

---

(١) البيرونى.

(١) انظر الأصفهانى - مقاتل الطالبيين.

إلى الأمويين فقربوا إليهم الفرس واعتمدوا عليهم فى مناهضة العرب وحربهم فكان وزيرهم الأول أبوسلمة الخلال وهو من العرب اليمانيين أول ضحية يلقى حتفه، ووجد هؤلاء من هذه السياسة تنفيسًا عن رغائبهم المكبوتة وآمالهم المحبوسة فأقبلوا بكل قواهم وأحاطوا بالخلافة حتى خشيهم أوائل الخلفاء؛ فشنوا عليهم حملات متوالية بدأت بقتل أبى مسلم الخراسانى بأمر من الخليفة المنصور نفسه، ثم لحقتها مجزرة البرامكة بإشارة من الرشيد.

ثم جاء المعتصم ابن المأمون فلم يجد نفعًا فى قتالهم إذ استفحل أمرهم وقويت شوكتهم بعد تقريب أخيه المأمون لهم؛ فأتى بعنصر جديد وهو الأتراك لإيقاف كل حركة داخلية من الفرس والعرب جميعًا فحنق الفرس على الخلافة وتربصوا الدوائر للإيقاع بالخلفاء عند أول فرصة سانحة ولكن الأتراك سرعان ما طغوا وتجبروا وعاثوا فسادًا فى بغداد حتى شكاهم الناس وارتفعت أصوات المستغيثين حتى اخترقت أسوار دار الخلافة وبلغت مسامع الخليفة وتردد على ألسنة الناس لفداحة الظلم الذى لحقهم: أى شئ هذا نحن فى بلاد الديلم أم فى يد الأتراك حتى ملكهم الديالمة والأتراك[٢] فلم يجد الخليفة المعتصم خلاصًا منهم غير إبعادهم عنها فبنى لهم معسكرًا فى سامراء وبعد وقت قصير أصبحت عاصمة الخلافة.

وكان أن تعاون هؤلاء وأولئك على هدم الخلافة وناصرتهم طوائف أخرى تحدوها نزعات مذهبية وأخرى عنصرية وقبلّية وتكاتفوا جميعًا على إضعافها والعيش على أكتافها، وإلاّ فعلى أنقاضها.. وكان من مآسى الفرس والترك ما يندى له جبين الإنسانية خجلاً ويقشعر لهولها وفظاعتها جزعًا ورعبًا. وكان لابدّ أن يشركوهم الحكم طواعية أو كرهًا فصار للفرس الوزارة وللترك الإمارة وقيادة الجيوش فى أغلب الأحيان وقد يكون لهم الملك والسلطان فى بعض الأزمان والبلدان.

(٢) نشوار المحاضرة ص ١٥٧.

وقد كان على المعتصم أن يحذر هذا العنصر الدخيل وألاّ يتجاهل الأسباب التى دفعته لاختياره والاعتماد عليه فى الدفاع عن الخلافة دون غيره وأن يحافظ على التوازن بينه وبين العناصر الأخرى الوافدة والأصيلة لأنها لا تمت إلى الخلافة العربية برابطة دم ولا بصلة دين إلاّ منذ عهد قريب لم يستطع بعد أن يبدّل من أطماعهم أو يغيّر من روح الانتقام لماضيهم... وقد كان عليه وعلى الخلفاء من بعده ألاّ يتغافلوا عما فعله الخلفاء من تنكيل وقتل وما صنعه الفرس بالخلفاء من إذلال ومهانة وعزل. وبتجاهلهم وتغافلهم فقد مهّد أتراك المعتصم لدولة السلاجقة كما مهّد خراسانية المأمون لمملكة آل بويه وقد ورث أولئك عن أسلافهم فى غزنة وبغداد فنون الحرب والاستعمار على أساس العمران كما ورث هؤلاء عن أجدادهم ثقافة حضارية فى التنظيم الإدارى.

لعب الأتراك والفرس دوراً طويلاً وخطيراً فى سياسة الخلافة العباسية إلى أن قضيا عليها فقد كان لكل منهما فترتان على التعاقب، فترة صراع مع الخلفاء والعناصر المنافسة لها وأخرى فترة استيلاء على الحكم. لقد رافق الفرس تأسيس الخلافة العباسية وعاضدوها، فكان ما كان من أمر أبى مسلم وآل برمك مع المنصور والرشيد، وكان لجنود الأتراك وقوادهم أثر لا يقل مرارة وقسوة خلال ثمان وخمسين سنة اضطر فيها الخلفاء السبعة فى سامراء أن يخضعوا لإمرتهم وعبثًا حاولوا التخلص من استبدادهم وطغيانهم، ثم عاد دور الفرس من جديد بفتح البويهيين بغداد وقضوا أكثر من قرن شهد فيه الخلفاء أضعاف ما انتهى إليه الأتراك من جور واستبداد ثم أعقبهم السلاجقة بدخول طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ فشغلوا الدور الرابع الذى دام حوالى القرن من تاريخ الخلافة.

لقد كان الصراع العنيف المتواصل بين الموالى والأتراك فى العاصمة وخارجها من أجل التغلب على المراكز المهمّة والاستيلاء على القصر الخليفى من العوامل التى ساعدت على إضعاف الحكومة ومهدت لظهور الدويلات المستقلة فما هى أهم تلك العوامل وما أشهر تلك الدويلات؟..

أ) التوريث: إن فى استخلاف معاوية لابنه يزيد وطلبه أخذ البيعة له فى حياته

بدعة جديدة فى نظام الخلافة الذى هو أقرب إلى الجمهورى الانتخابى منه إلى الملكى الوراثى إذ قضى بهذه البدعة على حق الشورى فى اختيار الخليفة وفتح باب المنازعات بين أبنائه وأخوته. وقد ورث العباسيون عن الأمويين نظرية حصر الملك فى الأعقاب ولقيت منهم على سوئها تقبّلاً وتأييدًا متناسين ما كان عليه الخلفاء الراشدون من قبلهم وبذلك لم يحتاجوا إلى عناء كبير لتثبيت هذا فى نفوس الناس بعد أن صار قاعدة مألوفة وكل ما فعلوه هو الدعوة لأن تكون فى نسل العباس عم النبى بدلاً من أبناء فاطمة وعلى.

ومما يلفت النظر فى بدعة التوريث أن يتغافل بنو العباس ومن قبلهم بنو أمية وهم من السنّة أن الخلافة بدأت حياتها بالاختيار[1] والترشيح ولا تنعقد إلاّ بموافقة الأكثرية،[2] وأنه لا يقرّ التوريث والتعيين بالإيصاء سوى الشيعة حينما جعلوا من الخلافة إمامة واجبة فى الدين عقلاً وشرعًا مثلما كانت النبوة واجبة فى الفطرة عقلاً وسمعًا[3]..

ومن الغريب أن الخلافة العباسيّة قد استغلّت مذهب الشيعة فى التوريث والوصية للأبناء خلافًا لإجماع أهل السنة. وأشدّ منه غرابة أن يتجاهل العلماء مسألة الاختيار وتحل بموضعها مسألة الوراثة وولاية العهد ومشكلاتها المحتملة الوقوع؛ فيفرضون لها الفروض ويضعون لها الحلول كأنها قضية مسلّمة ويتخذون لها من سيرة خلفاء الأمويين والعباسيين وتوريثهم الخلافة لأبنائهم نموذجًا لصحتهاوسلامتها، فبعد أن كانت الإمامة موضع بحث العلماء وزعماء الطوائف من حيث: توافر الشرائط فى الإمام وما هو موقف الأمة منه إذا اجتمعت فى اثنين، وما هو الإجماع، وهل يجوز أن ينعقد لاثنين فى وقت واحد[4]، وتقديم المفضول مع وجود الأفضل، إلى آخر ما هنالك من أسئلة، اتخذت المسائل صيغة أخرى مثل: هل يجوز العهد بالخلافة لاثنين فأكثر؟ وهل يصح ترتيب

(١) عبد القاهر البغدادى ـ أصول الدين ص ٢٨٤.
(٢) الغزالى ـ الرد علي الباطنية ص ٦٦.
(٣) الشهرستانى ـ نهاية الإقدام ص ٤٨٤.
(٤) البغدادى ـ أصول الدين ص ٢٧٤.

الخلافة بينهما إذا نصّ على ذلك، ثم هل يحق للإمام بالترتيب حسب الوصية أن يخرج عليها فيعهد لآخر. ويجيب الماوردى على ذلك كله أنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان فى وقت واحد وإن شذّ قوم فجوّزوه[1]. وعلى هذا الرأى إمام الحرمين حيث أجاز العقد بشرط بُعْد المدى وشيوع النوى[2]. ولعلّ فى فتوى الجواز اعترافًا بالأمر الواقع حيث انقسم العالم الإسلامى آنذاك إلى ثلاث خلافات.. وتأثر «النظام» خطى علماء عصره وصار ينادى ليس بإيراث الخلافة فحسب وإنمّا شمل اعتقاده وراثة السلطنة والوزارة أيضًا كما سنرى ذلك فى موضعه من البحث.

قد يقال: إن التوريث كان نتيجة لشرط النسب بأن يكون الخليفة فى قريش ومع أن هذا الشرط موضع خلاف بين الطوائف المسلمة إلاّ أنه كان من الممكن التوفيق بين هذا الشرط وعدم التوريث باختيار أهل الحل والعقد أفضل أعضاء هذه الأسرة. وقد تكون دعوى الخلافة فى قريش لإجماع الصحابة عليها يوم السقيفة لتدين لها العرب ويخضع لها غيرهم من الأمم فإن صلاحها فى ذلك العصر لا يتعارض وسوء نظرية وراثة الملك فى الأعقاب من بنى أمية أو بنى العباس.. فقريش - كما نعلم - من أكبر قبائل العرب ولذوى الرأى من كبار الأمة أن يختاروا من البارزين فيها أحسنهم خصالاً وأكثرهم نفعًا وأوفرهم لشروط الخلافة لا أن يعيّن الخلفاء صغار أبنائهم وضعاف أحفادهم فيدبّ الوهن فى جسم الخلافة ويحلّ الانشقاق والانقسام بين الحاكمين ويظل الأمراء فى شاغل عن المصالح العامة بأمورهم الخاصة وتبقى الشعوب مشغولة بحزازتهم وخصوماتهم.

ب) التفويض الإلـهى: أضاف العباسيون إلى بدعتهم الوراثية بدعة منقولة لم تكن معروفة للعرب من قبل وكانت نتيجة لاتصالهم بالفرس، وهى بدعة ربط

---

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص ٧.

(٢) الجوينى - الإرشاد إلى قواطع الاعتقاد ص ٤٢٥.

الأسرة الحاكمة بالسماء وأن حكمهم بتفويض إلـهى لا حُق للناس فى رفضه أو الاختيار فيه. حكى عن المنصور أنه قال فى إحدى كلماته: «إنى سلطان اللّه فى أرضه»[1]. . . وكان إذا خاف الخلفاء بطش الرعية وانقلابها على الحكم أمروا مناديهم يدعو بصوت جهورى فى الميادين والأسواق: «يامعشر المسلمين إن من خالف خليفة رسول اللّه فقد خالف رسول اللّه ومن خالف الرسول فقد عصى اللّه وخرج على المسلمين جميعًا واختار النار»[2].

بهذا المنطق الدخيل الذى يستهوى العوام وينفذ إلى نفوسهم ويوقد الحماس فى قلوبهم كان يتذرع الخلفاء إذا ما أحسّوا بأركان الخلافة تتزلزل وبقواعد عروشهم آيلة للسقوط، ثم يشككون العامة فى متزعم الثورة ضدهم فيتهمونه بالباطنية ومراسلة خلفاء المهدية وعمله لعزل الخليفة العباسى فينجذب الدهماء إلى صفوفهم.

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يحكمون باسم اللّه لأنهم يمثلون الدولة بأسمى معانيها[2]، كما يحكم القضاة اليوم باسم الملك ويشرّع النواب باسم الأمة. وبذلك تفشّت نظرية الحق الإلهى وأحاطت الخلفاء بهالة من التقديس والتعظيم كالتى كانت عند الفرس تجاه ملوكهم. واستمرت مسحة التقديس هذه تظهر وتختفى حتى العصر السلجوقى فنرى من آثارها الباقية عادة تقبيل الأرض بين يدى الخليفة القائم بأمر اللّه كما فعل طغرلبك عندما تشرَّف بالمثول بين يديه. مثلما بقيت فكرة التوريث هذه على علاتها تسير مع الزمن على الرغم مما تحوطها من مشكلات وإراقة دماء حتى عهد الخليفة المذكور نفسه حيث اهتزت جدران دار الخلافة هلعًا وخوفًا من فقد الوارث الطفل (عدة الدين) بسبب انقلاب البساسيرى ونفيه الأمير ووالدته إلى «الحديثة»[3].

ومادام خلفاء بنى العباس قد أحاطوا أنفسهم بنظرية التفويض الإلهى فقد

---

(١) نظام الملك ـ سياستنامة.

(٢) فلهوزن ـ الدولة العربية ص ١٤.

(٣) الحديثة: مدينة عراقية قديمة.

اتخذ سلاطين السلاجقة لقب «ظل الله فى الأرض»[1] تشبهًا بهم ومشاركةً فى الحكم لهم. واعتقد «النظام» بصواب هذه النظرية ودعا إليها فى كتابيه «السياسة» و «الوصايا» وبدت على صلاته بالخليفة والسلطان مظاهر التقديس والاحترام حيث تتمثل فى شخصهما السلطتين الروحية والزمنية.

مما نجم عن بدعة توريث العرش وفكرة تفويض السماء نتائج اجتماعية سيئة ظهرت بوضوح خلال عهد ضعف الخلافة بالذات كما كانت من أسباب ضعفه: فقد أثارت روح البغضاء والكراهية بين أعضاء العائلة المالكة وقويت أعمال التنكيل من أجل ولاية العهد كما اضطرت الخليفة ـ بدافع الحرص على حصر العرش فى أبنائه ـ للتفكير الشديد بمن يخلفه فإذا لم يجده عمل المستحيل فى سبيل ذلك فتتعدد زوجاته دون مبرّر وتكثر مطلقاته دون مسوّغ وغالبًا ما يلجأ إلى فقهاء زمانه يسترضيهم لإصدار الفتيا بجواز تصرفاته المشينة لأن آذان الشعوب صاغية وإن كانت جاهلة وإحساساتهم مرهفة وإن كانت معطّلة.

ومما نتج كذلك عن توريث السلطان فى الأعقاب أن حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم، وسببه فى الأغلب ولاية صبى صغير أو مضعّف من أهل البيت يترشح للولاية بعهد من أبيه أو بترشيح ذويه[2] فينصرف هؤلاء إلى حياة اللذّة والدّعة والترف، ويتصرف أولئك القائمون على شئون الدولة تصرف المالك لها، ثم ينتهى هذا الدور بالصراع بين السلطان والمستبدّ به عندما يكبر ويثأر لتاجه المغتصب، ويحدث الشقاق وتسيل الدماء.

واستمرت مآسى وراثة الملك فى الأصلاب تتمثل على عروش الملوك حتى عصرنا الحاضر، وبشكل أدعى إلى المقت وأبعث على الحزن، وبخاصة بعد أن التزموا بمنع تعدد الزيجات مهما كانت الأسباب.

جـ) الصراع بين الخلفاء والوزراء: ومما أضعف الخلافة، والوزارة معًا ـ ذلك

(١) نظام الملك ـ سياستنامة.

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة ص ٩٠.

الصراع العنيف بين الخلفاء والوزراء الذى يخفّ حينًا ويشتد أحيانًا، ومن أجل المال تارة وبسبب النفوذ أخرى، فالخليفة يقيل وزيره على أسوأ حال ويصادر أمواله، وقد يلقى به فى غياهب السجن، ثم يسفك دمه فى النهاية إذا ما أوجس خيفة على سلطانه أو عجز عن تلبية ما يريده من هدايا ومال. والوزير يسعى لعزل الخليفة ويتآمر على خلعه إلى أن يطيح بعرشه ويتوّج من يريده، ولا يريد عادة - وهذا هو الغريب فى الموضوع - من يتوافر فيه شرائط الحنكة فى السياسة أو الحذق فى معالجة عويص الأمور بل ربما كانت شريطته الخلو من ذلك، فالخليفة - المقتدر - يستوزر ذوى الثراء من أجل مالهم، والمتوكل يملّ استيزار الشيوخ، والوزيران «ابن مقلة والبريدى» يخرجان على الخليفة ويحاربانه.

د) **الحروب والتوسع:** ومن عوامل الضعف كذلك تلك الحروب المستمرة بين الخلافة وإمبراطورية الروم، الأمر الذى جعل الخلفاء فى قلق وحذر دائمين خوفًا من هجومهم، وفى ذلك ما فيه من حرص على جمع المال لتموين الجيوش واستخذاء وخضوع أمام القواد من أجل دفاعهم عن العرش والبلاد، وكان آخرها موقعة - عمّورية - أيام المعتصم.

ولم تنته هذه الحروب الخارجية حتى بدأت ثورة الخوارج والعلويين والقرامطة فى الداخل وكان منها ما استمر سنين عديدة حتى قضى - الموفق بن المتوكل - فى قتال الزنج أربعة عشر عامًا بين حرب ومهادنة إلى أن أخمد ثورتهم، ولم تمر السنون حتى اقتصر الخلفاء على مملكة العراق فحسب.

ثم ذلك التوسع الهائل - وبه نكتفى أخيرًا - والذى يصفه المقدسى بأنه لم يعدّ من الميسور أن تقطع أرض الخلافة من الشرق إلى الغرب بأقل من عشرة أشهر، ولم تعدّ وشائج الدين تربط بين الأجناس المختلفة بعد أن انتشرت المذاهب المتناقضة، ولا تجمع بين الناس صلات اللغة بعد أن تبلبلت الألسن وتكاثرت اللّهجات، فكان من الطبيعى بعد هذا أن اشتدّ الخلاف فى النزعات والمذاهب وقوى الخصام فى الأهواء والمشارب وازداد التباين فى الأجناس واللغات.

وكان لابد من تفكك عرى تلك الوحدة المترامية الأطراف واستقلال بعض الأجزاء النائية عن المركز. . . وكان لزامًا أن تنشأ دويلات صغيرة تتسع وتقوى أحيانًا وتصغر وتضعف أخرى، تبعًا لتقلبات الظروف والأحوال السياسية والاجتماعية. . . إلى أن أصبح يقتسم تلك الرقعة الواسعة ثلاث خلافات توزعت كل واحدة منها فى قارة، وامتد نفوذها إلى ما جاورها من مناطق وأقاليم هى: الخلافة العباسية فى آسيا وعاصمتها بغداد، والخلافة الأموية فى الجنوب الغربى من أوربا وحاضرتها قرطبة من بلاد الأندلس، ثم الخلافة الفاطمية فى أفريقيا ومركزها القاهرة. . وحتى أصبحت الخلافة المركزية الأم تبتطن عدة دويلات. . وبهذا صار لكل واحدة من هذه وتلك خليفتها وسلطانها أو ملكها، وأخطرها ثلاث دول هى: البويهية فى قهستان من بلاد الجبل ـ الديلم ـ ثم الدولة الغزنوية فيما وراء النهر، والسلجوقية فى خراسان. .

ومما يجدر بنا ملاحظته أنه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة البويهية والسلجوقية تمثلان العنصر الفارسى والتركى فى شرق الخلافة، كانت الخلافة الأموية والفاطمية تمثلان الجنس العربى فى غربها، وعلى الرغم من أن النزاع بين هذه جميعها يشتدّ فيتحول إلى حروب دامية، لم نجد بينها خلافة غير عربية أو غير قرشية بتعبير أدق.

وكما كان ذلك التوسع المفرط ضروريًا فى ذلك الحين لبقاء الحكومات واستمرار نفوذها، فقد كان طبيعيًا كذلك أن تنقسم إلى أقاليم يحكمها الولاة والأمراء. . . وكانت نتيجة ضرورية أيضًا لهذا وذاك أن تقوى تلك الولايات، وأن تزداد قوة كلما ضعفت الحكومة المركزية، ومن هنا نشأت دويلات مستقلة كانت تتوسع على أنقاض جاراتها، فيفوّض الخليفة إلى أمرائها تدبير شئونها ويوكل الأمر أو الحكم إلى المستولين عليها[1] وكنتيجة لذلك كله ظهرت الدويلات الحمدانية فى الشام ـ حلب ـ والأخشيدية فى مصر ـ القاهرة ـ.

---

(١) أبو يعلى ص ١٧ ـ والماوردى ص ٢٤، ثم يضيفان قولهما كالذى عليه أهل زماننا.

وكان لخراب طرق المواصلات التى أصبح من العسير على الدولة اصلاحها لطول المسافات التى تخترقها، أثر كبير فى إيجاد تلك الإمارات ثم استقلالها، «إذ بانقطاع السبل وخراب كثير من البلدان وذهاب الأطراف وغلبة الروح المفردية وغيرها من الممالك على كثير من ثغور الإسلام[1] حصل هذا الانقسام».

بهذا انتهى القرن الرابع وليس للخليفة إرادة فى عزل أو تنصيب، فالسلطان محمود يولّى خاقان سمرقند[2]. واستقلّ فى المملكة الإسلامية المترامية الأطراف أمراء شبههم أحد المؤرخين بملوك الطوائف الذين خلفوا الإسكندر بعد مقتل الملك «داريوس» وملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك[3]. وظهرت على تصرفاتهم وطرق معاشهم مظاهر الحياة الملكية الجديدة بما فيها من بذخ وترف وسيطرة وحاشية وجند، وانتزعوا من الخليفة سلطانه حتى لم يبقوا له سوى الاعتراف بالخلافة والدعاء للخليفة فى خطب الجمع والأعياد.

وبلغ من ضعف الخلافة أن كان الأمراء يقدّمون إلى الخليفة الهدايا فى كل سنة ويطلبون منه تقليدًا بالولاية، وكان الخلفاء يعوّضون ملوك الأطراف بما يناسبها أو يفضل عنها لحفظ الناموس الظاهر وليكون لهم فى البلاد السكة والخطبة حتى صار يضرب مثلاً لمن له ظاهر الأمر دون باطنه أن يقال: قنع فلان بالسكة والخطبة، يعنى قنع بالاسم دون الحقيقة..

وقد يغزو الأمراء عاصمة الخلافة فيدخلونها عنوة ويتلقى أميرها الجديد البراءات والخلع والألقاب اعترافًا بسلطانه وإيذانًا له بحمايته، وكان معظم تلك الألقاب يشير إلى هذه الحماية للدين أو الدولة، كما كان بنو بويه أولى الأسر الفارسية القويّة التى عنيت بحمايتها للخلفاء وشعرت بحمايتها هذه فضل سبق

(١) المسعودى: التنبيه والإشراف ص٤٠٠.

(٢) المسعودى ـ مروج الذهب جـ ١ ص٢٠٦ وجـ ٢ ص ٧٣ ـ والتنبيه والإشراف ص٤٠٠.

(٣) ابن طباطبا ـ الفخرى ص٢٨.

على غيرها من الدويلات الأخرى الناهضة[١]، وخرجت الألقاب عن سيطرة الخلفاء فصار الأمراء والوزراء يمنحونها من يشاءون إلى أن يصل الخبر إلى الخليفة فيؤيده، كما حدث مثل هذا للسيد «المرتضى» المتوفى سنة ٤٣٦هـ، حيث منحه الوزير الأسعد بن محمد بن عبد الرحيم لقب ـ علم الهدى ـ على أثر رؤيا شهدها فى منامه أثناء مرضه سنة ٤٣٠هـ، ولمّا بلغ الخليفة ـ القادر بالله ـ ذلك كتب إلى المرتضى به[٢].

ولسنا ندرى كيف هيأت الظروف بين الفينة والاخرى ملوكًا فى الأطراف لإنقاذ الخلافة عند ضعفها وتفاقم أسباب محنتها وكان من هؤلاء الملوك من طمع فى الخلافة وسعى لإزالتها، فقد أشار «النظام» فى كتابه «السياسة» إلى أن ـ يعقوب ابن الليث الصفار ـ سنة ٢٣٧هـ، مؤسس الإمارة الصفارية قد استولى على نيسابور دون إرادة الخليفة وكان يحاول القضاء على الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المتوكل بعد أن قضى على الطاهريين[٣]. واستمرت الأحداث قاسية مريرة بينه وبين الخليفة «المعتمد» حتى مات وبايع الجند أخاه ـ عمرو ـ ولولا بقية من نفوذ الخلفاء استغله الخليفة فى عزل أخيه ـ عمرو بن الليث ـ وتولية محمد بن طاهر سنة ٢٧١هـ لقضى على الخلافة.

ويروى لنا «النظام» قصة طويلة أخرى فى هذا الموضوع حدثت بين الخليفة القادر والسلطان محمود[٤] اتخذ فيها لنفسه ألقابًا ـ يمين الدولة وتاج الملّة بعد

(١) أرنولد ـ الخلافة.

(٢) الخرنسارى ـ روضات الجنات جـ ٢ ص ٣٨٢-٥٦٤.

(٣) نظام الملك ـ سياستنامة ـ وابن الأثير ـ الكامل.

(٤) كان السلطان محمود واليًا على خراسان من قبل آلى بويه سنة ٩٩١م ولكن السامانيين لم يعترفوا به، ثم ارتقى العرش سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م وتسلم من الخليفة لقب يمين الدولة وأمين الملّة وكهف الدولة والإسلام، وتاجًا وبراءة لحامية خراسان واتخذ لنفسه لقب سلطان (ابن الأثير ـ الكامل ص١٠٣) وفى سنة ١٠٢٦م استقبل رسلاً من الخليفة يحملون له براءة ملكية تخوله حكم الولايات التي غزاها واحتلها وتمنحه ألقابًا جديدة له ولأولاده ولأخيه يوسف وصار الوارث الحقيقي للسامانيين والحاكم المطلق على الشرق بأسره إلى أن توفى سنة ١٠٣٠م (بارتولد - تركستان ص ٢٨٦).

جهد وبذل، وتهديد بإنشاء خلافة أخرى فى الأطراف حصل فيها على فتوى من القضاة[1]. ومن المحتمل ألاّ يكون لهذه الرواية التى سردها «النظام» سند تاريخى[2]، ولكنها على كل حال تدلنا على ضعف الخلافة وتغلّب ملوك الأطراف من ناحية وعلى أهمية الألقاب وخطورتها بنظر الحكام آنذاك.

وكان كلما استشعر الخلفاء جفوة أو إعراضًا من الملوك والسلاطين أو بلغت مسامعهم أنباء مريبة عنهم استدعوهم لأداء يمين الإخلاص والطاعة، وكذلك كان يفعل السلاطين أنفسهم إذا خشوا أمر قوادهم وعمّالهم، فقد جمع الوزير - أبو القاسم المغربى - وجوه الأتراك والمولويّة ليحلفوا لمشرف الدولة، «ونجد مثل هذا حدث «لجلال الدولة» البويهى حيث حضر أمام الخليفة القادر وحلف له على المخالصة والطاعة ولجنوده على الوفاء»[3].

ويذكر لنا «النظام» فى وصاياه قصة حدثت فى بغداد عندما وافق الخليفة على مصاهرة السلطان - ملكشاه - ورضى بكتابة عقد الزواج فدعا حينئذٍ الأكابر والأشراف العرب منهم، والعجم لحضور مجلسه فاجتمع منهم عدد كبير، لم يجتمع مثله فى أى عصر من العصور، وأمر بذهابهم إلى دار الخلافة لطلب رضا الخليفة وإعلان الخضوع له والطاعة[4]. وكان على رأس هذه الوفود وزيره «نظام الملك» فلم يصلوا عتبة دار الخلافة حتى نزلوا عن خيولهم وساروا على أقدامهم مبالغة فى الاحترام فجاء رسول الخليفة يقول إن أمير المؤمنين أمر أن

(١) النظام - سياستنامه ص ١١٦ (الترجمة).

(٢) بارتولد - تركستان ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٠.

(٤) نظام الملك - الوصايا ص ٣٦-٣٧.

يبقى «النظام» راكبًا، فكان الوحيد بينهم وعندماركب وبلغوا سدّة الخليفة أَمْرَ فوضعوا له مسندًا جلس عليه والعظماء جميعًا وقوف بين يديه، ولما قدّمت الخلع كانت خلعة «النظام» مطرّزة باسم ـ الوزير العادل العالم نظام الملك رضى أمير المؤمنين(١).

ومن غريب ما يلفت النظر ـ وليس بغريب فى الواقع ـ أن تنشأ معظم تلك الدويلات الكبرى الثلاث التى تهدد الخلافة بالخطر من إيران وأن يكون مركز الصراع منطقة خراسان، فهو الإقليم الذى ترجح كفة المستولى على حاضرته ـ نيسابور ـ ومنه غزت الدويلات السامانية والبويهية والغزنوية ثم السلجوقية دار الخلافة، وكان أول من هدّد عاصمة الخلافة فى خاتمة هذا العهد هو السلطان «محمود» بعد أن تم له إخضاع خراسان وولّى عليها أخاه ـ نصرًا ـ وجعل مقره نيسابور، فقد استولى عليها قبله الصفاريون أولاد يعقوب بن الليث وقضوا على الإمارة الطاهرية ثم استولى عليها السامانيون الذين داموا فى الحكم من سنة ١٧٠هـ إلى أن قضى عليهم آل سبكتكين قبيل نهاية القرن الرابع الهجرى.

وفى هذا ما يشعرنا بأن الأقوام الذين دخلوا تحت سلطان العرب ـ على كثرتهم- إلاّ أنهم لم يفقدوا منزلتهم، كما أن العرب لم يقضوا عليها كما فعلت الجرمانية فى أوربا والمغول فى آسيا(٢) والدولة العثمانية لتتريك العرب فى الجزيرة والولايات التابعة لها حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م.

وبذلك خفّت كفة بغداد فى الميزان السياسى وحلّت محلّها نيسابور وأصبهان والرى من أعمال خراسان، وصار السلطان إذا استولى عليها خضعت له بغداد دون دفاع أو مناهضة، حتى صار السلاطين يتسابقون للاستيلاء عليها لأنه بنظرهم مقياس لقوة الدولة الجديدة، ولم لا تكون كذلك وهى التى أقامت الخلافة العباسية على أشلاء الدولة الأموية

---

(١) نظام الملك ـ الوصايا ص ٣٦، ٣٧.

(٢) بارتولد ـ الحضارة الإسلامية ص ٢٨ ترجمة حمزة طاهر.

وأمدّتها بالعتاد والجند وأسهمت فى القيادة والحرب طمعًا فى القضاء على عروبة الحكم واستعادة مجد الفرس القديم.

لقد رأينا من قبل أسباب ضعف الخلافة وبعض صوره والأدوار التى مرّت بها هزيلة سقيمة الى أن لبست أثواب العافية وعاد إلى مخالبها الزهو والانتعاش فى عهد القائم ثم المقتدى من الخلفاء بفضل سلاطين السلاجقة طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه. وقد شهدنا ونحن نستعرض دور الانحلال أسماء دويلات تطلّعت لحياة الاستقلال وتناثرت هنا وهناك كان منها الطاهريّة والصفارية والسامانية وكان آخرها وأهمها دولة آل بويه التى تكاد تكون الوحيدة التى استأصل شأفتها السلاجقة فى هذا العهد، إذ بقيت هناك دويلات وإمارات لا تقل أهمية عنها ولم تستطع القضاء عليها، وإنما اكتفت بمهادنتها أحيانًا ومحاربتها أخرى والقناعة بما تقدمه من رسم للخزينة العامة كالدولة الغزنوية التى بقيت تُناهض السلاجقة منذ ظهورهم إلى أن قضت عليها الدولة الغورية سنة ٥٧٩هـ وكامارات المروانية[١] والعقيلية[٢] والمزيدية[٣].

وقد ظلّت هذه موضع قلق واضطراب للخلافة وسلطنة السلاجقة معًا خلال القرن الخامس الهجرى وقد اتخذت من تنافس الخليفتين العباسى والفاطمى وسيلة للسيطرة واستمرار النفوذ وانتهزت الأخيرتان فرصة وثبة البساسيرى فشايعتاه فى حربه ومناصرته حتى اضطر السلاجقة لمالأتهم وإغداق الهبات والألقاب على زعمائهم.

وهكذا لم يطلع القرن الخامس الهجرى إلاّ وقد اجتاحت العالم الإسلامى شرقًا وغربًا زوابع عنيفة من الفتن المذهبية والأوبئة الفتّاكةوالحروب الدامية

(١) نسبة إلى مروان بن دوسنك الكردى الحميدى نشأ فى ديار بكر بعد بنى حمدان سنة ٣٨٠هـ وانتهت على يد الوزير فخر الدولة محمد بن جهير سنة ٤٧٨هـ (انظر فى تاريخها: ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٢ ص ٥٧ والجبرتى: جـ ٤ ص ٣١٥:٣٢١ وخلاصة تاريخ كردستان جـ ٢ ص ٩٥ : ١٢٥). ومن أشهر أمرائها: أبو نصر أحمد بن مروان الذى بقى فى الحكم ٤٢ سنة والذى تآمر سنة ٤٥٢هـ.

(٢) وكانت قبائل عقيل تسكن الموصل وغرب الفرات فانفصلت عن الخلافة بين سنة ٣٨٦هـ إلى ٤٨٩هـ.

(٣) وكان بنو أسد يسكنون منطقة الحلّة وقد انفصلت إمارتهم عن الخلافة بين سنة ٤١٤هـ إلى ٤٧٢هـ.

بسبب التعصب الدينى والنزعات القومية والطمع فى السيادة والنفوذ فشهد الثلث الأول من هذا القرن الخلافة الأموية فى الأندلس وهى تحتضر ثم تنقرض سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م بوفاة المؤيد بالله هشام بن الحكم ـ كما رأى الدولة البويهية تلفظ أنفاسها الأخيرة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بمقتل الملك الرحيم ووزيره على يد طغرلبك ووزيره الكندرى. . . وتتمخض الأحداث عن ميلاد دولة جديدة هى دولة آل سلجوق.

٢- ميلاد الدولة السلجوقية:

ولو ألقينا نظرة شاملة على الجانب الشرقى من العالم الإسلامى وتدبّرنا أحوال الناس آنذاك لتبيّن لنا أن الوضع العام يبشر بميلاد دولة جديدة ولتبيّن لنا أن موضع الولادة سيكون فيما وراء النهر ومن آل سلجوق أيضًا: فقد كانت الخلافة فى بغداد وأمهات الدويلات معها كدولة آل بويه فى فارس وآل سبكتكين فى غزنة عاجزة عن تلبية آمال الشعوب التابعة لها فى الأمن والاستقرار فضلاً عن ضعف المستوى الاقتصادى وتعزيز الدين ونشر العلم. . تلك الأمور التى ترصّدتها عيون الناس وتطلّعت إليها أعناق المواطنين ولاسيما دعاة التجديد لبناء كيان إسلامى موحّد يقف ضد المغيرين من نصارى الروم فى الشرق ويصدّ زحف الباطنية من الفاطميين فى الغرب.

وكانت عوامل الإرهاص لظهور الدولة الجديدة تتسابق فى الأفق متدفقة داخل بغداد عاصمة الخلافة حيث يحيط بالخليفة نفر من ضعاف الفرس يملك وسائل الحول والطول فيسير الخليفة طوعًا لإرادته ويمتلك ما عجزت عنه الدويلات الأخرى من عناصر القوة والاستبداد. وكان الوضع فى العراق رديئًا من كل نواحيه حتى وصفه المقدسى بقوله: «إنه بيت الفتن والغلاء وإنه فى كل يوم إلى وراء من الجور والضرائب فى جهد وبلاء. . ثمار قليلة وفواحش كثيرة وموءن ثقيلة»[1].

(١) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ١١٣.

وكانت عوامل قيام الذولة الجديدة تتكاثر مسرعة خارج بغداد حيث لم يبق من آل سامان وآل سبكتكين من يقوى على إخماد ثورات آل سلجوق المتوالية أو صدّ غاراتهم المتعاقبة وقد سئم الناس تعصب السامانيين العنصرى كما ملّوا تعصب السبكتكيين المذهبى دون أن يجدوا عوضًا عن إراقة الدماء فى سبيل ذلك أو تقدمًا منشودًا فى نواحى حياتهم المعيشية والعلمية والصحية. فكان هذا العجز دافعًا قويًا لاستقبال الدولة الناشئة تعويضًا عمّا يحسّه المجتمع فى أعماقه من نقص مادى وروحى معًا. وبذلك وجد السلاجقة الطريق معبّدًا أمام انتفاضتهم ضد الغزنويين والبويهيين لولا بعض العقبات التى تغلبوا عليها فى قليل من الوقت ويسير من التضحيات.

ولسنا نعرف بالضبط ما هى الحوافز الحقيقية التى لجأت بالسلاجقة إلى الهجرة من بلادهم، فإذا كانت الضائقة الإقتصادية وطلب الكلأ والمرعى فلا ندرى بالتأكيد ما هى الدوافع الأخرى التى حدت بهم إلى المثابرة على القتال بعد شبع بطونهم وغرائزهم وإمتلاء أجوافهم وجيوبهم.

وبعد ظهور أمة بقليل أو بكثير يبدأ الحديث عن نشأتها وحياة قادتها بما يشبه الأساطير وتحاك حولهم أقاصيص البطولة وتنسج الملاحم الخرافية. ومن الطريف المؤسف أن يكون هذا جزء من التاريخ ثم يصبح مادة صالحة لتغذية الأدب بروائع القصص، لذلك لا يوجد لدينا ـ فى واقع الأمر ـ ما يدلنا على بداية السلاجقة الأولى ومسكنهم وعقيدتهم بشكل علمى دقيق وكل ما ترويه المصادر التاريخية إنما هو من قبيل التكهنات والظنون يظهر على بعضها التناقض والاضطراب. وقد صدق الشاعر حيث قال:

الناس من يلق خيرًا قائلون له

مايشتهى، ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

ومهما يكن من أمر فقد كانت الأحوال السياسية فيما وراء النهر مضطربة فى أواخر عهد السامانية والقره خانية والحروب بينهما متصلة وقد استغلّ «سلجوق» وقومه «الغز» ذلك فأفادوا منه مرانًا عسكريًا وخبرة على فنون الحرب كانت من

أسباب نجاحهم فى إعلان تمردهم على الحكومة القائمة وفى سياسة التوسع حتى بلغوا - نوربخارى - حوالى سنة ٣٧٥هـ[١]. ثم خلفه ابنه - إسرائيل - الذى دعى أرسلان - فى إمارة الغز وساعد القائد السامانى المنتصر على القره خانية سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠١م ثم حالف على تكين الذى استولى على بخارى والذى حاول السلطان محمود خلعه سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[٢] حينما قام بحملة إلى ما وراء النهر متوجهًا نحو بخارى لمساعدة «قده خان» وعرف شوكة السلاجقة هناك وخاف بطشهم ورغب فى أن يعود بهم ليفرقهم فى بقاع خراسان المترامية. وغاظ السلطان تمنّعه فقبض عليه وعبر به أسيرًا إلى غزنة[٣]. وبقى الغز على شغبهم وشرعوا فى مهاجمة مدن العراق وأذربيجان بقيادة طغرلبك وجغرى بك داوود وبيغو أبناء ميكائيل الابن الثانى لسلجوق.

وليس من شك بأن للوباء الذى حلّ بنيسابور بسبب المجاعة والقحط اللذين شملا خراسان كلها فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس حتى سنة ٤٢٩هـ أثر كبير فى انهزام جيوش الغزنويين أمام جنود «جغرى بك داود» لانعدام العلف وضعف الجيش الغزنوى وانتشار الذعر والخوف من التركمان حتى ذاع بين الناس الحديث بنهاية دولة آل محمود وأن شمسها أذنت بالأفول[٤].

ومن هنا يبدأ تاريخ هذه الأسرة بشئ من الدقة والوضوح إذ إن فى المرحلة الأولى« قبل ظهور طغرلبك لم يكن للسلاجقة حكومة بالمعنى المعروف لهذا اللفظ وإنما كانوا يسيرون حسب التقاليد البدائية التى كانت بمنزلة التقاليد عند القبائل المتبدية، واستمر الأخوة الثلاثة على شنّ حرب العصابات فى الداخل.

---

(١) ويقال لها الآن «نوراتا» وهى شمالى بخارى الشرقى. انظر حمد الله مستوفى فى تاريخ كزيده ص ١٤٣٤ وبارتولد فى تركستان ص ١٢٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - مادة «سلاجقة».

(٣) البندارى - آل سلجوق ص ٥ ويسميه «ميكائيل».

(٤) الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى ص ١٢٥-١٢٧ وانظر كذلك مقدمة تاريخ بيهقى... ترجمة يحى الخشاب.

وقد حاول السلطان مسعود أن يسترضيهم بشتى الطرق فلم يوفق ومما تذرع به من وسائل المهادنة أن أهدى إليهم لقب «دهقان» فردّ عليه طغرلبك مستهزئًا[1] بهديته، وتابع الأمراء خطتهم فى الغزو والغارة إلى أن حدثت الموقعة الحاسمة فى دندانقان سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م التى انتصر فيها جيش طغرلبك على مسعود فأذعن له حكام الولايات الشرقية والوسطى طواعيةً وكرهـًا، ولم يمر شهر رمضان مـن سـنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م حـتى خطب باسمـه على منابر بغداد ولقّبه الخليفة القائم بـ «ملك المشرق والمغرب» سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م»[2].

٣- المؤسس الأول لدولة السلاجقة: طُغرلْبك :

كان ـ لجغرى بك ـ أكبر الأخوةالفضل الكبير فى النصر الذى أحرزته الدولة وبسط سلطانها على تلك الرقعة الفسيحة بما قام به من فتوح لتوسيع حدود الدولة الجديدة وبما بذله من مغامرات وتضحيات لإيقاف هجوم الخوارزم شاهين والغزنويين ودفع بابنه «ألب أرسلان» لمطاردتهم حتى اضطروا لعقد صلح بين الطرفين وبهذا اندحر جيش الغزنويين إلى غزنة وسار جيش السلاجقة نحو فارس واتخذوا من نيسابور مركزًا له[3].

ولم يستقر الأمر لطغرلبك وتخضع له الأقاليم من حدود الصين إلى تخوم العراق الشرقية حتى وزّع تلك الرقعة الواسعة بين إخوته وأبناء سلجوق تطبيقًا لقاعدة التمليك القبلى فولّى أخاه ـ لأمه ـ إبراهيم ينال بن يوسف ـ قهستان وجورجان. وكان نصيب أخيه داود مـرو وسرخس وبلخ إلـى نيسـابور، وولّـى ابن عمه الحسن بن موسى هراة وبوشنج وسجستـان وبـلاد الغـور وقصـد بنفسه الرى، ثم فتح أصبهان واستطاب الإقامة فيها ونقـل إليهـا أمـواله سنة ٤٤٣هـ[4].

(١) جهار مقاله ـ نظام عروضى.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة سلاجقة.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم ، حوادث سنة ٤٥٠، ٤٥١هـ.

(٤) المرجع نفسه جـ ٨ ص٢٢٣، حوادث سنة ٤٤٣هـ.

والذى يغلب على الظن أن نشوة الظفر كانت تذكى بطغرلبك روح الطموح فلم ينتصر فى موقعة إلاّ ويزداد حماسًا لغيرها ولم يستبسل فى معركة إلاّ ويزداد ضراوة فى أخرى، لذلك لم يسحق بجيوشه قوى البويهيين فى فارس حتى تدفق بحشوده نحو حدود العراق واستولى على الموصل عام ٤٤٧هـ، ثم توجه بجيوشه صوب بغداد عاصمة الخلافة لإبداء خضوعه للخليفة وإعذاره عما قام به جنوده من فظائع وفتك بالأرواح وهتك للحرمات خلال الغزو فلم يجد الخليفة تجاه الوضع الراهن الذى يقاسى مرارته وتعانيه الخلافة من ضعف «نصر ابن عضد الدولة» وسطوة القواد الأتراك الغاشمة وانتشار الباطنية فى أنحاء البلاد ـ إلاّ تأييد الفاتح الجديد والاحتفاء به والاعتراف بملوكيته على البلاد المفتوحة ومنحه الأوسمة والألقاب.

ومما قيل فى ذلك أن رسول الخليفة دعاه إلى بغداد فدخلها فى رمضان من سنة ٤٤٧هـ يرافقه وزيره أبو نصر الكندرى فى موكب فخم وأنه اتفق مع الخليفة على أن يكون رئيسًا دينيًا للمسلمين وهو صاحب الملك[١] بعد أن سبقته الرسل للخليفة القائم والملك الرحيم[٢]. وأقام بدار المملكة بأعلى البلد وطابت له الإقامة وعبث جنوده حتى شكاهم الناس وتندّر فى تباطئه الشعراء وقيل فيه:

عجبت لمدعى الآفاق ملكا — وغايته ببغداد الركود
ومن مستحلف بالهون يرضى — يذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيف بمصر — يقام له ببغداد الحدود

لذلك فقد أرسل إلى الخليفة كتابًا تضمن الدعاء له وأنه قصد الحضرة الشريفة للتبرك بمشاهدتها والمسير بعد ذلك إلى الحج وعمارة طريقه والانتقال إلى قتال أهل الشام وكل معاند[٣]. وأكد ذلك إلى رئيس الرؤساء ـ ابن المسلمة ـ

(١) عبد الرحمن قنينو الاربلى ـ خلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٥.

(٢) ابن الوردى ـ جـ١ ص ٢٥٤.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم ، حوادث سنة ٤٤٧هـ.

وزير الخليفة القائم وهو يستقبله ممثلاً دار الخلافة فقال: «ما وردت بغداد إلاّ ممثلاً للمراسم العالية ومتميزًا عن ملوك خراسان بالدنو من هذه الخدمة الشريفة ومنتقمًا من أعدائها وسائرًا إلى بلاد الشام لفتحها وإصلاح طريق الحج. فردّ عليه الوزير بعبارات الدعاء والموعظة وأوصاه خيرًا فى الملك الرحيم. ولكنه سرعان ما قبض عليه وقطع خطبته فى رمضان من هذه السنة»(١) ومكث فى بغداد ولم يغادرها إلاّ بعد عامين حين سمع بتمرد أخيه «إبراهيم ينال» الثائر عليه وعلى خلافة بنى العباس فى خراسان ولم ينته من القضاء عليه حتى طرقت مسامعه الأنباء بثورة «البساسيرى»(٢) وفتحه بغداد ودعوته للفاطميين بمصر فلم ينجز مهمته حتى قفل راجعًا نحو بغداد لإنقاذ الخليفة الذى استنجد به(٣).

وما أن تم له النصر على البساسيرى وعاد الخليفة إلى عرشه مع زوجته وولى عهده حتى أقيم له فى بغداد حفلة رائعة توّج فيها طغرلبك بتاجين يرمزان إلى السلطة على العرب والفرس وخلع عليه سبع حلل رمزًا للممالك الإسلامية السبع واعترف له الأمراء بالسلطنة فى المشرق والمغرب(٤) حتى لقّب بذلك من قبل الخليفة القائم سنة ٤٤٨هـ.

ومن هنا توطّدت العلاقة السياسية بين الخليفة والسلطان الجديد إذ أبدى له من الإخلاص والخضوع ما قرّبه إلى نفسه. وفى سبيل دعم هذه الصلة وربطها بوشائج قوية فقد طلب إلى الخليفة الموافقة على الزواج من ابنة أخيه «جغرى بك» وكان زواجًا رمزيًا إذ كانت تبلغ من العمر التسعين عامًا فقبلها الخليفة توثيقًا لأواصر الصداقة بين الأسرتين الحاكمتين.

ولعلّ نوازع الطموح التى كانت تراود السلطان الجديد بالاستيلاء والفتح منذ دخوله بغداد قد تمت واستقرت فى هذه الفترة بين سنتى ٤٥٢ و ٤٥٥هـ وكانت

(١) نفس المصدر.

(٢) انظر تفاصيل هذه الواقعة في ابن الجوزى ـ المنتظم حوادث سنة ٤٥١هـ ـ وابن ميسر جـ ٢ ص١١.

(٣) ابن الساعى ـ تاريخ الخلفاء ص ٩١.

(٤) ميرعلى ـ مختصر تاريخ العرب ص ٢٦٧.

مطامعه تتضاعف وتشتدّ كلما لمسَ ضعفًا فى الخلافة خلال هذه السنوات التى انتهت بوفاته. وكان من أهم وأقسى مظاهر الطمع والطموح أن طلب مصاهرة الخليفة والزواج من ابنته وهذا ما لم يجرأ به سلطان من قبل.

على أننا لا نستطيع الجزم بأنه كان طامعًا بالخلافة أو بقلبها إلى سلطنة حين دخل بغداد بعد ظفره بالبساسيرى منتصراً ولم يكن للخليفة شأن يذكر وكان بإمكانه أن يستبدّ بالأمر ويعلن إنشاء دولة جديدة على أساس سلطانى، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه - كما نظن - وجد فى شخصية الخليفة ومن أثر الخلافة فى نفوس الرعايا سندًا لتقوية سلطانه، وتشريع أوامره وأحكامه، وربما أحسّ فى أعماقه بضرورة نظام الخلافة وصلاحه، واعتقد بأحقية بنى العباس فيها دون سواهم من قريش وليس ذلك بغريب عليه، وهو السنّى المتحمس لدينه الجديد.

ومهما قيل عن فظاعة طغرلبك وجفوته فإنه - كما يبدو - كان رجلاً ذا فطنة وبُعْد نظر، وقدرة على اغتنام الفرصة، ولم يجهل الطريق السليم - كما قال عنه القرمانى - فقد عرف أن استقرار سلطانه منوط برضى الخليفة عنه وارتباطه به، فبادر لإرضائه وسعى لخدمته ولكنه لم يوفّق لذلك كما وفق فى قمع الفتن واخضاع الثائرين وتأسيس الدولة الجديدة. ومات عام ٤٥٥هـ عن دولة تمتد حدودها من خراسان شرقًا حتى حدود العراق وأرمينية غربًا، ولم يترك أثرًا حسنًا فى نفس الخليفة أو نفوس الناس، فقد أرغم الخليفة على مصاهرته والتزوج بابنته مما لم يسبق إليه عُرْفٌ من قبل، وقد ظلم الناس بفتح المجال لجنوده عند فتح كل مدينة، وأباح لهم ولنفسه «النزول فى دور الناس وارتكاب المحظورات»[١] ونهبهم الأهالى حتى كتب إليه الخليفة يلومه[٢].

---

(١) ابن الجوزى - التنظيم جـ ٨، حوادث سنة ٤٤٧ - ٤٤٨هـ - وابن الوردى ص ٢٩٩.

(٢) سبط بن الجوزى - مرآة الزمان ورقة ٥٤٧ جـ ١١.

ولا يفوتنا ونحن فى خاتمة الحديث عن طغرلبك ودهائه وظواهر نجاحه وعللها إلاّ أن نشير إلى التوجيهات والإرشادات التى كان يتلقاها من وزيره - أبو نصر الكندرى - وينتفع بها فى فتوحاته وبسط سلطانه فقد كان ذا رأى وعقل كما قال عنه القزوينى[1].

٤- أول وزير لآل سلجوق: عميد الملك الكندرى:

وربما كان سلاطين السلاجقة أشدّ حاجة من غيرهم للاستعانة بالوزراء ولاسيما الأوائل منهم، وذلك لأنهم لم يستطيعوا خلال تلك الفترة القصيرة - من ظهورهم فى الميدان السياسى أن يتعلموا ويتحضروا، وأنهم استولوا على أقاليم ذات مدنية ودراية فى الحكم قديمة، ولغات وعادات بالنسبة إليهم غريبة مجهولة، لذلك وجدوا من الضرورى الإفادة من خبرات الرجال الذين تسمح الظروف بمعرفتهم والاتصال بهم، وكان من أقرب هؤلاء إليهم مشاهير الفرس.

أمّا.. لماذا اختاروا وزراءهم من الأجانب عنهم ورضوا بهم... فيعزو أحد الباحثين ذلك إلى نزعة الاستبداد التى باعدت بين قلوب الرعايا وملوكهم من جهة والتى حملتهم فى نفس الوقت على استخدام الموظفين الأجانب عنهم[2]. نضيف ذلك الواعز إلى ما سبق: أن السلاجقة لم يقدروا أن يصطبغوا بلون آل سامان والغزنويين وينسجموا مع الشعوب التى حكموها لأنهم ظلوا حتى النهاية بعيدين عن كل ثقافة حتى كان السلطان - سنجر - لايعرف القراءة والكتابة، ولو أن أباه ملكشاه كان حائزاً على ثقافة أوسع منه[3].

وقبل المضى فى الحديث عن - الكندرى - أول وزير للسلاجقة يحسن بنا

(١) القزوينى - آثار البلاد وأخبار العباد - مادة كندر.

(٢) بارتولد - تركستان ص ٣٠٨.

(٣) المصدر السابق.

التمهل قليلاً عند القسم الأول من هذا الرأى لما له من صلة باختيار الوزراء ومنهم الكندرى غريم وزيرنا «النظام» ومنافسه.

إن نزعة الاستبداد ـ كما يخيّل إلينا ـ وحدها لاتكفى بأى حال من الأحوال أن تكون الدافع للالتجاء إلى الوزراء واختيار مستخدمى الدولة القائمة من غير أبنائها، ولعلّ الاستبداد مدعاة للتفرّد بالحكم والاستغناء عن كل وزير وبخاصة إذا كان الحاكم متمكنًا قديرًا.

وقد يكون من بسائط الدعاوى أن نذهب إلى أن من المبادئ الأولية فى سياسة الفاتحين اختيار نفر من أقليات البلاد المفتوحة يعتمد عليهم فى إدارة الحكم تحت إشرافهم وطوع إشارتهم، ومازالت هذه الطريقة متبعة حتى اليوم... ولانظن نهجًا سياسيًا بسيطًا كهذا يحتاج إلى ثقافة ودراية واسعتين وإنما تكفى فيهما الخبرة والممارسة لأمور السياسة، وليست هذه عسيرة على شخص كالسلطان ـ طغرلبك ـ الذى مارس الحروب وخبر أداتها منذ نعومة أظفاره، وليس اختياره لشخص كالكندرى بالشئ الصعب عليه وقد زكّاه له ـ الموفق هبة الدين النيسابورى[1] ـ فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى كاتب فصيح بالعربية.

أمّا القسم الثانى من رأى بارتولد فهو الذى جانب الصواب فى معظم ما أشار إليه إذ إننا لا نطمئن كل الاطمئنان إلى دعواه فى بُعْد سلاطين السلاجقة حتى عهد سنجر عن كل ثقافة، وبخاصة ألب أرسلان وملكشاه، لأن الترك بشكل عام قد تغيّروا بفضل اتصالهم بالعنصر العربى وحضارته. إلاّ أنها من نوع ثقافة الملوك، وهى ثقافة من لون خاص يختلف عما يتلقاه الدارسون فى الجوامع والمدارس ويتلقفه الباحثون من خزائن المكتبات ورفوف المخطوطات،

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ١٠ ص ١١، حوادث سنة ٤٥٥هـ.

هى لون ناعم رقيق فى معانيه خفيف جذّاب فى أسلوبه ومراميه، إلاّ ما يتصل بالدهاء والتدبير وهما أمران يهون فيهما الخطب ويقل فيهما الجهد والتعب.

وسلطان هذا شأنه مهما كان لون ثقافته لا يستطيع أن يدير بنفسه مملكة واسعة وأن يراقب وحده موظفى دولة شاسعة، لذلك كان ضروريًا أن يعهد الأمر إلى وزير وأن يمارس وزراء السلاجقة سلطة لا يضاهيها سلطة فى عهد آخر.

ومع أن السلاجقة حديثو عهد بالإسلام، ويقتضينا هذا تحمسّهم الشديد له كما ظهر على بعض أعمالهم، إلاّ أنهم لم يشترطوا فى وزرائهم مذهبًا معينًا، ولاسيما أوائل سلاطينهم، وإنما كان الذى يهمهم فى الوزير كفاءته العلمية وجدارته فى تصريف الأمور وقدرته لحل مشاكل الرعيّة ليتفرغوا إلى الفتح وهواياتهم فى الصيد والقنص ومجالس الشراب، فقد استوزر ـ طغرلبك ـ أبا نصر الكندرى على الرغم من تضارب الأقوال فى عقيدته، فمن قائل إنه معتزلى رافضى وآخر شيعى غالى[1] بينما كان سلطانه معتزليّا حنفيّا[2].

وهو مهما اختلفت الآراء فى نزعته فإنه ليس على عقيدة سلطانه السنّى المتحمس فى الأصول على الأقل، وكان يكفى ـ طغرلبك ـ أن يكون وزيره أديبًا شاعرًا، له فى كتابة الرسائل بالعربية طريقته فى الترسل محمودة، ومواقفه فى البلاغة مشهودة[3]، وأنه كان يجيد التحدث بثلاث لغات: التركية، والعجميّة، والعربية، فى الوقت الذى كان لا يعرف الخليفة ـ القائم ـ التركية، كما كان يجهل السلطان ـ طغرلبك ـ ما سوى التركية، وكان هو المترجم للكلام بينهما[4].

---

(١) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣١٧ «مادة نيسابور ومادة كندر».

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ٢٦٩، ٢٩٩.

(٣) الباخرزى ـ الدمية ص ٤٠.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم.

لقد شاع بين المؤرخين ـ أن عميد الملك ـ أول وزراء الدولة السلجوقية[1] ولكن بعض المصادر التاريخية تذكر أن طغرلبك قد استكتب قبله ـ أبا القاسم على ابن عبد الله الجوينى ـ حيث وزر له مدة.. «ثم نفض من الوزارة ذيله كل النفّض، ومال من كدها وتعبها إلى الدعة والخفض وقال فيها بمذهب الاعتزال والرفض»[2] والذى نظنه أنه كان قبل التوسّع ودخول بغداد وأنه لا يجيد العربية لذلك استعيض عنه بالكندرى.

وعلى الرغم من إلمام «الكندرى» بفروع الثقافة لذلك العصر وتذوقه لفنون الأدب ومهارته بأعمال الديوان وتحرير الكتب ونظم الشعر فقد كان تنقصه خصيصة ألصق بعمله من جميع ألوان المعرفة. هذه هى الحكمة السياسية التى لم يستطع بغيرها الصمود أمام خصمه وزيرنا «النظام» فقد صوّرت لنا سيرة حياته جوانب ضعف تزرى بالرجل السياسى أيّا كان منصبه فكيف به وزيراً يشار إليه بالبنان، وبيده تصاريف الدولة ومصاير الناس.

ولعل أولى الأحاديث التى لاكتها الألسنة حكاية ـ خصيه ـ التى تدل ـ إن صحّت ـ وهى لاريب صحيحة لتواتر الرواية وثقة الرواة لها، على تخاذله أمام شهواته وإغراء النساء له، كما يروى عنه أبيات رقيقة فى غلام تركى تشير إلى حبّه للغلمان، فقد أرسله طغرلبك ليخطب له امرأة فخطبها لنفسه وتزوجها. قيل إن السلطان لمّا ظفر به خصاه واستبقاه لاحتياجه إلى كفاءته وقيل إنه خصى نفسه ليرضى عنه سلطانه ويطمئن إليه حتى قال فيه الباخرزى[3]:

قالوا محا السلطان عنه بضربه ... سمة الفحول وكان قرما صائلا

---

(١) هو أبو نصر منصور بن محمد الكندرى، وقيل محمد بن منصور نسبة إلى كندر قرية قريبة من قزوين، وقيل إلى بيع الكندر. وقد حصّل على لقب «سيد الوزراء» مضافاً إلى عميد الملك من الخليفة القائم. قبض عليه فى ١٧ من محرم سنة ٤٥٥هـ وصودرت أمواله وحددت أعماله واعتقل فى مرو الروذ حتى قتل فى ١٦ من ذى الحجة سنة ٤٥٦هـ ورثاه الباخرزى بأبيات ومدحه من الشعراء الحسن بن على الواسطى، وترجمه كثيرون منهم ابن تغر بردى فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٦.

(٢) الباخرزى ـ الدمية ص ٢٣٨.

(٣) نفس المصدر ص ٨١ ـ وفي ابن الأثير ـ الكامل «تعزة» جـ ١٠ ص ١٣.

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن الثقة به قد تزلزلت، كما أن فعلته قد نمّت عن سوء نيته وخبث طويته. وثانى ما أوثر عنه حول سياسته الفاشلة وقصر نظره بفنون الحرب ما ذكرته المصادر التاريخية فى أحداث سنة ٤٥٠هـ فإنه حينما انتشر الخبر بأن «إبراهيم ينال» استظهر على أخيه طغرلبك وحصره فى همدان عزمت «خاتون» وابنها أنو شروان والكندرى السير ببقية الجند لانجاده فاضطرب أمر بغداد، وبطل عزم الكندرى فهمّت «خاتون» بالقبض عليه وعلى ابنها ففرّا إلى الجانب الغربى وقطعا الجسر وراءهما وخرجا إلى الأهوار، ونفذت خاتون بما انضوى إليها من العسكر إلى همدان[1]. ولهذا لم يبق فى بغداد لتهدئة أحوالها، ولم يذهب إلى همدان لمساعدة السلطان وإنما هرب من وجه «خاتون» إلى بلد آخر ليطمئن على حياته.

وثالث ما سجلته النصوص من سوء تدبيره، تعصبه الشديد لمذهبه وبغضه لأبناء الطوائف الأخرى حتى أشيع عنه أنه كثير الوقيعة فى الشوافع، وبلغ من تعصبه أن خاطب السلطان فى لعن الرافضة وقيل المبتدعة على منابر خراسان فأذن له فى ذلك، وأضاف إليهم الأشعرية[2] مما أثار عليه حفيظة أعدائه وسخط العلماء والعامة من الشوافع؛ فهجر خراسان أئمتها كالقشيرى والجوينى وغيرهما إلى مكة ومكثوا فيها أربع سنوات إلى أن جاء «النظام» إلى الوزارة فأعادهم إلى أوطانهم مكرّمين محترمين.

ورابع أخطائه السياسية ضغطه الشديد على الخليفة القائم للموافقة على زواج ابنته ـ السيدة ـ من السلطان طغرلبك وسفرها معه إلى الرى خلافًا لرغبة والدها الخليفة.. وهذا مما لم يجر به تقليد قبل ذلك ولم يجرأ بمفاتحة الحديث به جميع الملوك، لذلك اعتبرته الدار الخليفية امتهانًا لكرامتها وهدرًا لعزتها،

---

(١) ابن الجوزى – المنتظم، حوادث سنة ٤٥٠هـ ـ والسبكى جـ ٣ ص ٢٩٢.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ١٠ ص ١٠-١١.

وبقيت دار الخلافة تماطل فى تنفيذه شهوراً وتختلق لتسويفه وإبطاله المعاذير وأوشك أن لا يتم لولا إصرار الوزير وتهديده ووعيده حتى بات فى الديوان إرضاءً لسلطانه الذى قدر له نجاحه في المهمة وأغدق عليه فى الهدايا وزاد فى ألقابه بعد زفاف بنت الخليفة إلى قصره[1].

وخامس فعاله التى تؤكد قصر نظره وضعف شخصيته وتفكيره، أخذه البيعة من الجند لسليمان بن داود فى الرى تاركًا أخاه الأكبر ـ ألب أرسلان ـ مع علمه بميل الجيش وأكثر الأمراء إليه وأنه أكثر مرانًا وخبرة بشئون الحرب والحكم، وأرسل إليه خطابين أحدهما بخطه يهدده فيه، فصارا فيما بعد مستنداً عليه ومبرراً لنفيه وقتله[2].

لقد كان من حق الكندرى أن يخشى غريمه ـ النظام ـ وكان حينذاك كاتم سر الابن الأكبر ـ جغرى بك داود ـ والمقّدم عنده فى كل الأمور، ولما وثق بصحة هواجسه، وأن منصبه يهدد بالخطر لا محالة إذا تم الأمر ـ لألب أرسلان ـ دعا لأخيه الأصغر ـ سليمان ـ ولكن جهوده باءت بالفشل فلم تمر فترة قصيرة تخللتها مناوشات يسيرة حتى دخل ـ ألب أرسلان ـ الرى منتصراً، ولم يمر على دخوله شهر واحد وهدأت الأحوال حتى عزله، ونفاه إلى مرو الروذ، ولم ينته عام ٤٥٦هـ حتى أمر بقتله.

وقد اختلفوا فى كيفية مقتله، ومن هو قاتله؟ مثلما اختلفوا فى عقيدته وما هو مذهبه؟.. فقالوا عنه: كان معتزليّا رافضيّا[3]، وقالوا: كان شيعيّا غاليّا متعصبًا[4] وقالوا: كان شديد التعصب على الشافعية كثير الوقيعة بهم[5] ولعل نسبة التشيّع

---

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨ ص ٢٣٠-٢٣١، حوادث سنة ٤٥٥هـ.

(٢) انظر ص ٢٤٩ من البحث.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ٢٩٩.

(٤) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣١٧ مادة نيسابور ومادة كندر.

(٥) ابن الأثير ـ الكامل جـ١٠ ص ١١، حوادث سنة ٤٥٦هـ.

إليه إنما لحقته بسبب حمايته لأهل الكرخ ودفاعه عنهم[(١)] خلافًا لابن المسلمة وزير الخليفة. ولم تكن رعايته لهمْ من ميل لمذهبهم وإلاّ لما طلب إلى السلطان بعد قليل بلعن الرافضة، وهو بنظر العلماء يومذاك منهم، ولناصر البويهيين.. ولما سعى فى القضاء عليهم وإنما كان مردّ ذلك لأنهم حموا أفراد الجيش السلجوقى حينما دخل بغداد للامتيار وعلى رأسه طغرلبك بينما رجموهم فى باب الأزج وغيرها من محال بغداد فأمر السلطان بالإحسان إليهم[(٢)].

وهكذا قالوا فى مقتله، فحكوا أن السلطان أنفذ إليه ثلاثة غلمان لقتله بعد أن قيل له إنه غير مأمون فى بقائه[(٣)] ورووا إنه أنفذ إليه غلامين بعد أن خوّفوا السلطان من غائلة مسير أكثر الناس وراءه[(٤)] أو أكثر العسكر نحوه وأشير على السلطان بتسفيره[(٥)]. وقيل أرسل إليه السلطان غلامًا تركيًا فقتله، وكان مما يقال إن «للنظام» يدًا فى إثارة السلطان عليه والخلاص منه.. وذكروا أنه قال لجلاده ساعة قتله: «قل للوزير نظام الملك: بئس ما فعلت، علمّت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر مهواة وقع فيها ومن سنّ سنّة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[(٦)].

لقد كان «النظام» موضع ريب، وتهمته فى كل ذلك.. أنه هو الذى سعى للسلطان بالقبض عليه وإبعاده[(٧)] وأنه هو الذى دفع الحاشية على أن يشيروا بحبسه فى «مرو الروذ» وقتله[(٨)]... وكثيرًا ما تلقي الأقدار بالإنسان فى مواضع

---

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ١٧١، حوادث سنة ٤٤٨هـ.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٩ ص ٢٥٥، حوادث سنة ٤٤٨هـ.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٥-٢٣٦، حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص١١.

(٥) سبط بن الجوزى، حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٦) المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٨ حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٧) ابن أبى الفوارس أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٦ط لاهور.

(٨) ابن الوردى، حوادث سنة ٤٥٦هـ.

الريب والشكوك وتحيطه بأمارات الجريمة وهو برئ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ـ كما يقولون ـ وقد يكون فيما وصموا به «النظام» حقّا وأن له فى بعض ذلك يدا، ولكن المناقشة الحامية الحارّة التى دارت بين السلطان ـ ألب أرسلان ـ والكندرى قبيل إلقاء القبض عليه تدلنا على مقدار سوء ظنه به وأن عرضه للرسالة التى بعثها إليه مهدداً له إن جاء إلى الرى والمقام بنيسابور والتصريح له بالمحاربة ثم تقديمه له الكتاب الذى بخطه وهو يرعد فيه ويبرق،[1] مما ينبئنا بمدى غضب السلطان عليه وأنه كان يضمر له البغضاء إلى حين سنوح الفرصة لينتقم منه بسبب خطبته لأخيه سليمان وإلاّ لما احتفظ بتلك الرسائل لمثل هذه الساعة الحاسمة، حتى قيل إنها كانت سبباً لمنيته[2].

ومن جهة أخرى فإننا نجد «النظام» بعد مقابلة الكندرى له ورجائه أن يخاطب السلطان فيه، كان قد وعده بما طيّب به قلبه[3]. كما نجد تصريحًا له قاله خلال حوار جرى بينه وبين الباخرزى زميل صباه فى مجلس الإمام «الموفق النيسابورى»[4] وهو يزوره فى السجن بنيسابور، قال وهو يثنى على الصاحب بآلائه وسمّاه بأحسن أسمائه: «حقق أملى واستلب حياتى من يدَىْ أجلى»[5]. أمّا ما حكوه عنه: أنه فاه به للجلاّد قبيل تنفيذ الحكم عليه فإنه ـ على فرض صحته ـ إنما كان فى ساعة قلق نفسى واضطراب عصبى لا يدركهما إلاّ من يبتلى بهما ساعة تنفيذ الحكم بالإعدام فيه فكان من المتوقع أن ينطق بما يتهم به «النظام» وهو وزير السلطان، الأثير عنده، السميع لتوجيهاته ونصائحه.

ونحن لا نريد بدفاعنا هذا تبرئة «النظام» من جميع ما افترضه المؤرخون

---

(١) سبط ابن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ١٠٣-١٠٥.

(٢) سبط بن الجوزى ـ المصدر السابق، حوادث سنة ٤٥٥ ورقة ٩٤.

(٣) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٤) ابن أبى الفوارس ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٣.

(٥) الباخرزى ـ الدمية ص ١٤٤.

فليس هو بنظرنا، سوى رجل سياسى يحمل بين جنبيه ما يختلج فى نفوس أمثاله من الوزراء، ولكننا نرجح أنه لم يشر على سلطانه بالكف عن التفكير بقتله على الأكثر، حيث لم نعثر على الأدلة الكافية بإدانته أو نقرأ نصًا يصرح بأنه أمر أو أشار على سلطانه بذلك مباشرة.

وليس بمستبعد أيضًا أن يثير «النظام» حول منافسه غبار الشكوك والتهم وأن يشير على سلطانه صراحة أو من طرف خفىّ بقتل الوزير السجين بعد أن حامت حول تصرفاته فى المنفى الشُبه لاتصاله بكبار الجنود[1] حتى أنه شكا أمره لزوجة السلطان ـ خاتون ـ بنيسابور أثناء مروره إلى المنفى وتوسّل إليها فتوسطت إلى السلطان بذلك فلم تجد رسالتها قبولاً[2].

وإذا ما وجهنا النظر إلى سيرة غريمه ـ نظام الملك ـ فإننا نجد فيها صفحات متماثلة، كما نجده قد وقف عند أحداث متشابهة موقف الحازم البصير فقد وصل إليه رسول الخليفة يطلب إليه يد ابنة السلطان فأخذه بعد أن حيّاه وهيأ له الجو إلى زوجته تركان خاتون ليستدرج رأيها، ثم سار به إلى زوجها السلطان ليستطلع فكره. . . ونجح فى الوساطتين دون تشديد على أحد الطرفين وأثبت بذلك مقدرة دبلوماسية قلّ نظيرها فى وزراء تلك العصور.

وكان موقف النظام خيرًا من سابقه كذلك، بل موقف السياسى المحنك، فلم يجيئ إلى الوزارة حتى راسل السيدة ـ بنت السلطان ـ بالإذن لها فى المسير إلى بغداد وقيل لها إن سبب تعويقها كان من عميد الملك، وقد قبض عليه لما فعله فى حقك ونقلك، وبعث إليها خمسة آلاف دينار، وسيّر فى خدمتها جماعة من الأعيان إلى بغداد وعلى رأسهم «أبا سهل محمد بن هبة اللّه الموفق»[3].

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم.

(٣) سبط ابن الجوزى ـ مرآة الزمان، حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٩٥، ٩٦.

ثمّ أعاد النازحين من العلماء إلى ديارهم معززين وأوصلهم إلى أهليهم منعّمين، وجلبهم إلى حضرته، وجعل منهم دعاة إلى أهدافه ومقاصده ولم يظهر عليه تعصب مذهبى أو تحيّز طائفى. . . وإنما كان يزور ويزار من قبل رجال الفرق المختلفة ويجتمع فى مجلسه عظام الطوائف حتى المعتزلة والشيعة والمتصوفة.

فمن هو ذلك السياسى الخبير الذى شيّد للسلاجقة صروح دولة تفوق كل دولة فى ذلك الزمان[1] ومن هو ذلك الوزير الخطير الذى ساد بلباقته ودهائه على مملكة امتدت حدودها من كاشغر فى بلاد ما وراء النهر إلى بيت المقدس طولاً ومن قرب القسطنطينية إلى بحر الهند عرضًا، وكان فيها هو الآمر المتصرف[2] باسم الخليفة والسلطان معًا زهاء ثلاثين عامًا، وهذا ما لم يحدث فى تاريخ الوزراء من قبل وحتى اليوم؟.

* * *

(١) ابن طباطبا - الفخرى فى الآداب السلطانية.

(٢) السبكى ـ طبقات الشافعية جـ ٣ ص ١٢٩، والذهبى ـ دول الإسلام جـ ٢ ص ٩-١٠.

■ الباب الثالث ■

«نظام الملك» وزير السلاجقة الأوائل

تكوين شخصيته وصلاته:

تمهيد: *المنطقة التى تربى وعاش فيها.*

الفصل الأول: *ميلاده، أسطورة تسميته، نسبه ونسبته.*
مراحل دراسته، ألوان ثقافته، مجلسه وفن المناظرة، عقيدته الدينية، نفسيته وخلقه.

الفصل الثانى: *استيزاره ومراسيم وزارته، علاقة السلاطين السلاجقة بالخلفاء ومدى علاقة «النظام» بهم، موقفه من الألقاب.*

الفصل الثالث: *قصة الثالوت مع زميليه ـ عمر الخيّام والحسن بن الصبّاح ـ وأسباب الخلاف بينهما. رسالة تاريخية مهمّة بين الصبّاح والسلطان ملكشاه.*

تمهيـــد: (المنطقة التي تربّى وعاش فيها «نظام الملك»):

تلك هى خلاصة الظواهر المادية والعقلية لنواحى الحياة الاجتماعية فى عصر وزيرنا «النظام» ومن غير شك أنها ستلقى على نفوس أحيائه الكبيرة أعباء تنوء تحتها أجسامهم وأثقالاً ترزح لها أعناقهم[1].. وبقى علينا أن نتحدث عن البيئة الضيقة التى كان يحيا فيها ويعيش فوق أرضها ويتنقل بين ربوعها وأنحائهاالقريبة والنائية مادامت مركزًا للعلم والتعلم.

ومهما قيل عن تفاعل الإنسان والبيئة واختلف فى مداه فإنه لا يوجد بين الدارسين من يذهب إلى عدم تأثر الإنسان فى بيئته، بل نجد من يغالى فى هذا التأثير حتى ليجعله وليدها ونتاج ما يحيط به من ظواهرها.. متجاهلاً ما في الإنسان من طاقات واعية تتفاعل مع قوى الطبيعة العمياء حتى ليسخرها أحيانًا بل غالبًا، وبخاصة ما نشهده من صنع عظماء العصور سواءٌ أكانوا فى العلوم أم الفنون أم السياسة، فإنهم ـ ولاريب ـ طائفة تمردت على البيئة ونظم العيش فيها، وأملوا على الناس فى ثقة وإيمان ما امتلأت به عقولهم وأفئدتهم من آمال وأهداف إلى أن استجابت لهواتفهم نفوس الخلق ولانت لمطالبهم ظروف الحياة.. لأن سيرة هؤلاء ـ كما نقرؤها ـ كتاب حافل بالمفاجآت، زاخر بالمغامرات، يفيض على المجتمع من تعاليمه وتوجيهاته أضعاف ما يأخذ منه، ويؤثر على سير أهله أمثال ما يتأثر به.

ومهما أجيز لنا القول بذلك الوجود الذى له مسوّغاته وشواهد إثباته بالنسبة

---

(١) كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعِبَتْ فى مرامها الأجسام

لتلك الفئة التى لا تجود بها الطبيعة إلاّ نادرًا، فإنه ـ ولاشك ـ لا يصحّ تناسى ما للبيئة من تأثير على الأحياء بشكل عام يختلف باختلاف مداركهم وسعة وعمق ثقافتهم.

لذلك رأينا من الضرورى أن نستكمل ما أسلفنا من نواحى الحياة بإلمامة قصيرة عن البيئة الضيّقة التى عاش فيها «النظام» والأحوال الطبيعية التى عرفت بها؛ لاعتقادنا بأن هذه الناحية ـ أيضًا ـ لاتقل أثرًا عن سابقتها فى مقوّمات شخصيته، وظواهر سلوكه وانفعالاته.

قليلات هى القصبات اللواتى أنجبت من الرجال أبطالاً، وأسهمت فى بناء صروح شامخة لدول جديدة.. وأقل منها حواضر عرفت أشخاصًا شاركوا فى تاريخ الفكر الإنسانى وحضارته فاشتهرت بهم مثلما اشتهروا بها.. ومن تلك، وهذه.. قصبة خراسان ـ وبمنزلة القلب منها مدينة ـ طوس ـ كما كانت نيسابور ـ تمثل رأسها المفكر وعقلها المدبّر.. ففى «طوس» ولد «نظام الملك» الوزير السلجوقى، وفى «نيسابور» حاضرة هذا الاقليم الواسع تلقى العلم على يد ـ الإمام الموفق هبة الله النيسابورى، وإلى ـ بلخ ـ من بلاد ما وراء النهر رحل فى طلب المزيد منه.. فكان لزامًا علينا أن نلمّ بأطراف الحديث عن هذه المدن الثلاث ليس لأنها منبت «النظام» ومغناه الذى درج فيه وشبّ حتى استشهد فحسب، وإنما لأنها من المراكز الحضارية التى كانت تنافس بغداد ودمشق والقاهرة فى مدارسها وعلمائها وأدبائها أيضًا.

لقد رسمت الطبيعة بقلمها خطًا فاصلاً بين إقليم خراسان وبلاد الهياطلة ذلك هو نهر «جيحون» ولكنّها فرضت عليهما جوًا متشابهًا فى أمطاره ورياحه ومناخًا متقاربًا فى درجة حرارته ورطوبته، فجاء أهلها ذوى بأس وقوة، وهم مع ذلك أحسن طاعة لكبرائهم وألطف خدمة لعظمائهم[1]، كأنهم أبناء بلد واحدة على الرغم من الحد الطبيعى بينهما.

وكانت «بخارى» و «بلخ» فى الضفة الشرقية لهذا النهر بمنزلة «نيسابور»

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة ما وراء النهر، ومادة خراسان.

و«طوس» من إقليم «خراسان» الواقعة غربيه، وقد وصف «ابن الفقيه» مناخ هذا الإقليم فقال: «خراسان طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة التربة، عذبة الثمرة وأهلها فى إحكام الصنعة وتمام الخلقة وطول القامة وحسن الوجوه، وسكّانه أهل نجابة وحكم وعلم وفقه»[١]..

لقد كان إقليم خراسان حتى مستهل القرن الخامس الهجرى من أكبر الولايات التابعة للخلافة العباسية رقعة، وأكثرها لخزانة الدولة موردًا[٢].. فقد ضم إليها ـ البلاذرى ـ بلاد ما وراء النهر[٣] التى تقع فى الشمال الشرقى منها، وجعل حدودها صحراء الصين وجبال البامير وهندوكش.. غير أن ـ ياقوت ـ أخرج منها هذا القسم وعلّل لوجود هذا الاختلاف الذى وقع فيه ـ البلاذرى ـ بدخولهما تحت إمارة واحدة[٤].

ولعلّ سعة هذا الإقليم من العوامل التى دفعت بالحكام إلى تقسيمه إلى أربعة أقسام.. كانت ـ نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ ـ هى حواضر تلك الأرباع بصورة منفردة أو مجتمعة فى فترات مختلفة[٥].. ثم يضيف «السبكى» إلى ما ذكره نحو المدائن الأربعة لخراسان قوله: «هذه مدنها العظام، ولا ملام عليك لو قلت بل هى مدن الإسلام، إذ كانت دار العلم على اختلاف فنونه والملك والوزارة على عظمتها إذ ذاك»[٦].

---

(١) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص ٣١٦.

(٢) حتى قيل: إن دخل هذا الإقليم بلغ ٣٧ مليون درهم (دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص٢٨٣.. عن ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان).

(٣) وهو جيحون ـ وما كان فى شرقيه يقال له بلاد ـ الهياطلة ـ وما كان فى غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم، ومن حدود خوارزم إلى اسبيجاب فهم الترك الغزية. والسلاجقة ـ كما هو معروف لدى المؤرخين ـ من هؤلاء الغز. (معجم البلدان ـ مادة ما وراء النهر).

(٤) ياقوت معجم البلدان ـ مادة خراسان جـ ٣ ص ٤١٣.

(٥) لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢٤.

(٦) السبكى ـ الطبقات جـ ١ ص ١٧٣ ـ مادة نيسابور.

وكان لنيسابور النصيب الأوفر من الاهتمام والشهرة السياسية فضلاً عن العلمية، نظرًا لموقعها الجغرافى الحصين، ومركزها التجارى الخطير.. حتى وصفها ياقوت بأنها: «دهليز المشرق ولابد للقوافل من ورودها»[1].. وقال عنها السبكى: «بأنها لم يكن بعد - بغداد - مثلها، وقد عمل لها - الحافظ أبـو عبد الله الحاكم - تاريخًا تخضع له جهابذة الحفّاظ وهو عندى سيد التواريخ»[2].

وقد حافظت على مكانتها منذ الفتح الإسلامى لها عام ٣١هـ، حيث اتخذ منها بعض الخلفاء الأمويين، والعباسيين موطنًا لضرب النقود كما اتخذها الأمراء الطاهريون عاصمة للإقليم خلال حكمهم ويعتبر - عبد الله بن طاهر - المنظّم الأول لبلاد خراسان[3] ومنها نيسابور طبعًا.

ونيسابور - كما وصفها «ابن حوقل» - «بأنها ليس فى جميع قراها مدينة أصحّ منها هواء وأفسح فضاء وأكثر عمارة، وتجّارها أهل ثراء وتؤمها السابلة والقوافل كل يوم ويرتفع منها من أصناف ثياب القطن والإبريسم ما ينقل إلى سائر البلدان»[4].

وعلى بضعة أميال شرق نيسابور تقع «طوس» وقد قدّرها كتّاب البلدان والمسالك بنحو عشرة فراسخ[5].. وكانت تشمل بلدتين تسمى الأولى الطابران والثانية نوقان، يتبعهما أكثر من ألف قرية[6]. ومن أكبر هذه القرى - راذكان - التى سنشير إليها وإلى نوقان - بصفة خاصة فى الفصل القابل.

---

(١) المعجم - مادة نيسابور.

(٢) السبكى - الطبقات - مادة نيسابور.

(٣) بارتولد - عن اليعقوبى جـ ١١ ص ٥٨٦.

(٤) هكذا ذكر ابن حوقل ص ٣١٠-٣١٢، وأيده المقدسى أيضا ص ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٩.

(٥) معجم البلدان - مادة طوس - مراصد الاطلاع جـ ٧ ص ٢١٥.

(٦) من المراجع ابن السمعانى فى أنسابه ورقة ٣٧٣، وابن الأثير فى اللباب فى تهذيب الأنساب جـ ٢ ص ٩٢.

والذى تدلّنا عليه النقول أن طوس، كانت المدينة الثانية فى ربع نيسابور[١] وظلت تنمو وتنافس نيسابور خلال القرن الرابع الهجرى.. وبلغت الأوجّ فى منزلتها السياسية والعلمية فى القرن الخامس واستمرت فى نموها إلى أن غزاها جيش المغول فخرّب عمارتها وأفنى ساكنيها فى بداية المائة السادسة حتى لم يبق فيها جداراً قائماً كما ذكر ياقوت سنة ٦١٧هـ[٢].

وقد أنجبت هذه المدينة من العلماء والشعراء والوزراء عدداً كبيراً عبّر عنه ياقوت ـ بأنه لا يحصى.. مبالغة فى كثرة الأئمة من الفقهاء المنسوبين إليها وفى مقدمة ذلك العدد الوفير: أبو حامد الغزالى، وأبو القاسم الحسن الفردوسى المتوفى سنة ٤١١هـ، وأبو على نظام الملك، الذين جمعهم الشاعر الفارسى فى هذا البيت[٣]:

هر وزير ومنشى وشاعر كى طوسى بُوَدْ جون نظام الملك وغزّالى وفردوسى بُودُ

وربما كان ضريح الإمام ـ على بن موسى الرضا ـ سابع الأئمة عند الشيعة، الإمامية الاثنى عشرية أقوى حافز لتجمّع الشيعة من العرب والفرس فى هذا الموضع المقدّس وتعاونهم على إعادة عمرانه بشكل أفخم مما كان عليه قبل تخريب المغول السالف الذكر له.

* * *

(١) لسترنج ـ بلدان الخلافة ص ٤٣٠.

(٢) ياقوت ـ المعجم ـ مادة طوس.

(٣) شمس الدين محمد بن قيس الرازى. المعجم فى معايير أشعار العجم ص ٣٢٩.

● الفصل الأول

تكوين شخصية «نظام الملك» الوزير

- ميلاده ، ونسبته ، وأسطورة تسميته.
- نشأته وتعلمه، و بدء صلته بالصوفية.
- ألوان ثقافته ومنابعها ، ومراحلها
- مجلس «نظام الملك» والعلماء والشعراء والمتناظرون والصوفيّون من روّاده.
- عقيدته الدينيّة ، نفسيته وخُلُقه.

ميلاد «نظام الملك» ونسبه ونسبته:

والذى نتوخاه من حياة «النظام» ناحيتها الدائبة، ناحية نشاطه فى سبيل مجتمع أفضل، كما يعتقد هو، ويعتقد الناس آنذاك.. وقد حاولت تلمس هذا الجانب من سيرته وتصويره قدر المستطاع، إذ سجل التاريخ له فى هذا المجال صفحة خالدة كتبها بمداد من سعيه المتواصل لنشر العلم ومبادئ الإسلام، وبثّ روح الإيمان بالله واليوم الآخر فى نفوس الحاكمين والمحكومين ليشيع العدل، وتعمّ المساواة بين أفراد المجتمع.

وقد نهج لذلك سياسة أصبحت واضحة المعالم بيّنة الحدود بعد دراستنا له، وسيبقى هدفنا الذى نبتغى الوصول إليه والكشف عنه، لذا لا نعرض لترجمته الرتيبة الزمنية إلاّ بمقدار ما لها من علاقة فى حياته السياسية أو بما ستلقيه من ضوء على غامض جوانبها أو لبيان حادث وقع له ذى صلة بها.

والمرء إذا ما عُرف وذاع صيته وهو لمّا يزل حيّا يرزق.. كان الاختلاف فى نسبه ونسبته وتاريخ ميلاده ونشأته ومماته قليلاً وقد ينعدم فى بعضها عادة، ولكن أقلام النسّاخ التى شطح بها الجهل أحيانًا والتعصب المذهبى أخرى وضعف الوازع لتتبع الأحداث قبل الحكم عليها فضلاً عن صعوبة المواصلات وغلاء أدوات النسخ والنقل، كل تلك العوامل لم تبق سيرة أو حادثة خالية من نقص أو تشويه يحتاج إلى بحث وتحقيق فى ضوء منهج علمى دقيق لتدوينها قريبة من الحقيقة إن لم تكن هى ذاتها.

وما كنّا نظن لأول وهلة أن سيرة كسيرة «النظام» على شهرته وكثرة الكاتبين عنه في حياته وبعد وفاته، وقد غمرت الخافقين سمعته، يشوب الاضطراب بعض جوانبها ويتطرق الجهل إلى شيء من أجزائها فيصل الخلاف إلى سنيّ ميلاده كما يشمل سلسلة نسبه ومهبط رأسه.

فقد قيل: إنه ولد يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة من سنة ٤٠٨هـ (١٠ أبريل سنة ١٠١٨م) وهو الذى تناقله معظم المؤرخين وخاصة العرب منهم.. وهناك من قال: إنه ولد سنة ٤١٠هـ[١].

وقيل في اسمه: إنه الحسن بن على... وعليه جلّ كتّاب السير كما قيل: إنه الحسين بن على[٢]. وحكى فى نسبه: أنه الحسن بن على بن إسحق الطوسى وهو رأى الأكثرين[٣]، وروى: أنه الحسن بن على بن إسحق بن العباس الطوسى[٤].. ونقل فى الوصايا أنه من ناحية الوالد: الحسن بن على ابن أحمد بن إسحق الطوسى[٥]. ومن ناحية الوالدة فإن أمه - زمرّد خاتون - من آل حميد الدين الطوسى الذين كان أكثرهم وزراء فى دولة خلفاء دار الإسلام[٦].

وذكروا مثل هذا وذاك فى نسبته.. فقالوا: هو الحسن بن على الطوسى تارة

(١) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٧٦.

(٢) اليافعى - مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٥.

(٣) الذهبى - دول الإسلام جـ ٢، وابن الأثير - الكامل جـ١ ص ٨٤ - ٨٦، والمقدسى - الروضتين جـ ١ ص ٢٥، وابن خلدون - العبر جـ ٥ ص١٣، وأبو الفداء - تاريخه جـ٢ ص ٢١٢، وأبو الفوارس الحسينى - أخباره ص ٦٦.

(٤) وقيل الحسن بن إسحق العباسى (ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٦).

(٥) وقيل الحسن بن إسحق الطوسى (ابن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١) وابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٦٤ - ٦٨ - حوادث سنة ٤٨٥هـ، وابن خلكان - الوفيات جـ ١ ص ٣٩٥ - حوادث نفس العام، والسبكى جـ٣ ص ١٣٥، والخونسارى - الرضا جـ ١ ص ٣٢٢.

(٦) الوصايا ص ٦.

والراذكانى أخرى[1] والنوقانى ثالثة[2].. ومنهم من نسبه إلى مهنة والده الأولى فقال عنه «الدهقانى».. وفى نسبته المكانية هذه ما يشير إلى الاختلاف فى موضع ولادته.. والذى نرجحه من تلك الأقوال أن ميلاده كان عام ٤٠٨هـ وأنه أبو على الحسن بن على بن إسحق الطوسى سواء أكان من قرية «راذكان» أو «نوقان» لأنهما من قرى طوس، وكما هو مشهور عند جمهور الباحثين وتؤيّده وقائع سيرته.

أسطورة تسميته:

وقد مهّد جامع «الوصايا» فى مقدمته لأسطورة تسميته «النظام» بخرافة لعلّها من نسج الخيال أو من غريب المصادفات.. فقد حكى أنه فى يوم ميلاد «النظام» سقط المطر على «طوس» بغزارة بعد انقطاع دام أربع سنوات فتفاءل الخلق بمولده[3].

وبعد مرور يومين على ميلاده رأت والدته فيما يرى النائم سيدة ذات مهابة وجلال تجلس على كرسى وبجانبها مصحف وتحتضن طفلاً، ولما سألت عنها قيل لها: إنها فاطمة الزهراء، فسلمت عليها وابتعدت عنها احترامًا لها وما أن رأتها من الصالحات حتى أذنت لها وأخذت ابنها وأرضعته مستفسرة عن اسمه وما أن عرفت أنه لم يسمّ بعد وأن اسم والده «على حسن» حتى قالت سمّيه «حسنا» كولدى لأن له أبًا اسمه على[4].. وفى الصباح قصّت رؤياها على أبيه وأطلقت على مولودها ذلك الاسم.

وقد نقلت المصادر التاريخية رؤيا أخرى مثلها وإن اختلفت عنها من بعض

(١) قرية صغيرة بنواحى طوس قيل إن «النظام» كان قد ولد فيها (السمعانى ـ الأنساب ـ ورقة ٢٤٢).

(٢) إحدى قصبتى طوس وقيل بليدة خرج منها جماعة من أهل العلم (ياقوت ـ المعجم جـ٢ ص ٧٣٠) وابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٥.

(٣) الوصايا ص ٦.

(٤) الوصايا ص ٦، ٧.

الوجوه.. وليست من أجل التسمية وإنما فى سبيل التعلم.. فقد حكوا فى سيرة «الشريف المرتضى» المتوفى سنة ٤٣٦هـ أن الشيخ المفيد رأى فى حلمه فاطمة الزهراء داخلةً عليه وهو فى مسجده بالكرخ ومعها ولداها - الحسن والحسين - فأسلمتهما إليه وقالت علمهما الفقه.. فانتبه الشيخ عجبًا، فلمّا تعالى النهار صبيحة تلك الليلة دخلت عليه «فاطمة بنت الناصر»، وحولها جواريها وبين يديها ابناها «على المرتضى ومحمد الرضى» صغيرين فقام إليهما وسلّم عليهما فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداى قد أحضرتهما إليك لتعلّمهما الفقه فبكى وقصّ عليها الرؤيا»[1].

وسواء صحّت رؤيا الأم فى تسمية مولودها وصدقت المصادفات فى نزول الأمطار يوم ولادته، وتواردت الأحلام على شاكلة واحدة لتسلط النزعات الدينية على مشاعر الناس، وتقديسهم لائمتها.. فقد دعته «بالحسن» تيمنًا باسم الحسن بن على رابع الخلفاء الراشدين، وتنبأت له بمستقبل باهر كما تتنبأ أمهات العظماء لأبنائهن، وترويه كتب السِيَر.. بعد شهرتهم، ووفاتهم. وقد هيأت الظروف للمولود الجديد أسباب إعداده لمستقبل حافل بالنشاط، جمّ الخير والبركة لتصحّ النبوءة وتصدق الرؤيا والمصادفات.

وسرعان ما اختطفت الأقدار والدته وتركت الرضيع إلى والده وهو بعد لم يبلغ سن الفطام، ليتعهد تربيته، ويرعى تنشئته، فاندفع بحنان الآباء يطرق أبواب المنجبات ليجُدْن عليه برضعة وحنّت عليه المرضعات بالمناوبة فيرضعنه حسبة[2] ولقى الأب من جرّاء ذلك المضضّ والإجهاد.. لذلك لم ينشأ الطفل نشأة رتيبة، كما ينشأ الأطفال مثله، ولم يترعرع بين أحضان أمه الحنون ويهنأ بعطفها ورعايتها..

ولئن كنّا لا نعرف عنه كيف قضى سنىّ طفولته فالذى يغلب على الظن أنه عاش فى معزل عن الصغار فى مثل سنّه وأنه كان يخشى أن يزاملهم ويلعب

(١) عبد الرازق محيى الدين - أدب المرتضى ص ٢٧ عن ابن أبى الحديد جـ ١ ص ١٤، وروضات الجنات جـ٢ ص ٣٨٣، رسالته لنيل درجة الدكتوراه فى جامعة القاهرة.

(٢) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ٨٤-٨٦ - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

معهم. . إذ شغله أبوه وهو مازال صغيرًا بالتعلم، وملأ وقته بحفظ القرآن. . كما لا نعرف عنه كيف أمضى أعوام صباه، وريعان شبابه، وشبان ذلك العهد من أبناء شيوخ القرى وموظفى الدولة لا تخلو حياتهم من عبث ومجون تفرضه نزعات الفتوة وطيشها وتؤهل له مكانة الأسرة فى المجتمع وامكانياتها، فلم نقرأ عنه عابثًا لاهيًا فى صباه يقتل الوقت بصيد العصافير ومطاردة الغربان أو الغزلان وكل ما نعرفه عنه في هذا الوقت المبكر من عمره أنه كان يحفظ القرآن[1]. . ويقضى الوقت بين الكتّاب والبيت فإذا فرغ من تلقى دروسه عاد مسرعًا إلى داره.

ولعلّ حادث وفاة أمه العاجل أول فجيعة أصابته وتركت فى نفسه أثرًا عميقًا ظهر على سلوكه فى مطلع شبابه وإبّان كهولته، فإن حرمانه من حنان الأم وعطفها خلال هذه الفترة من طفولته جعل منه شابًا إراديًا يختطّ لنفسه طريقة للعيش يعتمد فيها على عزمه وصلابة رأيه ويسترشد فى المناسبات بتوجيه والده وعنايته.

ثم أغفل التاريخ أباه فلم يسجل لنا متى نزح به من قريته ولماذا. .؟ وكيف مات. . .؟ وما هى علل موته؟ ولكنه ـ على كل حال ـ فقد توفى ولم يورثه مالاً أو عقارًا، وإن خلّف فلا يعدو شيئًا من جاه إذ إن خلاصة ما ترويه كتب السّير. . أنه كان رجلاً جوادًا كريم النفس، وأنه كان دهقانًا فى إحدى القرى بنواحى طوس[2] ثم تردّت حاله بعد أن كان جابيًا لطوس من قبل عميد خراسان أبى الفضل سورى بن المعتز عدة سنوات لعجزه عن تحصيل الرسوم بسبب المعارك التى نشبت بين السلاجقة والغزنويين[3]. ثم صار جابيًا لدى ـ جغرى بك داود ـ حوالى سنة ٤٣٠هـ وصاحب خراج فيها. . حينما فتحها سنة ٤٢٩هـ.

وقد يكون للنكبة المالية التى أرهق بها والده أثر على توجيهه الوجهة التى

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص١٣٥، والمنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨، والكامل جـ ١٠ ص ٨٤-٨٦، وابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٥.
(٢) ابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٨، ٧٩.
(٣) محمد عبد الرزاق ـ ترجمة «النظام» ص ٤١ عن دستور الوزراء ص٧، وآثار الأول فى ترتيب الدول ص٨.

صار إليها. . كما كان لعامل الفاقة أثرٌ آخر فى تفرغه وانصرافه إلى التعلّم ومن ثمّ إلى تنمية مواهبه. . ثم إلى بلوغه المركز الذى كان يأمله ويحلم به. . ولا نخال الوالد على فقره آنذاك إلاّ سعيدًا بولده. . نشوان بتقدّمه.

على أننا ينبغى ألاّ نجهل مؤهلات أسرته فى توجيهه العلمى، فإن أباه ـ كما عرفنا ـ كان دهقانًا. . والدهاقون كانوا فى جميع العهود مثقفين إلى حدٍ ما[1]، ثمّ اشتغل موظفًا لجباية الخراج والجزية فى مدينة مهمّة كطوس التى تحوى ما يزيد على ألف قرية. . وهو فى المركزين وخاصة ثانيهما لابد أن يكون عارفًا بالفقه والحساب والمساحة كما تحتم عليه «الآداب السلطانية» فى العهود الإسلامية حينذاك. . وأن أخاه الشيخ ـ عبد اللّه ـ كان من مشاهير الفقهاء. . وترجمت له معظم الكتب التى تعنى بسيرة العلماء[2]. . لذلك يمكننا القول: بأنه نشأ فى أسرة متعلمة كان لها الأثر الكبير فى تحفيزه نحو التعلم وكسب ألوان المعرفة، كما كان لمواهبه الفطرية أثرٌ لا يقلّ عنها فى إدراك المعلومات والغوص فى أعماقها والتوسع في مجالاتها، تجلّت فى قوة حافظته وصفاء ذهنه وحدّة ذكائه[3].

نشأته وتعلمه:

تحدثت النقول التى عنيت بـ«النظام» حديث الإجلال والإكبار عما أوتى من علم وبلغ من معرفة وليس فى علوم الدين كالفقه والحديث فحسب بل فى العلوم العقلية كالحساب والمنطق. . واللسانية كاللغة والنحو. . . بيد أن الذى يلفت النظر إغفال الكاتبين لمراحله الدراسية ولاسيما تعليمه العالى، إذ لم يعرض واحدٌ منهم شيئًا عنه ولو موجزًا عن هذه المرحلة وذلك لأن شهرته السياسية قد غطّت على الجانب العلمى من سيرته، ولأن ما عرف به من خُلق

(١) كِرِستِنسِن ـ ترجمة الخشّاب ص ٤٠٠.

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٢٠٦، واليافعى ـ المرآة جـ ٣ ص ١٦١ وغيرهما.

(٣) الوصايا ص ٧، وابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٩ ، ٨٠.

رضى وعطف على العلماء والفقراء قد غطّت على جهده الذى كرّس له أعوام صباه وقسطًا كبيرًا من كهولته.. غير أن «النظام» يشير إلى مواطن تعلمه وأسماء مشاهير أساتذته فى ثنايا كتابه «الوصايا»[١].

ولم تستمر طفولة «النظام» كما نستنتجها من الأخبار، أكثر من خمس سنوات حيث تتلمذ على يد أبيه فأخذ يُحفّظه القرآن ويشرح له البسيط من الآيات طوال ستة أعوام، فلم يبلغ الحادية عشرة حتى أتمّ حفظه[٢].

وهنا فكّر الأب فى اختيار مدرس له فعهد به إلى ـ عبد الصمد الفندوحى[٣] ـ النيسابورى بطوس، وهو المدرس الأول «للنظام» حيث تلقى عليه مبادئ تعليمه الأولى فقرأ بين يديه العربية ومقدارًا من الفقه وسمع الحديث الكثير[٤] وهو لمّا يزل حدثًا[٥].

وبعد أن قضى ما يقارب عشر سنوات بطوس تضاعف طموحه ولم يجد فيما تلقّنه ما يشبع رغبته ويحقق آماله، فأخذت أحلامه تؤرّقه، وتملك عليه تفكيره فغادرها إلى نيسابور بصحبة أستاذه وبرغبة من والده حيث قدّمه إلى الإمام «الموفق هبة الله»[٦] النيسابورى، فشهد منه الرعاية والعطف حتى ألف خدمته وأنس مجلسه[٧].

ويصف لنا «النظام» أستاذه فيقول عنه: «كان رحمه اللّه من كبار علماء

(١) الوصايا ص٢٩.

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٢.

(٣) وفى كتاب «الوصايا» ـ فندوحى، وقد ظل ملازمًا للوزير ومنحه وكالة أوقاف فى أكثر الممالك ص٦.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٤، ٨٥، وابن خلكان جـ ١ ص ١٤٣.

(٥) المقدسى ـ الروضتين جـ ١.

(٦) هو الموفق هبة اللّه النيسابورى، كان كثير المودة للعلماء ومهّد للسلاجقة منذ تأسيس دولتهم، واستقبل إبراهيم ينال عند وصوله نيسابور كما تعاون مع طغرلبك عند فتحه لها (البيهقى ـ ترجمة يحيى الخشّاب ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ وص ٦٩٩).

(٧) الوصايا ص ٢٩.

خراسان، وكان رجلاً مباركًا محترمًا، وقد نيّف عمره الشريف على الخامسة والثمانين، وقد اشتهر عن تعليمه التفاؤل واليمن فقيل: «إن كل طالب يدرس على يديه يبلغ الدولة والسلطان»[1].

وهنا قضى «النظام» ما يقارب أربعة أعوام فى الدراسات العليا تلقى فيها علوم العصر على يد أستاذه ـ الموفق ـ والتقى خلالها بزميليه ـ الخيّام والصبّاح ـ وعقدت بين التلاميذ الثلاثة تلك الاتفاقية المشهورة.. ثم عاد الابن إلى أبيه فى طوس فخورًا بما وصل إليه من درجة علمية إلاّ أنه وجد أباه قد عاد فقيرًا ونزل به الدهر من مكانته، فلم يصرفه شظف العيش عن تلقى العلم والانكباب عليه.. بل وجد فيه ضالته المنشودة التى تعوّضه ما يحسّه من ضياع أبيه لماله وفقدانه لمنزلته.. فلم يخلد إلى الدعة والراحة، ولم يستكن إلى لذائذ الحياة ومتعها وهو ممن حباهم اللّه صبرًا على الفاقة وجلدًا على تحصيل العلم، وممن وهبهم أقوى ذاكرة بين نظرائه ومنحهم النباهة النادرة بين أنداده، فراح يسابق الزمن ويصارع الصعاب واستأذن والده فى السفر إلى «بخارى» لمواصلة دراسته، وربما كان لإيجاد عمل كتابى له حيث قد بلغ من العمر الخامسة والعشرين تقريبًا كما نرجّح وهو سن يدعوه للتفكير فى مثل هذا بعد أن أوتى قسطًا وافرًا من العلم، وغدا أبوه فى حال من الفقر لا يحسد عليه.

بدء صلته بالصوفية:

وكأنى بالفتى كان ساخطًا حزينًا حيث لم يطب له البقاء على هون إلى جنب أبيه بعد أن شهد ظروفه المالية والاجتماعية آخذةً فى الانهيار، فألحّ أن يجيزه فى السفر إلى «بخارى»، وكانت يومذاك مقصد العلماء ومنشد الدارسين والفضلاء، فأذن له وهيّأ أسباب الرحيل ومعداته. ولمّا وصل إلى ـ دَرَبَنْد ـ كان

(١) الوصايا ص ٢٩.

الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير[1] يعظ الناس فى مهنة[2] ـ قبل وصوله، وكان حديثه عن السعادة والشقاء وأسبابهما.. وقال فى أثناء كلامه: «من أراد أن يرى سيد الدنيا والآخرة فليذهب غدًا إلى طريق أرجان»[3].. وما أن علم من مريديه أسباب استقباله حتى خفّ لزيارة الشيخ ودخل مجلسه خلسة وانتحى منه زاوية بعيدة، وإذا بسائل يلتمس الشيخ عطاء فهزت الأريحية والشفقة ذلك الفتى الغريب فوهبه حزامه الذهبى أو الفضى حيث لايملك نقدًا.. فقال الشيخ: فى مجلسنا اليوم رجل فتح منطقته، وسيتمنطق عنده أهل العلم قريبًا.

وبعد الانتهاء من الوعظ تلطّف الشيخ وأسرّ إليه ببشائر فى السلطان ونصحه بإيصال الهبات لمستحقيها، وأعلمه بأن فى انقطاعها عنهم نهاية أمره وأن هذه آخر مقابلة له[4].

ثم واصل الفتى رحلته بعد أن ودّع الشيخ «أبا سعيد» واتجه نحو «بخارى» وأقام بها بضع سنوات يقدّرها أحد الباحثين بثلاث سنوات[5]، عكف خلالها على البحث والدرس واغترف ما تاقت له نفسه من ألوان العلوم والفنون الشائعة حينذاك.. ثم انتقل إلى مرو[6] حيث استكتبه ألب أرسلان ـ بناء على توصية أبيه جغرى بك أو الخواجة ـ أبى على بن شاذان[7] وقيل إنه لم يستقر فى «مرو» إلاّ قليلاً حتى بارحها إلى «كابل» عن طريق «غزنة» التى كانت بين (٤٤١-٤٤٤هـ/ ١٠٤٩-١٠٥٢م) عاصمة ملك الغزنويين ومركزًا للدوائر ومقراً لكبار الموظفين، فأقام فيها مدة تمرّن فيها على تدبير الأعمال الإدارية والحسابية والإنشاء، ثمّ أراد أن يستكمل رحلته فغادرها عائدًا إلى بلخ[8].

(١) هو شيخ الصوفية.

(٢) مهنة، وتكتب «مهنا» أيضًا والصواب «ميهنة» كما وردت فى بعض المراجع.

(٣) أرجان.

(٤) الوصايا ص ٨، ٩، وأسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ص ١٤٦.

(٥) محمد عبد الرزّاق ـ نظام الملك الطوسى.

(٦) المرجع السابق.

(٧) الوصايا ص٩.

(٨) محمد عبد الرزّاق ـ نظام الملك الطوسى.

وسواءٌ أصحّ هذا أم ذاك أم الاثنان معًا، فإن فى نزوله «بلخ» انتهاء المرحلة الأولى من سيرته وبدء مرحلة جديدة، حيث عيّن كاتبًا لأبى على أحمد بن شاذان حاكمها من قِبَل «جغرى بك داود» فوزيرًا لابنه «ألب أرسلان» بعد ذلك بقليل.. وبهذا تحولت شخصية «النظام» الفردية إلى جماعية إذ ارتقى السلّم الأول من مدارج حياته السياسية التى أصبحت مقترنة بحياة سلاطين آل سلجوق بل فى خلفاء بنى العباس الذين عاصروه.. وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصل الثانى.

تلك هى مراحل دراسته الابتدائية والمتوسطة والعالية التى رافقت حياته منذ الصبا حتى سنّ الشباب وإبّان الكهولة حيث شُغل بعدها بمهام الوزارة وتدبير أمور الدولة عن استئناف الدراسة المنهجية المنظمة.. أمّا ماذا درس خلال ذلك من علوم، ومتى قام فى رحلاته الدراسية بين كل بلد وأخرى، وكم قضى من الوقت فى كل مرحلة، وما مقدار عمره بالنسبة لهذه المراحل؟.. فهى من المسائل الغامضة التى أهملها المؤرخون لسيرته غير أنهم تركوا لنا بعض العبارات المتناثرة التى يمكننا الاهتداء فى ضوئها إلى إجابات أقرب إلى الواقع وأبعد عن الوهم والمزاعم.

من الثابت لدى المؤرخين أن «النظام» أتمّ حفظ القرآن على يد أبيه فى سنّ الحادية عشرة كان منها ست سنوات ـ على الأكثر ـ فى الطفولة.. ومن المرجّح عندهم أيضًا أنه اشتغل بوظيفة رئيس كتّاب ـ لأبى على أحمد بن شاذان[1] ـ قبيل سنة ٤٤٥هـ إذ فرّ منه هاربًا إلى بلاط جغرى بك داود ـ فى مرو، فوصله ما بين سنة ٤٤٥ ـ ٤٤٨هـ.

---

(١) هو أبو على أحمد بن شاذان من قرية خاوران فى نواحى خراسان، كان وزيرًا لملوك بنى سامان وبقى فى الوزارة مدة طويلة يزر للآباء والأبناء حتى قيل فيه:

وقالوا العزل للأعمال حيض ... نجاه الله مـن حيـض بغيـض
فإن يـك هكـذا فأبـو علـى ... من اللآلى يئسن من المحيض

القزوينى ـ آثار البلاد ـ مادة خاوران.

وإذا فرضنا أن «النظام» قد اشتغل فى دائرة الخواجة ـ ابن شاذان ـ مدة تتراوح ما بين الثلاث إلى خمس سنوات كان يصادره فى نهاية كل عام ويقول له: سمنت يا حسن، يكفى للكاتب القلم، كما رواه «النظام» نفسه.. ولهذا تكون مدة دراسته بناء على ذلك.. حوالى ٢٧ عامًا بما فيها الزمن الذى كان يستغرقه التنقل بين تلك المدن النائية وتقتضيه مسالكها الوعرة الخطرة.. ونقدره من ٣ ـ ٤ سنوات.. وأنها كانت بين ٤١٣ ـ ٤٤٠هـ وأنه أنهى مرحلته التعليمية الأخيرة وعمره آنذاك ٣٣ عامًا.

بقى علينا أن نعرف فى أى وقت سافر إلى كل واحدة من تلك المدن العلمية وما هى الموضوعات التى درسها فى معاهدها وعُرف بها واحتل مكانته بواسطتها..؟

ليس من ريب بأنه قد بدأ رحلته الأولى من قريته ـ نوقان أو الراذكان ـ إلى ـ طوس ـ عام ٤١٩هـ حيث ولد سنة ٤٠٨هـ على أشهر الأقوال وأصوبها، وحفظ القرآن وهو فى الحادية عشرة من عمره، وبهذا فقد بدأ دراسته فى ـ طوس ـ وهو فى سنّ الثانية عشرة، وقضى فيها عشر سنوات لدراسة الفقه والحديث واللغة، ثم سافر إلى نيسابور عام ٤٢٩-٤٣٠هـ حيث تشير المصادر التاريخية إلى فتح السلاجقة لطوس فى هذه الفترة وتعيين والده ـ على بن إسحاق ـ جابيًا لخراجها من قبل ـ جغرى بك داود ـ حاكم تلك المنطقة من خراسان إلى ما وراء النهر، فأرسله والده يومئذٍ إلى نيسابور ليدرس فى مأمن من كل خوف واضطراب، وحيث تثبت كتب السير فى ترجمة الخيّام أنه التحق بمدرسة الإمام الموفق فى نيسابور عام ٤٣٠هـ وتعرّف «النظام» بها على زميليه «الصبّاح والخيّام» الذى قضى معهما أربع سنوات فيها كما يصرّح هو نفسه بذلك.. وعليه يكون قد غادرها عائدًا إلى طوس سنة ٤٣٤هـ.. ولبث فيها مدّة إلى جنب أبيه.. ثم استأذنه فى السفر إلى بخارى وما وراء النهر.

وهنا نجد فراغًا آخر تركه المؤرخون لسيرته فلم يذكروا لنا كم من الوقت قضى في طوس؟ وبأى عمل اشتغل خلال مدة إقامته؟ ومتى قام برحلته إلى ما وراء النهر؟ . . ولولاً ما سجله هو عن سياحته وما شاهد فى طريقه لما توصلنا إلى معرفة عام سفره فقد ذكر فى «وصاياه»[1] وذكروا فى أخباره أنه حينما التقى «بأبى سعيد بن أبى الخير» قال له فى ثنايا نصحه: «إنك اليوم في مجلس هو الأول والأخير فى مقابلتى» . . يشير بذلك إلى تنبئه بالموت، وقد ثبت أن الشيخ «أبا سعيد» انتقل إلى رحمة اللّه سنة ٤٤١هـ[2]، وبهذا يكون سفر «النظام» إلى «بخارى» فى هذا العام، وأنه مكث فى طوس ما يقارب سبع سنوات وأنه قد بلغ من العمر حينئذ ٣٣ ثلاثة وثلاثين عامًا. وإذا صدق ما فرضناه أولاً ولا نظنّه إلاّ صادقًا ـ بأن «النظام» قد بدأ عمله الحكومى ما بين سنة ٤٤٠-٤٤٥هـ موظفًا بسيطًا، فمن المحتمل أنه قد تدرّب على الأعمال الإدارية والكتابية ثلاث سنوات فى بخارى وغزنة، ثمّ التحق بوظيفة فى بلخ حينما انتقل إليها والتقى «بابن شاذان» حاكمها.

وفى العشرين عامًا الأولى من حياته المدرسية التى قضاها بين مدينتى طوس ونيسابور كان قد أنهى دراسته الرتيبة إذ أخذت تساوره الخواطر فى إيجاد عمل مناسب له، وفى أولها التوظف فى دوائر الحكومة التى أعدّ لها نفسه. . ولذلك لم نهتد إلى اسم أستاذ له فى بخارى وغزنة وبلخ. . ولم يذكر أحد المدّة التى مكثها هنا وهناك بالضبط. وقد يكون من المفيد جدًا أن نستمر في البحث عن المواد التى أتقنها والتى قضى عشرين سنة أو تزيد من عمره فى السعى المتواصل لتعلّمها، والتى مهدت السبيل لتكوين شخصيته وتبوئه المركز السياسى واللائق بما تعلّمه والمناسب له.

---

(١) الوصايا ص ٣٠.

(٢) وينسبه القزوينى إلى خاوران من نواحى خراسان، واضع طريقة التصوّف، وآداب الصوفية كلها منسوبة إليه، (آثار البلاد - مادة خاوران).

ولعلّ أول ما يسترعى انتباه الدارس لسيرة «النظام»، المتتبع لتطور حياته. . هذه المفارقة العجيبة بين قلة محصوله العلمى فى عهد الصبا وإشراقة ذهنه حينما عهد إليه بتدبير الملك، فضمّ إلى محفله فطاحل العلماء ونوابغ الشعراء والأدباء، وشارك فى مناقشتهم وتناظر فى مسائل الخلاف معهم[1]. . وأبدى رأيه فى مشاكل عويصة، ومسائل غامضة[2]. . وعلى هذا فإمّا أن يكون قد جهل المؤرخون مرحلة دراسته فأغفلوها، وإمّا أنه لم يتعلم سوى ما نقلوا، ولم يدرس غير ما ذكروا، والأول أقرب إلى الصواب إذ تصفه المراجع العربية والفارسية وغيرهما بالعالم الفقيه[3]. . وهى صفات لايمكن أن يجمع عليها المؤرخون مصادفةً وأن يطلقوها عليه جزافًا واعتباطًا، فالعالم الفقيه حينذاك لايمكن أن يكون إلاّ بعد اجتيازه مرحلة واسعة فى التحصيل وشهرة كافية فى أوساط المتعلمين. . فما هى الموضوعات التى تفرغ لها وعرف بها حتى صار عالمًا فقيهًا؟

ألوان ثقافته ومراحلها ومنابعها:

لقد كان «النظام» ـ كما قلنا ـ غزير المادة والمعلومات، ولكنه ـ كما يغلب على ظنّنا ـ غير متعمق فى واحد من فروعها وافر المعرفة بأشتاتها دون استيعاب لأجزائها واستقصاء لمقرراتها وإلمام بأطرافها وهو بذلك قد اطلع ـ من غير شك ـ على مجموعة العلوم الإسلامية آنذاك وتلقى أصولها على كبار الأساتذة حينذاك، وإن لم يكن قد تضلّع فى واحدٍ منها، وربما أفاد من حضور مجالس العلماء وحضورهم مجلسه بصورة لا يقلّ معها أهمية من دراسته، وذلك لأن دراسته تلك المجموعة تحتاج إلى مواصلة الجهد فى البحث والتنقيب إلى وقت طويل قد يمتد بالمتعلم إلى سنّ الشيخوخة ـ وحتى الموت[4]. . وهذا ما لم يتح

---

(١) ابن خلدون ـ العبر جـ ٥ ص ٦، ١٢، حيث ناظر إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف.

(٢) المقدسى ـ الروضتين جـ ١ ص ٢٥. واختبر الإمام الغزالى قبل تعيينه أستاذًا لنظامية بغداد.

(٣) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٥.

(٤) لذلك شاعت الكلمة المأثورة عن الإمام الشافعى: من المهد إلى اللّحد أو من المحبرة إلى المقبرة.

«للنظام» تحقيقه لأن هوايته فى تدبير شئون الدولة، وتنفيذ رسالته من وراء ذلك قد ملكت عليه تفكيره، وملأت كل فراغ من جوانب حياته.

ومع كل ذلك ففى كتابيه ـ السياسة و الوصايا ـ وما عثرنا عليه من رسائل وعهود، ذخيرة قيّمة يمكن لرجال السياسة والاجتماع ودارسى العلوم والتاريخ الانتفاع بها والإفادة من آرائه وخبراته التى توصّل إليها ودوّنها فى مضامينها بعد دراسة شاقة طويلة، وتضحيات قاسية مريرة.. كما لا تخلو تلك المأثورات من نتف متفرقة يمكن أن ترشدنا إلى ألوان ثقافته ودرجة معرفته، نستطيع أن نسلسلها حسب إلمامه بها، وفى ضوء ما لمسناه فى مساجلاته والحياة العلمية فى عصره.

١- الفقه والكلام:

لم يكن «النظام» ـ فى الواقع ـ فقيهًا بالمعنى العلمى الدقيق، لذلك لا نجد مسوّغًا لإطلاق هذا اللفظ على وزيرنا سوى التجوز اللغوى، وتساهل أو تسامح بعض المؤلفين فى استعماله، ومهما يكن من شىء فقد دفعه التفقه لدراسة اللغة والأدب والتاريخ والتفسير والحديث وبعض العلوم ليبلغ درجة الفقيه فى أحكام الشريعة، ولكنه قبيل أن يصلها اتجه إلى السياسة يتخذ منها وسيلة لنشر آداب الدين والعمل بأحكامه، لذلك كان معظم المعنيين بسيرته يرددون كلمة ـ تفقّه[1] ـ وفرق بين المتفقه والفقيه لا يخفى على الدارس كالفرق بين المتعلم والعالم، ولذلك كان يلجأ إلى العلماء من حوله كالجوينى والقشيرى، والشيرازى، والغزالى.. إذا ما عرضت عليه مسألة عويصة، أو أشكلت إجابة ليستفهم عن حل الغامض ويستفتى عن الردّ الصحيح. وإنّ عدم التفريق بين صيغ العابد والمتعبد والزاهد والمتزهد هى التى أوهمت فريقًا من الكاتبين عن «النظام» أن يصفوه بالعالم والفقيه، واعتبر قولة ـ ابن خلكان ـ بأن مجلسه

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل ص ٨٤، وابن كثير ـ البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٤٠، والنويرى ـ نهاية الأرب جـ ٢٤ ورقة ١١٢، والسبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٢ وغيرهم.

كان عامراً بالفقهاء دليلاً على صحة دعواه، وأنه «لو لم يكن فقيهًا لم يجلس كذلك، ولكان فى مجلسه أسراب الجميلات فى آسيا الصغرى وأحاطت به الظباء التركيات ومن حوله الندمان». على أنه لو كان صحيحًا ما ادعاه بعد - لو - لأصبح جميع الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء الذين تمتلئ قصورهم بالأدباء - من الشعراء.

حقًا: إن الصفات التى اشترطت فى وزير التفويض، ومنها العلم بالأحكام الشرعيّة علمًا يوصله إلى الاجتهاد فيها.. تضطرنا لموافقة الذين أطلقوا على «النظام»، وهو الوزير المفوّض طوال ثلاثين عامًا بلا نزاع لفظ العالم الفقيه.. غير أننا ينبغى أن نتساءل كذلك عن الناحية التطبيقية لهذه الشروط. وهل كانت موضع عناية الحاكمين ورؤساء الدولة بحيث لا يصل إلى مرتبة الوزارة إلاّ من توفرت فيه تلك الميزات؟.. إن واقع الأحداث، وسِيَرْ كثير من الوزراء تدلّنا على خلاف ذلك، وما قرأناه على ألسنة الشعراء والعامة من هجاء مقذع ونكات لاذعة يؤيد ذلك.

أمّا الكلام فلم يكن نصيبه فيه خيراً من سابقه فقد وصف لنا نفسه مجلسًا من مجالس السلطان - ألب أرسلان - كان قد عقد بمناسبة مرور - الشيخ جمال الدين الخجندى[١] - بمرو - فى طريقه من تركستان إلى الحجاز فحصل النقاش بينه وبين قاضى مرو، فهذا يقول: إن لألفاظ «الخالق والبارئ والمصور» معانيًا ينفرد بها كل لفظ، وإن عدم الافتراق لا يمنع المغايرة، وذاك يقول: بأن معناها واحد، وأن مدلولاتها لا تتغاير ولا تفترق.. وقد اهتم السلطان بذلك ورجح قول قاضيه وإن لم يفهم جميع ما قيل فيه. ولمّا لم يجد «النظام» بدّا من التدخل فى المناقشة لانقاذ الموقف المحرج قال: «إن (بهمن) أول من استعمل مظلّة وكانت قبل ذلك درعًا يحمله جنديان فأمر (أردشير) أن يوضع على رمح يحمله رجل واحد، واقترح (بوشتين) أحد المهندسين صنع آلات خاصة للظل،

(١) فى الأصل - جندى - انظر ترجمته .

فكان «بهمن» موجدًا للمظلّة، وأردشير مصورًا لها، وبوشتين خالقها»، فاستحسنوا ذلك منه وسُرّ السلطان وترحم على الخواجة - على بن شاذان[1] - لأنه سبب معرفته به، وهى إجابة إن دلت على شئ فإنما تدل على لباقة خارقة، وبداهة نادرة وذكاء فارط.

٢- التاريخ والحديث:

وكان إلمامه بالتاريخ الإسلامى وتاريخ الفرس واسعًا، مما نفعه فى أداء مهمّته السياسية فقد كانت دراسة التاريخ من مستلزمات الوزير للإفادة والعبرة، لذلك لم يكن التاريخ - بنظره - كتابًا يقرأ للتسلية، أو قصة تروى للترفيه وتمضية الوقت، وإنما هو درس ذو مغزى وعظة ومن مغازيه الاستنتاج وتفادى الأخطاء المتكررة. ومن هنا نجده لا يتحدث عن أمر فى كتابيه - السياسة والوصايا - إلاّ وذيّلها بحادثة من التاريخ، فهو يعتقد أنه ليس من حادث فى الدنيا لم يكن قد حدث مرارًا من قبل وعليه تقاس النظائر والمماثلات وبها يمكن التكهن بالنتائج والخاتمات، لأن التاريخ - كما يقولون - يعيد نفسه، خلافًا لما يراه آخرون. ثم يحكى لنا قصة جيش بخارى والخدعة التى استعملها - البتكين - لوقوعه فى الفخ فإن من عرف بها سوف لا يتعقب عدوًا إلى وادٍ لا يعرف عنه شيئًا[2]. كأنى به يردّد قول الشاعر العربى القديم:

عبرٌ كلها الحياة ولكن   أين من يفتح الكتاب ويقرأ

غير أنه لم يذكر ما يدلّنا على معرفته بتاريخ الغرب عدا ما كان يعرفه عن الدولة الرومانية الشرقية حيث أبلى فيها وأسهم فى حربها ومهّد للقضاء عليها.

على أن «النظام» لم يستطع تجنب الأخطاء فى نقل الوقائع التاريخية[3]، كما لم يستطع تجنب الغلطات السياسية التى سبقه إليها غيره كما ادعى وقصد من دراسة التاريخ، وفى كتابه - سياستنامة - أسئلة كثيرة على

(١) الوصايا ص ٥٣.

(٢) الوصايا ص ٥٢.

(٣) نظام الملك وسياستنامة - يحيى الخشّاب - بحث ألقى فى مؤتمر المستشرقين ونشر فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية - العدد الأول ص ٣٢٨، وانظر كذلك: ص ٧، ١٣، ٥٠، ٥٥، ٦٨ من سياستنامة.

ذلك منها: ذكر بغداد فى حديث عمر بن الخطاب، والمهدية فى قصة يعقوب بن الليث الصفار، وعمارة بن حمزة، الخليفة الواثق، وأبى على الدقّاق مع الأمير أبى على الياسى، ودخول المعتصم إلى القسطنطينية وبنائه مسجدًا فيها، وقد يكون بعضها من إضافات النسّاخ قبل طبع الكتاب.

وربما كان حظه فى رواية الحديث خيرًا منه فى الفقه والكلام والتاريخ إذ تكاد تجمع النقول عنه بأنه سمع الحديث وأسمعه[١].. بل قال أحد المؤرخين: «سمع الحديث الكثير»[٢]. وخلّف لنا مجلسين كان قد أملاهما فى النظامية مرّة وفى جامع المهدى ببغداد مرّة أخرى، وقد حفظت المجاميع المخطوطة القديمة فى مكتبات إيران ودمشق نسخًا من هذين المجلسين فى حين ضاع غيرهما.. وهى مع أنها لا تعتمد على شىء سوى الدقة فى السماع والإسماع فإنها لا تخلو من ضعف فى الإسناد وإيراد ما ليس من الحديث كأنه منه.. كما سنرى ذلك ونتحدث عنه فى موطنه، ويطلع عليه القارئ فى ملحقات هذه الدراسة.

٣- الحساب واللغة:

وقد زعم أحد كبار الباحثين القدامى أن «النظام» قد تعمّق فى الحساب كما برع فى اللغة والإنشاء حتى قال عنه: «إنه لم يكن فى زمانه أكفأ منه فى صناعة الحساب وصناعة الإنشاء» ووصفوه بسداد الألفاظ فيهما عربية وفارسية، وقد يكون هذا صحيحًا فيما يتصل بالكتابة، إذ أقام الدليل عليه بما خلّف من رسائل ومؤلفات تعتبر نموذجًا عاليًا فى النثر الفارسى، كما أثر عنه كلمات ومحاورات ورسائل عثرنا على مجموعة منها يمكن أن تعدّ أمثلة على إجادته العربية والكتابة فيها، وتشهد على مدى تضلعه فيهما. وممّا ذكر له بهذا الصدد أنه صادف فى سفر له راجلاً فى زى العلماء، وقد بدا عليه التعب والكلال

(١) ابن خلكان جـ ١٢ ص ١٤٠، والعمرى ـ مسالك الأبصار ص ٢٠٣، والنويرى ـ ورقة ١١٢ جـ ٢٤.

(٢) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٨٤، ٨٥.

فأراد اختباره، فسأله: «أيها الشيخ أعييت أم أُعييت؟»[1]. فأجابه: بل أعييت، ففهم «النظام» قدره لأنه فرّق بين العيى فى اللسان والإعياء وهو التعب فى الجسم، فأمر له بزاد وراحلة.

أمّا الحساب فقد ترك لنا قصة جرت له مع زميله المنافس له ـ ابن الصبّاح ـ أمام السلطان ـ ملكشاه ـ تدلنا على معرفته البسيطة فى هذا الموضوع.. نوردها لطرافتها ودلالتها معًا. فقد طلب «النظام» نقل خمسمائة «مَنٍّ»[2] من الرخام من حلب إلى أصبهان فنقله أعرابيان لأحدهما أربعة جمال وللثانى ستة، وكان لكل واحد منهما خمسمائة «منّ» من الرخام خاص بهما وكانت الأجرة ألف دينار فأعطى «النظام» للأول أربعمائة وللثانى ستمائة، وما أن بلغ الخبر مسامع ـ ابن الصباح ـ حتى أخذ يشنّع عليه ويعلن سوء تصرفه حتى سمع السلطان فأحضرهما.. ووقف «ابن الصبّاح» يشرح نظريته ويبرهن على أن للأول مائتى دينار وللثانى ثمانمائة.. وطلب السلطان تبسيطها مرة ثانية فأعادها عليه.. ولكن السلطان لم يظهر شيئًا تجاه وزيره تلطفًا منه[3].

وخلاصة القول: إن ثقافة «النظام» ـ كما يغلب على ظننا ـ كانت واسعة أكثر منها عميقة، وشاملة أكثر منها مركّزة، وكان يشوبها عنصر الخبرة والذكاء أكثر من التحرى والاستقصاء.. وأن ما أفاده «النظام» فى مجالسة العلماء والاستماع إلى محاضراتهم ومناظراتهم لا يقل أهمية فى حياته العملية دعمًا بما درسه فى صباه من علوم نظرية.. إذ إن المنابع التى يستقى منها الشخص الذكى ثقافته لا تنحصر فى البيت والكتاب والمدرسة، وإنما تتعداها إلى المشاهدات والمسموعات وما يتلقاه عن طريق بقية الحواس.

---

(١) ابن الصلاح ـ طبقات الشافعية ـ اختصار النواوى ـ ورقة ٥٣.

(٢) المن ـ وزن قدره فى العراق اليوم ست حقق، والحقة أربع أوقيات والأوقية ٩٦ درهم. والحقة تعادل ٢٥و١ كيلو.

(٣) الوصايا ص ٣٣.

مجلس «نظام الملك»:

وقد كان لمعرفته هذه الحقيقة وإدراكه لمنزلة العلم والعلماء فى المجتمع وأثرهم فى تقدمه ونجاح أهدافه أن جعل من داره ندوة يوم الإثنين من كل أسبوع يرتادها العلماء والأدباء دون قيد فى سّن أو شرط فى مذهب، فهذا الحنبلى والمالكى إلى جنب الحنفى والشافعى، وذاك المعتزلى إلى جوار الأشعرى، وفى هؤلاء وأولئك من هم فى دور الشباب أو الكهولة أو الشيخوخة.. لأن الجامع بينهم معرفة الحقائق الغيبية سواءٌ أكانت عن طريق العقل والكسب، أم عن طريق «نقاء الضمير وصفاء القلب»(١).. إذ كان مجلسه عامراً بهذا الفريق من الصوفية أصحاب هذا الرأى لأنه يميل إليهم بل يعتقد مذهبهم، لأنه - كما نرجّح - متصوّف مثلهم ويصغى لأقوالهم ونصائحهم ويستفيد من حوارهم ومناقشتهم.

وربما كان خير وصف لمجلس «النظام» الذى يضم بين جدرانه أقطاب المذاهب المختلفة ما وردنا على لسان أبى يوسف القزوينى شيخ المعتزلة إذ دخل عليه مرّة وعنده أبو محمد التميمى زعيم الحنابلة ورجل أشعرى فقال له: «أيها الصدر قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار، فقال كيف؟ فقال: أنا معتزلى وهذا حنبلى وذاك أشعرى وبعضنا يكفّر بعضا»(٢).

ويصفه لنا السبكى بعد ذلك بقوله: «وكانت مجالسه معمورة بالعلماء مأهولة بالأئمة والزهّاد، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وترددهم على بابه، وثنائهم على عدله، وتصنيفهم الكتب باسمه.. يحضر سماطه مثل أبى القاسم القشيرى، وأبى إسحاق الشيرازى، وإمام الحرمين وغيرهم»(٣).

ثم يعود لوصف «النظام» وهو متكئ على وسادته فى رأس مجلسه فيقول:

---

(١) ابن خلكان جـ ٣ ص ١٤٣.

(٢) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٨٩ - حوادث سنة ٤٨٨هـ، وابن تغرى بردى - النجوم جـ ٥ ص ١٥٦.

(٣) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ١٣٧.

«إن جلس بين العلماء جلس وعليه سيماء الوقار، وله من التأديب معهم ما شهدت به الأخبار، يتضاءل بين العلماء ويتنازل وإن كان منزله أعلى من نجم السماء»[1].

وكان إذا وفد عليه أحد من رجال العلم اغتنم فرصة وجوده وعقد مجلس المناظرة بينه وبين أعلام حاشيته.. وربما رأس الجلسة بنفسه وقد يسهم فى المناقشة ويحاجج المتناظرين، فلم يصل «أبو إسحاق الشيرازى» - رسولاً إلى السلطان ملكشاه ووزيره «النظام» ليعرض شكوى الخليفة من عميد بغداد - أبى الفتح بن أبى الليث - وسوء معاملته للخليفة القائم.. حتى حضر الشيخ مجلس «النظام» وجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف[2].

وكأن الشاعر قد عنى مجلس «النظام» وأمثاله من الوزراء بقوله[3]:

وذكرنى حلو الزمان وطيبه	مجالس قوم يملئون المجالسا
حديثًا وأشعارًا وفقهًا وحكمةً	وبرًا ومعروفًا وإلفًا مؤانسا

وكان مجلسه العامر بهؤلاء وأولئك، وانشغاله باستقبالهم وقضاء الوقت معهم مبعث تساؤل من قِبَل خاصته حتى قال له أحدهم: «هذه الطائفة قد بسطت لهم فى مجلسك حتى شغلوك عن مهمات الدولة ومصالح الرعيّة فإن تقدمت أن لا يصلك أحد إلاّ بإذن، وإذا وصل جلس بحيث لا يضيق عليك مجلسك.. فقال: هؤلاء هم أركان الإسلام، وهم جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسى لاستقللت ذلك لهم»[4].

وكان مجلس «النظام» - كما روت النصوص - حافلاً بالشعراء كما كان

(١) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥.

(٢) ابن خلدون - العبر جـ ٥ ص ٦، والمختصر لأبى الفداء جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٣) وقد اشتهرت بذلك مجالس «ابن عباد» ومن قبله مائدة «أبى محمد الحسن المهلبى» التى كان يجلس عليها أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى، والقاضى أبو على التنوخى صاحب نشوار المحاضرة.

(٤) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨ - حوادث ٤٨٥هـ.

يغصّ بالعلماء. . . وكان هو يغدق عليهم حتى صارت داره ملجأ كل طالب علم أو مال وملاذ كل قاصد حاجة أو جاه وكان هو لا يخيّب ظن واحد منهم فى أغلب الأحيان مادام فيه قبسٌ من علم أو شعاعٌ من أدب حتى قال ابن القلانسى: «إن النظام كان يجرى رزقه على اثنى عشر ألف إنسان من فقيه وشاعر وغيره»(١). ومهما قيل فى هذا من غلو فإنه لا يخلو من واقع إذ إنه كان ينعم بالهدايا والجوائز على شكل نقود وثياب وخيل وعبيد فقد حكى أنه أجاز - ابن الهباريه - على مدحه إيّاه خمسمائة دينار، وكثيرًا من الثياب.

الشعراء فى مجلس «النظام»:

ولتلك الدواعى وغيرها من الأسباب ظهر فى هذا العصر عدد من الشعراء قلّ نظيره فى عهود مضت وإن لم يكن فيهم المجوّد الأصيل إلاّ القليل، والتف حول «النظام» منهم عدد لانجد له مثيلاً فى بلاط الملوك والخلفاء فضلاً عن قصور الأمراء والوزراء.. فكأن «دمية القصر» التى ألّفها الباخرزى فى تراجم كبار الأدباء فى عصره إنما كانت لشعراء النظام، وإذا علمنا أنها تحتوى على سبع وثلاثين وخمسمائة ترجمة كان بينها ما يقارب الأربعمائة فى مدح الوزير، عرف صواب ما نقلناه، وبذلك كان «للنظام» من غير شك، أثرٌ كبيرٌ فى نهضة الشعر وتقديره، وتداوله بين الناس وشيوعه، وإقبال الخاصة عليه وتنافس الشعراء فى قرضه وتفننهم فى نظمه حتى مدحه طاهر بن الحسين البندنيجى بقصيدتين تزيد كل واحدة منها على أربعين بيتًا وكانت إحداهما جميع حروفها منقوطة والأخرى مهملة(٢).

وهنا يصحّ لنا أن نتساءل: هل كان «النظام» يتذوّق الشعر ويحب الشعراء؟ وهل حقيقة ما قيل بأنه قرض الشعر؟وهل كان سلاطينه يميلون إلى الشعر ويستسيغون سماعه؟

تلك مسألة لابد للدارس من البحث عن حقيقتها والإجابة عليها ولو

(١) أبو يعلى حمزة بن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق - حوادث سنة ٤٨٥هـ.
(٢) أبو الوفاء الهمدانى وكان شاعرًا أديبًا لايمدح لغرض الدنيا. توفى سنة ٤٨٠هـ - الكامل جـ ١ ص ٩٧.

باختصار. ومن المعروف لدى معظم المؤرخين أن الترك ومنهم السلاجقة وبخاصة أوائل سلاطينهم كانوا لا يميلون إلى الشعر ولاسيما العربى منه حتى اشتهر قول ابن المهذب وهو يمتدح ابن زريك[1] فى قصيدة منها:

أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا

ويدعم هذا القول ما رواه النظامى العروضى من أن السلطان ـ ملكشاه ـ قد أهمله ولم يسأل عنه سنة وقطع عنه صلاته من زاد ودراهم حتى تضاعفت نفقاته وأثقلت الديون كاهله وكلما حاول أن يراه لم يستطع رؤيته. كان ذلك على الرغم من إيصاء والده «أمير الشعراء البرهانى» السلطان ملكشاه برعايته واستودعه عنده إلى أن توسط له الأمير ـ علاء الدولة ـ وتحدث بشأنه مع الوزير «نظام الملك» فأمر بصرف وظيفته من الخزانة وحوّله على أصفهان، ولم يمض شهر رمضان من تلك السنة حتى جعله من ندماء السلطان ملكشاه[2]، ولكن «عروضى» قبيل أن يختم قولته هذه يخبرنا بأن الوزير الكبير «نظام الملك» (رحمه اللّه) كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يحسنه وما عنى بأحد غير الأئمة والمتصوفة.. وفى خاتمة حديثه يقول: «إن آل سلجوق جميعًا يحبّون الشعر»[3].

وغير خافٍ على الباحث نوازع «عروضى» حين أبدى رأيه فى «النظام» والسلاجقة فإنه كان فى الأولى غاضبًا على السلطان ووزيره حيث تعقدت أموره وهو الشاعر ابن أمير الشعراء، وفى الثانية كان قد أصبح من ندماء السلطان ملكشاه فلا يقول فيه وفى أسرته إلاّ ما يقوله الشعراء فى ممدوحيهم من الملوك والسلاطين.

وربما كان لزهد «النظام» وتقريبه المتصوّفة ومباسطته لهم وما تأثر به من

(١) هو أبو الفرج عبد الله بن أسعد المهذب ـ انظر: (ابن خلكان الوفيات فى ترجمته، وابن الأثير ـ الكامل ص ٢).

(٢) نظامى عروضى سمرقندى ـ جهار مقالة ص ٥١ (الترجمة).

(٣) نفس المرجع.

سلوكهم فى الرغبة عن المدح والاطراء حتى أوثر عنه أنه كان يكبر من يذمّه ويذكر له عيوبه من العلماء فيقوم له ويجلسه فى مكانه ويقعد بين يديه وهذه خليقة المتزهدين، وسجية المتصوّفين، نقول: وربما كان لما تأثر به، وأوثر عنه، أثرٌ فيما ظنّه بعضهم، من عزوفه عن الشعر وميله عن الشعراء.

والذى يغلب على الظن أن سلاطين السلاجقة الأول ما كانوا يميلون إلى الشعر وما كانوا بحاجة إليه، وإنما هم إلى فنون الحرب والقتال أحوج، وقد حذقوا هذه بقدر ما جهلوا ذاك، وانشغلوا بهذه لمواصلة الفتوح بقدر ما أهملوا ذلك. وأن ألب أرسلان وملكشاه ما كانا يميلان إلى سماع الشعر وكانا يضيقان بالشعراء، وربما كانا أشدّ تبرمًا بالشعر العربى وشعرائه لأنهما لايعرفان العربية فضلاً عن فهم معانيها الشعرية.

أمّا «النظام» فقد تضافرت أقوال المؤرخين بمعرفته العربية وفروعها ـ وقدرته على فهم قواعدها وإدراك أسرارها، وفى بعض الأخبار ما يدلنا على تحمّسه لها وميله لأهلها فليس غريبًا أن يميل إلى الشعر، وأن يقَرّب إليه الشعراء وأن يتلذّذ بالإصغاء إليهم وأن يستمتع بإغداق الهبات والعطايا عليهم فضلاً عما يراود خاطره من مقاصد سياسية فى جلبهم إلى حضرته ودنوِّهم منه، وما يؤدونه من خدمة فى الدعوة له، والكيد لمنافسيه وخصومه.

وقد يغلو بعض المؤرخين فينسب إليه أبياتًا من الشعر العربى وأخرى فى الفارسى فيحكون لنا أنه روى الشعر وقاله، ومن قوله:

بعد الثمانين ليس قوة	قد ذهبت شرّة الصبوة
كأننى والعصا بكفّى	موسى ولكن بلا نبـوة

ولئن تراجع ـ ابن خلكان ـ فى نسبة هذين البيتين إلى «النظام» وكيف يخبرنا بعد قليل بأن بعضهم ينسبها إلى ـ أبى الحسن محمد بن أبى الصقر الواسطى ـ فإنهما فى الواقع ـ ليسا من الشعر الذى يفخر فى نسبته إلى «النظام» كما أنهما أقل جودة مما عرف من شعر الواسطى، وأنهما بالنظام السياسى

المتصوّف أولى، وإلى شعر العلماء أقرب، ثمّ إن صورة الشيخ يتوكأ على عصاه حيث لا يستطيع المشي وأن تشبيه هذا الشيخ بموسى، وهو سيد قومه مع فارق النبوة بينهما تنطبق عليه وتبعد بنا عن نسبتهما إلى الواسطى إذ لم يعرف عنه أنه بلغ سن الشيخوخة «كالنظام» كما أنها وردت منسوبة إليه فى مصادر أخرى منها «كتاب العصا» فقد ذكر نقلاً عن الشريف ـ الإمام شمس الدين أبو المجد على بن على الناصر الحسينى الحنفى الموصلى المتوفى سنة ٥٦٥هـ بأن الخواجة برزك يقصد «نظام الملك» خرج وفى يده عصا وهو ينشد هذين البيتين كما سبق ذكرهما.

وما يعترض به من أنه لم يتجاوز الثمانين عند اغتياله وهذا ما يتناقض وقوله: بعد الثمانين إليه. فالوجه فيه أنه كان فى أواخر العقد الثامن حيث قتل فى الـ٧٨ من العمر. كما أنه استعمال دارج فى أوساط الأدباء، ومنه قول لبيد:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ونسبوا إلى ـ «النظام» أيضًا مقطوعة بالفارسية ارتجلها عندما طعن وأرسلها إلى السلطان ملكشاه، وفيها يقول[(١)]:

يكجند باقبال توأى شاه جهاندار كرد ستم از جهرة أيام ستِرْ دم
طغراى نكونامى ومنشور سعادت بيش ملك عرش بتوقيع تو بُردم
آمدز قضا موت وعمرم نود وسه واندر سفر أزخريت يك كارد بمردم
تكذا شتم اين خدمت برنيد بفرزند أورا نحد أو نجد اوند سبردم

وتعريبها كالآتى:

أيا ملك الدنيا بيمنك آنفا نقضت غبار الظلم عن جبهة الدهر
وقد لفّ منشور السعادة مُشْفعا بطغراء حسن الذكر منك معى القبر

(١) أسامة بن منقذ ـ كتاب العصا من المجموعة الثانية لنوادر المخطوطات ـ نشر عبد السلام هارون ص ٢١٠.

لأبدى لملك العرش عدلاً موقعا بتوقيع ملك الأرض إن ضمّنا الحشر
ولما مضت تسعون بعد ثلاثة أتانى القضا بالموت وانقطع العمر
فلاقيت حتفى حين جاء بمدية لدى سفرى والدهر شيمته الغدر
خدمتك دهراً ثم أبقيت خدمتى كموعظة لابنى وأنت الأب البرّ
وأرجعته لله جلّ جلاله وللملك المحبوب إن قضى الأمر

وهى كما نراها ليست من الشعر الجيد فى شئ وإن كانت من حيث جزالة أسلوبها فى لغة الأصل متوسطة أو فوق المتوسط، وهى على الرغم من ركاكتها موضع نظر الباحثين من ناحية السنّ الذى تضمنته الأبيات، فبعض المؤرخين ومنهم الفرس يأتون بها للاستشهاد على قوله الشعر، وبعضهم ينفيها عنه وأنها من وضع جاهل بعمره، غير أننا وإن لم نكن بصدد إثباتها أو نفيها إنما يعنينا من حياته ـ فى الدرجة الأولى ـ جانبها السياسى ونشاطه الدولى. ينبغى أن نتنبه إلى أنه من الجائز أن حدث تحريف من الخطاطين فكتبها أحدهم ـ نَوَدْوسَهْ ـ بدلاً من ـ هقَنَادْ وهَشْت ـ وهى أساس فى البيت وأطوع من سابقتها حيث يقف القارئ متعثراً عند قراءته.

وسواءٌ أكان وزيرنا ناظمًا مقلاّ أم لم يوح إليه شيطانٌ عبقر بفتات موائد الموهوبين من الشعراء.. فقد أحاط به لفيف منهم، لماّ تسامعوا باسمه وتشجيعه فى كل ناحية فهرعوا إليه من كل فجّ وصوب يتنادون بفضائله ويشيدون بأعماله، وقد تساوى فى هذا العرب والفرس ونظم هؤلاء فى حقه باللغتين الفارسية والعربية.. وتسابق فى مديحه الأمراء والسوقة.. ويكفينا شاهداً على علو قدره، وجسامة أثره أن يبلغ مادحوه المئات من الشام والحجاز والجزيرة والعراق وفارس وغزنة وقهستان، وأن يكون من بينهم.. من شعراء العرب: المجاشعى شاعر الحرمين المتوفى سنة ٤٧٩هـ[1].. قصد الحضرة النظامية من مكة، ومدحه بقصائد عديدة منها هذه الجاشعة التى لقيه بها على باب منارجرد سنة ٤٦٣هـ ومطلعها:

(١) الباخرزى ـ دمية القصر ص ١٥، والقفطى فى إنباء الرواة جـ ٢ ص ٢٩٩.

جوى ماجرى بين الحشا والجوانح   وفرط اشتياق بين غاد ورائح

ومنهم أبو الهيجاء شبل الدولة المتوفى سنة ٥٠٥هـ[١]، ومنهم الشريف أبو طالب محمد بن عبد الله الأنصارى الدمشقى[٢]، وعبد الواحد بن دلف الفجاج، وأبو المظفر محمد الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧هـ[٣]، وابن الهباريه البغدادى المتوفى سن ٥٠٤هـ[٤]، وأبو سعد العلاء بن الحسن بن الموصلايا المتوفى سنة ٤٦٩هـ والموفق بن خليل الشيبانى[٥]، وأبو عبد الله بن الفتى الحلوانى[٦] صاحب المقطوعة الرقيقة التى مدح بها النظام، وهى من أعذب الشعر وأروعه والتى مطلعها:

يا ظبية وقفت بباب الطاق   بينى وبينك أؤكد الميثاق

ومدحه بالعربية من شعراء فارس وأعلامها: عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ[٧]، والزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ[٨]، وأبو زكريا يحيى بن على الخطيب، والرئيس أبو نصر الأصبهانى، ومحمد بن أحمد الشطرنجى، وابن بابا، والخطاط النظامى، والموفق النظامى، وأبو طاهر الشيرازى، وأبو الفرج المعروف بفروجه، وأبو القاسم السجزى، وأبو منصور نصر الشاكى الملقّب بالمصباح، والغانمى الهروى، والعليمى، والكاتب، والبارع، والباخرزى

(١) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٥ ص ٣٤٤، ومرآة الجنان جـ ٣ ص ١٩٢، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٤.

(٢) الباخرزى ـ دمية القصر ص ٥٨-٦٠.

(٣) ترجمته فى معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٢٢٤، وبغية الرعاة ص ١٦، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٦.

(٤) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٥، والصفدى ـ الوافى جـ ١ ص ١٢٠، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١٠.

(٥) العماد الأصبهانى ـ الخريدة جـ ١ ص ١٢٣-١٢٦.

(٦) القفطى ـ إنباء الرواة على أنباء النحاة جـ ٢ ص ٢٦، والباخرزى ص ٨٧، وبغية الوعاة ص ٢٦٠، وشذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٩٩.

(٧) القفطى ـ إنباء الرواة جـ ٢ ص ١٩٠.

(٨) انظر: ديوانه المخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٢٤٣ أدب، وترجمته فى الأنباء جـ ٣ ص ٢٧١.

والطغرائى، والطنطرانى وغيرهم، وبالفارسية: كثيرون منهم: اللامعى الدهستانى[1]، والمعزى[2]، وأنورى، وسواهم.

وعلى الرغم من سماحة يد «النظام» وسعة صدره فلم يستطع الخلاص من دسائس المنافسين وكيد الحاسدين، فأغروا بعض الشعراء بهجو «النظام»، ولكننا لم نستطع العثور على نماذج منه، ولا نعرف شاعرًا هجاه غير مادحه وربيب نعمته.. وهو ابن الهبارية. وإن أصحاب السير يحكون لنا متى ولماذا هجاه، وأنه حينما طلب إليه أبو الغنايم تاج الملك بن دارست[3]، أن يهجو «النظام» قال: كيف أهجو شخصًا لا أرى فى بيتى شيئًا إلاّ من ذمّته؟[4].. ولكن بريق المال خدعه واتخذ من عدم إجابة «النظام» لسؤاله ذريعة وقال فيه ثلاثة أبيات:

لا غرو إن ملك ابن إسحاق وساعده القدر
وصفت له الدنيا وخُصّ أبو الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلاّ بالبقر

وسواءٌ أكان الذى حرّضه على ذمّه - أبو الغنايم - غريمه كما رواه ابن خلكان[5]، أم أبو المحاسن صهره كما يراه الصفدى[6]، وسواءٌ قدمها إليه بنفسه كما ذكر الآخر أم بلغت مسامعه كما ذهب الأول.. فإنه لم يغضب لها، وإنما شرح قولته باسمًا وهو يشير إلى المثل السائر على ألسنة الناس وهو قولهم: «أهل طوس بقر» وكتب على رأس رقعته، يطلق لهذا القوّد

(١) هو أبو الحسن محمد بن إسماعيل اللامعى الكركانى من شعراء السلطان ملكشاه ووزيره النظام وكان معاصرًا للبرهانى والد المعزى.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك النيسابورى وكانت وفاته على أحد الأقوال سنة ٥٤٢هـ/ ١٠٤٧م حيث قتل خطأ بيد سنجر (لباب الألباب جـ ٢ ص ٦٩ - ٨٦).

(٣) وفى الوافى بالوفيات للصفدى - أبو المحاسن وهو صهر النظام وكانت بينهما منافرة جـ ١ ص ١٣٠.

(٤) ابن خلكان - وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٧٧.

(٥) الصفدى - الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٣٠.

(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٠.

رسمه مضاعفًا[١] وقيل: «وزاد فى أفضاله وخلع عليه وأعطاه خمسمائة دينار[٢] حتى عدّوا هذه ضمن مكارم أخلاقه وسعة حلمه»[٣].. وحتى قال «ابن الهبارية» لمحرضه: «ألم أقل لك إنى ما أهجوه وهذا فعله معى»[٤].

وتحدثنا النصوص.. أن «ابن الهبارية» قد عاود فعلته هذه وقال فى «النظام» قصيدة غضب «النظام» عند سماعه بها، وفيها يقول:

أتجهل يا نظام الملك أنى ... أعاود فى حماك كما قدمت
وأصدر عن حياضك وهى نهب ... بأفواه السقاة وما وردت
يدلّ على فعالك سوء حالى ... وتنطق عن مقالى إن كتمت
وما فى الوافدين عليك شخص ... يمت من الولاء كما أمتّ
وهم دونى إذا اختبروا جميعًا ... فَلِمْ بالدون دونَهم خُصصت
وفى أصلى وفصلى غير خاف ... ولَكن ما لِفضل منك صنت
إذا ما ضعت عند بنى جهير ... وعندك - معَ سماحتك - انتهيت
فأين الفرق بينكم وماذا ... ببعدى عن دياركم استندت
وها أنا ساكت فإن اصطلحنا ... وإلاّ خاننى صبرى وقلت

قيل: ولمّا سمع بها أهدر دمه إلى أن تشفع له - صدر الدين محمد ابن الخجندى - الذى كان يحضر مجلس «النظام» فى كل يوم اثنين، فقبل شفاعته..

وهى - مع ذلك - ليست هجاءً مقذعًا.. وإنما ينتهى بها إلى شىء من التوسل والاعتذار إليه والاعتراف بسماحته، وهى كذلك مهلهلة الأسلوب ضعيفة المعنى ولعلّها من صنع المغرضين.

---

(١) مرآة الزمان جـ ٨ نقلاً عن الخريدة.

(٢) ابن خلكان - الوفيات جـ ٥ ص ٧٧.

(٣) سبط بن الجوزى - مرآة الزمان جـ٨.

(٤) نفس المصدر.

وكما مدح «النظام» مئات الشعراء أيام حياته فقد رثاه عشراتهم بعد وفاته، وقد أسهم فى تأبينه العرب والفرس أيضًا وكانت لوعة هؤلاء به أشدّ، ومبالغتهم فى تعداد مناقبه وآثاره أقوى.

ويجدر بنا - ونحن فى ختام هذا الفصل - أن نتبين مصدر ذلك النشاط الفكرى، وأهم مراكز تلك الحركة الثقافية، ونتلمس القوة المسيّرة لها والعوامل المشجّعة على بعثها ونشرها.

لقد عرفنا من قبل أن العراق بحواضره الثلاثة: بغداد والبصرة والكوفة ثم الموصل كان مركزًا لحركة ثقافية طوال القرون الخمسة للهجرة. ومن هذا المركز كانت تشعّ ألوان الثقافة - على اختلافها فتشمل أرجاء العالم الإسلامى شرقًا وغربًا.. وبهذا ولدت بيئات علمية جديدة أخذت ترقى تدريجيًا حتى أصبحت - خلال القرن الخامس الهجرى - تنافس البلد الأم فى عدد علمائها وطلابها وأنواع العلوم التى تدرّس فيها.. وكانت «نيسابور» و «طوس» و«أصبهان» و «مرو» فى بلاد فارس و «بلخ» و «بخارى» و «هرات» و «آمل» و«طبرستان» فيما وراء النهر من أمهات المدن التى كانت تستقبل ذلك الإشعاع الفكرى وتبثّه فى الأنحاء التى بجوارها أحيانًا والنائية عنها أحيانًا أخرى.

ولم يغب على «النظام» وقد أراد لأمته دولة إسلامية متحدة - أثر العلم فى تكوين هذه الدولة وتوجيه شعوبها فينشر «نظامياته» فى تلك المدن الكبرى، وبعد قليل من تأسيسها صارت هى مناطق البثّ الرئيسية فى العالم الإسلامى.. وكان هو الطاقة المحرّكة لها بما أوتى من نفوذ ومال ورجاحة فكر وسعة إطلاع.

وكان مما ساعد على نمو هذه الحركة تقديمه العلماء وخاصة الفقراء - المتصوّفة - على غيرهم من سائر الطبقات والإغداق عليهم وفتحه المدارس لهم فى كل مكان يبرزون فيه، حتى صارت لهم منزلة فى نفوس الناس تفوق ما شهدوه فى سالف العصور، فكان منهم السفراء لإبلاغ الرسائل المتبادلة، وكان

منهم الوسطاء إذا حدث خلاف بين دار الخلافة وقصر السلطنة، وبينهما وملوك الأمم المجاورة. . وإليهم الرجوع فى مسائل المعاملات الشائكة وبمشورتهم يؤخذ الرأى القاطع فى تخريج الأحكام الشرعيّة التى تتصل بنظم الحكم وتقنينها. . أشبه بمجلس الدولة الذى نراه فى حواضر العالم المتمدن.

ولدينا من الأمثلة التى حصلت فى هذا العصر عدد كبير، فقد سَفَرَ - الماوردى - بين الخليفة وأمير بغداد(١). وسفر الإمام القشيرى - عميد نظامية بغداد - إلى الخليفة القائم بأمر اللّه ولقى منه قبولاً وعقد له المجلس فى منازله المختصة به(٢).

فن المناظرة في مجلس «النظام»:

وكان مجلسه - كما تحدّثنا الأخبار - يزدحم بالعلماء وطلبة العلم ورجال الدين على اختلاف درجاتهم ونزعاتهم، وكانت المناظرات فى المسائل العلمية والمجادلات فى المشكلات الدينية تجرى أمام «النظام» وتحت إشرافه، وقد كان يأنس لها ويفيد منها كما يستفيد ويسرّ منها الحاضرون فإذا لمسّ فى أحدهم نبوغًا «قدّمه على أقرانه»(٣).

وقد بلغت مجالس المناظرة من البراعة فى المناقشة والحرية فى إبداء الرأى والإصغاء لسماع الدليل ما تسير عليه المجامع العلمية فى عواصم العالم المتحضر اليوم من جدل وحجاج وفق المنهج العلمى حتى صارت المناظرة علمًا له قواعده وآدابه ومؤلفاته، وحتى قيل فى ترجمة - الإمام رضى الدين النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥هـ: «إنه قد أحدث لعلم المناظرة ضبطًا وترتيبًا لم يكن قبله»(٤).

ومن دلائل هذا الضبط ما وصل إلينا من حكايات بهذا الخصوص تدلنا على

---

(١) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ٣٠٣ - ٣٠٥، وآدم ميتز.

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٤٣.

(٣) الذهبى - سير أعلام النبلاء - مجلد ١٢ ص ١٦.

(٤) القزوينى - آثار البلاد ص ٣١٧.

أن هذه المجالس كانت تعقد أحيانًا لسماع فكرة جديدة فيحضرها لفيف من مشاهير علماء الطوائف الأخرى، فيستمعون لصاحب النظرية الجديدة ويناقشونها، وقد يعاد عقد المجلس مرة ثانية ليستأنف مناقشته[1].

ومما يخطر على بال كل قارئ لسيرة النظام متتبع لأحداث عصره أنه لم يكن مخلصًا كل الإخلاص فى حركته العلمية هذه وإنما كان يبتغى من ورائها نصرًا لسيادته وفوزًا لسياسته.. لذلك لا نستطيع الجزم بأن الدافع الوحيد لعقد مثل تلك المجالس - مجالس الملوك والأمراء والوزراء - هو الدين أو العلم أو الأدب فحسب فإن الاعتزاز بكل واحد منها يومذاك دفعه لجذب العلماء ورجال الدين إلى حضور مجالسه إذ إن حضورهم يعدّ كسبًا يفخر به الساسة فى ذلك الحين، فهو فضلاً عن أنه أداة للشهرة الحسنة بين طبقات العامة يدل ضمنًا على تأييدهم للحكام ولشكل الحكم القائم الذى يسيرون بمقتضاه، لذلك امتنع - الباقلانى - من حضور مجلس الملك - فتاخسرو - حينما دعاه ليحضر مجلسه وينصر مذهبه قائلاً: «ليس غرض الملك من هذا إلاّ أن يقال أن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان خالصًا للّه لنهضت»[2].

وإذا علمنا أن تفسير الأشاعرة لقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[3].

أن المراد بأولى الأمر ليس حكّام البلاد وسادتها وإنما هم أهل الفقه والدين والذين يعلمّون الناس معانى دينهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر[4].. لأدركنا أولاً كيف امتزج العلم بالدين فى السياسة وعرفنا ثانيًا لماذا عنى الحكّام برجال الدين والعلم.

عقيدة «النظام» الدينية:

والعقيدة مازالت من المصادر الثقافية المهمّة بقدر ما هى من المقوّمات

(١) ابن عساكر - التبيين ص ٩٣ - ٩٦، وابن عقيل: الفنون فى أوراق مختلفة من أجزائه الباقية.
(٢) المصدر السابق ص ١١٨، ١١٩.
(٣) سورة النساء - من الآية ٥٩.
(٤) المصدر السابق ص ١٢٦.

الشخصية البارزة، لأنها الأصل الذى تمتد إليه جذور ما يدعى بالأخلاق، والورد الذى ينبع منه ما يسمى بالمثل العليا، فهى الأساس لقواعد السلوك فضلاً عن الشعور الذى توحيه للنفس عند عمل الخير بالاطمئنان والهدوء.

و«نظام الملك» - كما عرفنا - تفقّه على مذهب الشافعى[١].. وكان فى الأصول على مذهب الأشعرى حيث تربى فى أسرة متدينة ودرس على أساتذة من الشوافع الأشاعرة، وهو - كما سنعرف من رجال الحديث «والتشيّع فى المحدثين نادر»[٢]، فلا مجال لدعوى تشيّعه وإن كان معتدلاً فى تسننه. ومن المدهش حقّا أن نجد بين رجال السير المحُدثين من يزعم أنه شيعى[٣] على الرغم من شهرة ذلك وتضافر البراهين من أعمال «النظام» وأقواله عليه..

وربما كان دافع هذا الزعم ما قصّه «النظام» نفسه عن مهمّة السفراء ورسل الملوك، وكيف يتلمسون مواضع النفس ومواطن الضعف فى السلاطين والوزراء ليتخذوا منها وسيلة للتآمر عليهم، وكيف اضطرب خوفًا من السلطان «ألب أرسلان» حينما أخبره رسوله - أشتر العالم - بأن سفير خان ما وراء النهر - شمس الملك - قد ظنّ فيه التشيّع لوضعه الخاتم فى أصبع اليد اليمنى كما يفعل الشيعة، فبذل من أجل ذلك ثلاثين ألف دينار ذهبًا حتى لا يبلغ الخبر مسامع السلطان لأنه كان متعصبًا لمذهبه، وكثيرًا ما كان يردد: «وا أسفاه لو لم يكن وزيرى شافعيّا»، ثم تناقلت الكتب هذه القصة فظنّها بعضهم حجّة على تشيّعه الذى اضطر إلى كتمانه، وربما كان أيضًا فى زيارته للمشاهد الشيعيّة المقدسة فى إيران والعراق ما يوهم القائلين بتشيّعه. ولا نستطيع أن نفهم مدى اعتقاد «النظام» فى دينه، ورسوخه فى ضميره ما لم نتبين صورًا من أفعاله وتصرفاته.

قيل: إنه كان سخيًّا وفيًّا زاهدًا عابدًا فقد أوثر عنه كثرة البذل والعطاء..

(١) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ١٣٢، وابن كثير - البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٢٠.

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٦٧ - ٧٢ ترجمة أبى عبد الله الحاكم.

(٣) أغابزرك - الذريعة إلى تصانيف الشيعة والأمين العاملى - أعيان الشيعة جـ١ ص ١٦٧ و جـ ٢ ص ٢٢٥ - ٢٤٧.

فكان يسأل الحوائج فى أثناء مجلسه ويجيب عنها وينعم بالأموال الطائلة والهبات الجزيلة[1]. وكان دائم الوضوء، ولم ينقطع عن تلاوة القرآن، وعند سماعه الأذان يترك ما بيده من أعمال ويقوم للصلاة[2] وكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع[3].

وما كان لأحد أن يصدق الباخرزى والحسينى والعماد الأصبهانى من مؤرخى دولة آل سلجوق فيما قالوه عنه من جود على الفقراء والمتصوّفة، وبذخ على العلماء والأدباء.. لولا ما نقرؤه ممن جاءوا بعد موت «النظام» واندثار السلاجقة بأجيال وما جاء على ألسنة غير الشافعية ممن لا يتهم بزلفى أو زيف مثل «أبو الوفاء بن عقيل» الحنبلى المتزمّت المعاصر «للنظام»، فقد روى أنه قال فى كتابه «الفنون»: «إن أيامه التى شاهدناها تربو على كل أيام سمعنا بها، وصدقنا بما رأيناه وإن كناً قبل ذلك مستبعدين له، ناسبين ما ذكر فى التاريخ إلى نوع من تحسين الكذب فأبهرت العقول سيرته جوداً وكرمًا وعدلاً»[4].

وقد ذهبت فى كرمه الأقاويل: حكى أن رزقه كان يجرى على اثنى عشر ألف إنسان من فقيه وغيره[5]، وحكى أن ما يصرفه ينوف على ستمائة ألف مثقال ذهب غيره الذى ينفقه من خاصة أمواله ومحصولات غلاله[6]. وكان إنفاقه على المتصوّفة خاصة لا يكاد يصدق حتى قيل: إنه أعطى بعض منتميهم فى مرات ثمانين ألف دينار، وذلك بسبب تعظيمه للصوفية[7].

وقد جرّ عليه إنفاقه هذا مشكلات سياسية أدّت إلى الخلاف بينه وبين

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٧.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٧٢.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٤٠.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٤٠، وابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١.

(٦) النهروانى ـ الأعلام ص ١٧٥.

(٧) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

السلطان «ملكشاه» سنعرض لها فى الباب الأخير من البحث. وكان يريد أن يكون السلطان جوّادًا مثله، يعدّ الولائم الضخمة للجيش، ويغدق على المعوزين والمحتاجين من الناس، لأن السخاء بنظره من فضائل الملوك. : لهذا نراه يشكو من تقتير السلطان، ويذكّره بولائم - طغرلبك - والقره خان - وينبّهه لاستياء الحاشية والجند منه لأنه لا يقيم لهم الموائد ويدعوهم إليها.

وكان لنسكه وتقواه كثيرًا ما يردد: كنت أتمنى أن يكون لى قرية ومسجدًا أخلو فيه لطاعة ربى[1] - وكان دائم الخشية من عقاب الآخرة حتى خطر له يومًا أن يدوّن خلاصة سيرته فى رقعة، يشهد فيها علماء عصره ثم يضعها معه، فلمّا وصلت إلى «أبى إسحق الشيرازى» كتب فيها - حسن خير الظلمة - فلم يشهد هذا التوقيع حتى بكى وقال: «ما كتب أحد من هؤلاء العظماء أصدق مما كتب أبو إسحق»[2].

وكان لثقته بنفسه وقوة إيمانه وعلى الرغم من احترامه الكبير لأعلام مجلسه فإنه يميل إلى الصرحاء منهم، لذلك نراه إذا دخل عليه «أبو على الفارمذى» الصوفى أجلسه مكانه وجلس بين يديه، وإذا قدم أبو القاسم القشيرى وأبو المعالى الجوينى قام لهما وأجلسهما إلى جنبه. ولمّا سئل فى ذلك قال: «إنهما يطريانى فيزيدنى كلامهما تيهًا. . . أمّا هو فيذكر لى عيوبى وظلمى فأرجع عن كثير مما أنا فيه»[3].

ولم يكن هذا فحسب فإنه لم يكتف بسماع ما يدور على ألسنة العلماء فى مجلسه، وإنما كان يزورهم فى بيوتهم أحيانًا ويذهب إلى المساجد أيام الجمع لأداء صلاتها والاستماع لوعظ خطبائها. . وهذا ما شجع بعضهم لأن يسمعه

---

(١) المنتظم - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) هندوشاه - تجارب السلف ص ١٤، ١٥ من مستخلص شيفر.

(٣) المنتظم - حوادث سنة ٤٨٥هـ، والكامل - حوادث نفس العام.

من الوعظ والإرشاد ما يخاف التفوه به أمام غيره. وهذا أيضًا ما أغرى بعضهم لأن يؤلّف له رسالة صغيرة يبذل فيها من النصائح القصار مما لم يجسر به أحد لولا معرفته بسماحته ورضاه وتأييده.

وأمثلة ذلك كثيرة فقد ذهب إلى زيارة ـ أبى الحسن الداودى[1] ـ المحدّث المتصوّف وتواضع معه وقال له: عظنى. فما زاد على قوله: أيها الرجل إن الله سلّطك على عبيده فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم؟ فبكى بكاءً شديدًا..

ولم يصل بغداد فى زيارته الأولى مع السلطان ملكشاه لها سنة ٤٨٠هـ حتى حضر جامع المهدى لأداء فريضة الجمعة واستمع لخطيبه ـ أبى« سعيد بن أبى عمامة»[2] ـ وكانت خطبته آية فى البلاغة، كما كانت عنيفة فى الوعظ شديدة فى النصيحة جريئة فى عرض واقع الأمور وتحمله المسئولية، بدأها بالحمد للّه والصلاة على نبيه ثم خاطبه بصدر الإسلام، وشرح له بصراحة منزلته من الرعيّة، وأنها ليست سوى منزلة الأجير الذى باع نفسه وأخذ ثمنها فهو أجير الأمة وإن كان وزير الدولة، وقد استأجره السلطان وبسط له فى السوط والسيف والقلم ومكّنه فى الدينار والدرهم لينوب عنه فى الدنيا والآخرة، فليس له من نهاره ما يتصرف فيه حسب اختياره، ولا له أن يصلى نفلاً أو يدخل معتكفًا، وإنما ليمضى الوقت كلّه فى مصالح الناس، لإقامة البذل وإفاضة العدل، لأن هذا فرض لازم وذلك فضل مستحب.. فإذا سئلت يوم القيامة ماذا صنعت فى البلاد والعباد أفتحسن الجواب؟ وقد اتخذت الأبواب والنواب والحجّاب فصدّوا القاصد، وردّوا الوافد، فاعمر قلبك كما عمّرت قصرك.. ثم يختم خطبته بآى الحشر، وما أن ينتهى منها حتى يجهز «النظام» فى البكاء، ويبكى بكاءً

---

(١) المنتظم جـ ٨ ص ٢٩١، وطبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٢٩.

(٢) هو المعمر بن على بن المعمر ولد سنة ٤٢٩هـ وسمع الحديث، وجلّ وعظه حكايات السلف وكان له خاطر حاد، وذهن بغدادى، وكان يحاضر الخليفة المستظهر باللّه، توفى سنة ٥٠٦هـ(المنتظم جـ ٩ ص ١٧٣، وابن رجب ـ ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٣٢).

طويلاً.. ثم يأمر للخطيب بمائة دينار جزاء صراحته وجرأته، فيردّها على الوزير قائلاً: «إن الفقراء على بابك أكثر منهم على بابى»[1].

ومن الطريف أن يتلقى «النظام» موعظة ثانية من حنبلى آخر بل من أشدّ الحنابلة تعصبًا لمذهبه فيتقبلها بصدر رحب ويتوسط لصاحبها سنة ٤٧٤هـ، فيخلع عليه الخليفة المقتدى خلعة فاخرة ويمنحه لقب ـ شيخ الإسلام زين العلماء، وخلعة أخرى لابنه ـ عبد الهادى[2] ـ ذلك هو أبو إسماعيل الهروى الأنصارى[3] ـ أمّا موعظته فقد ضمّنها رسالة مختصرة يعظ فيها «النظام» وعظ المريدين ويرشده إرشاد السالكين، يوصيه فيها بالسعى لرعاية القلوب وألاّ يبيع دنياه بآخرته، إذ ليس فى الأولى سوى المتاعب والحسرات، وخلاص النفس بالعبادة وتذكّر ساعة الموت وعدم إطاعة هوى النفس، واعتبار العلم سلاحًا وطلبه عزة.. لأن المعرفة هى الحصن الحصين فى طلب الفضل والحذر من مكايد الأعداء.. ثم يطلب منه تجنّب الجاهل المغرور وعدم التحدّث بما لم يرو ولا يسمع وعدم النظر إلى عيوب الناس، لأن محاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين وألاّ يجعل قلبه مسرحًا للأوهام وألاّ يخَفّ من الدراويش.. لأن فى مصاحبة العلماء سعادة فى الدنيا والآخرة[4].

وما تقبّله لأمثال هذه الموعظات من غير علماء طائفته إلاّ بدافع إيمانه العميق، ونظرته الواسعة للدين، وأنه فضّل الإسلام على غيره من الأديان، وميّز الشافعى على غيره من المذاهب، وانتقى مذهب الأشعرى فى الأصول لمافيه من توسط واعتدال.

---

(١) انظر الملحق رقم ١٣ من البحث.

(٢) ابن رجب البغدادى ـ ذيل طبقات الحنابلة ص ٧٣.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن على من ذرية أبى أيوب الأنصارى، ولد سنة ٣٩٩هـ، وله مؤلفات منازل السائرين، وذمّ الكلام وأهله.. كان عنيفًا فى مناظرته لخصوم الحنابلة وقد اتهم بالتجسّم.. له مجالس مناظرة حضرها النظام إلى أن توفى بهراة سنة ٤٨١هـ (تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ٣٥٤، وابن رجب ـ ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٦٦، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٨٢).

(٤) انظر الملحق رقم ١٤ عن الذهبى باسم «النصيحة النظامية» الأدبى عبد الله الانصارى.

ولقارئ سيرته ورسائله أن يتساءل إذًا عن أشياء نسبت إليه: فهو يلبس الحرير ويلعب النرد ويكتب للسلطان فى كيفية إعداد موائد الشراب والخمر، وهو فوق ذلك وبعده متهم بالقتل والتعذيب.. وهذا يتنافى مع ورعه وتقواه، أجل.. إنه بشر، بل كلٌ منّا بشر، وقد نقع فى الخطأ فلا معصوم غيره تعالى.

أما ارتداء الحرير فقد كان يومذاك مدعاة لرفض شهادة لابسه أمام القضاء، وقد كان فى موقف قاضى القضاة ـ أبو بكر الشامى الشافعى[1] ـ من ردّ ـ المشطب الفرغانى[2] ـ لكونه يلبس الحرير.. فقال: «أتردّنى والسلطان والوزير نظام الملك يلبسانه، فأجابه: ولو شهدا لما قبلتهما». فى هذا الموقف ما يشعر بعدم قبول شهادة «النظام» فيما لو أراد الإدلاء بها فى مناسبة ما، وهو أمر له أهميته من ناحية تزكيته الدينية لمنصب الوزارة.

والذى يبدو أنه رأى فقيه متزمّت فى أحكام الدين كان متشددًا فى التزام مظاهر الزهد فى الحياة وترفها.. والوزارة ولاسيما السلطانية منها ـ بنظر النظام ـ أقرب إلى الحياة الدنيا وشئون السياسة والحكم منها إلى الغلّو فى الدين.. على أن «النظام» لم يأت باطلاً فيما ارتداه لأنه لم يكن يرى الزهد فى الحياة تقشفًا ونسكًا فى حلالها، وإعراضًا عن مباهجها وعزوفًا عن لذائذها ومتعها.

وأمّا لعبه الشطرنج فقد حكاه لنا بنفسه، وقصّ علينا كيف دخل رسول خان سمرقند وهو فى غرفته الخاصة يلعب الشطرنج مع نفر من خواصه، وكيف أذن له بعد أن أمر برفع الشطرنج من أمامه، وارتهن خاتم أحد جلسائه الذين غلبهم آنذاك[3].

(١) أبو بكر الشامى ـ هو محمد بن المظفر بن بكران الحموى ولد سنة ٤٠٠هـ. ولّى القضاء بعد الدامغانى، اختلف مع المقتدر ثم رضى عنه.. قارب التسعين ومات سنة ٤٨٤هـ (الذهبى ـ السير جـ ١٢ ص ٢٠).

(٢) الفرغانى ـ هو على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى.. توفى سنة ٥٩٣هـ.

(٣) سياستنامة ص ٧٣ ـ فصل ٢١ من الترجمة.

أجل.. قد يتساءل ذلك القارئ: كيف نعلّل لتلهى الوزير بالشطرنج، وهى لعبة لم يجزّ الفقهاء التسلى بها فضلاً عن المقامرة وهى حرام؟.. ولمّا رجعت إلى مصادر المسألة وجدت من الأئمة من يبيحها كالإمام الشافعى، لأنها بنظره من قبيل المران على الرماية وآداب السلاح التى جنّدها الرسول، ولأنها تساعد اللاعب على فنون الحرب وابتكار الخطط للتغلب على العدو. أمّا أئمة المذاهب الآخرون فقد اعتبروها من قبيل اللهو المحذور إذ لا فائدة منها تعود على اللاعب فى دينه ولا دنياه واستندوا فى ذلك على الحديث: «كل لهو ابن آدم حرام سوى الرماية والفروسية».

وأمّا مسألة الشراب فقد أفرد «النظام» لها فصلاً فى كتابه «السياسة» أوضح فيه كيفية عقد مجلسه وترتيب موائده وشرائط غلمانه ـ فمن المعروف أن الخلفاء الأمويين ومعظم العباسيين كانوا يتعاطونها ومن ثمّ تحرّج منهم ـ وهو قليل ـ كان «قد استغنى» بحلال النبيذ عن حرام الخمرة على حد تعبيرهم وبناء على فتوى بعض فقهاء الكوفة.. على أننا لم نعثر فى النصوص التى بين أيدينا ما ينبئنا بإعداد «النظام» مجلسًا للشراب والطرب شابه معظم وزراء تلكم العصور، أو بمشاركتة فى تلك المجالس السلطانية أو تعاطيه الخمر على الرغم من شيوع ذلك جميعه فى قصور الملوك والسلاطين، وعلى الرغم من فرض التقاليد الملكية لحضور الوزراء على موائدهم للمنادمة والمساهمة، وإنما وجدناه على خلاف ذلك.. إذا بادر لمقابلة السلطان، وكان فى مجلس شربه يأمر برفعه إذا عرف بمجيئه احترامًا له[1].

ووجدناه ينصح ولديه: فخر الملك ومؤيد الملك، فى وصاياه ورسائله لهمنا بعدم حضور أمثال تلك المجالس ويحذّرهما من تعاطى الخمر فضلاً عن الإدمان عليه[2].

(١) سبط الجوزى ـ مرآة الزمان ورقة ٨٦ ـ حوادث سنة ٤٧٧هـ.

(٢) انظر: ص ٤٧ من البحث ملحق رقم ٧، ٨، ٩.

ولعلّ آخر ما نتساءل عنه فى مدى إطاعته لتعاليم دينه وخضوعه لأوامرها ونواهيها، وهو آخر ما يؤاخذ عليه «النظام»، وربما كان آخر ما يؤاخذ به أيضًا، وهى حوادث القتل والتعذيب الثلاث التى اتهم بها فى بداية حياته السياسية وأثنائها والتى إن صحّت إدانته بها لمجرد الانتقام والمصلحة الذاتية، كانت شينًا فى تورعه.. وعيبًا فى تعبّده.. ونقصًا فى إيمانه.

قيل: إنه أوحى للسلطان - ألب أرسلان - بقتل «الكندرى» فكان أول حادث أزهق فيه روحًا بريئة ليصعد سلم المجد على جثمان صاحبها، وقيل إنه أشار على السلطان ملكشاه بقتل أخيه - قاورت - فكان هذا ثانى حادث دموى أراقه ليخضع إليه.. وقيل إنه هو الذى مهّد لقتل - كوهر خاتون - عمة السلطان المذكور بعد مصادرة خمسين ألف دينار منها.. وأخيرًا هو الذى اقترح على السلطان - بكحل أولاد عمه[1].

أمّا حادث الكندرى فقد عرفنا من قبل كيف قتل[2]، كما علمنا كيف انتهت حياة - قاورت - وأسباب مصيرها.. وأمّا كوهر خاتون هذه فقد قيل إن «النظام» استقرض منها تلك الأموال لحاجة الدولة إليها حينذاك فجاء لوداعها بمناسبة سفرها فتنمرت عليه وخرجت غاضبة إلى الرى[3] لتمضى إلى المباركية[4] تستنجدهم على قتال الوزير «نظام الملك»[5]. وليس خروجها على الدولة وإثارتها الفتنة، والحكم بعد لم يستتبّ للسلطان الجديد ملكشاه بثورات الطامعين فى العرش بالأمر الهين الذى ينبغى لمثل - النظام - السكوت عليه والصفح عن هؤلاء الثائرين الطامعين.

وليس الحكم على «النظام» أوله فى أمثال هذه الأحداث سهلاً يسيرًا إذا أريد

(١) الحسن بن الصبآح - رسالته المرقمة ٦/ب، وغيره من المؤرخين.

(٢) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠٠.

(٣) السبط - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٦٧هـ - ورقة ١٥٤.

(٤) حصن بناه المبارك التركى أحد موالى بنى العباس وبه قوم من مواليها.

(انظر: معجم ياقوت - شرح القاموس فى مادة - برك).

(٥) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠٠.

له أن يكون حكمًا عادلاً نزيهًا، لأن الحقيقة التاريخية هنا مركّبة وذات وجوه عديدة والحكم فيها بالنظر إلى وجه واحد عمل يجانب الحق، ويباعد بنا عن المنهج العلمى السليم، لذلك كان لزامًا علينا أن نشير إلى ناحيته النفسية فى ضوء ما توصلنا إليه من دراساته واختباراته وأسرته وبيئته لنستشف منها إن كان قد قام بتلك الأعمال انحرافًا فى سلوكه أو نقصًا فى مشاعره أو عاهة فى بدنه ولينكشف وجه الصواب لقارئ سيرته فى كل ذلك، أو أنه نتيجة رأى يعتقد بحكمته وسداده، ويثق بحقه وصوابه، ثم بوجوب تطبيقه.

نفسيته وخُلُقه:

قد يقال: إن «النظام» بدأ حياته السياسية المتناقضة التى تعبّر عن عقدة نفسية، ثم استمرت تلازم مواقفه الصارمة ضد خصومه وأعداء الدولة، إذ كانت نشأته الأولى دينية علمية - كما عرفنا - ومن الناحية المالية والاجتماعية كانت حياته متعثرة، فدينه وعلمه يمنعانه عن المحذورات ورغبته فى المال والمنصب يشجعانه على إباحة المحرمات. ومن هنا تأصلت فيه هذه المتناقضات من الإغراق فى الدين والإمعان فى القسوة.

وقد يقال: إن بين التكوين الجسمى لكل شخص وسلوكه فى الحياة العامة صلة وثيقة أثبتها علماء النفس وأقرّها الطب الحديث، حتى قالوا: إن لكل نقص فى الخَلق ما يساويه من شذوذ فى الخُلُق نتيجة مركّب النقص الذى أحدثه فى أعماق النفس، ثم أليس أنه بشر؟[١].

ونحن نؤيّد ما قيل فى المرتين محاولين الوصول إلى صورة تقريبية لنفس الوزير من خلال ما نسب له وقيل عنه، وانتهينا إليه من دراسته لأن المؤرخين له قد أهملوه كذلك من هذه الناحية، وقد يكون من غرور القول أو فضوله أن ندعى الدقة بما نتوصل إليه من تصوير لناحيته النفسية، إذ إننا نعجز كل العجز فى تفسير بعض الظواهر والأعراض التى تبدو من زملائنا وأهل بيتنا فكيف بمن

(١) أليس شاعرنا العربى «أبو ذؤيب» - يقول :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع

حالت بيننا وبينه تسعة قرون، ولم يبق لدينا عنه سوى بعض النصوص والآثار.. ما أحوجها إلى التحقيق والتمحيص و....

إن النصوص التى وردت إلينا عنه لا تثبت انحرافًا فى مزاج والديه أو مرضًا فى جسمهما.. وإنما ترشدنا إلى أن والده وجدّه كانا دهقانين وقد ورث أبوه الدهقنة ثم صار جابيًا فى أواخر عمر أبيه، وكلا العملين يحتاج إلى بسطة فى الجسم، ونشاط متواصل ولابد أن يكون قد ورث عنه جسمًا قويًا، وقامة مرهفة كما تدلنا على رعاية والده له وحدبه عليه، ولاسيما بعد وفاة والدته، فقد غمره بحنانه ورأفته وشفقته وعنى بدراسته وتوجيهه وتأهيله، وبقى صدى هذا وأثر ذاك ماثلين فى نفسه وبدنه فنشأ سويًا فى خُلقه، كما كان طبيعيًا فى خَلقه[1].. فلا عجب أن نراه حليمًا مع أعدائه كما نشهده وفيًا مع أصدقائه، فلم يذكر له التاريخ بادرة فى شر بدأ بها أحد معارفه أو بغضاء نشرها بين إخوانه وأصحابه، وإنما ذكر له، وأشاد بما ذكر من لطف بالمساكين، وعطف على الضعفاء، وتبجيل للعلماء، واحترام للكبراء.

وقد ورث - بعد ذلك - عن أصله الفارسى - كما يرثّ كل انسان عن أرومته.. مزاجًا مرحًا، وعقلاً مفكرًا، فكان رجل عقل قوى، ودأب متواصل، وجدّ مستمر، يمزجه بالدعابة والفكاهة أحيانًا... وكان - بهذا - داهية ذكيًا إلاّ أن دهاءه غلب ذكاءه وفى هذا يكمن سرّ بروزه فى الميدان السياسى إذ إن حدة الذكاء أحيانًا تؤدى بصاحبها إلى الشطط من جرّاء سوء الظنّ فى تصرفات الآخرين والقصاص منهم، وبالتالى إلى خلق الأعداء الكثيرين، وهو فى غنى عن دسائسهم..

ومن ناحية الذكاء أيضًا فقد كان راقيًا.. إلاّ أن غضبه غلب ذكاءه، وكثيرًا ما اهتاج غاضبًا فى الوقت الذى تستوجب قواعد الذكاء كتم غضبه وعدم الإفصاح عن دخيلة قلبه، وبهذا يتضح سبب سقوطه فى أخريات أيامه حيث

(١) غير أنّ بعض المراجع تذكر أنه كان مصابًا بداء - النقرس - فى المرحلة الأخيرة من عمره وربما كان من أسباب ذلك قلّة المشى والاعتماد على الركوب أو المحفّة التى أوقفها حينما رأى شاكيًا بيده عريضة، فطعنه وهو يقرؤها.. ولذلك سمّى بداء الملوك والوجهاء.

لم يستطع السيطرة على أعصابه أمام وفد السلطان «ملكشاه» الذى أتى إليه شاكيًا من تصرفات ابنه وتعيين أقاربه دون إذنٍ منه، فأعرب عمّا فى نفسه حتى أحسّ بخطئه وندم على ما قام به[1].

والذى يبدو لنا من هذا كله أن «النظام» لم يكن يحسّ بمنقصة فى نفسه أو يشعر بغضاضة أو ضعة فى جسمه أو نسبه.. وإنما كان على العكس من ذلك، يرى فى نفسه الكفاءة النادرة والمعرفة العالية والمحتد الكريم.. فكيف يمهد السبيل لمنافسيه أن يتقدموه وهم أقل منه ذكاءً وعلمًا؟!.. وكيف يرضى لخصومه أن يسبقوه وهم ـ بنظره ـ أقل خبرة بشئون الدولة وأضعف إيمانًا فى تحقيق أهدافها الدينية؟!.. ولكنه لا يرضى لنفسه ـ مع ذلك ـ أن يتآمر ويغتال من أجل أن يخلو له الجو، وهو الذى ينصح ابنه بأن لا يمكن للدنيا أن تفرغ من ذوى الكفاءات، فعليك أن تسعى للتفوق عليهم بالجدّ لا أن تخلوها بالقتل ـ لأن الإيقاع بالآخرين إيقاعٌ بالنفس[2].. ولا يرضى لنفسه ذلك أيضًا، وهو الذى يقول لسلطانه فى معرض الحديث عن البلاء والمرض: «إن لا خلاص منهما إلاّ بالعدل والرحمة».

لذلك نراه على رحمته ولينه فى الحكم وصفحه وعفوه عند الضرورة فإنه لا يتسامح أمام اثنين: الخارجين على الدين، والخارجين على الدولة.. كما لا يتورّع فى اتهام الخارجين على المركزيّة[3].. وللاستدلال على ذلك ما ذكره المؤرخون من أن السلطان أراد قتل الأسرى بعد قضائه على الأمير ـ قتلمس بن إسرائيل ـ فأشار عليه «النظام» بالصفح والغفران.. فعفا عنهم ومنحهم العطايا.. ولكثرة صفحه قالوا عنه: «وكان كثير الصفح عن المذنبين»[4].. ثم

(١) انظر: ص ٤٦٧، ٤٧١ من البحث.

(٢) الوصايا ص ٧٢.

(٣) كما فعل فى اتهام ـ يعقوب بن الليث الصفار ـ عند خروجه في سستان على الخلافة فزعم بأنه خدعه الدعاة فى بيعة الإسماعيلية. (سياستنامة ص٨ فصل ٣٠) وهى تهمة لا أساس لها فى المصادر المعتمدة (ابن الأثير ـ حوادث سنة ٢٦٢هـ، وابن خلكان جـ ٢ ص ٣١٦).. لأن الأسرة الفاطمية ومدينة المهدية لم تكونا موجودتين حينذاك.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٤ ـ ٨٦ ـ حوادث سنة ٤٨٤هـ.

عفا عن ـ الحسن بن الصبّاح ـ عندما أساء إليه ولم يطلب من السلطان نفيه وطرده، وكان آخر مثل ضربه لروح التسامح عمن يؤذيه خاصة دون ضرر عام يتصل بالدولة ودستورها أن تكون آخر كلمة فاه بها: «لا تقتلوا قاتلى فقد عفوت عنه» وتشهّد، ومات[1].

ولا نظنّ تعليلاً لموقفه هذا وذاك إلاّ أنه كان يحمل من الصفات إيمان المسلم الصحيح وحنكة السياسى الواقعى، وكان يصطنع الألفة بينهما كمن يوفّق بين الفلسفة والدين، وكان ذهنه وقّادًا سخيًا يسعفه بالحلول، ويختلق الحيلة من الشريعة السمحاء إذا لزم الأمر واضطر إلى أن يخالف الدين، على أن ما اقترفه فى ذلك قليل بالنسبة لما عرفناه فى أعمال الساسة العظام.

وبدت الأشعة ضعيفة من خلال أعماله هذه ثم أخذت تقوى مرسلة أضواءها على شخصيته وبدت ملامح هذه الشخصية تبرز واضحة متناسقة، وهو يتسلق مدارج المجد، بحيث أصبح من الممكن أن نستشف من ورائها حقيقة الرجل وما يختلج فى نفسه من نوايا، وما يرسم لتنفيذها من خطط، وكيف وجد دون غايته طريقًا وعرًا تحفّه الأشواك، وتعترضه العقبات، ووجد من خلفها سيلاً من الخصوم للدولة والمنافسين له يكيدون للقضاء عليه.. ووجد نفسه مضطرًا لأن يطيح بهؤلاء جميعًا وإن رضخوا واستسلموا بعد أن أخفقوا.. وأن يعزل من المناصب الكبيرة من لا يستحق العزل لتقديم أحد أبنائه وأصهاره عليه[2].. وربما خالجته مخافة الله فى بعض الأحايين فتسيل دموعه منهمرة عند سماعه لخطب الواعظين.. وقد ترغمه ظروفه السياسية فيمسح تلك الدموع ويجور على خلجات قلبه الذى يضطرب حنانًا، ويخفق حزنًا وألمًا فيغدو بعيدًا عن مشاهدة المأساة التى يمثّلها السيّاف بأمر من سلطانه إذا لم تسعفه عبقريته بحل سلمى يتحاشى به سفك الدماء، ولم يجد بدّاً من سلوك هذا الدرب القاتم المتجهم بما تحيطه من متناقضات ومفارقات وموافقات وتشويه من خفايا وأسرار ومفاجآت،

(١) طبقات السبكى جـ ٣ ص ١٣٥ ـ ١٤٥.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٢، وسبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٨٤هـ.

فكانت مجالاً فسيحًا لظنون الكتّاب وتكهنات الباحثين، كما سنقرؤه من اختلافهم فى صلته بالخيّام والصبّاح . . . ومن بعده فى علاقته بالسلطان ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ وتفسير ما تخلّل هذه وتلك من أعمال.

ولا نخاله ـ بعد هذا وذاك ـ إلاّ رجل دولة من الطراز الأول وليس سياسيًا محترفًا يجرى مع الريح أينما هبّت ويسير مع النفع الشخصى حيثما ذهب. . فإننا من خلال سيرته وعباراته نسمع صوت رجل ذى عقيدة راسخة سار إلى الموت وهو يعلم أن عداءه للإسماعيلية سيؤدى بحياته، ولكن النصر ـ مع ذلك ـ سيكون لآرائه ومعتقداته بعد وفاته[1] . . إذ هو القائل: «وسيتذكرون أقوالى حينما يبدأ الباطنية يرمون الرجل العظيم فى الحفرة وتتكشف أسرارهم، وحينئذٍ ستردد الألسنة صدى أقوالى على قرع الطبول، وفى زمن المحنة والضيق سيعرفُ السلطان بأنى كنت على صواب».

* * *

(١) بارتولد ـ تركستان ص ٢٥.

• الفصل الثانى

استيزاز «النظام»

والعلاقة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء والوزير

- المرسوم الأول والثانى فى تعيين «النظام» وزيراً.

- العلاقة بين سلاطين السلاجقة والخلفاء.

- المصاهرة بين الخلفاء والسلاطين السلاجقة.

- الألقاب وموقف «النظام» منها.

استيزار النظام

أ- المرسوم الأول والثاني في تعيين «النظام» وزيراً:

انتهى بنا الحديث فى ثنايا الفصل الأول إلى بداية المرحلة الثانية من حياة «نظام الملك»، حيث أتمّ مرحلته الدراسية العالية في بخارى ثم انتقل منها إلى مرو فبلخ، حيث اتصل في نهايتها بأبى على أحمد بن شاذان ومنه انتقل إلى ديوان الأمير - محمد بن جغرى بك داود - الذى سمّى فيما بعد - ألب أرسلان.. أى قلب الأسد.

ولصلة «النظام» بالأمير الشاب قصتان يرويهما المؤرخون فى معرض الحديث عن سيرته ولا نخالهما إلا قصة واحدة.. كانت الثانية فصلاً متمّمًا للأولى.. فقد ذكروا فى أولاها أن «النظام» بعد أن طوّف فى بلاد خراسان ألقى عصا الترحال - فى بلخ - واشتغل بأعمال كتابية لدى - ابن شاذان - ثم هرب إلى بلاط، جغرى بك، الذى قدّمه إلى ابنه «ألب أرسلان»[1].. وقيل: إنه بقى عند - ابن شاذان - إلى أن دنت منه الوفاة فقدّمه إليه وأوصاه به خيراً وأبان له كفاءته وأمانته[2].

وسواء أكان انتقاله إلى الأمير وتعرّفه عليه بواسطة والده حيث أرسله إليه موصيًا أن يتخذه أبًا له ومستشاراً فى أعماله[3]، أم عن طريق عميد «بلخ» الذى

---

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤ - ٦٨ - حوادث سنة ٤٨٥هـ، والسبكى جـ ٣ ص ١٣٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الكامل جـ ١٠ ص ٨٤ - ٨٦ - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

اضطره للفرار منه إلى حضرة الملك ـ داوذ ـ بسبب مصادرته له كل عام كما فصّلنا ذلك من قبل، سواء أكان هذا أم ذاك فلم يعدّ من الغريب أو الصعب أن يختاره وزيرًا له بعد أن أصبح سلطانًا على إثر وفاة عمه ـ طغرلبك ـ عام ٤٥٤هـ وبعد أن خبره فى فتوحاته الكثيرة وامتحنه فى مواقف حاسمة خطيرة، فأثبت له فى كل ذلك جدارته وإخلاصه وقدرته ووفاءه فلم يطلع عام ٤٥٥هـ حتى استوزره السلطان «ألب أرسلان» وأبقى الكندرى وزير عمه الراحل يعمل إلى جنبه تقديرًا لجهوده الأولى فى تأسيس الدولة ومساهمته فى توطيد أركانها، وكاد الأمر يسير على هذه الوتيرة مدّة، قد تكون طويلة لولا وصول الأخبار إلى آذان السلطان باجتماع قواد الجيش عنده، وسير الناس وراءه على إثر خروجه من بيت الخواجة ـ حسن ـ وتقديمه له مبلغ خمسمائة دينار رمزًا لتقديره وولائه له[1]. . .

ومرّت الأيام متلاحقة ـ والسلطان يزداد وثوقًا «بالنظام» وشكًا فى سابقه وغريمه إلى أن قضى عليه، ثم تلاحقت الأعوام وتضاعف اطمئنان السلطان به حتى اختاره قيّمًا على ابنه ملكشاه ووزيرًا له بعد وفاته[2].

وكانت الظروف جميعها تفرض بقاء «النظام» في منصبه، ليس وزيرًا للسلطان ملكشاه فحسب وإنما حاكمًا مطلقًا فى الدولة، فقد كان مربيًا ومرافقًا له وهو صغير، وأبدى ذكاءً نادرًا فى حل المشكلات وحكمة عالية عند الأزمات، وإخلاصًا للسلطان وأسرته مما حبّبه إلى نفوس القادة ورجال الدولة ومختلف طبقات الشعب فعهد إليه بالأمر، فلم تخمد ثورة ـ قاورت ـ وتهدأ حركة الجيش المتمرد حتى ردّ إليه الأمور صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها، وليس فيما يراه اعتراض ولا فيما يريده رفض أو تسويف، وخلع عليه وحلف له ومنحه لقب ـ أتابك ـ وأقطعه «طوس» وأعطاه علمًا على رأسه خلعة فيها ألف دينار، ودواة مذهبّة بألف دينار وعشرين ألف دينار ومائة ثوب[3].

(١) الكامل جـ ١٠ ص ١١ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٦٥هـ جـ ٨ ص ٢٧٩.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٦٥هـ، والكامل ـ حوادث سنة ٤٦٥هـ، ومرآة الزمان ورقة ١٤٠.

لقد اعترفت دار الخلافة العباسية بسلطنة «ألب أرسلان» بعد اعتلائه العرش سنة ٤٥٦هـ مباشرة وأقامت حفلاً رسميًا فى أحد الأجنحة الملحقة بقصر التاج المشرف على دجلة حضره أعيان الدولة وكبار العلماء ثم أنفذت الخلع والهدايا مع وفد مؤلف من: «أبى الفوارس طرآد الزينى، وأبى محمد التميمى، وموفق الخادم» حاملين العهد بالتولية.. وقد منحت الوزير فى هذه المناسبة لقبين مهمين، قلّ أن حملهما أحد قبله، هما «قوام الدين والدولة»« ورضى أمير المؤمنين»[1] وكان يذكر «بخواجة برزك» فى تلك الديار[2]. كما أقرّت سلطنة ولى العهد ملكشاه فى عهد والده، حينما أخذ البيعة له من قادة الجيش والأمراء وعينّه وليًا للعرش بعد موته وأرسل الخليفة كذلك كتاب الاعتراف بصحبة وفد يرأسه الوزير ـ عميد الدولة بن جهير ـ سنة ٤٦٤هـ يحمل الهدايا والتحف ويطلب يد ابنة السلطان «سفرى خاتون» لولى عهد الخليفة «المقتدى»[3].

ولم نقرأ شيئًا غير هذا يتصل بتقاليد الوزارة المتعارفة يومذاك فى استيزار «النظام »على الرغم من أنه واصل العمل فى منصبه طوال ثلاثين عامًا استغرقت مدة حكم السلطانين ـ ألب أرسلان وابنه ملكشاه ـ وكل ما أثبتته المصادر التى بين أيدينا هو تاريخ تسلمه المنصب الوزارى والخلع عليه فروى بعضها أنه كان فى اليوم الذي اعتقل فيه الوزير «أبو نصر الكندرى» وهو يوم السبت ٧ محرم سنة ٤٥٦هـ وفيه خلع السلطان «ألب أرسلان» عليه[4].. وذكر بعضها الآخر أنه فى آخر النهار من اليوم السابع عشر من محرم فى السنة نفسها[5].. وقيل: يوم الأحد ١٣ ذى الحجة عام ٤٥٥هـ[6].

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٥ ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ٢٨ ـ حوادث سنة ٤٦٤هـ، أى السيد العظيم أو الوزير العظيم.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٤٣٥ ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٤) ابن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٥) السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ.

(٦) عباس إقبال ـ الوزارة فى عهد السلاجقة / ٦٩.

وبقى التساؤل عن شرعية وزارة «النظام» ماثلاً أمام الدارس لحياته، وظل البحث عن مرسوم استيزاره حائلاً أمام المتتبع لسيرته إلى أن أتاحت لى ظروف الاستقراء والتنقيب بالكشف عن مرسومين فى ثنايا مخطوطتين قديمتين بطهران. . خلال سفرى لايران لهذا الغرض فى صيف عام ١٩٥١م كان الأول: بعنوان: «منشور السلطان ألب أرسلان فى تفويض وزارة ولده الأعز ملكشاه إلى الخواجة «نظام الملك». والثانى: بعنوان: «فرمان وزارة الخواجة نظام الملك» دون تعيين لاسم السلطان الذى أصدره، أو تحديد للوقت الذى صدر فيه المرسومان معًا[1]. . وبهذا لم يبق موضع للسؤال عن المسوّغ التشريعى لتصرفات الوزير وأحكامه أثناء وزارته بعد عثورنا على المرسوم الذى يؤيد ما حظى به من ألقاب «الخليفة»، التى سمحت له بممارسة مهام منصبه.

المرسوم الأول:

ذكرت النقول التي ترجمت «لألب أرسلان» أنه عهد لابنه بالسلطنة من بعده فى ثلاث مناسبات: الأولى: كانت فى سنة ٤٥٨هـ عندما نزل بظاهر ـ رايكان ـ ومعه جماعة من أمراء الدولة فأخذ عليهم العهود والمواثيق لولده ملكشاه وأركبه ومشى بين يديه يحمل الغاشيه، وخلع على أمرائه وأقطعهم وكان من الأيام المشهودة[2]. والثانية: سنة ٤٦٢هـ حينما توجه بعساكره إلى حرب الروم التى انتهت فى موقعة ـ ملاذكرد ـ فقال «للنظام» ولوجوه عسكره: «أنا صابر صبر الغزاة المحتسبين وسائر مصير المخاطرين فإن سلمت فذاك ظنى فى الله تعالى، وإن تكن الأخرى فأنا أعهد إليكم أن تسمعوا لولدى ملكشاه وتطيعوه وتقيموه مقامى فأجابوه بالسمع والطاعة. وكان ذلك من فعل «نظام الملك»

(١) انظر : ملحق البحث رقم (١) ورقم (٢) مراسيم.

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ٢١ ـ حوادث سنة ٤٥٨هـ، والعينى ـ عقد الجمان ـ حوادث نفس العام ويصفه بأنه كان يوماً مشهوداً.

وترتيبه ورأيه[1]، وكانت المرّة الثالثة: لماّ طعنه - يوسف الخوارزمى - وأحسّ بالموت يدنو منه فى سادس ربيع الأول من سنة ٤٦٥هـ فوصّى العسكر بولده ملكشاه الذى جعل الملك فيه و«نظام الملك» وزيره والطاعة لهما وأحلف من ينبغي أن يحلف[2].

ولسنا ندرى فى أي المناسبات كان قد أصدر السلطان ذلك المرسوم مادام لايوجد لدينا ما يدل على واحدة منها؟.. ولئن رجّح بعضهم أن تكون المناسبة الثالثة فعندنا أن الثانية أرجح لأنه كان خلال فترة تزيد على عشر سنوات قد جرّب وزيره واطمأن لأن يعهد إليه بوزارة ابنه، ولأن بعض النصوص التي قيلت على لسانه تشير ولو من طرف خفىّ إلى أن السلطان أوصى الوزير بابنه خيرًا إذا لم يعدّ من الحرب سالمًا، وقد اعتمد عليه فعلاً حيث طلب إليه أن يصحبه وزوجته فى الانتقال إلى همذان[3].. ولأنه فى المناسبة الأولى لم يختبر وزيره كما ينبغى بعد وقد أطلق عليه ما يدل على خبرة له قديمة.. ولأنه فى الثالثة لم يكن قادرًا على إصدار مثل هذا المرسوم وهو يجود بنفسه، مشغول بآلامه وأوجاعه.

لقد بدأ المنشور الأول بتمهيد طريف عبّر فيه عن بواعث شفقته الأبوية وحنانه على ابنه مفضّلاً استعداده للملك، وواجبه فى أن يهيئ له أسباب استقامته ودوامه، وأنه قد عرف بالتجربة أن استقرار قواعد الحكم فى الدنيا موكول بمنصب ذوى الأقلام من الوزراء، لأن مصالح المملكة لا تستقر إلاّ بجريان مداد أقلامهم وأن مهمات الدولة لا تتضح إلاّ باقتباس أنوار آرائهم.

ثم ينتقل بعد المقدمة إلى صميم الموضوع، فإنه بناء على ذلك، كان لابد أن

---

(١) المنتظم جـ ٨ ص ٢٦ - حوادث سنة ٤٦٣هـ والكامل - حوادث نفس العام - وسبط بن الجوزى - حوادث نفس العام.

(٢) المنتظم جـ٩ ص ٢٧ - حوادث سنة ٤٦٥هـ، والكامل نفس العام جـ ١٠ ص ٣٠، وأزاد فى وصيته: من لم يرض بما أوصيت فقاتلوه واستعينوا بما جعلته له على حربه.

(٣) ابن خلدون - العبر جـ ٥ ص ٣ , ٤ - حوادث سنة ٤٦٢هـ.

يزيّن مقامه بمنصب وزير تلوح على محيّاه كفاءة الولاية وتبدو على ناصيته مخايل الرأفة. . ولذلك أيضًا فقد أناط هذا المنصب العظيم إلى أكمل هذا الزمان. . نظام الملّة والدين أدام اللّه تمكينه وجعل التوفيق قرينه. . لكفايته وصدق نصيحته. . يرتّب مصالح الديوان برأيه المنير وعقله الواسع. . وليرعى مصالح الرعايا بتفويض الأعمال لأهلها، ويسعى لحراسة الأموال وإنجاح الآمال وترغيب المصلحين، وتهذيب المفسدين وسلوك مناهج العدل، وهدم أركان الظلم وترفيه حال الناس. . ثم يحثّ الوزير على تدريب ابنه ونصيحته لأن قلوب السلاطين كالمرآة وصدور الملوك كالأحقاق[1]. . مشيئتها بيد النواب والوزراء. . ويحضّ ولده على احترام وزيره واستشارته لأن اتّباع الاستبداد ندم وحسرة، وثمرة الاسترشاد نجاح وعزة[2].

المرسوم الثانى:

أمّا المرسوم الثانى فإنه أقوى سبكًا وإن كان أكثر تكلّفًا وصناعة، وقد حاول كاتبه ـ وربما كان «النظام» نفسه ـ تضمينه بحشد كبير من آى القرآن ومأثور القول، كما احتوى على عبارات تميل بنا إلى الاعتقاد بأنه مرسوم استيزاره من قبل السلطان ملكشاه، فإن التعابير الصريحة فى تفويضه الأعمال بشكل لم نعهده فى أيام ألب أرسلان، وفى مكايد منافسيه وتآمر حسّاده تميل بنا إلى الرأى بأنه قد أصدره في الفترة ما بين ٤٧٢-٤٧٦هـ، إذ بقى الوزير مستمرًا على وزارته بناءً على توصية أبيه ـ ألب أرسلان ـ وردّ إليه ملكشاه الأمور كبيرها وصغيرها، وخلع عليه، ومنحه لقب «أتابك» أى الأمير الوالد وأقطعه طوس بعد أن قضى على ثورة ـ قاورت بك ـ عمّ السلطان وقمع حركة الجيش المتمرد طمعًا فى المال سنة ٤٦٥هـ[3]. . حيث أشار إلى منزلته الرفيعة هذه،

(١) الأحقاق ـ جمع حق وهو إناء صغير لحفظ العطور.

(٢) راجع ترجمة المرسوم فى الملحق رقم ١ من البحث.

(٣) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٦٥هـ، والكامل ـ حوادث نفس العام وفيه «قارون» وفى غيره «قادرون».

وأنها سبب افتراء زمرة من الحسّاد عليه وكيف ظهرت براءته، وابتلى أصحاب الإفك والبهتان، كما روت ذلك بتفصيل المصادر المعتمدة كدّس - ابن بهمنيار - كاتب خمار تكين الشرابى - على «النظام» باختلاسه أموال الدولة سنة ٤٧٢هـ وما أن صحّ لدى السلطان خطأه حتى كحل عينيه[١] وكوشاية - أبى المحاسن بن كمال الملك - بأنه أكل الأموال واقتطع الأعمال، وأنه مستعد لتقديم ألف ألف دينار إذا وافق السلطان على مصادرته وأصحابه، فما أن سمع «النظام» بذلك حتى جهّز مائدة دعا إليها السلطان وحاشيته، كما أحضر مماليكه، وهم ألوف من الأتراك، وصارحه بهذه المكيدة والغرض منها. فلمّا تيقن السلطان من تآمر أبى المحاسن - سمل عينيه ونفاه إلى قلعة ساوة عام ٤٧٦هـ[٢].

لقد افتتح المرسوم بالمقدمة المألوفة فى بيان أهمية الوزارة فى ضبط سياسة الدولة وتنفيذ قوانينها وتحقيق خطط فتوحاتها بعد أن يوجه الخطاب إلى أركان الحكومة والأمراء والموظفين وحجاب العرش العالى وجمهور الأنام من الخاص والعام.

ثم انتقل بالحديث إلى أسباب اختيار الوزير وسرد صفاته وما يتحلى به من خلق نبيل وعلم غزير «أتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ما يشاء» وتجربة لإخلاصه وامتحانه لقدرته فوجد أنه أليق من غيره وأحق بعواطف السلطان وأولى بمنصب الوزارة حيث لمعت إشراقات: ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[٣].

وتجلّت أنوار: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[٤].

ثمّ يوجّه كلامه إلى الوزير، أمين الدولة، القاهرة خواجة، قوام الدين «نظام الملك» الذى كان منتسبًا إلى شمس السلطنة الأبدية وملازمًا لركابها العالى ومرتقيًا إلى مصاعد الوزارات بمقتضى القول: «إذا أراد الله بملك خيرًا جعل له

(١) المنتظم جـ ٨ ص ٣٣٠ - حوادث هذا العام.
(٢) الكامل جـ ١٠ ص ٥٤ - حوادث سنة ٤٧٦هـ.
(٣) سورة الأنبياء - من الآية ١٠١.
(٤) سورة الواقعة - الآيتان ١٠، ١١.

وزيرًا صالحًا إن نسى ذكّره وإن ذكر أعانه». . ولبلوغه هذه المرتبة السامية فقد افترى عليه الحسّاد فوقعوا بموجب الكلمة: «من حفر بئرًا لأخيه وقع فيه» حتى استقر له هذا المنصب الرفيع الشأن القويم البنيان مع شرف خلعه.

ولمّا يتصف به من همّة عالية، وفهم للدستور، وتواضع فى جليل الأمور جاعلاً الآية الكريمة: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] .

شعارًا له فقد رجع إليه منصب إشراق الديوان الأعلى، الذى هو من أمهات مهمات مصالح السلطنة وبها يتميز انضباط مهام الخلافة وتتبين مراسم الرخاء والرفاهية. . فلا غرابة إذا دعت المكرمة الخسروانية بأن أيادى تربيته، ومناهج انتظامه وصحائف أعماله وجرائد آماله ستبقى دستورًا صادق الإخلاص لأرباب المعالى الخواتين والسلاطين الذين عليهم مدار فلك الملوكية فى عملهم لرعاية الرعايا. .

لذلك فإن الحكم السلطانى المطاع قد نال عز الإصدار والنفاذ، فعلى الوزير أن ينظّم صحيفة أعماله بتعيين صناديد الأمراء المشهورين، وينصّبهم فى ديوان الإمارة الجليل، على أن يكونوا من الخيرين المستحضرين لمهمّات هذا العمل السلطانى الكبير وأن ينظر فى ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾[2] .

وأن يجعل مقتداه فى إنجاز مقاصد الملك وتحقيق آمال الطوائف من الرعايا قوله: «بالإنصاف يصلح الرعيّة وبالعدل يملك البريّة. . وعلى القائمين بالأمور السلطانية ألا يلوون عن طاعته ومتابعته فى كل ما يراه صلاحًا وصوابًا إذ لابد أن يكون فيما يراه عين الرأى السديد والفكر الرشيد وأن يقدّم كلٌ من شاغلى كراسى الحكم من الصدور العظام والوزراء وسائر متقلدى الأعمال جميع مظاهر الطاعة والتبجيل والاحترام»[3] .

وعلى الرغم من تزايد السعايات التى أشار إليها المرسوم فقد اطمأن السلطان

(1) سورة الشعراء ـ الآية ٢١٥.
(2) سورة ص ـ من الآية ٢٦.
(3) انظر : الملحق رقم ٢ مراسيم.

ملكشاه إلى وزيره، ووثق به وثوق أبيه ـ ألب أرسلان ـ من قبل حيث أدركا معًا بأنه من الخير لهما وللتركمان أمثالهما أن يعهدا بمثل هذا المنصب إلى مثقف مجرّب مخلص مثله مهما قيل فى سياسته وحُكي عن تقريب أبنائه وتبذير أموال الدولة فيما لا طائل تحته.

وبقيت الصلة حسنة بين الوزير وسلطانيه طوال عهدهما إلى قبيل حادث اغتياله، حيث بدأت الثقة فيه تتزلّزل وأخذت آثار تلك السعايات تظهر بمرور الأيام، فتبدو فى صعود وهبوط، وإقبال وإدبار، وكانت علاقته وسلطانيه بالخلافة تتأثر بذلك فتضعف مرة وتقوى أخرى تبعًا للظروف السياسية وما عليها من مصالح ذاتية.. وكان لهذه وتلك نتائج يشهدها الناس ويقاسون أضرارها يومذاك ويختلف فى تفسيرها المؤرخون فيما بعد، وسنحاول جاهدين تلمس وشائجها، بادئين بتبيين علاقة السلاطين: طغرلبك ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ بالخلافة ثم صلة الوزير بهم جميعًا.

وكانت الألقاب التى يمنحها الخلفاء للمتنفذين اتقاء شرهم والتى يقطعها السلاطين لبعض الاشخاص من أجل إرضائهم. مع أهميتها بنظر الجماهير فى تلك الازمنة. لذا كانت موضع اهتمام من قبل الوزير ـ النظام ـ اكثر من الهدايا المالية وأمثالها، مع أنه من المتمتعين بها من البلاط الخليفى، والديوان السلطانى.. لأن إغداقها بل كثرتها لمن لا يستحقونها يشين بسمعة الدولة الحاكمة، ويزرى بها وبحاملها، ويضعف العلاقات بين الحكام أنفسهم تارة وبين المحكومين فى الوقت نفسه.

لذلك وجدنا من الضرورى أن يكون لنا وقفة، وإن كانت قصيره لمعرفة رأى ـ النظام ـ حين تقليدها، وماذا يجب ان يتوافر من شروط عند تقديمها.

* * *

ب - العلاقة بين سلاطين السلاجقة والخلفاء:

يمكننا ونحن نحاول تلمس ظواهر الصلة بين سلاطين السلاجقة الاوائل وخلفاء بنى العباس - أن نقسّمها إلى ضربين: الأول: علاقة دينية.. والثانى: سياسية، والذى يبدو لنا - وإن لم يكن هناك خط فاصل واضح بين العلاقتين حينذاك - أن الأولى كانت أقوى الرابطتين وهى التى تسيطر على التوجيهات فى الثانية، ومن هنا كان موقف الدولة السلجوقية من الخلافة العباسية رقيقًا لطيفًا فى أغلب الأحايين لأن سلاطينها اختاروا مذهب الخلافة السائد منذ اعتنقوا الإسلام.. إمّا طمعًا فى التقرب إليهم وإمّا اعتقادًا بأفضليته على سائر المذاهب، وفى الحالتين كان لهذه الرابطة العقائدية أثرها فى نفوسهم من حيث تخفيف ضغطهم على الخلفاء واحترامهم لهم وحذرهم من الاختلاف معهم، وإلاّ فما الذى دفع بالسلاجقة لمهادنة الغزنويين ومصاهرتهم، ثم محاربة الفاطميين وقطيعتهم، وإذا جاز لسائل أن يقول: ماذا سيكون موقف السلاجقة من الفاطميين لو كانوا من أهل السنّة.. وكانوا أحنافًا أو شوافع مثلاً...؟.. أغلب الظنّ أن موقف الحكومتين سيتغير حينئذ لأن رابطًا روحيًّا قويًا قد وصل بينهما، ولأن الدفاع عن العقيدة وفى سبيلها أصبح معدومًا، أمّا إذا اختلفت العقيدة فلا فرق بين الفاطميين والصليبيين، وربما كانت الثانية خيرًا من الأولى بنظرهم.

بهذا الوازع الدينى الذى أخذ يستولى على نفوسهم ويقوى فى أعماقهم كلّما مرّت الأعوام قد أبدى سلاطين السلاجقة ولاسيما الأُوَلْ منهم الطاعة والولاء مما لم يشهده خلفاء بنى العباس منذ عهد آل بويه الذين اعتنقوا التشيّع وحسنت

صلتهم مع الفاطميين بواسطته.. وبهذا الدافع حاول هؤلاء السلاطين أن يظهروا أمام الخليفة بمظهر الفاتح القوى من جهة والمنقذ المطيع من جهة أخرى، فإذا استولوا على بلاد أرسلوا سعاتهم حاملين الهدايا.. وتباشير الفتح إلى دار الخلافة[1]، وإذا حصلت مناسبة أعلنوا إخلاصهم وقدّموا الأمراء للخليفة واحدًا واحدًا تلو الآخر حسب رتبهم ليعربوا عن خضوعهم ويكشفوا عن مدى قوتهم وقدرتهم[2].

وعلى هذه الشاكلة كان الاحترام متبادلاً بين الخلفاء وآل سلجوق لايشوب صفوه كدر إلاّ فى حالات نادرة حيث كانت تصطدم الرغبة فى السيادة والتوسع بالنفوذ، إذ كان الخلاف بين الجانبين ـ من هذه الناحية ـ مستمرًا منذ نشأت الدولة السلجوقية: ففى عهد طغرلبك كاد النزاع بينه وبين القائم يؤدى إلى القطيعة التامة بين الدولتين بسبب معارضته فى إعطاء ابنته الأميرة العباسية إلى شيخ آل سلجوق، ولولا الضغط عليه من جهات متعددة لما وافق الخليفة على هذه الزيجة وإن كانت بشروط[3].

واستمرت هذه العلاقة هادئة رتيبة فى عهد ـ ألب أرسلان ـ فلم يتقدم بطلب إلى دار الخلافة حتى وجد صداه يتردد فى جوانبه قبولاً وتلبية، ولم يرغب الخليفة فى أمر إلاّ وكان موضع عناية السلطان ورعاية وزيره.. حتى جاء عهد ملكشاه وبدت ظواهر طموحه فى الملك تتزايد عامًا بعد عام.. وكان من لقبه قسيم أمير المؤمنين ـ ما يشير إلى مكانته واختصاصاته السياسية، وأنه شريك للخليفة فيما ورثه من نفوذ.. وليس فى المال أو الجاه أو الغنائم وإنما فى السيطرة والحكم، ولم يكن خافيًا على الخليفة القائم مغزاه حينما منحه إيّاه، ولكنه لم يدُرْ بخلده أنه سيشاركه فى سلطانه أو يخطر على باله تنحيته لولى عهده ـ المقتدى عن عرش الخلافة.. منصبه الشرعى..

وعلى أية حال فقد بعث هذا اللقب فى نفس السلطان شيئًا من الغرور السياسى وشجّع فيه نزعة الطمع لبسط نفوذه على الرقعة الخاضعة للخلافة دون

---

(١) السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٣، ٤٦٥هـ.
(٢) البندارى ص ٧٤، والكامل ـ حوادث ٤٧٩هـ، والمنتظم جـ٩ ص ٣٥ ـ حوادث سنة ٤٨٠هـ.
(٣) السبكى جـ ٥ ص ٢٦٩، والمنتظم جـ ٨ ص ٢٣٠، ٢٣١ ـ حوادث سنة ٤٥٥هـ.

منازع له[1] أو شريك وأن يتدخل أحيانًا فى شئون الخليفة وما يصدره من عزل أو تعيين.

ولم يكن من السهل على الخليفة وقد ورث سلطة مطلقة اعتاد عليها فترة من الزمن أن يتخلى عنها، ويصبح رمزًا للسلطة الدينية والروحية فحسب، فكان من الطبيعى أن يبطن سوءًا لمن جرّده من سلطته تلك أو انتزع منه جاهه ومركزه فى نفوس الرعايا، وأن يتآمر عليه فى الخفاء ما وسعه إلى ذلك سبيلاً ويعمل من وراء ستار لإعادة نفوذه إليه، ولولا خوفه من بطش السلطان وخشيته من غضب وزيره «النظام» لأعلن سخطه وعداءه.

جـ - المصاهرة بين الخلفاء والسلاطين السلاجقة:

وكان الخوف من تغيّر السلطان الفاتح والخشية من تقلّب الخليفة الوارث من دواعى الرغبة فى دار الخلافة والسلطنة بالمصاهرة للربط بين الأسرتين برباط عائلى يحفظ أواصر الود والتعاون حتى لا يجد الأعداء بهذه الصلة سبيلاً للفرقة أو قطع المودّة، وقد يكون فى هذه أيضًا تعظيم للسلطان وتبجيل للخليفة[2].. ويعلّل ابن خلكان لموافقة عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى على زواج الخليفة - الطائع - من ابنته بأن: «الغرض منه أن تكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب»[3].. ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيرى أن القصد من ورائه الحق فى الخلافة[4].

ومهما يكن من سبب اجتماعى أو دينى أو سياسى فقد كانت المصاهرة بين الأسر المالكة رمزًا لاتفاق الكلمة واتحاد الرأى، وصفاء النفوس، وهى لاشك

---

(١) ابن تغرى بردى - النجوم - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) ابن الجوزى - المنتظم - حوادث سنة ٤٧١هـ - جـ ٨ ص ٣١٧.

(٣) البغدادى ص ١١، وابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ١٠.

(٤) ابن خلكان - الوفيات جـ ٢ ص ٨٤، مسكويه - جـ ٢ ص ٤٦٤، وياقوت جـ ٦ ص ٣٦٦.

من الدوافع النفسية إلى ذلك إذا توثقت الزيجة ولم يحدث فى أثنائها ـ وكثيراً ما يحدث لأن أسبابها لم تكن خالصة ـ ما يعكّر الجو ويستوجب الخلاف..

وبذلك أصبحت المصاهرة بين الأسر المالكة تقليداً يحتذيه الملوك والسلاطين فى معظم العصور، فقد تزوج الخليفة القائم من الأميرة «أرسلان خاتون» وهى خديجة ابنة داود ـ أخى السلطان ـ طغرلبك ـ برغبة منه بعد فتحه بغداد مباشرة، ووافق الخليفة تقديراً وتعظيماً لأعماله[1].. وفى سنة ٤٥٣هـ خطب طغرلبك نفسه ابنة الخليفة «القائم» فأبى ذلك ثم أذعن لا عن رضا وطواعية، إلى أن حملت سنة ٤٥٥هـ إلى دار السلطنة فأجلسها على سرير مذهّب ولمّا دخل عليها وقبّل الأرض بين يديها وقدّم الهدايا والتحف إليها، لم تقم له ولم تكشف القناع عن وجهها، وبقى كذلك يخضر كل يوم ويسلم ثم ينصرف إلى أن مات بعد ستة شهور بالرى[2].

ولم تغب تلك الأسباب عن ذهن «النظام» فهو إن لم يبدأ السعى لربط الأسرة السلجوقية بغيرها من أسر الخلافة والملوك المجاورة فإنه ـ ولاشك ـ كان يبذل الجهود المضنية فى سبيل تحقيق ذلك إذا عقدت النية وبدت الرغبة من أعضاء هذه الأسرات إن لم يبدأها ويسبق اليها، فقد كانت له اليد الطولى فى زواج حفيد الخليفة «القائم» وولى عهده ـ عدة الدين ـ من ابنة السلطان ـ ألب أرسلان ـ سفرى خاتون ـ أى «خاتون السفرية»[3].

وله مثل هذه اليد فى زواج ـ ألب أرسلان ـ لأبنائه ملكشاه وأرسلان شاه من ابنة الخاقان ـ طغماج ـ ملك الترك فيما وراء النهر، وابنة صاحب غزنة[4].

---

(١) مصطفى جواد ـ سيدات البلاط العباسى ص١٠٨ ـ ١٢٠، والمنتظم جـ٨ ص ٢٢٣، ذكر تفاصيل هذا الزواج المؤرخ المعاصر ـالنعمة محمد بن هلال الصابى، والمنتظم جـ ٨ ص ٢١٨-٢٢١ ـ حوادث سنة ٤٥٣هـ.

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ١٠.

(٣) الكامل ـ حوادث سنة ٤٦٤هـ، وسبط بن الجوزى ـ المرآة، حوادث سنة ٤٦١هـ.

(٤) الكامل ـ حوادث سنة ٤٦٤هـ ـ جـ ١٠ ص ١٥-١٧، والسبط ـ المرآة ـ حوادث سنة ٤٥٧هـ.

ولم يأنف ألب أرسلان من مصاهرته لخاقان الأتراك كما فعل ـ محمود ـ حينما وفد إليه فى غزنة ـ قاياخان ويوغرا ـ وطلبوا مصاهرته فلم يقبل تعاليًا عليهما(١). ثم فى طلب المقتدى بأمر الله ٤٦٧-٤٨٧هـ يد ابنة السلطان ملكشاه وتم العقد على بذل ما مجموعه ١٥٠ ألف دينار صداق لها وكان يوم زفافها على الخليفة من أيام بغداد المشهودة(٢)، وبذلك ارتبطت الأسرة السلجوقية بالخلافة العباسية والبيت المحمودى.

وقد يبدو غريبًا أن تنتهى هذه الزيجات بالفشل، وأن تؤدى إلى عكس الغرض المرجو منها، ولكنّا إذا رجعنا إلى دوافعها وظروفها لا نجد غرابة فى النهاية التى تختتم بها فى الغالب، لأن الزواج الذى يستهدف تجديد الملاذ الجسدية والتوسع فى السيطرة والمحافظة على كراسى الحكم لا يدوم إذا تعارض مع واحدة من هذه الأغراض، بل ربما أدّى إلى نفرة بين الأسرتين الحاكمتين قد تصل إلى قطع العلائق الودية والتآمر الخفىّ أو العلنىّ على تحطيم كل منهما للأخرى.

وهذا ما حدث للأسرتين العباسية والسلجوقية فى القرن الخامس الهجرى فلم يُقبل الخليفة «القائم» على زوجته ـ أرسلان خاتون ـ حتى أطرحها وشكت حالها إلى السلطان فأمر بحضورها إليه، وخرجت غاضبة إلى دار السلطنة.. ولم يعقد السلطان «طغرلبك» قرانه على ابنة الخليفة حتى طلب الإذن لها بالسفر معه إلى الرى، وصحبها رغمًا عن إرادة أبيها.. ثم تزوج الخليفة ـ المقتدى ـ بابنة السلطان ـ ملكشاه ـ فلم يكن حظها بأفضل مما سبقها من زيجات، وكان ابنها ـ أبو الفضل جعفر ـ وبالاً على نفسه وعلى الخليفة والسلطان جميعًا حيث مات ميتةً غامضةً وجعفر مازال صغيرًا(٣).

وهكذا فقد انتهى الزواج بالعلاقات بين العائلتين إلى خلاف ما كان ينتظر

(١) بارتولد ـ تركستان ص ٤٨٦ عن طبقات ناصرى ص ٩٠٥.

(٢) ابن الأثير – الكامل جـ ١٠ ص٤٨، وابن الجوزى ـ المنتظم ج٩١ ص ٣٥ ـ ٣٩ ـ حوادث سنة ٤٨٠هـ.

(٣) وكانت أمه خاتون ابنة السلطان ملكشاه ولد سنة ٤٨٠هـ.. (السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث ٤٨٦هـ).

منه وان كان قد أدّى بعض مقاصده الاجتماعية فى الظاهر. . وكان «للنظام» فى إصلاح ذات البين مساعٍ كثيرة لتلافى سوء التفاهم بين المرء وزوجه، وبين الوالد وصهره تخفق مرة وتحقق ما يهدف منها أخرى. وهو فى الحالتين لم يدخر وسعًا فى إعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية بين الأسرتين العباسية والسلجوقية ذلك لأنه يؤمن بسلامة نظام الخلافة ووجوب المحافظة عليه، وضرورة وجود بنى العباس على عرشها ويحرص أشد الحرص على احترامهم وأداء فروض الطاعة لهم، لاعتقاده بأن الخلافة رمز الوحدة الروحية التى ينشدها بين الأقطار الإسلامية، ولأنها الوسيلة الأولى لضمها وتوحيد الصفوف فى ظلالها، وأنه لابد لهذه الشعوب المختلفة دمًا وحضارةً من جامع دينى تلتف حوله وتلتقى عنده.

وقد يكون لدفاع «النظام» عن الخلافة وتحمسه للخليفة عامل آخر يضاف إلى سابقه ذلك هو شعور الخراسانيين بأن دولة بنى العباس دولتهم، وأن خراسان كانت ولم تزل، مهد دعوتهم وموطن حمايتهم فقد حكى عن المنصور أنه قال: «يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا»[(١)]، ولم يمت المنصور حتى أوصى ابنه بأهل خراسان خيرًا كثيرًا[(٢)]. . وروى ما يؤيّد هذا عن ـ الجاحظ ـ أنه قال: «دولة بنى العباس أعجمية خراسانية»[(٣)].

وربما كان إيمان ـ النظام ـ بالخلافة رمزًا للسلطة الدينية الموحدة بين الشعوب المتعددة من أقوى دوافع الخلاف بين «النظام» والخلفاء من جهة وبينه وبين سلطانيه ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ من جهة أخرى، ففى عهد سلطانه الأول كانت سلطة «النظام» محدودة نوعًا ما إلاّ أنها أخذت تنمو وتقوى كلما مَرّ عام من الأعوام العشرة التى حكم فيها وكانت علاقته بالسلطان أثناءها متينة حسنة بحيث طغت على علاقته بالخليفة فأضفت عليها شيئًا من المرونة لتبادل المنفعة،

(١) احمد أمين ـ ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٦ ـ عن المسعودى جـ ٢ ص ١٩٠.

(٢) المصدر السابق ـ عن الطبرى جـ ٩ ص ٣٩.

(٣) احمد أمين ـ ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٦ ـ عن البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٠٦.

ولكنها لم تكن بينه وبين السلطان ملكشاه وفقًا لما يرغبه ويرضاه ويعتقد بوجوبه لبقاء الخلافة والسلطنة معًا، والتوازن بين اختصاصاتها وامتيازاتها.

وعلى الرغم من المساعى التي بذلها بسبب اعتقاده ذلك لتحسين العلاقة بين الخليفة والسلطان فإنها كانت تتردى عامًا بعد عام بفضل سعاية النساء فى سياسة الدولتين وبخاصة - تركان خاتون - وإصغاء الخليفة لوشايتها لأنه أصبح زوجًا لابنتها وبذلك ألقى اللوم على «النظام» وأوعز إليه أسباب الخلاف بين البلاط العباسى والقصر السلجوقى، وقويت وطأة التآمر على «النظام» حتى استميل السلطان لهذه المؤامرة وبعدت الثقة بين الوزير وسلطانه، كما تفاقم الخلاف بينهما والخليفة المقتدى بأمر الله أيضًا.

وأخذت العلاقة بين السلطان والخليفة تزداد سوءًا خلال خمس السنوات الأخيرة من حكمه، فلم ينته عام ٤٨٥هـ حتى بدت مطامعه فى إزالة الخلافة من بني العباس تظهر على سياسته حتى ألزم الخليفة المقتدى بالخروج من بغداد إلى البصرة فى عشرة أيام، وأن يجعل من ابن بنته - جعفرا - وليًا لعهد الخلافة بدلا من المستظهر بالله[1].. وكاد أن يتم له الأمر لو لم تعاجله المنية بعد ثلاثة أيام من تقديم إنذاره للخليفة بمغادرة العاصمة إلى أية جهة يشاء.

وكان للتباعد بين الوزير والسلطان أسباب أخرى تختلف عما هى بين الوزير والخليفة.. يراها بعضهم فى تدخل السلاجقة فى الأمور الإدارية للدولة بسبب أُميتهم فأحدثت نتيجة سيئة العاقبة بينهم وبين «النظام»[2].. ونراها فى نزعتهم البدوية - التي أشار إليها «النظام» نفسه، والتى لا تخضع لقانون لا تعرفه، ولا تنصاع لتقليد لم تألفه وإنما تندفع نحو ما تتأثر به، وسرعان ما تتأثر بالأشياء على اختلاف أنواعها وتخضع لعادات البادية مهما كان لونها وأثرها، ومن ذلك استشارة المرأة فى الأمور السياسية والاستجابة لمطالبها لاختلاف حالة

(١) السبكى جـ ٣ ص ١٤٤.

(٢) بارتولد - تركستان ص ٣٠٨.

النساء فى القبائل البدوية عن وضعهن في البلاد المتحضرة[1]، لذلك رأى «النظام» وهو المتحضر الهادف أن يحدّ من سلطة «السلطان» وأن يحدد من كثرة أوامره.. وأن يستنّ لذلك قانونًا يعمل البلاط بموجبه وتسجّل المراسيم السلطانية الصادرة للديوان بمقتضاه وأن تقدم التقارير مخطوطة لا شفهية، لأن الأوامر الشفهية معرّضة للأخطاء والمخاطر، لذا يقول: «يجب أن تكون أوامر البلاط مسجّلة وقليلة على قدر المستطاع ثم تُبلّغ إلى الديوان أو الخزينة باسم الشخص نفسه الذى تسلمها من السلطان، وألاّ تُعهد إلى شخص غيره... وعندما يتسلمها الديوان يجب عليه أن ينظم تقريرًا خطيًا عنها ويقدمه إلى السلطان ليطّلع عليه بنفسه، وبعد إطلاعه والتأكد منه تنفذ الأوامر تمامًا»[2].

وكان يقصد بهذه التنظيمات وأمثالها من تشريعات إدارية تحديد رغبة الاستبداد البدوية عند السلطان.. ونقله إلى حياة مدنية منظّمة حتى ينسب إلى الجماعات الشعبية المتحضرة.. لأنه كان يرى فى العناصر التركمانية فسادًا كبيرًا وبلاءً عظيمًا ابتليت به الإمبراطورية الإسلامية[3] لما احتفظوا به من عنجهية الأتراك وغلظتهم.. وكان يريد أن يكون هؤلاء الحكام خدّامًا للرعية لا أن يكون الناس خدّامًا لهم، وأن تعمّ المساواة بين الأجناس التى يُظلها علم الخلافة الإسلامية الواسعة من غير تفريق بين عربى أو تركى أو فارسى عدا الخليفة والسلطان، لأنهما عنوان هذه المساواة ولا تتحقق إلاّ بوجودها وفى ظلالهما، إذ إننا لم نعرف عند الفرس عصبية قبلية وعناية بالأنساب[4] قبل الإسلام كما هى عند العرب قبله وبعده، و«نظام الملك» واحد من عظماء مفكريهم.

ولعلّ فى إيمان «النظام» بالخلافة ونظرته للخلفاء والسلاطين وقيامه بما يدعّم إيمانه ونظرته ما يكشف لنا السرّ فى إثارة المشكلات بين الوزير وسلطانه من جهة وتجلّى لنا غوامض ما يرويه المؤرخون من أحداث كانت مثار خلاف بينه وبين الخليفة من جهة أخرى.

(١) بارتولد ـ تركستان ص ٣١٠، وسياستنامة.
(٢) سياستنامة ص ٥١ - الفصل الحادى عشر.
(٣) مكرمين خليل بيناج ـ تركيا فى عهد السلاجقة ص ٩٩.
(٤) احمد أمين ـ ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٠.

د ـ الألقـاب وموقف «النظام» منها:

والإنسان كما يبدو وإن بلغ من العمر مرحلة طويلة، أو استوعب من المعرفة قسطًا وافرًا فهو مازال طفلاً كبيرًا يزهو بالشارات المعدنية والأوسمة من الذهب والفضة ويفخر بالألقاب وهى لا تعدو ألفاظًا برّاقة، كما يحلو للصغار اللعب بالدمى ويفرح لجمعها وتنظيمها واستعراضها أمام أنداده. وليس هـذا غريبًا ولا معيبًا،فالأمم تمر فى نموها الفكرى وتطورها الحضارى بما يمر به الأفراد من أدوار طفولة وكهولة وشيخوخة، وصحة ومرض.

وإذا أردنا أن نتحسس أهمية الألقاب حينذاك ومدى أثرها فى حياة علية القوم وصغار الناس، علينا أن ننتقل إلى صنيع «الأوسمة» ودلالتها فى عصرنا الحاضر مع فارق غير يسيرفى ذلك، وأن كـل ما طـرأ عليهـا من تغيير إنمـا هـو تجسيم تلك الألقاب فصارت تمنح لقادة الجيش وأعاظم الساسة بأسماء وشارات معدنية تدل عليها، فإذا أجيز له حملها، وزيّن بها صدره فى مناسبة رسمية ملأته كما كانت تملأ ألقاب السـابقين طغـراء الرسـائل الديوانيـة. وفـارق آخر بين الألقاب آنذاك والأوسمة اليوم أن الأولى كانت ترمز إلى الدرجة التى يحملها صاحب اللقب بقدر ما كانت تدل على اختصاصـه، لذلك كان منحها لغير مستحقيها مثار جدل واستنكار من الطبقات المستنيرة وغيرها على السواء.

وهكذا لعبت الألقاب ـ ولم تزل ـ دورًا خطيرًا فى حياة الناس ومدى علاقتهم قبل تسعة قرون ولاسيما فى عقول الطبقة العليا منهم وبخاصة الوزراء والأمراء وملوك الأطراف. . على أنها وإن لم تتصل بحياة الآخرين مباشرة لكن صداها العميق فى نفوسهم كان يظهر على سلوكهم، خوفًا ورهبةً تارة، واحترامًا وتجلّةً أخرى، لذلك سنحاول إيجاز ما يمكن عرضه فى عصر وزيرنا «النظام»، وتبيين أثره فى حياة الحكّام والجماهير.

لم يكن حمل الألقاب لما توجده من كبرياء وطيش، واستعلاء وغرور

بالشئ المستساغ لدى الشريعة الإسلامية. فقد ذهب (الصولى) إلى أنها مكروهة واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾[1].

وعلى الرغم من نهي الله عنها وإطلاق لفظ الفسوق عليها، قلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ولم تزل في الأمم كلها من العرب والعجم تجرى فى المخاطبات والمكاتبات من غير نكير»[2] ثم توطدت أسس الملك لدولة العرب.. والأمم آنذاك تفخر بشيئين اثنين: النسب والدين، بهما تسوس ومن أجلهما تفتح، وبعد أن اضطربت أنسابهم باختلاطهم على مرور الزمن تمسّكوا بالألقاب تعويضًا عنها.

والظاهر أن أول ما استعمل لقب الوزير - وهو فى مقدمة ما يعنينا - مُركّبًا وبقى التركيب يلازمه فى جميع مراحله دائمًا. فقد لقّب أول وزير لبنى العباس بوزير آل محمد[3]، ولقب وزير الرشيد (يحيى بن برمك) بالوزير الأمير[4]، وكان الناس يسمّون الفضل بن يحيى - الوزير الصغير - ولا يسمّون أخاه جعفرًا بذلك، فأراد الرشيد تسميته فجعل إليه أمر داره فسمّوه بالوزير الصغير أيضًا، ولقّب الفضل بن سهل وزير المأمون بذى الرياستين لجمعه بين السيف والقلم كما كان يقال له الوزير الأمير[5]، ولقّبوا وزير المعتمد بن المتوكل أبا الصقر إسماعيل بن بلبل الشيبانى بالوزير الشكور[6]، ثم لقب على بن عيسى بن داود بن الجرّاح وزير المقتدر بالوزير الصالح[7]، ثمّ

(١) سورة الحجرات - من الآية ١١.

(٢) ابن الجوزى - المنتظم، جـ ٨ ص ٥٥ : ٦٠ - حوادث سنة ٤٢٢هـ.

(٣) ابن الجوزى - المنتظم، وابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٨٥هـ - ترجمة السلطان ملكشاه.

(٤) ميتز الحضارة الإسلامية ص ٢٣٣ - عن الأوراق ص ٣.

(٥) الزمخشرى - ربيع الأبرار جـ ٢ ص ١٤٢.

(٦) الفخرى.

(٧) الفخرى ص ١٨٦.

(٨) مدحه البحترى فى قصيدة مطلعها :

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

فسمّى الناس هذه القصيدة دار البطيخ، لكثرة ما فيها من الفواكه.

استعمل مضافًا إلى الدولة لأول مرة فى اللقب الذى منح به الوزير أبو الحسين القاسم بن وهب المتوفى سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م بفارس حيث لقّبه المعتمد: بولىّ الدولة[1].

ويلاحظ أحد الدارسين المحدثين أن هذا النوع من الألقاب إنما هو صدى لبداية تخلى الخلفاء عن شئون الحكم لصالح الأمراء والولاة[2]، غير أنه وهم فى إرجاع تاريخ ظهوره إلى القرن الرابع الهجرى فى الوقت الذى حدث فيه هذا اللقب منذ عام ٢٨٨هـ[3]، وقد شاركه فى هذا الوهم المستشرق ميتز.. وربما كان السبب فى وهمهما هو ابن الوزير السابق المسمّى بالحسين بن القاسم الذى وزر للمقتدر سنة ٣١٩هـ ولقّبه بعميد الدولة[5].

ولم ينته القرن الرابع حتى استعمل مضافًا إلى الدين على يد بنى بويه وبذلك شاركوا الخلفاء فى شئون الدين بعد استئثارهم بأمور الدولة[6]. وشاع استعمال النوع الجديد من الألقاب مضافًا إلى الدين خلال القرن الخامس الهجرى فحصل طغرلبك على لقب - ركن الدين طغرلبك، وعلى لقب - قوام الدين الوزير «نظام الملك»[7].

ثم جمعوا بين الدولة والدين مرّة، وبين الدنيا والدين أخرى، والملّة والدين ثالثة، وكان أول من اتّخذ لقبًا من الصنف الثانى طغرلبك

---

(١) السيوطى - حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥١.

(٢) السيوطى - حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٤٩، وفى الحضارة الإسلامية ص ٢٣١ - عن الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٢، والمغرب ليحيى بن سعيد ص ١١٣ - ورد باسم أبو القاسم وليس الحسين.

(٣) حسن الباشا - الألقاب الإسلامية ص ٢٨٩.

(٤) رامباور - معجم الأنساب جـ ١ ص ٧.

(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٨.

(٦) حسن إلباشا - الألقاب ص ١٤٤ .

(٧) حسن الباشا - الألقاب ص ١٤٤ - عن المقريزى فى السلوك ص ٣٣.

السلجوقى سنة ٤٣٣هـ[١] ثم أطلق على السلطان ملكشاه، حيث لقّب معز الدنيا والدين.

وظلت الألقاب تستعمل مفردة تارة ومركّبة أخرى ردحًا من الزمن ثم ثنّيت بعد ذلك للتفريق بين أصحابها[٢] فلقّب عضد الدولة البويهى سنة ٣٨٢هـ/ ٩٨٢م بتاج الملّة والدين أيضًا، ثم ثلّثت بعد ذلك بقليل فلقّب بهاء الدين البويهى بضياء الملّة وغياث الأمة[٣].

وتختلف الألقاب فى درجاتها وأنواعها كما اختلفت فى ألفاظها ومعاييرها، فللعلماء والقضاة ألقاب كما للخلفاء والوزراء مثل: العالم والعلاّمة والإمام والفقيه والمحدّث وغيرها.

وقد عرّفوا هذه المصطلحات وحدّدوا مفاهيمها فلا تمنح إلاّ لأهلها ولا تستعمل إلاّ فى مواضعها وكان لهم فى ألقاب اليونان ـ كما يظهر ـ لأعلامهم قدوة انتهجوها وساروا على غرارها حتى أطلقوا على الفارابى المعلم الثانى على نحو ما أطلق الإغريق على أرسطو المعلم الأول. وقد كان التشدّد فى منحها صيانة لها من الابتذال خيرًا مما سنراه فى الوسط السياسى فلا يطلق لفظ عالم على شخص إلاّ إذا عمل بما علم وإلاّ سمّى متعلمًا، ولا علاّمة إلاّ إذا جمع أقسام العلوم العقلية والعملية وإلاّ نعت بما تخصص به[٤].

---

(١) حسن الباشا ـ الألقاب ص ١٤٤، ١٥٤ عن ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ٨٣، ٨٦. ويعتقد المؤلف أن معنى الكلمتين الملّة والدين متقارب وأن جمعهما فى لقب واحد من قبيل التأكيد والمبالغة ص ١٥٥، غير أن الذى نظنّه ونميل إليه أن لفظ الملّة شاع آنذاك ولم يزل يردد حتى اليوم بمعنى الشعب والأهالى والملك بدليل جمعهما فى لقب واحد بدلاً من ألفاظ الدولة والملك والدين، وإلاّ لما أصبح له معنى فى (قوام الملّة والدين وناصر الملّة والدين وزين الملّة والدين).

(٢) ميتز ـ الحضارة الإسلامية.

(٣) المصدر السابق.

(٤) محمد كرد على ـ القديم والحديث ص ٢٩٦.

وكانت كل طائفة من هؤلاء[1] تحرص على ألقابها وتتنافس من أجل الحصول عليها ونكتفى بايراد مثل واحد على ذلك. . حدث في عصر وزيرنا «النظام» فقد حكى أن الماوردى لم يحصل على لقب أقضى القضاة عام ٤٣٩هـ/ ١٠٣٧م حتى استنكره بعض الفقهاء قائلين بعدم جوازه، ولكن صوتهم لم يلبث قليلاً حتى خفت[2].

وقد ورث عصر «النظام» عناية كبيرة بالألقاب على اختلافها واهتمامًا بالغًا من قِبَل بعض الطامعين فيها وتساهلاً جبريًا فى تقديمها، ففى خواتم القرن الرابع الهجرى نستمع إلى أبى بكر بن محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م من شعراء هذا العصر المعروفين يعرّض بخلفاء بنى العباس وتهاونهم في منح الألقاب لغير مستحقيها[3].

مالى رأيت بنى العباس قد مَنَحوا	من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم	ما كان يرضى به للدار بوابا[4]
قلَّ الدراهم فى كفَّىْ خليفتها	هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وفى طوالع القرن الخامس بلغ الانحلال الاجتماعى والسياسى درجة قصوى، فعظمت العناية بالألقاب واشتدّت الرغبة فى الحصول عليها، ولم يعدّ هذا أمرًا عسيرًا، لضعف الخلفاء تجاه طغيان بنى بويه، وظهر ذلك جليًا فى موقف الخليفة القادر من السلطان محمود الغزنوى ٤٣٢هـ/ ١٠٣٠م، فإنه لم يحصل على لقب ـ سلطان ـ وهو من أكبر الألقاب التى ورثتها الأجيال التالية، وهو أول من لقب به[5]. فإنه لم يحصل على لقب سلطان حتى طمع فى ألقاب أخرى تضاف إلى لقبه السابق، وبعد مناورات سياسية وتوسّطات وهبات

(١) ميتز ـ الحضارة الإسلامية.

(٢) تاريخ بغداد الخصب.

(٣) ميتز : الحضارة ص ٢٣٢ ـ عن ابن الأثير جـ ٩ ص ٩٢.

(٤) هكذا فى الأصل ولعلها للخان.

(٥) ميتز: الحضارة ص ٢٣٢ عن ابن الأثير جـ ٩ ص ٩٢.

حصل من الخليفة القائم على لقب يمين الدولة وأمين الملّة. ولكن الخليفة لم يستطع الصمود أمام بطش أمراء آل بويه على ضعفهم يوم ذاك فحصلوا على ألقاب كثيرة ومنحوا أنفسهم ووزراءهم ألقابًا أخرى تتنافى مع روح الإسلام مثل: أمير العالم، وسيد الأمراء، وكافى الكفاة[1]. وبهذا كانت بداية فقدان الخلفاء لسلطة التلقيب.

وجاء السلاجقة على أنقاض آل بويه، وبظهورهم على مسرح السياسة فى بغداد والشرق الإسلامى، واعتمادهم على قوتهم العسكرية فى بسط نفوذهم، وتوسيع سلطاتهم، وانتهاجهم طريقًا وهدفًا يختلف عن سابقيهم، لذلك كله فقد تمتعوا بحكم لم يبلغه البويهيون من حيث سعته ودرجة نفوذه.. وكان من مظاهر هذا ما رأيناه من تكريم الخلفاء لهم بالألقاب الفخمة العديدة التى تدل على مدى تحكمهم فى سلطات الخلافة، ومقدار تغلغلهم فى سائر ممتلكاتها..

وتتضح هذه الظاهرة بجلاء فى كتاب تهنئة الفتح الذى ورد من جهة الخليفة القائم بأمر اللّه إلى السلطان ألب.أرسلان، وخاطبه فيه: الولد، السيد الأجلّ، المؤيّد، المنصور، المظفّر، السلطان الأعظم، مالك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين غياث المسلمين، ظهير الإمام، كهف الأنام، عضد الدولة القاهرة، تاج الملّة الباهرة، سلطان ديار المسلمين، برهان أمير المؤمنين حرس اللّه تمهيده وجعل من الخيرات مزيده[2].

وهكذا نجد هذه النزعة الجديدة واضحة فى الخلعة التى أنعم بها الخليفة نفسه على الوزير «نظام الملك» بمناسبة عقد زواج الخليفة ـ من ابنة السلطان ملكشاه سنة ٤٧٤هـ، وكانت مطرّزة بألقاب: الوزير، العادل، الكامل، نظام الملك، رضى أمير المؤمنين، حتى قيل بإن اللقب الأخير لم يحصل عليه وزير من قبل[3].

---

(١) ميتز ـ الحضارة الإسلامية.

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ٥٣.

(٣) السبكى ـ الطبقات.

ومهما قيل من أمر فقد بلغت الألقاب مرحلة من التذبذب والفوضى بحيث أيقظت ضمائر المخلصين من الحكّام، وأقلقت راحتهم على الرغم من إغداقها عليهم، وتوفرها لديهم وانتفاعهم بحرية التصرف فيها، إذ الألقاب وإن كانت فخرية، فإن التغالى فيها ظاهرة تدل على عبودية للمظاهر الخادعة الكاذبة، وإن التمادى فى منحها وحملها والاعتداء على حقوق أصحابها، واستبداد الأمراء فى إعطائها لمن ليسوا جديرين بها.. كل ذلك يؤدى بالدولة إلى الانهيار، وبالمجتمع إلى الفساد والانحلال، لذلك فقد سُمعت الأصوات تتجاوب من كل صوب، معلنةً خطر تلك الفوضى، منددّةً بسوء الحال وتردى الأوضاع..

فهذا الزمخشرى، من معاصرى «النظام»، ومشاهير عصره، بعد حديث ينم عن الحزن والأسى يقول: بأنها كانت تطلق على حسب استحقاق الموسومين بها، وأمّا ما استحدث من تلقيب السفِلَة بالألقاب العليّة حتى زال التفاضل، وذهب التفاوت وانقلبت الضعة والشرف والفضل والنقص شرعًا واحدًا، فمنكر.. وهب أن العذر مبسوط فى ذلك، فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى قبيل ولا دبير، ولا له فيه ناقة ولاجمل، بل هو محتو على ما يضادّ الدين وينافيه، بجمال الدين وشرف الدين هو لعمر اللّه، القصة التى لاتساغ والغبن الذى يتناثر الصبر دونه. نسأل الله إعزاز دينه وإعلاء كلمته، وأن يصلح فاسدنا ويوقظ غافلنا:

وكم من أسامٍ تزدهيها بحسنها وصاحبها فوق السما اسمه سمج[1]

وهذا «النظام» يبذل النصح لسلطانه بلهجة مريرة تنذر بالشرّ وسوء المصير إن بقيت الحال على انتكاسها، ويلفت نظره إلى البلبلة الناشئة عن اختلال توزيع الألقاب وليست الدينية فحسب وإنما السياسية أيضًا[2].

* * *

(١) الزمخشرى ـ ربيع الأبرار جـ ٢ـ ورقة ١٤٥ - انظر أيضاً: البيرونى ت ٤٤٠هـ ـ الآثار الباقية ٣٢.

(٢) نظام الملك ـ سياستنامة.

● الفصل الثالث

صفحة مهمّة فى حياة «نظام الملك»

- مدرسة الموظفين - قصة الثالوث كما حكاها «النظام» ومناقشتها.

- أحدوثة تتجدد، خماسى جامعة قرطبة.

- الحسن بن الصبّاح وأسباب اختلافه مع «النظام».

-رسالة تاريخية بين ابن الصبّاح والسلطان ملكشاه.

مدرسة الموظفين:

يرى الإنسان - وهو فيما يراه نتاج عاملين اثنين: تكوينه وبيئته - إنه غرسٌ تعاونت على نمائه عواملهما، وإنه قد يقوى أحد العاملين على الثانى فى توجيه الإنسان وتسييره.. ولكن لا يمكن له أن يكون نتيجة لواحدٍ منهما، كما لا يمكن أن يكون نتيجة شيء آخر لا يمتّ إليهما.. وقد يكونُ للموهبة - وهى واحدة من تلك العوامل الفعّالة أثرها فى اختلاف الأشخاص واتجاهاتهم الوجهة التى اشتهروا بها مع تشابه ظروف الحياة التى كانوا يحيونها وتقارب أنواع المعارف التى كانوا يتلقنونها، كما حدث لثالوث القرن الخامس الهجرى الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل.

فهذا «النظام» قد بزّ أقرانه من وزراء الخلفاء والسلاطين فى إدارة الملك وتدبيره والتأليف فى تنظيماته حتى لقب بـ «سيّد الوزراء»[1] وهذا - ابن الصبّاح - قد اختار لنفسه الزعامة الدينية وأنشأ فرقة عرفت باسمه[2].. كان يهدف من ورائها القضاء على سلطنة السلاجقة وخلافة بنى العباس معًا.. وذاك «الخيّام» قد زهد فى الحياتين: الدينية والسياسية.. وشكّ فى أولاهما بقدر ما عاف أخُراهما، ولعلّ الصراع العنيف الذى كان يشهده ويرى سوء عواقبه بين الزميلين المتزعمين.. من أسباب زهده فى الدنيا، وشكّه فى الآخرة فاقتنع بكأس خمر وكتاب شعر، يرتل هذا ويكرع ذاك، فهى عنده جنة الفردوس.

(١) هفت إقليم - مادة خراسان، وطبقات السبكى جـ٣ ص ١٣٥ ترجمته.

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية - سميت الحسنيّة أو الصباحيّة نسبة لاسمه أو لقبه.

وقد يقال ـ نتيجة لما تقدم ـ بأن «النظام» وهو طليعة ـ هذا الثالوث كان ثمرة ماتلقاه من توجيه والده، ورعاية أساتذته، ونوع الغذاء العلمى الذى أخذ على شيخه ـ الموفق هبة الله ـ فى نيسابور، وقد يكون لهذا القول ما يسنده ولكنه لا يمكن أن يكون هو أيضًا العامل الوحيد فى توفيقه ونجاحه.. وبخاصة فى حياته السياسية إذ لو صح ما قيل لوصل جميع الذين أخذوا العلم على يد الإمام الموفق ـ النيسابورى ـ ما حصل عليه «النظام» من رئاسة فى حياته، ولكان أول الفائزين بهذه الخطوة هما ـ الحسن بن الصبّاح، وعمر الخيّام.

والظاهر أن مدرسة «الإمام الموفق» كانت تضفى التوفيق على تلاميذها المجتهدين النجباء لأنها كانت ذات سمعة طيبة فى الأوساط العلمية حينذاك.. ولأنها كانت بمنزلة معهد للدراسات العليا اليوم.. وغير بعيد أن إجازتها الدراسية كانت تعتبر تزكية من الإمام لخُلق طلابه، وشهادة منه على درجتهم العلمية، وجدارتهم بالوظائف الحكومية.. وليس ببعيد كذلك: أنه كان يقوم بدور الوسيط أو المرشّح للمناصب الكبرى فى الدولة حتى قيل: إنه هو الذى رشّح ـ الكندرى ـ للسلطان طغرلبك حينما أبدى احتياجه إلى شخص يستكتبه.

ومن هنا جاءت شهرة هذه المدرسة، وتوافد على الدراسة فيها أبناء الكبار والموسرين من مختلف الأقاليم حتى ليفشى إلينا «النظام» بهذا السرّ فيعلن أن والده ما أرسله إليها إلاّ لهذا السبب.. ثم يخبرنا بأن حضور «الخيّام» و «ابن الصبّاح» من أجل ذلك[1].

ويصف لنا كيف التقى الطلاب الثلاثة على طعام واحد، وفى مجلس لتلقى المحاضرات واحد، ومنهج للدرس والمذاكرة واحد[2].. كما ولدوا ونشأوا قبل ذلك فى إقليم واحد.. ثم جمعتهم المصادفات فى مدينة «نيسابور» عاصمة

(١) الوصايا ص ٢٩، ٣٠.

(٢) الوصايا ص ٢٩، ٣٠.

هذا الإقليم بعد أن غدا كل واحد منهم يطمح لأن يكون شيئًا فى الدنيا ولن يحدث ذلك إلاّ عن طريق العلم. . وكانت نيسابور آنذاك موئل العلماء. . وكان «الموفق» إمام مدرستها ومقصد الدارسين فيها. . ودخلوا المدرسة وهم على جانب من الدين يوشك أن يكون كإيمان العجائز الذى تمنّاه «الغزالى» لنفسه حينما ضاقت به الحيل عن الوصول إلى العالم المجهول، فأرادوا لأنفسهم إيمانًا يدعّمه العلم ويقرّه العقل. . فما تزودوا به حتى اختلفوا ثم افترقوا. . ومرّت الأعوام فإذا بالحسن بن الصبّاح إسماعيليّا باطنيّا، و«النظام» أشعريّا شافعيّا سنيّا متحمسًا، والخيّام مسلمًا مشكّكًا.

قصة الثالوث كما حكاها «النظام» ومناقشتها:

يحدّثنا «النظام» وهو يقصّ ناصحًا ولده ـ فخر الملك ـ عن صلته بالخيّام وابن الصبّاح وكيف ومتى بدأت، ويشير إلى حكاية العهد بينهم وما قام به تجاه كل واحد منهما وما لقيه من سوء الجزاء من ثانيهما.

وبعد أن يصف «النظام» كيف التقى بهما فى مجلس الإمام «الموفق النيسابورى» ويثنى على فهمهما وإدراكهما ينتقل للحديث عن أصلهما وعقيدتهما. . ثم يذكر أن «الخيّام» هو الذى فاتحه فى إبرام معاهدة الصداقة الدائمة والمشاركة فيما ينالون فى المستقبل إذ قال له: «المعروف عن طلاّب الإمام أنهم موفقون ناجحون، ولاشك أننا نحن الثلاثة إن لم نبلغ مناصب الدولة كلنا فلابد أن واحدًا منّا بالغها فماذا نشترط على بعضنا»، فقلت له: «الرأى رأيك»، قال: «فلنتعاهد أنه كلما ينال أحدنا شيئًا يكون ملكًا مشتركًا لنا نحن الثلاثة»، قلت: «فليكن ذلك».

وجاء «الخيّام» فى عهد السلطان ـ ألب أرسلان ـ طالبًا تنفيذ العهد فاستقبله «النظام» وطلب منه تقديمه إلى السلطان ليشاركه منصبًا فى الديوان ولكنه آثر السلامة وفضّل دنيا العزلة لينصرف إلى التأليف. . فلمّا وجده جادًا فيما قال خصّص له ألفًا ومائتى مثقال من الذهب سنويّا من واردات أملاك «نيسابور»

واعتزل الخيّام فى طلب العلمَ والتعمق فى الفنون ولاسيما «الهيئة» حتى بلغ فيه شوطًا كبيرًا.

أمّا «الصبّاح» فقد وفد على «النظام» فى عهد السلطان ـ ملكشاه ـ ويحدد السنة التى قدم فيها بأنها عام انتصار السلطان على ـ قاورت ـ والقضاء عليه[١].. وقال له الوزير بما يحتم عليه عهد الصبا من ترحيب وتكريم، وما أن بدأه وذكّره بالاتفاق حتى قال له: سمعًا وطاعة.. فإن الجاه والمنصب وسائر المكاسب والمواريث بين يديك ثم أدخله مجلس السلطان ومدحه وزكّاه وبالغ فى علمه ومحاسن سيرته.. فعيّنه السلطان فى الديوان، واستطاع بفضل ذكائه، أن يصير مستشارًا له.. وما أن وصل هذه الدرجة بسعى «النظام» وشفاعته حتى ظهر له سوء نيته وفساد طويته وبدت على تصرفاته وأقواله الخيانة والحسد[٢].

ثم يختم «النظام» قصة الثالوث والمعاهدة بينهم بسرد حادثين مهمين قام بهما «ابن الصباح» أمام السلطان للتنديد بامكانياته والتشهير به.. ما كان أغنى ـ النظام ـ عن إيرادهما لشينهما بمقدرته لولا حرصه الشديد على بيان الحجّة بفساد ضمير صاحبه وزميل صباه[٣].

تلك هى قصة التلاميذ الثلاثة كما رواها «النظام» وتفردت بنقلها بعض المصادر الفارسية ثم أصبحت موضع خلاف بين الباحثين اليوم، فقد رفضها من المستشرقين «براون» و «كرستنسن» و «رنفيلد» ـ ومن الشرقيين ـ فروغى وغيره[٤]، وحجّتهم فى ذلك فارق السن، لأن «النظام» مات سنة ٤٨٥هـ بينما توفى زميلاه، الخيّام سنة ٥١٧هـ والصبّاح سنة ٥١٨هـ على أشهر الأقوال ومن غير المعقول أن يكونا قد عاشا مائة عام، لذلك يرجّح بعضهم ميلاد الخيّام بين

(١) الوصايا ص ٣١، ٣٢.

(٢) الوصايا ص ٣١.

(٣) الوصايا ص ٣٣، ٣٤، وانظر: ص ٢٧١ من البحث أيضًا هما قصة الحمّالين والميزانية.

(٤) القصة مشروحة فى تعليقات القزوينى على جهار مقالة.

سنة ٤٢٠-٤٣٠هـ وميلاد الصبّاح سنة ٤٣٠هـ (١٠٢٨م)[1] ليصبح عمرهما حوالى التسعين عامًا لا أكثر. . وبذلك يكون الفرق بين «النظام» وزميليه فى السنّ ما بين ١٢ ـ ٣٢سنة إن صحّ هذا الترجيح.

ووجه الضعف فى مذهب القائلين بالرفض ـ كما نعتقد ـ إنما يتضح من الدليل الذى استندوا عليه، فإنهم اعتمدوا على فرضية غير سليمة فى واقعها لأن العقل نفسه لا يمنع من تجاوز الإنسان مائة عام بقليل فكيف إذا لزمنا الأمر مائة عام فقط. ولأن الطبيعة قد جاءت بالأمثال على ذلك ـ وإن كانت قليلة ـ فى كل عصر، وفيما نقرؤه من سِيَرْ علماء القرن الخامس أمثلة عديدة للمعمّرين وهكذا فى بقية العصور. . فليس بعيدًا أن يعيش ـ ابن الصبّاح ـ مائة عام أو أكثر منها بقليل، وهو الرجل المثقف الذى نعم بجوّ جبلى نقى ومنزلة رفيعة بين مريديه وبهذا يكون من الجائز أنه ولد حوالى سنة ٤١٥-٤٢٠هـ. . وبذلك يكون الفرق بينه وبين «النظام» حوالى ٨-١٢ سنة ويكون عمره حين قدم نيسابور حوالى ١٦ عامًا، استمر فى الدراسة بعدها حتى بلغ العشرين فى الوقت الذى كان زميله «النظام» ما بين ٢٢-٢٦ عاما حينما كان منتميًا لمدرسة الإمام «الموفق» النيسابورى. وبذلك يكون الصبّاح قد عمّر ثلاثًا ومائة سنة، وهو أجَل ـ كما نراه ـ ليس بالعمر المديد. . ولا بالمستحيل الفريد.

أمّا ما يستدل به بعضهم على تكذيب هذه الحكاية لامتناع اجتماعهم فى مجلس للتعليم واحد مع فارق السنّ ـ أو لامتناع اجتماع النشاط الذى كان يبديه ـ الصبّاح ـ وهو فى سن قاربت المائة. . فإن ما نشاهده باقيًا حتى اليوم من نظام حلقات التعليم الحرّ فى الأزهر بالقاهرة، وفى النجف بالعراق لا يمنع حضور ابن العشرين إلى جنب ابن الثلاثين بل لا يعنى بفارق السن إطلاقًا. وإن ما يقوم به «ابن الصبّاح» بعد أن بلغ سنّ الشيخوخة لا يتعدى الجهد الفكرى، ووضع الخطط لنشر الدعوة وتنظيم كتائب الفدائية وهو عمل يتناسب وهذه المرحلة من العمر، وقد لا يصلح إلاّ بها ولا يجوّد ويتقن إلاّ بعد خبرات لا تكون إلاّ فى بلوغها.

(١) أحمد شاكر شلال: الخيّام ورباعياته ورقة ٢٤٣ ـ رسالة جامعية مخطوطة / القاهرة.

أحدوثة تتجدد:

لا نريد بمناقشتنا الخاطفة هذه أن نؤيد صحة هذه الأقصوصة أو نفنّدها.. فمن الجائز أن تكون حديث خرافة، ومن المحتمل أن يكون «الحسن» الذى درس مع «النظام» شخصًا آخر غير ابن الصبّاح وإن اتفق معه فى الاسم.. فنشأت هذه الخرافة.. وإنما نريد أن نلفت النظر إلى ضعف الدليل الذى استندت إليه نظرية الرافضين لها، وأن نصل إلى أنها قصة تحكى إلى أن تتوافر البراهين القاطعة على بطلانها.. غير أننا نستطيع أن نضيف إلى زعم القائلين بالرفض مضعِّفًا جديدًا ذلك هو وجود نظائر لهذه القصة تروى لثالوث آخر مع فارق آخر فى الزمن والأشخاص والغرض طبعًا، ولكن يرويها لنا إمامٌ مشهود له بالعلم والفضل من معاصرى «النظام»، وفى أعظم كتبه.. وهى قصة ـ الجنابى، وابن المقفع، والحلاّج ـ التى يحكيها لنا ـ أبو المعالى الجوينى ـ فى كتابه الشامل فى أصول الدين، ثم ينقلها ويناقشها ـ ابن خلكان فى وفياته[١]، والتى مفادها: أن هؤلاء الثلاثة قد تواصوا على قلب الدولة، وإفسادها، ثم ارتاد كل واحد منهم قطرًا فذهب الجنابى إلى أكناف الأحساء وابن المقفع إلى بلاد الترك ونزل الحلاّج العراق[٢].

ومن الطريف حقًا أن تنقض القصة لنفس السبب الذى نقضت به قصة ثالوث «النظام» وأن تناقش بنفس الأسلوب الذى ناقشها به المفنِّدون لها تقريبًا.

يبدأ ابن خلكان تفنيده لها بقوله: «وهذا كلام لا يستقيم عند أرباب التواريخ لعدم اجتماع الثلاثة المذكورين فى وقت واحد، لأن الأول والثالث قتلا فى منتصف القرن الرابع بينما قتل الثانى فى منتصف القرن الثانى، ولم يعرف على أنه رحل إلى بلاد الترك».

وقد تكون هذه كغيرها من صنع القصاصين ثم تناقلتها الأقلام والأسماع حتى بلغت الإمام «الجوينى» فأثبتها على علاّتها فى كتابه المذكور.. وقد يكون

(١) ونقل هذه القصة أيضًا بنصها: الصفدى فى الوافى بالوفيات جـ ١ ص ٤٥ مستدلاً على فوائد التاريخ.
(٢) الوفيات جـ ١ ص ٤٠٥.

هناك تصحيف فى الاسم وقع من قِبَل النسّاخ والصواب فيه ـ ابن المقنّع ـ بالنون لا الفاء وقد يراد به «ابن مقنّع» آخر فطن به ـ ابن المقفع ـ المشهور، كما ظنّ فى «الحسن» الذى زامل «النظام» فى تلمذته بنيسابور ـ الحسن بن الصبّاح ـ ولكن المشكلة ستبقى مادمنا لانعرف من هو ذلك الشخص المجهول ولم نصل إلى الحجّة الدامغة برفضها. ومن الجائز أن يكون المؤلف قد جاء بأسماء هؤلاء الأشخاص الثلاثة بغرض الإفساد للدولة وإن اختلفوا فى الزمان والمكان.

وليست هذه أيضا بآخر قصة تصلنا على غرار حكاية «الثالوث النظامى» ولو من بعض الوجوه، وإنما نجد هناك حكاية أخرى على شاكلتها، مع فارق بسيط هذه المرّة حيث لا تختلف مع قصتنا إلاّ فى عدد الأشخاص والمكان والزمان.. وتتفق معها فى الغرض والجوهر فقد أورد المؤرخون: أن اجتماعًا حدث لخمسة من طلاّب جامعة قرطبة فى القرن الرابع الهجرى، وكان هذا الاجتماع فى بقعة خضراء من متنزه الناعورة بعد جهد مضنى فى الدرس، وفى طليعتهم ـ ابن أبى عامر ـ وقد كانت مظاهر التفكير بادية عليه، فسأله أحدهم: «ما الذى يشغلك يا ابن أبى عامر؟» فقال فى لهجة حادّة: «لابد أن أملك الأندلس، وينفذ حكمى فيها فليتمّن كلٌ منكم ما يريد إذا أفضى الأمر إلىّ».. فتمنّى الأول: القضاء.. والثانى: جباية الضرائب.. والثالث: أن يكون حاكمًا لقرطبة.. أمّا الرابع فقد هزأ، ولمّا سئل عن أمنيته أجاب ساخرًا: «أيها الدعى المغرور أتمنى أن يطاف بى «قرطبة» كلها على حمار ووجهى إلى الذنب، وأنا مطلىّ بالعسل ليجتمع الذباب والنمل وليكن هذا أول ما تستفتح به عهدك أيها المتطاول على الملك». فقال ابن أبى عامر: «ليكن لكل منكم ما أراد».. ثم دارت عجلة الزمن وإذا بابن عامر ينتقل من كاتب للعرائض فى حانوت صغير عند باب الخليفة إلى مستشار ـ لهشام بن الحكم ـ الطفل الصغير، ثم إلى حاكم مطلق يلقّب بالمنصور.. ولم ينس زملاءه الطلاّب فقد عيّنهم جميعًا فى المناصب التى تمنّوها واختفى الرابع خوفًا من تحقيق أمنيته له أو عليه.

كل هذه الأقاصيص الطريفة التى سبقت قصتنا فى الزمن، والتى حيكت على منوال واحد ونسجت لمقصد متشابه، يضاف إليها ما افترضه المشكّكون من وجوه تجعل من عنوان أحدوثتنا المعروفة باسم التلاميذ الثلاثة - سى يار ديستانى - مثاراً للجدل، وموضعًا للنظر إلى أن يأتى البرهان القاطع على صحتها أو انتحالها.

وإنه لمّا يدهش حقًا أن نجد نظائر هذه القصة فى الكتب العربية منسوبة إلى القرن الخامس الهجرى بينما لم تشتهر قصة - الثالوث النظامى - إلاّ فى المائة السابعة، حينما سقطت قلعة «ألموت» على يد «هولاكو خان» وأضرمت النار فى مكتبتها بأمره أى بعد أقل من قرنين على وفاة «النظام». . وقيل إنه وقع حينذاك بيد - عطا ملك جوينى - كتاب يسمّى - سر كذشت سيدنا - فى سيرة - الحسن ابن الصبّاح - فاختصر بعض موضوعاته وأثبتها فى آخر كتابه - جهان كشاى[1]- ثم تناقلتها الكتب الفارسية بعد تلخيص وتغيير ومن أهمها - جامع التواريخ - لرشيد الدين فضل الله[2] المقتول سنة ٧١٨هـ.

فمن هو الحسن بن الصبّاح إذاً؟ وما هى أسباب الخلاف بينه وبين «النظام»؟. .

الحسن بن الصبّاح: (حياته وجوابه على رسالة السلطان ملكشاه)

لقد اختلف المؤرخون فى ميلاده شأن غيره من العصاميين المغمورين الذين يجهل الناس يوم مجيئهم للدنيا، فليس فيهم من يؤبه له أو يهتم به، كما لم يُثر أمر والديه أحد لتعرف الشىء الكثير أو القليل عنهما. . وهكذا اختلفوا أيضًا فى نسبه فقيل: إنه «الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصبّاح الحميرى اليمنى» قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة، ورحل منها إلى «قم»

---

(١) انظر: جهانكشاى.

(٢) راجع - فصل من جامع من التواريخ القسم الثانى - سر كذشت سيدنا.

ثم استوطن الرى التى ولد فيها ـ الحسن[1] ـ وقيل إنه يتظاهر بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى حمير اليمن ـ ولكن أهل خراسان وبخاصة سكان طوسى ينفون ذلك ويقولون: إن أباه من فلاحى تلك الولاية[2].

أخذ التشيّع عن أبيه، حيث كان اثنى عشريّا[3]، لأن الدعوة التى قام بها ـ ناصر خسرو[4] ـ المتوفى سنة ٤٨١هـ كانت قد انتشرت فى قهستان وطبرستان فانقلب إسماعيليّا شيعيًا، ثم أسّس فرقته الباطنية أو الحشاشين التى اشتهرت فيما بعد باسمه تارة، وبلقبه أخرى وبالطريقة التى شاعت فى تعاليمه ثالثة، إذ تلقى بعض العلوم على يد الشيخ «عبد الملك بن عطاش» داعية الإسماعيلية فى العراق.. وعلى يد أستاذه هذا حصل على إجازة الدعوة للمذهب بعد أن أخذ منه البيعة والعهد للإمام المستنصر بالله الفاطمى، حيث جعل مركز دعوته «الرى»[5].

وفى سنة ٤٦٧هـ انتقل من الرى إلى أصبهان فقضى فيها قرابة ثلاث سنوات لعلّها كانت هى الفترة التى اتصل فى أوائلها «بالنظام».. وتقرّب فى أثنائها من السلطان ملكشاه، ثم اختلف مع وزيره فخرج من البلاد ساخطًا وعزم على السفر إلى مصر.

وفى سنة ٤٧١هـ وصل القاهرة فى زىّ تاجر[6] بعد أن مرّ ببغداد والموصل ودمشق ولبث فيها سنة وسبعة شهور ومثلها فى الاسكندرية لقى فيها اللطف والرعاية من الخليفة المستنصر، وطبقًا لأصول الدعوة ولما سمعه من الخليفة فقد

---

(١) وفى الوصايا أنه الحسن بن على بن أحمد بن جعفر ص ٣٠.

(٢) الوصايا ص ٣٠.

(٣) المصدر فى رسالة ابن الصبّاح أنه كان شافعيًا كأبيه، ثم صار شيعيًا إسماعيليًا.

(٤) انظر: مقدمة سفرنامه لناصر خسرو ـ نشر وتحقيق «عن. يحيى الخشّاب».

(٥) فصل من جامع التواريخ ـ باسم «سر كذشت سيدنا» ـ رشيد الدين فضل الله ـ نشر محمد دبير ستان ط طهران.

(٦) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص٦٨ـ حوادث سنة ٤٨٧هـ، وفى أخبار مصر لابن ميسّر سنة ٤٧٩هـ ـ جـ٢ ص ٢٧.

دعا لنزار من بعده[1]، بينما دعا - بدر الجمالى - لأخيه المستعلى، ومن ثمّ نشب الخصام بين الزعيمين الداعية الكبير والوزير العظيم، فلم يجد بدّا من ترك البلاد والعودة إلى الشرق فمرّ بالإسكندرية ومكث فيها وقتًا ثم مرّ ببلاد الجزيرة والفرات وخوزستان حتى بلغ أصفهان سنة ٤٧٣هـ وأخذ يتنقل بين مدن إيران ويدعو فيها الناس من وراء ستار حتى وصل ولاية - ألموت «عش العُقاب»[2]، واستولى على قلعتها سنة ٤٧٨هـ بعد أن رشا حاكمها - المهدى العلوى - بثلاثة آلاف دينار ذهبية[3].

ولمّا بلغت الأخبار مسامع السلطان ملكشاه بانتشار الدعوة النزارية أقطع أحد غلمانه «قزل سارغ» قهستان وأرسله لحرب «النزارية» هناك وبقى مشغولاً بحربهم حتى سنة ٤٨٥هـ، حيث أنفذ الأمير «أرسلان تاش» على رأس جيش قوى للاستيلاء على قلعة «ألموت» والقضاء على «ابن الصبّاح» فحاصروها وضيّقوا عليه، ولكنه قضى على الوزير «النظام» صاحب هذه الفكرة قبل احتلال القلعة[5].

ومهما قيل - عن أسباب الخلاف بين الزميلين المتخاصمين فإنها لا تتعدى حربًا فى الرأى أخذت تقوى وتشتدّ كلما ازدادت بواعثها على مرور الأعوام، فابن الصبّاح كان ميّالاً للتشيّع الإسماعيلى، سواءٌ أكان منذ نشأته الأولى أم بعد تلقيه الدروس على - ابن عطاش - فى حين كان «النظام» سنيّا شافعيّا منذ

(١) لأن نزاراً أكبر أولاده - الكامل جـ ١٠ ص ٩٨.

(٢) قلعة حصينة على جبل من ناحية «روزيار» بين قزوين وبحر الخزر قيل إن بعض ملوك الديلم أرسل عقاباً للصيد وتبعه فرآه وقع على هذا الموضع الحصين، فاتخذ منه قلعة وسماها «إله ألموت» أى تعليم العقاب بلسان الديلم، وقيل اسم القلعة بتاريخها لأنها بنيت فى سنة ٤٤٦هـ وهى «م و ت».
(القزوينى - آثار البلاد ص ٢٠٠ - مادة «ألموت»).

(٣) فصل من جامع التواريخ سر كذشت سيّدنا ص ١٧:٦، وفى المنتظم لابن الجوزى ألفا ومائتى دينار - جـ٩ ص ١٢٠.

(٤) نفس المرجع.

(٥) الكامل لابن الأثير - حوادث سنة ٤٩٤هـ - جـ ١٠ ص ١٢٩.

طفولته المبكرة.. ثم تطوّر الخلاف المذهبى إلى تنافس على المنصب ليتخذه كل منهما وسيلة لنشر عقيدته.. وإذا تذكرنا ما للعقيدتين من نظرة خاصة للخلافة والقائمين بها يظهر لنا وجه الخلاف أكثر وضوحًا، وتبدو لنا أسباب النزاع أبعد غورًا وأشد خطرًا.

وما كان «النظام» بالذى يخشى «ابن الصبّاح» أو يهابه حيث كان قبل ذلك يكرمه ويحترمه لفضله إذ كان عالمًا بالحساب والهندسة والنجوم والسحر[1].. وما كان السلطان ـ ملكشاه ـ بالذى يخاف دعوته.. لذلك قد أمضى هذا العهد فى التجوال والتنقل بين مدن إيران ثم العراق إلى أن عاد من رحلته إلى مصر، واستفحل أمره باغتصابه قلعة ألموت وطرده صاحبها سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م).. وتواترت الأخبار بانتشار دعوته بين القرى وفى المدن من خراسان وغيرها حتى تأكد «للنظام» بأن الخطر على الدولة وعليه وعلى الخلافة أصبح قاب قوسين أو أدنى.. وأنه لابد أن يتلافاه قبل أن يستفحل فيقضى عليهم جميعًا.

وقد قابل الوزير الموقف على خطورته كعادته فى مثل هذه الأحوال حيث فضّل أن ينحسم الخلاف بالمفاوضة واللّين دون إراقة دماء فاقترح على السلطان ملكشاه إرسال مبعوث إلى «الحسن بن الصبّاح» ليدخل فى روعه عظمة الدولة وأبهة الملك، فبعث إليه الرسول حاملاً رسالته يطلب منه الخضوع للحكومة القائمة، ويحذّره مغبّة التمادى فى بثّ الدعوة الفاطمية والخروج على الخلافة العباسية ولكن الحسن بدلاً من أن ينصاع لأمر السلطان ويرضخ لإرادته فقد عرض على رسوله ألوانًا غريبة من طاعة أتباعه له، فهذا يرمى بنفسه من قمة الجبل، وذاك ينحر نفسه بالخنجر، وثالث يلقى نفسه فى الماء فيموت غريقًا كل ذلك بمجرد الإشارة إليهم لفعل ذلك[2]. ثم قال للرسول: «قل لسلطانك

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩، والقزوينى ـ آثار البلاد ـ مادة «ألموت» ص ٢٠٠.

(٢) المنتظم جـ٩ ص١٢٠ ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ، وعبد الرزّاق كتاب نظام الملك ـ عن كنج دانش ص١١٤.

عندى من هؤلاء عشرون ألفًا»[١]، قيل: وفى أثناء هذه المحادثة قُدم ابنا الحسن بن الصبّاح بين يديه بسبب مخالفة شرعيّة لاتهامهما بشرب الخمر.. فأمر بجلد كل واحد منهما، ونفّذ أمره حالاً وماتا متأثرين به[٢].

وقد ذكرت المصادر التاريخية السفارة كما أسلفنا ولكنها لم تشر إلى اسم صاحبها والتفاصيل المهمّة التى جرت خلالها، ثم ذكر بعضها أنه سافر إلى مصر بزىّ تاجر غير أنها أغفلت دواعى السفر وأسباب تخفّيه[٣].. كما شنّعت على «ابن الصبّاح» وغالت فى الطعن بعقيدته ونسبت إليه من الأشياء ما هو أبعد بالدعوة الباطنية منه إلى الدعوة الفاطمية إلى أن عثرت ـ خلال سفرى إلى إيران فى صيف سنة ١٩٥١م ـ على رسالتين مخطوطتين فى إحدى المجاميع القديمة المخبوءة فى مكتبات طهران[٤]، وكم كان سرورى عظيمًا حينما وجدت أولاهما من السلطان ملكشاه إلى الحسن بن الصباح والثانية ردًّا عليها، وإنهما ليكشفان عن كثير من الأخطاء التاريخية حول علاقتهما وأسباب اختلافهما كما يميطان اللثام عن حياة «ابن الصبّاح» ورأيه فى الخلافة العباسية و«نظام الملك» معًا.

والجدير بالتنويه عليه فى هاتين الرسالتين: أن السلطان بعد أن يتّهم «ابن الصبّاح» بإغواء الناس وخروجه على ولىّ عصره، وطعنه بخلفاء بنى العباس الذين هم قوام الدين والدولة التى ستحيل قلعته أرضًا يبابًا، وقاعًا خرابًا[٥].. يأتيه الجواب مفصّلاً فى الدفاع عن نفسه وعقيدته، فيشرح له ابن الصبّاح أحواله وشيئًا عن دينه.. ويثبت له أنه على دين الإسلام ثم يدلى بالشهادتين، وأنه يعتقد بأن: «أولاد النبى أحقّ بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم». ثم يتّهم «النظام» بأنه خصم قوى يجعل الباطل حقًّا والحق باطلاً وأنه هو الذى أوقع بينهما فاضطر للسفر إلى بغداد ومنها إلى مصر حيث

(١) المصدر السابق.
(٢) كنج دانش ـ مادة ملكشاه، وعبد الرزاق ـ النظام ١٧٨.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث ٤٨٧هـ ـ جـ ١٠ ص ٩٨.
(٤) مكتبة ـ ملّى ملك ـ م الخاصة.
(٥) انظر ملحق رقم ٦ من البحث.

التقى بالإمام «المستنصر بالله» وسلّمه منشور (مرسوم) الدعوة ورجع ليدعو إلى المذهب الذى كان لدى الصحابة فى زمن الرسول، ويدفع شرّ بنى العباس، ثـم يعلن عصيانه لهم، وخروجه على دولتهم لأنها قامت على التزوير والتدليس، والفسق والتلبيس، ويورد له دليلاً على عدم وفائهم بمقتل - أبى مسلم الخراسانى - وكيف غدروا به وشردوا الألوف من أبناء الرسول، وفتكهم بآل برمك ودليلاً آخر على فسادهم بإشاعة الخمر والزنا واللـواط عندهـم، ودليلاً ثالثًا هو حجرهم على العقول بضرب أبى حنيفة مائة جلدة، وصلب الحلاّج. .

ثم يعود للحديث عن «النظام» بعد كلام طويل فيتهمه بقتل «الكندرى» الذى يطرى على خُلُقه وعلمه وإخلاصه، كما يتهم «النظام» بالإسراف على شراء الطين والآجر -قاصدًا بناء المدارس والعمـائر - فـى أطـراف المملكـة، بينـما كـان «الكندرى» يوصّل الأموال إلى خزينة السلطان ولايصرف شيئًا على الخشب والطين. .

ثم يختم رسالته بالتسليم للسلطان ولكن بعد الخلاص من خصومه إذ لا يمكن الحضور للخدمة بوجودهم واستماعه لأوامر بنى العباس الذين يريدون القضاء عليه، ولئن اضطر لإرسال جيش إليه تنفيذًا لإرادتهم وتفاديًا لتقوّلات المغرضين فإنه لا يعذر فى شرع المروءة.

ثم يجيب على هذا التهديد بما يساويه إن لم يكن أقـوى منه حجـّة وبأسـلوب متين فيقول: بأن لديه من الأحباب والمؤانسين والشيعة والعلويـين فـى طبرستان وقهستان والجبال عـدد كبيـر سيقف فـى وجـه جيوشـه وحينئـذٍ لا يعلم كيف تنتهـى الحرب لأن مـريديه فى سـرستك - يقصد -ألمـوت - يعتقدون بأن هذا البرج لا يخرج من أيديهم إلى زمن بعيد متعلق بعناية الله[1].

والجديد فى الرسالتين وخاصة ثانيتهما أنهما كشفتا عن صحة تلك السفارة

(١) انظر: ابن الأثير فى الكامل، وابن الجوزى فى المنتظم - حوادث ٤٩٤هـ ٣/ لم نعثر على ترجمة له بين رجال هذه الفترة.

التى جهلها كثير من المؤرخين، وأثبت لنا فيها - ابن الصبّاح - اسم السفير وهو الصدر الأعظم - ضياء الدين خاقان - وأبان لنا عن جانب من عقيدته لم يزل خفيّا حتى اليوم وهو أنه كان شافعيّا على مذهب أبيه، ثم مال نحو التشيّع بعد دراسة الحديث وكتب الشافعى فى فضل أولاد النبى ثم يشير إلى عمله فى الديوان واشتغاله بخدمة السلطان حتى أنسته فكرته الأولى، وسعاية «نظام الملك» به حتى أخرجه قهراً..

ومن هنا استأنف ما قطعته عنه أعمال الدنيا، فانتقل من الرى إلى بغداد وأقام مدة يقول عنها، إنها غير قصيرة يتفحص أحوال الخلفاء فرآهم خارجين عن «مراتب المروءة والفتوة والإسلام» فذهب إلى مصر وفيها خليفة الحق الإمام «المستنصر باللّه» حيث شهد أحواله واعترف به وتتبّع خطاه العباسيون يريدون اغتياله فلم يتمكنوا وأغروا أمير الجيوش - بدر الجمالى- فأراد إبعاده إلى الروم داعيًا ولكن الإمام قرّبه ورعاه..

ثم يستمر فى حديث طويل يدفع به عن نفسه ومذهبه ويرفع من قدر خلفائه الفاطميين ويحطّ من سمعة بنى العباس.. إلى أن يقول: «فإذا ما اضطر أحدهم لرفع العار أن يبذل روحه ليدفع واحدًا أو اثنين من هؤلاء الظلمة فليس ذلك ببعيد، وإذا فعل فهو معذور».. مشيراً بذلك إلى فرقة الفدائية التى ألّفها لاغتيال مناوئيه - وكأنه أحسّ بخطر تصريحه فعاد إلى القول: «فما لحسن الصبّاح وهذه القضايا وما حاجته بها وما هو نافع له إذا أغرى أحدًا وأى عمل من أعمال الدنيا يمكنه إيجاده، ما لم يتعلق به تقدير سماوى»..

ثم ينهى رسالته باقتراح عظيم على السلطان خطير على كيان الدولة يقول فيه: «فإذا رافقت السلطان سعادة الدنيا والدين كما رافقت سلطان الإسلام - محمود - حينما قام بدفع شرهم - يعنى بنى العباس - فليأت بالسيد - علاء الملك -[1] - - من «ترمذ» وينصّبه للخلافة.. وإلاّ فسيأتى زمان يجىء فيه ملك عادل يخلّص المسلمين من هذا الجور.. والسلام على من اتبع الهدى»[2].

(١) الملحق السابق رقم ٦ ولسنا ندرى من المقصود بذلك، وهل هو أستاذه ابن عطاش أو غيره؟
(٢) المصدر السابق / ٦ .

والذى يلاحظ على هذه الرسالة ـ وفيما نلحظه قيمتها التاريخية ـ أنها تتضمن على الرغم من إيجازها ـ ترجمة مركّزة لسيرة «ابن الصبّاح» بقلمه، كما تحتوى على حقائق جديدة عنه لاتوجد فى غيرها من المصادر التاريخية المعروفة حتى الكتاب الذى نسب إليه والذى اكتشف فى مكتبة ـ ألموت ـ باسم ـ سركذشت سيدنا ـ وبذلك تلقى ضوءًا جديدًا على الأحكام المتداولة بين المؤرخين فى هذه الفترة فتخفّف من حدّة بعضها وتؤيد بعضها، وتنكر بعضها الآخر.

وقد كان من نتائج هذه الرسالة ـ كما نعتقد ـ أن السلطان ملكشاه قد تأثر بها فزلّزلت عقيدته وغيّرت من وجهة نظره نحو الخلافة والخلفاء من بنى العباس، وبالتالى نحو «ابن الصبّاح» نفسه فشهدناه «يؤجل» إرسال الجيش لحصاره إلى سنة أخرى وقيل سنتين[1]، وتشيع حول ميوله الباطنية الشبهات وتشير إليه النصوص المتناثرة هنا وهناك[2]، ويذهب إلى بغداد ينذر الخليفة بتركه العاصمة إلى حيث يشاء.

ومهما فرض للباطنية من معان، وتخيَّل لها المؤرخون من صلات وجذور بالقرمطة والمزدكية وأمثالهما من ديانات قديمة، فإنها بدأت كعقيدة لها وسائلها ونظمها وتشكيلاتها وتعاليمها المرتبة على يد ـ ابن الصبّاح ـ فإنما عرفت أحوال أتباعها فى عهد السلطان ملكشاه.. فقد حكى أنهم دعوا لمذهبهم مؤذنا فامتنع عليهم فقتلوه خوفًا من افتضاح أمرهم فطلب «النظام» قاتله فوقعت المنيّة على نجار يدعى ـ طاهر ـ فقتل[3].

وقد اتخذ ـ ابن الصبّاح ـ لنشر عقيدته وسيلتين يحملان الوعد والوعيد.. يغوى بأولاهما: السّذج والبسطاء، ويهدّد بالثانية: الوجهاء والعظماء، فقد

---

(١) محمد عبدالرزاق ـ آل ـ لكنهورى ـ كتاب النظام ص ١٧٨.

(٢) المنتظم جـ ٩ ص١٢٠ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، وابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ ـ ترجمة ملكشاه.

(٣) ابن خلكان ـ الوفيات.

اختار لاعتناق مبادئه الأغنياء والعوام يطعمهم الجوز والعسل والشونيز حتى ينبسط دماغهم، وقيل: الحشيش ليهيىء لمريديه جوّا من الخيال تتلاشى فيه القيود الاجتماعية، ويلقى عليهم وهم فى حال غيبوبتهم تعاليمه لتتمكن فى نفوسهم وتستولى على عقولهم.. ثم اعتمد فى نفس الوقت على فرقة ألّفها من خيار أنصاره لاغتيال كبار الدولة ومن على شاكلتهم ممن يقف فى طريق دعوته فبرعوا فى ابتكار الطرق للفتك بأعدائهم، وكان المنتسبون من الفدائية يستجيبون لتنفيذها لأنها صادرة عن رغبة الإمام المعصوم، حتى أطلق عليهم ابن خلكان اسم - الفداوية -[1]، كما شاع عند غيره اسم ـ الحشاشين - مستمدين من هذه الشخصية وتلك من الوسائل التى اشتهروا بها.

وعلى الرغم من ذلك فلم تلق دعوته لنزار رواجًا فى ـ الرى ـ مهبط رأسه ومركز دعوته حيث أخذ أبو مسلم حاكمها وصهر «النظام» الذى طلب مراقبته بعد أن شهد جماعة من دعاة الفاطمية يدخلون عليه [2].. فاضطر لأن ينتقل بين المدن والقرى حتى انتهى به المطاف إلى قلعة «ألموت». ومع ذلك فقد وجدت لها تربة خصبة لنموها فى فارس لم تجد مثلها فى مصر والبلاد التابعة لها بفضل داعيتها الأول ـ ابن الصبّاح.

ومنذ أعلن «ابن الصبّاح» دعوته نزح فريق من أبناء الخلفاء الفاطميين بمصر إلى فارس منهم ـ شاه طاهر بن رضى الدين الإسماعيلى الحسينى ـ [3] كانوا سندًا له فى الدعوة، وعاملاً قويّا فى انتشارها حتى قيل: إنه كان معه صبى منهم يدعو باسمه.. ويقول للناس: إنه من نسل محمد بن إسماعيل وإنه لابد لكم من معلم ومعلمكم هذا الصبى، وطاعته واجبة فإن رضى عليكم سعدتم فى الدنيا والآخرة[4]..

(١) الفخرى.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩.

(٣) الشوشترى ـ مجالس المؤمنين جـ ٢ ص ٢٣٤.

(٤) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٢٠١ ـ قلعة «الموت».

وممّا مهّد «للحسن» تنقله دون ضرر عليه ومهّد للباطنية إزدهارها أنه لم يكن هناك «صاحب خبر» فى عهد السلطان «ألب أرسلان» لإعتقاده بأن ليس فى الولاة من يرتاب فيه أو يخشى خيانته، وأن فى تعيين الرقباء وبثّ الجواسيس ما يؤلم المخلصين وينتهزه الخونة فى تقريبهم وإغداق الأموال عليهم فيرفعون التقارير إليه وفيها ذمّ للأصدقاء، ومدح للاعداء وبهذا تسود الفوضى، ويختلّ النظام[1].

غير أن هذا الرأى لم يرض وزيره - نظام الملك - فلم يقف عنده فى مطاردة الباطنية وأعلنها حربًا عليهم بالاقناع وتأليف الكتب ضدهم تارة وبالقتال تارة أخرى، واستمر فى تنفيذ خطته هذه طوال حياته وخاصة فى عهد السلطان ملكشاه إلى أن قضت عليه بإيعاز من صاحبه بعد أن تحققت فرصته إذ قال له مرّة وهو يتفرس فيه: عن قريب يُضلّ هذا الرجل ضعاف العوام[2].. كما تحققت نبوءة صاحبه فى الخلافة العباسية وهو يخاطب السلطان بقوله: «وإلاّ فسيأتى زمان يجىء فيه ملك عادل يخلّص المسلمين من جورهم[3]، إذ جاء - هولاكو - بعد قرنين من إعلان هذه الحرب العنيفة التى بدأت باستيزار «النظام» عام ٤٥٥ هـ وقضى على خلافة بنى العباس سنة ٦٥٦هـ برأى مشيره - نصير الدين الطوسى.. ولكن بعد أن هدّ أركان قلعة ألموت وأحرق مكتبتها سنة ٦٥٤هـ»[4]. وبقتله الخليفة - المستعصم بالله - بعد حوار عنيف معه من قبل الفاتح - كما تذكر بعض المصادر والتى تحتاج إلى تحقيق - انتهت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ.

* * *

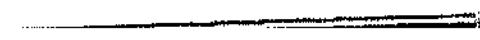
(١) مختصر البغدادى - آل سلجوق ص ٦٣.

(٢) ابن الاثير - الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩، والقزوينى - مادة «ألموت» ص ٢٠٠.

(٣) البحث ٤ ملحق رقم ٦.

(٤) الفخرى.





■ الباب الرابع ■

الأهداف الكبرى لـ«نظام الملك» ووسائل تحقيقها

الفتوحات في عهدى : «ألب أرسلان» و «ملكشاه» .

إنشاء المدارس النظامية والمكتبات العامة والخاصة والمخطوطات النادرة .

دولة «نظام الملك» التي يحلم بوجودها كما خطّط لمعالمها ودعائمها الإدارية والاجتماعية في كتابه ـ سياستنامة ـ أو سياسة نامة .

تنويـر: (التوسع وإنشاء المدارس لتأسيس دولة فضلى)

لقد شهد الوزير «نظام الملك» وهو يجوب البلاد من طوس إلى نيسابور ثم إلى بخارى وبلخ لتحصيل العلم وطلب العمل، دولة الغزنويين وهى تنهزم أمام جيوش الترك وتتراجع نحو الشرق الأقصى فتنكمش فيما وراء «جيحون» والشمال الغربى من الهند.. وسمع بدولة البويهيين وهى تنهار أمام جحافل «طغرلبك» الى أن تتلاشى وتقوم على أنقاضها دولة آل سلجوق ثم شهد وسمع ما تقاسيه الخلافة العباسية فى بغداد من هذه الدويلات الناشئة من ضروب المهانة والاستخفاف وما تلاقيه الشعوب المنضوية تحت لوائها من صنوف الجور والاستعباد.

وكان لهذه الحرب المستعرة فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى أثرها فى نفسه وهو يشبّ ويكبر، ويطوف ويتعلم، وكان الألم يحزّ فى نفسه وهو يرى العالم الإسلامى يحترب ويضطرب وينشّق على نفسه باسم الدين تارةً، ثم يخرج ملوكه على طاعة الخليفة ويستهينون بالخلفاء والناس جميعًا باسم السياسة والحكم الصالح تارةً أخرى.. وكان الأمل فى المستقبل يحدوه - وهو سائر فى طريق المجد - وينمو معه حتى استحال الى أهداف أخذت تبرز وتنضج أمام ناظريه ثم أصبحت تتمثل وتتجسم فتملأ تفكيره وكيانه حين أتيحت له فرصة الدخول فى سلك موظفى ديوان - أحمد بن شاذان - فصارت شواغله آناء الليل وأطراف النهار، يعمل من أجلها جاهدًا متواصلاً ويسعى لتحقيقها بكل ما أوتى من جاه ونفوذ ومال.

ومادام اختلاف الأديان والمذاهب يدفع الناس إلى القتال والحرب فلم لا توجد رسالة واحدة ومادام دين الإسلام خيرها وأصلحها لأنه آخرها وخاتمها فلِمَ لايشملهم جميعًا. وعلى هذا فقد انتهت أهدافه إلى نتيجتين أساسيتين هما: التوسع فى الفتح لنشر الدين الإسلامى، ثم التوحيد بين الأقطار المفتوحة على أساس دينى.. وكان طبيعيًا أن يجد أمامه سبيلين لا ثالث لهما، وهو يفكر فى وسائل تنفيذ مقاصده، هما: الحرب والتعليم. ومن أجل هذين فقد ألّف جيشًا قويًا للقضاء على حركات التمرد فى الداخل ثم الغزو إلى الخارج كما أسّس المدارس النظامية فى معظم الحواضر الإسلامية حتى شملت العراق وإيران وما وراء النهر.

وفى سبيل تحقيق غرضه الأول كان يعدّ الجيش إعدادًا منظّمًا ويزيد فى عدده كلّما استطاع لذلك سبيلاً. لهذا وجد من الخطأ الكبير والخطر الجسيم على الدولة[1] وعلى تنفيذ مشروعاته تسريح ضباطه وإعفاء فريق منه، لاعتقاده بأن هذه الدولة لا يمكن لها أن تتحد ولا يمكن لأركانها أن تتوطّد، ولحقوق أهلها أن تصان، إلاّ بقوة الجيش[2]، وبقاء الشريعة، وأن اقتراح تخفيض عدد الجنود من أربعمائة ألف فارس إلى سبعين ألفًا لتوفير نفقات - ٣٣٠ ألف جندى - يكون عقبة كئودًا أمام مشاريعه فى الفتح وفى القضاء على العطالة. ولذلك اعتبر هذا الاقتراح خطرًا كبيرًا على أمانيه، لأنه يعرّضها إلى الفشل، ولذا

---

(١) بارتولد - تركستان ص٣١٠.

(٢) سياستنامة، وفى راحة الصدور ص ١٣١-١٣٢ أن عدد الخيّالة العائدين لحرس السلطان ملكشاه وحده كان مؤلفًا من ٤٦ ألف جندى، والقزوينى - آثار البلاد ص ٢٧٦ وفيه ينقل القصة عن «سير الملوك» نفسه ويذكر أن العدد الذى اقترحه النظام ثمانمائة الف بدلاً من سبعمائة لتكون الهند والسند والصين ومصر والحبشة والروم تحت طاعتنا. ويذكرها كذلك ابن الأثير فى الكامل - حوادث سنة ٤٧٣هـ، ولكن بشكل يختلف قليلاً عن الأصل الفارسى فى سياستنامة فيقول: بأن السلطان استعرض العسكر فى الرى فأسقط منهم سبعة آلاف رجل لم يرض عن حالهم فمضوا إلى ناحية أخيه نكستى فثار على هذا واستولى على مرو الروذ ومرو الشاهجهان وترمذ وسار إلى نيسابور طامعًا فى خراسان وقيل: بإن النظام قال للسلطان: «إن هؤلاء ليس فيهم ذو صنعة غير الجندية فإذا أسقطوا لا تأمن أن يقيموا لهم رجلاً».

ناقش سلطانه بحماسة بالغة، وبسخرية ـ فى الاقتراح وصاحبه ـ لاذعة، لمعرفته بأنه من وحى المغرضين ضدّه، المفسدين للمملكة، فأجابه: أنه من الضرورى والمهم جدّا زيادة عدد الجيش إلى سبعمائة ألف جندى بدلاً من أربعمائة ألف جندى، وذلك بغية الاستيلاء على آسيا وأفريقيه وبلاد اليونان(١).

والحق أن إمبراطورية واسعة كهذه وفى القرون الوسطى لا تستطيع البقاء إلاّ بالجيش، فالإمبراطورية الرومانية تقف لها وراء الحدود الشمالية الغربية تهددها عندما تحسّ فى إدارتها ضعفًا أو تسمع بين حكامها اختلافًا، والخلافة الفاطمية من وراء تخومها الجنوبية الغربية ترصد أحوالها وتسجّل بواسطة دعاتها كل خلل أو عجز، وولاة الأمصار كلٌ يريد الاستقلال بإمارته واستغلال مواردها له ولأبنائه من بعده، فلم يكن بدّ من وجود جيش ضخم يحمى البلاد من ثورات العصيان فى الداخل والغزو من الخارج فضلاً عن خطة التوسع التى ينشدها الوزير «نظام الملك».

وكانت الخطوة الثانية التى عملها بعد إعداده الجيش هى القضاء على المتمردين والطامعين لاستتباب الأمن الداخلى، ثم الربط بين البيت السلجوقى والأسر الحاكمة فى بغداد وتركستان برباط المصاهرة ليسود الاطمئنان فيما إذا زحفت الجيوش للفتح الخارجى وكانت الخطوة الثالثة أن جمع الجيش بقيادة الأمير ـ ملكشاه ـ ورافقه بنفسه بأمر السلطان ـ ألب أرسلان ـ لفتح وان وميافارقين والقفقاس وكرجستان وتّم له النصر فيها بمهارة «النظام» وخططه الناجحة على الرغم من أنها كانت من الأماكن المستحكمة.

وفى سبيل تحقيق غرضه الثانى كان يرى وجوب محاربة الباطنية حربًا لا هوادة فيها لأنها خطر على الدولة فى الداخل والخارج، وخطر على الدين الإسلامى الذى هو القاعدة الأساسية للحكومة التى قصدها: فالباطنية تدعو إلى عقيدة جديدة وخلافة أخرى غير عباسية، فهى التى ستبعث الشقاق فى البلاد،

(١) مكرمين خليل ـ تركيا فى عهد السلاجقة ص ٦٣.

وتفرّق بين صفوف المواطنين، ولكنها لم تستعد قوتها بعد فتك «طغرلبك» بقائدها - البساسيرى - وأنصاره ليقوم بحملة قوية ضدها فما عليه إلاّ أن يتم فتحه فى غرب الدولة حتى يستولى على الشام ومصر، ويقضى على الفاطميين مركز هذه الفكرة ومصدر شيوعها، وأوشك أن يصل إلى غرضه هذا لولا تهديد الروم بالزحف على الثغور الذى اضطر «ألب أرسلان» راجعًا لمقابلته، وحدثت معركة «ملاذكرد» سنة ٤٦٣ هـ التى اغتيله السلطان بعدها بعامين قضاهما بالفتح وإخضاع الخارجين على الحكم.

وكان «النظام» يرى الدولة - كما يبدو - معرضةً لخطرين لا يقلّ أحدهما عن الآخر خطورة: الصليبية الممثّلة فى دولة بيزنطا الرومانية من الخارج، والباطنية الممثّلة فى إمامة الفاطميين بمصر، والتى انتشرت مبادؤها فى الداخل.. وكان عليه أن يجاهد فى الجبهتين فى آنٍ واحد ليحقق غرضه فى الاتحاد الإسلامى بين الأقطار البعيدة والقريبة.. لذلك جعل لسلطانه نموذجًا حيًا من السلطان - محمود الغزنوى - يجب الاقتداء به، والاعتزاز بسيرته[١]، وما ذلك - كما نرجّح - إلاّ لأنه قام بطراز من الحكم فى الجانب الشرقى من البلاد الإسلامية يفيد أنه قد بلغ الأوج[٢] من حيث القوة والفتح والتعصب للدين الإسلامى والمذهب السنّى حتى قتل الألوف من الرعيّة لاتهامهم بالتشيّع[٣] - للإسماعيلية الباطنية.

إن فكرة الاتحاد - على أساس الدين - أى الاتحاد الإسلامى لا القومى قبال الاتحاد الصليبى والتى مازالت تثار فى عصرنا الحاضر بين الفينة والأخرى لأغراض سياسية، هى الهدف الذى كان يبتغيه من حروبه المتواصلة، لأن الفرس لا ينزعون إلى العصبية القبلية كما هى معروفة عند العرب وكان يشعر بأن الاتحاد بين الشعوب الإسلامية ضرورة سياسية وعقدية كما تمليها الضرورة

(١) سياستنامة.

(٢) بارتولد - تركستان ص ٢٨٧ (عن ابن الأثير).

(٣) ماكس فانتاجو - المعجزة العربية ص ٧٠، ٧١.

الإنسانية أمام الزحف الصليبي.. ولم يكن في اتجاهه هذا سياسيًا محترفًا ليتخذ منه وسيلة لبلوغ الجاه وجمع المال والاحتفاظ بالمنصب، وإنما كان - كما يظهر من سيرته - رجل دولة، وصاحب رسالة ولم تكن تلك الأشياء بنظره إلاّ وسائل بواسطتها يصل إلى غايته وتأدية رسالته.

ومن الطريف حقًا أن تكون فكرة - الاتحاد - التي دعا إليها «النظام» منذ تسعة قرون وطبّقها في البلاد التابعة لحكومة الخلافة الإسلامية، أشبه ما تكون بالاتحاد «الفيدرالي» الذي يحاوله رجال السياسة في العصر الحاضر.

الإقطاع في رأى «النظام»، والغاية منه:

لقد رأى «النظام» عجزًا في الخزينة بسبب الحروب المتلاحقة وبوار الأرض، ولا يجوز فرض الضرائب مادامت الأراضي خرابًا، لذلك أقطع كبار القواد إذا أظهروا بسالة في الميدان، وإخلاصًا للدولة بشرط أن يقوموا بتموين الجيش وإعداده للحضور في موسم الربيع من كل سنة إلاّ إذا دعت الظروف لغير ذلك[1]. فكان هذا سبب عمارة البلاد وكثرة الغلات[2].. وقد شملت الإقطاعات بلاد فارس ومسقط والشام، وبقى هذا النظام سائدًا إلى - عهد صلاح الدين الأيوبي[3] - بل استمر إلى اليوم الذي كتب فيه السبكي طبقاته[4].

وإذا رجعنا إلى مرسوم الإقطاع الذي أصدره السلطان «ألب أرسلان» حينما أقطع - قهستان - ونواحيها إلى الأمير - عميد الملك - أحد قواد الجيش ورجال الديوان.. نراه بعد مقدمة مفصّلة يشرح فها تقدير البلاط لجهود المخلصين من الزعماء.. وكان من واجبه أن يجزيه على جميل صنعه كما يعاقب الخائن على سوء عمله.. يشترط عليه أن يعرض منافع هذه البلاد وأموالها ومحصولاتها وخراجها على الديوان الأعلى، وقد أرجع إليه الحل والعقد في المشكلات، والأمر والنهي في المعضلات ثم يعيد له النصح بمراعاة جانب الرعايا وأن

---

(١) العماد الأصبهاني - آل سلجوق.

(٢) السبكي جـ ٣ ص ١٣٩.

(٣) محمد عبد الرزاق - كتاب «نظام الملك» (عن «ألين بول» في مقدمته لحياة صلاح الدين الأيوبي).

(٤) طبقات السبكي جـ ٣ ص ١٣٩.

يشملهم بالعدل ويرضى نوابه بالعفو عن الرسوم المجهدة والخارجة عن الحدود المقررة وألا يكلفوهم فوق طاقتهم - إذ لا يكلف اللّه نفسًا إلاّ وسعها - وأن يحصّلوا أموال الديوان بكل رفق وعطف ثم يختمه بتوجيه الخطاب إلى رؤساء وأعيان المقاطعة بلزوم الانقياد والاحترام له.

ولا نخال «النظام» فى أهدافه تلك إلاّ صورة صادقة تعبر عن آمال جسام كانت تجول فى خواطر عظماء العالم الإسلامى، وأمانٍ كبار كانت تجيش فى أعماق نفوس العامة من الناس، لذلك لم يعلن عن مقاصده ووسائلها حتى وجد من الناس أفواجًا تلتحق بالجيش لتجاهد فى سبيل اللّه، وأخرى تنتمى لمدارسه وتجتهد فى سبيل العلم من أجل الدعوة الخالصة لدينه.. وبقى هو ثابتًا على مبادئه وخططه، مؤمنًا بها، ولن يحيد عما آمن به أنه الحق.. وبقى إيمانه صافيًا نقيًا فى أعماق نفسه فلم يعش إلاّ له ولم يمت إلاّ فى سبيله.

وكان من حسن طالع الدولة الفتية وهى على تخوم بلاد غزنة وتركستان فيما وراء النهر، تروم فتحها وإخضاعها، وعلى مقربة من أسوار القسطنطينية عاصمة بيزنطة تريد هدمها وتحطيم قلاعها وحصونها وقد اتخذت من أصفهان تارة ومن الرى أخرى ومن مرو ثالثة فى إقليم خراسان قلب فارس، حاضرةً لها، ومركزًا لحضارتها..

كان من حسن طالع تلك الدولة الناشئة أن تجد أمامها رجلاً «كالنظام» كسب من الخبرات ألوانًا مختلفة ودرس من علوم عصره فنونًا متنوعة، وعرف من طبائع الناس ومجاهيل الطرقات، واختلاف المناخات فى البلاد التى جابها وطوّف فى أنحائها، ما يمهد لنجاح الفتوح التى يهدف سلاطين السلاجقة إليها.. فإننا إذا تتبعنا حركة الفتح التى استأنفها السلطان - ألب أرسلان وترسّم خطاها من بعده - ملكشاه - نجد الوزير - نظام الملك - محور النشاط العسكرى مثلما كان باعثًا لحركة النشاط العلمى والسياسى،.. وأنه كان الملك غير المتوّج الذى يحكم باسم الخليفة والسلطان معًا[1] وإن كان وزيرًا لثانيهما

(١) ابن رجب - ذيل طبقات الحنابلة - حوادث سنة ٤٦٠هـ.

فقد كان الخليفة يخشاه أكثر مما يخاف سلطانه[1].. وهذا ما سنتعقبه من سيرته وهو منصرف بقلبه وعقله نحو الفتح فى عهدى السلطانين ألب أرسلان وملكشاه.. ثم إنشائه المدارس النظامية وإقامته الدولة العادلة كما تصوّرها فى الفصول الثلاثة من هذا الباب.

بل كان حسن الطالع ـ اذا كان للناس طوالع سعد ونحس ـ قد أدى لآل سلجوق خدمة قلَّ أن يؤديها غيره لغيرها فى التاريخ فقد نشأت دولتهم والجبهات العدائية من حولهم فى حالة من الضعف بسبب التفكك الدينى والانحلال السياسى إلى درجة يسهل معها الفتح.

وكان أول ما لقى سلاطين السلاجقة الأول من ظواهر طوالع الملوك السعيدة ضعف الخلافة فى بغداد بسبب التطاحن المريع بين الاتراك وأمراء آل بويه من جهة والتنافس الفظيع بينهم وبين دار الخلافة من جهة أخرى حتى لم يقو الخليفة والبويهيون معًا على الصمود أمام بطش قائد الترك البساسيرى ـ وقيامه بالدعوة إلى الفاطميين.

ولا نغلو فى القول: إن ادعينا أن بقايا ملوك غزنة فى هذا العهد صاروا ألعوبة فى أيدى سلاطين السلاجقة كما كان مصير ملوك الديلم ـ الجبل ـ إلى أن قضوا على آخرهم.

ولم تكن الخلافة فى مصر أحسن حالاً من منافستها الخلافة فى بغداد فقد كانت تقاسى أزمات سياسية واقتصادية بسبب الحروب بين العبيد والاتراك وانشغال الناس عن الزراعة التى تسبّبت عن وقوف مياه النيل عن الارتفاع عدة سنوات حتى تفرّق أهالى مصر فى سائر البلاد وحتى وصلت أم المستنصر وبناته إلى بغداد، ولو لم يضطر السلطان ـ ألب أرسلان ـ لترك مصر لمقابلة جيوش بيزنطة الزاحفة على خراسان لكان النصر حليفه فى فتح القاهرة المعزّية.

أمّا دولة الرومان فى الشرق فقد كان تعانى اضطرابًا سياسيًا فى الداخل

(١) نفس المصدر ـ حوادث سنة ٤٦٠هـ.

وانقسامًا دينيًا بين الكنيسة فى الشرق والغرب. وقد شهد عرش بيزنطة خلال عشر سنوات ما بين - سنة ١٠٥٠ و ١٠٩٠هـ - ثمانية قياصرة كان من بينهم ثلاث نساء آخرهن - بودرشيا - التى لم تستطع القيام بالوصاية على ابنها ولم تقو على مجابهة المتآمرين على العرش وحدها فطلبت الزواج بالقائد - رومانس ديوجنيوس - فولى العرش باسم - رومانس الرابع - التى وقعت معركة - ملاذكرد - فى أيامه كما سيأتى وصفها.

وكان «النظام» فيما عمل به من سياسة وتدبير، وقام بوضعه من نظم وتعاليم قد اتخذ من سِيَرْ مشاهير وزراء الدولتين البويهية والغزنوية قدوة يستوحى منها ما انتهوا إليه من تجارب وينتفع بما لحقهم من أخطاء وهفوات.. فحينما نقرأ كتابيه: السياسة والوصايا - نرى أسماء ابن عباد، وابن العميد، وأحمد بن الحسن الميمندى، وأحمد بن عبد الصمد تتردد فى ثنايا أقاصيص الاستشهاد بسلوكهم. وإن كان فى عنايته بابن عباد وابن عبد الصمد كانت أكثر.. وفيها من الموافقات الطريفة لحياة «النظام» ما هو جدير بلفت نظر الدارسين، والقيام بدراسة مقارنة بينهم.

* * *

• الفصل الأول

الفتوحات السلجوقية النظامية

التخطيط النظامى لنجاح الفتح الخارجى

وقمع الثورات الداخلية. فى عهدي ـ

ألب ارسلان وملكشا.

معركة ملاذكرد ـ ونتائجها.

التوّسع الخارجي والأمن الداخلى
فى عهد «نظام الملك»

كان ممّا تميزت به دولة السلاجقة فى أسلوب الحكم نظامها العسكرى الذى استطاعت بواسطته أن تقف أمام جحافل الروم الغازية ثم تقوم بدور المهاجم من أجل التوسع ونشر الدين فقد نشأ سلاطينها نشأة عسكرية وتربوا فى الميادين واشتركوا فى ساحات القتال وهم مازالوا أمراءً صغاراً فقد أرسل الملك «جغرى بك داود» ابنه «ألب أرسلان» على رأس جيش وهو لم يزل فتى.. وكذلك فعل هذا مع ابنه ـ ملكشاه ـ إذ درّبه على قيادة الجند وهو شاب، مثلما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية ليتعوّدوا خشونة العيش وممارسة الصيد والفروسية.

ومما دفعهم على هذه النشأة أن الحرب ـ وتعنى الجهاد ـ حينذاك كانت من شرائط الملوك والسلاطين فى تلك العصور، فالسلطان لا تعترف به الرعيّة ما لم يكن شرعيًا، ولا يكون شرعيًا ما لم يقرّه الخليفة، ولا يقرّه هذا إلاّ إذا نجح فى فتوحاته وبرهن على جدارته فى إخماد الفتن المحيطة به، وفرض سيطرته على الولايات التى دخلها عنوة أو حربًا ليدلل على قدرته على حماية الخلافة من أيدى الطامعين فيها، كما حدث لزعيم آل بويه ـ معز الدولة ـ وكبير آل غزنة ـ محمود ـ ومؤسس دولة السلاجقة ـ طغرلبك.

وكان من عادتهم قيادة الجيش وإنهم أكثر التزامًا بها[1] ممن سبقهم من

(١) دلّتنا على هذا سيَرة هؤلاء وأولئك.

ملوك آل بويه، وذلك يرجع إلى طبيعتهم ونشأتهم فقد ورث «ألب أرسلان» هذه العادة عن عمّه «طغرلبك» عن جدّه سلجوق.

ومن عاداتهم فى الحرب إذا فتحوا بلاداً أخذوا أبناء أميرها أو إخوته أو أقربـاءه رهينة، وكانت هـذه العادة مألوفة منذ عهد طغرلبك فقد ذكر - ابن الأثير - بأن صاحب تبريز أطاعه وأعطاه ولده رهينة، وكذلك أطاعته سائر تلك النواحى فأبقى بلادهم معهم وأخذ رهائنهم[1].

وكان من حسن طالع هذا السلطان أن يجد أمامه تلك الجحافل خائرة القوى وأن حكامها وقوادها فى خلاف وشقاق، فلم تبلغ أنباء الفتوح التى انتصر فيها - طغرلبك - مسامع إمبراطور الروم حتى بعث إليه أموالاً كثيرة[2] ولم يستأذن للصلاة فى جامع القسطنطينية من ملكة الروم حتى وافقت فصلى وخطب للإمام القائم بأمر الله[3]، ثم والى هجماته ثلاث مرات على أرمينية واقتطع منها عدة مدن[4] على الرغم من انشغاله بالفتن الداخلية وقصر مدته فى الحكم.

وليس غريباً على هؤلاء أن يتقنوا فنون الحرب وأن ينتصروا فيها بعد أن مارسوها صغاراً وهيأتهم لها الطبيعة وظروف الحكم كباراً.. ولكن الغريب أن ينسب المؤرخون فضل هذه الانتصارات إلى سعى «النظام» وحنكته وتدبيره للأمور وتنظيمه للخطط ومشاركته العملية مع الجيوش، وهو مما لم نعرفه عنه أو عن أسرته من قبل.. فإن الذى دلّتنا عليه النصوص التى عنيت بأخبار الفتوح فى عهدى - ألب أرسلان وملكشاه - أن «النظام» كان ذا دراية بأصول الحرب، وخبرة بقواعد الفروسية، وبراعة فى خطط الهجوم والدفاع وأنه كان على رأس كتائب الجند يقودها للفتح مرة وفى القلب منه إلى يمين السلطان يساعده ويرشده مرة أخرى. وكان اسمه يتردد مع السلطان فى كل جولة ونصر

(١) الكامل - حوادث سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م.

(٢) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٣.

(٣) السبكى - الطبقات جـ ٢ ص ٢١٩.

(٤) اليافعى - مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٩، والغياثى فى تاريخه.

حتى كانت سيرته سجلاً حافلاً بالانتصارات بحيث لم نقرأ فى تاريخه اخفاقًا فى موقعة أو انهزامًا فى معركة. . وهذا من نوادر المصادفات فى أحداث الحروب وسير عظماء القواد وبخاصة الوزراء، ولعلّ السرّ يعود إلى ما عرف عنه من انتهاز للفرصة وحماس للعقيدة، وسعة فى الذكاء، وإفراط فى الدهاء.

حكى عنه أنه حينما أراد دفع أجرة الملاحين الذين عبروا بالسلطان وجيوشه نهر جيحون حوّلهم على العامل بأنطاكية، ولمّا شكوه قال لسلطانه: «ليرى الناس مقدار فسحة الملك»[1]. وأنه عندما وصله رسول الروم ومعه الخراج فى أصبهان أخذه معه إلى كاشغر فيما وراء النهر ليشهد الفتح وسعة المملكة، وحينئذٍ يأذن له بالعودة إلى بلاده ولمّا سئل عن ذلك قال: «أحب أن يذكر التاريخ عنّا أن ملك الروم حمل الجزية إلينا وأوصلها إلى باب كاشغر»[2].

والحق أنه لم يأل جهدًا ويدخر طاقة فى سبيل إنجاح مسعاه وتنفيذ مشروعه فلم يستقر ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ على العرش ويجلس إلى جنبهما على كرسى الوزارة حتى سار بهما إلى الميادين واحدًا تلو الآخر، ووجد فى فتوة السلطان الجديد وحيويته، وتدريبه العسكرى ومرانه على الحرب ما يحفّزه على نيل مأربه وبلوغ مرماه ومقصده.

في عهد «ألب أرسلان»:

خلف السلطان ـ ألب أرسلان ـ أباه جغرى بك داود ـ بعد وفاته سنة ٤٥٠هـ على خراسان، وكان له من العمر حينذاك ثلاثون عامًا تقريبًا[3]، وكان شجاعًا باسلاً لا يهاب الموت كما دلّ عليه اسمه[4]، وشهدت على صحتها

(١) اليافعى ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٩، والغياثى فى تاريخه.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ١٠ ص ٧٠ ـ حوادث سنة ٤٨٢هـ.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٣٨.

(٤) من المعانى التى قالها المفسرون فى اسمه: قلب الأسد، والأسد الباسل.

حقائق الأحداث الحربية بعد كبره، وبعد تسلمه العرش على إثر وفاة عمه ـ طغرلبك ـ سنة ٤٥٥هـ وقيامه بأعمال قمع الفتن والغزو، فإنه لم يبدأ عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م حتى توجه بجيشه إلى فتح أذربيجان ثم إلى أرمينية وجورجيا والكرج ـ وهو المدخل الرئيسى لفتح بلاد الرومان ـ. وفيها ترجّل «النظام» وعميد خراسان حتى تم لهم النصر[١] وقسّم السلطان جيشه الخضم إلى فرقتين: رأس إحداهما وقاد الثانية ولده ـ ملكشاه ـ مع الوزير «نظام الملك»، وزحفت أولاهما نحو حواضر المدن فى السهول وتسلقت الثانية الجبال لإخضاع الحصون والقلاع المنيعة، وكان النصر حليف السلطان فى هذه البلدان كما كان الفوز حليف ولى عهده مع «النظام» فاستولى على قلعة ـ سرمارى ـ وأخرى بالقرب منها. . يقول ـ ابن الأثير ـ إن الأمير ملكشاه أراد تخريبها فنهاه «النظام»، وقال ستكون ثغرًا للمسلمين وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح. . ثم قلعة مريم نشين ـ وسرعان ما ضجر الأمير وأراد العودة لمنعتها وما يحول دونها من نهر السند. . ولكن الوزير المجرّب أشار عليه بالانتظار والصبر[٢]. . فقد أعدّ لفتحها ما تحتاج إليه من سفن ورجال، وواصل قتالها ليلاً ونهارًا، وجعل العسكر يقاتلون بالنوبة حتى سقطت على يديه ثم فتح فى طريق عودته حصونًا أخرى[٣].

ولم تعد الفترة بين سنة ٤٥٨ـ٤٦٠هـ مشجّعة على مواصلة الفتح فقد شغلته الثورات فى الداخل عن التوجه بجيوشه نحو التوسع فى الخارج، فقد بدت مطامع كبار الأسرة والولاة تظهر فى خروجهم على السلطان، ولإعلانهم العصيان فى الولايات. وقد أبلى «النظام» فى إعادة الأوضاع إلى حالتها الطبيعية بلاءً حسنًا، وبذل جهودًا كبيرة فى إعادة الأمن والاستقرار للبلاد. فهذا شهاب الدولة ـ قتلمش بن إسرائيل ـ وهو ابن عم السلطان طغرلبك، يثور

(١) أبو الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٠.

(٢) ابن الأثير، وابن العبرى، والحسينى.

(٣) الوصايا ص ٤١، وابن الأثير ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ جـ ١٠ ص ١٥ ـ ١٧.

مطالبًا بالسلطنة. . وقد حشد حوله جيشًا ضخمًا من الأوباش والرعاع. وتقول المصادر: إنه دمّر وخرّب القرى فى طريقه نحو الرى وأنه ملأ البوادى والسهول بالماء فى طريق جيش «ألب أرسلان» حتى خافه السلطان وشعر وزيره بذلك فقال له: ليذهب الخوف عن نفسه: «قد جعلت لك من خراسان جندًا ينصرونك ولا يخذلونك ويرمون دونك بسهام لا تخطئ وهم العلماء والزهّاد فقد جعلتهم بالإحسان اليهم من أعظم أعوانك[1]. . فأبدى السلطان من الكياسة ودقة الخطة ما أوصله إلى النصر. . . فقد رتّب جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب، وكرّس تفكيره وتجاربه السابقة فى الحرب وكان عضده الأول فيها وزيره «النظام»، فقد كان مشيره ومنظّم خططه، وليس ذلك فحسب وإنما جعل نفسه قدوة للقواد والجنود فقد ارتدى لامة الحرب، وسار مع المقاتلين عند سفوح الوادى إلى أن التقى الجيشان وانهزم ـ قتلمش ـ وجيشه ولجأ إلى قلعة ـ كردكوه ـ فحوصر وقتل[2]. . وقيل وجد ميّتًا من شدة خوفه، وبكى السلطان عليه وعزّاه «النظام» فيه. . وأراد السلطان قتل الأسرى فشفع فيهم الوزير فأطلق سراحهم[3].

وهذا الأمير ـ قزل أرسلان ـ والى كرمان ـ يقوم بثورة مسلحة عنيفة بحيث اضطر السلطان لأن يخرج لقمعها على رأس جيش كبير بنفسه، فانهزم وسأل العفو فعفا عنه وأعطى بناته وجهزّهن[4].

وعاد السلطان ظافرًا بعد أن خضعت له هذه القلاع بأقاليمها وبقيت لديه أخرى يقال لها ـ بهنزاد ـ وثانية تسمى ـ اصطخر ـ فتوجه النظام بجيشه وحاصر أولاهما وأعلن للجند أن كل من يرمى سهمًا ويصيب فله قبضة من الدنانير ومن يرمى حجرًا فله ثوب نفيس، واستسلمت القلعة بعد حصار دام ستة عشر يومًا. . وبفتحها عظم مركز «النظام» عن ذى قبل، وعلت مكانته وزاد فى تحكيمه[5].

(١) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ جـ ١٠، وسياستنامة فى مورد آخر.
(٢) البندارى ص ٢٧، والحسينى ـ أبو الفوارس ص ٣٠-٣٢.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٥ - حوادث سنة ٤٥٦هـ.
(٤) المصدر السابق ـ حوادث سنة ٤٥٩ هـ ويسميه قرا أرسلان.
(٥) نفس المصدر جـ ١٠ ص ٢٢.

وبقى «فضلويه» حاكم ـ كنجه[1] ـ على ولائه للسلطان منذ عهد إليه إقليم فارس وهو عائد من حرب كرمان سنة ٤٥٩هـ. ثم تمرد عام ٤٦٤هـ وتحصّن بقلعة ـ إصطخر ـ فأوفد «النظام» على رأس جيش لإخضاعه وأعدّ العدّة لحصار قلعته لمدة عام ولكنهم سرعان ما طلبوا الأمان لنفاد مياه الآبار والمخازن[2]. وقد استعان «النظام» بالموالين للسلطان من سكان تلك البقاع كما يقول هو نفسه.. ولسنا ندرى فيما اذا كان نفاد المياه بمكيدة حربية عملها «النظام» والموالون له أم الصدفة... ويروى أبو الفوارس أنه بعد أن غارت المياه لجأ إلى قصر مشيّد فى وسط القلعة فأشار الوزير على الأمير ـ هزاراسب ـ بالمسير إلى مسقط رأس ـ فضلويه ـ والقبض على أهله وحرمه، وما أن وصل الخبر إلى مسامعه حتى نزل بجنوده من القلعة واستقبلته طلائع جيش «النظام» وقبض عليه، وكتب الشيخ ـ على بن الحسن الباخرزى ـ كتاب الفتح، ثم جاء به الوزير أسيرًا إلى السلطان فأمّنه وأطلقه[3].

موقعة «ملاذكرد» :

ولم يصرفه النصر الذى حققه عن متابعة الجهاد لتنفيذ خطته التوسعية ونشر الدين كما لم تنسه القلاقل والاضطرابات الداخلية عن مخاطر الدولتين: البيزنطية والفاطمية المتربصتين على الحدود القريبة، فقد كان السلاجقة يشعرون بفداحة خطرهما، بل كانوا يعتقدون بأن الرومان أقل خطرًا عليهم من خلفاء «مصر» الذين يعيثون فى جسم الدولة بمبادئهم التى تبتطن القضاء على الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية معًا. وكانت الدولتان تشعران بمثل هذا الخطر على بقائهما من قبل دولة السلاجقة القوية فكانت كلما توجهت نحو واحدة منهما

(١) فى الوصايا «طنجة» وهو خطأ مطبعى وهو ميناء فى إقليم كرمان الواقع فى الجنوب الشرقى من إيران على بحر عمان.

(٢) الوصايا ص ٣٩، ٤٠.

(٣) أبو الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٢، ٤٣، وابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ جـ ١٠ ص ٢٩.

بهجوم أو دفاع تصدت الثانية لها بالزحف والإغارة مستغلة انشغالها بالحرب، وبعدها عن الثغور المتاخمة حتى أصبحت الدولتان معًا شغلها الشاغل فى وقت واحد.

وكانت «بيزنطة» تعتبر - ملاذكرد[1]- حاضرة إقليم أرمينية منطقة «استراتيجية» تصدّ عنها عدوان المغيرين من الجنوب والجنوب الشرقى، وقد نشأت على حدودها دويلات قوى بعضها واتسع نفوذه حتى هدّد كيانها بالزوال. وكان فى بداية القرن الخامس الهجرى الدولة الفاطمية وفى منتصفه الدولة السلجوقية - فكان طبيعيًا أن تغتنم الامبراطورية الرومانية الشرقية ضعف الدولة المتاخمة فتتوسع على حسابها وتكتفى بفرض الإتاوات على أمرائها أولاً.. وإذا ما أنست ضعفًا أكثر انقضّت عليها وأدخلتها تحت حمايتها. وكان طبيعيّا كذلك أن تقف من الدويلات الناشئة على حدودها موقف المناوئ لها المناهض لنظمها وحكامها، لأنها تتوقع منها الهجوم بين حين وآخر وإذا ما أحسّت فى إحداها قوة وخشيت بطشها سعت للإيقاع بينهما تارة وممالأة القوى ومداهنتها أخرى.

وانتهج أباطرة بيزنطة هذه السياسة التى ورثوها عن سلفهم الرومان وظنوا أن إمارة الحمدانيين برئاسة - سيف الدولة الحمدانى - فى حلب ستمثل نفس الدور الذى قامت به دويلة ألفا سنة تجاه روما القديمة.. ولم يدْرِ بخلدهم أن الزمن قد تغيّر وأن بنى حمدان اليوم غير ألفا سنة بالأمس فسرعان ما خاب ظنهم فى خضوعها لهم، وتحقق ما توقّعوا منها وهو الهجوم على المدن التابعة لها، وبخاصة فى عهد الأمير سيف الدولة وبين سنة ٣٣٤ - ٣٥٦هـ = (٩٤٥-٩٦٧م)[2] لذا فقد حاولت إثارة المشكلات بين الخلافتين فى مصر القاهرة من ناحية، وبين سلاطين السلاجقة وخلفاء الفاطميين من ناحية أخرى وداهنت القوىّ فى كلٍّ منهما فأرسلت سفراءها محمّلين بالهدايا والتحف مرّة،

(١) ملاذكرد: تقع إلى الشمال من بحيرة - فان - فى أرمينية وقد اختلفت فى تسميتها المصادر الإسلامية العربية: انظر كتاب: مختارات من كتابات المؤرخين العرب. د/ سهيل زكّار/ ٣٠.

(٢) سيف الدولة الحمدانى - أو مملكة السيف ودولة القلم - د/ مصطفى محمد الشكعة ١٢٣ - زبدة الحلب فى تاريخ حلب - كمال الدين بن العديم.

وقامت بأساليب المجاملة الدبلوماسية ثانية، كما فعل القيصر - قسطنطين - السابع حيث أمر بإصلاح مسجد قسطنطينية، والدعاء فيه لطغرلبك[1] حينما بلغته أخبار غاراته الموفّقة على حدود الإمبراطورية، إذ كان احترام دين الفاتح من وسائل الترضية والإطاعة له.

ولهذا لم يشعر السلاجقة بالخطر عليهم من الجانب الشرقى من الدولة حيث لم يكن عليه فى ذلك العهد سوى خانات تركستان فى الشمال منه وبقية الدولة الغزنوية فى الشرق وليس فى هاتين الدولتين ما يخشى منه سياسيّا أو دينيّا، ولأنها قد ارتبطت بملوكها برباط المصاهرة ومعاهدات الصلح، ولأن معظم سكانها من سنّة المسلمين.

ولذلك لم تحل سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حتى كانت جيوش السلطان - ألب أرسلان - رابضة فى حلب والشام تريد الزحف على مصر ومنها إلى الروم، ولكن بيزنطة - طبقًا لنهجها السياسى السالف الذكر - عاجلته واستغلت فرصة انصرافه لحرب الفاطميين بمصر فأرادت أن تبادئه بالهجوم والقتال قبل أن يقضى عليها، فتقدم الإمبراطور - رومانوس[2] ديوجينوس - على رأس حملة قوامها زهاء ثلثمائة ألف مقاتل باسم الصليب اشترك فيها الروم والروس والخزر واللان، والغز والقجمق والكرج، والأبخاز والفرنج والأرمن، وفيهم ثلاثون مقدمًا وألف ما بين: قس وقومس وبطريق[3].

وما أن سمع السلطان بذلك حتى قفل عائدًا وخلف ابنه مع فوج من عساكره بكورة حلب، وعبر ماء الفرات بسنابك الخيل دون السفائن والزوارق[4] حتى وصل مدينة -خوى - من إقليم أذربيجان، فطلب السلطان من وزيره - النظام - بأن يرجع بزوجته - خاتون السفرية - والأثقال إلى همدان[5] ليمدّه بالجند إذا اقتضى الأمر، وليبقى إلى جنب ولى عهده إذا استشهد، وتقدم إليه بجمع

(١) ابن الأثير - الكامل جـ ٨ ص ١٩٢.

(٢) رومانس وفى المصادر الغربية - أرمانوس «ARMANOES»

(٣) ابن العديم - زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥.

(٤) ابن أبى الفوارس الحسينى - أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٧.

(٥) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٠ - حوادث سنة ٤٦٣هـ، والكامل - حوادث نفس العام.

العسكر وقال لهم: «أنا صابر فى هذه صبر الغزاة المحتسبين، صائر إليه مصير المخاطرين فإن سلمت فبنعمة من الله، وإن استشهدت فخليفتى ولدى ملكشاه»، فأجابوه بالدعاء والطاعة. وكان هذا من فعل «نظام الملك» وترتيبه ورأيه[١]. وعاد الوزير كما طلب إليه لحفظ العراق وخراسان ومازندران عن أهل العبث والفساد.. واتجه جيش ـ أرمانوس ـ صوب أرمينيا مخترقًا ولاية ـ خلاط ـ فى آسيا الصغرى حتى بلغ ملاذكرد ـ فكان لابد للسلطان من أن يسعى إليه عاجلاً ويقابله على الرغم من قلة عدد جيوشه وعتاده.. والتقى الجيشان، وكانت معركة حامية ضارية الوطيس استمرت بضعة أيام كان آخرها يوم الجمعة ٢٦ أغسطس سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، حيث التحمت الجيوش من الظهيرة حتى الغروب وأبلى فيها الجيشان بلاءً مـرّا ثم انجلت عن أسر القائد الرومانى ـ رومانوس ـ وانتهت بالصلح على شروط أربعة: دفع فدية قدرها مليون دينار، وجزية سنوية قدرها ثلثمائة وستون ألفًا، وأن يتزوج بناته من أبناء السلطان وأن يطلق سراح جميع أسرى المسلمين[٢].

ويذكر «النظام» لهذه الحرب من الأسباب ما يتفق مع بعض المؤرخين القدماء، فإنه عندما يتحدث عنها يشير إلى تجمع ملوك الفرنجة حول الإمبراطور وإبرامهم المواثيق لشن هجوم على دار الخلافة لتنصيب ـ جانليق ـ بدلاً من الخليفة[٣].

كما أسفر الانتصار فى هذه المعركة عن نتائج ذات أهمية كبيرة استمرت عدة قرون منها: قيام دولة سلاجقة الروم فى شبه جزيرة الأناضول وعلى رأسها الأمير ـ سليمان قتلمش ـ الذى عيّنه السلطان «ألب أرسلان» واتخذ من «قونية» عاصمة له ثم استمر أبناؤه فى فتوحهم حتى وصلوا قرب شواطئ البحر الأبيض المتوسط وبحر مرمرة غربًا، وقاموا بدور كبير فى صدّ الهجمات الصليبية طوال قرنين من الزمان[٤].. ومنها أنه لم يرتق ـ ملكشاه ـ العرش

(١) الحسينى ص ٤٨، والمنتظم جـ ٨ ص ٢٦١- حوادث سنة ٤٦٣هـ، وكذلك الكامل ـ نفس العام.

(٢) عنان ـ مواقف حاسمة ص ٩٠.

(٣) الوصايا ص١٩، وأبو الفوارس الحسينى فى تأريخه ص ٤٨-٤٩.

(٤) ابن الجوزى - المنتظم، وابن الأثير - الكامل ـ حوادث سنة ٤٦٣هـ.

حتى ورد رسول ملك الروم سنة ٤٦٦هـ ومعه كتابان للخليفة والوزير مكتوبان بالذهب بالسريانية وتحت كل سطر تفسيره بالعربية تتضمن الوساطة بينه وبين ملكشاه فى طلب الهدنة[١]، لذلك كان هذا الانتصار لدولة السلاجقة بداية النهاية للإمبراطورية البيزنطية والتمهيد للدولة العثمانية فى الاستيلاء على القسطنطينية على يد السلطان العثمانى محمد الثانى- الفاتح- للمرة الثالثة فى ١٩ جمادى الأول ٨٥٢هـ.

فى «عهد ملكشاه»:

وبعد معركة ـ سمرقند ـ التى قام بها السلطان ـ ألب أرسلان ـ سنة ٤٦٥هـ وقبل وفاته على أثر جرحه بيد ـ يوسف الخوارزمى ـ أمر القواد بمبايعة ابنه ـ ملكشاه ـ للمرة الثالثة وعيّن وزيره ـ النظام ـ وصيّا عليه وطلب احترامهما وإطاعة أوامرهما[٢]. وكان قد إعدّه اعداداً ملكيّا ودرّبه تدريبًا سلطانيًا، مثلما أعده أبوه ـ جغرى بك ـ من قبل وقد ساعده على ذلك وزيره النظام حيث رغّبه فى دراسة العلوم ومرّنه على المثابرة والجلد فى الحروب، وبهذا تعاون الوالد والوزير معًا على تهيئته لعرش آل سلجوق، ولذلك لم يكتف بتدريبه النظرى كما يربى معظم أبناء الملوك وإنما أنزله الميادين وأشركه فى القتال حتى مرن على الحرب وعرف خططها وخدعها.

وكذلك أراد له أن يتعلم أصول الحكم وتدبير شئون الرعايا بالممارسة وليس عن ظهر قلب فمنحه حكومة ـ كيلان ـ وأصدر بذلك منشوراً لانشك بأنه كان لهذا الغرض النظامى، وللأمير ملكشاه خاصة وان كان قد وصلنا غفلاً من الاسم[٣] حيث أسبغ عليه من الصفات ومهّد له من الدعوات فى المقدمة ما لا يمكن أن تكون لغيره من أبنائه الستة[٤]، فهو يدعو له: «بكمال التفرد،

(١) سبط ابن الجوزى ـ المرآة – حوادث سنة ٤٦٦هـ.

(٢) ابن الجوزى – المنتظم- حوادث سنة ٤٦٥هـ، وسنة ٤٦٦هـ.

(٣) عثرنا عليه ضمن مخطوطة قديمة باسم «مجموعة منشآت حيدر»- انظر الملحق رقم ٣ مراسيم

(٤) هم: «ملكشاه، واياز، وتكش، ويورى برش، وتتش، وأرسلان أرغو، ومن البنات ثلاث: سارة وعائشة وبنتًا أخرى». (ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٣٠).

والاستقلال، ومخايل العز والإقبال لأنه ثمرة دوحة الدولة وغصن بستان السلطنة، وواسطة عقد الملوكية وزهرة روضة الفضيلة الإلـهية وحينما ينتقل إلى حيثيات منحه حكومة «كيلان» يقول عنه: «لمّا كنا نرى من توشحه بالفنون السلطانية، واستعداده لارتقاء المدارج الملوكية الخسروانية حيث لا استطاعة لغيره الوصول إلى ذروة كماله.. أحببنا أن ننعم على مثل هذا الولد الذى هو مطمح نظر الأمانى، مملكة (كيلان) .. على سبيل الملكية، وأجرينا له حكم نواب ديوانه وتصرفاتهم لأجل تربية غصن العدل والإنصاف لكى ترتفع حشمة هذا الولد المستحق لكل تربية والأهل لكل عطية.. ثم يوصى ولده بالرعايا خيرًا. فينشر جناح جميله، وأستار ترفيهه، ويذيقهم لذة الأمان وحلاوة الإنصاف ولا يعدل نوابه عن القانون المعهود والرسم القديم فى تحصيل أموال الديوان لينال من حضرتنا ومن الزمن حسن الأحدوثة ودعاء الخير الذى يسند قاعدة الدولة.. ثم يختمه بأمر رعايا المملكة وأشرافها والدهاقين وأرباب الحرف والزرّاع بإطاعة ومتابعة أوامره.. وأن يمتثلوا حكمنا ليستحقوا زيادة الرفاهية.. والله أحكم وهو خير الحاكمين».

وبناءً على توصية السلطان الراحل فقد اجتمع قواد الجيش وأعيان الدولة فى حلف خطير لإجراء مراسيم الجلوس وبايعوا السلطان «ملكشاه» سنة ٤٦٥هـ وعمره ـ حينذاك ـ ثمانية عشر عامًا، وقال فى خطاب العرش، حينما طلب إليه «النظام» أن يتكلم: «سيكون أكبركم كأبى، وأوسطكم كأخى، وأصغركم كواحد من أبنائى»[1]، وهى كلمة تدل عل نزعته العادلة وامتثاله الآداب الإسلامية وقد تكون من وضع الوصى عليه «نظام الملك»، كما تولى هو وأبو سعد المتولى أخذ البيعة له من الأمراء والوجهاء وأطلق الأموال عليهم، لذلك أجمعت المصادر التاريخية بأن «النظام» لعب دورًا كبيرًا فى تنصيب السلطان الجديد[2]، كما كان له الفضل الأكبر فى إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية.

(١) حيث مات سنة ٤٨٥هـ وله من العمر سبع وثلاثون سنة وبضعة أشهر ومدة ملكه ١٩ سنة وعدة شهور. ابن الجوزى ـ المنتظم، وابن الأثير ـ الكامل- حوادث سنة ٤٦٥هـ، وسنة ٤٨٥هـ.

(٢) المصدر السابق.

وقد أثبت السلطان الجديد مقدرة فائقة فى الحرب، ورغبة نادرة فى الإصلاح والتعمير حتى عدّه أحد المؤرخين المؤسس الحقيقى للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف وذلك لنشاطه وحنكة وزيره إذ نفخا فيها الروح التركية والإسلامية حقّا[1].

ومع أننا لا نعرف عن ـ النظام ـ وهو العقل الموجّه لسياسة الدولة، هذه النزعة العنصرية وإنما نجده من خلال كتاباته وتصرفاته يتذمّر من عنجهية الأتراك وغلظتهم كما سبق، وينتهز المناسبات المختلفة لتحضيرهم حتى ينسجموا ويندمجوا فى الجماعات الشعبية المتمدنة.. فسواء أكان المؤسس لدولة السلاجقة ـ طغرلبك ـ أو ـ ألب أرسلان ـ أو ـ ملكشاه ـ فإنهم قد تعاونوا على إنشائها وتوطيد دعائمها ثم اتساع رقعتها حتى كان لثالثهم من أقصى بلاد الترك الى أقصى بلاد اليمن، وقد خطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، وحتى قال «النظام» عنه: «كم وقعّت بإطلاق أزمات[2] لرسل ملوك الروم واللان والخزر والشام واليمن وفارس»[3]، إلاّ أنه لم يتربع على العرش حتى صدقت ظنون أبيه فى وصيته، وخرج عليه أعضاء أسرته مطالبين بالعرش. وكان أول هؤلاء وأشدّهم بأسًا وأقواهم حجة هو ـ قرا أرسلان قاورت ـ أخو السلطان المتوفى ولم يكن يخفى عليه أن النصر لا يكون له إلاّ إذا كسب الجيش وربح مؤازرته، فاستمال القواد والجنود بزيادة رواتبهم وتحسين حالتهم إذا أتى إلى الحكم فقامت بذلك مظاهرتهم مطالبين بمجيىء «قاورت» إلى العرش وأحقيته بالسلطان، وكتب إلى ابن أخيه فى نفس الوقت يقول: «إنى أحقّ منك بالعرش لأنى الأخ الأكبر للسلطان الراحل وأنت أصغر أبنائه»، وسار بجيشه إلى الرى.

لقد أدرك «النظام» خطورة هذه الفتنة وشدّتها، وأنها تهدد عرش السلطان

---

(١) إبراهيم قنص أوغلو ـ الإمبراطورية السلجوقية فى عهد ملكشاه ص٨ ط- إستانبول سنة ١٩٥٣م بالتركية.
(٢) ولعلها «ذمات» وهى الصكوك والإيصالات. وقد تجمع هذا الجمع ولعلها زمانات وهى عقود استئجار والتزام الأراضى لمدة معينة.
(٣) المنتظم، والكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

ومنصب وزيره وأنها ستقضى عليهما وعلى أهدافه إذا كتب لها النصر فقرر الإسراع بجيشهما نحو الرى حتى بلغاها قبل وصوله، وأجاب على رسالة عم السلطان: «إن الابن أحقّ بالعرش من الأخ»[١].

وأسر ـ قاورت ـ وأدخل السجن ولكن ما أدخله فى روع الجنود من زيادة رواتبهم لم يزل يدفعهم إلى التظاهر والعصيان، والتهديد بمبايعة الأمير السجين إذا لم تلب طلباتهم. . وأحسّ «النظام» بحرج الموقف ودقته وأنه لابد وأن يتخذ رأيًا حاسمًا لقطع النزاع، فوافق رؤساء الجيش على مشروعية مطالبهم، ووعدهم بأنه سيحدّث السلطان ويقنعه بتنفيذها، وهدأت الأحوال، وذهب لمقابلة السلطان وأخبره بما انتهى إليه الحال، وأشار عليه، كما يذكر معظم المؤرخين ـ بقتل عمه فى الحال فأصدر السلطان أمره وقتل.

وما أن عاد رؤساء الجيش ليستفسروا عما تمَّ بخصوص مطالبهم حتى فاجأهم «النظام» بأنه ما استطاع مفاتحة السلطان بأمرهم حيث وجده حزينًا على فقد عمه الذى امتصّ السمّ من خاتم فى أصبعه ومات فى السجن، فعادوا واجمين خائفين، ولم يستطع أحدهم القيام بحركة مناوأة، واستتبّ الأمن فى البلاد[٢].

ولم يتخلص السلطان من عمه حتى زحف نحو ـ سمرقند ـ وعبر نهر جيحون سنة ٤٦٧هـ ليأخذ بثأر أبيه من البلاد التى اغتيل فيها[٣]، ولكنه لم يصل إليها حتى هرب حاكمها ـ خاقان البتكين ـ فتوسط له «النظام» وأجيب لذلك[٤]. . ثم استمرت شفاعات «النظام» تترى على السلطان فى طلب الصفح عن الخارجين بعد اعتذارهم، وإعادتهم إلى مقر وظائفهم واتخذ وسيلة جديدة هذه المرّة فى سياسته الحربية كان فيها رسول سلام ابتداءً من سنة ٤٦٧هـ –

(١) أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة، الصفدى.

(٢) ابن الجوزى، وابن الأثير والراوندى فى راحة الصدور، وحمد الله قزوينى فى تاريخ كزيدة وأفضل الدين كرمانى، وبدائع الزمان وابن العبرى.

(٣) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان – حوادث سنة ٤٦٧هـ ورقة ١٥٣.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل– حوادث سنة ٤٦٦هـ.

٤٧٣هـ، حيث خرج على السلطان أخوه - تكش - بعد أن التحق بجيشه الجنود الذين فصلهم من سلك الخدمة العسكرية خلافًا لرأى وزيره «النظام»، وكان بـ«بوشنج» واستولى على مرو الروز ومرو الشاهجهان، فسار السلطان إلى خراسان ودخل نيسابور قبل أن يصلها أخوه ثم التقيا «بترمذ» واصطلحا أيضًا سنة ٤٧٦هـ(١).

ثم مرت عشر سنوات شغل خلالها بزيارة المشاهد المقدسة وجولات التعرّف على أمراء الأقاليم وأحوال الرعية قدّرها بعضهم باثنتى عشرة جولة تفقدّ فيها احتياجاتهم بنفسه وبنى المخافر فى السُبل فانتشر الأمن من حدود الصين إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن جورجيا إلى اليمن جنوبًا(٢). فقام بجولة من أصبهان إلى الأنبار ومنها إلى الموصل، ثم سار إلى حلب حيث قضى على بعض الخلافات بين أمرائها، كما زار مشهد «موسى بن جعفر» فى الكاظمية وقبر «معروف الكرخى» و «أحمد بن حنبل» فى بغداد وضريح «الحسين» وأبيه الإمام على بن أبى طالب فى كربلا والنجف سنة ٤٧٩هـ(٣).

ولم يحل عام ٤٨٢هـ حتى رجع السلطان ملكشاه إلى سمرقند حيث شكاه أهلها من - أحمد خفر خان - فأخضعها وعفا عن حاكمها كما قصد - كاشغر - فأطاعه ملكها فأعاده إلى ملكه(٤). وكان وزيره «النظام» يرافقه فى جميع سفراته وجولاته هذه، وهو الذى يدبّر الأمور له حيث كانت تلهيه مجالس الشراب والندمان غالبًا، وتستهويه مناظر الصيد والقنص أحيانًا حتى بنى من قرون صيده منارة فى ظاهر الكوفة ومثلها فيما وراء النهر(٥).

على أن دولة الفاطميين لم تأخذ من اهتمام السلطان ووزيره مكانتها السابقة

(١) ابن الأثير - الكامل- حوادث سنة ٤٧٢هـ جـ ١٠ ص ٤٧، وقد ورد اسمه تتش. وأيضًا ابن خلدون - العبر.

(٢) مير على - تاريخ العرب ص ٢٧١-٢٧٢هـ .

(٣) ابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٧٩هـ.

(٤) ابن أبى الفوارس - أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٢.

(٥) ابن الجوزى - المنتظم- حوادث سنة ٤٨٥هـ، واليافعى - مرآة الجنات جـ ٣ ص ١٢٩ - حوادث نفس العام، وابن بطوطة - رحلته جـ ١ ص ١٠٩.

وربما كان لضعفها واستبداد الوزير - بدر الجمالى - فى شئون حكومتها مما قلّل من الاهتمام بها والخوف منها، لذلك نرى السلطان قد أوكل الأمر بتنفيذ خطة التوسع، بفتح مصر والمغرب إلى أخيه - تاج الدولة تتش - فملك «دمشق»(١) وحلب سنة ٤٧٩هـ، ثم طلب من الأميرين «قسيم الدولة، وبوزان» أن يلتحقا بجيشهما فى خدمة أخيه - تاج الدولة - المذكورَ حتى يستولى على ما للخليفة - المستنصر - بساحل الشام ثم يسيرون إلى مصر، ولكنه مات قبل تحقيق أمنيته(٢).

وفضلاً عن ذلك فإن علاقة «بدر الجمالى» بـ«النظام» كانت في تلك الآونة ودّية كما يظهر، فقد حكى أنه طلب إليه أن يرسل جثمان الإمام الشافعى ليدفنه إلى جنب نظامية بغداد سنة ٤٧٤هـ وأرسل له من أجل ذلك هدية جليلة، وسار أمير الجيوش فى موكب حافل إلى موضع القبر لينبشه فضجّ الناس وهمّوا برجم الوزير فاستشار الخليفة فى الحال وجاءه الجواب بتنفيذ ما طلبه «النظام» وطرد العامة والغوغاء.. ثم يستمر المقريزى فى سرد منقبة - للشافعى - حيث خرجت رائحة عطرة من اللحد عند فتحه أوقعتهم صرعى فاستغفروا وأعادوا ردم القبر وانصرفوا، ورجع الجواب إلى «النظام» بوصف ما حدث فى مرقد الإمام وبهدية عظيمة معه وقرئ الكتاب بنظاميته واجتمع الناس لسماعه فكان يومًا حافلاً قلّ أن شهدته بغداد مثلما كان فى القاهرة(٣).

وليس بمقدورنا سوى التكهن لا الحكم القاطع بدوافع موافقة الخليفة الفاطمى ووزيره على نقل جثمان الإمام الشافعى.. هل هو تحقيق رغبة - النظام - وترضيته أم التخلص من ضريحه الذى هو دعوة للسنّة تنتشر بين صفوف العوام في بلد يريدها الفاطميون أن تكون خالصة لمذهبهم الشيعى.. أما دوافع «النظام» فبوسعنا الجزم بأنها دينية بحتة، إذ أراد أن يكون جثمان الإمام الذى

---

(١) ابن الفوارس - أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير - الكامل- حوادث ٤٧٩ : ٤٨٥هـ.

(٣) المقريزى - الخطط جـ ٢ ص ٤٦٢ ط مصر سنة ١٢٧٠هـ.

يعتقد بسلامة مذهبه واعتداله إلى جنب مدرسة كتب على بابها ـ اسم الحسن الأشعرى ـ ولا يدرّس فيها إلاّ عالم شافعى ولو كان الغرض سياسيّا خالصًا لكانت نظرة «النظام» قصيرة خاطئة إذ إن بقاء الجثمان فى القاهرة من خير الوسائل للتعلق به والميل إليه، كما هو حاصل الآن.

واغتيل «النظام» ولم يتحقق له ما طلب، وجاء بعده «صلاح الدين الأيوبى» فحقّق له ما أراد وبنى مدرسة للشوافع إلى جنب ضريح الإمام الشافعى، وفى القاهرة المعزية نفسها التى كانت مركز الدعوة الفاطمية.. ومات السلطان ملكشاه فى بغداد بعد وزيره «النظام» بشهر وعدة أيام سنة ٤٨٥هـ ميتة يكتنفها الغموض وتحيط بها الريب والشكوك، قيل إنه إفتصد بعد أكلة من لحم الصيد فحمّ ومات.. وقيل على إثر حمّى شديدة.. وقيل إن «خردك» سمّه فى خلال[1].

ومن المحتمل أن يكون موته نتيجة مؤامرة من زوجته ـ تركان خاتون ـ والخليفة ـ المقتدى بالله ـ معًا ليتخلص هذا منه وينتقم لنفسه وعرشه، ولتحقيق رغبة تلك فى تولية ابنها ـ محمود ـ على العرش، والذى يقوّى هذا الاحتمال ويؤيده هو اعتراف الخليفة بالسلطان الجديد مباشرة على الرغم من صغر سنّه حيث لم يتجاوز السادسة من عمره، وحصول والدته على فتوى بجواز ذلك من الإمام «المشطّب الفرغانى» وإعادتها ـ أبو الفضل جعفر ابن الخليفة من ابنتها «مها ملك» إلى أبيه.. ثم دَفْن ـ السلطان فى الشونيزيه دون أن يُصلَّى عليه أحد، وكتمان أمر وفاته على الناس ولم يشهد له جنازة ولا عمل له عزاء[2].

* * *

(١) وقيل جردك ـ ابن الجوزى ـ المنتظم – حوادث سنة ٤٨٥هـ جـ ٩ ص ٦٩ ـ ٧٤.

(٢) المنتظم– حوادث سنة ٤٨٥هـ. وروى صاحب مرآة الجنان: أنه حمل إلى خراسان جـ ٣ ص ١٣٩ ـ حوادث العام نفسه. وفى النجوم الزاهرة نقل إلى أصبهان ودفن فيها جـ ٥ ص ١٣٤، ١٣٥. وفى الكامل: وسارت تركان خاتون والسلطان محمولاً معها– حوادث سنة ٤٨٥هـ.

• الفصل الثانى

المدارس النظامية

أسباب إنشائها، منزلتها وتأثيرها.
تعيين الأساتذة وترقياتهم العلمية.
القبول والتخّرج والإجازة الدراسية.
الكتاب المدرسى وموضوعات الدراسة وطرق تدريسها.
نظاميّة بغداد: افتتاحها وأشهر مدرسيها
نظاميّة نيسابور، وأصفهان، ومرو، وهراة
وبلخ، وطوس، وآمل، والموصل،
والبصرة، وعسكر مكرم.
المكتبات النظاميّة العامة والخاصة..
والمخطوطات النادرة فيها .
من المآخذ على النظاميّات.

نظام الملك ينشىء المدارس الحكوميّة

دوافع إنشائها ومنزلتها :

ومهما كانت الأسباب التى دفعت السلاجقة لدخول بغداد: أهى استمرار للفتح الذى امتد من نهر جيحون حتى شمل خراسان وبلاد الجبل، أم لنجدة الخليفة ـ القائم ـ الذى استغاث بطغرلبك ـ مؤسس الدولة الأول . . وسواءٌ أكان لأطماع سياسية أم لأغراض دينية فإنه من غير شك انتصارٌ للمذهب السنّى بطوائفه الأربع على التشيّع بنحله المتعددة وبخاصة الباطنى منها.

لقد تسربت الباطنية فى سوريا وفارس والعراق وأخذت انفصالات الطامعين فى الحكم تظهر هنا وهناك بفضل إغراء الدعاة وإثارتهم: فطاف ـ ناصر خسرو ـ ومن بعده ـ حسن الصبّاح ـ يدعوان للمذهب الباطنى الإسماعيلى، وقام ـ إبراهيم ينال ـ ثم البساسيرى فى الموصل وبغداد بثورتين عنيفتين كادتا تقضيان على الخلفاء والسلاجقة جميعًا، وكان لدار الحكمة والأزهر اللذين أسسهما الفاطميون فى القرن العاشر الهجرى بالقاهرة الفضل الأكبر فى بثّ مبادئ التشيّع الإسماعيلى ونشر الحكم الفاطمى.

ولم يكن إيقاف حركة الباطنية هذه فضلاً عن القضاء عليها بالأمر الهيّن؛ لأن جذورها قد تغلغلت فى جسم البلد الإسلامى الكبير بحيث لم يبق عضو منه سليمًا وبخاصة إقليم خراسان فإنه كان موطن المغذّين لها بالآراء الفلسفية والبراهين المنطقية إن لم يكن من المؤسسين لها، لذلك فقد زوّد دعاتها بأنواع من العلم كثيرة وعميقة واتخذ هؤلاء وسيلتهم الإقناع والحجة عن طريق الحوار

والمناقشة، وهو الذى ناصر «أبناء على» منذ عهد بنى أمية وهو الذى آزر بنى العباس باسم العلويين، فأمدّ المأمون بكتائب من الجيش المدرّب المستميت من أجلهم حتى استقر الملك له.

وقد نشأ «النظام» ـ كما عرفنا ـ أشعريًا شافعيًا، ولئن كانت الشافعية مذهبًا لا يحسّ معتنقوه بنقمة الحاكمين وقسوة المحكومين فإن الأشعرية كانت تلاقى عنفًا وشدّة منهما فى كثير من المناسبات وهم من السنّة فكيف الحال بالنسبة الى الإسماعيلية وبخاصة الباطنية... فعلى «النظام» إذا أراد لدولته الفتيّة البقاء ولأهدافه الإسلامية الانتشار أن يتخذ الأهبة لمقابلتهم بنفس الوسائل التى استعملوها وأن يهيئ لأعوانه ومسانديه الأسباب التى اتخذوها، وعليه أن يسلك الطريق نفسه كما سلكوه من تأسيس المدارس ونشر علوم الدين ومناقشة العوام بمسائل الخلاف، لأن الجيش والحرب والسياسة المجحفة وحدها لا تجدى نفعًا، فالحجّة لا تقرع إلاّ بالحجّة والعقل لا يقبل مناظرًا له إلاّ العقل، ولا يرتضى نظيرًا له إلاّ الفكر، ولأن الفكرة الفاسدة لا يمحوها السيف بل ربما ينميها، وأن التشريد والنفى والمقاصل تجعل من الميل للفكرة تصديقًا لها وايمانًا بنفعها وصحتها.

وقد أدرك «النظام» هذه الحقيقة وفهمها أكثر من غيره حينذاك فما عليه إلاّ أن يأتى مناوئيه من السبيل الذى ولجوه ويفسد عليهم خططهم بتخريج جماعات مسلّحة بمختلف ثقافات العصر مزوّدة بالإيمان مع العلم، فلم يتسلم منصبه الوزارى حتى شرع فى تأسيس مدارسه النظامية فى أمهات المدن وحواضر الأمصار من العراق وفارس إلى ما وراء النهر، وسلّم منابر التدريس فيها إلى علماء الشافعية من الأشعرية، وبهذا انتصرت هذه كما انتشرت تلك ولا سيما فى إيران على يد «النظام»..

وهو فى بناء مدارسه هذه لم يؤثر بلدًا على أخرى، كما لم يفضّل فى اختياره الأساتذة ـ ماداموا على مذهبه ـ شخصًا على آخر. وبذلك شملت رعايته العلمية حتى المدن الصغيرة النائية إذا بلغ مسمعه نبأ وجود من هو جدير بتأسيس معهد أو رباط.

وكان لكل معهد طابعه الذى تمليه عليه البيئة وما يحيط به من ظروف اجتماعية ودينية وعلمية وهيئة تدريس، وكان التنافس بين تلك المعاهد شديدًا أحيانًا بفضل مشاهير العلماء الذين يحاضرون فيها. وكان طلاّب العلم يتعصبّون لواحد منها ويرحلون لتلقى العلم فيه وإذا تخرّجوا أصبحوا من خيرة وسائل الدعاية له.

فلم ينشأ ـ ابن عساكر ـ المتوفى سنة ٥٧١هـ مؤرّخ الشام ويتسامع بنظامية بغداد حتى رحل إليها وسمع الدروس بها، ثم رجع إلى بلاده وألّف كتابه الكبير في تاريخ دمشق[١]. ولم يبلغ صيت هذه المدرسة مسامع ـ ابن تومرت ـ حتى شدّ إليها الرحال من جبل السوس فى أقصى المغرب لكي يتفقّه على الغزالى والكيا الهراسى ثم يعود إلى موطنه يناظر علماء فاس بعلم الاعتقاد على طريقة الأشعرى ويظهر عليهم ثم يذهب ويدعو لنفسه ويؤسّس دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين الملثّمين[٢].

وقد نالت النظاميات شهرة واسعة ومنزلة رفيعة بين المدارس التي انتشرت حينذاك بحيث أصبح التدريس فيها أمنية كبار العلماء حتى بذل بعضهم من التضحيات الشىء الكثير فى سبيل الوصول إليها. فهذا أبو حامد البروى[٣] كان إذا توسط المجلس بالمدرسة النظامية يلتفت إلى موضع التدريس وينشد معرضًا بما فى نفسه من رغبة ومشيرًا إليه بقول المتنبى:

بكيت يا ربع حتى كدت أبكيكا	وجدت بى وبنفسى فى مغانيكا
أنعم صباحًا لقد هيجّت لى شجنًا	واَرْدُدْ تحيتّنا إنا محبوكا
بأى صرف زمان صرتَ متخذا	رئم الفلا بدلا من رئم أهليكا

(١) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٧٥.

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٧١ ـ ٧٤.

(٣) هو محمد بن محمد البروى الفقيه المتوفى سنة ٥٦٧هـ، كان يحضر النظامية والدرس بها يومئذ لأبى نصر الشاشى. (انظر: ترجمته فى المختصر الجامع لابن الدبيثى جـ ١ ص ٣١، والوافى للصفدى جـ ١ ص ٢٧٩).

وهذا عبد الرحمن الطبرى أنفق الأموال والذخائر حتى ولّى التدريس فى النظامية، قيل إنه صرف فى الرشوة من أجل ذلك ما لو أراد لبنى مدرسة كاملة(١). ثم الفقيه ـ أبو بكر المبارك بن الدهان ـ انتقل إلى المذهب الشافعى لمّا وجد منصب «النحو» فيها شاغرًا فتولّى التدريس عدة سنين ت ٦١٢هـ فقال فيه المؤيد أبو البركات التكريتى(٢) وهو تلميذه:

من مبلغ عنى الوجيه رسالة وإن كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت قول الشافعى تدينًا ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليلٍ أنت لاشك صائر إلى مالكٍ فافطن لما أنا ناقل

تعيين الأساتذة وفصلهم:

وكان اختيار الأساتذة للتعليم فى النظاميات يجرى وفق تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان «النظام» يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التى كان يعقدها فى المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة كان قد فكّر وأعدّها، فإذا لمس فى أحدهم علمًا وذكاءً وجّهه إلى المسلك الذى يريده، فالذين يكونون أهلاً للتعليم عيّنهم أساتذة فى الحال وأسّس لهم مدرسة ومكتبة أو يوفدهم إلى ولاية سكانها جهلاء(٣)، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التى اختير لها، فإذا كان إلى بغداد مثلاً توجه إلى دار الخلافة عند وصوله حيث يوافق على التعيين، ثم يخلع عليه طرحة زرقاء وأهبة سوداء(٤)، ويحتفل به فى المدرسة حين يقدم لأول مرة ويحضر درسه كبار رجال الدولة والأساتذة

---

(١) الطبقات جـ ٤ ص ٢٤٤.

(٢) ابن خلكان ـ الوفيات، والصفدى: نكث العميان الهِمْيان فى نُكَتْ العميان ص ٢٣٣- ابن الأثير ـ المثل السائر ويريد بمالك، مالك بن أنس أو خازن الدار.

(٣) آل سلجوق ص ٥٤.

(٤) الأهبة ـ البزة الرسمية كما فى تاريخ المماليك أو السلاح التام.

والشعراء وحين ينتهى من درسه تلقى الخطب والقصائد فى الترحيب به والثناء عليه[1]. وكان على الأستاذ كذلك أن يقيم وليمة يدعو فيها زملاءه وتلاميذه ولم يخرج على هذه القاعدة سوى الغزالى فلم يؤاخذ عليه لمكانته فى النفوس[2]. وإذا ما أريد فصل مدرس لسبب ما استدعى من قبل ممثل «نظام الملك» وغالبًا ما كان أحد أولاده، وينزع منه كسوته[3].

مراتب التدريس:

وقد جرى العرف أنه إذا تم تعيين من تتوافر فيه شرائط القدم والشهرة أن يبقى فى منصبه طوال حياته فإذا دنت منه الوفاة فغالبًا ما يوصى بمن يخلفه من كبار أبنائه أو المتفوّقين من طلابه، إلاّ فى مدارس «النظام» فقد خرجت على المتعارف هذا لأسباب سياسية بعد أن خضعت هذه المدارس لحكمها وإرادة مؤسسها، وقد يتناوب مدرسان على كرسى واحد خلافًا للمألوف.

المدرس: كان هذا اللفظ لا يطلق إلاّ على المختص بتدريس الفقه وإلقاء الدروس لا يقصد بها فى العادة سوى مواضيع الفقه فإذا بلغ المدرس مرحلة عالية من الشهرة فى الاطلاع والتأليف صار أستاذًا وأصبح له كرسى المادة دون منازع فيه.

النائب: وهو المكلف بالقيام فى تدريس الموضوع نيابة عن المدرس إذا كان مشغولاً بعمل إدارى أو قضائى أو لمرض أو سدّ الشاغر فى فترة لا يوجد فيها مدرس[4].

المعيد: يختار المدرس من بين طلبته معيدين لدروسه وقد يكتفى بواحد حسب حاجته، ومهمته أن يلقى الدرس على الطلبة وأن يساعدهم فى فهمه،

---

(1) طلس ـ نظامية بغداد، عن ابن الأثير جـ ١٠ ص ٦٨، وطبقات الشافعية جـ ٢ ص ٣٥٠.

(2) الطبقات جـ ٤ ص ١٣.

(3) أسعد طلس ـ نظامية بغداد عن ابن الساعى ـ تاريخ بغداد ص ٢١٩، وابن الفوطى - الحوادث الجامعة ص ٢.

(4) السبكى: طبقات الشافعية جـ ٨٦/٤.

لذلك فهو يحتاج إلى لباقة واطلاع، لذا كان من هؤلاء المعيدين مدرسون فى مكان آخر.

وكما كان للمعلّمين درجات فإن للمتعلمين - كما تشير النصوص المستعملة فى هذا الباب - كذلك: ولعلّ أولى درجات الدارس أن يطلق عليه اسم تلميذ أو طالب ثمّ بعد أن يصل المرحلة العالية فى المعرفة يقال له: مثقف ثم فقيه. فإذا أكمل دراسة منهجه وبقى ملازمًا لأستاذه ليستكمل علومه يسمى بالصاحب وقد يعتمد عليه أستاذه فيعينه معيدًا لدروسه، وناسخًا لمؤلفاته تحت إشرافه.

الكتاب المدرسي:

والذى يلوح لنا من خلال سيَرْ أساتذة النظامية وطرق تعيينهم أن التأليف كان من الاعتبارات التى تراعى عند اختيارهم، لذلك لم نجد فى أسمائهم غير مؤلفين خاصة فى عهد «النظام»، وكانت الدرجات العلمية التى تمنح لهم أو يعيّنون بها، أو ينتقلون بموجبها إنما تعتمد على هذا الأساس فى الغالب. وكان الكتاب المدرسى الذى يضمّ مجموعة محاضرات الأستاذ، سرعان ما ينتشر فلم يمله على طلبته ويسمعون عنه حتى يستنسخونه ويتبادلون النسخ المصحّحة أو المجازة من قبل مؤلفها، ولم تمر فترة قصيرة حتى يتدارسه المعنيّون بموضوعه فقد تحدث الغزالى عن ـ ابن سينا ـ وأثنى عليه وأشاد بتحقيقه، ودقة نقله[1]. مع علمنا بأنهما متعاصران تقريبًا.

وقد يطلق على مجموعة تقريرات الأستاذ فى الفقه اسم ـ التعليقة ـ فيحفظونها الطلبة ويتناقلونها، ومن هذه التعليقات ما يبلغ بضع مجلدات، وكلّما كانت التعليقة أكثر أصالة كانت أكثر انتشارًا وتدارسًا من قبل المعنيين.

وكان من عادات الأساتذة إذا ختموا كتابًا احتفلوا لذلك. ومما يروى بهذا الشأن أن الإمام الجوينى عندما أتمّ تصنيف كتابه ـ نهاية المطلب فى دراسة

(١) الغزالى ـ التهافت ص ٩.

المذهب ـ وكان قد درّسه للخواص من تلاميذه ـ عقد مجلسًا حضره الأئمة الكبار، وختم الكتاب على رسم الإملاء والاستملاء، ودعا له الجماعة وتبجحوا به[1].

موضوعات الدراسة وطرق تدريسها:

بين المعبد والمدرسة سواء أكان مسجدًا أو كنيسة، صلات وثقى منذ القدم إذ نشأت فى ظلاله، وما أن ترعرعت ونمت حتى انفصلت عنه انفصال الأرض عن الشمس، حيث بقيت تلازمه، ولم تستطع الانطلاق عن مدار تعاليمه وقواعده إلاّ بقدر معلوم، لذلك بقيت أساليب التعليم اتباعية وأكثر ما تعتمد عليه الاستماع والإملاء والحفظ.

وظل العلم يحاول استقلاله عن المعبد زمنًا طويلاً ولم يكد يتخلص من فرض سلطانه عليه حتى فرضت السياسة سيطرتها.. وبقى الدين والسياسة يتنازعان النفوذ فى تسخير العلم لأغراضهما حتى الوقت الحاضر.. وكان القرن الخامس ـ كما نعتقد ـ من العصور التى ضاق بها العلم ذرعًا من تزمت المتدينين واستبداد الساسة.

وكان «نظام الملك» ـ ممن يرى فى العلم أفضل وسيلة لتنوير أذهان الناس وإفهامهم الحق والخير ـ كما يعتقدهما ـ وطرد الخرافات وانتزاعها من نفوسهم، وهو فوق ذلك دعامة للدين الصحيح وسند للدولة القائمة. ومادام «النظام» شافعيّا أشعريّا واعتقاده بأن طريق الخلاص من المبادئ الخبيثة لا يكون إلاّ بنشرهما وتوحيد الأقطار على أساسهما فقد اشترط فى أساتذة نظامياته المذهب الشافعى.

وكان منهج التعليم الذى يسير بمقتضاه الأساتذة شاملاً لمجموعة العلوم الإسلامية المعروفة كالقرآن والحديث، ثم أصول الفقه والفقه على المذهب الشافعى وعلم الكلام على رأى الأشعرى، ثم مجموعة اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض.. وكان تسلسل المنهج وتطبيقه تربويّا سليمًا إلى

(١) التهافت: الغزالى ص ١١.

حدٍ كبير فقد دلتنا التراتيب التعليمية التى وصلتنا على أن مناهج الدروس التى يسير بموجبها الطلبة تتدرج من السهل إلى الصعب. ومن البسيط إلى المركب إذ تبتدئ بالعلوم النقْلية التى تعتمد على اللسان ومقوّماته ثم تنتقل بالطالب إلى العلوم العقلية التى تعتمد على التفكير.. ومن هنا كان النحو والصرف بداية المرحلة الدراسية الطويلة وكان الفقه وأصوله هما النهاية التى ترافق الطالب إلى اللحد.. وذلك لأن الفقه بمعناه الخاص فلسفة التشريع على اختلاف مذاهبه وهى مرحلة الاجتهاد فى الحقوق والمعاملات التى تستغرق بقية العمر.

ولم تزل خطة التدريس باقية فى المدارس الدينية الموجودة فى أمهات المدن الإسلامية، وأن الزائر لإحداها فى الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين فى مصر والمغرب، والنجف، والكاظمية والموصل من مدن العراق، وفى إيران وباكستان وتركيا ليشاهد حلقات الدرس المنظّمة التى تعقد صباح كل يوم إلى قرب صلاة الظهر حيث يتلقى فيها الطلبة دروسهم على يد أساتذتهم المتخصصين، ثمّ تستأنف فى العصارى والأماسى قبيل صلاة المغرب وبعيده وحيث تنتظم حلقات الطلبة بشكل دائرى حول الأستاذ وهو على منصته، وقد تمتلئ الدائرة بحيث لا يبقى فراغ فى داخلها فيبلغ عدد حضورها أحيانًا نحو ثلثمائة طالب قد يكون من بينهم الأساتذة، وربما تشترك معهم الطالبات كما حدث فى حلقة درس الإمام الجوينى فى نظامية نيسابور(١).

وتدلنا الأساليب الباقية لتلك الحلقات أن الطلبة كانوا أحرارًا فى اختيار أساتذة المادة التى يرغبون التخصّص فيها وأن اختيارهم هذا كان موفقًا ومجديًا، وأن المناقشة والجدل وبخاصة فى مسائل الخلاف من أهم الوسائل التعليمية آنذاك. وأن الطلبة كانوا أحرارًا فى مناقشتهم على ألاّ تتعدى حدود الآداب المألوفة حتى ألّف المعنيون بالتربية وأصول التدريس كتبًا فيها(٢). وكانت

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٨١.

(٢) مثل: تعليم المتعلم طريقة التعلّم ـ برهان الإسلام الزرنوجى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ لابن عبد البر.

المحاضرات يتخللها الدعابات والنوادر بحيث اتخذ الأساتذة من الشيخ أبى إسحق الشيرازى مثالاً على ذلك[1].

وقد وصف لنا ابن جبير فى رحلته درسين كان ألقاهما الإمام رضى الدين القزوينى فى نظامية بغداد فى صفر من سنة ٥٨٠هـ، وهما وإن كانا مجلسين فى الوعظ والتذكير إلاّ أنهما يصوّران كيف يبدأ درس التفسير مثلاً ثم كيف تدور المناقشات وتعرض الأسئلة، وأن قسطّا منها يكتب على رقاع تقدم إليه يمسكها بيده ويجيب على كل واحد منها بعد ختام محاضرته بمثل ما تنتهى المحاضرات العامة اليوم، ثم يتفرق الجمع بعد نزوله عن المنبر[2].

التخصصّ الضيق :

وما كنّا نشهد فى تلك الموضوعات الدراسية هذا التخصص الضيّق الذى نعانى نقائصه كما ننعم بمزاياه اليوم فلم نجد النحوى يومذاك على تضلعه فى نحو سيبويه والكسائى والفراء مقتصراً عليه، وإنما يتحدث ويناقش فى مسائل التشريع والكلام والطبيعة والرياضيات والتاريخ والآداب كأنه من المختصين أو المبرزين فيه، وإن الموسوعات التى وصلتنا فى مختلف الموضوعات لتشهد بذلك حيث يتلقى الطالب فى مستهل حياته الدراسية محفوظات من آى القرآن الكريم ثم قواعد النحو والبلاغة والتاريخ ومبادئ الحساب والهندسة والآداب، ثم يتدرج فيلمّ بهذه ويضيف إليها العلوم الفلسفية والطبيعة وما وراءها، فلا يبلغ مرحلة التخرج والإجازة حتى يكون قد أخذ من كل شيء أحسنه.

وكانت مسألة الاختصاص على حساب الموضوعات الأخرى من مسائل الخلاف فى هذا العصر، وكان ممن تحدث عنها «أبوبكر بن المعافرى» فى عواصمه فقال : ولا يقل أحد متى أحصلّ هذا ـ أى المشمول ـ فإنه ليس المطلوب منها الغاية، وإنما ينبغى لكل عاقل أن يتخصّص بجزء منها ولايفرد نفسه ببعض العلوم فيكون إنسانًا فى الذى يعلم، بهيمًا فيما لا يعلم.. ولا يصح إلى من

(١) الذهبى- سير أعلام النبلاء جـ ١١ ص ٥١٤.

(٢) ابن جبير ـ الرحلة ص ١٩٧ ، ١٩٨.

يقول له: فكن مقصرّاً فى كل علم إذا فعلت هذا والأولى بك أن تقف نفسك على علم واحد فإنه قول جاهل بالعلم؛ لأن المشاركة ممكنة والإحاطة بعلم واحد غير ممكنة. . فلا يستطيع «سيبويه» ولا الفارسى إحاطته بالنحو على الرغم من تخصّصهما فيه، وقد أفسد تخصصهما كثيراً من نحوهما[١]. . ولأن العلم والأدب يترابطان بصفاتهما المشتركة وأغراضهما فى الحياة ولأن فروع العلم وفنون الأدب تتصل بوشائج من الأشباه كاتصال العقل بالقلب والتفكير بالعاطفة، والعالِم فى نظرهم ما تثقّف عقله وتهذّب قلبه.

وقد منح الأستاذ فى النظامية استقلالاً وحرية ضمن حدود معينة كما تفرضها عليه النظم الجامعية اليوم، فهو لا يدرّس عادة إلاّ المادة التى تخصص واشتهر بها وله أن يختار الطريقة التى يفضلّها لإلقاء محاضراته، وكان الطلاّب يفاضلون بين الأساتذة بموجبها، حتى حكى عن أبى الفتح المقدسى أنه قال «صحبت إمام الحرمين الجوينى ثم قدمت العراق فصحبت الشيرازى فكانت طريقته عندى أفضل من طريقة أبى المعالى»[٢].

كما لم يخضع لرقابة المحتسب مثلما يخضع المدرس فى المدارس التى تمهّد للدراسة بها، إذ كان التعليم فى موضوعات بسيطة معينة وطرائق تدريسه للصغار تحت إشرافه لأن منها ما يكون نقلهم عنها بعد الكبر عسيراً فيضع من قصّر وأساء فى التصدى لما يفسد به النفوس[٣]. على أننا لم نجد مثل هذا الحق فى التفتيش على النظاميات وأساتذتها.

القبول والتخرج:

وكان التعليم من قبل مقصوراً على أبناء الأثرياء والكبراء لأنه يتطلب سعة فى المال وشهرة فى الجاه ففتح «النظام» أبواب نظامياته للنابهين إذا أنس فيهم

(١) المعافرى أبو بكر: العواصم من القواصم جـ ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢.

(٢) طبقات جـ ٤ ص ٢٨.

(٣) الماوردى – الأحكام السلطانية ص ٢٢١.

حدة من ذكاء والراغبين فى العلم إذا لمس منهم إقبالاً عليه، وضمن لهم عيشًا رغدًا لا يقل عن مستوى طلبة الجامعات فى العصر الحديث وأتاح لهم حياة كريمة ينظرها الخواص والعوام بعين التجلّة والاحترام.

وكانت النظاميات تستقبل كل طارق، دون التقيّد بعدد الطلاّب مثل ما اتخذ مبدأ التحديد فى المستنصرية، أو توافر شروط الشافعية فى الدارسين كما التزم فى المدرسين، ولئن صحّ هذا كان معناه أن التعليم العالى كان حرّا لجميع المواطنين ممن يحملون مؤهلات التعلّم ويرغبون فى مواصلة الدراسة، وكان على المدرسة أن تهيئ للطالب عند قبوله ما يلزمه من سكن وما يقتضيه من حاجات كما توفر له أربعة أرطال من الخبز فى اليوم[١].

وليس هناك سنّ محددة للقبول فى هذه المدارس فقد يدخلها الطالب وهو ابن الثلاثين أو أكثر إلاّ أنه لا يقل عن العشرين فى العادة حيث قضاها فى التعلم بين المسجد والكتاتيب، فإذا انتمى لإحدى النظاميات وانتظم فى سلك طلبتها وتلقى دروسها فليس هناك سنّ معينة تمنع من سماعها فقد يحضرها وهو فى سنّ الثمانين[٢]. وليس هناك وقت محدد للمدّة التى يستغرقها الدرس أو عدد الدروس اليومية فقد يستمر ساعة أو اثنتين وقد يكون هناك درسان فى اليوم أحدهما قبل الظهر والثانى بالعشى.

وثالث الأشياء الحرّة فى هذه المدارس هى مدّة الدراسة إلاّ أن نصّا ذكره لنا ابن الجوزى فى ثنايا ترجمته ـ لأبى على الفارقى ـ أحد تلاميذ ـ أبى إسحق الشيرازى يمكننا الاستنتاج منه بأن أقل زمن يصل فيه الطالب مرحلة الاعتماد على نفسه والاستغناء عن الجلوس بين يدى أستاذه هى أربع سنوات[٣].

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم ٢٤٦/٨.

(٢) انظر: طبقات السبكى ـ ترجمة عبد الله بن على بن عوف جـ ٣ ص ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق وترجمة الفارقى جـ ٤ ص ٢٠٩، وابن الجوزى ـ المنتظم- حوادث سنة ٥٢٨هـ.

الإجـازة: (شهادة التخرّج)

هى الوثيقة المدرسية وكان الاستماع للمحاضرات من شرائطها، لأنها لاتفى بالقصد من الدراسة والغرض من التعلم إذا لم يصحبها حضور، وهذا ما علّل به ـ الماوردى ـ عدم صحة حمل الإجازة والرواية بها فقال: ولو جازت لبطلت الرحلة[١]. وقد يمنح الطالب عدة شهادات من شيوخ متعددين وطريقة الحصول عليها فى العادة يكون بناء على طلب يتقدم به لمدرسه بعد أن ينهى دراسته. وقد أصبحت هذه ضرورة بعد تأسيس النظاميات وانتشار المدارس.

فإذا نال إجازته فقد أصبح مهيأ لأن يشغل أحد مناصب القضاء، أو الافتاء، أو التدريس، أو المناظرة، وقد يحظى بأكثرمن واحدة منها فيكون قاضيًا ومفتيًا ومدرسًا فى آن واحد، أو أن يكون حرّا فيعمل ليكون محدثًا أو متكلمًا، أو واعظًا أو خطيبًا فى أحد المساجد[٢].

المدارس الأهلية قبيل النظاميات :

لقد انتهى القرن الرابع الهجرى حيث كان الناس يتلقون العلم فى المسجد والبيت والسفر والحضر[٣]، إلى حيث تلك المعاهد النادرة، ولم يطلع القرن الخامس حتى انتشرت المدارس الأهلية فى عواصم الأقاليم الشرقية ففى «غزنة» عاصمة آل سبكتكين فى سجستان بنى السلطان «محمود» مدرسة إلى جانب جامعها يصفها لنا ـ العتبى ـ بأنها فيحاء تشتمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضين.. يتناوبها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس والنظر فى علوم الدين. على كفاية ذوى الحاجة منهم بما يهمهم جراية وافرة ومعيشة حاضرة[٤].

وفى نيسابور عاصمة خراسان بنى أبو إسحاق الإسفراينى مدرسة قال عنها السبكى: إنها لم ين بنيسابور قبلها مثلها ودرس فيها إلى أن مات سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م[٥].. ومدرسة بناها الأمير ـ نصر بن سبكتكين ـ حينما كان

(١) طبقات الشافعية لابن الصلاح – اختصار النووى ورقة ٧٥.
(٢) د: عبد الله الفياض: الإجازات العلمية.
(٣) السبكى – الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥.
(٤) العتيبى ـ كتاب اليمنى جـ ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٠٠.
(٥) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥.

واليًا على نيسابور وسمّاها السعدية، وكانت من بينها المدرسة البيهقية قبل أن يولد «النظام»[1]، وفى بيهق كما ذكر - ابن فندن - وهو من أبنائها الذين أرّخوا لها بعد «النظام» بأقل من قرن: كان قد بنى «أبو القاسم على بن محمد الحسين بن عمرو من أثرياء قصبة سبزوار مدرسة للمفسر «على بن عبد الله بن أحمد» النيسابورى فى محلّة أسفريس فى رمضان سنة ٤١٨هـ، وآثارها - إلى عهد المؤلف - باقية[2]، ثم قال فى ترجمة هذا الثرى أنه بنى أربع مدارس للطوائف الأربع قبل سنة ٤١٤هـ[3]، وفى «مرو» أنشأ أبو حاتم البستى المتوفى سنة ٤٢٠هـ مدرسة ألحق بها مكتبةً ومسكنًا للطلبة الغرباء بالمجان ورتّب لهم معاشًا[4]..

وفى بغداد كان للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ طلاب ومدرسة يجرى عليها وعليهم الأرزاق، وقد يبلغ راتب طالبها اثنى عشر دينارًا أو ثمانية دنانير كل شهر، وأن بعض الفقراء من غير المسلمين كان يدرّس عليه علم الفلك بقصد التوفر على هذا الراتب، كما أوقف قرية على كافة الفقراء[5].

وجاء «النظام» فوجد أمامه هذه النماذج العديدة من المدارس، ورأى الفاطميين قد سبقوه إلى تشييد الأزهر والاعتماد عليه فى دعوتهم ودراسة مذهبهم فكانت هذه مصادر إيحاء وتحفّز للقيام بإنشاء مجموعة من المدارس وليست مدرسة واحدة لتشارك المجاهدين فى حربهم ضد المبتدعين بنفس السلاح...

وعلى هذا يبدو لنا أنه ليس - النظام - أول من بنى المدارس فى الإسلام وليست نظامية بغداد أولاها على وجه الإطلاق، فإن النصوص التى تؤرّخ لنظامية أصبهان يمكننا أن نستنتج منها بأنها أقدم المدارس النظامية، وأن النقول التى عرضناها تدل على وجود نظائر لها سبقتها. أمّا أوجه الأولوية فى

(١) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ١٣٧..
(٢) ابن فندن - تاريخ بيهق ص ١٧٥.
(٣) ابن فندن - تاريخ بيهق ص ١٩٤.
(٤) أسعد طلس - نظامية بغداد ص ١٣.
(٥) عبد الرزاق محيى الدين - أدب المرتضى ص ٦٨ عن روضات الجنات جـ ٢ ص ٣٨٣.

نظاميات الوزير فليس لأنها انفصلت عن الجامع والمسجد فى طراز بنائها ومنهاج دراستها وفرض الجرايات والمعاليم لأساتذتها وتلامذتها، وإنما لأنها - كما نرى - جماع ذلك فضلاً عن أن الحكومة هى المشرفة عليها، والتى تقوم بتوظيف معظم الطلبة الممتازين من متخرجيها.. وكانت نظامية بغداد واسطة العقد فى تلك السلسلة من المدارس النظامية، وأكثرها ذيوعًا وأبعدها صيتًا وشيوعًا، وإن لم تكن أقدمها إنشاءً وعمارة؛ لأنها فى عاصمة الخلافة العباسية، وتضم بين جدرانها أفضل العلماء وخيرة الطلاّب، لذلك يحسن بنا عرض هذه المجموعة حسب أهميتها وشهرتها:

١- نظامية بغداد:

إن معهدًا يعتبر البذرة الأولى للدراسات العليا المنظّمة فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، والذى امتد عمره خمسة قرون تقريبًا وظهرت آثاره فى طراز البناء ومناهج التدريس واضحة على المدارس التى شيّدت بعد إنشائه، والذى أثار أساتذته ومتخرجوه ضجّة علمية ودينية اجتاز صداها حدود الخلافة ومملكة آل سلجوق إلى أقصى بلاد المغرب لجدير بالدراسة التفصيلية من جميع نواحيه، لذلك ظفر بعناية الباحثين بشكل لم نعهده فى تاريخ معهد آخر[١].. والذى يعنينا - نحن - ما يكشف لنا عن الغرض من تأسيسه، والقصد من مناهج الدرس فيه، وهذا ما أشرنا إليه من قبل فلم يبق علينا إلاّ أن نستعرض نواحيه الأخرى كما يقتضيها منهج البحث.

لقد قيل فى أسباب بنائها - وصاحب هذه المقولة من معاصرى «النظام» ومات بعد اغتياله، بخمسة وثلاثين عامًا أى سنة ٥٢٠هـ -: إن الشيخ «أبا سعيد» الصوفى زار «النظام» يومًا وقال له: «أريد أن أؤسّس فى مدينة السلام مدرسة تخلّد ذكرك إلى يوم القيامة، فوافق «النظام» على ذلك وأصدر أمرًا إلى العمال بصرف المبالغ اللازمة».

(١) انظر: أسعد طلس - نظامية بغداد (رسالة نال بها المؤلف إجازة الدكتوراه من جامعة باريس).

ويحكى صاحب هذه المقالة: «أن أبا سعيد (القاشى) بعد أن وكّل إليه «النظام» بناء المدرسة ابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخطّ المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسم «نظام الملك»، وبنى حولها أسواقًا تكون محبوسة عليها وابتاع ضياعًا وخانات وحمامات وأوقفت عليها، فكملت بذلك لـ«نظام الملك» الرياسة والسؤدد.. وكان ذلك فى سنّى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة.. ثم رفع حساب النفقات فبلغ ستين ألف دينار»[1]. ويتم صاحب هذه الحكاية روايته: «بأن (النظام) استكثر المبلغ وطلب منه كشفًا مفصّلاً بذلك إذ طرق سمعه أن جميع المصروف على البنيان لا يزيد على تسعة عشر ألفًا وأن بقية الأموال احتجبها الوكيل لنفسه.. ثم أذن بصرفه حينما سمع منه أنه سيقدّم له المبلغ ويسجّل المدرسة باسم الخليفة القائم»[2].. وبنى «أبو سعيد» بتلك الأموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور وأوقف جميع ذلك عليهم.

ولسنا ندرى كيف يسوغ لأبى سعيد الصوفى أن يحتجز من أموال الدولة العامة أو الخاصة بالوزير وهو الزاهد المتصوّف، ولسنا ندرى كيف يستسيغ ذلك الطرطوشى فيطرى هذه القصة ويثنى على صاحبها أيّما ثناء حتى ليقول: «وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون، فإن فيها عزّ الدنيا وشرف الآخرة»[3].. وليس لكل ذلك من مبرّر - كما أظنّ - إلاّ أنها كانت من أجل الخير العام، وفى سبيل طائفة الصوفية بالذات، وليس هو بالمبرر المشروع.

ومهما قيل من أسباب فى إنشاء «النظام» لمدارسه ونظامية بغداد خاصة فقد غضّ «النظام» طرفه عن هذه الاختلاسة، وعفا عن مرتكبها دون تدقيق ولا محاسبة، لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى شىء أعظم وأجلّ من المال إذ

(١) أبو بكر الطرطوشى - سراج الملوك ص ٢٣٩.

(٢) ابن أبى الدم - تاريخ المظفرى ورقة ٤٢٥ - حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٣) سراج الملوك ص ٢٤٠.

كانت المدرسة من أهدافه العظام وأمانيه الجسام لتضم بين جدرانها جمع العلماء المثقّف وتجمع شملهم المتفرّق وتجعل منهم صفًا واحدًا أمام المبادئ الخبيثة التى تهدّد كيان الدولة، فلم ير نفرًا من رجال العلم، أو يسمع قولة ـ أبى سعيد ـ حتى انتهزها فرصة ليهيئ لهم الجو الذى يمكّنهم من تفنيد مزاعمهم الهدّامة.

وقبل أن ننتقل إلى ناحية أخرى من نواحيها يحسن بنا أن نشير إلى ما استفدناه من هذا النص عدا ما تقدم ذكره:

أ ـ أنها لم تشتهر بعد باسم المدارس النظامية حتى عام تأليف ذلك الكتاب.

ب ـ أنها تقع على شاطئ دجلة مباشرة وليست بعيدة عنه قرب الباب المشهور بباب الأزج.

جـ ـ أن تكاليف بنائها بلغت ستين ألفًا[١] وليست مائتى ألف دينار ـ كما نقل غيره عن غزالى نامه[٢] ـ خلافًا لأغلبية المؤرخين.

أمّا تاريخ تأسيسها، فالمعروف لدى رجال السير والتاريخ أنه بدئ فى بنائها عام ٤٥٧هـ وانتهى فى عام ٤٥٩هـ[٣]، وبذلك يكون تأسيسها فى سنى عشر الستين وأربعمائة من الهجرة، وليس كما يزعم «الطرطوشى» فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة، ولعل خطأ النسّاخ هو الذى أوقع فيه الناشر للكتاب.

تسميتها:

ولسنا نعرف بالضبط متى أطلق عليها ومن أول من سمّاها «بالمدرسة النظامية» وإن كان هناك من النصوص ما يصرّح بأن اسم الخواجة ـ نظام الملك ـ نقش على العمارة بعد إتمامها[٤]، غير أن «أبا بكر المعافرى» الذى رحل من

---

(١) ابن أبى الدم ـ تاريخ المظفرى، ورقة ٤٢٥ ـ مجلة المجمع العلمى والعراقى جـ ١/ ١٤٥ - سنة ١٩٥٤م- الترجمة.

(٢) المتنبى وسعدى ص ٨٣ عن غزالى نامه لهمائى ص ١٣٠.

(٣) المنتظم- حوادث سنة ٤٥٧هـ جـ ٨ ص ٢٣٨، وحوادث سنة ٤٥٩هـ جـ ٨ ص ٢٤٦، والكامل جـ١٠ ص ٢٠ نفس العام، وغيرهما.

(٤) الطرطوشى ـ سراج الملوك ص ٢٣٩.

المغرب إلى بغداد ليلتحق بنظاميتها ووصل إليها بعد مقتل «النظام» بخمسة أعوام، وقابل الإمام الغزالى فيها سنة ٤٩٠هـ، ثم كتب رحلته هذه ومشاهداته، أطلق عليها - اسم مدرسة السلام - على الرغم من ثنائه العاطر على مؤسسها، وإشادته بالدور العلمى الذى قامت به فقال: «ولقد فاوضت فيها - أبا حامد الغزالى حين لقائى له بمدرسة السلام فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ وقد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ٤٨٦هـ إلى ذلك الوقت نحو خمسة أعوام»[١].

وليس ببعيد أن إطلاق اسم النظامية على هذه المجموعة من المدارس ومنها نظامية بغداد إنما كان بعد القرن الخامس، وحينما بدأ المؤرخون فى الكتابة عنها والتمييز بينها وبين غيرها من المدارس التى انتشرت حينذاك فى معظم الولايات.

موقعها:

ولئن صحّ ما قيل من حكاية «أبى سعيد الصوفى» كما نقلها الطرطوشى فليس «للنظام» حينئذ رأى فى اختيار موقعها ولا فى طراز بنائها أو تحديد مساحتها، كما لم نجد بين النصوص ما يشير إلى مساهمته فى ذلك عدا ما يتصل بمواد البناء ومناقشته له فيه. فقد حكى لنا هندوشاه فى «تجاربه» بعد سرده لتلك الحكاية السالفة أنه قال له: كنت أريد أن تكون النظامية مُحكمة البناء مثل جامع المنصور وبيمارستان عضد الدولة فقد سمعت أنهما جعلا لكل آجّرة زنبيلاً من الجير، وقد بلغنى أنك جعلت واجهة البناء من الآجر المنقوش وأخاف أن ينقضّ سريعًا»[٢].

(١) العواصم من القواصم جـ ١ ص ٢٠، والذى عليه أغلب المراجع العربية أنه ترك المدرسة سنة ٤٨٨هـ، ومن أشار إلى هذا اللقاء فقد أرجعه إلى الشام وأنه قصد مناظرته فقال له: هذا شىء تركناه لصبية فى العراق يعنى المغالبة بالعلم والمفاخرة به. (مرآة الجنان لليافعى جـ ٣ ص ٢٢٧).

(٢) تجارب السلف هندوشاه ص ٥.

لقد اختار الشيخ أبو سعيد لعمارتها مكانًا فى الجانب الشرقى مازال حتى اليوم يعدّ من أرقى محلات بغداد وأحسنها فقد حدّد لها قطعة من الأرض تطل على دجلة. وفى ذى الحجة سنة ٤٥٧هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥م) شرع فى بنائها واستمر العمل متواصلاً سنتين إلى أن انتهى منها فى يوم السبت ١٠ من شهر ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (٤ سبتمبر سنة ١٠٦٧م)(١).

ثمّ عفت السنون المتعاقبة على أطلالها فلم تبق لنا منها ما يدلنا على موقعها، ولم يردنا من النصوص الثابتة الواضحة ما يحدد لنا موضعها. . وبهذا أصبحت مثار خلاف للباحثين، فقد ظنّها - الألوسى - فى محلة اليهود التى تسمى «بباب الأغا»(٢) مستدلاً على مكانها بما بقى من مئذنتها. وهى منارة تقع فى زقاق سمىّ بها، أو بدرب محمود أبو الحسن، وقد شاركه الرأى - العزاّوى - من مؤرّخى العراق المحدثين(٣).

ولم يصل - أسعد طلس - فى رسالته عن نظامية بغداد إلى نتيجة حاسمة سوى قوله: «وبالاختصار يمكننا التأكيد بأنه لم يبق اليوم أى أثر للنظامية وأنها كانت فى سوق الثلاثاء»(٤)، إلاّ أن المرحوم «مصطفى جواد» - البحاثة الخططى المشهور- يرى أن هذه المنارة ربما تكون بقايا مئذنة المدرسة الإمامية نسبة إلى الخواجا إمام الدين الأفنخارى القزوينى وهى فى درب - فراشا - شرقى بغداد(٥)، وأن النظامية تقع فى موضع سوق الخفافين اليوم قبال رباط شيخ الشيوخ - أبى سعد النيسابورى - الذى حلّ بمكانه الخان المعروف بخان «الباججى» بجوار جامع الخفافين فى سوق الكمرك العتيق على دجلة(٦).

(١) المنتظم، ومرآة الزمان، وابن الأثير - حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٢) وتسمى اليوم المنارة المقطومة أى المقطوعة، وبينها وبين جامع مرجان نحو ثمانين خطوة (مساجد بغداد الأثرية ص ١٠٥. الهامش للأثرى).

(٣) العراق بين احتلالين جـ ٢ ص ٨٦.

(٤) أسعد طلس - نظامية بغداد.

(٥) كما فى نكت الهيمان ص ٢٠٣، والحوادث الجامعة ص ٥٠٤.

(٦) ابن الدبيثى - المختصر المحتاج جـ ١ ص ٥٢ الهامش.

وهو رأى صرّح لى به أثناء تجوالنا مرة لاستكشاف موقع النظامية فاجتزنا عدة أسواق منها سوق الميدان ثم بسوق العطر والمخلّطين أى البزازين فقال: «إنها الفروع التى تتصل بشمال سوق الثلاثاء العتيقة وجنوبه، ولمّا أسّست النظامية بنى لها سوق هو سوق الكمرك الآن، ثم بنيت المستنصرية فاتصل سوقها بسوق النظامية، فسوق الثلاثاء اليوم وهو سوق الحيدرخانة من باب الأغا».

وهو رأى وجيه لأن الثابت من أقوال الرحّالة ابن جبيرو «ابن بطوطه» وغيره من المؤرخين أنها تقع على شاطئ دجلة فى وسط سوق الثلاثاء[١]. ولأن المنارة السالفة الذكر تبعد عن شاطئ النهر بما لا يقل عن خمسمائة متر، فلا يصحّ أن تكون من آثار النظامية الدّالة على موقعها.

وهو رأى على وجاهته لايمكننا التثبت منه مادامت المدرسة فسيحة حيث ابتاع لبنائها ـ أبو سعد ـ بقية الدور الشاطئيه بمشرعة الزوايا والفرضة وباب الشعير ودرب الزعفرانى[٢]. ومادامت تحتوى على محال للدروس والمذاكرة ومصلّى يسع الألوف وأماكن الجلوس للأساتذة، ومخازن للأدوات، وحُجَر وبيوت - للسكن كما سنرى وصفها فيما يأتى:

وصفها:

لقد كانت نظامية بغداد نموذجًا راقيًا بنيت على نمطه المدارس التى أنشئت فى عهدها أو قبيل خرابها. . وقد قدّر لبعض هذه المدارس التى شيّدت على غرارها أن تبقى بمنزلة العلائم التى ترشدنا إلى ما نريد فى هندسة بنائها كما كانت إمارة فى تحديد مكانها، ومن أهم تلك المدارس وأشهرها ـ المستنصرية ـ التى أفرغت على قالبها وحيكت على منوالها وصيغت على مثالها ولكن فاتها الشنب على رأى المثل[٣].

(١) ابن بطوطة ص ١٣١، والسبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٨٨ ـ ٩٨.

(٢) المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٨ ، والسبط - مرآة الزمان- حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٣) الألوسى - مساجد بغداد وآثارها ص ١٠٢ .

بهذه العبارة الموجزة ذات الأسجاع الثلاث يبدأ الألوسى وصفه لنظامية بغداد، ثم يستمر فى الوصف فيقول: كانت مستطيلة البناء متناسقة الزوايا والأرجاء فيها محل واسع للدروس وآخر مثله معدّ للمذاكرة ولترويح النفوس، ومصلاّها يسع من المصلين الألوف وفيها مواضع لرؤساء العلم والمدرسين وأقنية للذخائر وأدوات الطباخين.

وكانت تشتمل على طبقتين من البناء وفيها من الحُجَر والبيوت عدد كثير، مرفوعة الجدران مشيّدة الأركان، عقد فى جوانبها طاقات مستديرة الشكل تنتهى إلى ذلك البنيان المشيّد، وقد فرشت ساحتها بالمرمر وسورها مؤزر بمثله[١].

لقد استقى ـ الألوسى ـ وصفه من المستنصرية[٢]، والمدرسة والجامع اللذين أمر ببنائهما الأمير ـ مرجان بن عبد الله ـ سنة ٧٥٨هـ بنفس تصميم النظامية، حيث لا يوجد لدينا وثيقة أخرى تصفها لنا غير ما جاء بكتابه، ومن محاسن الأقدار أن تبقى المستنصرية وتبقى مدرسة مرجان وأن نرى الوصف الذى جاء به الألوسى منطبقًا إلى حد ما معهما.

افتتاحها وأشهر أساتيذها:

لقد كان صباح يوم السبت الواقع فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م) من غرر الأيام التى شهدتها بغداد لتكريم العلم فى شخصيات العلماء بمناسبة افتتاح نظامية بغداد، فقد أقيم حفل رائع حضره كبار رجال الدولة والأشراف والوجهاء، وسكان المدينة حتى امتلأ فناء المدرسة والمحلات المجاورة[٣]، وأخذ الجمع يزداد كلّما ارتفع النهار إلى أن حان الموعد ولم يحضر

(١) المصدر السابق ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) المستنصرية ـ نسبة إلى مؤسسها الخليفة المستنصر بالله بن الناصر، وكان يدرّس بها المذاهب الأربعة ولكل مذهب ديوان، وفيه موضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط يقصده المدرس لابسًا ثياب السواد معتمًا وعلى يمينه ويساره معبدان (ابن بطوطة جـ ١ ص ١٤١).

(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٨.

الشيخ ـ أبو إسحق ـ الشيرازى الذى بنيت المدرسة برسمه[1]، وتساءل الناس عن سبب تأخره. فقيل إن صبيًا قابله فى الطريق وهو آتٍ لالقاء محاضرته الأولى وقال له: «كيف تدرّس فى مكان مغصوب[2]؟». فعاد من حيث أتى، ولم يجد العميد ـ أبو سعد الفاشى بدًا من تكليف «أبى نصر بن الصباغ» صاحب «الشامل والكامل» لكيلا ينفض الاجتماع من غير درس يسمعونه، وضمن له الشيخ أبو منصور بن يوسف المشرف على البناء ألاّ يعدل عنه ولا يمكّن «أبا إسحق» من الإفساد عليه، فوافق عليه وألقى محاضرته وجرت مناظرته[3]، ولكن المصادر تجمع على أن الخبر لم يصل إلى مسامع «النظام» حتى أقام القيامة على الشيخ، وطلب منه أن يلحّ على ـ الشيرازى ـ بالتدريس فيها، وأذعن الشيخ لضغط الوزير والخليفة والعميد جميعًا وخشى - أبو إسحق الشيرازى - فتور تلامذته إذا بقى على تمنعه.

وبعد عشرين يومًا من تعيين سلفه ذهب إلى المدرسة وجلس فيها يوم السبت غرّة ذى الحجة من العام نفسه، غير أنه كان إذا حلّ موعد الصلاة أدّاها فى مكان آخر خارج المدرسة.. ولعل فى شعور «النظام» بحرج الموقف إذا انتشرت دعوى الاغتصاب... إلخ ما دفع به للإصرار عليه بأن يقبل التدريس فيها فضلاً عن منزلته العلمية، واحترامه لـه.

وقضى أبو إسحق سبعة عشر عامًا بالنظامية، وصنّف لتلامذته «التنبيه» و«المهذّب» فى الفقه و«النكت» فى مسائل الخلاف، واللمع وشرحه، و «التبصرة» فى أصول الفقه، و «الملخص»، و «المعونة» فى الجدل، وطبقات الفقهاء وغيرها[4] وتخرّج على يديه عشرات بل مئات الطلاب حتى روى أنه قال: ما دخلت قرية أو بلدة فى خراسان إلاّ وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها

(١) ابن خلكان- الوفيات جـ ٢/ ٣٨٦ ـ القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٤٨ ـ حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٣) سبط بن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٨٨-٩٨، وابن خلكان جـ ١ ص ٩.

تلميذى أو صاحبى[1] . . وكان من أشهر هؤلاء: أبو على الفارقى، المتوفى سنة ٤٢٨هـ[2]، وأبو القاسم العكبرى المتوفى سنة ٥١٦هـ صاحب الانتصار فى مشكل القرآن[3]، وأبو العباس الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٢هـ صاحب الشافى والتحرير وكتاب الأدباء[4]، وأبو الحسن بن أبى الصقر الواسطى الأديب[5] المتوفى سنة ٤٩٢هـ، وعبد الله بن إبراهيم الخبرى المتوفى سنة ٤٧٦هـ صاحب شرح الحماسة وعدة دواوين كالبحترى والمتنبى وغيرهم[6]، وأبو الحسن على ابن سعيد العبدرى المتوفى سنة ٤٩٣هـ صاحب مختصر الكتابة فى خلافات العلماء[7]، وأبو بكر أحمد بن على الحلوانى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ، ومن تصانيفه ـ لطائف المعارف[8] ـ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ صاحب التصانيف المعروفة، والحريرى البصرى صاحب المقامات المشهورة[9]، وأبو العز محمد بن على بن بندار المعروف بالقلانسى[10] المتوفى سنة ٥٢١هـ وغيرهم كثيرون. . منهم: الشاشى فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد ـ درس فى النظامية معيداً للشيرازى ثم أستاذا منذ عام ٥٠٢ هـ حتى توفى سنة ٥٠٧هـ.

ومما يلفت النظر عند مراجعة تراجم هؤلاء المتخرجين أنهم جميعًا إلاّ ما قلّ منهم قد تولّوا مناصب القضاء فى الدولة فى مدن الأقاليم المختلفة، مما يدلّنا على أن النظامية «بعد قليل من الوقت» أصبحت تمدّ الدولة بالموظفين الفنيين، وأن الدولة أصبحت تعتمد فى وظائفها على ذوى الإجازات المدرسية العالية لاسيما المتخرجين منها. . وكذلك كانت مما تعنى به هذه المدرسة اختيار أفضل العلماء لتوجيه الطلاب وتثقيفهم، وكان «النظام» على رأس هذه الدولة هو الذى يعرف كيف ينبغى اختيارهم وعلى يديه أو من ينيبه عنه يتم تعيينهم. .

---

(١) المرجع السابق.

(٢، ٣) السبكى جـ ٤ ص ٩٦، ٢٠٩، ٢٣٦.

(٤، ٥، ٦، ٧) السبكى جـ ٤ ص ٩٦، ٢٠٩، ٢٣٦.

(٨، ٩، ١٠) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٨، ٦٧، ٢٩٨.

ومن أجل ذلك فانه لم يتوف الشيخ - أبو إسحق الشيرازى - سنة ٤٧٦هـ حتى أغلقت المدرسة وجلس للعزاء به ثلاثة أيام وعيّن «مؤيد الملك بن النظام» بعدها مباشرة- وكان يومذاك ببغداد الشيخ أبا سعد بن أبى سعيد المتولى النيسابورى. ولمّا سمع «النظام» بذلك لم يجد فى ذلك العزاء ما يليق ومنزلة الشيخ الراحل فقال: «لو أغلقت المدرسة سنة حداداً عليه»، كما لم يرض بهذا التعيين وطلب - أبا نصر بن الصباغ - مدرس النظامية الأسبق مكانه[1]، لأنه أجدر بها وأكفأ منه. . . وقد كان هذا من أنداد الشيرازى وإليه كانت رحلة الطلاّب فى المتفق من المسائل والمختلف، وله من المؤلفات: الشامل، والكامل، وعدّة العالم، والطريق السالم وكفاية السائل وغيرها[2]. وقبل أن يكمل عاماً فى التدريس صرف سنة ٤٧٧هـ وهو العام الذى توفى فيه وأعيد تعيين سلفه - ابن المتولى - وله كتاب «التتمة» على إبانة شيخه - الفورانى - و «مختصر الفرائض» وكتاب فى الخلاف وآخر فى أصول الدين واستمر فى التدريس إلى حين وفاته فى ١٨ شوال سنة ٤٧٨هـ[3].

وبقى هذا الكرسى شاغراً بضعة شهور إلى أن: «قدم بغداد فى تجمّل عظيم لم ير مثله لفقيه»[4] - أبو القاسم على بن أبى يعلى المظفّر محمد العلوى الحسينى الدبوسى - فى جمادى الأولى من سنة ٤٧٩هـ، وبدأ التدريس فى مستهل جمادى الآخرة. . وأغلب الظن أن سبب تعيينه كان بعد نجاحه فى المناظرة التى عقدت بينه وبين أبى المعالى «الجوينى» أمام الوزير - النظام - فى أصبهان وتفوقه فيها على منافسه وبقى فى منصبه ثلاث سنين إلى أن مات سنة ٤٨٢هـ[5].

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص٩. انظر ترجمته أيضاً فى مرآة الجنان لليافعى جـ ٣، والبداية والنهاية جـ ١٢ ص١٢٦ وفى نكت الهميان ص ١٢٣.

(٢) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ٢٢٣.

(٣) نفس المرجع.

(٤) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ٦٥- حوادث سنة ٤٧٩هـ.

(٥) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٢٧- حوادث سنة ٤٨٢هـ- السبكى جـ٤ ص٦، والنجوم الزاهرة جـ٥ ص١٢٩.

وفى المحرم من سنة ٤٨٣هـ ورد بغداد «أبو عبد الله الحسين بن على» الطبرى حاملاً منشور الوزير بتوليته التدريس فى النظامية. وكان قد ألّف كتاب «العدّة» فى شرح «إبانة» الفورانى... وفى ربيع الآخر من هذه السنة وصل أيضًا ـ أبو محمد عبد الوهاب القاضى الشيرازى، ومعه منشور بالتدريس فتقرر أن يدرّسا بالمناوبة يومًا ويومًا. وهى أول ظاهرة فى تعدّد الأساتذة لمادة واحدة فى نفس المدرسة، وهى ظاهرة لا نستطيع لها تفسيرًا بغير الاضطراب فى التعيين، وعدم الاعتماد على المعينين، لذلك لم يمر عليهما عام واحد حتى عزلا وعيّن الغزالى محلهما سنة ٤٨٤هـ على إثر تفوقه فى مناظرة جرت فى مجلس «النظام» مع زين الدين شرف الأئمة.

الغزالي وأشهر تلامذته :

وقضى الغزالى خمس سنوات تقريبًا إلى أن اعتزل المدرسة بين سنة ٤٨٨-٤٨٩هـ إلى الاعتكاف والرياضة النفسيّة فأعيد الطبرى إلى منصبه فى التدريس حتى توفى سنة ٤٩٥هـ كما توفى زميله فى المناوبة سنة ٥٠٠هـ بعد أن ألّف كتاب ـ الآحاد ـ وتفسيرًا ضمّنه ألف بيت من الشواهد[١].

وليس من شك بأن الغزالى كان من أشهر الأساتذة الذين تولوا التدريس فى نظامية بغداد على عهد «النظام» وليس من شك بأنه سبقهم فى كثرة مؤلفاته كما فاقهم فى تصوّفه واعتكافه فقد «برع فى المذهب والخلاف والجدل والأصلين ـ أصول الفقه وعلم الكلام ـ وصنّف فى كل فن منها»[٢] حتى بلغ مجموعها ٥٦ كتابًا من أهمها: إحياء علوم الدين الذى اعتمد فيه ـ كما يرى السبكى ـ على كتابى ـ قوت القلوب ـ لأبى طالب المكى، والرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيرى[٣]. ومنها أيضًا ـ الوجيز[٤] والوسيط[٥] والمنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة والمستظهري والتبر المسبوك وغيرها.

---

(١) السبكى جـ ٤ ص ٢٦٩.
(٢) السبكى جـ ٤ ص ١٠٤.
(٣) السبكى جـ ٤ ص ١٣٢.
(٤) منه نسخة قديمة جدًا يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠٧هـ فى مكتبة جامعة ـ ييل ـ بنيوهافن بأميريكا.
(٥) ومنه نسخة بخط الشروانى يرجع تاريخها إلى سنة ٦١٩هـ فقه شافعى رقم ٣١٦- دار الكتب.

وكان اختياره للتدريس بالنظامية كالمعتاد على إثر مناظرة جرت بين يدى «النظام» فى المعسكر توفق فى محاججة معارضيه وظهر عليهم فمنحه الوزير لقب ـ زين الدين وشرف الأئمة[1] ـ ولقى من أعلام بغداد ومعلميها ـ حين قدومه إليها ـ إعجابًا به وإقبالاً على محاضراته قلّ أن يتحقق لغيره من العلماء، وحضر دروسه ـ أبو الوفاء بن عقيل وأبو الخطاب، وتعجبوا من كلامه واعتقدوا فائدته ونقلوه إلى مصنفاتهم.

ولا نعرف أحدًا من أساتذة النظاميات أحدث من حوله ضجيجًا علميّا كأبى حامد الغزالى هذا، فقد بدأ التساؤل عن حقيقة آرائه، والأخذ بنظرياته والإعراض عنها منذ أيام حياته حتى عصرنا الحاضر، وكتب عنه وعن مؤلفاته مالم يكتب عن غيره، واشترك فى اتهامه والذب عنه علماء المغرب والمشرق على السواء[2]. . ولذلك أصبح ـ عندما وضع رحله فى المدرسة النظامية ـ ببغداد ـ مقصد هواة العلم، ومطمح كل هادف رفعة ومكانة، يشدّون إليه الرحال من كل فجّ وصوب، فكان من أشهر من صحبه وأفاد منه ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ـ الشهرستانى مؤلف كتاب «الملل والنحل، والعيون والأنهار»[3]. ومن تتلمذ وتفقّه على يديه: أبو إسحاق الغنوى الرقى الذى كتب الكثير من تصانيف أستاذه[4]، وأبو طالب الرازى الذى كان يحفظ «إحياء» أستاذه[5]، وأبو سعيد الجاوانى الذى تحدّث بكتاب ـ إلجام العوام ـ عن أستاذه[6]، وأبو سعيد النيسابورى صاحب المحيط فى شرح الوسيط، والإنصاف فى مسائل

---

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٥٥ – حوادث سنة ٤٨٤هـ.

(٢) المنتظم جـ ٩ ص ١٧٠ – حوادث سنة ٥٠٥هـ.

(٣) انظر: السبكى جـ ٤ ص ١٠٦–١٨٢، والمنتظم جـ ٩ ص ١٧٠ – حوادث سنة ٥٠٥هـ، وابن خلكان جـ ٣ ص ٢٣٥٣، والصفدى فى الوافى جـ ١ ص ٢٧٤، واليافعى فى المرآة جـ ٣ ص ١٤٥ – ٢٠١، وابن تغرى بردى جـ ٥ ص ١٣٤–٢٠٣، والبيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص ١٣٧.

(٤) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٠٠، ٢٥٨.

(٥) نفس المصدر.

(٦) الطبقات جـ ٤ ص ٨٨.

الخلاف[١] - وأبو عبد اللّه بن خميس الجهنى مؤلف: منهج التوحيد، ومنهج المريد، وتحريم الغيبة[٢] - وأبو عبد الله الطنزى الذى اتصل بالملك «زنكى بن آل سنقر» صاحب الموصل واستوزره[٣]، ثم محمد بن عبد اللّه بن تومرت المغربى. الذى أسّس دولة الموحدين وألّف لأتباعه كتاب «أعزّ ما يطلب»[٤] وغيرهم فى حياته وبعد مماته.

ولكن أبا حامد - لم يجد شفاء لغلته، وإرواءً لعطشه بما وصله من جاه ومنزلة وبلغه من نفوذ وشهرة فأناب أخاه - أبو الفتوح أحمد بن محمد - فى التدريس بدلاً عنه وتوجّه نحو المسجد الحرام سنة ٤٨٨هـ ومرّ بدمشق وبيت المقدس ومصر، وعاد إلى بغداد ومنها إلى نيسابور حيث اضطره - فخر الملك ابن النظام - وكان يومذاك وزيراً للسلطان - محمد بن ملكشاه - للتدريس بنظاميتها. . ولكنه سرعان ما غادرها ورجع إلى طوس حيث شيّد إلى جنب داره مدرسة للفقهاء ورباطًا للصوفية، ووزّع أوقاته على ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب. . والتدريس وأداء الفرائض حتى انتقلت روحه إلى بارئها سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م وهو يردد: «عليك بالإخلاص»[٥].

هذه صورة تاريخية مصغّرة لنظامية بغداد فى عهد «النظام» تاركين ما قُدِّر لها بعده من ظروف وأحوال لضيق المجال، ومهما قيل عن تعدد المدارس وأنه بنى فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة من الجدير بنا أن نضم إليها ما ثبت لدينا من نظاميات أخر لتتجلى لنا تلك الصورة ناطقة الملامح واضحة السمات، وإن كانت صغيرة الحجم دقيقة الخطوط والقسمات.

---

(١) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٩٧.

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٢١٧.

(٣) نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٠٨.

(٤) نفس المصدر جـ ٤ ص ٧١ - ٧٤.

(٥) المنتظم جـ ١ ص ٥- حوادث سنة ٥٠٦هـ، والخونسارى - روضات الجنات ص ٧١٩، والبداية جـ ١٢/ ١٣٧، وطبقات الشافعية جـ ٤/ ١٠٣.

٢- نظامية نيسابور:

ونيسابور - كما عرفنا من قبل - مدينة آهلة بالسكان، عامرة بالمدارس لذلك اتخذ منها - طغرلبك وألب أرسلان - حاضرة للسلطنة، فهى بعد بغداد عاصمة الخلافة رتبة فى حضارتها وسعتها، لذلك لم يرق - النظام - كرسىّ الوزارة حتى أمر بعودة النازحين منذ عهد «الكندرى» إلى أوطانهم، ولم يصل إمام الحرمين - الجوينى - إلى موطنه نيسابور حتى بنى له مدرسة على غرار نظاميته فى بغداد، ظلت تتبادل معها الأساتذة والطلاب، وتشاطرها الدعاية ونشر العلم والإرشاد مدة طويلة إلى أن انقرضت.

لم تذكر المراجع التى أطلعنا عليها تاريخ إنشاء هذه المدرسة ولكننا إذا عدنا إلى القول المتفق عليه بأن «الجوينى» بقى مدرسًا فيها قريبًا من ثلاثين سنة غير منازع ولا مدافع[١]، مع علمنا أنه قد توفى سنة ٤٧٨هـ يكون عام افتتاحها ما بين سنة ٤٤٨-٤٤٩هـ وهذا ما لا يمكن أن يصحّ لأن «النظام» لم يكن وزيرًا بعد، غير أن المعروف بأنه حينما استوزر طلب إلى المهاجرين أن يعودوا وكان عام استيزاره من تلك المدّة - على التأكيد - كان قد قضاها فى التدريس بالجامع «المنيعى» حينما أقعد فى التدريس مكان أبيه[٢].

واستمر الجوينى - على ذلك - له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الذكر[٣].. وكان يحضر دروسه حوالى ثلثمائة طالب وقيل أربعمائة[٤] من بينهم العلماء وأبناء الصدور، وألّف عدة كتب لتكون مرجعًا سهلاً فى متناول طلابه وغيرهم ومن أشهرها: النهاية فى الفقه والبرهان فى أصوله، والشامل والإرشاد فى أصول الدين، كما ألّف برسم الحضرة النظامية ثلاثة كتب هى: الغياثى والنظامى والرسالة النظامية فقوبلت بما يليق بها من الشكر والخلع

(١، ٢، ٣) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٤٩، وابن الجوزى جـ ٩ ص ١٨- حوادث سنة ٤٧٨هـ.

(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٤١، وابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٢٠- حوادث سنة ٤٧٨هـ.

والهدايا والرسوم[1]. وكان مجتهدًا لا يتقيّد بقول الأشعرى والشافعى[2]. لذلك لم يقابل فى اجتهاده بالرضا والاستحسان فى بعض الأوساط السنّية فأبو الوفاء بن عقيل ـ من معاصريه ـ يقول عنه: «وذكر الجوينى فى بعض كتبه ما خالف به الإجماع إجماع الأمة»[3]، وأبوالفداء ـ بعد ذلك ـ يقول عنه: «وكان إمام الحرمين قد ادّعى الاجتهاد المطلق لأن أركانه حاصلة له ثم عاد إلى اللائق به وتقليد الإمام الشافعى»[4].

وكان من أشهر تلاميذه: أبو نصر القشيرى، ذهب إلى الحجّ بعد تخرجه على إمام الحرمين وعند عودته عقد له المجلس فى نظامية بغداد، وحضرمجلسه الخواص وأحدث وعظه دويّا عنيفًا فى نفوس أنصار الشافعى ومناوئيه اهتزت له أرجاء العراق وأنحاء خراسان، واستمرت المعارك الدامية بين الحنابلة والأشاعرة قرابة خمسة أعوام ـ من سنة ٤٦٩ - ٤٧٥هـ - فاستدعاه «النظام» وجهّزه إلى نيسابور فبقى فيها إلى أن مات سنة ٥٢٤هـ[5].

ومن تلاميذه الحافظ ـ أبو الحسن عبد الغافر ـ النيسابورى صاحب كتاب ـ السياق ـ فى تاريخ نيسابور، ومجمع الغرائب فى غريب الحديث[6].. وأبو سعد بن أبى صالح المؤذن الذى قرأ على أستاذه كتاب «الإرشاد»[7] وأبو القاسم الأنصارى مصنّف ـ شرح الإرشاد ـ وكتاب «الفقيه» وأمين خزانة الكتب

(١) السبكى جـ ٣، ترجمة الجوينى ص ٢٤٩-٢٨٢، وفى الوفيات جـ ٢ ص ٣٤١، ومرآةالجنان جـ ٣ ص ١٢٣ «العقيدة النظامية».

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٣) المنتظم جـ ٩ ص ١٩.

(٤) المختصر فى تاريخ البشر جـ ٢ ص ٢٠٦.

(٥) المنتظم جـ ٨ ص ٣٠٥-٣٠٧، وطبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٥١، ومرآة الجنان جـ ٣ ص ٢١٠، وذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤-٢٨.

(٦) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٥٥، والريفيات جـ ٢ ص ٢٩٢.

(٧) الطبقات جـ ٤ ص ٢٥٤.

النظامية بنيسابور[1].. وأبو محمد البيهقى إمام الجامع المنيعى، وكان لسرعة قلمه أن خطّ كتاب أستاذه - لبيعه أكثرمن عشرين مرّة[2]. ثم أبو نصر بن أبى بكر السراج الذى برع فى الفقه حتى صار من المعيدين فى درس أستاذه - الجوينى[3].

ومما يرشدنا إلى مكانة هذه المدرسة ومنزلتها العلمية أنها كانت تخرج من العلماء من يصلح للتدريس فى نظامية بغداد كالإمام «الغزالى»، و «الطبرى»، و«الكيا الهراسى» فقد تخرّج هؤلاء على «الجوينى» وصاروا من رؤوس المعيدين لدرسه، وألّف ثالثهم: شفاء المسترشدين ونقد مفردات الإمام «أحمد» وكتابًا فى أصول الفقه[4].. وأنها كانت تستقبل الأساتذة الزائرين فتعهد إليهم بإلقاء الدروس وقد زارها من «تفليس» المحدث أبو الفضل محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٢هـ شيخ الصوفيه ومؤلف كتاب «بستان العارفين» حيث قدم نيسابور وأمضى بالنظامية أيامًا[5].

ومن أساتذة هذه المدرسة بعد الجوينى الشيخ أبو سعيد بن أبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٨٤هـ.. كان يعقد مجالس الإملاء عشيات الجمع فى النظامية ويخرّج بنفسه الحديث ويتكلم عن المتون ويستخرج المشكلات ويستنبط المعانى والإشارات ويزينّها بالحكايات والأبيات[6]..

ومنهم أبو المعاطى المعروف بالشهاب الوزير من أسرة «النظام»، حيث تولى التدريس بمدرسة عمه ثم ارتفعت درجته حتى صار وزير السلطان «سنجر بن ملكشاه» إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ[7]. ومنهم أبو المعالى مسعود بن الإمام أبى

---

(١) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٤٣.

(٣) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٤٤.

(٤) المنتظم جـ ٩ ص ١٤٢، ١٤٣، والطبقات، والكامل - حوادث سنة ٥٠٤هـ جـ ١٠ ص٢٠٢، وابن خلكان جـ ٢ ص ٤٤٩.

(٥) الذهبى.

(٦) طبقات السبكى جـ ٣.

(٧) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٥٤.

المظفر الخوافى، تفقّه على إمام الحرمين فى النظامية ثم صار أحد مدرسيها ومات سنة ٥٦٦هـ.

وكان آخر من عرفنا من مدرسى هذه المدرسة - الإمام - أبو المعالى قطب الدين النيسابورى صاحب كتاب - الهادى - درس بنظامية نيسابور نيابة عن - ابن الجوينى - ثم وصل إلى العراق والشام وألقى الدروس فى مدارس دمشق إلى أن توفى سنة ٥٧٨هـ[١].

٣- نظامية أصبهان:

كان لهذه المدينة من إقليم خراسان أهمية كبيرة لاتنحصر فى كونها مركزًا تجاريًا أو علميًا فحسب، وإنما لموقعها الجغرافى المتوسط الذى جعل منها هدفًا للمتنافسين على العرش من آل سلجوق، فلم يثبت لطغرلبك السلطان حتى أغدق عليها الأموال وأنشأ فيها «الدور والمساجد فى حدود خمسمائة ألف دينارخلال اثنى عشر عامًا»[٢]، وبعد أن تسلم - ألب أرسلان - العرش «رسم لابنه ملكشاه - الإقامة فيها وضم إليه إقطاعها حتى يكون كالمطل على فارس وخوزستان والناظر إلى الجبل وأذربيجان، الذاب عن الرى وخراسان»[٣] ولمّا ولى ملكشاه العرش جعل منها عاصمة ملكه وبنى فيها العمائر الفخمة والحدائق الغنّاء وأجرى فيها قنوات المياه، فإذا أمّها المسافر رأى فى مدخلها من الجنائن أربع لا ينقص مساحة إحداها عن ألف جريب منسقة الواجهة، وتبتسم عن أقاحيها تغور نواحيها[٤].

ولزيادة الترفيه عن أهاليها فقد توسط - النظام - للسلطان «ألب أرسلان» بأن يسقط عنهم التوزيعات والعلاوات ويمحى أرسمة التوابع والمحالات، ولا يتجنّى على أحدالعمال والولاة إلاّ بالحق ولا يؤخذ الجانى إلاّ فى جناية ظاهرة بشهادات متضافرة[٥]، وصدر بذلك مرسوم سلطانى علّق على أبواب المساجد

(١) طبقات السبكى جـ ص ٣٠٩، والوفيات ج٤ ص ٢٨٣.
(٢) المافروخى - محاسن أصبهان ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق ص ١٠٢.
(٤) نفس المصدر ص ٥٣.
(٥) نفس المصدر ص ١٠٢.

ليتسامع به البعيد والقريب، وبذلك بلغت أصبهان من العمران والاستقرار درجة تحسدها عليها حواضر الأقاليم وربما عاصمة الخلافة أيضًا.

ولم يكف «النظام» سعيه هذا لرفع مستوى المدينة اقتصاديًا حتى شملت عطاياه طلاب العلم ورواة الحديث وهواة الأدب بحيث لم يبق بها ناظم بيت ولا كاتب كلمة ولا مورد نكتة ولامتقن مسألة ولا حامل محبرة إلاّ أدّر عليه مرسومًا، وأقام له رزقًا معلومًا، أو أقطعه حصة أو ردّ عليه بالملكية مزرعة[1]، وشيّد لهم مدرسة لم تنشأ حتى أخذت تنافس نظامية نيسابور وبغداد بأساتذتها وتلاميذها. وقد وصفها لنا ـ المافروخي ـ فقال: «بأنها ابتنيت بجوار الجامع كأحسن ما رؤى هيئة وهيكلاً ومتعة وعملاً ومحلاً ومنزلاً، وعلى طرفيهامنارة عجيبة الوضع رائعة الأصل والفرع، يصعد ثلاثة أنفس إلى أعلاها فى ثلاث درجات فلا يرى أحد صاحبه إلى أن يعلوها، وقدرت ما انصرف فى نفقاتها والموقوف عليها من الضياع والمستغلات الموسوم ابتياعها للوقف عليها عشرة آلاف دينار»[2].

وكان من أشهر مدرسيها: أبو بكر محمد بن ثابت الخجندى، ولاّه «النظام» تدريس الفقه بها مدّة إلى أن توفى سنة ٤٨٣هـ[3]، ثم درس بها ابنه ـ أبو سعيد أحمد ـ المتوفى سنة ٥٣١هـ[4]،ثم أبو المعالى ـ فخر الدين الوركانى ـ وقد درس بها نيابة عن أولاد الخجندى حتى توفى سنة ٥٥٩هـ[5].

وقد بلغت نظامية أصبهان شأوًا بعيدًا فى السمعة وحسن الصيت فأخذ طلاب العلم يشدّون إليها الرحال بعد وفاة أبى إسحاق الشيرازى ـ عميد نظامية بغداد ـ للتفقّه على يد أستاذها الشهير ـ الخجندى ـ فوفد عليها ـ أحمد ابن سلاّم بن مخلد ـ المعروف بابن الرطبى ثم رجع إلى العراق[6]، وأبو بكر

(١) المافروخى ـ محاسن أصبهان ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.

(٣) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٥٠، ومرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٤.

(٤) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٥٠، والمنتظم جـ ١٠ ص ٦٨.

(٥) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢١٢، وقد ترجم له السمعانى فى التحبير والعماد الكاتب فى الخريدة.

(٦) ابن عساكر – التبيين ص ٣٢٢.

أحمد بن محمد الأرجانى، حيث قضى عنفوان عمره بالمدرسة النظامية بأصبهان إلى أن توفى سنة ٥٤٤هـ، وله ديوان شعر مطبوع[١].

وكانت تسمى ـ الصدرية ـ حسب ما يذكر مؤلف ـ العراضة فى الحكايات السلجوقية وكان من مدرسيها المشهورين ـ محمد بن ثابت الخجندى ـ الشافعى المتوفى سنة ٤٨٣هـ. ويقول المافروخى فى كتابه ـ محاسن ـ أصبهان: «إن «النظام» أنشأ هذه المدرسة قرب المسجد الجامع الذى كان قد أنشأه وكان عظيم الأبهاء وله منارة يرقى إليها ثلاثة أشخاص من ثلاث ممرات». كما ذكرنا أنفًا.

٤- نظامية مرو:

ويطلق عليها أحيانًا ـ مرو الشاهجهان ـ تمييزًا لها عن «مرو الروذ» وقد اشتهرت فى التاريخ الإسلامى بطبيعتها فاتخذ منها الخليفة ـ المأمون ـ العباسى مركزًا لملكه، كما جعلها الملك جغرى بك داود ـ حاضرة لبلاده ثم اختارها حفيده السلطان ـ سنجر بن ملكشاه ـ عاصمة لدولته إلى أن مات بها.

ويصفها لنا ياقوت، عند ما زارها سنة ٦١٣هـ وقضى فيها ثلاث سنوات ويطنب فى وصفها ويثنى على خُلُق أهليها ويدفع عنهم ما قيل من بخل وشح: «ولولا ما عراه من هجوم التتر عليها لما فارقها إلى الممات، لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول[٢]، وقد تركها سنة ٦١٦هـ وفيها عشره خزائن موقوفة لم ير فى الدنيا مثلها كثرة وجودة، كان من جملتها ـ خزانة نظام الملك الحسن بن على بن إسحق ـ فى مدرسته»[٣].

لقد أسّس «النظام» فيها مدرسة ووكّل أمر التدريس فيها لأبى المظفر بن السمعانى «التميمى» بعد دخوله مرو سنة ٤٦٨هـ وانتقاله من مذهب أبى حنيفة الذى ظلّ يدافع عنه ثلاثين سنة إلى المذهب الشافعى، وكان لانتقاله صدى كبير أوقد نار الفتنة بين العراق وخراسان الى أن توفى سنة ٤٨٩هـ..

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ١٠ ص ١٣٩، ووفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٧، وطبقات الشافعية جـ ٤ ص ٥١، وشذرات الذهب جـ ٤ ص ١٣٧.

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٠٩.

(٣) المصدر السابق ـ مادة «مرو».

وكان ممن تفقّه عليه وقام بالتدريس نيابة عنه ـ أبو الفتح أسعد الميهنى ـ ثم طاف حتى وصل غزنة ولاهور ثم قصد العراق ودرس بنظامية بغداد مرتين بعد الخمسمائة[1].

وتفقّه على الأستاذ ـ السمعانى ـ وتلميذه ـ الميهنى ـ كثيرون وبقيت المدرسة مقصد الطلاب والفضلاء من مختلف الأنحاء ينزلون فيها إذا وفدوا على مرو، وممن نزل فيها وسمع عنه الأحاديث «أبو سعيد بن أبى القاسم» البوشنجى المتوفى سنة ٥٣٦هـ[2]، وأبو إسحاق إبراهيم الغزى من شعراء الشام الشهيرين الذى توفى سنة ٥٢٤هـ[3] بعد أن خلّف لنا ديوانًا ضخمًا مازال إلى اليوم مخطوطًا[4].

٥- نظامية عسكر مكْـرَم :

وخوزستان إقليم واسع بين واسط والبصرة وجبال أصبهان[5]، ومن مدنها الشهيرة ـ عسكر مكرم ـ والأهواز وتستر ـ وقد شيّدت هناك مدرسة «للنظام» أشار إليها «ابن الأثير» ـ بنظامية خوزستان[6]، وذكر أحد المترجمين ـ من مدرسيها ـ يوسف الدمشقى ـ والذى نظنّه أن المدرسة كانت فى عسكر مكرم، وكان من أوائل من درس فيها القاضى الأصبهانى ـ أبو الوفاء محمد بن محمد ـ المتوفى سنة ٥٣٧هـ حيث ولىّ القضاء فى هذه المدينة ودرس بنظاميتها[7]، ودرّس فيها كذلك «أبو المحاسن يوسف الدمشقى» حيث كان مدرسًا فى نظامية بغداد ثم بعث رسولاً إلى ـ شملة التركمانى ـ فى خوزستان ودرس فى مدرستها ومات هناك سنة ٥٦٣هـ[8].

(١) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢١ ـ ٢٦.
(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٢٠٣، والمنتظم وابن خلكان، ومعجم البلدان، وتاريخ كزيدة.
(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٢٠٦.
(٤) العماد الأصبهانى ـ الخريدة جـ ١ ص ٣٢.
(٥) مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٤٩٠.
(٦) محمد عبد الرزاق ـ كتاب نظام الملك ص ٦٦٨.
(٧) الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٤٤.
(٨) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢٦.

٦- نظامية البصرة:

وهى مدينة للعلم اشتهرت بمدرستها فى النحو لذلك وقف «ابن بطوطة» أمام خطيبها عام ٧٢٦هـ ينظر إليه بعين الاستغراب والاستهجان وهو يلحن بعد أن أخليت من النحاة[١].

ونظامية البصرة ـ كما يظهر ـ من رواية ـ هندوشاه ـ وغيره كانت أوسع من نظامية بغداد[٢]، وكانت ملتصقة بضريح «الزبير بن العوام» وبقيت تحتفظ بمكانتها وإقبال الدارسين عليها إلى أواخر عهد الخليفة «المستعصم بالله»، حيث تهدمت ونقلت أنقاضها إلى البصرة. ولكنّا لانعرف متى بنيت ومن هم أشهر مدرسيها وتلاميذها على وجه التأكيد سوى ـ أبى الفضل الأنبارى ـ من أعيان تلاميذ الإمام الشيرازى وصهر فخر الإسلام أبى بكر الشاشى، ولىّ القضاء فى البصرة والتدريس بنظاميتها إلى أن توفى سنة ٥٠٣هـ[٣].

٧- نظامية الموصل:

وكان «للنظام» فى شمال العراق مدرسة كما كان له فى جنوبه. . وقد اختار لها مدينة «الموصل» البلد الإسلامى الواقع على شاطئ دجلة وأشهر مدن ـ جزيرة ابن عمر ـ ولا نستطيع أن نحدّد زمن تأسيسها ولا فى أى وقت كان انقراضها، وهل هى نظامية جزيرة ابن عمر نفسها أو غيرها؟، وكل ما نستطيع أن نتأكد منه: أنها كانت فى الفترة بين أواخر القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس حيث توفى آخر من نعرفه من أساتذتها عام ٥٩٨هـ. .

ومن الغريب أن «ابن جبير» لم يذكر لنا شيئًا عنها حينما زار الموصل سنة ٥٨٠هـ على الرغم من أنه شاهد من المدارس نحو الست أو أزيد على دجلة وقال عنها: «إنها تلوح كأنها القصور المشرقة»[٤]. ولم يبق لنا من هذه المدارس

---

(١) ابن بطوطة – الرحلة .

(٢) تجارب السلف ، وروضة الصفا.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٩٦.

(٤) ابن جبير ـ الرحلة ص ١٨٠ .

القديمة سوى مدرسة ـ الطغرائى ـ محتفظة باسمها القديم، فليس غريبًا بعد هذا أن وجدنا «ابن بطوطة» لم يشر إليها بشىء عندما مرّ بالموصل سنة ٧٢٦هـ، مع أنه وصف مساجدها وحماماتها وخاناتها وأسواقها كسابقه[١].

والذى نميل إليه أنها هى التى عناها ـ ياقوت ـ بنظامية الجزيرة[٢]، وهى التى وصفها صاحب «الروضتين» بأنها مدرسة كبيرة حسنة، وأطلق عليها اسم مدرسة «الرضى»[٣] نسبة إلى لقب مؤسسها «نظام الملك» رضى أمير المؤمنين حيث لم نجد فى كتب السِيَرْالمعروفة لدينا غيرها بهذا الاسم أو عيَنْ المدينة التى بنيت فيها، على أن أحد مؤرخى آثار العراق المحدثين قد حدّد موقعها فى مقام ـ الإمام على الأصغر المعروف بمقام أبى على أو ابن محمد بن الحنفية ـ الذى يعرف بمشهد «يحيى بن القسم» الذى اتخذه بدر الدين لؤلؤ ـ فى هذه المدرسة التى بناها «النظام» على دجلة[٤]، فهو يقابل الجامع النورى، يفصل بينهما شارع، ولم يبق من آثارها إلاّ محراب نفيس من المرمر الأزرق المطعّم بمرمر أبيض وحوله مكتوب بخط كوفى البسملة وإنما يعمر مساجد الله[٥].

أمّا الأساتذة الذين وردتنا أسماؤهم فإن أول من عرفناه منهم: الشهرزورى أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله الموصلى، ولى القضاء بالموصل ودرس بمدرسة أبيه وبالمدرسة النظامية إلى أن توفى سنة ٥٨٦هـ وعمره ٦٢سنة[٦]، ثم ـ الدُّنبلى ـ أبو العباس أحمد بن نصر الأنبارى ـ درس بالنظامية العتيقة بالموصل ولم يزل يدرس ويفتى إلى أن توفى سنة ٥٩٨هـ[٧]. ولعلّ

---

(١) ابن بطوطة ص ٢١٣، ٢١٤.

(٢) معجم البلدان ـ مادة «جزيرة ابن عمر».

(٣)الروضتين ص ٢٥٨.

(٤)العمرى – ياسين بن خيرالله، منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء ص١٠٣، والهامش للناشر سعيد ديْوجى.

(٥) سعيد الديوجى – تاريخ الموصل جـ ١ / ١٣٤٤.

(٦) طبقات السبكى جـ ٤ ص ١٠٠، وابن خلكان جـ ٣ ص ٣٧٩.

(٧) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٥٧.

أول من درس بها القاضى أبو بكر محمد بن على الخالدى المعروف بالسديد، قاضى الموصل[١].

٨ـ نظامية هراة:

وهراة ثغر على الحدود الشمالية «لأفغانستان»، ومن أمهات المدن فى إقليم «خراسان»[٢] وكانت من مراكز العلم ومتعصبى المتكلمين فى القرن الخامس الهجرى، ففى سنة ٤٧٨هـ حدثت بين أنصار الشافعى وأحد المتكلمين فتنة، وهجم المتعصبون على أبى سعد مدرس النظامية، وكان يقود حملة الحنابلة أبو عبد الله الأنصارى الهروى صاحب كتاب: منازل السائرين، والمناجاة، والنصيحة النظامية، فبعث «النظام» لإبعاده عن هراة حتى خبت الفتنة وأعيد سنة ٤٨٠هـ وبقى فيها إلى أن توفى سنة ٤٨٣هـ[٣].

فكان لابد «للنظام» من أن يؤسّس فى مثل هذه المدينة مدرسة لأصحاب الشافعى وما أن تمّت حتى استدعى لها ـ أبو بكر الشاشى محمد بن على ـ من مشاهير العلماء بغزنة وصاحب التصانيف الكثيرة، فصعب على أهلها مفارقته لهم، ولكنهم لم يجدوا بدًّا من امتثال أمر الوزير فجهزوه بعائلته إلى هراة فدرّس بنظاميتها إلى أن مات سنة ٤٨٥هـ وقيل سنة ٤٩٥هـ[٤].

ومن أساتذتها أيضًا ـ أبو سعيد محيى الدين النيسابورى ـ صنّف كتاب المحيط فى شرح الوسيط ـ والانتصاف فى مسائل الخلاف، كان مدرسًا بنظامية نيسابور ثم نقل إلى نظامية هراة، وبقى على تدريسها حتى استشهد على يد الغز سنة ٥٤٨هـ[٥].

---

(١) الديوجى – تاريخ الموصل جـ ١ / ٣٤٤، عن رحلة ابن جبير/ ١٨٠.

(٢) مراصد الاطلاع ـ مادة هراة.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ١٥، ١٦، وابن رجب البغدادى ـ ذيل طبقات الحنابلة ص ٦٦ ـ ٧١.

(٤) الذهبى ـ سيّر أعلام النبلاء مجلد ١١ ص ٥٣٤، والطبقات جـ ٣ ص ٧٩.

(٥) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٣ ص ٣٥٩- مرآة الجنان جـ ٣ ص ٢٩٠- الكنى والألقاب جـ ٢ ص ١٣٨.

٩- نظامية بلخ:

وهى من أجمل المدن فى خراسان ذكرًا، وأكثرها خيرًا[١] يوم كانت بلاد ما وراء النهر جزءًا منها. وقد عُنى بها السلاجقة فعمروها وبنوا فيها المساجد وشيّدوا فيها القصور، وأسّس فيها «النظام» مدرسة عهد بالتدريس فيها لأبى القاسم[٢] عبد اللّه بن طاهر، وكان إمامًا فى الفروع والخلاف والأصول. توفى سنة ٤٨٨هـ وكان معيدًا فيها ـ أبو حفص عمر بن أحمد البلخى ـ المتوفى سنة ٥٢٦هـ[٣]. ثم أبو القاسم عبد الله بن عمر بن الطريف ـ من أهل بلخ ومدرس النظامية بها[٤].

١٠- نظامية آمُلْ:

وطبرستان بلاد واسعة تشمل مدنًا كثيرة، وتسمى بـ «مازَنْدران» أيضًا[٥]، وقد أورد لنا «السبكى» فى طبقاته اسما لشخصين درّس أحدهما وهو «أبو المحاسن الرويانى» بنظامية طبرستان، وصنّف كتاب ـ البحر ـ فى الفقه، وكان «النظام» كثير التعظيم له، ثم انتقل الى «آمل»، وأقام فيها حتى قتل سنة ٥٠٢هـ[٦]. وثانيهما سبطه وهو ـ أبو الفوارس هبة اللّه بن سعد ـ من أهل «آمل» طبرستان، وكان يدرّس بالنظامية التى بآمل إلى أن توفى سنة ٥٤٧هـ[٧]. والظاهر أنهما مدرسة واحدة وردت باسمين فظنها بعضهم مدرستين.

---

(١) مراصد الاطلاع ـ مادة بلخ.

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٠٤.

(٣) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٨٥.

(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٣٥.

(٥) مراصد الاطلاع – مادة طبرستان.

(٦) هو عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد، اشتهر بالحفظ حتى روى عنه أنه قال «لو احترقت كتب الشافعى لأمليتها من حفظى» ذكره ابن السمعانى فى الذيل والجرجانى والعماد- طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٦٥.

(٧) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٣٢١.

١١- نظامية طوس:

لم نجد بين المؤرخين وكتّاب السير الذين قرأنا لهم مَنْ ذكر هذه المدرسة أو أشار إلى مدرسيها عدا مؤلف - صور الأقاليم - عند حديثه عن خراسان والذى يظهر من روايته أن «النظام» بنى فى طوس مدرسة صغيرة قبل نظامية بغداد[١]، إلاّ أننا لا نجد غرابة فى هذا إن صحت الرواية فإن طوس مهبط رأس «النظام» ومقرّ دراسته فى الصبا، ثم هى المدينة التى أقطعها له السلطان ملكشاه تقديراً لجليل خدماته للدولة، فأصبحت بذلك من ممتلكاته فضلاً عن أنها من أحبّ المدن إلى نفسه.

ولم تزل - طوس - حتى اليوم تحتفظ بمكانتها العلمية ومكتبتها الغنيّة بنوادر المخطوطات القديمة.



(١) محمد عبد الرزاق - «نظام الملك» ص ٦٧١ عن صور الأقاليم فى تاريخ خراسان.

المكتبات النظامية
(المدرسيّة والخاصة)

لم يكن الحصول على الكتب مهما صغر حجمها، وتضاءل موضوعها بالأمر الهيِّن اليسير آنذاك، ولولا كثرة المحترفين للنسخ وتفرّغهم لبلغت أثمانها أضعاف ما وصلت إليه، واستحال على الباحثين ـ وجلّهم إن لم يكونوا كلهم من الفقراء ـ اقتناؤها. وإنَّ ما بقى من تراث مخطوط يملأ رفوف المكتبات فى عواصم الغرب والشرق على الرغم من الأحداث التى عفت على أكثره يدلنا على غزارة ذلك التراث وضخامته، كما أن ماذكره لنا صاحب ـ المكافأة ـ من أن ثمن النسخة المجلدة من كتاب «المجسطى» لبطليموس القلوذى ـ عشرون ديناراً[1]، إنما هو مبلغ باهظ فى ذلك الوقت ويصعب على الطالب صرفه من أجل كتاب واحد.

لذلك.. ومن أجل نشر العلم وغيره من أسباب، فكّر الموسرون من العلماء ورجال الحكم فى تأسيس دور جمعوا في غرفها مختلف المخطوطات فى تلك العصور مما يهّم المتعلم والمعلّم معًا حتى كانت الدور التى أطلق عليها اسم دار الحكمة ـ حينًا ـ ودار العلم ـ أحيانًا ـ إنما هى دور للكتب فى الواقع وليست مدارس للتعليم بالمعنى الدقيق.. وكانت الخزائن التابعة للمدارس النظامية واحدة منها وإن لم تكن أولاها.

لم يقدر للخزانة النظامية الأولية فى ميلادها حيث سبقتها أخرى تضم مئات الكتب فى العلوم المختلفة.. وإن تاريخ الخزائن هذه يسبق المدارس بمعناها الذى

---

(١) ابن الداية ـ المكافأة حسن العقبى ص ١٤١.

استحدث فى عهد «النظام» بقرون طوال، فقد حفلت عواصم الممالك فى العراق ومصر والأندلس وفارس بمكتبات تضم بين جدرانها آلاف المجلدات فى أنواع المعارف والفنون.

وكانت خزائن الكتب هذه انتشرت فى المناطق التى أسّس «النظام» فيها مدارسه ومكتباته قبيل ظهوره، وكان من أهمها وأشهرها خزانة الكتب لأبى القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الشافعى الموصلى[1] المتوفى سنة ٣٢٣هـ ودار الكتب فى البصرة لأبى منصور عبد الله بن محمد المعروف بابن شاه مروان الوزير[2]، وأخرى لأبى على بن سوار الكاتب من رجال عضد الدولة والتى قال عنها ابن الجوزى حينما احترقت عام ٤٨٣هـ إنها أول دار كتب عملت فى الإسلام[3]، ثم دار العلم التى أنشأها فى محلة الكرخ فى الجانب الغربى ببغداد سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٤١٦هـ وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهى، التى كانت تحوى عشرة آلاف كتاب وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم، وفيها مائة مصحف بخطوط ابن مقلة[4] والتى كان من روّادها: أبو منصور محمد بن إسحاق الكاتب، وأبو منصور محمد بن أحمد الخازن ثم الشريف المرتضى، وأبو العلاء المعرّى الذى قال فيها بيتين من الشعر أثارهما سجع حمامة كانت تنوح على غصن شجرة فى تلك الدار:

وغنّت لنا فى دار سابور قينة ... من الورق مطرابُ الأصائل ميهال

رأت زهرًا غضًا فهاجت بمزهر ... مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

وبلغت شهرتها مصر فشيّدوا على غرارها دار الحكمة فى عهد الحاكم بأمر

---

(١) ياقوت - معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٩٧.

(٢) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ١٢٢، وكشف الظنون ص ٦٢٢.

(٣) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ١٣٢- ابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٥٣- حوادث سنة ٤٨٣هـ.

(٤) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٧ ص ١٧٢، وياقوت - معجم البلدان - بين السورين جـ ١ ص ٢٤٢، وابن خلكان - الوفيات جـ ١ ص ٢١٧، ومختصر مناقب بغداد ص ٢٨، والكامل جـ ١٠ ص ٥- حوادث سنة ٣٨٣هـ.

الله سنة ٤٠٠هـ[١] وفى أثناء ثورة البساسيرى وعودة طغرلبك لحربه (ما بين سنة ٤٥٠-٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) كـادت تلتهمها ـ أى دار سابور ـ ألسنة النيران، ونهب العامة بعض كتبها فأبعدهم «الكندرى» واختار لنفسه خير ما بقى منها فنسب صنيعه إلى سوء سيرته[٢].

ومثل هذه الدور فى العراق كانت دور للعلم منتشرة فى فارس من أهمها: دار أبى منصور بهرام بن مافتة الكازرونى ـ وزير ـ أبى كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة المتوفى سنة ٤٢٣هـ، وقد أنشأها فى فيروز آباد وجمع فيها تسعة عشر ألف مجلد منها أربعة آلاف ورقة بخط ابن مقلة[٣]. ثم خزانة الكتب التى نقلها عضد الدولة[٤]، والتى أنشأها ـ أبو جعفر المهلبى ـ فى همدان وكانت تحتوى على اثنى عشر ألف كتاب، وفى بخارى بنى السامانيون دارًا جمعوا فيها من كتب علوم الأوائل فى الفلسفة والفقه والعربية الشىء الكثير[٥]. وفى غزنة علمنا من قبل كيف شيّد السلطان محمود جامعًا وبجواره مدرسة ومكتبة.

وعلى غرار هذه الدور وبنفس الدافع الذى حمل «النظام» على تأسيس مدارسه ألحَقَ بكل واحدة منها مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادر المؤلفات فى العلم والأدب، وقد نمت هذه المكتبات وبخاصة المكتبة التابعة لنظامية بغداد حتى بلغت بعد قرن من وفاة «النظام» ستة آلاف مجلد كما أخبرنا ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) عندما نظر فى ثبت الكتب الموقوفة[٦] فقط،

---

(١) ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٢.

(٢) الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ١٧- ابن الجوزى- حوادث سنة ٤٥١هـ جـ ٨ ص ٢٠٥-٢١٦، والبداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٩.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٦٥-١١١.

(٤) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ١٣٣، ٤٤٨.

(٥) ابن سينا ـ نكت فى أحوال الشيخ ابن سينا ص ١٥.

(٦) ابن الجوزى ـ صيد الخاطر ص ٣٦٦- كوركيس عوّاد ـ خزان الكتب القديمة فى العراق.

وكانت مثلها مكتبة النظامية بنيسابور وأصبهان ومرو... فقد زار ياقوت الحموى هذه المدينة الأخيرة عام ٦١٣-٦١٤هـ ووصف خزائنها العشر ومنها الخزانة النظامية وما أفاده من ذخائرها فى تأليف كتبه ولا سيما ـ معجم البلدان، بحيث أنسته كل بلد، وألهته عن الأهل والولد ـ وكثيراً ما كان يترنم بقول بعض الأعراب(١):

أقمرية الوادى التى خان إلفها من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرو الشاهجان غريب

وقد ظفرت هذه الخزائن بطرائف المخطوطات وأثمن المؤلفات، لعلّ من المفيد أن أشير إلى بعض ما اطلعت عليه خلال دراستى هذه فإن معظمها مازال مفقوداً حتى اليوم، ولأن طراز نسخها وموضوعاتها تلقى لنا ضوءاً على لون الدراسات ونوع الكتب التى كانوا يعنون بها حينذاك.

فمن أوائل تلك الطرائف الغالية التى احتوت عليها خزانة نظامية بغداد كتاب ـ المحيط ـ فى تفسير القرآن تأليف القاضى ـ عبد الجبار الهمذانى ـ فى مائة مجلد، وقد اعتمد فيه على كتاب «المختزن» الذى ألّفه ـ أبو الحسن الأشعرى ـ فى خمسمائة مجلد.. روى لنا هذا الخبر ـ القاضى أبو بكر بن العربى فى عواصمه ـ وأنه قرأ الأول فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام(٢)، وقد ورد ذكر هذا الجزء فى كتاب ـ العصا ـ لابن منقذ ـ نقلاً عن والده أنه كان فى زيارة لأبى يوسف ببغداد، وكان قد بلغ من العمر عتيّا ونسى كثيراً مما كان يذكره قال: فلمّا عرفنى بعد السؤال استخبرنى عن طريقى فعرّفته توجهى إلى دركاه السلطان ـ يقصد ملكشاه ـ فقال: «تبلغ خواجا بزرك نظام الدين (يعنى نظام الملك) سلامى وتعرّفه أن الجزء الأول من التفسير الذى جمعته قد ضاع وهو تفسير ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ واسأله أن يأمر باستنساخه من النسخة التى فى خزانته وينفذه لى...» إلى أن يقول: «وكان

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٠٩.

(٢) وذكر المقريزى أنه فى سبعين مجلداً، ويقول التاج بن السبكى إنه اطلع على مجلدته ـ (ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٩).

قد جمع تفسير القرآن فى مائة مجلد»[1]. وحكى أن الصاحب بن عباد بذل فيه عشرة آلاف دينار للخازن فى دار الخلافة وألقيت النار فى الخزانة فاحترقت النسخة الوحيدة بين تلك الكتب[2]. وقد يكون هذا من مختلقات أبى حيان التوحيدى على الصاحب وإن عوّل عليه فى العواصم[3]. ومما يرفض هذا الاختلاق وجود نسخة أخرى منه فى خزانة النظام بأصبهان وليست هى النسخة الوحيدة كما زعم.

وثانى المؤلفات الثمينة ما ذكره المؤرخون فى ترجمة ـ عبد السلام بن بندار المعتزلى المتوفى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) قيل إنه قدم بغداد عقب عودته من مصر ومعه عشرة أحمال كتب وأكثرها بالخطوط المنسوبة، وقيل إنه ابتاعها بالخبز وقت شدة الغلاء، كما قيل إنه كان يحضر بيع كتب السيرافى فيشترى منها كل أسبوع بمائة دينار[4].

ولكن أسامة بن منقذ ـ وهو ممن ولد بعد وفاة «النظام» بثلاثة أعوام يخبرنا نقلاً عن أبيه ـ وكانت له صلة بأبى يوسف القزوينى أوجبت زيارته له بأصبهان أنه عندما سافر إلى مصر فى أيام الحاكم بأمر اللّه أحسن إليه وأكرمه ووصله بصلات سنيّة، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتبًا يقترحها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب، ثمّ ركب مركبًا وتلك الكتب معه يريد بلاد الإسلام التى فى الساحل[5].

ولعل الكتب التى أهداها ـ ابن بندار ـ إلى «النظام» كانت من جملة ما اختاره من خزانة دار خلافة الحاكم بأمر الله.. وهى أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها،

(١) أسامة بن منقذ ـ العصا ص ١٨٢، المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات (نشر عبد السلام هارون).

(٢) أبو بكر المعافرى ـ العواصم من القواصم جـ ١ ص ٧٥.

(٣) ابن عساكر ـ التبيين ص ١٣٦.

(٤) الذهبى ـ تاريخ الإسلام م ١٢ ورقة ١٧، وسير أعلام النبلاء م ١١ ص ٥٦٢.

(٥) أسامة بن منقذ ـ العصا ص ١٨١ من المجموعة الثانية- نوادر المخطوطات (نشر عبد السلام هارون ص ٣٧٦).

منها: غريب الحديث لإبراهيم الحربى بخط أبى عمر بن حيويه فى عشر مجلدات فوقّفه «النظام» بدار الكتب ببغداد، ومنها شعر الكميت بن زيد بخط أبى منصور فى ثلاثة عشر مجلدًا، ومنها عهد القاضى عبد الجبار بخط الصاحب بن عباد وإنشائه يصفه بأنه فى سبعمائة سطر كل سطر فى ورقة سمرقندى وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة، والرابع مصحف بخط منسوب وبين أسطره القرآن بالحمرة وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزرقة وكتب بالذهب علامة على الآيات التى تصلح للانتزاعات فى العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب فى التعازى والتهانى[1].

وما أراد «النظام» أن يتقبل هذه الهدية السنية دون مقابل فأعطاه ثلثمائة دينار.. وهى لاشك قليلة بالنسبة إليها لذلك سمعنا ابن بندار يقول لمن سأله عن ذلك: «لقد أعطيت أكثر ما أعطانى ولكن رضيت منه بالإكرام وعذرته حين قال: ليس عندى حلال لا شبهة فيه سوى هذا القدر»[2].

خازنوها ونوادر المخطوطات فيها:

ولأجل المحافظة عليها وتنظيم فهارسها فقد رتّب لها خزنة وموظفين وكان الخازن بمنزلة أمين المكتبة يتقاضى راتبًا قدره عشرة دنانير[3] وقد رفعها «النظام» إلى خمسة عشر دينارًا فى مناسبة خاصة[4]، وممن عاصره منهم:

١- القاضى أبو يوسف يعقوب بن سليمان الإسفرايينى[5] المتوفى سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م).

٢- يحيى بن علىّ أبو زكريا بن الخطيب التبريزى[6] المتوفى سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م).

---

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٢٣.

(٢) الذهبى ـ تاريخ الإسلام م ١٢ ورقة ١٧.

(٣) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ٣٣٤.

(٤) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣٢٧.

(٥) ياقوت ـ معجم الأدباء جـ ٦ ص ٣٤٣.

(٦) المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٨٦، وبغية الدعاة ص ٤١٤.

٣- محمد بن أحمد الأبيوردى[١] المتوفى سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م).

أمّا المدرسة النظامية بنيسابور فقد حظيت خزانتها بديوان ـ أبى على الكافى العُمّانى ـ وأبى المظفر ناصر بن محمد ـ وقد ظفر الباخرزى بالأول وكان على جناح سفره فلم يتمكن من احتلاب دَرِّه، ولم يتوصل إلى اجتلاب دُرِّه[٢]، كما عثر على الثانى والتقط منه أبياتًا أحيى بها مواته، ونشر رفاته[٣].

ثمّ كتاب الحيوان بالفارسية للفقيه الحكيم أبى عبيد عبد الواحد الجوزجانى من خواص تلاميذ ـ أبى على بن سينا ـ وندمائه شارح رسالة حى بن يقظان ومفسّر مشكلات القانون[٤].. ثمّ كتاب «المفارقات وإعداد العقول والأفلاك وترتيب المبدعات لأبى عبد اللّه المعصومى الحكيم» من أفضل تلامذة ابن سينا، وهو الذى صنّف ـ أبو على ـ باسمه كتابه فى ـ العشق ـ يقول عنه البيهقى: «وكان فى الخزانة النظامية بنيسابور نسخة من كتاب ـ المفارقات ـ فأخذها ـ جمال الملك بن «نظام الملك» ـ ولا ندرى أطارت بها العنقاء أم أدركها الفناء؟»[٥].

وأمّا خزانة الكتب النظامية فى أصبهان فقد احتفظت ـ بكتاب معارضة الحماسة ـ لأبى الفضل الأصبهانى الذى عارض فيه كل بيت منها ببيت من قوله[٦].

الخزانة النظامية الخاصة:

تلك هى إشارة عابرة عن المكتبات النظامية العامة وما قام به «النظام» من فضل فى سبيل نشرها وفتح أبوابها للقاصدين من العلماء والوافدين من

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٤٣.
(٢) الباخرزى ـ الدمية ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(٤) البيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص ٩٣.
(٥) المصدر السابق ص ٩٥، ٩٦.
(٦) القفطى ـ أخبار العلماء والحكماء ص ٣٢٨.

الطلاّب. . أمّا الخزانات الخاصة فقلّما يخلو منها بيت عالم ثرى، وقد اشتهر منها في المائة الخامسة: خزانة الشريف الرضى، وأخيه المرتضى، والخطيب البغدادى، وغرس النعمة الصابى، وابن جزلة البغدادى وغيرها[1].

وكان «للنظام» ـ وقد اجتمع لديه العلم والثراء ـ مكتبة خاصة قال عنها ـ الباخرزى ـ: «إنها غاية فى القيمة»، وكان يصرف مكافأة لمن يسافر إليها من الطلاّب[2]، وكان قد جمعها عن طريق الإهداء والشراء وتآليف العلماء التى صنّفت باسمه. . وقد يكون من النافع جدّا أن نلمح لبعضها على سبيل المثال، لتتجلى لنا صفحة أخرى من سيرة «النظام» بالنسبة لصلة علماء العصر به وموقفه منهم.

فمن أقدم ما عرفناه من مؤلفات باسم «النظام» كتاب ـ التبصيرفى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرقة الهالكين ـ للشيخ الإمام/ أبى المظفر طاهر بن محمد الاسفراينى المتوفى سنة ٤٧١هـ[3]، وكان أصوليّا فقيهًا سافر فى طلب العلم وارتبطه «نظام الملك» بطوس[4].

ولنستمع إلى المؤلف نفسه فى المقدمة فهو يقول: «لمّا كان الشيخ الأجلّ الوزير (أبو على الحسن بن على بن إسحق) قد خصّه اللّه بجلائل نعمه وفضائل قسمه. . قائمًا بنصرة أهل الدين، سيفًا مصلتًا على أهل الزيغ والمبتدعين. . ناظرًا لأهل الدين ومناهجهم وأهل الدنيا ومصالحهم. . ولمّا كان بابه الرفيع مصطفق الرفاق، وملتقى الرجال من كل أدب فى الآفاق، وكان فيهم الأصناف المختلفة، والأجناس المتباينة وكان بلطيف نظره يتأمل عقولهم

(١) انظر: فى ذلك تراجمهم فى معجم الأدباء لياقوت، وكتاب: خزائن الكتب القديمة فى العراق لكوركيس عوّاد.

(٢) الباخرزى ـ دمية القصر ص ٧.

(٣) وفى كشف الظنون لحاجى خليفة جـ٢ ص ٢٣٩: شفهور بن طاهر الشافعى.

(٤) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٧٦- السبكى جـ ٣ ص ١٧٥.

وأحوالهم ليرفع من كان فى دينه رفيقًا، ويضع من كان فى طريقه وضيعًا، جمعت لشريف خزانته كتابًا، فارقًا بين الفريقين جامعًا بين وصفى الحق وخاصيته والإرشاد إلى حججه، ووصف الباطل وحدّ شبهه»[1]. .

وثانى ما عرفناه من الكتب التى ألّفت باسمه مجموعة تحتوى على ثلاث رسائل هى: الغياثى والنظامى والعقيدة النظامية - صنّفها الإمام - أبو المعالى الجوينى - أستاذ نظامية نيسابور وعميدها، وعنوّنها بألقاب الوزير غياث الدولة ونظام الملك وعقيدته، فلقيت من المهدى إليه كل رعاية وشكر وتشجيع وقوبلت بالخلع والهدايا والرسوم[2].

هكذا وردتنا بأسماء ثلاثة كما ذكرها معظم الذين ترجموا لأبى المعالى الجوينى. . غير أنا بعد مراجعة الفهارس والكشوف لأمهات المكتبات لم نظفر بمن يتعرض لوصف الكتاب الثانى، أو نعثر على ما ينبئنا بموضوعه - النظامى - أو عن أى شيء يتصل به، لذلك أصبح من المحتمل أن يكون الكتاب قد ضاع كغيره من آلاف الكتب التى فقدت وبقيت أسماؤها أو أن الكتاب هو نفسه الذى أطلق عليه - العقيدة النظامية.

ليس من اليسير الجزم بأحد الاحتمالين ولكن المنطق يميل بنا إلى الثانى، إذ ليس من المعقول أن يؤلّف كتاب باسم النظامى وآخر باسم العقيدة النظامية عدا فقدانه وعدم وجود تفصيل عنه. . أمّا الكتابان الآخران فقد قرأنا عن أولهما باسم - غياث الأمم والتيات الظُلَمَ - فى الإمامة وهو كتاب صنّفه - الجوينى - للوزير غياث الدين «نظام الملك» وسمّاه الغياثى، سلك فيه غالبًا مسلك الأحكام السلطانية[3]. . «ولم يزل مهملاً فى زوايا الظُلم قابعًا فى مطاوى النسيان، ما أحوج المكتبة العربية لإخراجه إلى عالم النور، والإفادة منه فى موضوع الإدارة والنظُم بعد أن صانته الأقدار من التمزيق وحفظته الصدف من الضياع».

---

(١) التبصير فى الدين ٣، ٤.

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٤٩ - ٢٨٢.

(٣) حاجى خليفة - كشف الظنون جـ ٢ تحت رقم ٤٠ سياسة واجتماع، وعدد أوراقه ثمانون.

وكان ثانيهما خيراً من سابقه حظّا، فقد خصّ بعناية أحد الباحثين المحدثين ونشره معتمداً على مخطوطة واحدة[1]، فخرج إلى دنيا المتعلمين، ولكنه - مع الأسف - كثير التصحيف والأغلاط فضلاً عن أنه يحوى القسم الأول الخاص بالعقيدة، وأصول الدين من الكتاب فقط دون تكملته فى التشريع وأركان الإسلام.

وكان الجوينى فى رسالته يريد - كما تنص مقدمتها - أن تنوب عنه فى تمهيد معاذيره وتشعر ببذله المجهود فى الخدمة وتشهيره.. ومهرها أن تقع من السدة السامية موقع القبول ومتضمنها عقائل العقول.. وقد صدّرها بقواعد عن العقائد على أساليب لم يسبق إليها، ثم أتبعها بما لا يسوغ الذهول عنه من أركان الإسلام وسمّاها - النظامية فى الأركان الإسلامية[2].

وآخر ما عرفناه من الكتب التى وضعت باسمه هو كتاب دستور اللغة - لمؤلفه بديع الزمان تظنزى المتوفى سنة ٤٩٧هـ، وقال المؤلف على هامش المقدمة بخطه: حرّرها الشيخ الأديب ذو اللسانين أسعده الله فى الدارين للمجلس الشريف النظامى لازال قصر عمره عامراً... إلخ[3]. ولكن بعض الفهارس تذكر أنه ألّفه لمجلس الأجلّ جمال الملك النظامى... إلخ[4]. ولعلّ هذا من خطأ الطبع ولو كان صواباً لأتى فى مقدمته بما يوضح هذا اللبس.

أثر النظاميات في المدارس الأخرى:

وبعد فقد وفّق «النظام» توفيقًا قلّ نظيره فى التاريخ السياسي والعلمى والدينى جميعًا، فقد عاشت مدارسه أمدًا طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى

(١) العقيدة النظامية - الجوينى- تصحيح وتعليق: محمد زاهد الكوثرى ط مصر/ ٩٤٨.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٨.

(٣) ويسمى باسم كتاب «الخلاص»، وأيضًا ذكره كشف الظنون والسمعانى فى الأنساب، ومعجم البلدان - عدد أوراقه ١٦٨ تحت رقم ٧٠٣٩، فهرس كتبخانة مجلس.

(٤) هو أبو عبد الله حسين بن إبراهيم؛ وله كتاب المرقاة فى اللغة الفارسية، وذكره السيوطى فى البغية. فهرست كتابخانة- سپهسالار جـ ٢ ص ١٧٩.

طاولت الزمن زهاء أربعة قرون[1]، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس - الفيروز آبادى - المتوفى سنة ٨١٧هـ، حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجرى[2]. وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السنّى الشافعى دين الدولة الرسمى يومذاك ومذهب الخلفاء منذ عهد الخليفة - القادر بالله - فى الثلث الأول من القرن الخامس، وإن كان الخلفاء أحنافًا فى أغلب الأحيان ومالكية فى بعضها[3]. وزوّدت الجهاز الحكومى بالموظفين ردحًا من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستيفاء وهى من أهم وظائف الدولة فى ذلك العصر، وانتشر هؤلاء فى العالم الإسلامى حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا شمال أفريقيا وأسّسوا دولة الموحدين التى كان لها أثرها فى تاريخ المغرب العربى فى القرن السادس الهجرى[4].

وكان من مظاهر توفيق «النظام» فى مشروعه العلمى الجديد أيضًا أن صارت مدارسه معاهد للبحث العلمى النظرى ومركزًا لتتبعات الباحثين فى مختلف الثقافات الوافدة والأصيلة، وظهرت ثمارها فى المؤلفات العلمية والدواوين الشعرية باللغتين الفارسية والعربية، التى رأينا قسمًا ضئيلاً منها ونحن نستطرد الحديث من الناحية العلمية والمدارس النظامية.

وكان من أهم ظواهر التوفيق أن صارت النظاميات مدعاة لبناء المدارس، ومثارًا للتنافس بقدر ما أصبحت نموذجًا يقتديه مؤسسو المعاهد منذ بداية تشييدها إلى ما بعد ذلك بعصور طويلة، ولعلّ أول تلك المدارس التى اتخذت من النظامية حافزًا ومنافسًا لها وشيّدت على غرارها هى مدرسة أبى سعيد المستوفى بباب الطاق فقد دخل مؤسسها بغداد عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م وشهد نواب «النظام» يبنون له مدرسة ولم يغب عليه مدى تحمسّه لمذهب الشافعى بينما كان

(١) نظامية بغداد.

(٢) ابن العماد - شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٥١.

(٣) المنتظم جـ ٨ ص ١٠٩، ١٤٩، ٢٠٧.

(٤) السبكى - ترجمة عبد الله بن تومرت جـ ٤ ص ٧١ - ٧٤.

هو متعصبًا لأصحاب أبى حنيفة فبنى لهم مدرسة باب الطاق إزاء قبر «أبى حنيفة» وألحق بها خزانة للكتب وكان ممن أوقف عليها كتبه[1] سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م قبيل افتتاح النظامية بأشهر، وبنى أخرى بمرو ووقف فيها كتبًا نفيسة[2].

وثانى تلك المدارس التى جعلت من نظامية بغداد نموذجًا لها ثم طمعت فى منافستها واحتلال مكانتها هى المدرسة ـ التاجية ـ التى أمر ببنائها ـ تاج الملك أبو الغنائم ـ عند دخوله بغداد مع السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ وعند استيزاره خلفًا «لنظام الملك».

ثم المدرسة النظامية بخوارزم التى أسّسها ـ نظام الملك ـ الصغير، حفيد «نظام الملك» الكبير وقد اشترك معه فى اللقب والوزارة والتحمس للمذهب الشافعى وحسن الخاتمة[3]. ثم المدرسة «الشرفية» نسبة إلى شرف الدين أبى طالب المتوفى سنة ٥٦١هـ. وكان قد درس بنظامية بغداد على يد أبى بكر الشاشى وأسعد الميهنى ثم رحل إلى حلب وبنى مدرسته هذه على نمط النظامية وهى أول مدرسة شيّدت فى حلب[4].

ثم المدارس ـ الواسطية ـ كمدرسة خطلوبرس[5] ـ ت ٥٦١هـ، ومدرسة ـ

(١) ابن جزلة - الطبيب - راجع المنتظم جـ ١١٩/٩، والتكملة جـ ٨٨٧/١.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨/ ٢٤٥، والبندارى: زبدة النصرة/ ٣٢ حيث يقول: ووجدهم شرعوا فى بناء المدرسة فاغتنم اقتداره على الاقتداء. مصطفى جواد ـ مجلة المعلم الجديد فى بغداد جـ ٦ سنة ١٩٤٠م.

(٣) هو مسعود بن على كان وزيرًا للسلطان ـ خوارزمشاه، وأعزم ببناء المدارس ثم اغتيل على يد الملاحدة سنة ٥٥٦هـ (طبقات السبكى جـ ٤ ص ٣٠٩).

(٤) هو عبد الرحمن بن حسن بن عبد الرحمن المشهور بابن العجمى الحلبى، وتعرف مدرسته هذه بالزجاجية أيضًا لأنها بنيت بسوق الزجاجين، ثم جدّد بناءها الأمير ـ بدر الدين سليمان بن أرتق. (انظر: سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٥٠) ثم أعيد بناءها سنة ١٣٤٠هـ وجمع فيها ما بعثر من كتب فى الزوايا والتكايا والمساجد ودعيت بدار كتب الأوقاف الإسلامية.

(٥) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٩، ومخطوطة الدبينى فى المكتبة الأهلية بباريس، ناجى معروف: المدارس الشرابية جـ ٢٦٥.

شـرف الدولـة محمـد بـن ورام[1]، والمدرسـة الشـرفية الشـرابيـة[2] ت ٦٥٣هـ.

ثمّ المدرسة المستنصرية التى بدئ فى عمارتها سنة ٦٢٥هـ وتمّت سنة ٦٣٠هـ، وقد وصف لنا حفل افتتاحها وأدواتها ونظمها ـ الصلاح الصفدى[3] ـ كما وصف لنا موقعها وكيفية التدريس بها ـ ابن بطوطة[4] ـ ولم تزل ـ على الرغم من مناهضة التتر والأتراك العثمانيين لها[5] ـ تحتفظ بأروقتها وأساطينها كما تحتفظ جدرانها بآى القرآن فى أعاليها وعلى أطرافها وفوق طبقات أبوابها، وإلى جنبها دار حفظ القرآن، ولكن اتخذت منه ـ وزارة الأوقاف ـ دكانًا تستأجره لاسكافى ـ كما شاهدت ـ مع الأسف ـ ومن دار الحديث مقهى يروده العامة لشرب الشاى والتلهية بلعب الشطرنج والنرد وأمثالها. كان هذا فى عام ١٩٥٤م. أمّا الآن فقد بذلت الجمهورية العراقية جهدًا لإعادة مكانتها وترميم أروقتها.

وآخر ما نعرفه من أمثلة هذه المدارس التى كانت صدى للحركة العلمية التى أحدثها «النظام» فى الشرق الإسلامى هى المدرسة «المرجانية» التى أشرنا إليها سابقًا، فقد حاول ـ مرجان[6] ـ فى شهور سنة ٧٥٨هـ أن يشيّد مدرسة عليا يحاكى بها ـ النظامية ـ من حيث بناؤها ومناهج دراستها، وتنظيم إدارتها، وأوقف لها الوقوف وسجّلها على جدرانها، ومازالت قائمة إلى اليوم بالقرب من الجامع الذى يعرف باسمه، وفى مدخل ما يسمى بسوق «الشورجة» ويفصل بينهما شارع الرشيد أمام المصرف المركزى للدولة الآن.

---

(١) ابن بطوطة ـ رحلته.

(٢) المدرسة المستنصرية، الذهبى والأعلام للنهروانى ص ١٧٤.

(٣) قطب الدين النهروانى ـ الأعلام ص ١٧٤-١٧٥.

(٤) هو مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الأولجايتى ـ من موالى السلطان ـ أويمرين الشيخ حسن ـ الايلخابى، أحد أمراء التتر وكان واليًا على بغداد، وبنى مدرسته هذه ودفن فيها.
(الألوسى ـ مساجد بغداد وآثارها ص ٦٥).

(٥، ٦) بحشل الواسطى فى تاريخه المخطوط عن واسط، وناجى معروف- المدارس الشرابية جـ ٢٦٨، ٢٧١- والحوادث الجامعة سنة ٦٣٢هـ.

وفن المآخذ علي النظامية:

وفى الوقت الذى كانت ـ النظاميات ـ مثلاً يحتذى فى سمّو أغراضها ورقىّ نظم الدراسة فيها فإنها كانت لا تخلو من مآخذ ومخاوف فى هذه الناحية نفسها. . . وكان أول ما خشيه العلماء من ابتداع «النظام» لمدارسه: منح الأجور للأساتذة والطلاب فصار العلم ـ فى نظرهم ـ حرفة وصار أهلوه كسبة وصار التزاحم عليه لا لشرف العلم وإعلائه ومثوبة اللّه وإرضائه، بل لتحصيل المنصب والمال وبذلك هبط مستوى العلم كما نزل قدر العلماء. . وهذا ما دفع بفضلاء ما وراء النهر أن يتخذوا للعلم مأتمًا وحزنوا على سقوط حرمته حينما بلغتهم أخبار هذه النظاميات[1].

ومما يؤخذ على «النظاميات» كذلك ربط المدارس بدوائر الحكم وعدم استقلالها وخضوع العلم للسياسة ونفوذ الحكام، والسياسة إذا دخلت حظيرة العلم أفسدته إذ إن أول ما تعنى به وتسعى لنشره إنما هو صالح الفئة الحاكمة، والدعوة لها ولمعتقداتها على حساب العلم، وتسخير أقلام العلماء وألسنة الأدباء فى الثناء عليهم، والدفاع عن مصالحهم، وبذلك وصلنا ركام من التآليف والدواوين ازدحمت فى ثناياها عبارات التبجيل والتقديس، وقصائد الإطراء والثناء[2]. كما شهدنا عزل المدرس وتنصيب آخرين فى فترات قصيرة، وقد يتناوب مدرسان على كرسى واحد فى آنٍ واحد بدوافع سياسية.

ويؤخذ على النظاميات ثالثًا أن «الوزير» فرض عليها نمطًا خاصًا من الدراسات فى العقائد والعلوم، فلا يكون المدرس ولا الموظف إلاّ شافعيًا وهذا يعني ألاّ تكون التدريسات فى علوم الفقه وما وراء الطبيعة إلاّ على مذهب الشافعى فى الفروع والأشعرى فى الأصول وهو طريق لا يمكن للمعارف فيه أن تتسع وللفكر أن ينمو، ما لم تعش فى جوّ حرّ ونقد نزيه.

---

(١) الصفدى- حوادث سنة ٦٣١هـ.

(٢) انظر: مقدمات الكتب التى ألفت باسم «النظام» وأهديت له كالعقيدة النظامية للجوينى.

غير أن الوزير - فى واقع الأمر - بإنشائه مدارسه ومؤازرته لها لم يمنع فتح المدارس للمذاهب الأخرى، ولذلك كانت مدارس الأحناف والحنابلة والشيعة ومساجدهم الى جنب مدارسه، ولم يكن يضيق بكل هذه المدارس ولا بزعمائها وتلاميذها فإن مجلسه كان منتدى لهؤلاء وأولئك، وكان هو أول من يثير غوامض المسائل الخلافية ليستمع إلى مناظراتهم ومناقشاتهم، ويقرّب أصحاب المدرسة الروحية من المتصوّفة، كما يدنى منه أنصار المدرسة العقلية من المعتزلة ويشجّع أصحاب المدرسة الخيالية من الشعراء على اختلاف نزعاتهم الدينية.

ومع هذا وذاك فقد كانت «المدارس» من خير ما اهتدى إليه العقل البشرى للتفرغ للعلم، وكانت «النظاميات» من أفضل الوسائل لنشره وتعميمه وتحقيق أهداف «النظام» وغاياته، وكانت الدولة الفاضلة من وراء ذلك كلّه هى الهدف الأعلى الذى يقصده، والأمل المرجو الذى يبتغيه وينشده. وهذا ما سنستعرضه فى الفصل الثالث من الباب الرابع.

* * *

• الفصل الثالث

دولة «النظام» الفضلى

فى ضوء كتابه «السياسة»

كما رسم حدودها، وحدّد معالمها، ونظَّم التشكيلات الإدارية والاجتماعية المهّمة فيها.

مع ملاحظة الناحية النفسية للإنسان وضعفه.

مدخل : (مقارنة بين الدين والسياسة، وأنهما توأمان)

إن المقارنة بين أساليب الحياة التى تنتهجها أمة فى عصر من العصور بمقاييس غير معاصرة، وليست من بيئة موحدة، واستنتاج الأحكام دون مراعاة لتطور العقل والنظم والمعتقدات أمر لا يؤيده المنطق ولا يقرّه العلم فإن الشعوب تختلف فى مقاييسها ونظرتها إلى عوالم الكون على الرغم من تعاصرها وتواصلها لاختلاف ظروفها الطبيعية والمعاشية والفكرية، فكيف بمن يباعد بينها الزمن ويفارق بينها المكان، فالدين وما ينجم عنه من مُثُل خلقية فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة، والحق والباطل وما يستتبعها لحماية ذلك من نظم فى السياسة والحكم كالخلافة والإمامة والولاية والخراج والجزية والجباية، وما يترتب عليها وينتج عنها من مواقف حاسمة تجاه المخالفين والمعارضين. . كل تلك أمور لايمكن وضعها بميزان واحد، إحدى كفتيه من صنع القرن الخامس الهجرى، والثانية من عمل القرن الخامس عشر، وبين العهدين عشرة قرون تقريبًا.

لقد كان الدين خلال العصور الوسطى ـ ومنها القرن الخامس ـ هو طريق الحكم والسياسة التى ينتهجها الحكام، وهو النهج الذى يسير بمقتضاه الآباء والأمهات والأبناء فى البيت وخارجه، ويحدد صلات الناس ببعضهم وعلاقتهم بالمجتمعات. . وفى ضوء ما جاء به الدين كانت تصدر الأحكام على تصرفات الفرد وإلاّ تستّر وألبس سلوكه وأقواله لبوسًا ظاهرًا لا يتنافى مع الدين، ولا يتعارض مع أوامره ونواهيه، أو يتناقض مع موافقات المجتمع وتقاليده.

وكان «النظام» يعتقد ـ كما يبدو من سيرته ـ أن المجتمع لا يخلو من أباطيل وجور ومفاسد ولا يمكن لهذه جميعها أن تستأصل ويحمى الضعيف من أفرادها إلاّ عن طريق الشريعة المدونة فى الكتاب والسنّة وإن ضاقت عن حلول بعض المشكلات المستجدة، فإن باب الاستنتاج لمن بلغوا مرحلة الاجتهاد مفتوح، وإن فى الشريعة ما يمكن تقنينه وفى الفقه من القضايا والأحكام ما نستطيع استخراجه والإفادة منه فى قضايانا الآنية، ولا يعوقنا عن ذلك سوى بلوغ هذه المرحلة، وكان الجوينى والشيرازى والغزّالى من ظواهر اعتقاده. وليس الإسلام بنظر الوزير وحاشيته من العلماء بالذى يعجز عن مسايرة الزمن ويجمد عن تلبية مطالب الحياة وإنما هو عند الفاقهين لأحكامه الداركين لحلاله وحرامه دين يواكب ركب الحضارة، بل هو زاده ورائده إذا ما احتاج إلى مددٍ من غذاء وهداية من حاد (أىُ انحْرف) عن الصراط المستقيم.

وكان ـ كما يلوح لنا من أقواله ـ يؤمن بأن تطبيق أحكام الشريعة لايمكن إلاّ عن طريق الحكومة المخلصة الرشيدة التى يربطها بالمواطنين دستور يسود أفراده ويشملهم بالعدل والإنصاف ويحقق لهم الخير والرفاهية.. ويتوصّل من ذلك إلى أنه لابد ـ إذن ـ من سلطان يحرس ذلك الدستور ويحرص على تطبيقه ويرعى المجتمع ويضمن له السعادة والرخاء... لذلك كانت رعاية جانب السلطان واجبة على الناس بعد اللّه لأنه ظل اللّه ـ أى خليفته ـ فى الأرض. ولذلك يشترط فيه العدل لأن السلطان العادل له مرتبة تسمح للعقل بمنحه بعض الصفات الإلـهية[1].. ومن هنا كانت الإطاعة فرض ولكنها مشروطة بعدله وقدرته على حلّ المشكلات وعَقْدِها وبَسْط الأمور وقبضها.

وهو يريد بالسلطان هنا ـ الخليفة ـ أو من ينوب عنه فى تمثيل السلطة الروحية ـ فى الأرض، ولـذا يـروى لنـا قصة اختيـار الخليفـة ـ دون ذكـر اسمـه ـ لابن أعلم الرصدى ـ وتلميذه ـ ناصر البنانى ـ وكيف كتب الخليفة على ورقة

(١) سياستنامة ص ٤٢، والوصايا ص ٤٢ الأصل الفارسى.

ـ السلطان العادل ـ ووضعها تحت (مصلاه) سائلاً عمّا فيها، فقال: «إنه أعلم.. هو اسم الله». وقال (البنانى): «هو اسم الملك».. ولمّا سئلا كيف عرفا ذلك، قالا: رأينا إنه صاحب الاسم المكتوب له علامات تدل على الرفعة والعظمة والهيبة، وهذه الدلالات تدلنا على الله تعالى». ولكن (البنانى) استعمل ذكاءه فرأى أنه لو كان الاسم اسم الله لكانت عظمة مطلقة، ولما وضع الخليفة الورقة تحت النطع[1].

بهذا انتهى «النظام» الى الربط بين السلطان والسماء، وأنه لا يكون دون توفيق الله وتأييده، وإن كان للسيطرة أسباب شتى فإن هذه الأسباب تجتمع بإرادة الإله. وقد تشمل العناية الإلـهية أناسًا متعددين ولكن الرجحان لواحد منهم يتوقف على إرادته.. ولهذا قال: «ومما لاشك فيه بأن طاعة السلطان العادل فرض، وهو ظل الله على الأرض ـ أى خليفته فيها»[2].

وكانت فكرة الربط هذه تشيع فى شرق العالم الإسلامى آنذاك، كما نجد صداها يتردد فى غربه، فابن (الصيرفى) المعاصر «للنظام» والمتوفى ما بين سنة ٥٤٢هـ = ١١٤٧م و ٥٥٠هـ = ١١٥٥م[3].. يقول فى معرض حديثه عن (ناصر الدين أبو القاسم شاهنشاه): «إن السيد الأجل أمير الجيوش بدر المستنصرى ومنازعته أخاه صافيًا، فسولت له نفسه وزيّن له هواه أن ينتصب فى منصبه، وجهل أن سيادة البرايا وسياسة الرعايا ونفاذ الأمر والحكم ونيل السلطان والملك شئ لا يدرك بالسعى والحرص ولا يبلغ بأمانى النفس، وإنما هو أمر يخص الله سبحانه به من يصطفيه ويعقده تعالى لمن يراه أهلاً أن يجعله فيه»[4].

وهكذا كان «النظام» مؤمنًا بالإسلام مقدسًا لتعاليمه كما كان شغوفًا بعلومه، محترمًا لأعلامه حتى صار دينه ودولته على السواء، وأن كلاً منهما يكمل

(١، ٢) الوصايا، ويقصد بالنطع هنا: سجادة الصلاة ص ٤٣ الأصل الفارسى.

(٣) ابن منجب الصيرفى ـ الإشارة إلى من نال الوزارة ـ المقدمة ـ عبد الله مخلص ص ٧.

(٤) ابن منجب الصيرفى ـ الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٧.

الآخر كما تستكمل الأرض بالسماء، وكما تتم الدنيا بالآخرة لأنه أساسها الذى لاقوام لها إلاّ به ولا تثبت أركانها إلاّ عليه[1]. وكما أن الملك لم يوجد إلاّ لرفع منار الدين وعلو شأنه وتعزيز مبادئه فى نفوس الرعايا مثل ما وجب من غرس الأرض وإلاّ بقيت جرداء مالحة، وبقى أهلوها أشقياء تعساء. فكذلك لا يبقى الدين وتنتشر قواعده إلاّ بدولة تحميه وتثبت أصوله وذلك: «لأن المُلْك والدين توأمان». فما اضطرب المُلك إلاّ اختل الدين وظهر المارقون والمفسدون فى الأرض، وما تزلزل أمر الدين إلاّ تزعزع المُلْك واشتد بأس المفسدين وضعفت شوكة الملوك وفشت البدع[2].

ولفرط تحمس «النظام» للدين وشدة دفاعه عن الدولة يحار الباحث فى حقيقة اتجاهه هل كان سياسيًا متدينًا أو العكس.. ومهما فرضنا فيه فهو لا يعدوهما، وهو لايؤمن بشئ فى حياته قدر إيمانه بدينه وليست الدولة عنده سوى إحدى وسائل نشره وإذاعته، ومن ثمّ أخذت السياسة بمجامع قلبه، واستولت على مشاعره حتى استقرت فى عقله الباطنى فكانت تظهر فى روءاه[3] وتتمثل فى سيرته.

لقد نضجت فكرة ارتباط الدين بالدولة فى عصر «النظام» بحيث صار وسيلة لها وغاية فى آن واحد فالإمام الغزالى والماوردى يقولان: «إنه ليس دين زال سلطانه إلاّ بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة. كما إن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهل الطاعة فيه فرضًا والتناصر له حتمًا»[4].. وإن نظام الدين لا يحصل إلاّ بنظام الدنيا، ولهذا قيل: «الدين والسلطان توأمان».. وقيل: «الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهزوم وما لا حارس له فضائع»[5].. وشاعت هذه المقولة أيضًا

(١) الشيزرى - المنهج المسلوك ص ١٤، ٢٠.

(٢) سياستنامة ص ٤١/ ف ١٨ الترجمة.

(٣) الوصايا ص ٤٤ - الأصل الفارسى.

(٤) الماوردى ـ أدب الدنيا والدين ص ١١٥.

(٥) الغزالى ـ الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣٥، والإحياء جـ ١ ص ١٥٢.

بين الناس فى شرق العالم الإسلامى وأخذ يرددّها الطرطوشى والإمام الرازى وابن خلدون[1] وغيرهم فى غربه.. وفى الشريعة معنى يتصل بعقبى الإنسان وآخرته. وفى تلازم الدولة والشريعة، وارتباطهما إيماء بعلاقتهما فى نهاية المرء وتعهدّها له منذ الولادة وبعد الممات لا فاصل بين الدنيا والأخرى.

وفى الأصل الذى اشتقّ منه لفظ (الخليفة) والوزير وهما يمثلان الشطر السياسى من الدولة معنى يدل على مدى ارتباط الدين بالدولة[2]. فالخلافة على اختلاف صيغها نيابة عن الرسول فى الإشراف على تطبيق أحكام الشريعة لأنها ليست من السياسة فى شىء[3] والوزارة نيابة عن الخلافة فى تنفيذ قواعدها والملاءمة بينهما وما تقتضيه مصالح الناس فى الدنيا والدين[4].. وإنّ أقدم النصوص التى ورد استعمالها فيه ينبئنا بعراقة هذا المعنى كما دلّنا على أصالة اللفظ فى القرآن والسنّة.

وبذلك الدافع من إيمانه القوى فى الدين واعتقاده الراسخ فى إصلاحه للحياة الفانية، وبذلك اليقين من أعماق نفسه بضرورة الدولة العادلة لرعاية الناس وإسعادهم كتب رسالته «فى السياسة» ووضع فيها الأسس العامة للدولة الجديدة التى كان ولم يزل يدأب من أجلها ويضع الخطط اللازمة لتكوينها.

وما كان «النظام» خياليًا حالمًا وهو يخطط لمعالم دولته المنشودة كمن يرسم صورة زيتية على ورقة بيضاء استجابة لداعى الفن أو كمن سبقه من أصحاب الجمهوريات والمدن الفاضلة وانما كان أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال، وأعلق بالأرض منه فى السماء، ولو أتيح لنا السير فى جنباتها والتجوال فى أنحائها وأرجائها لشهدنا دولة ديمقراطية فى تشريعاتها القانونية، اتحادية «فيدرالية» فى تشكيلاتها الإدارية. فقد كانت تحتوى ثلاث حكومات: الخلافة ولها السلطان

(١) المقدمة ص ١١٥.

(٢) محمد بن كنان ـ حدائق الياسمين ورقة ٥٥.

(٣) المقدمة ص ١١٥.

(٤) محمد بن كنان ـ حدائق الياسمين ورقة ٥٥.

الدينى، والسلطنة ولها النفوذ الدنيوى، ثم حكومة الأمراء والملوك ولها حق الجباية والحكم باسم السلطان وتحت إشراف الخليفة فى الوقت الذى كان للأمراء الإقطاعيين شأنٌ كبيرٌ فى أوربا، قضى على حرية الفرد، وجعل من الأمير حاكمًا باسم الإله يستبد فى حياة الناس باسم الحق والعدل، وهو أبعد ما يكون عنهما.. إلى أن ظهرت فى عصر النهضة الأوربية رسالة «ميكافللى» راجعة بعجلة الزمن عشرين قرنًا أو تزيد، تشيد بطغيان الأمراء، وتبرر تسلطهم فى سبيل الحكم والاستيلاء.

ودولة «النظام» هذه ليست هرمًا متدرجًا قاعدته الشعب وقمته السلطان أو الخليفة ومن تحتهما طبقات الوزراء ثم العلماء والأدباء، والموظفون والوجهاء، ثم أصحاب المهن والعامة.. بل إنها أكثر شبهًا بولاية واسعة الأرجاء، شامخة الأسوار، لها بابان ضخمان، وفى الوسط منها برج عال يمدها بالنور والحياة المطمئنة الرغيدة.

إن دولة «النظام» ـ كما يبدو لنا من تضاعيف رسالته فى كتاب السياسة «سياستنامة» ـ أشبه بتلك المدينة أو الولاية الفسيحة تعجّ بمخلوقات اللّه وتموج بكائناته من نبات وحيوان وجماد على اختلاف أجناسه وألوانه، وأسوارها هى الحكومة المجندة لخدمتها، المسئولة أمام الله يوم القيامة عن كل صغيرة وكبيرة تأتى بها.. وباباها هما: باب للدخول يمثلها سلطان الدنيا الذى يتولى مقاليد الناس وتدبير شئونهم الدنيوية، وباب للخروج يمثلها خليفة المسلمين وبيده السلطة الروحية، ومفتاح العالم الآخر.. أمّا ذلك البرج الذى يرسل النور ويشيع الحياة الهانئة المستقرة فهو (الدستور) هو القرآن والسنّة، هو الإسلام الذى جعل من العدل أساسًا للحكم، ومن الظلم والجور سببًا للتأخر والهدم.

وينبغى ألاّ ننسى ونحن نتحدث عن دولة ـ النظام ـ أنه كان أشعريًا فهو يقدِّم لنا نظرية كاملة للدولة الإسلامية حسب تصوّره المذهبى، الشافعى الأشعرى، وبتطوير حاسم لتلك النظرية، التى دعا إليها علماء عصره أمثال: الغزالى والجوينى والماوردى فى مؤلفاتهم. ولكن ليس من الناحية الفقهية أو الوعظية بل السياسية الإدارية.

وهذه الأماني الصعاب تبدو «للنظام» مستحيلة إذا ما تذكر بداوة الأتراك وبخاصة سلطانيه - ألب أرسلان وملكشاه - ومقدار جهلهم بأسرار الشريعة الإسلامية وجواهر اللغة العربية لقرب عهدهم بهما إذ المعروف أن جدهم الأكبر سلجوق، كان أول من اعتنق الإسلام منهم، وما اعتنقه إلاّ بعد دخوله بلاد المسلمين على رأس قوم من الغز ليكونوا عونًا له في الفتح وليمكنّوه من المرعى والمسكن[1]. . وإن - طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق - مؤسس دولتهم حينما كان يجيب على نصيحة القاضي - صاعد - بوجوب خشية اللّه وإقامة العدل بين الناس قال: «إننا قوم جدد وغرباء ولا دراية لنا بشريعة العرب»[2].

كل هذا يدلنا على أن سلاطين السلاجقة الأوائل كانوا يدينون بالإسلام ولا يدركون أصوله، ويتحمسون لنشره شأن كل معتقد جديد وإن لم يعرفوا تفاصيله ويدرسوا دقائقه ويفهموا جوهره[3]. . لذلك حاول وزيرهم الكبير - نظام الملك - أن يوجه عنايتهم إلى العلم، وحرمتهم للعلماء وأن يرسم لهم وللحاكمين على مرور الأجيال دولته المنشودة، ويسجل لهم نظمها ويثبّت قواعدها ودعائمها ويقدّمها في كتابه - السياسة - لتكون نبراسًا يستنير بتعاليمه الزعماء المخلصون، ويسترشد بتوصياته الولاة المؤمنون.

وإلى القارئ صورة مصغّرة لدولة - النظام - التي كان يحلم بها قبل ألف عام، وهو يتحدث عن «الملك» موجهًا كلامه إلى السلطان احترامًا وتقديرًا له.

* * *

١ - السلطان: واجباته، اختصاصه

يقول «النظام»:

اختار اللّه السلطان وميزّه على عباده وجعلهم جميعًا خاضعين له، منه يستمدون نفوذهم ودرجاتهم أمّا هو فيستمد قوّته من ربه الذي جعله أمينًا على

(١) ابن الطقطقى - الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٦١.
(٢) أبو الفضل البيهقي - تاريخ بيهق ص ٦٠٤- يحيى الخشآب ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت.
(٣) الراوندي - راحة الصدور ص ٦٥، ٦٦، والحسيني - أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٧.

عباده، فعليه إذًا ـ ليكون له على سائر الملوك فخرًا وفضلاً ـ أن يتحلى بطيب الخلق وحميد الخصال[1]. ولأن ملوك السلاجقة كانوا من الأتراك الذين لا يتقنون اللغة العربية والذين يميلون إلى الغزو والفتح فلا يجدون لديهم متسعًا من الوقت للتعلم، فإن «نظام الملك» ينصح الملك بأن عليه أن يقضى بعض وقته فى التعلم، وأن يهتم بالشريعة الإسلامية من قرآن وحديث وأن يرعى العلماء عامة والمشتغلين بعلوم الدين منهم خاصة، وعليه أن يحضر مرة أو مرتين فى الأسبوع على جماعة من العلماء يسمع منهم تفسير القرآن وشرح الحديث وسِيَرْ الملوك السابقين.

وعلى الملك والسلطان أن يحضر المناظرات بين فريقين من العلماء ويستمع لآراء كل فريق. وعليه أن يسأل عما يجهل، فإذا علم وجب أن يعى ما تعلّم وأن يعمل به وهو إذا واظب على هذا التقليد يأنس إلى مجالس العلماء فسيجد نفسه وقد أصبح ملمـًّا بمعظم قضايا الشريعة وكثير من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبالتاريخ. وهكذا يتفتح له الطريق فى إدارة أمور الدنيا والدين فى مملكته، ويتعذر على أصحاب البدع من الملاحدة أن يصرفوه عن الصراط السوى، ويتاح له القيام بالأعمال العظيمة التى تخلد اسمه فى التاريخ، ويظهر فى عهده العلماء العظام.

وليعلم الملك أن خير الملوك من ثابر على حضور مجالس العلماء، وأن شّر العلماء من عاش فى صحبة الملوك، وليعلم أيضًا أن ليس فى الدنيا صديق خير من العلم للإنسان، لأن العلم خير من الكنز فإنك ترعى الكنز أما العلم فيرعاك.

وعلى الملك أن يعرف أن العلم ليس محصورًا فيمن يعرف اللغة العربية، بل إن العالم هو من أحاط علمًا بفرع من فروع العلم، أيًّا كانت اللغة التى تعلمها، لأن العلم لا بلد له خاصة ولا لغة معيّنة، ولو أن اللغة العربية مفضلة لأن القرآن نزل بها ولأنها لغة النبى (عليه الصلاة والسلام)[2].

وعلى الملك ألاّ يقطع فى أمور الدولة من غير أن يستشير المجربين وذوى

(١) سياستنامة فصل ١ ص ٥.

(٢) فصل ٨/ ٦٢-٦٣.

الرأى فى مملكته فإن قوة رأيه، وإن كان مصيبًا كقوة رجل واحد، فإذا استشار عشرة رجال من ذوى الخبرة كان رأيه كقوة عشرة رجال. وليس فى الشورى ضعف أو عدم ثقة بالنفس فإنَّ المسلمين جميعًا متفقون على ما كان للنبى (عليه السلام) من قوة الرأى وصدق الفراسة، وقد أتيح له أن يرى السموات والأرض والجنة والنار واللوح والقلم والعرش والكرسى، وكان جبريل يتحدث إليه وقد أحاط خبرًا بما كان وبما سيكون ومع كل هذا الفضل الذى أسبغه الله عليه ومع معجزاته التى ليست فى طاقة البشر فإن الله تعالى يقول له: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[1] فعلى الملك أن يشاور ذوى الرأى فى مملكته وأن يقارن رأيه بآرائهم ويقلبها معهم جميعًا حتى يظهر الرأى الذى يجب أن يتبع، وعليه أن يعلم أن الاستئثار بالرأى ضعفٌ لا قوةٌ، وأن من الغرور أن يعتدّ المرء برأيه ولا يسأل عن آراء الآخرين[2].

وعلى الملك أن يحقق العدالة فى مملكته لجميع رعاياه، فإذا جاء متظلم فعليه أن يبحث ظلامته وأن يعمل على إنصافه لأنه إذا لم يفعل ذلك ينصرف المظلومون عن الالتجاء إليه، ويلاحظ ذلك سفراء الملوك فى بلاطه فيحسبون الظلم فاشيًا فى المملكة وتسوء سمعة الملك. ولكى يتم للملك الإشراف التام على مصالح رعاياه فى أطراف المملكة الواسعة، عليه أن يستعين بالعيون يرفعون إليه تقاريرهم عما يرون فى الأنحاء النائية التى لا يستطيع الملك الإشراف عليها بنفسه.

ثم إن على الملك أن يعمل على تعميم مكاتب البريد فى الطرق الرئيسية وأن يصرف لموظفيها مرتبات شهرية، وأن تقام على مسافات لا تزيد عن خمسين فرسخًا[3]. وعلى هذا النحو يستطيع مندوب الملك إذا ما عرف بواقعة مهمة - أن يتصل بأقصى سرعة ممكنة لإبلاغ الملك. وكذلك ينبغى تعيين مشرفين ممن يضع الملك فيهم ثقته، وأن يتاح لهؤلاء المفتشين الاتصال بالملك فى أى وقت يشاء حتى يرفعوا إليه التقارير التى يتلقونها من موظفيهم فى

(١) سورة آل عمران - من الآية ١٥٩.
(٢) فصل ١٨.
(٣) فصل ١٤.

الأقاليم، ولا يجوز أن تؤخذ أجور هؤلاء المشرفين من الشعب بل تتحمل بها الخزينة العامة، ذلك أن ما تجنيه الدولة من فوائد إشرافهم يفوق كثيراً الأجور التى يتقاضونها. وعلى الملك أن يعرف أن الناس يقولون إما أن يكون ملكنا ملمًا بما فى المملكة من فساد أو لا، فإذا كانت الأولى ولا يتداركه فهو من الملوك الظالمين وإذا كانت الثانية فهو من الغافلين، وكلاهما شر[١].

ولكى لا يثقل «نظام الملك» على السلطان بالنصح، والنصح ثقيل على الأذن، فإنه يروى إليه قصة العالم[٢] و(عبد الرحمٰن) خال السلطان «ألب أرسلان». قال: «كان السلطان فى زيارة لمدينة هراة فنزل خاله عبد الرحمن فى بيت عالم من علمائها، ولمّا عاد السلطان إلى مقر ملكه، وبينما هو فى مجلس الشراب قال له خاله: إنى نزلت عند عالم ورع كان يقوم بالليل ويصلى ويدعو ربه فى غرفته، وقد فتحت باب هذه الغرفة ذات ليلة فإذا أمام هذا العالم إناء مملوءة بالخمر وتمثال من نحاس، فكان يتناول الخمر ويسجد ويرتل للصنم، فأخذت الكأس والتمثال وأحضرتهما لتقتص منه. فلم يغضب السلطان، وقال لخاله: ضع يدك يا عبد الرحمن فى يدى واحلف بحياتى أصادق أنت أم أنك من الكاذبين؟ فقال خاله: بل كذبت يا ابن أختى وأغرانى على الكذب أملى فى أن تهبنى بيته الجميل الذى راق لى. فتمهل يا مولاى فى قضائك وادرس ما يتلى عليك بعناية وتؤدة فإن العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمٰن»[٣].

ثم على الملك أن يستعمل الحيلة لكى يصل إلى العدالة ويسرد له حكاية الشاب: وقد جاء شاب إلى السلطان محمود الغزنوى وشكا إليه أنه استودع قاضى بلدته كيسًا من الحرير مملوءًا بالذهب فلمّا استرد وديعته وجدها نحاسًا، فأمسك السلطان الكيس فلم يجد به أثرًا لشقّ فيه، فصرف الشاكى وأخذ يتدبر الأمر. وفى الليل قام فشقّ وسادته الحريرية فلمّا كان الصباح وجد الخادم الوسادة وقد شقّت فخاف أن يؤاخذ على ما بها فأخذها وسار إلى رفّاء ماهر

---

(١) فصل ١٠.

(٢) يقصد به أبا عبد الله الهروى الحنبلى.

(٣) فصل ٣٨ من كتاب ـ السياسة.

فرتقها له ثم أعادها إلى مكانها، وفى المساء دخل محمود غرفة نومه فإذا بالوسادة قد أصلحت وتعذر عليه أن يتبين مكان الشق منها، فنادى الخادم وسأله عمن أصلحها فدلّه على أسم الرفّاء، وفى الصباح جاءوا بالرفّاء فأثنى عليه السلطان وعلى دقته ثم أراه الكيس الذى رفعه الغلام فعرفه وقال إنه هو الذى أصلحه للقاضى، وهكذا علم السلطان أن القاضى شقّ الكيس ثم أفرغ ذهبه وأبدله بالنحاس ثم رفاه، وجىء بالقاضى ونال جزاءه[1].

٢ - خزينة الدولة :

وعلى الملك أن يترفّق برعاياه فى جمع المال الواجب عليهم أداؤه للخزينة، وأن يراعى الدقة في تعيين ملتزمى الضرائب وجباتها، وأن يبدّلهم مرة كل سنتين أو ثلاث حتى لا يتمكن نفوذهم فى الجهات التى يعملون بها فيكونوا أداةً للشر وينبغى مراقبتهم حتى لا يرهقوا الناس.

وينبغى أن يكون للملك خزينتان الأولى للدخل والثانية للخرج، وأن يودع أكثر الحصيلة فى الخزينة الأولى وأقلّه فى الثانية، وعليه أن لا يمسّ الخزينة الأولى إلاّ للأمور الطارئة وفى حالة الضرورة القصوى، وفى هذه الحالة عليه أن يعتبر ما أخذه منها قرضًا وأن يردّه متى استطاع. ذلك إذا لم تراع هذه القاعدة وصرف الدخل بأكمله ثم مسّت الحاجة إلى المال فإنه لا يجده وتتعطل مصلحة الدولة.

وليس للعامل أن يأخذ مال ولايته كمرتب له وإنما ينبغى أن يبعث المال لخزينة السلطان ثم يلتمس أجره فيأمر له السلطان به أو يأمر بأن يأخذه بضاعة من ولاية أخرى. وقد ولّى السلطان «محمود» حاجبه (التنتوش) ولاية خوارزم وكانت تغلّ ستين ألف دينار وكان أجره عشرين ومائة ألف دينار فبعث يرجو أن يأخذ مال ولايته كجزء من أجره فرفض الوزير شمس الكفاة (أحمد حسن

(١) فصل ١٤.

الميمندى) طلبه ونهاه عن التشبه بالسلطان وأمره بإرسال مال ولايته ثم كتب إليه ليتقاضى أجره بضاعة من ولايتى سستان وبست[1].

وعلى الملك ألاّ يلتفت إلى الإثراء وجمع المال، لأن عليه أن ينفق مال الشعب عليه وأن يعلم أن ما أفاء اللّه به من نعمة المُلْك ترفعه عن حب المال والعمل على جمعه، وقد ذهب أحد الأمراء الى الشيخ (الدقّاق) وسأله النصح فسأله الشيخ: «أيهما أحب إليك المال أم عدو أنت معه فى خصومة دائمة؟» فقال الأمير: «المال».. قال الشيخ: «فكيف تموت تاركًا فى الدنيا من تحب مستصحبًا فى الآخرة من تكره؟!».. فبكى الأمير وقال: «نعم الموعظة هذه التى حوت أروع حكمة سمعتها».

ثم يحدّث السلطان عن (عبد اللّه بن طاهر) الذى سار فى ولايته بالعدل بين الناس فلم يلتفت إلى شهواته ولم يرهق الناس بطلب المال وكان ينفق ما يأخذه منهم على مصالحهم العامة فكان قبره فى نيسابور مزارًا يقصدونه ويدعون ربهم فيه ويقولون: إنه تبارك وتعالى يستجيب دعاءهم هناك تكريمًا لعبد اللّه بن طاهر[2].

٣ - المراسيم السلطانية:

ولايجوز الإسراف فى الأوامر الملكية، فإنها إذا زادت عن الحد فقدت حرمتها، ولذا ينبغى ألاّ يصدر الديوان من الأوامر إلاّ فى مهام الأمور، فإذا صدرت وجب أن يكون لها الاحترام التام فلا يجرؤ أحد على العبث بها، وإذا استخف رجل بأمر ملكى أو توانى فى تنفيذه وجب عقابه عقابًا بليغًا ولو كان من المقرّبين للسلطان.

وينبغى أن تنفذ أوامر السلطان بلا تردد أو اعتراض، فإذا كان الأمر

(١) فصل ٤٨ ـ سياستنامة.

(٢) فصل ٧ ـ سياستنامة.

مجحفًا فعلى من صدر إليه تنفيذه أولاً ثم التظلم منه للملك بعد ذلك ليرفع عنه الظلم، ويضرب «نظام الملك» مثلاً لذلك بما كان من السلطان محمود حين اشتكت إليه سيدة من عامل نيسابور الذى أخذ أرضًا لها، فكتب محمود إلى واليه ليرد الأرض إلى الشاكية، فلمّا بلغه الكتاب لم يعمل بما فيه وأرسل إلى السلطان يقول إن لديه الوثائق التى تثبت ملكيته للأرض التى تنازعه فيها هذه السيدة، وأعادت هذه شكواها فأمر محمود بإحضار الوالى إلى غزنة، فلمّا مثّل بين يديه أمر بجلده ألف جلدة أمام باب القصر، وقد حاول الوالى أن ينقذ نفسه من العقاب فتنازل عن جميع أمواله، ووسّط خمسمائة شفيع عند السلطان، وقَبِل أن يدفع ألف دينار نيسابورى بدلاً من ألف جلدة، فلم يجده هذا كله وجلد لأنه كان لزامًا عليه أن ينفّذ أمر السلطان ثم يتظلم.

كذلك لايجوز أن يتولى أحد من الأفراد توقيع عقوبة من حق الملك وحده أن يأمر بها كقطع الرأس أو بتر أعضاء الجسم، وبغضّ النظر عن خطأ المذنب فإن الذى عاقبه يعاقب لأنه اعتدى على حق من حقوق السلطان، ويضرب «نظام الملك» مثلاً بما حدث بين الملك برويز ووزيره (بهرام جوبين) الذى عاقب خادمًا عنده بأن لطمه على وجهه فأوقعه على الأرض، فلمّا سمع الملك بهذا غضب واستدعى وزيره وأمر بإحضار خمسمائة سيف وأمره أن يختار أحسنها، فاختار خمسين ومائة منها فأمره أن يختار منها عشرة، ثم أمر أن يختار من العشرة اثنين، ثم أمره أن يضعهما فى غمد واحد. فقال الوزير: «إن غمدًا واحدًا لا يسع سيفين يا مولاى». . قال برويز: «وكذلك الحكم يا بهرام لا يحتمل اثنين» فخجل الوزير واعتذر وتاب. . وقال برويز: «إنى أنا الذى اختارنى الله لأحكم بين الناس بالعدل، فليرفع إلىّ من ظُلم أمره»[1]. .

(١) فصل ١١ ـ كتاب السياسة.

٤ - الحاشية السلطانية:

وليس للملك غنى عن حاشية من المقربين إليه، وقد شاع أن الملوك يتخذون حاشيتهم وندماءهم من بين الأطباء والمنجمين وهو اختيار غير موفق، لأن الأطباء يحرمون على الملك شهىّ الطعام ويخضعونه لأوامرهم وهو عادة يظل مريضًا ماداموا يراقبونه وينصحونه، وأما المنجمون فانهم يحدّون من حرية الملك فى تصرفاته فإنه يمتنع عن أى عمل لا تنبئ به النجوم. ولذلك ينصح «نظام الملك» بألا يكون من بين حاشية الملك طبيب أو منجم، فإذا مسّت الحاجة لأحدهما استدعاه الملك واستشاره.

وإنما ينبغى أن يتخذ الملك حاشيته من أناس لا يشعر معهم بالكلفة ويعيش معهم كأنه واحد منهم، فإن مداومته الجلوس دائمًا مع الوزراء وقادة الجيش والعلماء والعظماء، يفقده بعض الاحترام الواجب له بمرور الأيام. والقاعدة أنه لا يجوز أن يتخذ بطانتين من بين من يعهد إليهم بعمل أو وظيفة فى الدولة، وكذلك لا يجوز أن يعهد بعمل إلى واحد من رجال حاشيته، لأن ما يتمتع به هؤلاء من حرية مع الملك يحملهم على الطمع فى أموال الناس وإيقاع الظلم عليهم. والواجب أن يظل الموظف حافظًا للملك هيبته ووقاره. أمّا الحاشية والندماء فينبغى أن تكون لهم حرية القول أمامه حتى لا يشعر بأنه مقيد وحتى يعيش على سجيته معهم فيسرّ بهم ويجد فى مصاحبتهم تسلية ولذة. وأمّا الوقت الذى يكون فيه الحاشية مع الملك فهو حين يفرغ من دراسة شئون الدولة مع وزرائه وحكامه.

وليست فائدة الحاشية قصورة على تسلية الملك وخلق جو ملائم له حين يكون بعيدًا عن الرسميات، إنما على الحاشية والندماء أن يكونوا حرّاسًا للملك، فإذا حدث أن تعرّض لمكروه كانوا له درعًا وتلقّوا هم الأذى بدلاً عنه. ثم عليهم أن ينقلوا للملك العيوب التى يرونها فى حكومته

والتى قد لا يصل إليها إلاّ عن طريقهم وهم بذلك يؤدون خدمة جليلة للدولة وللملك معًا، وعليهم أن يتكلموا أمامه بحرية كاملة وأن يضعـوا كـل شـىء بمـا يستحق فى نظرهم، حسنًا كان أو قبيحًا وأن يقولوا ذلك حتى ولو كان الملك مخموراً.

ويختار رجل الحاشية بحيث يكون سمحًا، طلق المحيا، مخلصًا، حافظًا للسّر، محدثًا يعرف كثيرًا من قصص الملوك ومن النوادر اللطيفة، حاضر البديهة، حسن السيرة، يُحسْن لعب الشطرنج وغيره من الألعاب وصنوف الرياضة. وينبغى أن تكون طباعه متفقة مع طباع الملك. وعليه أن يقول للملك حين يفعل أى شىء: أحسنت وأصبت يا مولاي، ولا يجوز أن يقول له اعمل هذا أو لا تعمل ذاك أو لماذا عملت هذا أو كان ينبغى أن تفعل ذاك، فإن الملك لا يطيقه إذا قال هذا ويبغضه ويقصيه.

وينبغى على رجل الحاشية إجادة معرفة أصناف الخمر والولائم والنزهات والاجتماعات الخاصة والصيد ولعب الصولجان.. وعليه أن يكون مستعدّاً لهذه الملاهى دائمًا.. وعليه أن يتجنب التحدث إلى الملك فى شئون الدولة من إدارة أو ترقية أو تعيين أو حرب أو سلم أو تموين. فالأفضل أن تدرس هذه المواضيع بين الملك ووزرائه وحكاّمه وخبرائه المجربين. وعلى رجل الحاشية أن يعرف أنه صورة للملك أمام الناس، فإن حسنت سيرته وصف الملك بحسن السيرة وإن ساءت ظنّ به الناس السوء.

ولكل رجل من الحاشية درجة ورتبة، فمنهم من له حق الجلوس فى حضرة الملك ومنهم من ينبغى أن يظل واقفًا، وهذا النظام كان سائدًا في القديم ولايـزال موجـودًا فـى البـلاط العباسـى. وكـان البـلاط الغزنـوى مكـوّنًا مـن عشريـن نديمًا، عشـرة منهـم وقـوف وعشـرة جلـوس، وهـو تقليد مأخـوذ مـن السامانيين.

وعلى الملك أن يعطى أفراد حاشيته من الأموال ما يرفع قدرهم ويعلى مكانتهم فى قصره وعليهم أن يخلصوا له[١].

٥- مجالس الشراب:

وعلى الملك أن يسمح للوزراء والحكام بمقابلته فى الأسبوع المخصص للشراب، وذلك حتى يعرضوا عليه شئون الدولة، ولا يسمح لمن يحضر مجلس الشراب بأن يستصحب معه أكثر من خادم واحد. ومحظور عليهم أن يحضروا زجاجات الخمر أو غيرها من أصناف الطعام، لأن لهم أن يطلبوا ما يشاءون من خازن القصر، ذلك لأن الجميع خدم[٢] للملك، والملك والدهم وسيدهم جميعًا فلا يجوز لمن يستمدّ وجوده وحياته منه أن يحضر غذاءه أو شرابه من بيته. فإذا طلبوا من الخازن ولم يعطهم أو أعطاهم صنفًا رديئًا عوقب عقابًا شديدًا لأن فى مخزنه كل شئ من أجود صنف.

وهذه المجالس لازمة للملك لأنه لا يجوز أن يمضى بقية وقته بعد الفراغ من شئون الدولة، مع الخدم، فإن نفوذه يضمحل إذا فعل ذلك وأخلاقه تدنّس، إذا اختلط بهم، فإن هؤلاء (المماليك) غير جديرين بالاجتماع به. وكذلك إذا هو أفرط فى مقابلة الوزراء والحكام ينقص سلطانه وتنفّذ أوامره بفتور، ويقل إجلال العظماء له ويطمعون في الشعب.

وإذا كان من واجب الملك أن يتفرغ لشئون دولته فإن من حقه أن يتمتع بما يتمتع به سائر الناس من الراحة واللهو، وهو يفعل ذلك مع أفراد الحاشية الذين لا دخل لهم فى الشئون العامة للدولة، وحينئذ يجد الملك مجالاً للهو وسماع الطُرَفْ والنوادر والقصص الجميلة فيسرّى عن نفسه ويستريح من عناء العبء الذى يثقل كاهله ويكون نشيطًا مقبلاً على رعاية الناس بقلب ثابت ورأى حازم[٣].

---

(١) فصل ١٧ كتاب السياسة.

(٢) يلاحظ أن الخادم لفظ كان يطلق على كبار الحاشية أحيانًا ومنهم مؤنس الخادم، كبير القواد فى عهد الخليفة العباسى «المقتدر بالله».

(٣) فصل ٢٩.

٦ - المائدة السلطانية:

وتعدّ مائدة الملك لضيوفه منذ الصباح ويتصدق بجانب كبير منها على الفقراء من الشعب، وجرى الملوك على ذلك. وكان السلطان «طغرلبك» يهتم اهتمامًا خاصًا بمائدته، وكان إذا خرج للصيد أمر بإعداد المائدة وعليها ما لذّ وطاب فيأكل منها رجال الحاشية وضيوفه وأفراد الشعب الموجودون فى المصطاد ويبدون جميعًا إعجابهم بحسن إعدادها ووفرة ما عليها من الأكل والشراب. وقد سار خانات تركستان على العناية بموائدهم ومطابخهم بحيث يطعم منها الناس وتحل بركة الله عليهم.

وفى التاريخ أن موسى (عليه السلام) دعا ربه أن يهلك فرعون فوعده الله بذلك، فلمّا طال أجل فرعون سأل موسى ربه ألم يمهله قليلاً وقد انقضى زمن طويل؟. فقال له ربه إن إطعامه الفقراء وإفساحه مكانًا لهم على مائدته حملنى على تأخير القضاء عليه.. فعلى الملك الذى يريد أن ينادى بالعظيم أن يطعم الناس مما يُطْعم وأن يجعل لشعبه نصيبًا مما يأكل[1].

٧ - الاستقبالات السلطانية:

وفى يوم الاستقبال تراعى قواعد خاصة حتى لا يتضايق الملك ولا يتبرم الوزراء والحكام وحتى يطمئن الناس لرعاية الملك لهم. فيدخل أفراد الأسرة أولاً ومن بعدهم الوزراء ومن فى طبقتهم من الحكام ثم ضباط الجيش ثم أفراد الشعب، فإذا اجتمعوا فى قاعة العرش امتاز النبلاء عن عامة الشعب.

وعندما يكون الاستقبال عامّا يرفع الستار. أمّا إذا كان مقتصراً على من طلب المقابلة من الراغبين فإنها ترخى، وذلك ليعلم الوزراء والحكام والعلماء أن ليس الاستقبال عامّا، إذ ليس آلم لنفوس هؤلاء جميعًا من الذهاب للشئون

---

(١) فصل ٣٥.

بمقابلة الملك وانتظارهم دون جدوى، فإنهم إن ذهبوا مرات عدة ولم يقابلوه يرتابون فيه ويضمرون له السوء.

وعلى الملك أن يكثر من أيام الاستقبال فإنه إذا قلّل منها ظلت المواضيع التى تهم الخاصة معلقة ويبدأ التذمر، ويغيب عن الملك ما ينبغى أن يعلم ويضار الجيش ومصالح الناس، فعليه أن يكثر من استقبال ذوى الرأى والمكانة وسواد الشعب، وإذا لم يفعل ذلك فسيقابله أقاربه والأمراء والسادة والأئمة ليبلغوه تحياتهم واحترامهم. أمّا سائر الناس فتخفى أخبارهم عليه.

وحين يفرغ الاستقبال ينصرف الحاضرون رويدًا رويدًا بحيث لا يبقى فى حضرة الملك غير ضباط الحرس والعبيد المكلفون بخدمات القصر، مع حامل الأسلحة إلى القائم على الشراب إلى ذائق الطعام. فهؤلاء يكونون فى الخدمة دائمًا[1].

٨ - الحرس السلطانى:

وعلى الملك أن يعنى بحرسه الخاص، وبحرس قصره. أمّا حرسه الخاص فيتكون من مائتين من الجند (المفردين) يختارون من ذوى القامات المديدة المتصفين بالشجاعة واليقظة، مائة منهم خسروانية ومائة من الديالمة. وهؤلاء لا يغيبون عن البلاط مطلقًا، فى السلم أو الحرب. ويقيمون فى ثكنة خاصة بهم، وتصرف لهم ملابس مزركشة وأسلحة من أحدث طراز وأبهى منظر، وتسحب هذه منهم حين يعزلون من الخدمة، وتصرف لهم أقواتهم وأجورهم من القصر. وعلى رأس كل خمسين منهم ضابط يعرفهم ويتولى قيادتهم. وينبغى أن يكونوا فرسانًا ماهرين، فإذا دعى الداعى قاموا بواجبهم فى حراسة الملك خير قيام.

وأمّا حرس القصر فيتكوّن من أربعة آلاف جندى يختارون من جميع الجنسيات التى تتكون منها الدولة، يختصّ ألف منهم بحراسة الملك والباقون

(١) فصل ٢٩.

لحراسة الأمراء والقواد، وهم يقيمون فى ثكناتهم الملحقة بالقصر وإذا لزم الأمر استخدموا كجنود مدربين[1].

وتراعى غاية الدقة فى مراقبة حرس القصر وبوابيه وعلى رئيسهم أن يتعرف أخبارهم يوميًا، وعليه أن يستعرضهم كل ليلة حتى لا يكون بينهم أجنبى، فهؤلاء فقراء يغريهم المال فتلزم مراقبتهم وعدم التواكل فى ملاحظتهم[2].

وعلى رأس الحرس موظف كبير هو أمير الحرس ووظيفته من أسمى وظائف الدولة، وإذا استثنينا وظيفة الأمير كبير الحجاب، فأمير الحرس أرقى موظف فى البلاط، بيده العقاب فهو الذى يصدر الأمر بقطع الرأس أو سائر الأعضاء أو الشنق أو الضرب بالعصى أو السجن أو الالقاء فى البئر، ولا يتأخر أحد فى التضحية بجميع أملاكه فى سبيل إنقاذ حياته، لذا ينبغى أن يحسن الملك اختيار أمير حرسه.

ويمتاز أمير الحرس بأن يكون له طبل خاص وعَلَم وموسيقى، وكان الناس يخشونه أكثر مما يخشون السلطان ولو أن سلطانه قد خفّ فى أيامنا عن ذى قبل. وتحت إدارته فى القصر ما لا يقل عن خمسين ضابطًا من حملة العصى، منهم عشرون من ذوى العصى المحلاّة بالذهب وعشرون محلاّة عصيهم بالفضة وعشرة عصيهم غليظة.

٩ - ناظر الخاصة:

وينصح «نظام الملك» السلطان بأن يعيد إلى ناظر خاصته سابق مركزه، فإنه موظف كبير ومسئوليته خطيرة، فهو الذى يشرف على قصر الملك ومخصصاته كلها، يعرف دخله ونفقاته وما يفيض، فيجب أن يتاح له مقابلة الملك يوميًا ليقف على حاجياته وليبيّن له حدود ثروته وطاقة شرائه.

---

(١) حديث ١٩.
(٢) حديث ٣٤.

ويعترض «نظام الملك» على مقابلة ناظر الخاصة مرة كل شهر قائلاً: «إن هذا لا يكفى لاطلاع الملك على حاجياته الخاصة كما أنه لا يتفق ومهمة ناظر الخاصة»[1].

وينبغى للملك أن ينفق على أبناء العائلات الكبيرة التى مسّها الفقر، كما ينبغى أن ينفق على أبناء السلاطين من أسرته ومن الأسر التى انضمت إلى ملكه. وكذلك على الملك أن يصل أهل العلم والأدب وهو الذى يتكفل بحراسة الحدود، وهذه كلها نفقات واجبة على الملك وجرى التقليد عليها فى القصور، فلكى يكون ملمّا بحقوق هؤلاء الناس، عارفًا مقدار ما ينبغى لكلٍّ منهم، واقفًا على ما يطرأ على كل طائفة ينبغى أن تكون صلته بناظر خاصته يوميّة حتى لا يخفى عليه شىء وحتى لا يحرم المستحقين من حسن تقديره[2].

١٠ - الوزيـر والوزارة :

وقد استعان الأنبياء والملوك بالوزراء الصالحين كهارون من موسى وأبى بكر من محمد، وجاماسب من كشتاسب، ويزر جمهر من أنو شيروان، ومثل البرامكة من بنى العباس. لذلك وجب أن يعيّن على رءوس جميع العمال والمتصرفين العاملين وزير. . فإذا كان خبيثًا ظالمًا طويل اليد كان عماله كذلك بل أضل سبيلاً[3].

وينبغى أن يكون الوزير مطلق السلطة وأن تترك له سياسة الدولة. . إذ هو الذى يسبغ على الملك هالة من نور، ويجعل حكمه زاهرًا ويخلد اسمه فى التاريخ، لأنه يد الملك ومادامت هذه اليد خيّرة رشيدة اتصف صاحبها بما لها من الفضل.

هذه هى منزلة الوزارة بالنسبة للدولة. أمّا شرائطها: فإنّ «النظام» يتشدد فيها لأن الوزير يحتل أخطر المناصب وعليه مدار المُلك والملة، والدين والدولة،[4] لذلك يوصى بأصالته وكرم محتده فضلاً عن الصفات الجسمية والخلقية الأخرى

(١) حديث ١٦.
(٢) فصل ٤٠.
(٣) سياستنامة ص ١٤٤.
(٤) الوصايا ٣٥.

التى يجب أن تتوافر في جسده وسلوكه فيزر للسلطان وزير كريم أصيل. . ولا يأذن لمن لا أصل له ولا فضل فى عمل من الأعمال. . ولا يقرّب الأحداث[1]، وهى شروط مازالت باقية، فكيف بمنصب الرئاسة التى هى مركز الوزير حينذاك.

ثم يملى «النظام» شروطًا أخر فى الوزير من أولها حسن العقيدة ويريد بها أن يكون شافعى المذهب أو حنفيًا[2] تقيًا ورعًا ملمًا بوجوه المعاملات سخيًّا مخلصًا للسلطان. . خبيرًا بالتقاليد يضع الأمور فى نصابها، ويردّ الألقاب إلى ذويها ويمنحها لمستحقيها، ويقضى على البدع والسنن السيئة المحدثة[3]، وألاّ يسمح لأحد بأعمال كثيرة وألاّ يحرم أشخاصًا من العمل[4].

أمّا واجبات الوزير فيفصّلها لنا ـ النظـام ـ فى كتابه «الوصايا» تحت أربعة أقسام: رعاية جانب الله، والسلطان، وحاشيته ثم سائر الخلق[5] لأن الغرض من هذا المنصب الخطير ليس الحصول على الطعام والشراب إذ هو متيسّر لأدنى أجناس الحيوان، وإنما الهدف منه هو تحقيق السعادة للجميع في الدارين: الدنيا والآخرة[6].

ويجب على الوزير أن يكرّس كل وقته وتفكيره فى تصريف أمور المملكة بالعدل والاستقامة، وزيادة ثروة البلاد عن طريق العدالة والإنصاف لا الجور والاعتساف وأن يتجنّب الملاهى والمناهى، فكل صغير منها يعدّ كبيرًا إذا اقترفه[7]. وإذا ما وجد الوزير من السلطان انحرافًا عن الصواب أو ميلاً لرغبة

---

(١) سياستنامة ص ١٥٤ ف ٤٢.
(٢) سياستنامة ص ١٤٧ ف ٤٢.
(٣) سياستنامة ص ١٢٩ ف ٤١.
(٤) سياستنامة ص ١٣٨.
(٥) الوصايا ص ٣٥.
(٦) الوصايا ص ٣٦.
(٧) الوصايا ص ٤٤.

جانحة عن الحق فينبغى أن يشير عليه بالصحيح ليتلافى ذلك ولكن بإسلوب ظريف لا صراحة فيه للمنع، فإن طريقة العرض الحسنة توصل إلى النتيجة المطلوبة[١]. كما ينبغى عليه اللطف بأصحاب القلم لأنهم من كرسى الوزارة بمنزلة الجيش من عرش السلطان، فهذا لا يستقر إلاّ بهؤلاء وذلك لا يسند إلاّ بأولئك[٢].

١١ - الموظفون فى الدولة :

ولا يجوز أن يسند عملان لموظف واحد، وذلك لا يفعله الملوك الحاذقون والوزراء الأذكياء، لأن إسناد عملين لرجل واحد ينتج عنه اضطراب العمل وعدم استطاعته القيام بهما، فالموظف الذى يقوم بعملين مضطر أن يحيل بعض أعماله على ثان، وهذا على ثالث.. وهكذا لا يتم العمل على الوجه الأمثل ولا تتحقق فكرة إسناد العملين إليه لكفاءته. وقد قيل إنّ سيدتين لا تستطيعان إدارة بيت واحد فإذا اجتمعتا خرب البيت.

وينتقد «نظام الملك» إسناد أعمال كثيرة لرجل واحد فى الدولة السلجوقية. ويتحدث عن جشع هؤلاء الموظفين فإنهم إذا شغرت وظيفة طمعوا فى شغلها مع كثرة ما لديهم من أعمال. ويحدث هذا فى الوقت الذى يترك فيه ذوو الكفاءات بغير عمل مع ما تؤهلهم له كفاءتهم من الجدارة والثقة، فهم مغمورون فى بيوتهم. ومن بين هؤلاء الأكفاء من يستحقون فى عهد هذه الدولة أن يشاد بذكرهم.

ويشترط فى الموظف أن يكون من ذوى الاعتقاد السليم، تقيّا من أهل السنّة، ويعيب «نظام الملك» على الدولة استخدام النصارى واليهود والقرامطة، فهؤلاء يبغضون الإسلام ولا يشفقون على المسلمين ولم يكن أيام محمود أو مسعود أو طغرلبك أو ألب أرسلان أن يجرؤ مجوسى أو يهودى أو نصرانى أو رافضى أن يمثِلّ فى المعسكر أو أمام العظماء. وكان رؤساء البيوت من الترك

(١) الوصايا ص ٤٩.
(٢) الوصايا ص ٧٠.

يعهدون بالأعمال إلى موظفين من أهل السنّة الأتقياء.. وأنه لمن الأفضل ألاّ يعمل عدونا فى وسطنا، وقد عاش أولئك السلاطين الذين اتبعوا هذه السياسة فى أمان. أمّا اليوم فقد بلغ الأمر أن أصبح لكل أمير تركى عشرة أو عشرون من هؤلاء الكفار يخدمونه حتى لم يبق مجال إلاّ لقلة من الخراسانيين فى البلاط أو الإدارة.. فإننا نقدر على أعدائنا إذا كانوا فرادى... إلخ، فإذا تكاثروا استحال علينا غلبهم، وأنت نفسك ـ يقصد السلطان ـ الذى يقرر هذا، وأنك تخون نفسك وملكك حين تشرك أعداء الدولة في الإدارة، وإذا جاز لك أن تتصرف فى شئونك الخاصة كما يروق لك فليس لك أن تدع الحزم والحيطة أو تبقى الخونة فيما يتعلق بالملك.

ثم ينبغي أن لا يستخدم الوالى نصرانيّا أو يهوديّا فى عمله، بل عليه أن يفسح المجال للمسلمين. ويروى أن أبا موسى الأشعرى كان يقدم لعمر بن الخطاب حساب أصفهان، فرأى أن الخط جميل والأرقام مرتبة، فسأله أن يرى الكاتب. فقال له الأشعرى: «إن كاتبه لا يستطيع دخول المسجد» فسأله عمر: «أجُنُب هو؟».. فقال أبو موسى: «بل هو نصرانى». فضربه عمر على فخذه حتى كاد يكسره. وقال ألم تسمع كلام الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(1).

ثم أمر بعزل النصرانى، فعزل. ويذكر «نظام الملك» فى هذا المقام بيتين من الشعر:

من الخير أن تحذر أعداء صديقك	وأن تصادق أصدقاءه
وأن لا تأمن لصنفين من الناس	أصدقاء عدوك وأعداء صديقك

وإذا كان الموظف من ذوى الكفاءات النادرة وكان يهوديّا أو مجوسيّا أو نصرانيّا، وضايق المسلمين واستخف بهم فتظلموا منه وجب عزله ولم يجز الاحتجاج بكفايته وندرة وجود مثله. فقد حدث فى عهد عمر كذلك أن ولّى سعد بن أبى وقاص سواد بغداد وواسط وخوزستان والبصرة فاستخدم سعد يهوديّا فى جمع الضرائب من هذه النواحى، واشتكى المسلمون منه وبعثوا لعمر ابن الخطاب شاكين أنه يظلمهم ويستهزئ بهم والتمسوا أن يعيّن بدله مسلمًا

(1) سورة المائدة- من الآية 51.

فإن ظلمهم أو استخف بهم فهو مسلم وهم مسلمون. فلما قرأ عمر الشكوى قال له: «إن لليهودى أن يعيش آمنًا، ولكن ليس له أن يظلم المسلمين». وكتب إلى سعد بعزله. فجمع هذا العمال المسلمين وأحضر اليهودى وأخذ يختبرهم فلم يجد بينهم من يصلح للقيام بعمله. فكتب إلى عمر بذلك ونصح استبقاء اليهودى حتى لا تختل أمور الضرائب، فلمّا بلغ كتاب سعد أمير المؤمنين، كتب إليه قائلاً: «مات اليهودى؟» فلما قرأ سعد هذا أدرك مقصد عمر وعزل اليهودى، وولّى مسلمًا مكانه. وفى العام التالى أحرز المسلم من التوفيق ما لم يتح لليهودى.

والوظائف ثلاثة أقسام: كبيرة ومتوسطة وصغيرة، فإذا نصّب فى كل نوع منها الموظف اللائق به حسب مؤهلاته وكفاءته عمرت الدولة وازدانت بموظفيها.

وعلى الملك أن ينقد الموظفين أجورهم حسب ما تقتضيه أعمالهم وألاّ يقتِّر عليهم، فإن الموظف الصالح يزيد مال الخزينة بما يؤديه من عمل فى إخلاص ومثابرة. وإذا أشار وزير بجمع المال والتقتير فى الأجور على الرجال فهو عدو الملك لأن الدولة بالرجال والرجال توجد المال. أمّا المال وحده فلا غناء فيه.

وينبغي أن ترعى الدولة الموظفين الذين بلغوا من الكبر عتيًا، فاستغنت عن خدماتهم، لأنهم كانوا يؤدون لها خدمات جليلة ومنهم من استحق الألقاب، وإذًا فيجب أن تعيّن لهم مرتبات تعينهم على العيش إذا تقدمت بهم السن أو أن توجد لهم عملاً يسيرًا ليتوفر لهم العيش، وليس من العدل إهمالهم على ما لهم من مؤهلات، وما أدوا من خدمات.

وهناك طبقة من الناس ينبغي على الدولة رعايتها وتوفير القوت لها وهى طبقة العلماء والأدباء، فإنهم يؤدون أجلّ الخدمات للدولة بما يكتبون فى العلم أو الأدب، فهم ينشرون العلم والعرفان ويبثّون المدنية فى الدولة، وإذا لم

يعطف عليهم الملك فإنهم يضطرون إلى الالتجاء لبلاط ملك آخر يرحب بهم فتفقدهم الدولة وقد يساهمون بعد ذلك فى الفتن ضدها.

ويعود «نظام الملك» فيكرر على الملك أن من الخير استخدام هؤلاء بدلاً من إسناد عشر وظائف إلى رجل واحد[1].

١٢ - السفراء بين الدول:

وعلى الملك أن يرسل سفرآء إلى الملوك وأن يستقبل سفراءهم. وينبغي أن لا يذاع خبر مقدم سفير إلى أن يقابل الملك. وليس لأحد أن يمدّ السفير بمعلومات فى مجيئه أو ذهابه، ويحمل هذا السلوك على الغفلة أو الجهل الذى يحدث فى المصادفات. وعلى حرس الحذود حين يعلمون بمجيئ سفير أن يبعثوا للملك باسمه، واسم الملك الذى أوفد من عنده، وعدد من معه من الحاشية- فرسانه ورجاله- ومن أى طريق أتى، وما يحمل معه من الأمتعة، والغرض من سفارته.

ثمّ على رئيس حرس الحدود أن يبعث مع السفير رسولاً ليقوده الى أقرب بلد منه ويسلمه إلى ضابط هذه الجهة وهو يوصله إلى جهة ثالثة وهكذا حتى يصل إلى بلاط الملك. وفى كل هذه الخطوات ينبغى أن تقدم للسفير وحاشيته كل حاجياته وأن يعامل بغاية الاحترام. وكذلك حين عودته، فإن أى خلل باحترامه يعدّ إهانة للملك الذى هو سفيره.

وإذا حدث نزاع بين ملكين بينما سفير أحدهما عند الآخر وجب رعاية هذا السفير وحسن معاملته رغم ما بين الملكين من عداء، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[2].

---

(١) فصل ٤٢.

(٢) سورة النور ـ الآية ٥٤.

وليست مهمة السفير قاصرة على حمل خطاب أو رسالة بل إن عليه مهمات كثيرة، عليه أن يستعلم عن حالة الطرق والمسالك وعن أماكن الماء والآبار والمشارب. وعليه أن يعلم إذا كانت الطرق صالحة لسير الجيوش أو غير صالحة، وهل يوجد علف للدواب أو لا يوجد، وأن يعرف شخصية الضباط الذين يقابلهم على الحدود، والقوة الحربية للملك الذى أوفد إليه، وما لديه من أسلحة الدفاع وأسلحة الهجوم. وعلى السفير أن يتعرف كيف يعيش الملك: مائدته وجلساؤه، ونظام بلاطه، وهل يلعب الصولجان ويرتحل للصيد، وأخلاقه، وهل يميل إلى العواطف والحب والغرام أو أنه قاسى القلب لا يهتز لضراعة إنسان، وماذا يحب وماذا يكره، وهل يحب الصبيان والنساء وهل تستخفه الخمر، وكيف يتصرف، ثم يعرف أحوال بذخه وكرمه وظلمه وعدالتّه، أشاب هو أم شيخ، مثقف أم جاهل.

ثمّ على السفير أن يعلم إذا كانت المملكة التى أوفد إليها تتدهور أم تزدهر، والجيش كاف أم لا يسد حاجة البلاد، ورعاياه أثرياء، أم فقراء، وهل هو ملك خامل أم عامل، متدين أم فاسق، وهل قواده مجربون وحاشيته هل هى من العلماء الأذكياء أم من الأغرار المفتونين.

كل هذه واجبات السفير وغاياته وإن لم تظهر، وعلى هذا النحو يعرف الملوك استخدام الوسائل الناجحة فى ضوء معلومات السفير عندما يريدون الهجوم أو القيام بأى مشروع عدائى أو ودّى مع الملوك الآخرين، فإنهم يكونون على علم بمناقب وعيوب الملك الذى يقصدونه.

وجرى العرف بأن يقابل السفير الوزير قبل أن يقابل الملك، ليمهد له الوزير هذه المقابلة. ويروى «النظام» مثلاً على ذلك ما كان من دقة ملاحظة سفير خاقان ما وراء النهر حين أوفد إلى بلاط «ألب أرسلان» وعن أى شئ يسأل الملك رسوله حين يعود فيقول: «وقد حدث أن كنت مع أحد أصدقائى وكنت

ألعب الشطرنج على رهان وغلبته، فكسبت خاتمه ووضعته فى أصبع يدى اليمنى، فقد كان واسعًا على أصبع يسراى. وأُخبِرْت بأن رسول خان سمرقند قد حضر فقلت ليقف حتى يرفع الشطرنج. فلما دخل وجلس وقال ما عنده كنت أدير الخاتم فى أصبعى فوقعت عينه عليه وأنا أديره. فلما انتهى من حديثه وانصرف، سمح السلطان بعودته وعيّن من قبله رسولاً ليحمل الجواب فأرسلت مع هذا الرسول «الأشتر» العالم. فلمّا بلغ الرسولان سمرقند ودخلوا عند «شمس الملك». . سأل رسوله: «كيف وجدت ما للسلطان من رأى وتدبير وفطنة؟ وكم عدد جيشه؟ وكيف آلاته وعدده؟ وما ترتيب البلاط والديوان؟ وما هى الأسس التى تقوم عليها دولته؟». . فقال الرسول: «إن السلطان يا مولاى لا ينقصه شيء من الفطنة والهيبة والشجاعة والسياسة والنفوذ. وأمّا عدد جيشه فلا يعرفه إلاّ اللّه. وأمّا أسلحته وآلته وأسباب تجملّه فلا تقاس. وكذلك حسن ترتيب الديوان والعدالة والمجلس والبلاط، ولا ينقص مملكته شيء، إلاّ أن به عيبًا واحدًا لو خلا منه لما استطاعت فئة أن تثور عليه. فقال شمس الملك: «ما هذا العيب؟» فقال: «إن وزير السلطان رافضى». . فسأله من أين عرفت هذا؟ فقال: ذهبت إليه وقت صلاة الصبح لأتحدث إليه فرأيته وقد وضع خاتمًا فى يده اليمين وأخذ يديره وهو يتحدث معى[1].

فكتب إلىّ الأشتر فى الحال عما دار من حديث فى حضرة شمس الملك: «وقد استولى علىّ الرعب إذ فكرت فى غضب السلطان، فإنه كان يبغض المذهب الشافعى وكان يعيب علىّ مذهبى. فإذا علم فجأة أن أهل ما وراء النهر يحسبوننى ملحدًا، ويتحدثون عنى هكذا لخان سمرقند فإنه لا يغفر لى فأنفقت من مالى ثلاثين ألف دينار ذهب وقبلت جميع ما كان أمامى من التركمان، وعفوت وتوسعت كل أنواع السعة حتى أمنع هذا الخبر من بلوغ مسامع السلطان».

(١) فصل ٢١ ص ٨٩.

وينبغى أن يكون فى قصر الملك عشرون سيفًا مرصعة باللآلئ والجواهر الكريمة وذلك لاستخدامها حين يحضر لزيارته سفراء الدول، فيقف عشرون خادمًا من خدم القصر وبيدهم هذه السيوف الجميلة ولئن كان السلطان ـ أعزّه اللّه[1] ـ لايحتاج إلى هذه المظاهر إلاّ أنها مظاهر الملك، ينبغى أن تتوفر وينبغى أن تساير عظمة الحكومة ونظامها، وإذا كان الملوك الآخرون يستعملون هذا التقليد فمن الأولى أن يستخدمه ملكنا الذى هو أعظم منهم جميعًا، والذى يملك أكبر مملكة فى الأرض: «فإذا كان للملوك شىء فإن لمولاى عشرة وإن كان لهم عشرة فلمولاى مائة»[2].

١٣ - القضاة والقضاء:

ويتحدث «نظام الملك» عن القاضى ووظيفته، فينصح السلطان بأن يعُنى بشئون القضاة من حيث اختيارهم وأعمالهم وتوفير سبل العيش لهم، لأن القاضى هو ميزان الملك عند رعيته، ويجب أن يكون ذا وقار وورع وأناة وزهد، وأن يكون ذكيّا عالمًا فطنًا عاقلاً عارفًا بأدب القضاء، وألاّ يتعجّل بالحكم إلاّ بعد ثبوته.. وأن يكون فقيهًا نزيهًا عفيفًا خبيرًا بمذاهب الناس.. وألاّ يقبل هدية، وقول شفيع فى شىء من أمور الحكم. فعلى الملك أن يختار من اكتملت هذه الصفات فيه وأن يعزل من لا يتحلّى بها.. وينبغى أن يمنح كلاً منهم من الأجر ما يكفيه حتى لا تحدثه نفسه بما يمّس نزاهته، ولا يخفى على الملك قيمة مصالح المسلمين التى فى يد القضاة، فإذا أصدر القاضى حكمًا عن جهل أو هوى فى نفسه فعلى رجال الإدارة أن يسجّلوه وأن يبلّغوا الملك ليعزله أو يعاقبه.

وينبغى تدعيم سلطة القاضى وألاّ يمّس نفوذه، ما عمل بالعدل، حتى لا

(١) إن هذه الجملة الدعائية تدلنا على أن الكتاب ألف فى حياة السلطان ملكشاه وليس بعد ذلك ثم نسب «للنظام».

(٢) فصل ٢٠ ـ سياستنامة.

تضيع ثقة الناس فيه. وإذا امتنع أحد الخصوم عن الحضور أمام القاضى، زهواً وجب إحضاره قهراً وهو راغم. ثم تحدث «نظام الملك» عن القضاء أيام الساسانيين، مشيداً بعدلهم وسهرهم على حماية حقوق الناس.

ومما وصل إلينا بهذا الشأن مرسوم صدر فى عهد السلطان ـ ألب أرسلان ـ بتعيين أقضى القضاة مؤرّخًا فى عام ٤٥٧هـ. وقد فوّض إليه إدارة المساجد والأوقاف الملحقة بها، واختيار عمال مجلسه وانتخاب وكلائه.. وفيه يقول خلال مقدمة مسهبة فى بيان أهمية القضاء ومثله فى الدولة: «لأن قوام أعمال الشريعة ودوام نظام المملكة توأمان، واطّراد أحوال الأمة مع اتساق أعمال الحكومة متلازمان، ولأن ضبط المصالح الشرعية لأجل صيانة الدماء والأموال، وإثبات حقوق الخواص والعوام»..

ثم يقول: بعد تفصيل طويل فى ذلك: ناصحًا القاضى الجديد بالتقوى وخشية اللّه التى هى أوجب على العلماء ممن سواهم، وموصيًا له بالتجرد عن الأغراض النفسانية والأعراض الإنسانية مفترضًا فى حكمه الأمانة والصدق، وأن يسترشد بذوى الرأى ولا يستبد، وأن يتأنى فى تنفيذ الحكم ولا يتعجل، وأن يفتح باب مجلسه لأرباب الدعاوى وأصحاب الدواعى، متجنبًا كل ترجيح مشوب بغرض أو تفضيل منسوب إلى رشوة، وأن لا يتجاوز حد المساواة فى الحكم بين الشريف والوضيع والغنى والفقير.. وأن يحفظ الودائع التى تودع لديه من حجج ووصايا وأوزان وأمثالها إلى أن تردّ إلى أهلها.

وعلى القاضى أن يختار عمال مجلسه ممن لهم سابقة فضل يستحقون بها تفويض تلك الأشغال الدينية وذلك بعد اختبار قابلياتهم لحمل تلك الأمانة العظيمة، وليكن تحقيق حالهم مقدمًا على تقليدهم ذلك العمل.. وأن ينتخب وكلاءه ممن لهم خبرة بعلوم الدين واطلاع واسع على أسرار الدعاوى الشرعية وتقارير الحكومة.

أما كاتب العرائض فيجب أن يكون مكسواً بالديانة عارفًا بشروط التحرير، واقفًا على رسوم المقالات الشرعية لدى المحكمة ماهرًا بأساليب الكتابة واصدار السجلات. وأما القضاة وحكام أطراف المملكة فإنهم جميعًا نوابه ـ السلطان أو أقضى لقضاة، وإنهم ينفِّذون أمره وحكمه وإليه الأمر فى نصبهم وعزلهم، وليس لأحد منهم أن يحكم دون إجازته.

ثم يختم المرسوم بتبليغ أعيان الدولة وسائر طبقات الرعايا بوجوب احترامه وطاعته ولا سيما الأمراء والكبراء لأن اجتهادهم فى إشادة هذا النظام الدينى من موجبات نظام الدنيا لتكون يده ويد نوابه مبسوطة فى تنفيذ أحكامه، لتدوم أسباب الراحة، وتنفتح أبواب العطاء والرحمة[1].

١٤ – المحتسبون للمراقبة:

وعلى الملك أن يعيِّن فى كل بلد محتسبًا ليراقب الإدارة والأمن وليحافظ على الأسعار المحددة حتى لا يتجاوزها التجار فيرهق كاهل الشعب نتيجة لطمعهم وجشعهم، فعلى المحتسب أن يكون يقظًا محيطًا بكل ما يجرى من العمليات التجارية حتى تتم الصفقات بالثمن الحلال، وأن يلاحظ ما يرد على الأسواق من الخارج حتى لا يكون غش أو مغالاة فى الربح، وأن يراقب الموازين والمكاييل وعلى المحتسب أن يكون ليّنًا أو شديدًا حسب ما تقتضيه الأحوال.

وعلى الملك وعماله أن يؤيدوا المحتسب فى تأدية وظيفته فإنه عماد من عمد الإدارة الحسنة، إذا لم يؤد وظيفته على وجهها الأكمل يقاسى فقراء الشعب ويلات الغلاء ويبتز الجشعون من التجار الأرباح الحرام، ويختلّ ميزان الجماعة، فيثرى الذى لا ضمير له ويقع فى الفاقة الشريف ذو الكرامة وتنهار قواعد الشريعة.

---

(١) انظر: الملحق رقم ٥ من البحث.

ويُختار المحتسب من بين ضباط الملك المقربين (ومن بين الموالى الترك أو الفرس) الذين تقدمت بهم السن وكثرت تجاربهم فى الحياة والذين يخافهم الناس ولا مصلحة لهم فى عملهم إلاّ أن يقيموا العدل ويحافظوا على القانون.

والمحتسب الحر لا ينظر للقضايا عن طريق أشخاصها إنما ينظر إليها من ناحية العدل المجرد عن الهوى، وهو لا يعرف الخوف أو التردد، ويقضى بما يرى غير هيّاب، وضرب «نظام الملك» لهذا المحتسب المستقيم مثلاً فقال: «كان (على نوشتكين) قائد السلطان محمود فى حضرته ذات ليلة، وطالت جلسة الشراب، وكان (نوشتكين) متأثرًا بالخمر أشد التأثر وأراد أن يذهب إلى بيته وهو فى هذا الحال، فنهاه السلطان ونصحه أن يبقى حتى الظهر وأن ينصرف إذا أفاق من سكره ونبهّه إلى أن المحتسب قد يراه وهو سكران فيضربه ويعرّض منصبه للتحقير والازدراء ولا يستطيع السلطان مع المحتسب شيئًا. وكان (نوشتكين) من أبطال عصره، وكان له خمسون ألف فارس، فلم يسمع نصيحة السلطان، وانصرف ومن حوله بعض خدمه. ورأه المحتسب فى الطريق وكان معه مائة من رجاله، فأمر بإنزال (نوشتكين) من على فرسه ولم يبال بقدره وأخذ يصفعه على وجهه ويضربه بالسياط حتى سقط على الأرض ورجاله من حوله يبصرون ما يجرى على سيدهم ولا يستطيعون الدفاع عنه. ثم حملوه إلى بيته، ولمّا أفاق قال: هذا جزاء من لا يسمع لنصيحة السلطان»[1].

١٥- الولاة وأمراء الإقطاع:

توسّع «نظام الملك» فى نظام الإقطاع، إذ إنه رأى الدولة قد اتسعت، وتعثرت الجباية وتُرِك جزء كبير من الأرض بورًا، وهجرت قرى كثيرة فأصبحت خاوية، وكان يرى أن الطريق الأمثل لإسكان زعماء القبائل التركية التى انضمت للدولة وأن يكسب رضاء هؤلاء الزعماء بمنحهم إقطاعات يقومون برعايتها وتعميرها وجباية الأموال فيها، بذلك يرضى القبائل التى يعتمد عليها الجيش وتسعد الدولة بتعمير أراضيها وتنظيم الجباية فيها. وعلى أصحاب

(١) فصل ٦ ص ٤٨ نشر وتحقيق مدرسى طهران.

الإقطاعات ألاّ يأخذوا من الشعب غير الضرائب المقررة، وعليهم جبايتها بالحسنى، وإذا دفع الحراثون ما عليهم وجب أن يأمنوا على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وعيالهم، وينبغى أن تكون أموالهم - عقارية ومنقولة - بعيدة عن الاغتصاب أو تدّخلّ صاحب الإقطاع فيها.

ولكى يتحقق للشعب الضمان فى أن السلطان يرعاهم من اعتداء أصحاب المقاطعات وجب ألاّ يحول أحدهم دون دخول الشاكين قصر السلطان لرفع مظلمة أو إثبات حالة، وإذا خالف أحدهم ذلك نزع منه إقطاعه وناله عقاب شديد ليكون مثلاً لغيره. وعلى الناس أن يعلموا أن الإقطاعات وساكنيها رعيّة للسلطان، وأن أصحاب الإقطاع والحاكم حرّاس عليها من قِبله، وعلى السلطان أيضًا أن يجعل صلته بالشعب قائمة على المحبة والتعاون ليرضى اللّه عنه.

وعلى السلطان أن يقيم بجانب أصحاب الإقطاع والحكام عيونًا لينقلوا إليه يومًا بيوم كل تصرفاتهم وأقوالهم، فإنه إذا اطلع على تصرفات ولاته أن يدرك أسرارهم، فإذا دأب على دراسة أحوالهم فإنه يَلّمُ بكل مملكته.

وعلى الملك أن يبحث فى كل مدينة عن أكثر أهلها تقربًا من الله وخشية منه وأن يعهد إليه بإدارتها وأن يجعله مسئولاً عما يُسْأل عنه الملك يوم القيامة. وعلى هذا الوالى أن يراقب بدقة سلوك العامل والقاضى ورئيس الشحنة وأن يقف على ما يجرى بين الناس صغيرهم وكبيرهم، فإذا توفرت شروط الرياسة فى رجل واعتذر عن قبولها وجب إجباره على القيام بها فان الوظيفة ضريبة على الأكفاء ومن حق الدولة أن تفرض على الرجل الكفء كل ما تريد(1).

وإذا تبين للملك أن حاكمًا قد أخطأ فإن عليه أن يناديه، وأن يكظم غيظه، ثم يلفت نظره إلى خطئه وينبّهه إلى أنه رفع مرتبته فهو لايريد أن يحطّ منها، فإذا عاد فارتكب خطأ فإنه يحط من قدر نفسه ولا يكون مفر من عقوبته وذلك لكى يكون للحكام احترام كافٍ فى أعين الناس.

---

(1) فصل ٧.

وهو ـ النظام ـ ينتهز فرصة الكلام عن الحلم الذى ينبغى أن يتوافر فى الملك.. يروى عن «علىّ بن أبى طالب» كلمة حين سئل عن أفضل الناس، فقال: «الكاظمين الغيظ». ثم يحكى قصة الحسين بن علىّ حين دعا جماعة من الصحابة للأكل معه، وكان وراءه خادم طويل القامة فأراد أن يناوله طعامًا فانسكب ما فى الطبق على رأس الحسين، فخاف الخادم وقال: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس»، فتفتحت أسارير الحسين وقال: «إنى أعتقتك حتى لا تخشى بعد اليوم غيظ أحد ولا تنتظر من أحد عفوًا» وهكذا حاول «نظام الملك» أن يخفف من غلواء السلاطين السلاجقة وسرعة غضبهم[1].

ولا يترك «نظام الملك» فرصة من غير أن يقص على مسامع الملك حكايات عما كان يفعله الملوك الساسانيون لتحقيق العدالة بين الناس، ولوضع الأمور فى نصابها إذا ما حاكم حدّثته نفسه بظلم أحد من الشعب، وينبغى الاحتياط تحقيقًا للعدل وتمكينًا لسيادة السلطان فينقل العمال وأصحاب الاقطاع كل سنتين أو كل ثلاث سنوات، حتى لا يقووا فى أماكنهم ويتحصنوا بها، فيشتغل قلب السلطان بقوّتهم، وحتى يسيروا فى الناس سيرة حسنة ويصلحوا البلاد[2].

١٦ـ الغلمان والتجنيد:

لا يجوز إرهاق الأرقّاء المُعدِّين للخدمة بغير مبرر كما لا يجوز استخدامهم فى رمى السهام فى كل وقت. ويجب أن يمرّنوا على التجمع السريع إذا كانوا متفرقين، وكيف يتفرقون وهم مجتمعون. ثم يجب أن ننبههم إلى ما ينبغى أن يكونوا عليه حتى يواظبوا عليه. ويتم بلا تكلف تنفيذ الأمر اليومى بتعيين الساقى وحافظ السلاح والقائم على الشراب والملابس وأمثالهم وكذلك تعيين الغلمان يكون من الأمير الحاجب أو السلطان (الأمير الكبير)، وذلك حتى يقدّم

(١) فصل ٣٣ ـ سياستنامة.

(٢) فصل/ ٥، وانظر كذلك: مرسوم السلطان ـ ألب أرسلان ـ فى إقطاع حكومة قهستان إلى الأمير عميد الملك. الملحق رقم ٤.

«الوثاق باشى» هذا العدد المحدد للخدمة، وما يطلب من العبيد الخاصين حتى لا تحدث مضايقات.

ويحدّث «نظام الملك» سلطانه عما كان يخضع له الرقيق من النظم من يوم شرائه إلى أن يهرم ويصبح غير قابل للعمل، فإن هذه النظم لم تراع فى عهد السلاجقة. ومن رأى «نظام الملك» أن يعمل بها من جديد فإنها كانت متبعة في البلاط السامانى.

كان الرقيق يُرقّون فى وظائفهم حسب ما يؤدونه من خدمات وحسب شجاعتهم وجدارتهم. وكان الغلام الذي يشترى يعمل أولاً سنة وهو راجل، وكان يرتدى ثوبًا من قطن (زندجى)، وكان يسير وهو فى هذا الثوب بجانب ركاب سيده. ولم يكن يسمح له بركوب الخيل، لا علانية ولا خفية فإذا ركب عوقب. فإذا انتهت مدة السنة أخبر «الوثاق باشى» الحاجب فيأمر هذا بإعطائه حصانًا تركيًا فى فمه عصا، كما يعطى لجامًا وسوطًا بسيطًا.. فإذا أتمّ مدة السنة بالحصان والسوط يعطى فى السنة التى تليها حزامًا يشدّ به وسطه، ثم يعطى فى السنة الخامسة سرجًا ولجامًا مزينًا بالكواكب، ويلبس إداراى ودبوسًا يعلقه فى حلقة السرج. وفي السنة السادسة من الخدمة يعطى ثيابًا ملونة وغالية، وفى السنة السابعة يعطى خيمة تستند إلى عمود وتشدّ إلى ستة عشر وتدًا، ويكون له ثلاثة غلمان يتبعونه، ويلقب بلقب «وثاق باشى» أى رئيس جماعة من الغلمان، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء من اللّبد المزركش بالفضة، ويرتدى ثوبًا من حرير كنجه.

ويظل يسمو فى رتبته سنة فسنة فى الجاه والتجمل والخيل والمرتبة فمن «آبدار» أى «ساقى الماء» وصب الماء للأمير أثناء الوضوء إلى بيش خدمت أى (خادم خاص) إلى أن يبلغ مرتبة - خيل باشى - رئيس الخيالة، وأعلى ما يصل إليه بعد ذلك فى سلك الغلمان - وظيفة حاجب وذلك إذا شاعت كفاءته وفضله فى كل مكان. فإذا كان له من جدارته ومكانته عند الملك ما يهيّؤه

لمناصب الدولة الكبرى، وما يجعله جديرًا بالألقاب السامية فإنه إذا يزيد سنّه عن الخامسة والثلاثين قد يرقى إلى مرتبة أمير وقد يشغل منصب ـ والى .

وفى هذا السن عهد إلى ـ ألب تكين ـ غلام السامانيين بسپّهسالاريّة ـ خراسان، وبلغ به جدّه وعلت به مكانته إلى أن أصبح واليًا على خراسان ثم صار حاميًا لأسرة سيدّه، فلمّا مات خلفه عبد من عبيده «سبكتكين» الذى هو رأس الأسرة الغزنوية. ثم يذكر «نظام الملك» بالتطويل ما كان بين ـ ألب تكين ـ والى خراسان وبين سيده السلطان عبد الملك بن نوح بن نصر، وما كان من انصراف «ألب تكين» لفتح الهند ونشر الإسلام فيها بعد أن أراد سيدّه أن يقاتله، ثم يتحدث عن اختيار القواد لسبكتكين أشجع الغلمان فى جيش «البتكين» ليخلفه.

وينتهز «نظام الملك» فرصة التحدث عن «ألب تكين» وفضله على الدولة السامانية لينبّه السلطان إلى أنه لا يجوز أن يستمع «الملك» إلى الوشاة فى حق رجل مخلص له، دائب على السعى لإنهاض مملكته، ولم يرتكب عملاً يسيئ إلى ملكه أو إلى وطنه أو إلى نفسه، بل هو يذود عن العرش الذى يؤيده الله، فيقول:

«والحق أن مصير العائلات والممالك والحكومات مرتبط بشخص واحد، وقد كان (ألب تكين) سندًا للعرش الساماني، فلمّا حاربه السامانيون وأرادوا قتله، لم يقبل أن يقف أمام سادته، ذيادًا عن نفسه بل تركهم وولى وجهه شطر الهند، فترك دولتهم نهبًا للناهبين. وليس من اليسير أن يجد السلطان رجلاً من عبيده يخلص له ويستطيع أن يثق به ويعتمد عليه، وإذا أسعده الحظ ووجد هذا الرجل فإن عليه أن يحتفظ به وألاّ يستمع إلى من يشى به عنده، وقد قال الحكماء: إن غلامًا صالحًا مخلصًا خير من مائة ولد، لأن الولد يريد أن يموت أبوه ليخلفه، فى حين الغلام يتمنى لسيده طول الحياة[1]..

(١) فصل ٢٧.

وعلى حاجب الملك أن يُعرِّف الغلمان وظائفهم فى القصر حتى يكونوا على استعداد دائم للخدمة فيظل واقفًا منهم الذى يجب عليه أن يقف وليعلِّم من له حق الجلوس متى وأين يجلس. ويقف حول الملك أكبر ضباط الخدمة الخاصة، مثل السايس، والساقى وغيرهما، يقفون حول العرش وقريبًا من الملك وعلى الحاجب أن يكون يقظًا بحيث لا يكلمهم أو يقف معهم أحد. وكذلك عليه مراعاة النظام بينهم حتى لا يجلس من عليه الوقوف منهم أو يحضر من لا محل له وهكذا[1]..

وإذا وثق الملك بغلام عنده وأراد أن يستعين به فى أمر من أمور الدولة فعليه أن لا يسرف فى ذلك، فإن بعض الغلمان يحمل أمرًا ملكيّا، وبعضهم لا يحمل وهم يؤذون الناس، ويأخذون أموالهم أحيانًا كجعل لهم. وفى بعض المنازعات لا تزيد قيمة الموضوع المتنازع عليه عن مائتى دينار ومع ذلك يتعاطى الغلام خمسمائة دينار جُعْلا له، وهذا جشع يؤدى إلى فقر الشعب. فينبغى أن لا يرسل غلام من القصر إلاّ فى القضايا المهمة وأن يكون معه أمر ملكى، وأن يُعرَّف قيمة الخصومة وأن يؤمر بأن لا يزيد جعله عن مبلغ معين لا يأخذ أكثر منه»[2].

١٧- الجيــش وإعداده:

من رأى «نظام الملك» أن يزداد عدد الجيش وهو ينصح السلطان بذلك وينهاه عن سماع من يريد تقليله، إذ ينبغى أن تفكر الدولة فى زيادة الجيش لا فى إنقاصه، فإذا أشار موظف على السلطان بإنقاص الجيش إلى سبعين ألفًا بدلاً من أربعمائة ألف بدعوى أن ذلك يوفر للخزانة مبالغ طائلة فلا يجوز أن يستمع السلطان إلى نصحه بل عليه أن يعلم أن هذا المشير يريد الفساد فى الدولة ولا يودّ لها السعادة، فيجب إذن أن نزيد الجيش إلى سبعمائة ألف

(١) فصل ٣٠.

(٢) فصل ١٢.

جندى لأن بأربعمائة ألف يستطيع السلطان أن يكون سلطانًا لخراسان وما وراء النهر وكشغر وخوارزم ونيمروز والعراق وفارس والشام وآذربيجان وأرمينية وأنطاكية وبيت المقدس، فإذا استطاع أن يزيد جيشه إلى سبعمائة ألف امتد نفوذه على السند والهند وتركستان والصين وما وراءها، وبلغ الحبشة والروم ومصر والمغرب.

وكانت سياسة «نظام الملك» تقضى بأن يشتغل بالجندية أكبر عدد ممكن من الترك لأنهم يحبون الحرب والمغامرة ولأن تسريح آلاف منهم يحملهم على الالتفاف حول كبير لهم فيثورون على الدولة لأنها منعت أجورهم عنهم، وبهذا تنفد خزينة الدولة فى القضاء على ثوراتهم فى حين أنها إذا احتفظت بهم تزدهر وتتسع وتصبح أجورهم جزءًا من الخير العميم الذى يجود به الفتح والغزو وامتداد السلطان[1].

ويرى «النظام» أن تكون نفقات الجيش وأجور الجند معدّة دائمًا، وأن تحفظ هذه الأموال عند حكام المقاطعات ليدفعوها للجند فى أوقاتها[2]. أمّا الغلمان الذين لا يتبعون إقطاعًا فإن أجورهم تكون مجهزة دائمًا حتى تدفع عند حلول الأجل، وعلى الوزير أن يعدّ نفقات الجيش وأجور جنده بحيث لا يفاجئ الخزينة بهذه الطلبات. وينصح «النظام» بأن يعطى الملك أجور رؤساء أو قادة الجند بيده، فإن هذا يزيد قربهم منه وإخلاصهم له[3].

ثم يحدّث «نظام الملك» السلطان عما كان يفعل الملوك السابقون فقد كانوا لا يقطعون رزق أحد من الجند. ويرى أن يكون الجيش مكونًا من أجناس عدة فإن الدولة السلجوقية قد شمل نفوذها على ترك وفرس وديالمة وعرب وغيرهم، فمن الخير أن يشترك هؤلاء جميعًا فى الجيش ليذودوا عن المملكة التى هم أجزاء منها. وإذا كان الجيش مكونًا من جنس واحد فإنه قد يثور على الملك، وهو يفقد روح الغيرة والمنافسة إذا كان من جنس واحد. ويضرب للسلطان مثلاً من

---

(١) فصل ٤٢.

(٢) فصل ٢٣.

(٣) فصل ٢٣.

جيش الغزنويين الذي كان من الترك والخراسانيين والعرب والهنود والديالمة وأهل غور، فكانت كل فرقة تحرص على إبداء شجاعة رجالها حتى لا يقال إنها ضعيفة بالنسبة لزميلاتها[١].

على أن اختيار الجيش من أجناس متعددة لم يمنع «نظام الملك» من توصية السلطان على التركمان لأن لهم حقوقًا على السلاجقة رغم ما يرتكبون من أخطاء وما يسببون من اضطرابات، فإنهم قدّموا للدولة مساعدات قيّمة أثناء تكونها، ثم هم أقارب السلطان. وهو ينصح بأن يُثبت فى السجل أسماء ألف من أبنائهم، ويخصص لهم مكانًا لإقامتهم كما هو الحال مع الغلمان، وسوف يتعلمون آداب السلاح والخدمة لأنهم سيتمرنون على الدوام، ويعاشرون الرجال ويخلصون فى العمل ويخدمون كالغلمان وتذهب عن طباعهم هذه النعرة التى فيهم. وكلّما ظهرت الحاجة إليهم رتّب خمسة آلاف أو عشرة آلاف ممن عينوا فى الخدمة على نسق الغلمان ويجزون جزاءهم، فلا يحرمون نصيبهم من الدولة ويزدهر الملك ويعيشون بسرور[٢].

وكذلك ينبغى أن يكون فى جيش الملك فرقة خاصة من أبناء الملوك الخاضعين له[٣]، من عرب وكرد وديالمة وروم، وفرس وغيرهم، يرسل كل منهم ابنًا أو أخًا إلى البلاط السلجوقى كرهينة وليعدّ إعدادًا خاصًا، ولا تقل هذه الفرقة عن خمسمائة، وهؤلاء الأمراء يستبدلون بغيرهم كل سنة على أنه لا يجوز تخلية أحدهم عن عمله قبل وصول بديله حتى لا تثير الإبدالات أحدهم على السلطان وقد منح أمراء الديالمة وكوهستان وطبرستان وشبانكارة وغيرهم إقطاعات ومرتبات، وهكذا يقيم خمسمائة من هؤلاء الرجال فى القصر فإذا مسّت الحاجة لايكون القصر خاليًا من الحرس.

وينبغى أن يرفع كل طلب للجند الى الملك على لسان قوادهم، فإذا أجيب

(١) فصل ٢٤.
(٢) فصل ٢٦.
(٣) كان فى مصر فرقة من هذا النوع. سفرنامة ـ النص العربى للدكتور/ يحيى الخشّاب.

الطلب علم الجند أن هذا بفضل القواد فيزداد احترامهم لهم[1]. على أن يراعى النظام العسكرى بدقة فى الجيش فعلى الصغير أن يحترم الكبير، وإذا اعتدى عليه عوقب عقابًا صارمًا ليظل التقليد العسكرى نافذًا[2].

ويجب أن يلفت نظر قادة الجيش ممن لهم مخصصات واسعة لأن يبذلوا كل جهدهم ليظهروا بمظهر فخم فى أسلحتهم وفى كل ما يمس حاجات الحرب وأن يكثروا من شراء العبيد فإن عظمتهم وسمعتهم فى الجيش ترجع إلى كثرة أملاكهم والثراء فى بيوتهم، ومن بذل فى مظهر الجندية كل عناية دنا إلى قلب السلطان وازداد نفوذه عنده وعلا على القادة الآخرين[3]. على أنه لا يجوز أن يصل المظهر العسكرى لقائد الجيش إلى حد مجاراة الملك فى مظاهره الخاصة.

ثم يحدِّث «نظام الملك» السلطان بما كان من قصة بزرجمهر للملك أنوشروان ناصحًا له بالحد من سلطات رجال الجيش على الشعب ومن امتيازاتهم بحيث لا يعتدون عليه باستعمال سلطة ليست لهم، ولا يظهرون أمامه بمظهر هو من حق الملك وحده[4]. فليس من حق القائد أن يوقّع عقوبات على الناس ولا من حقه أن يكون له تاج أو ركاب أو كأس من ذهب أو تخت أو يضرب نقدًا باسمه، فكل ذلك من حقوق الملك وحده[5].

ويشير «نظام الملك» على السلطان بأن يتبع سياسة والده «ألب أرسلان» فى استغلال قوة المماليك الترك، والترك من الجند، وحبهم للنظام وميلهم إلى حرب الفروسية وتعصبهم الشديد للدين الحنيف فتكون الحدود لهم مستقرًا ليحموها ويدفعوا الأعداء عنها، وليسهل قيامهم منها للغزو.

وعلى الملك أن يراقبهم أشد المراقبة وأن يتحرى عن سلوكهم وألاّ يتوانى فى توقيع أشد العقوبات على من يعتدى منهم على الناس، فإنهم طغاة فى

(١) فصل ٢٥.
(٢) فصل ٣١.
(٣) فصل ٣٢.
(٤، ٥) فصل ٤٣.

الحرب بغاة فى السلم، لا يقف فى سبيل شهواتهم سلطان أو قانون، فإذا وجدوا الملك يقظًا فى محاسبتهم خافوا بأسه وخضعوا لما يفرضه عليهم من نظم.

وهو يحدث السلطان عن سلوك الخليفة المعتصم معهم، فإنه بقدر تدليله لهم والإسراف فى إرهابهم وتمييزهم على سائر مواليه، لم يكن يتهاون فى معاقبتهم إذا ما ابتدروا أحدًا باعتداء. ثم يقصّ على الملك قصة المملوك الذى اختطف سيدة من الطريق فى بغداد، فلمّا استغاثت بالتجار وهو يسوقها أمامه فى السوق، ذهبوا لإغاثتها فأمر بضربهم فتفرقوا وكان من بينهم خيّاط ذكى فذهب إلى المسجد وصعد المئذنة، قبل أن يلوح الفجر، وأذّن للصلاة، وكان غرضه من هذا أن يسمع المملوك أذان الفجر فيظن أن الصبح قد أذّن بالطلوع فيطلق سراح السيدة، ولكن المعتصم كان مستيقظًا فى ذلك الوقت، فأمر بإحضار هذا المؤذن الذى يرفع صوته بالأذان قبل ميعاده، فلمّا أحضر الخيّاط نفى عن نفسه تهمة السخرية بالدين، وقصّ حكايته على الخليفة، فأمر هذا بإحضار المملوك وأمر بوضعه فى كيس وضربه بالعصى حتى هلك ثم ألقوه فى دجلة، وقد ظل هذا الخياط بعد ذلك مهيب الجانب من الترك، يخشونه ويخافون أذانه، فقد أمره المعتصم أن يؤذّن إذا ما رأى اعتداء لا يستطيع دفعه(١).

وهكذا ينبغى أن يحرص السلطان على مراقبة جنده وقادته وأصحاب الإقطاع فى مملكته، فانهم إن رأوا منه تساهلاً أو تغاضيًا آذوا الشعب، فيصبح الجيش أداة إرهاب للناس لا كما ينبغى أن يكون حاميًا للدولة عاملاً على مدّ نفوذها وإسعاد شعبها(٢).

١٨- الألقــــاب وتحديدها:

ثم يتحدث «نظام الملك» عن الألقاب وهو يطالب السلاطين باحترام الخلفاء فلا يجوز أن يحمل السلطان الخليفة على أن يمنحه لقبًا، فإن اللقب إذا أعطى

(١) لم ترد هذه القصة فيما راجعناه من مصادر كتبت عن المعتصم، ولعلها من وضع «النظام» فى هذه المناسبة، ولكنها جاءت فى سياستنامة.
(٢) فصل ٢٢.

قهرًا فَقَد مدلوله، وهو ينصح ملكشاه بأن لا يفعل كما فعل محمود الغزنوى حين هدد الخليفة بالعزل لأنه لم ينعم عليه بلقب التمسه منه.

وينبغى أن تختص كل طائفة من الشعب بألقاب خاصة بها، فلا يحمل القاضى لقب الوزير، ولا الأمير لقب المحتسب، ولكى يجلو الأمر للسلطان يذكر «نظام الملك» أن الشعب ينقسم إلى ست طبقات: الأمراء وقادة الجيش (وهم أصحاب الإقطاعات) والوزراء والعلماء (ومنهم القضاة) والموظفون والحرّاثون (ومنهم أهل الحرف).

فأمّا الأمراء فألقابهم حسام الدين وأمين الملّة وهكذا. ويلقب قواد الجيش بسيف الدولة وحسام الدولة وظهير الدولة.. ويلقب الوزراء بالأستاذ الجليل والأستاذ الخطير وكافى الكفاة وشمس الكفاة، ونظام الملك وقوام الملك. ويلقب العلماء والقضاة بمجد الدين وشرف الإسلام وسيف السنّة وزين الشريعة وفخر العلماء. ويلقب كبار موظفى الديوان بعميد الدولة وكمال الملك وعميد الملك.

ولا يجوز أن تدخل كلمة «الملك» إلاّ فى ألقاب الوزير والمحتسب والعارض وعميدَىْ بغداد وخراسان، أمّا من هم أقل شأنًا من هؤلاء فيلقبون بالخواجة الرشيد والمختص والسديد والنجيب والأستاذ الأمين والخطير والمكين.

ثم ينبّه الوزير سلطانه بأن عليه أن يتحرى عن أحقية المنعم عليه باللقب قبل منحه، وذلك حتى يحفظ قدر أعمال النابهين من شعبه ويحفظ للألقاب قيمتها ومعناها ويسبغ عليها من حكمته وحسن تقديره واختياره آيات الشرف والفخر والجلال.

* * *

تلك هى دولة «النظام» كما رسمها لنا بقلمه، واقتبسناها من آثاره القلمية وسيرته العلمية، وهذه هى دنياه التى عمل فيها ومن أجلها حتى قُضى عليه.. ودنياه هذه موصولة بأخراه كأنها عالم واحد، فهو دائم التحدث عنها، دائب الجد والجهد خشية حساب الله بين طمع فى ثوابه

وخـوف مـن عذابـه، لذلك لم نقرأ له فصلاً إلاّ وفيه وعظ للسلطان، وتخويفـه مـن عقـاب ربه[1].

وكان غرضه من وراء كل ذلك إيجـاد دولة أساسهـا العـدل، فالعـدل عنـده ـ كما يلوح من ثنايا كتابه ـ غاية كل تنظيم، ومقصد كل تشريع: «فإن العهد الرضى لهو العهد الذى يقوم به السلطان العادل»[2]... والعدل ـ كما عرفه ـ وعرفناه من خلال تعابيره، توافر العمل للعاملين ومنح الرزق للمحرومين وإحقاق الحق للمظلومين بحيث لا يوجد فى الدولة عاطل أو محروم أو مظلوم. وبعد: فماذا حقق «النظام» من دولته؟.

الذى يبدو لنا ـ ولا نظنه إلاّ حقًا ـ أن مصير دولة «النظام» كان كشقيقاتها من جمهورية أفلاطون ومدينة الفارابى وجزيرة يوتوبيا لـ «توماس مورو» و«حى ابن يقظان» لابن طفيل فقد شيّد أسوارها، وبنى عماراتها وخطّ شوارعها ومحلاتها ولكنه عجز عن إيجاد سكانها وتكوين أناسيها، فلا الخليفة ولا السلطان ولا الأمير ولا الوزير ولا الحاكم ولا العالم ولا الأديب بمستطيع أن يكون كما أراد أولئك الفلاسفة منذ عصور خلت، وكما أراد «النظام» لدولته أن تكون منذ القرن الخامس الهجرى... لذلك رأيناه برمًا من الأوضاع فى أخريات أيامه، ساخطًا على الفوضى فى المقاييس.. وما وافاه الأجل حتى شهدنا الشقاق يستفحل بين الأمراء من أبناء ملكشاه، والخلاف يستشرى بينهم وبين الخليفة العباسى، وتغدو تلك الرقعة الآمنة المتطلعة لعالم أفضل بركانًا ثائرًا يفيض بدماء الألوف من الأبرياء وتحترب الأقوام وتخترب المدن الآهلة بالسكان.

على أنه مما ينبغى أن نعترف به أن الدولة المثالية ـ يوتوبيا ـ التى خطّط لها «النظام» ودعا ملكشاه إلى تسلمها وتنفيذها لم يقتطف ثمارها فى حياته، ولم نجن قطوفها نحن بعد وفاته.

---

(١) سياستنامة ف ١٣ ص ٥٦.

(٢) سياستنامة ف ٧ ص ٥١ الأصل الفارسى.

(٣) لقد ورد بهذا الاسم فى التراث العربى الإسلامى منسوبًا لأكثر من واحد منهم ابن سينا من علماء القرن الخامس وابن النفيس والسهروردى. راجع: ضحى الإسلام ـ أحمد أمين.

والذى يغلب على ظنى ـ وما أظنه إلاّ صوابًا ـ أن أية صورة أحاول تخطيطها لدولة «النظام» لا تكون شاملة وافية ما لم يرجع إليها الطامع فى المزيد بنفسه، ويتنقل بين أسوارها ودروبها فى كتاب سياسته وصفحات سيرته، ثم فى وصاياه وأماليه فى الحديث ورسائله لأبنائه التى سنتحدث عنها فى الباب التالى.

وممّا يلفت النظر وينبغى الإشارة إليه ونحن نختتم الحديث عن الدولة النظامية أن «نظام الملك» فى دولته، منذ عشرة قرون كان أكثر واقعية ممن سبقه أو زامنه أو جاء بعده، فإنه كان عارفًا بأسرار النفس البشرية، معترفًا بنوازعها فى الدنيا وإن الإنسان الذى تتألف منه ولأجله دولته المثلى خلق ضعيفًا ليسعى إلى القوة وينشد الكمال كما ورد فى القرآن[١]، وأنه بطبيعته نَزّاع إلى حب التملك والمال والتفوّق والخلود بعد أن هداه النجدين: وهو طريق التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل والظلم والعدل والمساواة والاختيار. فلا بّد من قوة تردعه أو تخفّف من ميوله، ولابد أن تملأ هذه الفضائل شغاف قلبه وأعماق فكره ونفسه كما تملؤها نزعاته.

وإن القارئ لعناوين دولة «النظام» ليكتشف أنه ممن يؤمن بالقوة وإنها عماد التاريخ، وإن الدين قوة فطرية لولاها لم يتقدم الإنسان ولم يستقر ويهدأ ويتحضر، إذ هو أقوى من الجيش فى الدولة من أجل الدفاع عن الوطن، أو الفتح لأداء الرسالة الإنسانية.

فلابد أذن من الدين الذى اهتدى إليه الإنسان بفطرته قبل أن يؤيده العقل بمنطقه والعلم بدلائله.. ولابد أن يكون هو الإسلام الذى هو آخر الأديان ورسوله خاتم الرسل والانبياء.. ولابد أن تطبق تعاليم شريعته السمحاء العظيمة فهو. القوة العظيمة التى لاتدانيها قوة الجيش وأمثالها على سطح الكرة الأرضية. خصوصًا وأنه لايتعارض مع قانون التغير الذى يُعدّ سنّة الحياة، لأن الإسلام هو نتيجة تطور الأديان السماوية الثلاثة، وغيرها من مبادئ ومعتقدات.

* * *

■ الباب الخامس ■

آثار «نظام الملك» الثقافية

مؤلفاته : سياسة نامة ، بند نامة .

رسائله ، و أماليه في الحديث .

● الفصل الأول

سياسة نامة أو سِيَرْ الملوك

السياسة: معناها، وأهم المؤلفات فيها، تأييد نسبة الكتاب للمؤلف.

صلة السياسة بالدين، وصلة الدين بمكارم الأخلاق.

تمهيد : (السياسة والقصد منها، والمؤلفات المهمّة فيها) :

لم يكن لفظ ـ السياسة ـ واضح الدلالة، بيِّن القصد كما وصلنا إليه فى العصر الحديث، فقد كان عامّا إلى وقتٍ قريب، يطلقه الباحثون على مجموعة الروابط التى تربط الفرد بنفسه وبغيره وعلى صلات الجماعات بالحاكمين وعلاقات الحكومات بما جاورها من دول، وموقف الأقوام كأفراد ومجتمعات من اللّه ـ وبذلك يشمل كثيراً من أنواع العلوم والفنون الاجتماعية التى استقلت فيما بعد، ولذلك لم تجد تعريفًا علميّا للسياسة يحدد معناها بأقل من ذلك المعنى الواسع الذي يعم المثُل والأخلاق والشريعة والقوانين.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على الدين لوجدناه قد تناول تلك المسائل جميعها لذا صار غاية ووسيلة فى وقتٍ واحدٍ آنذاك. وعلى الرغم من الجهود العلمية التى بذلها الباحثون فى القرون الخمسة حتى عهد «النظام» فإن هذا اللفظ ـ السياسة ـ مازال عائمًا يتأرجح، وسيبقى ما بقيت حقيقة الخير والحق والعدل رائد الإنسانية الأول وهدفها الأخير. ولهذا قيل: السياسة لفظ معرّب ومركّب أصله «سه يسا» أولى الكلمتين: فارسية بمعنى ثلاثة. والثانية: مغولية بمعنى الترتيب، أى التراتيب الثلاثة وسببه كما فى النجوم الزاهرة: أن ـ جنكيزخان ـ ملك المغول قسّم ممالكه بين أولاده الثلاثة وأوصاهم بوصايا جعلوها قانونًا لهم وسموها بذلك، ثم غيّروها، فقالوا: سياسة[1].

وهو خطأ واضح لا يحتاج إلى تدليل.. فإن اللفظ عربى أصيل وقد وجد

(١) شهاب الدين الخفاجى ـ شفاء الغليل ص ١٠٦ ـ ط مصر.

فى العربية واستعمل فى نثرها وشعرها بمعان مختلفة قبل أن يظهر «جنكيزخان» ويغزو بجحافله البلدان الآمنة ويطمس معالم المدنية والحضارة.

غير أن واحدًا من علماء اللغة العربيه البارزين يرى ان كلمة - السياسة- مشتقة من «السوس»[1] .. إلخ.

إن المعانى التى نمر بها ـ ونحن نستوفى النقول الخاصة بالسياسة ـ تدلنا على تطورها واختلاف مفاهيمها بمرور الزمن: فهى بمعنى الرياسة والتملك... ثم انتقلت إلى فعل السائس.. ثم القيام على الشىء بما يصلحه.

ومن الأول جاءت «السياسة» بمعنى القوة والقهر من أجل السلطة وهو الذى تناقلته أقلام المؤلفين حتى العصر الذى نؤرّخ له. «فالبيرونى» يقول: «ولكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم وإنما أكثرهم جهّال لا يقوّمهم غير السيف والسوط، ومنذ تنصرّ ـ قسطنطنيوس ـ المظفر لم يسترح كلاهما من الحركة فبغيرهما لا تتم السياسة»[2]. وفى ضوء هذا المعنى يمكننا تفسير اعتداءات السلاجقة وقسوتهم فى بداية تأسيس الدولة وعدم تورعهم عن السلب والنهب والقتل وهتك الأعراض مما نفّر الناس منهم[3].

ومن الثانى جاء معنى المسايرة والمداراة الذى نقرأه فى رسالة ـ عبد الحميد الكاتب ـ إلى الكتّاب إذ نراه يخاطبهم بأن سائس البهيمة إذا كان مسيّرًا سياستها التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحاً لم يهجها إذا ركبها وإن كانت شبوبًا.. وهكذا. إلى أن يقول: «وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وجرّبهم وداخلهم»[4].

ومن الثالث كان معناها: استصلاح الخَلْق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجّى فى الدنيا والآخرة[5]. ولعل هذا آخر ما توصلت إليه السياسة من معنى، وهو تفسير قاله ـ الغزّالى ـ المعاصر «للنظام» من مشاهير الفقهاء الذين

(١) ابن منظور ـ اللسان ـ مادة سوس جـ ٧ ص ٤١٢.
(٢) البيرونى ـ تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٨٠.
(٣) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٤٧- ٤٤٨هـ.
(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ١٢١.
(٥) الغزالى ـ الإحياء جـ ١ ص ١٢٧.

حضروا مجلسه وتأثر بهم، واعتمد عليهم فى التدريس بنظامية بغداد، إذ السياسة تنظيم لامكانيات الإنسان يكون الغرض منه استخدام ما فى الطبيعة من قوى لخيره وفائدته، وبهذا تشمل ما ذكرناه من التشكيلات الإدارية والقوة لغرض النفوذ وتوجيه الناس إلى ما تراه الحكومة خيراً لهم فى الدارين.

ومن هنا بدأ تقسيم السياسة إلى أقسام: تارة بحسب الطبقات الاجتماعية وأخرى من حيث المكان الذى تسكنها، فقسّمها «ابن طباطبا» إلى أصناف ثلاثة تختلف باختلاف طبقات الرعيّة، فالأفاضل يساسون بمكارم الأخلاق والارتشاء اللطيف، والأوساط يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة، والعوام يساسون بالرهبة وإلزامهم الحد المستقيم، وقسرهم على الحق الصريح[1]. وقسّمها غيره وهم كثيرون إلى تدبير المنزل والقرية ثم المدينة، واعتبروا علم تدبير المدنية هو أهم فروع الحكمة العملية الثلاثة[2] كما جعلوا السياسة المدنية أعلى أنواع السياسات لأنها ترمى إلى تكوين مجتمع يقوم أفراده بما ينبغى أن يكونوا عليه من أداء للواجبات دون حاجة إلى حكّام، وإنما بدافع من خُلُقهم وأنفسهم، وهو ما يسمى «بالمدينة الفاضلة» أى «الأتيوبية» عند الحكماء[3].

والفضيلة هى الحصيلة الباقية لدى الإنسان حين يعجز العقل وتقصر العدالة عن بعث نوازعه الروحية لدعم صلاته بأخيه الإنسان دون طمع فيه أو خوف منه.. وهى التى لم يستطع حتى الآن أن يجمع على احتقارها أو الاستهانة بنفعها أو التباهى بالتحلل منها مهما تنكر لها فريق من الناس فى بعض ساعات غروره أو طيشه أو طغيانه، وتغلّبت قوى الشر فى نفسه.

ومن هنا بدأت صلة السياسة بالأخلاق تظهر، كما بدت علاقة الأخلاق بالدين تتضح. وكان الإسلام أكثر حرصًا وأشد إمعانًا ممن سبقه فى الدعوة لها حتى أوثر عن الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) أنه قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».. أمّا الصلة بين الدين كمعتقد شعورى ذى وعى وإرادة واختيار وبين

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٦، وكتاب تفسر ـ ترجمة الخشّاب ص ٣٩.
(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٣٧.
(٣) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٤٨.

الأخلاق كسلوك مثالى يربط بين الناس أفراد وجماعات فإنها تبدو واضحة بلفظ «المروءة» التى هى جماع ما قيل فى صاحب الرسالة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. جما جاء فى القرآن الكريم.

وتكون أكثر وضوحًا حينما نعرف أثر الضمير فى السلوك، وأن تصرفات الفرد مع غيره تتجاوب مع يقظته وغفوته، وحياته ومواته، فإذا لم يشعر الظالم بوخز وتأنيب فى أعماق ضميره صار مواطنًا فاتكًا، أو حاكمًا جبارًا عاتيًا.. وهذه الناحية الخلقية هى مهمة الدين الأساسية ووظيفته الأولى.

وأمّا العلاقة بين الخُلُق كتلبية لنداءات جاء بها الدين وتواضع عليها أفاضل الناس وبين السياسة كسلطة موجهة من أجل إسعاد الجماعات ورفاهية الأفراد فإنها تظهر جليّة كذلك بالغاية التى يتوخاها كلّ منهما.

ولم تكن الأخلاق أفكارًا تجريدية أو علمًا نظريًا يكفي اعتناقها بنظر الإسلام، إنما هى صفات طيبّة ولكنها عملية، ونوايا حسنة غير أنها تطبيقية جعلها من أوائل شرايط العقيدة ومن أهم خصائص «المعتقِد»، لذلك لم تكن أيضًا عبادات مسجدية أو أعمالاً فردية فحسب، وإنما تشتمل حياته اليومية فى البيت وخارجه وتعم صِلاته بمواطنيه والناس جميعًا..

وعلى الرغم من الوشائج بين العناصر الثلاثة وسواء أكانت الأخلاق مُثُلاً ثابتة أم متغيرة حتى لتكاد تكون شيئًا واحدًا بنظرهم، فقد كانت السياسة الخلقية والقيم المثالية هى المقاييس التاريخية التى جرى بمقتضاها النقد التاريخى لحياة العظماء والتى بموجبها ارتفع مثلاً سهم - علىّ بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز - من الخلفاء الراشدين، والأمويين، بما أتوا من أعمال انسانية مجيدة، وهبط نصيب جنكيزخان وهولاكو وأمثالهما بما قاموا به من مجازر بشرية بين الأجناس والطبقات مما لم يقرّه الإسلام. وبذلك جمعوا بين آداب المعاشرة ونظم الحكم وتدبير شئون الرعايا، وكان من هذا الجمع كتب السياسة أو الآداب السلطانية التى وصلت إلينا لما بين هذه من روابط وغايات مشتركة..

وكان من جرّاء اهتمامهم بالسجايا وصفات الفضيلة أن نقرأ الكتاب فى

---

(١) سورة القلم، الآية ٤.

قوانين الملك والسياسة فلا نجد فيه سوى عناوين فى الحلم والكرم والعفو والسماحة وغيرها من الفضائل، حتى لتكاد تكون أشبه بكتب الوعظ والإرشاد منها بكتب نظم الحكم. ولكن إذا رجعنا إلى ما ألّفه ـ النظام ـ فى هذا الباب وهو كتابه فى السياسة نجده قد خرج على هذا الخليط الذى سار عليه المؤلفون، ولم يضع لتلك الخلال الحميدة والخصال الفاسدة بابًا واحدًا وإنما درجها جميعًا فى سطور قليلة، ختم بها الفصل الثالث والأربعين الذى تحدث به عن خطر تدخل النساء فى شئون الدولة[1].

لذلك يمكننا اعتبار «النظام» فى كتابه «سياستنامة» ممن سبق للتفريق بين تلك الموضوعات الثلاثة، وأخرج لنا كتابًا فى السياسة الإدارية موحد الفكرة واضح القصد إلى حدٍ كبير شرح فيه واجبات السلطان وموظفى الحكومة، وأبان فيه عن رأيه بصراحة لبقة عما ينبغى أن تسير عليه الدولة من نظم وأهداف مستشهدًا بالحكايات وعِبَرْ التاريخ والأمثال السائرة، فى حين حفل الآخرون بصفات الحاكمين ونقلوا أقاصيص الوعظ والحكم.

أهم المؤلفات فى السياسة :

وقد حفظت لنا الأجيال بعض الرسائل المهمة فى هذا الباب كانت ولاشك من الوسائل التى مهدّت لنضج التأليف فى السياسة، كما كانت من المصادر التى استقى «النظام» منها كتابه «سياستنامة».

يعتبر أرسطو أول فيلسوف أملى كتابًا فى هذا الموضوع ـ ثم تبعه ـ أفلاطون ـ منذ أربعة وعشرين قرنًا ٤٢٧-٣٤٧ق.م. بكتاب تخيّل فيه الدولة المثالية دعاه بـ«الجمهورية» سجّل فيه آراء أستاذه ـ سقراط ـ الذى أعدم بتهمة إفساد الشباب الأثينى ٣٩٩ق.م. وضمّنه أفكارًا عليا فى السياسة النموذجية، غير أن أرسطو قد جمع بين السياسة والأخلاق لاعتقاده أنها مجموعة من المثل النسبية التى تتغير بتغير الأمكنة والأزمان.

وانتقلت فلسفة اليونان فى الأخلاق إلى عقول فلاسفة الإسلام فأوصلت إليهم من نظريات درسوها، إلاّ أنهم ـ كما يظهر ـ لم يفصلوا بين جانبها

(١) سياستنامة ص ١٨٣ ـ الأصل الفارسى.

النظرى والعملى، فوصلت إلينا عدة رسائل فى هذا الخصوص كان من أهمها حسب تاريخها الزمنى: رسالة الخليفة - عمر بن الخطاب - إلى عامله أبى موسى الأشعرى فى القضاء وكيف يجب أن يكون وقد أثبتها الجاحظ فى بيانه. وإنى قتيبة فى عيونه، وإنى عبد ربه فى عقده، والماوردى فى أحكامه. ورسائل للإمام «علىّ بن أبى طالب» إلى عامله - مالك الأشتر النخعى - فى البصرة وإلى غيره[1]، ثم عهده إليه حينما ولاّه مصر سنة ٣٩هـ، وخطبته حول حقوق الراعى والرعية[2]، ورسالة عبد الحميد بن محمد الكاتب إلى الكتّاب فإنه أورد فيها أحكامًا فى السياسة وآراء فى الحكم[3]. ورسالة الصحابة لابن المقفع وقد كتبها لأبى جعفر المنصور وقد ضمّنها قواعد فى الملك والإصلاح وأشار فيها إلى بعض المشكلات الإدارية التى كانت تشغل أذهان الحاكمين فى ذلك الوقت[4]، وعنى فيها بنظام الجند والقضاء وأهميته ثم الخراج بصفة خاصة، ثمّ رسالة طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لمّا أعطيت إليه ولاية الرقّة ومصر وما بينهما وما يجب أن يلتزمه فى الإدارة والمال والقضاء والجيش. وقيادة الجيش لقتال - نصر بن شبيب الخارجى - فانتشر أمرها وذاع صيتها حتى بلغت أخبارها مسامع «المأمون» فطلب إحضارها وسماعها فقال: «ما أبقى أبو الطيب شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعيّة وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلفاء والخلافة إلاّ وقد أحكمه وأوصى به وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال»[5].

وفى العقد الثانى من القرن الثالث الهجرى ألّف - أحمد بن أبى الربيع[6] -

---

(١) نهج البلاغة: لابن أبى الحديد.

(٢) نهج البلاغة جـ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤، وانظر: الراعى والرعيّة فى شرح عهد الإمام على إلى واليه مالك الأشتر للمحامى توفيق الفكيكى - ط بغداد سنة ٩٦٢هـ. وقد احتوى على شخصيّة الحكام وكيف ينبغى أن تكون، وانتقاء الموظفين الإداريين وطبقات الهيئة الاجتماعية والقيادة العسكرية والحرب والصلح والمعاهدات، ومسئولية الكتّاب الوزراء وأوصاف الوزير، ومبدأ سيادة الأمة وأثر التجار وخزينة الدولة وإنصاف طبقات العمال والإحسان كضمان اجتماعى بآداب الولاة... إلخ ص ٣١٥.

(٣) ابن خلدون - المقدمة.

(٤) محمد كرد على - رسائل البلغاء- ضحى الإسلام جـ١/ ٢٠٤.

(٥) ابن خلدون - المقدمة ص ١٤٨.

(٥) انظر: تحقيق ذلك للأستاذ السرنجاوى - التعريف بالكتابة.

كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك[1]، وقدّمه إلى محمد بن عبد الملك الزيات - وزير الخليفة المعتصم باللّه - العباسى وقد وضعه فى أربعة فصول جعل الثانى منها فى أحكام الأخلاق وأقسامها والرابع فى أقسام السياسات وأحكامها.

وفى الثلث الأول من القرن الرابع - أى قبل أقل من قرن على مولد «النظام» كان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م شيخًا ناهز الثمانين يعيش فى حمى سيف الدولة الحمدانى فى حلب، وقد شهد بعينيه صراع الطامعين فى النفوذ، وانفصال الإمارات الصغيرة عن الدولة الكبرى، وتجزئة المملكة الأم إلى ولايات مستقلة منها دولة الحمدانيين التى يعيش فى فيئها وتحت رعاية أمرائها.

وقد قرأ الفارابى كثيراً عن فلسفة اليونان وتأثر بأفلاطون ونظريته المثلى، فحفّزته مشاهداته وقراءاته إلى تأليف كتاب على غرار ما كتبه - أفلاطون - الذى كان يتخيل دولة مثالية يدير جهازها الفلاسفة؛ لأنهم أعلم بنفوس الناس وأعرف بحقيقة السعادة وأقدر على الإرشاد لما فيه خير البرايا، فكتب «المدينة الفاضلة» وتصور أن يكون الخليفة فيها فيلسوفًا لأن الخلافة أعلى مناصب الدولة كما أن الفلسفة أرفع منازل المعرفة.. ومع هذا فإن مدينة الفارابى تختلف عن جمهورية أستاذه فى دُنُّوها من الأرض التى كان يحيا عليها، وقُرْبها من واقع الحياة الذى كان يعيش الناس فيه[2]، وبُعدها عن ما يناقض معتقداتهم السماوية حيث يندمج فيها الدين والسياسة والفلسفة ودحض التضاد بين الحكمة - الفلسفة - والشريعة، تلك العصا التى كان أهل السنّة يلوّحون بها.

ولم يطلع القرن الخامس حتى ظهرت مؤلفات - ابن سينا والماوردى والغزالى - إلاّ أنهم لم يخرجوا فيما ألّفوه عن ربط الأخلاق بالدين وضمّها إلى السياسة فى كتبهم، وإنما اختلفوا فى مصدر الأخلاق ما هو: فقد أرجعها

(١) وقد طبع مرتين: مطبعة المعارف المصرية سنة ١٢٨٦هـ، وكردستان العلمية بمصر سنة ١٣٢٦هـ.

(٢) انظر : آراء أهل المدينة الفاضلة.

الرئيس الأول إلى تحكم العقل فى تصرفات الإنسان، والثالث إلى ذوقية الصوفية. وبهذا كانت رسائل هؤلاء لا تخلو من فصول خاصة فى الدين والأخلاق إلى جانب السياسة.

وكان ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ فى كتابه الموجز الذى سمّاه بالسياسة،[١] والذى ساهم فى إتمامه تلميذه «الجوزجانى»[٢]، كما شارك البيهقى فى جمع ما وجده لابن سينا فى كتب أخرى[٣]، بعيدًا عن السياسة التى نعرفها اليوم، والتى عرفها «النظام» وألّف فيها بعده بقليل، فإنه فى محاولته الكتابة فى السياسة كان يذكر لنا حق الولد على والديه، وواجبه نحوهما وأمثال ذلك كواجبات الفرد نحو نفسه وغيره، على أن أوجه الشبه بين حياتهما لو أردنا معرفتها لتلمسناها بسهولة، فقد كان «ابن سينا» يخدم بعض الأمراء فى بلاد فارس وما وراء النهر وتردد على بلاطاتهم وخبر الحكم عند سلاطين آل سامان وآل بويه، عالمًا وطبيبًا تارةً ومستشارًا ووزيرًا أخرى، وكان أبوه من قبل يخدم آل سامان ببخارى، كما كان والد «النظام» فى خدمة آل سبكتكين قبل السلاجقة.. وكان ابن سينا هذا متخصصًا فى دراساته متبحرًا فى مختلف العلوم حتى أصبح رئيس الفلاسفة فى المشرق، فكان من المتوقع أن يكون كتابه فى السياسة يتضمن آراءه فى الحياة والناس أكثر من «النظام».

أمّا الماوردى المتوفى ٤٥٠ - ١٠٥٨ م، فقد وردنا عنه كتاب سمّاه - قوانين الوزارة وسياسة الملك - ودعاه ناشره لأول مرة بـ« أدب الوزير»[٤] وقد ضمّنه فصولاً فى وجوب تمسك الوزير بالدين والعدل والإحسان والرويّة والرضا والوعد .. ثم ينتقل بالحديث إلى الوزارة فيفصّل أقسامها وواجبات الوزير فى كل منها وحقوقه على السلطان، كأنه تلخيص وتتمة لما ذكره فى

---

(١) منه نسخة مصوّرة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧١ح، ونشر فى بيروت سنة ١٩١٦م.
(٢) ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء جـ ٢ ص ٢.
(٣) البيهقى - تتمة صوان الحكمة ص ٣٨.
(٤) الطبعة الأولى بمكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٢٢ م. كما نشر ضمن محتويات كتاب «الوقت من ذهب» لأحمد فريد رفاعى.

كتابه - الأحكام السلطانية - فى السياسة وتدبير الملك ويختمه بفصول فى الوصايا بتهذيب النفس والاستجابة والتواضع والشكر للّه على العلم ، والصبر فى الشدة والتودد إلى الناس والحذر من غدر الزمان إلى آخر ذلك فى نصائح كأنها البذور التى استثمرها «النظام» فى « وصاياه » أو مصادر الإلهام التى استوحاها فى بعض تصانيفه وبخاصة كتابه - السياسة .

وأمّا الغزالى - ت ٥٠٥هـ/ ١١١١ م - فإنه يبدأ كتابه الذى دعاه « نصيحة الملوك »[1] بفصول دينية فهو ينصح بها السلطان « محمد بن ملكشاه » الذى ألّفه وأهداه له بالشكر للّه على نعمه وأداء الفرائض والاعتقاد بالخالق وتنزيهه عن الكم والكيف ، وإثبات الصفات له والإيمان بعدله .. ثم ينتقل إلى أهميته فى الدولة ومعاقبة العمال والولاة إذا ظلموا وموقفه من الرعيّة ، وفى هذا الباب الأول لا يتعدى الوعظ والإرشاد والحكايات عليها والاستشهاد بأبيات من الشعر والحكمة والموعظة حتى ليكاد إذا جرّدنا الكتاب من القصص والأمثال لم يبق منه سوى بضع وريقات فى التمهيد لها لا تخلو من الإرشاد والنصح .. وفى الباب الثانى يتحدث عن الوزارة حديثًا مقتضبًا يذكر فيه ضرورتها للسلطان وواجباته نحو الوزير . ثم ينتقل فى الباب الثالث إلى وصف الكتّاب وآدابهم، وفى الباب الرابع إلى الملوك وبعض الحكايات عنهم، وفى الباب الخامس إلى الحكماء وبعض الحكم من أقوالهم ، وفى السادس إلى شرف العقل وبعض المأثورات فى مدحه، ثم يختمه فى الباب السابع عن طبائع النساء وصفاتهن وشرائط الزواج بهن .

فهو كتاب - كما رأيناه - بعيدٌ عن « السياسة » كعلم له قواعده وأحكامه وعن نظم الحكم كتشريعات وقوانين لتنظيم إدارة الدولة ، وهو - إذا أوردنا له

(١) وقد ترجمه إلى العربية أحد تلاميذه «صفى الدين أبو الحسن على بن مبارك بن موهوب الدربلى» باسم «التبر المسبوك فى نصيحة الملوك» نشرته المطبعة التجارية بمصر. راجع ابن خلكان الوفيات جـ ٢/ ١٤ ط طهران، واليافعى وقائع سنة ٥٠٥ هـ، والصفدى ترجمة الغزالى ، والقزوينى فى تاريخ العجم، وروضات الجنات فى ترجمة مجد الدين مبارك .

تصنيفًا - فى صميم علوم الدين والأخلاق، وبهذا يختلف عن كتاب «السياسة» لوزيرنا «النظام» فى موضوعه وتبويبه وفى أسلوبه وطريقة عرضه، ومن مؤلفات الغزالى - المنقذ من الضلال - وفيه بحث أهداف العلوم ومنها - علم السياسة - وكذلك كتابه - سر العالمين - يبحث فيه نظام الحاكم .

* * *

- سياستنامة وزمن تأليفه ونشره :

وفى ذات يوم من سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م طلب السلطان ملكشاه من كبار موظفيه أن يقدموا له تقريرًا ضافيًا عن الأوضاع السائدة فى المملكة على أن يتضمن المساوئ والنواقص التى يلحظونها ، والتوصيات والخطط الممكنة لعلاج المشكلات التى يرونها . . حيث أحسّ بالنقص والفساد يدب فى أوصال الدولة التى وسعت أكبر رقعة عرفها التاريخ فى القرون الوسطى ، وشعر بخطورة البدع الخبيثة التى ألحقت الضرر بها، واختلال الأحوال الإدارية التى ستقضى عليها .

فى هذه الظروف الراهنة طلب من وزيره وأعيانه ونوابه أن يضعوا تقريرهم حول نظم الحكومات وتقاليد الملوك فى تدبير الممالك ، ولم تثبت النصوص التى وصلت إلينا سوى أربعة من أبرز شخصيات البلاط السلجوقى يومذاك كانوا كطرفى رهان فى حلبة السباق لنيل رضا السلطان والتودد إليه والتنافس على أرقى المناصب والفوز بها وهم : شرف الملك[١] ، وتاج الملك[٢] ، ومجد

(١) شرف الملك هو «أبو مسعد محمد بن منصور الخوارزمى» - عيّن رئيسًا لديوان الزمام والاستيفاء فى عهد ألب أرسلان . وبأمر من سلطانه الأول بنى الضريح على قبر أبى حنيفه والمدرسة بجانبه لتدارس الفقه الحنفى . ثم عزل فى عهد ملكشاه وانزوى فى داره حتى مات سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م بأصبهان (العماد الأصبهانى).

(٢) تاج الملك - «أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز بن دارست»، كان خادماً للأمير ساوتكين مدة ثم قدّمه هذا إلى السلطان ملكشاه وزكّاه فقرّبه إليه وولاّه أمور حريمه وخزائنه وعهد إليه بديوان الطغراء والإنشاء ، ثم اتفق مع المنافسين للنظام ليكيدوا له حتى قضى عليه وعلى سلطانه ثم على نفسه بيد المماليك النظامية فى المحرم من سنة ٤٨٦ هـ (العماد الاصبهانى).

الملك[1]، وكان «النظام» فى مقدمة من طلب إليه ذلك، وقد حازت مذكرته دون زميلاتها رضا السلطان وقبوله حتى عبّر عن فصولها بأنها جاءت « وفق ما يشتهى فؤاده »، فلا موجب للمزيد. وأنه سيجعلها نصب عينيه يسير بمقتضاها فى الناس. فيجيبه «النظام» بأسلوب الحكيم، ويطمئنه على استقرار الأمور، وهدوء الرعيّة، وخضوع جميع الأقطار لصولته وخشيتهم من سيفه وهيبته، وأنه يعلم كل ما يجرى فى المملكة ولايحتاج إلى مشير أو دليل، وإنما أراد أن يمتحن عبيده ليعرف مقدار عقلهم، ودرجة علمهم، وأن هذا هو السبب الذى جعله يأمر هذا العبد أن يكتب له طرفًا من السيرة الحسنة التى لاغنى للملوك عنها [2].

لقد وردنا كتاب السياسة بأسماء أربعة: هى سياستنامة، وسير الملوك، وقانون الملك، وينجاه فصل وهى تدلنا على موضوعه، وحكايات التمثيل التى احتواه والتوصيات التى ضمّنه ثم عدد فصوله، غير أن الاسم الأول أصبح أكثر شيوعًا، على أنه - كما أعتقد - أبعد عن اسمها الأصلى ، فإن النصوص القديمة التى تلت عصر المؤلف تشير إلى هذا الكتاب باسم - سِيَر الملوك - كما ورد فى نصيحة الملوك للغزالى .

ولئن صحّ هذا يكون «نظام الملك» ممن سبق إلى اعتبار «سِيَر الملوك» صورًا من السياسة، لأنه وجد فى سيرتهم أمثلة حيّة عليها ونماذج ناطقة بالسياسة التى انتهجوها، لتحقيق الخير والعدل والرفاهية ونفى الشر والظلم والبؤس فى المجتمع الذى يسودونه، ولما بين سِيَر الملوك والسياسة من صلة وثقى بحيث

(١) مجد الملك - «أبو الفضل أسعد بن محمد القمى»، قام بأعمال الملك عند ما استوزر على أثر سخط السلطان ملكشاه على وزيره «النظام»، ثم قام بدور المنافس لمؤيد الملك بن «النظام» أثناء وزارته لبركيارق وسعى ضده وفرّق بينه وبين أخيه الكبير فخر الملك حتى تغلب على الوزارة إلى أن قتل على يد الغلمان النظاميّة سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨م

(٢) سياستنامة - مقدمة الناسخ ص ١ ، ٢ الفصل الأول فارسى .

يمكن أن يكونا شيئًا واحدًا بنظرهم آنذاك، ولأنها قبل أن تكون علمًا مستقلاً ذا قواعد خاصة ومؤلفات معينة، إنما كانت تعرف من ـ سِيَر الملوك ـ الذى أمدّها بكثير من أصوله ونظرياته وطرقه. وسواء جاء اللفظ ـ سِيَر ـ بصيغة الجمع يريد به تراجم حياتهم أو المصدر يقصد به عاداتهم وتقاليدهم فى إدارة دفة الملك فإنه من أوائل المعانى التى كان يتوخاها «النظام» فى كتابه، ولذلك أطلق عليه هذا الاسم ـ سِيَر الملوك ـ خلال حديثه مع السلطان، ثم اشتهر بعد ذلك باسم ـ سياستنامة ـ وطغت هذه الشهرة على اسمه الأصلى.

والكتاب ـ كما يظهر ـ فى إدارة الدولة وتنظيماتها الحُكْمّية وليس فى السياسة خاصة عدا نظرات متناثرة قالها فى ثنايا العبارات الطويلة وفى خواتم بعض الفصول وفواتحها تعبّر عن آراء له فى تعريف شئون المملكة، وتكشف عن فلسفته فى الحكم والهدف من تكوين الدولة... ولعل اشتهاره باسم ـ السياسة ـ يعود لتلك المتفرقات فيه لأنها الغرض الأساسى من تأليف الكتاب، ولأن النظم الإدارية من وسائل تحقيق هذا الغرض، ومن المعانى التى يشملها لفظ السياسة آنذاك.

ويكاد يجمع الباحثون أن «النظام» شرع فى تأليفه وتقديم القسم الأول من فصوله سنة ٤٨٤هـ أى قبل اغتياله بعام واحد. ويرى بارتولد ـ أن المؤلف قدّم إلى الناسخ ـ محمد المغربى ـ وهو على أهبة السفر إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م أحد عشر فصلاً إضافيًا بشرط ألاّ يسلمها إلى السلطان إلاّ بعد موته[1].

وقد استقى هذا الرأى من مقدمة الناسخ وخاتمة الكتاب، وهو غير صحيح لأن المؤلف والناسخ لم يقولا بذلك، ولأن «النظام» لا يعرف متى وكيف يموت، وإن تنبأ بذلك، ولأن البحث عن الباطنية وخطر مبادئهم على الدولة

(١) سياستنامة ص ٢٥٥ ـ الخاتمة فارسى.

جزء من التقرير المطلوب الذى يشعر «النظام» بضرورة اطلاع السلطان عليه، فلا داعى لإخفائه حتى يموت. . ولعل الذى أوقعه فى هذا الخطأ إنما هو الخطأ فى الترجمة التى اعتمد عليها مع اعترافه بعدم دقتها[1]، وأن كل ما قاله «النظام» عند تقديمه الفصول المذكورة للمغربى: «اكتبها بخط مشرق. . وإذا منعنى القدر من العودة فيمكنك عرضها أمام سيد العالم»[2].

ومن غير شك أن الأحد عشر فصلاً تنم عن ألم وحزن عميقين كان يعانيهما ـ النظام ـ بسبب المنافسين له فى الديوان وخارجه أمثال: «تاج الملك وحسن الصبّاح» ممّن استمالتهم الدعوة الباطنية حتى اتهم بها السلطان نفسه، واعتقاده بخطر هذه العقيدة على كيان الدولة ووجوب تنبيهه إليه لذلك كانت لهجته فيها تعبّر عن المرارة والضيق اللذين كان يشعر بهما.

والخلاصة: يمكننا القول بأن الكتاب مرّ فى ثلاث مراحل إلى أن وصل إلينا بشكله الذى بين أيدينا اليوم، الأولى: عندما وضعه ـ النظام ـ تلبية لأمر السلطان ملكشاه ـ وقدّمه إليه بين ثلاثة تقارير أخر من أقرانه فى تسعة وثلاثين فصلاً موجزة وكان قد كتبها على عجل وذلك فى عام ٤٨٤هـ كما تثبت النقول التى وصلت إلينا. . وثانى المراحل: حينما أعاد النظر فيه وزاد إلى كل فصل ما عنّ له وناسبه وأضاف إلى فصوله أحد عشر فصلاً فى البِدع والنِحل وخطورتها على المملكة وسلّمه إلى خازن الكتب، وهو على جناح سفره الأخير ليلحق بموكب السلطان الذى سبقه إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ ليستنسخه حتى يرفعه للسلطان بنفسه إن امتد به العمر، ويقدّمه لأعتاب السلطان ليضاعف من يقظته إذا وافاه الأجل[3]. . وكانت ثالثة المراحل: عندما حانت الفرصة للخازن واستطاع أن ينفّذ أمر الوزير فنسخه وقدّمه للخزانة السلطانية مؤملاً أن يحظى

(١) بارتولد ـ تركستان ص ٢٥، إذ يرى أن ترجمة شيفر غير دقيقة أيضًا.

(٢) سياستنامة ص ٢٥٠.

(٣) سياستنامة ص ٢٤٩، ٢٥٠ ف ٥١ فارسى.

بالرعاية والقبول[1]. وذلك فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه الذى حكم من سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٥-١١١٨م أى بعد مقتل «النظام» بأربعة عشر عامًا على أقل تقدير، وذلك بسبب المعارك التى استمرت بين أبناء ملكشاه من ناحية والاضطرابات الداخلية التى أحدثتها انتفاضات الباطنية من جهة أخرى.. وقد سوّغ الناسخ لنفسه أن يتصرّف فى بعض مضامين الكتاب وهو ينسخه فأضاف إليها عبارات الإجلال والتعظيم والدعاء بمناسبة تقديمه للسلطان الجديد، وحوّر وغيّر وبدّل وحذف ما شاء له ليتناسب مع العهد الجديد ولينال رضا السلطان ويشمله برعايته وعطفه، ولسنا ندرى ـ على وجه التأكيد ـ مقدار ما أضافه أو حذفه فى جمله وفقراته، وكل ما نستطيع التثبت منه هو أن عبث النسّاخ قد لحقه فوجدنا فيه بعض الأحداث التاريخية الخاطئة، والوقائع التى حدثت بعد «النظام» والموضوعات النابية التى يستبعد أن يثبتها قلمه.

وصدقت نبوءة «النظام» بموته ولم يعد إلى أصفهان حيًّا ليرى ما عمله ـ المغربى ـ فى كتابه، وبقى كتاب السياسة ـ مخطوطًا يعبث بنصوصه النسّاخ ويحرّف فى عناوينه النقلة طوال ثمانية قرون مضت على اغتيال مؤلفه «النظام» الوزير الشرقى المسلم إلى أن هيأت له الأقدار باحثًا ليس من الشرق ولا من المسلمين، ذلك هو المستشرق الفرنسى ـ شيفر ـ فحققه ونشره سنة ١٨٩١م فكان أول من أخرجه إلى عالم النور، وأول من ترجمه إلى لغة أجنبية ثم ألحقه بملاحظات جغرافية وتاريخية سنة ١٨٩٣م، وبذلك أصبح من المتيسر الاطلاع على محتويات هذا الأثر النفيس، الذى كانت مخطوطاته نادرة جدًّا[2].

لقد رجع ـ شيفر ـ قبل نشره النص إلى ثلاث مخطوطات:

أ - كانت منسوخة سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

---

(١) سياستنامة ص ٢ ـ مقدمة الناسخ فارسى.

(٢) براون ـ تاريخ الفرس الأدبى ص ٢١٢.

ب ـ نسخت فى مدينة ـ أحمد أباد ـ سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦٣٢م عن مخطوطة قديمة كتبت سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بأمر الأمير حاجب ـ ألب جمال الدين.

جـ ـ جرى استنساخها فى الهند فى ١٠ شوال سنة ١٠٥٨هـ/ ٢٩ تشرين الأول سنة ١٦٤٨م عن نسخة سابقة خطت عام ٥٦٤هـ.

ثم قوبلت نسخة ـ شيفر ـ المصحّحة بالمخطوطتين فى مكتبة بطرسبورج بروسيا سنة ١٨٩٠م[١]. وقد عانى الناشر كثيرًا من المتاعب وبذل كثيرًا من الجهود للتغلب على تغييرات الناسخين وتصحيفاتهم سواء بدوافع مذهبية أو نتيجة للجهل. وإن كتابًا كهذا فى موضوعه الواسع المتشعب، ولغته الأجنبية ليس من اليسير تدقيقه وإخراجه فضلاً عن ترجمته وإصدار ملحق له.

- منابع الكتاب والشك فى نسبته:

مما قاله «النظام» وهو يقدم لكتابه هذا ويذكر أسباب تأليفه: أنه دوّن ما عنّ له من مشاهداته ومحفوظاته ومسموعاته ومقروءاته نزولاً على الإرادة السلطانية السامية[٢]. ونحن إذا رجعنا إلى الكتاب وجدنا آثار ما قاله واضحة جليّة، لا تحتاج إلى بيان أو برهان، فإن سماعاته من أعلام مجلسه فى الحديث والأمثال، ومطالعاته الخاصة فى كتب السير والتاريخ والآداب، ثم نتائج تجاربه وخبراته التى أفاد منها باختلاطه فى مختلف المجتمعات وإدارته للحكومة فى السلم والحرب. متوافرة فى ثنايا فصوله.

كل هذه المنابع كانت موردًا يستقى منه وهو يدوّن رسالته فى السياسة ونظم الحكم، إلاّ أننا فضلاً عن معارفه العامة نستطيع تعيين بعض المصادر التى أخذ عنها واعتمد على أقاصيصها ومنها: (پيشتكان) كتاب القدماء، و(مزدك نامة) وهو كتاب عن مزدك وصلاته بالملك قباد. وقد عرّبه «ابن المقفع» نثرًا

(١) مقدمة شيفر ص ٢.

(٢) سياستنامة ص ٢ ـ خاتمة الفصل الأول (فارسى).

واللاحقى شعراً[1]، ثم نجده يردد بعض الأفكار التى جاءت فى جمهورية أفلاطون وقد شاعت فى الأوساط العلمية آنذاك حول السلطان وعلاقته بالسماء ومنحه العقل والعلم ليضع كل فرد من رعاياه محله اللائق به ويختار من يستحق لحاشيته ورجال دولته[2]. وحول فرض العقوبات على الذين تمتد أيديهم لأموال الناس من الولاة فإذا استغفر وتاب عفى عنه، وإلاّ فالحبس والتأديب.. وإلاّ فالعزل وتعيين من هو خير منه[3].. ومنها (شاهنامة الفردوسى) فقد تمثّل ببعض الحكايات بعد إيجازها مثل قصة: كيكاوس وزوجه سواذبه، وقصة الإسكندر وزواجه من ابنة دارا ملك الفرس[4]، ثم تاريخ البرامكة[5] فقد نقل عنه حكاية مجىء «برمك» إلى سليمان بن عبد الملك ـ مع اختلاف بسيط[6].

وفى طريقة عرضه للموضوعات سار على غرار سابقيه من حيث التبويب والتمثيل بالقصص والحكايات وإن خالفهم فى تحديد الموضوع إلى حد كبير ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ ومن هنا كان التشابه بينه وبين بعض الكتب التى ألّفت للغرض ذاته وعالجت الموضوع نفسه، ومن هذه الكتب ما سبقت «سياستنامة» بعدة سنوات مثل ـ كليلة ودمنة ـ ومنها ما كان قريبًا منه مثل: ـ قابوس نامة ـ لكيكاوس، ونصيحة الملوك للغزالى.. على أن ضرب المثل بالقصص فى ختام كل فكرة يختلف عند ابن المقفع الذى يحكيه على ألسنة الحيوان، عن الحكايات التى يرويها «النظام» لأحداث وقعت لأناس فى مختلف الأمكنة والأزمان، وكذلك الأمر بالنسبة للكتابيين الفارسيين المعاصرين فإن التشابه بينهما وبين «سياستنامة» وإن كان موجودًا يدفع بعض الباحثين إلى

(١) كرستنسن ـ تاريخ الساسانيين ص ٢٥٤، ٢٥٦ ترجمة الخشّاب وعزّام.

(٢) انظر: سياستنامة ص ٣، ٤ الفصل الأول.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشاهنامه (نشر عزّام) جـ ١ ص ١٥٥، ٣٨٨.

(٥، ٦) مؤلفه مجهول. نشره ميرزا عبد العظيم خان كركانى سنة ١٣١٣هـ باسم تاريخ برامكة.

دعوى التقليد للأول والنقل عن الثانى[1]. ويدعو فريقًا آخر إلى التشكيك فى نسبته إلى مؤلفه «النظام»[2] على أن الفروق بينهما كثيرة، وأن التشابه يكاد ينحصر فى سرد القصص وهو ـ كما أعتقد ـ ليس موضوع الكتاب ولا الغرض منه كما يظهر لقارئه. وفوق ذلك فإن الكتابين يبحثان «السياسة» بمعنى رعاية شئون النفس والأسرة والجماعة ثم علاقتهم بالله، كغيرهما من الكتب التى خلطت بين الخُلُق والسياسة وبين السلوك ونظم الحكم، وصارت السياسة عندهم أدبًا فى السلوك متصلاً بالسماء ومستمدًا من سنن الرسل والأنبياء.

وقد يتطرق الشك إلى أذهان الباحثين فى نسبة الكتاب إلى «النظام» لأسباب أهمها:

أ - عدم ذكر الكتب الفارسية المعاصرة أو القريبة منها كتابًا بهذا الاسم الـ«نظام الملك»، وكذلك المصادر العربية التى ترجمت للوزير وكتبت عن السلاجقة والعصر الذى عاش فيه.

ب ـ ورود بعض الحكايات منها القبيحة ومنها الخاطئة التى يستبعد أن يثبتها شخص كـ«النظام» فى مؤلف له.

وممن يشك فى نسبة الكتاب إلى «النظام» الباحث الفارسى ـ إقبال[3] ـ وميرزا عبد العظيم كركانى[4] ثم أستاذنا ـ يحيى الخشّاب ـ إذ يرى مما يؤكد الشك فيه اختلاف أقوال الناسخ «المغربى» والمؤلف «نظام الملك » من ناحية، وعدد فصول الكتاب وكيفية تقديمها ونسخ الكتاب بعد مرور عدة أعوام تتراوح ما بين ثلاث عشرة سنة وست وعشرين على اغتيال «النظام» عند تقديمه للسلطان ـ محمد بن ملكشاه ـ الذى قدّم إليه الغزالى كتابه ـ نصيحة الملوك ـ

(١) مقدمة قابوس نامة صادق نشأت لأمين عبد المجيد.

(٢) الخشّاب ـ نظام الملك وسياستنامة ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية جـ ١ ص ٢٢٥- ٢٣٤.

(٣) مقدمة سياستنامة.

(٤) تاريخ برامكة ـ المقدمة.

فى نفس الموضوع واتفاق بعض الحكايات.. ثم قبول السلطان ـ ملكشاه ـ له فى وقت كان قد غضب على «النظام»، ونحّاه عن الحكم بينما رفض ما رفعه «تاج الملك» لأعتابه فى الوقت الذى كان هو المقرّب إليه، القائم بأعباء الدولة، فضلاً عن الأخطاء التاريخية التى وردت فى تضاعيف الكتاب[1].

ولم نجد ـ فى الواقع ـ من استعرض أسباب الشك فى نسبة الكتاب لصاحبه ثم انتهى إلى التساؤل عن تعليل هذه الأخطاء: أهى من جهل المؤلف أم من وضع الناسخ؟.. وإن جميع ذلك يحملنا على التأمل فيما يكون من وضع أحدهما[2]. بل إن «النظام» صاحب كتاب السياسة أمر يحتمل الشك[3].. كما وجدناه فى هذا البحث العلمى المركز.

غير أننا حينما نعود إلى تفاصيل عوامل الشك نراها لا تتجاوز ثلاث نقاط: تتصل بناسخ الكتاب والمشابهة بينه وبين نصيحة الغزالى، ثم تفضيله من جهة أو من قبل السلطان على غيره من تقارير المقربين إليه. ولكننا إذا أمعنّا النظر فلا نجد أولاً ـ تناقضًا بين أقوال الناسخ والمؤلف، ولا تعارضًا بين تصريح الأول وإغفال الثانى، إذ ليس من الضرورى على «النظام» أن يعلن له بأنه قد أزاد على فصوله التسعة والثلاثين، أحد عشر فصلاً أخرى فى الباطنية ومدى خطورتها على الدولة لأنها جزء مكمل للكتاب من ناحية، وقد اعترف الناسخ بإضافته إليه حينما أعاده إليه فى المرة الثانية من جهة أخرى، ولأن كلمة «الزيادة» تشملها أيضًا فلا موجب للتصريح بها إذن بنظر «النظام». ومن جهة ثانية فإن تأخير استنساخه أربعة عشر عامًا لا يوجب الشك فى نسبته، لأن تاريخ تدوين الكتب أثبت لنا ما تأخر تبييضه أكثر من ذلك زمنًا، ثم نقل

(١) انظر: «نظام الملك» وسياستنامة. بحث ألقاه استاذنا المرحوم يحيى الخشّاب. فى مؤتمر المستشرقين الرابع المنعقد فى ميونيخ فى سبتمبر سنة ١٩٥٧م، وقد نشر فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية باللغتين العربية والإنجليزية جـ ١ ص ٢٢٥-٢٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠، ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠، ٢٣٤.

(٤) مثل: طبقات الشافعية للحافظ «تقى الدين أبى عمر عثمان بن الصلاح الشهرزورى» المتوفى سنة ٦٢٣هـ، فقد مات والكتاب مسودة فأخذه الشيخ «أبو زكريا يحيى بن شرف النووى».. ومات أيضًا والكتاب مسوّدة فبيّضه الحافظ «أبو الحاج يوسف بن الزكى».

ونسب إلى مؤلفه دون ريب فيه[٤]. وإذا صحّ نقل ـ الغزالى ـ الذى توفى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م عنه وأنه قدّم كتابه «النصيحة» إلى السلطان ـ محمد بن ملكشاه ـ فى شهور سنة ٤٩٩هـ[١] فإن هذا يحدّد لنا أن استنساخه كان قبل وفاته بستة أعوام أى أن المدة بين تقديمه الكتاب للناسخ ونسخه لا تتجاوز ١٤-٢٠ سنة على أكثر تقدير وأنه لا مجال للقول بأنها تتراوح ما بين ١٣-٢٩سنة.

أمّا المشابهة بين الكتابين «السياسة والنصيحة» فى توافق بعض الحكايات فإن الفروق بينهما فى التبويب والأسلوب وحتى فى الموضوع تفوقها بكثير مما يجعلنا نطمئن كل الاطمئنان إلى أن التشكيك فى نسبة الكتاب إلى «النظام» من هذه الناحية غير مؤكدة، لأن كتاب «الغزالى» ليس فى السياسة وإنما هو فى الأخلاق والسلوك وأنه دعوة صارخة إلى الزهد والتصوف ـ كما رأينا ذلك من قبل ـ وأنه قد اطلع على «سير الملوك» «للنظام» وربما نقل عنه كما نص على ذلك فى حكاية إسماعيل السامانى[٢] إذ لا نظن كتابًا عرف بهذا الاسم فى تلك الفترة غيره، وبخاصة بالنسبة للغزالى الذى صاحب ـ النظام ـ وجالسه، وربما كان لشهرة مؤلفه قد استغنى عن ذكر اسمه. . وممن يؤيد فكرة النقل هذه ـ إقبال[٣] وهمائى[٤] ـ وكلاهما حجة فى هذا الباب لا يتطرق الشك إليهما فى دقة البحث وتجردهما فى الحكم.

وليس «الغزالى» وحده قد تفرّد بالنقل عن كتاب ـ السياسة ـ وإنما شاركه ـ ميرخوند ـ فى كتابه ـ روضة الصفا ـ فنقل عنه قصة عمرو بن الليث وذكر أنه حكاها «النظام» فى وصاياه، فى حين أنه لم يذكرها إلاّ فى كتابه «السياسة».[٥] ويقع فى الخطأ نفسه حفيده ـ ميرخوند مير ـ فى كتابه «حبيب السِير»[٦]، لأنه

(١) مقدمة نصيحة الملوك لجلال همائى.

(٢) نصيحةالملوك ص٦٢ (الأصل الفارسى)، والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك ص ٥٧، وسياستنامة.

(٣) مقدمة سياستنامة.

(٤) مقدمة نصيحة الملوك.

(٥) روضة الصفا وسياستنامة.

(٦) حبيب السير جـ ٣ ص ٩٥.

ربما نقل عن جده، وليس عن أحد الكتابين المذكورين. ثم ينقل - ميرخوند - قصة - حسن الصباح وعمر الخيّام ومعاهدة «النظام» لهما زاعمًا أنه رواها فى سياستنامة مع أنه ذكرها فى الوصايا وحدها[1]. وهذا يدلنا على أن الكتابين كانا معروفين لدى المؤلفين ولكنهما يختلطان عليهم فى الاسم وربما كان هذا الخلط أيضًا من صنع الناسخين الذين يستبدلون عنوان كلّ منهما للآخر.

وليس هؤلاء ممن عرف الكتاب ونقل عنه فحسب وإنما أخذ عنه - هندوشاه - فى كتابه «تجارب السلف»[2] الذى ألّفه فى أواخر سنة ٧٧٤هـ، كما نقل عن «النصيحة النظامية» أيضًا.

أمّا ظفر تقرير «النظام» بالقبول دون غيره فيمكننا تفسيره بما كان يتضمنه من حقائق عرضها بأسلوب المؤمن الصريح، وإلى ما يحتويه من موضوعات سطّرها بلهجة العارف الخبير مما لم يره السلطان فى التقارير الأخرى التى قدمت إليه، بعد أن بلغ من السنّ والتجربة بحيث يعتمد على نفسه فى الحكم وإبداء الرأى وحسن الاختيار.

كل هذا يدلنا على أن هناك «للنظام» كتابين أحدهما فى «السياسة» والآخر فى «الوصايا»، ولكن الشكّ إذا تطرّق للباحث فإنما هو فيما دخلهما من تحريف وتصحيف، وإضافة وحذف، بحيث أصبح بعض الموضوعات لا تلتئم ومعرفة المؤلف ولا تتفق وحقيقة التاريخ. وهذا إنما يرجع - فى أغلب الظن - إلى فعل النسّاخ وجهلهم شأن المخطوطات الأخرى التى عبثت بها أقلام الناسخين بمرور الأزمان.

وفضلاً عن ذلك فليس غريبًا أن يكون «النظام» مؤلفًا، وليس كثيرًا عليه أن يؤثر عنه كتاب فى «السياسة» وآخر فى «الوصايا» مع علمنا بأن التأليف من خصائص الوزراء فى تلكم العصور وبخاصة الفرس فقد ترك لنا هؤلاء من

(١) روضة الصفا، والوصايا ص ٢٩-٣٥.

(٢) تجارب السلف ص ١٩٥، ٢٧٤، ٢٧٩.

المؤلفات ما يدل على طول باع، وقوة يراع، وفكر نقّاد، وذهن وقّاد حتى صار التأليف من ميزاتهم، وعادة أليفة لهم.. ودليلاً على ذكائهم وخبراتهم أمثال: رسائل عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع.. لاسيما فى موضوعات الأدب والسلوك والأخلاق والسياسة.. وقد ألّف منهم فى اللغتين العربية والفارسية مثل: أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمى[1] البخارى المتوفى سنة ٣٢٩هـ وزير إسماعيل بن أحمد السامانى مؤلف كتاب «تلقيح البلاغة»، وأبو عبد الله أحمد بن محمد الجيهانى وزير الأمير منصور بن نوح مؤلف كتاب ـ آيين نامة ـ وعهود الخلفاء والمسالك والممالك[2] وأبو الحسين أحمد بن محمد السبيلى المتوفى سنة ٤١٨هـ بسامراء[3]، وزير خوارزمشاه على بن مأمون وابنه مأمون الثانى وله كتاب «الروضة السهيلية» فى الأوصاف والتشبيهات.. ولمّا جاء البويهيون كان من وزرائهم أبو الفضل ابن العميد وابنه أبو الفتح.. ثم الصاحب بن عباد، وكلهم أسهم فى التأليف كما هو معروف لدى الباحثين.

وفوق ذلك فإننا لم نعرف بين المستشرقين من نفاه عن صاحبه، وإن توقف فى صحة بعض مادته، ومن الفريق الأول الذى يؤيد نسبته إلى مؤلفه ويعتمد على أحداثه ـ بارتولد ـ إذ يعتبر أنه لا توجد مخطوطة يصح أن تكون وثيقة تاريخية فى دراسة بلاط السلاجقة ونظم الحكم فى القرن الحادى عشر[4] غيرها، ومنهم ـ شيفر ـ الذى حمله الاعتقاد بصحة نسبته «للنظام» ليبذل جهوداً مضنية لإخراج الكتاب وترجمته، واعتماده على ما تضمنه من معلومات عامة ووقائع تاريخية[5]. ومنهم ـ برون ـ الذى يعد كتاب «سياستنامة» هو الأثر

(١) السمعانى ـ الأنساب، مادة بلعمى. ومعجم البلدان ـ مادة بلعم. وكشف الظنون فى تلقيح البلاغة.

(٢) وقد أخذه ابن الفقيه الهمذانى وبدّل فيه ونسبه لنفسه، كما روى ياقوت فى معجمه.

(٣) ياقوت ـ معجم الأدباء جـ ٢ ص ١٠٢.

(٤) تركستان ص ٢٥.

(٥) مقدمة سياستنامة ص ٢.

الأدبى النفيس الذى اختصت به تلك الحقبة التاريخية الممتعة، والذى يعدّه أهم وأثمن مؤلّف ظهر فى الفارسية بالكلام المنثور فضلاً عن النظريات والآراء الإدارية السياسية التى سجلت فيه بقلم أكبر وزير ظهر فى الشرق ـ على حد تعبيره ـ فى ذلك العصر[١]. . ومن الفريق الثانى الذى يعتقد بصحة نسبته للوزير ولكنه يشك فى الركون إلى المادة التى يحتوى عليها المستشرق الألمانى ـ نولدكه ـ إذ يأتى بمثل على ذلك فى قوله انتماء ـ طاهر بن أحمد ـ إلى الإسماعيلية، مع علمنا بأن تأييد هذا الحادث وإن لم يذكره المؤرخون[٢] غير أن «ابن النديم» قد ذكره فى الفهرست[٣].

كل هذا يوصلنا إلى أن التشكيك فى نسبة الكتاب إلى الوزير لا يدعمه سند قوى ولا يسنده برهان قاطع جلىّ. . وينتهى بنا إلى أنه بقدر تأكدنا من صحة نسبته نقطع جازمين بانتحال بعض الفقرات وتبديل بعض العناوين والعبارات، كما شمل بعض فصوله التقديم والتأخير، ولكن هذا جميعه لا ينقص من قيمة الكتاب ولا يقلّل من شأنه بين المراجع المهمّة فى إدارة الدولة السلجوقيه التى تلقى لنا ضوء على دراستنا لنواحى الحياة فى الشرق الأوسط حينذاك، وتكشف لنا عن مدى فهم «النظام» لها وطريقة علاجه لمشاكلها.

ـ أسلوبه وموضوعه:

لقد عنى «النظام» فى تقريره بدراسة المسائل السياسية والتنظيمات الإدارية لدولة مثلى، يسعد فى ظلالها المواطنون تحت رعاية ملوكهم العادلين، وحكامهم الأمناء العارفين. . مغتنمًا الفرصة لإبداء رأيه فى هذه الشئون، وكيف ينبغى أن تكون، مخالفًا بذلك الأسلوب الذى انتهجته التقارير الرسمية المألوفة من وصف لمظاهر الجهاز الحكومى وتصوير لأحوال الرعايا، خلواً من

(١) تُركستان ص ٢٥.

(٢) مقدمة سياستنامة.

(٣) تاريخ الأدب الفارسى ص ١١٢ - ١١٨.

الآراء الشخصية بعيداً كل البعد عن النقد والتحليل النافعَيْن فى تطور الدولة وأسلوب الحكم فجاء بذلك كتابًا ضخمًا يحوى خمسين فصلاً.. وقيل واحدٌ وخمسون، وكان سجلاً حافلاً بذكريات مريرة، وخلاصة لتجارب قاسية عاشها «النظام» ثلاثين عامًا فى أعباء الوزارة.

وكانت ثقافة «النظام» كما عرفنا فارسية عربية، وكان متمكنًا من لغته الفارسية قدر تضلعه بالعربية بارعًا فى الحديث بهما قدر استطاعته الكتابة وتذوقه لأسرار البلاغة فيهما.. وقد ظهر أثرالثقافتين فى موضوع الكتاب وأسلوبه فكان كما قال هو عنه: «إنه كتب هذه الفصول القلائل على وجه الاختصار، وبعبارة واضحة قريبة المنال بعيدة عن المعنى الغريب والعسير، حتى يتم للقارئ فيه الصواب»[1]. وبهذا كان على اختصاره موسوعة ثمينة يستفيد منه كبار المثقفين لما يعرضه من ألوان الفكر والآراء فى السياسة والاجتماع كما يستمتع به صغار المتعلّمين لما يستعرض من أحداث التاريخ وأقاصيص الماضين وسير الحاكمين، ولا يقلّ إفادة منه ومتعة رجال الدين لما فيه من وعظ وعبر وإرشاد وخِبَرْ، ويجد فيه هؤلاء جميعًا تجاوبًا لما تعلّموه، واستجابة لما يريدون أن يتعلموه.

وكانت عقيدته الإسلامية تلازمه أينما حلّ وارتحل ومتى كتب أو تكلم، لذا رأيناه كثير التضمين لآيات القرآن والحديث[2] والأمثال والحكم، قليل الترصيع بالشعر، جرىء الرأى صريح العبارة تحسّ وأنت تقرأ له وهو يستعرض آراءه فى الملك والسياسة وواجبات السلطان نحو الرعيّة وتحقيق العدل والمساواة والقضاء على الطغاة من الولاة والمشاغبين والمبادئ الخبيثة، أنه صوتٌ مؤمن يسترسل فى ثقة وإخلاص وصدق واعتداد، وتشعر وأنت تسير معه أنه يتحدث مع السلطان بأسلوب الحيىّ المتحفظ الذى يليق بمقام الملوك.

(١) سياستنامة ف ٥١ ص ٢٥٢.

(٢) سياستنامة ف ٤٢.

ولم يكن أسلوبه على بساطته وسلاسته سهل التقليد يسير المماثلة لأنه - كما أعتقد صادر عن حرارة إيمان وحياة وجدان ليسا من السهولة واليسر أن يوجدا فى كل شخص ليكوّنا له منبعًا فيّاضًا فى الإيحاء والتعبير...

وكان يكتب بعنف وجرأة أحيانًا مستوحيًا ذهنيته الخصبة معبرًا عن انفعالاته المتوقدة ونفسه الجائشة.. الغاضبة، وكان أكثر جرأة وأشد صراحة فى إضافاته وزياداته فقد صوّر لسلطانه مفاسد المجتمع ومباطل الحكام، وتكابر الأراذل وتصاغر العظماء وتزلّف الأدباء وذوى المطامع فى المناصب، كما حدّثه بحرارة وتفصيل عن الشرور والمفاسد فى تدخل النساء بشئون الحكم، ونشاط الباطنية لهدم الدولة، ولم يذكر - ابن الصباح - صراحة ولكن إشاراته الخفيّة[1] تدل على ذلك وتندّد بحركته، ولعل مقتضيات السياسة أو الصداقة فرضت عليه تجاهل اسمه.. كل ذلك بأسلوب تهكمى ناقد قلّ أن نجد له نظيرًا فى أدب الفرس الحديث.

ولم تكن صداقة «النظام» لسلطانه واعتداده وفخره بها، ولا منصبه الخطير الذى يستوجب رضا السلطان عنه، وتقريبه له، ولا حاشية السوء المحيطة بالسلطان والتى تحاول الوقيعة والتنكيل به، لم تكن جميع تلك الدواعى بالتى تدعوه للمواربة والمداجاة والملاينة والريّاء، ولا هى بالتى تمنعه وتصدّه عن صراحته له بمساوئ الحكم القائم وإعلان نقائصه وأخطائه وتقديم الأمثلة الشواهد بين يديه.

ولعل قداسة تلك الصداقة ورعايته لحقوقها واعتماد والد السلطان عليه وتوصيته به عند وفاته ودالته عليه فى أعماله العظام لاستقرار المملكة وامتداد حدودها، ثم إحساسه بدنو أجله[2] وشعوره بفضاضة العيش معه ومشاهدته تردى الوضع بعد تخليه أو ضعف مركزه. كل تلك الدواعى كانت أيضًا من أسباب صراحته وجرأته.

(١) سياستنامة ف ٣ ص ٥.
(٢) أرنولد - الخلافة ص ٧٣ (الترجمة) دار اليقظة العربية.

أقسامه وتميزها بالأمثلة والأقاصيص :

لقد قسّم الكتاب إلى خمسين فصلاً ـ كما رأينا من قبل ـ وقد رتّب فصوله حسب أهميتها لديه مبتدأ بنظرية ـ الملك والعقد الإلـهى ـ التى نالت اهتمامًا كبيرًا فى ذلك الوقت[1]، ثم يذكر واجبات السلطان وتبعاته ثم يتدرج فى النظم الإدارية من القصر الملكى وحاشيته وموظفى الدولة إلى مؤسسات الجيش وقواده والسفراء والقضاء والحسبة إلى مكاتب الإنشاء وخزانات المال، بحيث لم يختم فصلاً إلاّ ويمهد لتاليه قبل أن يبدأ به. . وهو تسلسل منطقى روعى فيه وحدة الموضوع غير أنه لم يخلص من التجزئة والتفريق بين بعض الفصول بحيث يمكن ضمّها[2]، وأخرى يمكن تقديمها وتأخيرها لتكون أدنى إلى وحدة الموضوع وأقرب إلى تسلسل الفصول.

نحن لا ندّعى وحدة كاملة للموضوع تتجلّى فى تسلسل عناوينه، واتساق فصوله وانسجام آرائه دون اختلال، وإنما نعتقد أنها ليست مفقودة إذا ما أراد القارئ أن يتلمسها وربما روعيت من قبل المؤلف إلى حد كبير. . كما لم يكن صعبًا عليه أن يلاحظ ظاهرة التكرار، فهو يروى الحديث فى فصل ثم يثبته فى آخر، وبلفظ آخر، وهو يسجل الفكرة فى مناسبة ويذكرها فى مناسبة أخرى بشكل آخر[3] مما يميل بنا إلى أنه لم يؤلفّه فى وقت واحد، وأنه لم يمهله الزمن ليعيد فيه النظر ويحذف منه الحوشى والفضلة والمكرّر. . وكان كذلك سهلاً على القارئ أن يلاحظ التهويل والتطويل وبخاصة فى أقاصيصه فإنه يغرق فى المعانى والصور التى يستعرضها، إذ يمعن فى عرض التفاصيل التى يود إبرازها[4].

---

(١) سياستنامة ف ٥٠ ص ٢٦٩.

(٢) سياستنامة ف ٣١، ٣٢ وكلاهما فى الجند والسلاح، وكان من الممكن جمعهما بعنوان واحد.

(٣) من أمثلة التهويل: قصة أمر السلطان بجلد الأمير ـ أمام ـ باب القصر ألف جلدة، وبذله جميع ما يملك وتوسيطه خمسمائة شفيع وافتدائه من تلك السياط الألف بألف دينار نيسابورى فلم يجد نفعًا. وعدد الجيوش فى قصة أخرى يبلغ مائة وخمسين ألف جندى، وفى ساعة واحدة قتل جيش ألب تكين ٢٥ ألف محارب ـ ف ٢٧.

(٤) مثل حكاية أنو شروان مع أحد ولاة الإقطاع ص ٢١، وحكاية المعتصم مع أحد أمرائه الأتراك، وقصة السلطان مع شاكيه من لصوص دير الجص.

وهو فى تكراره ومبالغته فى عرض الأمثلة كمن يدافع عن نفسه أمام سلطانه، فيطلب إليه بثّ العيون والأرصاد حول الوزير وسائر الموظفين وإنزال أقسى العقوبات بعد التأكد الشديد من خيانتهم ويسرد له القصص العديدة بهذا الشأن[1].

وقد لجأ إلى القصة حيث لم يخف عليه أثرها فى النفس وسيطرتها على الحس فاقتبس من مأثور الماضيين واتخذ من مسموعاته وتجاربه قصصًا للعظة والتذكير وليس للسمر والترفيه لأنها ليست القصد من وضع الكتاب، ولكن حين يجدها مؤثرة خلابة وتتصل بالموضوع فيتمثّل بها[2].

وقد استغل طائفة من تلك القصص لتعكس صورًا من ذكرياته ومشاهداته فى أيام صباه وكهولته وصاغها بأسلوب بلاغى أخّاذ تقصر عن بلوغه الترجمة إلى أى لغة أخرى، فقد شهد ببصره ذلك الصراع العنيف بين أجناد ـ سلجوق ـ فأصبحت البلاد شيعًا وأحزابًا وعمل من أجل القضاء عليه إلى أن وحّد الصفوف وأخضع المتمردين وشهد ببصيرته ما يكيد له منافسوه حينما لمسوا حدّة ذكائه وعمق تفكيره، وبُعد نظره فى تدبير أمور الدولة وشئون السلطان، فنأى بنفسه يتلمّس بيديه مكائدهم ويلتمس لهم العذر فلا يجده غير عابئ بما يصيبه لثقته بأن هذا لا يضيره أو يحط من قدره..

ويدت هذه الانفعالات جميعها واضحة على أقاصيصه واستشهاداته، فهو يطرى عهد ـ ألب أرسلان ـ حيث كان «النظام» قويًا مسيطرًا فيه على كل شىء لا يستخدم فى وظائف الدولة غير المسلمين ويأتى بالأمثلة على ذلك[3]، وهو يستعرض بلهجة مؤلمة حزينة أحداثًا مرّت فى حياته السياسية أيام ـ ملكشاه ـ واختلافه معه فى تسريح الجيش وخزن الأموال ويورد له الشواهد من القصص لأنه يريد أن تدخل فى طاعة السلطان بلاد الحبشة والبربر والروم ومصر

(١) سياستنامة ص ١٩، ٢٠.

(٢) سياستنامة ف ٤٤ (الأصل الفارسى).

(٣) سياستنامة.

والمغرب، ذلك لأنه مازاد للسلطان جيشه إلاّ زادت ولايته[1]. . . ثم هو يصوّر لنا أبطال قصصه أذكياء، يحتالون على المشكلة المعقّدة فيحلونها بدهاء السياسى، ولباقة الحكيم، ولابد أن يكونوا كذلك لأنهم ملوك وبيدهم زمام الأمور، ولابد أن يكون سلطانه واحداً من هؤلاء إن لم يكن فى طليعتهم خصوصًا وأنه لا يقل عنهم ملكًا ولا موردًا ولا يقصر عنهم دهاء ولا خبرة، فأنو شروان من الساسانيين وإسماعيل بن أحمد السامانى، وعضد الدولة البويهى ومحمود الغزنوى. . كل أولئك من أبطال قصصه الذين يتردد ذكرهم على لسانه مرات عديدة ويستشهد بمآثرهم وحسن سيرتهم ويتمثل بذكائهم وفرط نباهتهم فى معالجة القضايا المستعصية ثم إبلاغها إلى وزرائهم، فكان الملك منهم إذا احتال للمسألة ونجح فى حلّها دعا وزراءه وحاشيته وعقد مجلسًا لذلك وعرض الأمر عليهم من بدايته إلى نهايته حتى يعلموا أن الملك عليم بما يجرى فى داخل بلاده، وأنه يسهر على مصالح رعاياه حريص على دفع الظلم عنهم ومعاقبة الظالمين[2].

وكان يتصرف فى القصص فيضيف إليها ما يراه مناسبًا أو يحقق له مقصداً كدفاع عن تهمة وجهت إليه وسمع بها، أو اتهام لمناوئ يريد التنديد به، أو تنبيه السلطان لخطر يحاك حوله كحديث أنو شروان العادل وقد ولّى الحكم وهو ابن ١٨ سنة عن أبيه قباذ، وكيف كان ينخدع تارة ببدعة مزدك وأخرى بأقوال الولاة والعمال وثالثة بالدرهم والدينار[3]. وأحيانًا يجود خيال «النظام» فيخترع الأقاصيص أو يسعفه التفكير فيزيد أو ينقص ما يتناسب والمقام فإن من القصص ما لم يرد فى كتب التاريخ، ومن بينها ما هو أقرب إلى الخرافات والأساطير[4].

---

(١) سياستنامة ف ٤٢ ص ١٣٩، وهو نص يورده ابن الجوزى وابن الأثير وغيرهما.

(٢) سياستنامة.

(٣) سياستنامة.

(٤) مثل: خاتمة قصة ـ عمرو بن الليث ـ سياستنامة ف ٢ ص ١١، وقصة الكلب التى يرويها الراعى لبهرام جور، وكيف عشق ذئبة وتزوجها.

وكان كما تدل الأقاصيص التى استشهد بها «النظام» عليمًا بأخبار الماضين عارفًا بتواريخ دول الفرس وسِير الخلفاء والمسلمين ويتمثل بصالحها وفاسدها على السواء، وقد يورد أكثر من قصة تاريخية على الفكرة التى يعرضها فى فصل واحد. ولعل كثرة الأقاصيص فى بعض الفصول من وضع النسّاخ وبخاصة ما ورد منها فى ـ نصيحة الملوك ـ للغزالى دون إشارة إلى المصدر الذى أخذوا عنه.. وكما أضافوا ـ كما نظن ـ فإنهم حوّروا وغيّروا فى بعض تعابيرها ـ وكان منها الخرافى الذى لا يصدقه العقل.

وبعد فإن أهداف «النظام» وفلسفته فى تأليف هذا الكتاب لا تجهد قارءه إن أراد تلمسها فهو يصوّر لنا الحياة كما ينبغى أن تكون، كما أنه لا يترك وصفها كما هى كائنة. وهويتذمر ويسخط للوضع السياسى الراهن ويوصى ويقترح باستبداله إلى ما هو أحسن، وهو يعتقد أن هذه هى رسالة الحاكمين وبخاصة الوزراء لأنه يرى أن الوزير أكثر أهمية من السلطان إذ لا يكون هو سوى رمز أعلى للسلطة الدنيوية، كما أن الخليفة رمز للسلطة الدينية وهذا ما حدا به لأن يؤلف كتابًا آخر سمأه بندنامة يضم بين دفتيّه مخاطر الوزارة وشرائط الوزير وواجبات الوزراء ويقدمه لابنه ـ فخر الملك ـ ليكون له نبراسًا يستضىء بنوره فى أداء مهمته وتحقيق غايته.

* * *

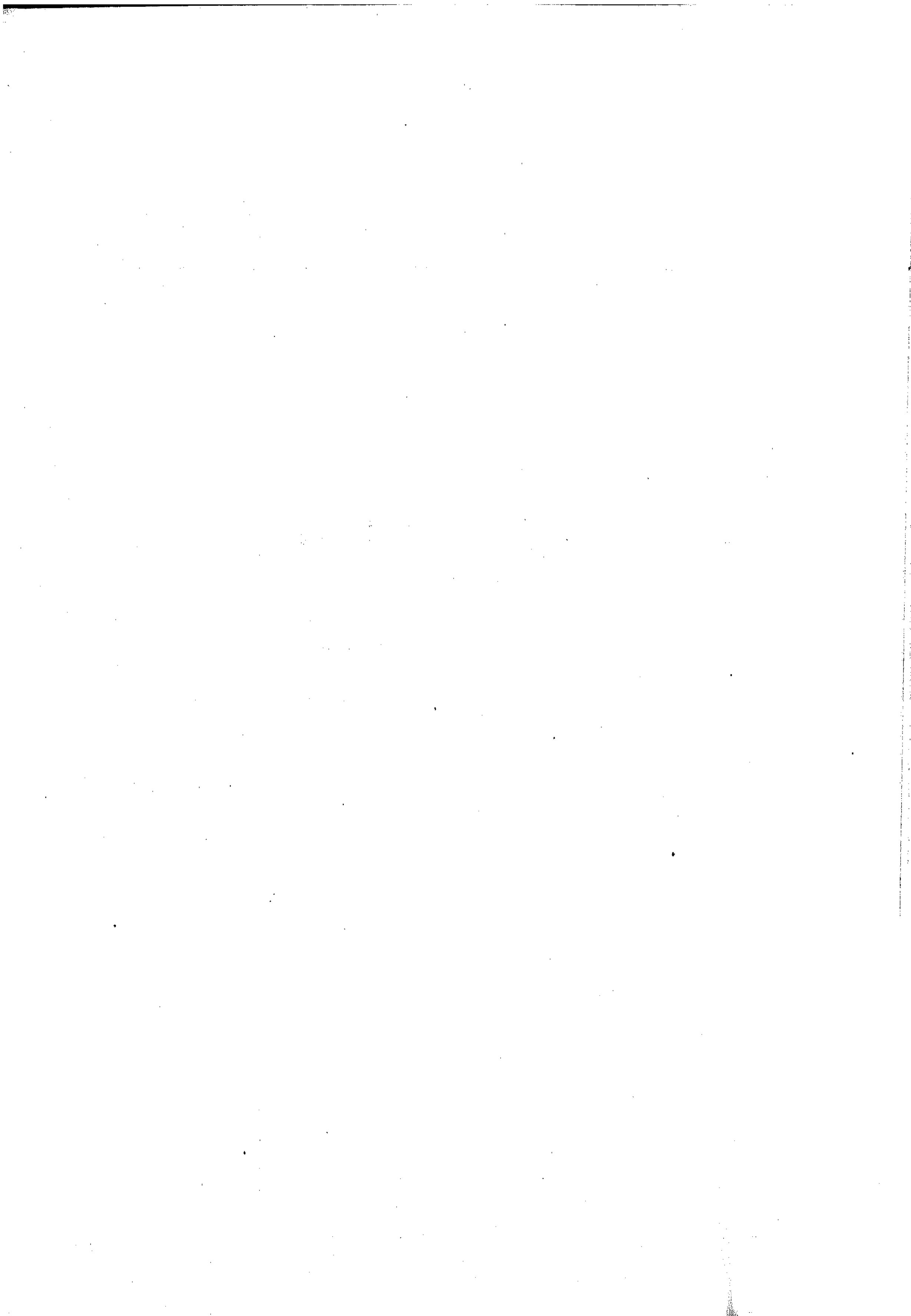
الفصل الثانى

پندنامة أو دستور الوزارة

مقارنة بينه والكتب المماثلة له.

الشك فى نسبته «للنظام» وتحليل ذلك.

أقسامه وموضوعها.



٢- پندمانة أو الوصايا:

كان ثانى المؤلفات التى نسبت إلى «النظام» هو كتاب ـ الوصايا[١] ـ وقد وردنا كسابقه بأربعة أسماء هى: بندنامة، والنصيحة، والوصايا، ودستور الوزارة... وكان اسمه الثانى تعريبًا للأول، كما كان الثالث مرادفًا له، والرابع للدلالة على موضوعه وهو ما بحثه من تعاليم وإرشادات ينبغى أن يسير بمقتضاها الوزراء وأخرى يجب أن يحذروها ليتجنبوا أضرارها ومساوئها.

وكان جامع هذه «الوصايا» ممّن ينتسبون لأسرة «النظام» كما يزعم، وقد رأى من الاعتزاز والفخر أن يجمع شتاتها المتناثر فى بطون الكتب وعلى أطراف الألسنة فى مختلف الأمكنة وعلى مرور الأزمنة[٢] لما كانت عليه تلك الوصايا من حكم بالغة تصلح كل واحدة منها لأن تكون فى الوزارة دستوراً كاملاً وفى السياسة قانونًا شاملاً[٣]، وكان قد جمعه خلال القرن التاسع الهجرى للأمير ـ فخر الدولة والدين حسن ـ الحفيد الثامن لـ«لنظام الملك»، وقد حفّزه على جمعه أن رأى الناس يقدّمون تهانيهم وهداياهم إليه، فلم يجد هديّة تعدل هذه الوصايا النظامية التى خطّها جدّه العظيم لأحب أولاده إليه فخر الملك[٤].

(١) طبعت على الحجر لأول مرة فى حيدر آباد سنة ١٣٠٥هـ باسم وصايا من «نظام الملك»، وأطلق «الجامع» عليها اسم دستور الوزارة فى تضاعيف مقدمته ص ٦، وكذلك عنونت لها بعض المخطوطات التى احتفظ بصور منها، وقد عرّبتها منتظرًا الناشر الذى يشجّعنى على طبعها فى بغداد أو القاهرة أو بيروت.

(٢) الوصايا ص ٥.

(٣) المصدر السابق ص ٥.

(٤) نفس المصدر ص ٤.

المؤلفات المماثلة قبله:

ومما يجدر بنا ـ ونحن نتحدث عن هذا الكتاب ـ أن نسلك فى دراسته نفس الطريق الذى خططناه فى دراسة سابقة لتتبيّن لنا قيمته، ومن هو مؤلفه، وزمن تأليفه من خلال عرضنا لمصادره، والكتب التى ألّفت على غراره، وبيان أوجه التشكيك فى نسبته «للنظام» ثم تلخيص موضوعه.

لم يكن فنّ النصيحة للأبناء من مستحدثات عهد ـ النظام ـ وإنما كانت وصايا الخلفاء والملوك والوزراء لأبنائهم من أروع ما توارثتـــه الأجيال فى فنون الأدب والتاريخ والسياسة والوعظ والخبرات الخاصة منذ أمد بعيد. وقد حفظت لنا كتب الفهارس والسِير أسماء كثير من المدوّنات فى هذا الصدد فضلاً عن المنثور فى تضاعيف الموسوعات العربية كحيوان الجاحظ والعِقْد الفريد لابن عبد ربّه وأمثالهما.

ولعل أول ما عرف عن هذا الموضوع مدونًا بشكل كتاب هى الفصول الخمسة الأولى التى اشتهرت باسم ـ بنجتنترا ـ ثم الفصول الثلاثة فى كتاب ـ المهابهاراتا ـ فى اللغة السنسكريتية، والتى كانت هى الأصل أو المقدمة التى ترجمها وأضاف إليها أربعة فصول بناء على طلب الملك كسرى أنو شروان من وزيره ـ بُزُرْ جِمهَرْ ـ ثم عرّبها بعد الإضافة إليها أيضًا ـ ابن المقفع ـ باسم كليلة ودمنة ـ وهو كتاب فى إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس اشتهر باسم الفيلسوف الهندى بيدبا الذى ألّفه للملك دبشليم، وأطلق عليه اسم ـ كرطاكه ودمنكه.. ثم عرفنا بعد ذلك وصية الإمام ـ على بن أبى طالب لابنه الحسن[١].. ثم عهد ـ طاهر بن الحسين لابنه ـ عبد الله ـ التى سبق ذكرها. ثم العهود اليونانية لأحمد بن يوسف[٢] وتتضمن ثلاث رسائل فى النصح خلاصتها:

(١) ابن أبى الحديد ـ نهج البلاغة جـ ٤/ ٤٦، وابن جرير الطبرى ـ حوادث سنة ٢٠٦هـ.

(٢) ابن أبى الحديد ـ نهج البلاغة حـ٤/ ٤٦. هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية خدم أحمد بن طولون بمصر وكان أبوه فى خدمة إبراهيم المهدى المتوفى سنة ٢٢٤هـ أخى =

أ - عهد الملك أدريانوس لابنه عندما اضطر للتنازل عن عرشه، وفيه تعرض للحديث عن الوزير والجند والحرب والحجاب والعمال والخدم، ومجالس الحكم وحضور العلماء والمال والخراج، ومنع التعدى وذمّ القتل ولاسيما صلحاء الناس، وهى عناوين لفصول، تحدث عنها «النظام» فى سياسته ووصاياه[1].

ب - عهد أحد الوزراء عندما بلغ سن السبعين وعهد بالوزارة إلى ولده وأوصاه بأمور بدأها بمراقبة الله ثم ملاحظة الملك ومعرفة أخلاقه والتحفظ فى الكلام عند مخاطبته[2] والإعظام فى مجالس شرابه والاحتراز منه فى أوقات انبساطه، والحذر من لباس ثوبه وركوب مركبه، وإذا شاورك فلا تكلمه كلام المرشد لمن استهداه ما أشكل عليه، وإذا عقّب عليك فى شبهة فلا تقبل رضاءه إلاّ بعد أن تقدم حجتك، وأره أنك لا تؤثر الحياة إلاّ ببراءة ساحتك[3]، ثم ينتقل بالقارئ فيما يستشعره الوزير مع خاصة الملك وبطانته ثم ما يستشعره مع المتطلعين إلى منزلته والحاسدين له[4]. وهى كذلك عبارات ترددت على لسان «النظام» فى كتابه وبخاصة الوصايا.

جـ- عهد أحد رجال الطبقة الثالثة وهو تاجر كبير إلى ابنه ينصحه كيف ينمى ثروته وما يجب عليه تجاه معارفه والمتعاملين معه.

ومن المعنيّين بالملك والسياسة من نظر إلى الوزارة والملوكية أنها صناعة لها قواعدها... إلخ.. وقد ذكر المترجمون لأبى الفضل بن العميد (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧١م) رسالة بهذا المعنى لتعلّم صناعة الوزارة والملكية.

= الرشيد وابن دايته، له كتب منها المكافأة، وحسن العقبى، ومختصر المنطق الذى ألفه للوزير على بن عيسى بن داود وزير المقتدر. توفى سنة ٣٤٠هـ (معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٩٤، والقفطى ص ٥٦).

(١) العهود اليونانية ـ د/ عبد الرحمن بدوى بدوى ص ١٥-٦٤.

(٢) نفس المرجع ص ٤٨.

(٣) نفس المرجع ص ٤٩.

(٤) نفس المرجع ص ٤٢-٥٤.

وهـناك ما يدعـى بعهـد ـ أردشيـر بن بابك ـ كسرى فارس، الذى كتبه لابنه شارحًا له: كيف يسوس الناس ويسود عليهم وينفرد بالخيرات ومنهم. . ولاشك بأن «النظام» قد أطلع على هذه كلّها، بالإضافة إلى ـ قابوس نامة ـ المعاصرة له، وبلغته، وأفاد منها ونقل عنها.

وأخيرًا ـ قابوسنامة ـ للأمير كيكاوس[1] الذى عاصر «النظام» وبها يوصى ابنه ـ كيلانشاه ـ عندما هرم ورأى اسمه فى دائرة الراحلين، فألّف هذا الكتاب فى كل فن وعلم ومهنة وقسّمه إلى أربعة وأربعين بابًا تحدّث فيها عن معرفة اللّه وخلق الأنبياء وشكر المنعم وزيادة الطاعة وحق الوالدين والولد والصداقة، ثم الآداب الاجتماعية من قواعد الضيافة وأصول لعب الشطرنج والنرد والصيد والصولجان والحب والراحة والزواج وجمع المال وشراء الرقيق والضياع والعلوم والمهن، ثم يجمل الحديث فى أربعة أبواب هى الباب العشرون والأبواب (من ٤٠-٤٢) فى شرائط الوزارة والقيادة والملك، وفيها ينصح الوزير أن يتعلم الحساب ويتعود ملازمة الصدق والنصفة مع مولاه، وأن يُرغّب الملك فى الحق والإحسان إلى الجيش والرعيّة، لأن إثبات الملك بالجند وعمارة القرية بالدهقان، وامتلاك الجند بالمال وحصول المال بالعمال. . وتكون العمارة بالحق والعدل والإنصاف[2]. . «واتخذ وزيرك شيخًا إذا صرت ملكًا سواء أكنت شيخًا أم شابًا، ومكّن من أسندت الوزارة إليه، واعط العمل للجديرين به، فإن لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولا تجعل الجند من جنس واحد فيكون الملك

(١) هو كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير من الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان وتمكنت من بسط سلطانها على همدان وكيلان إلى أن استولى السلاجقة على هذه البلاد سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م فصاروا يحكمونها كولاة من قبلهم وكان حكم كيكاوس مؤلف الكتاب من سنة ٤٤١-٤٦٢هـ، ثم خلفه ابنه -كيلانشاه- الذى ألّف الكتاب من أجله من سنة ٤٦٢-٤٧١هـ، ثم خلع ومات سنة ٤٧٠-٤٧١هـ (مقدمة قابوسنامة).

(٢) قابوسنامة ف ١٤ الأصل الفارسى.

أسيراً لهم، وادع فى كل وقت كبراء الجند إلى طعامك ونبيذك وأحسن إليهم بالخلع والآمال، ولا تسلطهم علي رءوس الرعايا»[٢]. فهو كتاب هدفه الإرشاد والوعظ والتعليم فى شئون الحياة الاجتماعية وليس فى السياسة كما فى وصايا «نظام الملك».

إن التشابه كبير بين ـ وصايا «النظام» ـ ونظائره من مؤلفات سبقته أو عاصرته، ويبدو لقارئها واضحًا حتى لنجد بعض الجمل معادة إن لم تكن بألفاظها بعد تعريبها وإلاّ فبمعانيها مما يقوّى دعوى الشك فى نسبة الكتاب إلى «النظام». وعلى الرغم من ذلك فإن الفروق الكثيرة التى بينها ولا سيما ـ قابوسنامة ـ لا تؤيد دعوانا بأنه قد اطلع عليه وأخذ منه، إذ من الجائز أن يكون الاثنان قد أخذا عن مصدر آخر، وبخاصة بعد أن عرفنا بأن هناك كتبًا فى الموضوع مثل كتاب العهود اليونانية وغيره، وأنها ربما كانت منتشرة فى أوساط المثقفين ولعلهم استعانوا بها بمقدار الحاجة إليها.

يضاف إلى ذلك القول: بأن الكتاب جُمع بعد عصر «النظام» بأربعة قرون، وأن جامعه قد استخرج مواده من بطون الكتب واعتمد فى قسمها الآخر على السماع، وأن المصادر التى رجع إليها مؤلف الكتاب والتى ذكر منها: دستور الوزارة لمحمد ناصحى[٣]، وتاريخ مدرسى النظامية لأبى حنيفة البصرى[٤]، ومنتخب فضلى الهروى[٥]، من الكتب الضائعة التى لا نعرف عن حقيقتها شيئًا، ثمّ من هو فخر الدنيا والدين ومن هو جامع الوصايا؟.. كل هذا مّما يرجح ميل القائلين بالتشكيك فى نسبة الكتاب إلى ـ نظام الملك ـ.

---

(٢) المصدر السابق ف ٤٢.

(٣) الوصايا ص ٥.

(٤) الوصايا ص ٦.

(٥) الوصايا ص ٩.

على أن عام تأليف الكتاب أو تثبيت أصوله على الأقل موضع ريب أيضًا، إذ الشائع عند الكثيرين أنه قد وضعه فى أخريات أيامه بناء على الأحداث التى سجلها فيه واستنادًا على زعم جامع الوصايا فى مقدمته[1]. . وفوق ذلك فهناك نص ورد على لسان «النظام» وهو يتحدث لابنه عن خيانة صاحبه ـ الحسن بن الصباح ـ وكيف أحرجه أمام السلطان بإمكانه عمل ميزانية الدولة فى عُشْر المدة التى طلبها «النظام»، ثم قدّمها فى الوقت المعين ولكنه أخفق فى النهاية، فلم يجد طريقًا يدارى به فشله سوى السفر. . إلى أن قال: «وكان هذا اليوم راجحًا على ثلاثين سنة قضيتها فى الوزارة: فرزند غرض أراين تقرير آنست كه بيِكْ روزة ميعاد تسليم دفتر وميقات عرض آن برسى ساله وزارة راجح بود».

فإذا صحّت نسبة هذه القولة «للنظام» وهى فى الأغلب صحيحة، فإنه بن غير شك يحدد الوقت الذى وضع فيه أصول كتابه على الأقل، إذ المعروف لدى المؤرخين أنه استوزر عند اعتلاء السلطان «ألب أرسلان» العرش سنة ٤٥٥هـ، ولئن رجعنا إلى السنوات التى اشتغل فيها مع الأمير ـ ألب أرسلان ـ قبل سلطنته، فلابد أن يكون لهاتين الملاحظتين أثرهما فى تحديد فترة تأليفها ما بين ٤٨٠-٤٨٥هـ وهو ما يجمع عليه المؤرخون تقريبًا.

غير أن هناك نصًا ثانيًا فى الكتاب يعود بنا إلى عدة سنوات قبل هذا التاريخ، فقد ذكر وهو ينصح ولده ويشرح له مخاطر الوزارة: فى قضية عودة السلطان ـ ملكشاه ـ من قتال «شمس الملك خاقان» وتعقب أثره إلى تركستان ـ ومكوثه فى الرى فى فصل الشتاء لتحشيد الجيوش والزحف على الشام فى الربيع إلى أن يقول: «ومن ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا مضت سبع سنين والسلطان محمد بن ملكشاه يريد الاستيلاء على خراج بسطام لمجرد كلمة والده السابقة قبيل وفاة ابنه (ونا أمروز آن تاريخ هفت سال أست سلطان محمد

١- الوصايا ـ المقدمة.

ميخواهد)»[1]. . ومن الثابت فى التاريخ أن مقاتلة الشاه للخاقان وعفوه عنه بشفاعة ـ تكين سلطان ـ واعتذاره له كانت عام (٤٦٧هـ) كما ذكر ابن أبى الفوارس الحسينى[2]. وعليه يكون حوالى سنة ٤٧٤هـ كان قد وضع أسس كتابه أو طلب حضور أكبر أبنائه فخر الملك ونصحه بتلك الوصايا التى جمعت ونظمت مع إضافات وحذف فيما بعد. وهذه هى المرة الثانية التى سار فيها السلطان ملكشاه لمحاربة ـ شمس الملك ـ إذ المرة الأولى سنة ٤٦٥هـ والثانية سنة ٤٨١هـ، وكلاهما بعيدة الاحتمال أنها المقصودة من حديث «النظام»[3].

....والذى يميل بنا فى ضوء ما أبنّاه أن الضجر من منصب الوزارة أخذ يتزايد فى نفس الوزير الوالد على مرور الأعوام، وتفاقم أسباب الخلاف بينه وبين السلطان وأنه منذ بدأت السعايات ضده فلا يجد لصدّها أو تخفيفها حيلة، ولا فى مقابلة سلطانه أثرًا حسنًا. كان حينئذٍ لاّيريد لابنه هذا المركز الخطير المحفوف بالدسائس والمناوئين، وأخذ يفكر فى بذل النصح له فى كل فرصة مواتية، وفى حالتى بعده عن الوزارة أو قبولها، وأخذت المعلومات الخاصة والعامة تتجمع فى ذهنه وبعث إليه بعضها بشكل رسائل، ومنها ما ضاع وعفت عليه الأيام، ومنها ما بقى كما سنشير إليه فيما بعد إلى قبيل وفاته.

وغير بعيد أن تناقلت الألسنة قسمًا منها كما نقلت أقلام الخطّاطين قسمها الآخر وكان من هؤلاء وأولئك من يعنى بحفظها وحكايتها لأنه ممن يمت إلى صاحبها «النظام» بنسب[4]. . إلى أن حصلت الحاجة الملحة إلى جمعها وتنظيمها وتقديمها للأمير ـ حسن ـ وربما جاز لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنميل إلى أن الوصايا كانت مجموعة بين دفتى كتاب صغير ينقصه بعض

(١) الوصايا ص ١٨ فى الأصل.

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ـ حوادث سنة ٤٦٧هـ.

(٣) مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٥، ٤٨١هـ.

(٤) الوصايا. والصواب «الملك تكش» وهو شهاب الدولة تكش أخو السلطان ملكشاه الذى فوّض إليه إمارة خراسان.

التبويب والترتيب إلى أن هيأت الظروف ـ لجامعه ـ فقسّمه إلى مقدمة وفصلين وأضاف إليه من مقروءاته ومسموعاته ما ربط بين فصوله وترجم به «للنظام» بإيجاز، وإلاّ لما ذكر الكتاب ونقل عنه من المؤلفين من توفى قبل القرن التاسع الهجرى[١].

والشيء الأخير الذى يدفعنا إلى القول بصواب نسبة الكتاب إلى «النظام» أسلوبه وموضوعه، فإنه من حيث الأسلوب كان كسابقه مجموعة من الأحاديث الممتعة النافعة بقدر ما هى مؤثرة تنم عن إخلاص الوالد وعطفه وحرصه على مصلحة ولده ومنفعته وكان فى حديثه مسترسلاً دون تكلف متسلسلاً من غير توقف، بل يثبت لديك وأنت تستمع إليه أنه حديث أب مجرّب شفيق، يدلى بخلاصة خبراته وعصارة عواطفه من غير خشية رقيب، فهو يصارحه فى أحداث كانت من قبل أسراراً ويكشف له الحجب عن نفوس المتنفذين والحاشية وأطماعهم وبأسمائهم مما لا يمكن أن يصدر عن غير «النظام» لغير ولده الذى يحبه ويطمئن لإخلاصه[٢].

وزيادة على ذلك فالوصايا تشبه فى أسلوبها كتاب «السياسة» فإن تقديم الفكرة ثم الاستشهاد بالحكايات والتمثيل بقصص موجزة أو مطولة تنتهى ببيان القصد عن إيرادها كما فى سياستنامة وتكرار وتشابه بعض العبارات مثل: «وغايتى من إيرادها هو كذا. . . . »[٣] ثم الاستطراد إلى أشياء أخرى والعودة إلى الموضوع فقد يروى قصصًا من التاريخ كما يروى حكايات حدثت له وقد يأتى بالأساطير من القصص ومن هذه ما لا يصدقه العقل ولا يقبله المنطق، ولئن كانت من المصادفات فهى من أغربها وإن كانت من أقدار الغيب فإنها من أعاجيبها مثل ما فعل فى كتابه ـ السياسة ـ وهى فى وصاياه أكثر عددًا وأمعن خيالاً، وأشد غرابة، فمن ذلك قصص فتحه قلعة ـ إصطخر ـ بفارس وغيض

(١) الوصايا، وأغا بزرك فى مخطوطته من «الذريعة فى تصانيف الشيعة».

(٢) الوصايا ص ٢٧-٣٠.

(٣) الوصايا ص ٢٧.

مياه الآبار فيها[1] وكيفية استيلائه على قلعة ـ مريم نشين ـ والزلزال الذى أسقط أسوارها[2] ثم حكاية التقاط الطائر لحمائل إحدى جوارى الأمير إسماعيل السامانى. وما أن تعقبه الفرسان حتى رماها فى بئر، وما أن نزلوا فيها حتى وجدوا بعض الصناديق من خزائن «عمرو بن الليث الصفار» التى هرّبها ـ سام ـ وأخفاها فى حدود هرات. كل هذا يحكيه فى سبيل إثبات أن الأمر بيد اللّه يؤتيه من يشاء، وما يصيب الإنسان من توفيق فمن اللّه يمنحه لمن يريد، وإنّ نقض العهد شين والوفاء به والبقاء عليه أوفر نفعًا وأكثر خيرًا حتى ليحسّ القارئ للكتابين بأن ثانيهما متمٌ للأول بشكل عام. وفى موضوع الوزارة على الأخص فهو يحدثنا فيه عن خطورة هذا المنصب وشرائط القائمين به وواجباتهم وصلتهم بالسلطان وحاشيته والناس مما ينقص سياستنامة.

وقد اختار «النظام» لعرضه الأحداث أسلوبًا خاصًا جعل منه نموذجًا لآداب الحديث والحوار بين الوزير والسلطان فكان كتابه «الوصايا» وكذلك «البسياسة» فى بعض فصوله قواعد فى السياسة العملية كما يسمونها، إذ تعرضت لأصول فن الدبلوماسية ـ الإتكيت ـ ينبغى أن يسير عليها الحكام فيما بينهم وعلى اختلاف درجاتهم، ولم يفته تطبيقها فى محادثته للسلطان ومحاورته لابنه، إذ إن لطريقة العرض عند «النظام» أهمية كبرى فإذا كانت حسنة كانت النتيجة خيرًا وبخاصة فى أعمال السلطان، وبذلك يمكن للنديم أن يتدخل فى كل شىء وإن لم يكن واجبًا عليه فإنه يستحبّ فى كل من يحضر مجلس السلطان أن يتعلم الحساب والتاريخ ويتخذ أسلوب التلويح والتلميح فى عرضه للقضايا والمهمات بدلاً من التصريح والمجابهة فى إبداء المشكلات[4].

أمّا من حيث موضوعه فهو كذلك يشبهه من ناحية ويكمّل سلفه من ناحية

(١) الوصايا ص ٣٨.

(٢) الوصايا ص ٤١.

(٣) الوصايا ص ٤٥.

(٤) الوصايا.

أخرى، وإن كان ذلك فى السياسة، وهذا فى الوصايا إلاّ أننا إذا اطّلعنا على موضوعه وجدناه فى الوصايا السياسية إن صحّ هذا التعبير. . وهذا وذاك ما يدعونا إلى تلخيصه:

أقسامه وموضوعه :

لقد قسّم كتاب «الوصايا» إلى مقدمة وفصلين وقد ضمّن المقدمة موجز سيرة «النظام» وقارن بينه وبين سائر الوزراء وفضّله عليهم ولاسيما الفرس منهم. وذلك بالرجوع إلى ما كتب السلف فى أحواله وإلى إعداده العلمى والخلقى فى مختلف الفنون وتباين الظروف حتى وضعه ـ أبو حنيفة البصرى ـ فى كتابه «تاريخ مدرسى النظامية» فى عداد علمائها بعد الغزالى والشيرازى[١]. كما ضمّن الفصل الأول تحريض ولده على ترك الوزارة وبيان مخاطرها. . والثانى آداب الوزارة وشرائطها إذا لم يكن بدٌّ من الاشتغال بها[٢].

والذى يبدو أن جامع شتات هذه الرسالة والمؤلّف بين أجزائها كان ـ كما تدل مقدمته ـ من ذوى الثقافات الاجتماعية والدينية، ومن أصحاب الفكر المنطقى إذ نراه يعرض آراءه على أساس البرهان المؤلف من مقدمة ونتيجة، فهو فى صدد إثبات الضرورة لإيجاد الحكومة والقانون. . مثلاً يقول: «إن الكمال الإنسانى لايكون إلاّ بالمعرفة، وهذه تتوقف على الأمن والاطمئنان، وهما يحتاجان إلى انتظام أمر المعيشة، وهو يتعلق بمشاركة أفراد النوع وتعاونهم»[٣].

ثم يفصّل فكرة التعاون ويبيّن أنه لا يتم إلاّ بالعدل، ويشرح كيف أن العدل لا يتحقق إلاّ بتطبيق بنود وضعها ذوو الطبائع السليمة وهى الدستور، وهذه هى الشريعة بجوهرها النقى الخالص. . ثم يوضح أن الشريعة بحاجة إلى حامٍ يحميها وناصرٍ يدافع عنها، وهذا هو السلطان الذى تُحْترم الشريعة بهيبته وتثبت بقوته وبأسه.

(١) الوصايا ص ٦.

(٢) الوصايا ص ٥.

(٣) الوصايا ص ٣.

وحينما ينتقل لإثبات أهمية منصب الوزير بالنسبة إلى السلطان يقول: «إن لكل شيء أساسًا يعتمد عليه وأساس السلطنة وعمادها الوزارة وعليها ومنها يستمد الإنسان الكمال الذى به سعادته».. وهكذا يصل بين خاتمة ما انتهى إليه ونهاية ما بدأ به من حديث حول ـ الكمال ـ الذى ينشده الإنسان مادامت الحياة.. وهى فكرة استمدّها من المقدمة التى مهّد بها «النظام» لكتابه «السياسة»، ثم أشار إليها فى عدة مواضيع منه ومن «وصاياه».

يبدأ «النظام» وصاياه لابنه ـ فخرالملك ـ بتحسّسه فى دنو أجله وقرب ساعة ارتحاله ومقدار حبّه له، وإنّ واجب المروءة نحوه فيما وراء محبة الأبوة والبنوة يدفعه لأن يرشده إلى ما انكشف له من: «عند العالم الربانى والملهم الرحمانى»[1] يرشده وفى نفسه شك من قبول ابنه لنصائحه لأنه لما يزل شابًا، وأنه حينما كان فى مثل سنّه لم يرعوى لنصيحة مشير ولم يصدق ـ فى مثل هذا الموضوع ـ قولة خبير.. ومع ذلك فإن عطفه يدفعه لأن ينصحه بترك الوزارة إن دعى إليها بعد موته، وأن يتمّسك بأذيال القناعة، غير آبه ولا منخدع بمغريات الدنيا، لأن لذاتها فى الأولى لاتقاس بحسراتها فى الأخرى[2].

ثم يقول له: «واعلم بأن الوزارة منصب خطر، وإن بدا لك سلطنة ثانية، وإن تفصيل إحدى مخاطرها يحتاج إلى سِفر كبير، وإن أولها إصدار الأحكام المتباينة فى كل يوم، وفى كل موضوع، ولكل شخص، وإن الحكم الإلـهى انما هو فى قوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾»[3].

ثمّ استشهد بدولة المائة سنة[4] وكيف تناقضت أحكامها وعجزت عن تطبيق أوامرها وفق المناهج الحقّة، مع أن هذا ممكن عقلاً بعد التأييد الإلـهى، وإن كان صعبًا حتى ليكاد يكون مستحيلاً من غير ذلك.

---

(١) الوصايا ص ١١.

(٢) الوصايا ص ١١، وهو يقصد بها إمارة البويهيين.

(٣) سورة النساء ـ من الآية ٥٨.

(٤) الوصايا ص ١١، وهو يقصد بها إمارة البويهيين.

ثم يسترسل فى تفاصيل مخاطر الوزارة من ناحية مطابقة الأوامر لأحكام اللّه وكيف كان يساوره الخوف فى هذه الحالة، حتى مرض مرّة حينما أصدر أمرًا بإحالة بستان ورثها قاصرون إلى الديوان، فشهد حلمًا مفزعًا لكثرة وساوسه وتفكيره، ولمّا شفى بعد أيام تصدق على الفقراء وعوّض الأطفال وشكا حاله للشيخ - أبى إسحاق الشيرازى - وطلب إليه أن يخبره في ذلك، فكان جواب الشيخ له: «إن لم تكن هذه المخاطرة لكان الوزير من الأولياء، وكانت الوزارة مرتبة المقربين والصديقين والأصفياء».

ومشكلة يتلقاها الوزير فيذهل لها بعد مشكلة الحكم والحق، ويحير فى حلّها وهى مشكلة رضا السلطان، فإنه مهما بذل من جهد وإخلاص وتفكير يعجز عن بذله الآخرون، بحيث لم يستطع السلطان اتهامه بالتقصير نحوه وإشاعة الرحمة فى الرعيّة والعجز عن تدبير الأمور، فإنه يحس بشعوره الصادق: إن مزاج السلطان لايخلو من جانبه بكدر فيلجأ إلى رفيق صباه وصديق شيخوخته - إمام الحرمين الجوينى فيبسط له معضلته هذه ويجيبه الإمام: «أنه من العجب العجاب أنك لا تعلم منزلة المال والملك فى نفوس الناس وبخاصة السلاطين والملوك وقد جعلتها تحت تصرفك»..

ثم يبين له شكوك الملوك وتزايدها بتوالى الأيام إلى أن تصبح يقينًا، لأن مطالبهم تختلف باختلاف أعمالهم، فعلى الوزير ألا يكدّر خواطر الأعيان والأشراف فيشكون الى السلطان وأن يكون موقفه في مجلس السلطان موقف البصير الحذر فلا يذكر شيئًا إلاّ ايماءً وتلويحًا، ولا يشكو أحدًا إلاّ باشارة عابرة، وإذا ظهر من أحد ملازميه ما يسىء إليه أو يزرى بسمعة الدولة وشئون المملكة أعلنه وعاقبه، وإذا رأى السلطان شدة أخفاها وأسرّه. وفى القناعة من هذه الشكوك راحته، وإذا قرنت بطاعة اللّه وعبوديته كانت هى النعمة.. ثمّ يذكر قصة الفضل بن الربيع وزير الرشيد، وكيف طلب أن يكون أميرًا للحج وصاحب المحمل، وبعد عودته كيف التزم العزلة وفرّغ نفسه للعبادة وفاز براحة البال حتى زاره الرشيد فى زاويته، وقال له: «إن كنت قبل هذا فى خدمتى

فاليوم دونه، وفى الله أخى». . فأجابه الربيع: «لو كنت ملازمًا بلاطك طول عمرى ما وصلت إلى هذه الرتبة فعليك بالقناعة (يابنى) ولا تغرنَّك من هذا المنصب حلاوته فى البداية فإن مرارته فى النهاية».

ثمّ ينتقل بابنه إلى مخاطرة أخرى هى غضب أولاد السلاطين واستدراك عواقبه[1] ويستشهد لذلك بحكاية السلطان ملكشاه عند عودته من قتال ـ شمس الملك خاقان ـ وملاحقته من تبريز إلى تركستان ومكوثه فى الرى لجمع عساكره والتوجه إلى فتح الشام فى الربيع فبلغه الخبر بميلاد حفيده ـ بايزيد بن محمد ـ فسرّ لذلك وخصّص له خراج بسطام إلاّ أنه مات بعد يومين وبقى أبوه يستولى على خراجها سبع سنوات دون أن يجرأ أحد على ذكر هذا أمام السلطان. واستمر «النظام» يدفع خراج بسطام لولد السلطان من أملاكه الخاصة خشية اتهام السلطان له بالإهمال أو بسوء الإدارة وخوفًا من غضب الأمير إذا انقطع عنه المال. ومع ذلك لم يرض لأن فى رضا أبناء الملوك كساد الحال وفساد المال، وإن أهمل أو تساهل فى رغباتهم عن علم وقصد اتّهم بالتقصير والخيانة والجهل[2].

وينتقل بالحديث إلى تفصيل مخاطر الولاة وكبار رجال الدولة الذين لابد من مخالطتهم ولايمكن معاداتهم، ولكن معاشرتهم محفوفة بالأخطار ومناوأتهم تجلب الأضرار، والأنكى من سخط هؤلاء غضب السلطان لأنه لا يرضى بصداقة الوزير للأعيان ويعدّها من مظان السوء ودلائل الاتهام، ثم يورد مثلاً على ذلك بقصة زيارته لألتون تاش وكيف نقلتها ألسنة السوء فغيّرت من نوايا السلطان نحوه[3] مع أن ألتون تاش ـ من التركمان الجهلاء الذين اختلف معهم فى أمور البلاط كثيرًا لدرجة الاستقالة، ثم يردفه بقصة أبى العباس

(١) الوصايا ص ١٧.

(٢) الوصايا ص ١٨.

(٣) الوصايا ص ٢١.

الإسفراينى وزير السلطان محمود ونهايته المؤلمة بسبب عدائه للحاجب الأمير على الخيشاوند ـ ليستدل بها على النتائج السيئة من معاداة أصحاب القدرة والنفوذ[1].

ثمّ يلفت نظر ولده إلى طبقة الكتّاب وأرباب الأعمال والسفراء وأمناء السر ويشبههم بالنسبة للوزير كالجيش بالنسبة للسلطان لا تستقيم أموره دون تعاون هذه الفئة ومساندتها، وقد تكون حياته مهددة بالخطر إن جفاهم، فعليه أن يكثر الهدايا، وأن يقدم من يستحق التقديم.

ثم ينعى عليه تقليد الأعمال إلى الأقارب والأتباع، فإن هذا عين الخطأ لأنه قد ولّى إخوته الأقاليم لكفاءتهم وأمانتهم.. فقيل: إن الخواجة قد قسّم الأمصار بين أولاده، وأول من استغل ذلك حرم السلطان بسبب تفضيله «بركيارق» لرشده ونضوج عقله على ابنها ـ محمود ـ فأثّر كلامها فى حفيظة السلطان ودخيلة نفسه[2].. وعليه فإن تفويض الأمور إلي الأقرباء يكون مدعاة للاتهام ودليلاً على الخيانة، وإلى الغرباء يكون وسيلة للتآمر وقلب الحكم كما رأيت من «ابن الصبّاح» الذى لا أزال أتحمل منه ماتعلم، ولا أعلم ما سيئول إليه الأمر فيما بعد. وهنا يفصّل حكاية اتصاله بالخيّام وابن الصبّاح فى مجلس الإمام ـ موفق النيسابورى ـ وقصة العهد بينهم ومقابلته لكلّ منهما مراعيًا عهد الصبا ثم خيانة الصبّاح وخروجه من البلاط[3].

وفى الفصل الثانى من الوصايا يتحدث «النظام» عن آداب الوزارة كمن وثق بأن ابنه راغب فيها مغرور بمظاهرها ومفاتنها غير آبه لمخاطرها ومآسيها.. لذلك يرى لزامًا عليه أن يرشده إلى واجبات الوزير وصفاته ثم يفصّلها له بنقاط أربع:

---

(١) الوصايا ص ٢٤-٢٦.

(٢) الوصايا ص ٢٧-٣٤.

(٣) الوصايا ص ٢٧، ٢٨.

واجبات الوزير وصفاته :

النقطة الأولى: رعاية جانب اللّه:

وهذه تكون باليقين الراسخ والابتعاد عن تمويهات المبتدعة، وتقولات الفرق الضالة وأداء الفرائض وإدامة الطاعات والعبادات والتزام محاسن الأخلاق، واجتناب ذمائم العادات واعتقاد أن التوفيقات الحسنة إنما هى بفضله تعالى، والاعتراف بذلك من كمال الإيمان.. ثم يورد حكاية الوفود لإبداء فروض الولاء للخليفة ومنحه خلعة مطرّزة باسم - الوزير العادل العالم «نظام الملك» رضى أمير المؤمنين - وسير الناس على أرجلهم وبقى هو راكبًا، ولم يفكر أو يتحيّر، ثم رؤياه ثلاثة أيام تتجسم له الصفات بأشخاص ذوى رائحة كريهة، والحسنة بأوجه منوّرة، وفى انتساب التوفيق فى كل شىء إلى اللّه حيث يحكى لنا قصة فتحه لقلعة - إصطخر - وسقوط قلعة - مريم نشين [1].

النقطة الثانية: رعاية جانب السلطان:

وفيه يتحدث عن لزوم اطاعته كما يطيع اللّه، ويورد قصة ابن أعلم وتلميذه - ناصر التبانى[2] - ثم طلب رضاه، وإذا حصل ما يخدش عاطفته فعليه بتدبير ملكى وآخر مالى، ففى الأول: يرعى جانب الأصدقاء ويحذر جانب الأعداء، وعدم نقض العهود، وفى الثانى: يفكر فى حل الأزمات المالية للخزينة، ويستشهد لذلك بقصة إسماعيل السامانى وإعطائه الأمان لأهالى هرات.. والثانية إرساله مائة من متعهدى الممالك بإرسال ألف دينار لتسديد نقص خزينة - كيو - ثم العمل على دعاء الخير له وهذا يكون بالعدل والإحسان، ثم الذكر الجميل له وهذا يكون بإظهار حسن سيرته وإعلانه عدالته. وبعد تفصيل طويل يوصى بألاّ يعتمد على تقرّب السلطان وتبسطه معه وعنايته، وإنما يجب زيادة

---

(١) الوصايا ص ٤٠-٤١.

(٢) نسبة إلى بيع التين أو التبن، وربما كانت النسبة إلى درب التبانة وهى المجرة نظرًا لاشتغاله بالرصد وعلم النجوم.

الحذر منه كلما زادت عنايته، وأن يعرف ميوله لإشباعها. أمّا إذا رغب السلطان شيئًا مخالفًا للمصلحة العامة ومنافيًا لطريق العدل فيجب ألاّ يمنعه ويدفعه صراحة، وإنما بضرب الأمثال والقصص التى تعرض الأضرار والمفاسد لتكون بذلك محترمًا لمقام الملك وموافقًا لمزاجه، وفى هذا تتم المصلحة العامة ويلقى على مسامع السلطان قصتين من أجل ذلك[1].

وعلى ابنه لمعرفة ذلك أن يتعلم فنونًا منها الحساب والتاريخ لأن حوادثه تتكرر لأننا نستفيد منها أشياء كثيرة.. ثم يحكى قصة ـ منصور السامانى ـ وكيف وقع فى مكيدة ـ ألبتكين ـ ومنها نستفيد أن تتبّع العدو إلى وادى لا نعرف عنه شيئًا خطأ كبير، ثم يحكى له قصة المناقشة بين قاضى مرو، والإمام جمال الدين خجندى من علماء ما وراء النهر حول ألفاظ الخالق والبارئ والمصور، وهل تتحدّ فى معناها أم لا. وأورد لهم مثلاً فى التاريخ عن «المظلة» وكيفية تطور صنعها فى عهد ـ بهمن ـ فكان بذلك موجدها، وأردشير مصورها، وبوشن خالقها[2].

النقطة الثالثة: رعاية جانب المقرّبين:

وفى هذا الموطن يؤكد على ابنه ضرورة رعايتهم بل يجب أن تكون أقوى من رعاية الملك لأن أكثر المفاسد تأتى عن طريقهم، ثم يصنّفهم إلى أربع طبقات حسب أهميتهم: وأولها خطورة: هى الزوجات ولاسيما المقربات. وثانيها: الأبناء وخاصة الكبار. وثالثها: الأمراء وعلى الخصوص العظام، ورابعها سائر الملازمين.

وأول شرائط رضا هؤلاء جميعًا وهى كثيرة ـ ثبات الوزير على الصدق ـ وملازمة الصواب بحيث لا ينال منه مخلوق، وحينما لايكون الشخص مخلصًا مستقيمًا يكون الصديق كاذبًا حين يثنى عليه، والعدو صادقًا حين يذمه. أمّا إذا كان صادقًا أمينًا فإن مجال الامتداح للأصحاب واسعًا، وطريق الانتقاص للأعداء ضيقًا، وينتقل إلى تفصيل ما يجب نحو كل طبقة:

(١) الوصايا ص ٤٢-٥٤ (فارسى).

(٢) الوصايا ص ٥٣، ٥٤.

أ ـ الحريم: فيذكر أن استشارتهن لم تكن من تقاليد الفرس، وإنما هى من عوائد التركمان أخذها السلاطين عن ملوك تركستان، لأنهم تربوا فى الأصل على أيديهم وجروا على خطتهم، لذا كان ضروريًا الاحتفاء بهن من غير الاختلاط بحاشيتهن، كما يجب الاحتراز من التردد على واحدة منهن دون الأخرى وإخفاء رعايته لإحداهن حتى تتصور الواحدة أنه يختصها بعواطفه دون غيرها. وهذه القاعدة تصدق على أغلب الناس، وعليه يجب السعى لاكتساب ودّهن حتى يبدأن بالحماية ويبادلن الوزير الرعاية.. ويورد لذلك حكاية فرار الأمير ـ ألتون تاش ـ من وجه ـ جميلة القندهارية ـ وانزوائه فى إمارة خوارزم، لأنه عجز عن مداراتها لإرضاء السلطان ـ محمود ـ حتى أنه ما عقّد أمرًا إلاّ حلّته، وما حلّ مشكلاً إلاّ عقّدته، وما عقّدْت شيئًا إلاّ استعصى عليه حلّه، وما حلّت موضوعًا إلاّ عجز عن عقده[1]. ومن هنا ظهر مقدار الضرر فى مخالفتهن.. أمّا نفع مجاراتهن فلا نهاية له لأن حماية أى شخص فى البلاط تكون بمقدار أثره فى مزاج السلطان وليس من يباريهن بهذا الخصوص..

وعليه فحماية الحريم حرز حريز، وحصن حصين[2]. ثم يورد حكاية ثانية للغرض نفسه خلاصتها: أن السلطان ـ محمود ـ لم يكن على وفاق مع وزيره الخواجة ـ أحمد حسن الميمندى ـ فى أواخر أيامه، وكان ممن يتربص ذلك ليفيد منه الخواجة ـ حسنك ميكائيل ـ ليحل محله الأمير التونتاش السابق الذكر ـ وقد أشاعا عنه تقولات كثيرة، ولكن لم تصبه بضرر لأنه كان فى حماية زوجة السلطان الجديدة ـ مهد جكَل ـ ابنة ملك تركستان والجارية ـ جميلة القندهارية ـ وقد حاولا مرة اتهام الوزير بالاتجار، وقبضا على التاجر وقدمّاه للسلطان ـ محمود ـ ولكنهما عادا بالفشل بفضل الحيلة التى دبرتها زوجة السلطان وجاريتها ودعواها أن البضاعة لها وهى هدايا لأقربائها من الرجال والنساء حتى غضب السلطان على المخبرين وأراد قتلهم لولا توسطها[3].

(١، ٢، ٣) الوصايا ص ٥٦، ٥٧.

ب ـ **أبناء الملوك:** ويقسّمهم إلى صغار وكبار، ويجب عند «النظام» رعايتهم جميعًا وبخاصة الصغار لأن للعناية بهم نفعٌ خاص، إذ يحتلون مكانة عظيمة فى نفوس آبائهم، ولأن الملوك يحملون ذلك على شدة الإخلاص لهم، وليس على محمل الخوف أو الرجاء.. أمّا الكبار فيجب عدم التقصير في جلب رضاهم وكسب ميولهم والاكتفاء بقليل من اللقاء بهم فى مجلس السلطان وجلب ما يرغبون فيه لإدخال السرور إلى نفوسهم لأن الضرر من سخطهم والنفع فى رضاهم حاصلان فى أكثر الدول، ويأتى بشاهد على ذلك حكاية الخواجة ـ أحمد حسن ـ وحسنك ميكائيل ـ بعد وفاة السلطان ـ محمود ـ واحتدام الخلاف بينه وبين وريثيه ـ محمد ومسعود ـ واستيلاء الثانى على الحكم وقضائه على الوزير حسنك واستيزاره أحمد حسن ـ بفضل علاقته الحسنة معه من قبل[1].

جـ ـ **القواد والأمراء:** ومهما تكن منزلة الوزير وقدرته وسطوته في الدولة فانه لا يستغنى فى بسط نفوذه عن رضا الأمراء وتأييدهم له. وهكذا كان الحال فى العصر الساسانى حتى عهد ـ يزدجرد ـ وكذلك فى عصر الدولة الغزنوية، فقد تضعضع مركز الخواجة ـ أحمد حسن ـ على عظمته بسبب معاداته للأمراء وسوء تصرفه مع نوابهم، لذلك وجب إعزازهم حسب درجاتهم[2].

ثم يفصّل لابنه ـ وزير المستقبل ـ ما يجب عليه نحوهم من زيارات فى المناسبات، وتسامح معهم فى المخالفات، وأن يتلطّف مع كل واحد منهم إذا قصَّر ويزيد النفع إليهم إذا قلّ وعسر، وألاّ يحاورهم إلى درجة المجادلـة.. وأن يمنع الأذى عنهم عند وقوع النازلة.. ثم يورد قصة فى ذم الشماتة وسوء عقباها جرت لدبشليم الحكيم المرتاض الذى عيّنه السلطان محمود حاكمًا لسومنات فأراد الثأر لنفسه والانتقام من أحد أقربائه فلقى سوء العاقبة نتيجة لسوء نيّته وفساد طويّته[3].

(١، ٢) الوصايا ص ٦١، ٦٢.

(٣) الوصايا ص ٦٤.

د ـ سائر الملازمين: وقد صنّفهم إلى ثلاث طوائف:

● الندماء: وهم لا اعتبار لهم بنظر «النظام» وإنما يجب أن يرعى جانبهم وأن يتجنب ايذاءهم وتعكير خاطرهم من أجل خاطر السلطان، لأن دخولهم وخروجهم وتحدثهم معه يعتبر رتبة عالية، ولاحتمال صلتهم بأحد المغرضين. وإيقاف ضررهم المتوهم واجب عقلاً قبل استفحاله، لأنه كالشرر فإذا أهمل أصبح نارًا شديدة يصعب إطفاؤها، ويمثل لذلك بحكاية ـ الفضل بن الربيع ـ لأبى الحسن حينما رأى فى المنام شخصًا فصارعه ورماه إلى الأرض فلمّا جاءه للمرة الثانية لم يهتم به فغلبه وكاد أن يهلكه حتى استيقظ من نومه ولمّا سأل عن تفسيره: ما هو؟.. قيل: هى ذنوبك، وكذلك العدو إن لم تهتم به تعذّر دفعه(١).

● أرباب السيف: وأثرهم فى إصلاح الوزارة وإفسادها قليل نسبيًا كالندمان والحصول على رضاهم سهل لا يحتاج إلى اهتمام(٢)، لأن الجيش ـ بنظر النظام ـ يجب أن يكون بمنأى عن السياسة وليس له حق التدخل فيها ليتفرغ قواده لإعداد الجنود للفتح فى الخارج وليستعد الجنود لحفظ الأمن والدفاع عن الوطن فى الداخل والخارج.

● أصحاب القلم: وهم الطائفة التى تحتاج إلى لطف التدبيربالنسبة لمنصب الوزارة كالجيش بالنسبة إلى عرش السلطان، فكما لا يستقر هذا إلاّ بالجند، فكذلك لا يسند ذاك إلاّ بأرباب الأقلام، ثم يورد حكاية وصية ـ عبد الحميد بن أحمد ـ لابنه فى ضرورة الموازنة بين مهام الدولة ودرجة كفاءة الموظفين بحيث يفوّض إلى كل واحد من الأعمال ما يتناسب وقدرته، وعدم جواز تركهم بلا عمل، لأن تجمعهم على أبواب السلطان يسبّب مفاسد كثيرة واضطرابات خطيرة(٣). ثم يمثّل أيضًا بقصة ـ أنو شروان ـ حينما سأل وزيره ـ بزرجمهر ـ مندهشًا متحيّرًا كيف كانت تذاع أسرار البلاط ولا يعلمها سواهما؟ فأجابه:

---

(١) الوصايا ص ٤٩.
(٢) الوصايا.
(٣) الوصايا ص ٧٠.

حينما ترسلون إلىّ لنتداول فى أمور المملكة كان هؤلاء الكتّاب يتزاحمون على أبوابكم، يقلّبون وجوه الرأى عن أسباب ذلك إلى أن يصلوا الى السبب بتحليلاتهم ثم ينشرونه لذلك أرى أن يعهد إلى كل منهم بعمل مناسب.. ثم يعقّب «النظام» على هذه القصة بقوله: «والرأى عندى أن يدفع إلى من يتوسّم فيهم حسن الاعتقاد وصدق الوداد بعمل جليل. وهذا ضابط لهم ويزيد من محبتهم للوزير. أمّا الذين فى قلوبهم مرض من أوهام فاسدة فإنهم فريقان: فريق لهم مقام عند السلطان والأعيان، ويجب على الوزير أن يتظاهر بإعزازهم وإكرامهم ويقلّدهم مختلف الأعمال وينقدها أمام السلطان ويحمّلهم تبعات أفعالهم بحيث لا يتعدى ذلك إلى هلاكهم لأن فاعله مذموم شرعًا وعقلاً، ومرتكبه ملوم فى الدنيا والآخرة»، ويأتى لذلك بقصة ـ ناصر بن ميكال ـ واتهام الخواجة ـ أحمد ـ بمقتله قرب ـ بكتاباد ـ فى طريقه إلى غزنين، وتأنيب الأديب ـ الحصيرى له بقوله: «إن الدنيا لايمكن أن تخلو من ذوى الكفاءات، فعليك أن تسعى للتغلب والتفوق عليهم، وبهذا الطريق يتعين استحقاقك للوزارة لا أن تخلى الدنيا من منافس لك بالفتك والقتل فيتعين مركزك بحكم الاضطرار».. ثم يعقّب «النظام» على هذه الفكرة التى وجدت صدى حسنًا فى نفسه بقوله: «إن الإيقاع بالآخرين إيقاع بالنفس فينبغى ألاّ يجانب المرء محجّة الصواب ويقتنع بقبول التأويل وخداع الشيطان وتصديق المفترى فيهدر بذلك دم البرىء» .. ثم ينتهى إلى قولة السياسى الحكيم ينصح بها ابنه وهى: «إن من يصادق الجميع يستولى على الجميع»[1].

النقطة الرابعة: رعاية جانب الرعيّة:

ويوصيه أخيرًا بإرشاد السلطان إلى طريق الرحمة كما كان الوزراء من قديم الزمان ليشمل الرعيّة من ذلك الرفاهية ويصيب الملك حسن السمعة.. ثمّ يورد له قصة طلب السلطان ـ ألب أرسلان ـ جمع الأموال من الناس بمناسبة

---

(١) الوصايا ص ٧٢.

غزو بلاد الروم وتضجرهم من ذلك وكيف كان الحديث يدور فى مجلسه ذات يوم حول الموت والبلاء، وقال: «إنهما محتمان على المرء ولا يمكن دفعهما مطلقًا». فأجابه «النظام»: «يكون دفع ذلك بالعدل والرحمة». . واستشهد له بقصة قرأها فى تاريخ - ساسان - عن أحد ملوك العجم وبعد أن أتمّ عرضها على السلطان. . قال: «إن الأموال التى تهيأت من الرعايا لأجل الجيش أعيدوها ولا تتعرضوا لها». . ثم يختم حديثه بقوله: «وغايتى من إيراد هذا الكلام أن تصل عواطف الوزراء العادلين وشفقتهم إلى جميع الرعايا والتابعين».

بهذا ينتهى «النظام» فى وصاياه لابنه - فخر الملك - وهى - كما شهدنا - صورة حيّة تنطق بما كان يجول فى ذهنه من خواطر سامية ويختلج فى أعماقه من أحاسيس عالية. وهى بما يلوح عليها من سمات وترتسم على صفحاتها من خطوط وألوان تبدو لنا صورة يحوطها وكتاب - السياسة - إطارٌ واحد تلتقى فى داخله الخطط بالأفكار وتتجاوب فى جنباته العواطف بالتجارب. . وهى بناءً على هذا وذاك من مؤلفات - النظام - موضوعًا وشكلاً وإن دخلتها ريشة الفنان - الناسخ - فعملت فى تقسيمه وأضافت إلى تعابيره وربما أزادت فى حكاياته وحِكَمِهْ.

وممن يؤيدنا فيما وصلنا إليه ويذهب بنا إلى أبعد من ذلك أستاذنا - د/ يحيى الخشّاب - فى بحثه الأخير عن هذا الكتاب، إذ استنتج من حرارةالإيمان فى جمله وألفاظه، والصدق والصراحة فى تعابيره وقصصه ما يتفق وسيرة «النظام» كما وصفها المؤرخون، ومن استشهاده بالماضى القريب واختياره أمثلة من رجال العهد الغزنوى والبويهى استدل على أن وصايا «نظام الملك» هو الكتاب الذى صدر عنه حقًّا[1].

وهذا ما حملنا على أن نتعقب آثار الوزير ونترجم إلى العربية ما لم يترجم

(١) بحث القاه فى مؤتمر المستشرقين الرابع عشر، المنعقد فى ميونخ فى سبتمبر سنة ١٩٥٧م باسم معهد الدراسات الإسلامية نشر فى مجلة المعهد ص ٢٣٤.

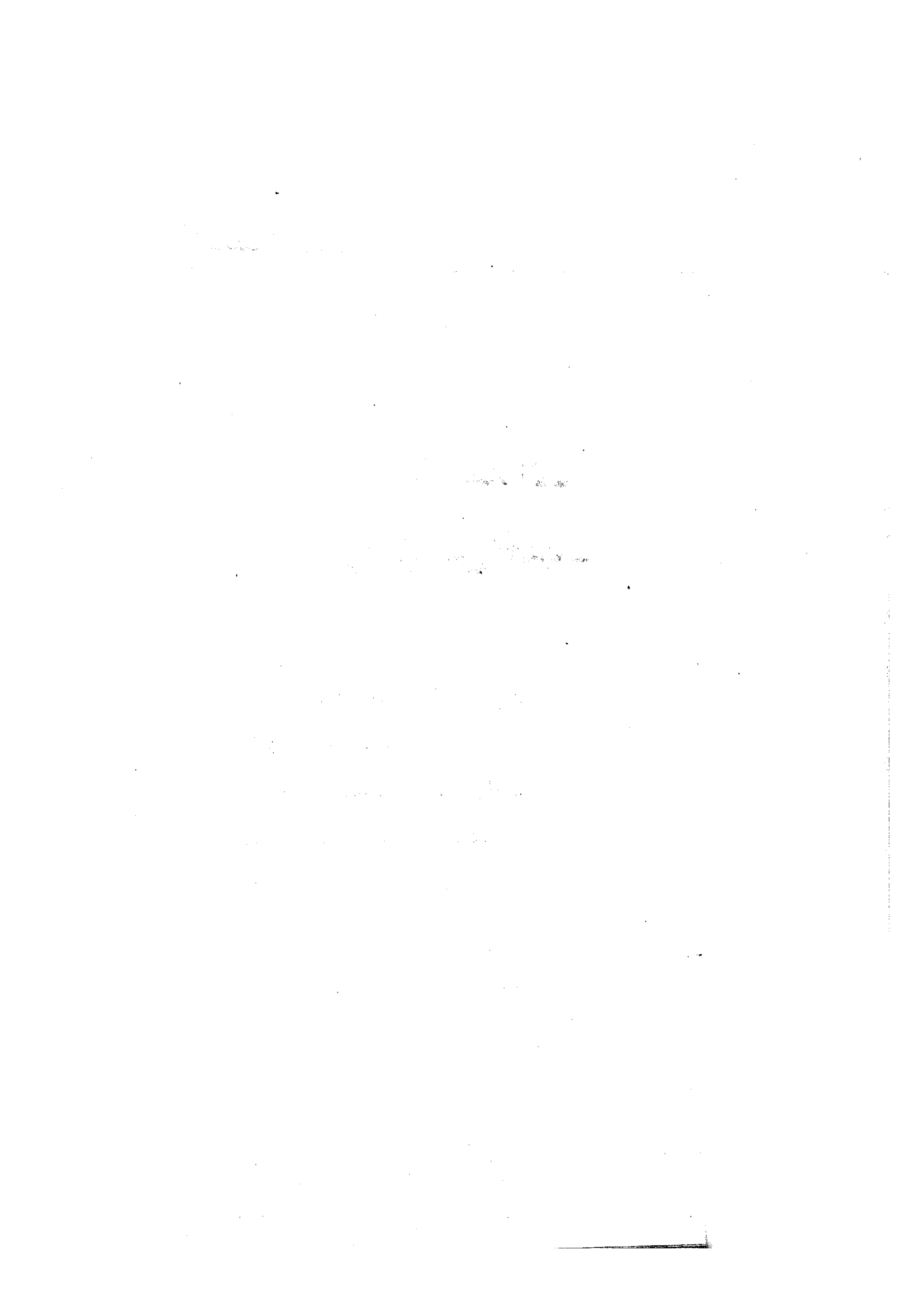
منها، ونعرض أمام الباحث خلاصة لأهم آرائه فى الكتابين لنستكمل صورة دولته المنشودة، ولنتبين وجه الصواب فى نسبتها للمؤلف، وربما كان يكفينى منها أن أذكر أسماءها، وأن أقصر جهدى على وصفها وتاريخ تأليفها، ولكنى رأيت أن فهمنا للوزير سيبقى ناقصًا وحكمنا عليه أو له سيكون خاطئًا ما لم نستعرض مذهبه السياسى وهو يسجله بقلمه حينما يدير دفة الحكم، كما عرضنا لمظاهر سلوكه الاجتماعى فى الحرب والسلم.. وليس من شك بأن هذا النقص سيبقى ما لم نستمر فى عرض ما تبقى له من آثار، واستعراض ما تضمنتها من أفكار.. ومن أهمها رسائله وأماليه فى الحديث.

* * *

● الفصل الثالث

رسائل «نظام الملك»
وأماليه فى الحديث

بعض رسائل النظام، خلاصتها، موضوعها، صلتها بكتابه ـ الوصايا ـ.
مجلساه فى الحديث: وصفهما والغاية منهما، والفرق بينهما. أحاديث متفرقة.



أ- رسائلـــه:

إن لـ«نظام الملك» ـ كما تدل النصوص التاريخية فى أمهات المصادر العربية والفارسية ـ رسائل عديدة كانت تقتضيها ظروف حياته، فقد شغل منصب الوزارة لدولة السلاجقة وكان فيه وزيرًا مفوّضًا بل رأس الدولة المفكر، وقلمها المدبر طوال ثلاثين عامًا، فإذا شُرّعت قاعدة جديدة استنير برأيه وإذا نظّم عهد أو صدر مرسوم فبمداد دواته، وثمة شيء آخر يفرض عليه تدوين الرسائل إلى أمراء الأقاليم وحكام الجهات المختلفة. . ذلك هو اعتماد السلطان عليه لبراعته فى الإنشاء، ودقته فى حسن الأداء فضلاً عما عرف به من دهاء سياسى، وبُعْد نظر فى معالجة المشكلات والتعبير عنها بلباقة الخبير المحنّك، العارف بقواعد اللغة وأسرار بلاغتها. . ولو رجعنا إلى ما أشار إليه ابن الجوزى وسبطه وابن الأثير فحسب من ردود ومراسلات جرت بينه وبين دار الخلافة والمتصلين به من العلماء والموفدين إليه، ومنه إلى بغداد لعرفنا هذا العدد الوفير من الرسائل السياسية التى فقدت ولم نعثر إلاّ على النزر اليسير منها.

لقد كان «النظام» ـ كما يظهر من خلال سيرته ـ يواصل رسائله إلى دار الخلافة ليزوّدها بأحدث الأنباء عن الفتوح وهو برفقة السلطان: ففى سنة ٤٥٦هـ ورد كتاب منه يخبر فيه بأن السلطان ألب أرسلان بلغ مواضع لم تجر العادة فى بلوغها وفتح بلادًا عظيمة وأنه سائر إلى فتح سائر بلاد الروم[1]. وفى ٤٦٥هـ أرسل خطابًا إلى الملك قاورت عندّ دعوته ضد السلطان ـ ملكشاه ـ

(١) السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٩٨.

مطالبًا بالعرش يقول عنه «الحسينى»: «إنه يحمل من المواعظ والنصائح مايهدى إلى سبيل الرشاد ويوضح له السداد»[1].. وفى حوادث سنة ٤٦٨هـ ورد سعد الدولة الكوهرائين بغداد وكان معه كتاب مختوم إلى الخليفة وظنّ فيه عزل «نظام الملك» للوزير ابن جهير ولّما فضّ وجد فيه إنهاء عن بعض التصرفات فطابت نفس الوزير ثم جاءت الكتب بالإفراج عن إقطاع الخليفة التى منحت سنة ٤٦٦هـ لأمراء التركمان[2].. وفى عام ٤٧٥هـ وصل كتاب من «النظام» إلى مسلم بن قريش يعتب عليه لما سمعه عنه من مكاتبته صاحب القلعة[3].

وخامس هذه الرسائل كان أرسلها إلى الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة ولكن لم نعثر على شيء من تعابيرها أيضًا سوى ما أشار إليه السبط فى عقب رسالة «النظام» إلى ابنه - فخر الدولة - فقال: «وذكر عتابًا طويلاً ممزوجًا بتهديد»، وكذلك كتب إلى عميد الدولة[4].

ومما وصل إلينا من رسائله رسالة حملها - كواهرين - شحنة العراق الى الخليفة تتضمن الشكوى من بنى جهير وسأله عزل فخر الدولة من الوزارة[5]، ثم راسله بعد ذلك فى إعادتهم بعد أن خرج إليه عميد الدولة إلى المعسكر السلطانى واسترضاه[6]. فجاء مضمونها: «إذا لم يكن أمير المومنين يرضاه فى خدمته وقد انصرفوا عن حضرته وقصدونا ملتجئون إلينا، ومستجيرون بنا، فلابد من مقابلة ذلك بما يصلح أحوالهم ويحقق فينا ظنونهم»[7].

---

(١) أبو الفوارس الحسينى - أخبار الدولةالسلجوقية.

(٢) السبط - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٦٨هـ.

(٣) المصدر السابق - حوادث سنة ٤٧٥هـ ورقة ١٧٦ ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق - حوادث سنة ٤٦٩-٤٧٠هـ.

(٥) ابن الأثير - والكامل والسبط - حوادث سنة ٤٧٦هـ.

(٦) ابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٧١هـ، والسبط - حوادث سنة ٤٧٦هـ.

(٧) السبط - حوادث سنة ٤٧٦هـ ورقة ١٧٩.

ورسالة بعث بها إلى «فخر الدولة» ابن جهير وزير الخليفة المقتدى بأمر الله على إثر الفتن الدينية التى أثارها - أبو نصر القشيرى - بين الحنابلة والشافعية فى بغداد، وقد ضمّنها امتعاضه مما جرى، والغضب لتسلط الحنابلة على غيرهم، وضرورة الحسم فيما يتعلق بمدرسة النظامية[1].

وأخرى أرسلها إلى الأستاذ أبى إسحاق الشيرازى عميد النظامية ببغداد جوابًا على بعض كتبه الصادرة فى معنى الحنابلة وغيرها حينما اشتدت الفتنة وقتل من الناس عدد كبير حيث كوتب بذلك فجاءت مكاتبات منه بالجميل كما عبّر عنها ابن الجوزى[2].

وبعد تتبّع وجهد وسفر إلى إيران صيف ١٩٥٢م كان مما اهتديت إليه بعض تلك الرسائل فى ثنايا مجاميع قديمة مازالت مخطوطة فى كبار المكتبات بطهران وطوس.. واحتفظت بصور لكل نسخة منها.. وظهر لى من خلال دراستها حقائقُ جديدة لاشك بأنها ستغيّر من أحكامنا على «نظام الملك» والأحداث التى جرت على يديه، أو كانت بإشارة منه فى تلك الفترة التاريخية الشائكة. كما سترسم «للنظام» صورة تكشف عن شخصيته أكثر دقة وأشد وضوحًا.

ولسنا ندرى ماذا تخبئ - تلك الخزانات المليئة بالمخطوطات الفارسية القيّمة التى لم تفهرس بعد أو فُهرس بعضها ولم تطبع، أو طبعت ولم تترجم إلى العربية.. وإذا ما أتيح لمكتبتنا الاطلاع فليس من شك بأنها ستلقى ضوءًا مجليًا على كثير من غوامض تاريخنا السياسى والأدبى والمذهبى مازالت مثار جدل وخلاف بين الباحثين.

وعلى الرغم من كل ذلك، وما لقيته المكتبة الإسلامية من كوارث طبيعية وسياسية ومذهبية أوشكت أن تمحوها من الوجود قد حفظت لنا الأقدار أو

---

(١) ابن الجوزى - المنتظم - حوادث سنة ٤٦٩هـ، والسبط - حوادث نفس العام.

(٢) المنتظم - حوادث سنة ٤٧٠هـ.

المصادفات تراثًا ضخمًا من مجموعة رسائل كتبها- النظام- فى مناسبات ولأغراض مختلفة. . وقد حاولت جاهدًا أن أرتب مجموعة رسائله هذه ترتيبًا زمنيًا مستعينًا بتاريخ الأحداث والمواضيع التى تضمنتها قدر المستطاع.

الرسالة رقم (١) :

من رسالة لابنه «فخر الملك» :

وفى مخطوطة فارسية قديمة أحتفظ بنسخة مصورة منها قدّم الناسخ ملخصًا لهذه الرسالة تحت عنوان «دستور الوزراء»(١) ومهّد لها بقوله:

فى عهد السلطان ـ ألب أرسلان ـ فوضت سلطنة فارس إلى معز الدين جلال الدولة ملكشاه، وأسندت وزارته إلى نظام الدين فخر الملك بن «نظام الملك» سنة ٤٦٠هـ. . فى ذلك العهد كتب الخواجة «نظام الملك» رسالة إلى ولده «فخر الملك» عند تسّنمه دست الوزارة لتكون دستورًا لسيرته فى الحياة. ولما كان كل وزير محتاجًا إليها اقتطفنا منها قدر الحاجة ما يلي:

قال الخواجة «نظام الملك» ـ الحسن بن علىّ الطوسى ـ فى أول الرسالة: «فى الوقت الذى أمرنا فيه ولدنا الأعز أن يذهب إلى طوس كتبنا له كتابًا بخطنا وذكرنا فيه شروط ذلك العمل».

ثم يسرد الناسخ مقتطفاته من الرسالة فى أربع صفحات من القطع المتوسط، فى ثناياها إرشادات عامة متفرقة وموجزة كأنها خلاصة لبعض موضوعات كتاب الوصايا، مما يدلنا على أنها والوصايا لشخص واحد بناء على وحدة المعنى والغاية فيهما معًا. أمّا الأفكار الجديدة التى تطرقَتْ إليها فهى:

١- التوصية باحترام الخواجة العميد أبى سعيد المستوفى ـ البيهقى.

٢- العناية بدراسة العربية تكلمًا وكتابةً، وإنشاءً وخطًا لأن من لا يعرفها ينتقصه أهل فارس لأن جلّهم من الفضلاء. . لذلك فقد أرسل إليه الأستاذ ـ

(١) مخطوطة باسم ـ تحفة بهائى ـ مؤرّخة فى سنة ٧٩٣هـ ومرقّمة.
انظر كذلك: ملحق رقم ٧ من البحث.

أبا المكارم ليتعلم عليه فى أوقات الفراغ من الأعمال الملوكية وأن يتكلم معه، وأن يتبادله الرسائل بالعربية لتحصل له ملكة الإنشاء، كما أكد عليه بطلب الأستاذ ـ عبد اللّه الطهرانى ـ الخطّاط المعروف ليتعلم عليه الخط.

٣- السعى إلى امتلاك ما يدرّ عليه وما يحتاجه من مصاريف يومية وأن يختار عدداً من المعتادين للمتاجرة له على أن يقرر لهم مبلغًا من المال، وأن تكون بضاعته على بغاله الخاصة به.

والرسالة ـ كما تدل بعض خصائصها ـ أنها أولى رسائله لابنه «فخر الملك» وكما أنها فى التربية والتهذيب والحثّ على التعلم والإقبال على المعرفة والتحلى بآداب السلوك لتحسن علاقته بالناس، وأنها وصلتنا مقتطفات منها اختارها الناسخ على قدر الحاجة كما روى لنا.

ولئن صدق الظن بأنها من الأصول لكتابه المعروف باسم «الوصايا»، فإنها ستحدد لنا بداية تأليفه الذى يحتمل بعض المؤرخين أنه ألّفه فى أخريات أيامه، وعلى إثر اشتداد الأزمة بينه وبين السلطان وملله من منصب الوزارة، كما تدعم رأينا بأن مواده الأولى أعدت قبل هذا بأعوام.

الرسالتان رقمى (٢ ، ٣):

رسالتان أخريان أثبتهما المؤرخ الفارسى «سيف الدين عقيلى» فى كتابه المعروف «بآثار الوزراء» المخطوط حتى الآن[١].

الأولى: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «فخر الملك». (وهى غير السابقة).

والثانية: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «مؤيد الملك».

ونحن ـ وإن وجدنا عند مقابلة هاتين الرسالتين ومقارنتهما وتشابههما فى بعض تعابيرهما ومحتوياتهما، ولكن الواقع الذى لا مرية فيه أنهما تختلفان فى إطارهما العام لاختلاف مناسباتهما وظروف كتاباتهما، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك بأنهما رسالتان كتبتا لأسباب متنوعة كما كانا إلى شخصيات مختلفة.

(١) آثار الوزراء، والملحق رقم ٨، ٩ من البحث.

تحدث فى الأولى إلى ابنه «فخر الملك» كمن يريد إعداده لمستقبل كبير فى الدولة، فهو يوصيه بالعمل الطيب لترتاح منه الرعايا ويقبلوا على كسب معاشهم فارغى البال، ويوصيه بقضاء حوائجهم وفتح بابه لحل مشاكلهم يومًا فى الأسبوع، وأن يتفقد خواصه وأمراء عسكره والشيوخ والموالى والأئمة وأن ينظر إليهم بعين الحرمة ويعينهم على أمور دنياهم، ويدعوهم إلى مائدته فى الأسبوع مرتين ويخلع عليهم فى النيروز والعيدين ويقبل شفاعتهم فيما هو ممكن وجائز. . . والاعتذار بالكتابة وألاّ يغفل الولاة فى النواحى فيلحق الرعايا حيف عظيم، ويصبح الفقراء معذبين مثقلين، وأن يضمن أمن الطرق للقوافل والقضاء على السرّاق وقاطعى الطرق ومن يهتك سمعة النساء، وأن يفتح دار الضرب ويعيّن عليها متوليًا شديدًا، وأن يكون وازن العيار أمينًا وأن يراقب الباعة والدلالين وأن يؤدب غلمانه ويصل من يستحق منهم، ويصلح بين الدهاقين، وأن يدعو الناس لصلاة الجمعة ويصلى الظهر فيهم فى الجامع، لتظهر بركة الخلافة على أحواله.

ولم يحرم ابنه ـ مؤيد الملك ـ من نصائحه فقد كان موضع رعاية بعد ولده الأكبر ـ فخر الملك ـ ولكنه لم يكن يتوسم فيه مشاركة فى وزارة يومئذٍ، كذلك لم يخف عليه مخاطرها فكانت رسالته إليه طرازًا آخر فى التوجيه والإرشاد، حرّضه فيها على التعلم وتهذيب النفس ووعظه فيها بحسن الاعتقاد، وهو الإيمان بوحدانية اللّه وأبديته لأنه أساس الخير فى العالمين، ثمّ برسالة محمد وحب آله وصحبه، وألاّ يضمر عداوة لأحد من المسلمين ويحترم العلماء لأنهم ورثة الأنبياء، ولاسيما المنتسبون إلى شجرة النبوة.

ثمّ يضع منهجًا لحياته اليومية: فعليه أن يستيقظ مبكرًا، وأن يؤدى فريضة الصلاة ويقرأ وردًا من القرآن، ثمّ يجلس إلى المتخصصين فى النحو والصرف والهندسة، والمنطق، والخط، ويستذكر من الشعر العربى والفارسى والرسائل والحكايات والأمثال ويقضى ساعة فى أول الليل للمباحثة.

ثم ينتقل به إلى نظرات خُلُقيّة فينبغى أن يعوّد لسانه على الصدق ويحفظه عن الغيبة والكذب ـ والوفاء بالعهود والكسب بالعمل الشريف والحذر من المتملقين والطمع فى أملاك الناس وتجنّب الظلم والحسد والتكلف، وأن يستمع لكلام العقلاء ويجالس أهل الصلاح حتى يصل إلى درجة الاستقلال إن شاء اللّه.

الرسالة رقم (٤):

ورسالة أخرى كتبها «النظام» إلى الإمام أبى إسحاق الشيرازى ذكر موجزها ابن الجوزى فى منتظمه[1]، ومقتطفات منها آخرون، وأشار إليها فريق ثالث مما يثبت نسبتها إليه.. وذلك على إثر الفتنة التى أثارها «أبو نصر بن الإمام القشيرى» عند مروره ببغداد للحج عام ٤٧٠هـ، والتى شغلت دار الخلافة وديوان السلطنة شهوراً وقتل بسببها عشرات من عوام الحنابلة والشوافع.

وهى رساله على صغرها، فإنها تدلنا على مقدارتجرد «النظام» من التحزبات العقائدية ومدى نزاهته عن التعصب الطائفى وكيفية نظرته للخلافات المذهبية نظرة السياسى المتدين الذى يود التوازن بين الفرق المختلفة، وإن كان يميل ويعمل لرفع شأن طائفته، فهو يرد على الإمام الشيرازى تعصبه للشافعية وإطالته الخطاب لتأليبه على الحنابلة، مع أن واجب السياسة والعدل يقضيان عدم التحيّز إلى طائفة دون أخرى، وأنه من الأولى به إذاعة السنن لا إشاعة الفتن، وأنه لم يبن النظامية إلاّ تكريمًا للعلم واحتفاءً بأهله وليس لتفريق الكلمة واختلاف الأمة وإذا لم تسر الأمور وفق ما أورده فليس إلاّ التقدم بسدّها.

ثمّ يثنى على ابن حنبل ويشيد بمركزه بين الأئمة وأنه ليس فى الاستطاعة دفع أتباعه عما اعتقدوه، ويختم رسالته بألاّ يستمع الإمام إلى كل ما ينقل إليه، وألاّ يثيره كل ما يجرى أمامه، لأنه رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، وعند ـ النظام ـ من تواتر كتبه ما يدل على سرعة تأثره.. والسلام.

---

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم، وانظر: الملحق رقم ١٠ من هذا البحث.

الرسالة رقم (٥) :

وللدواعى نفسها التى كتبت بها رسالته السابقة فقد أرسل إلى الوزير «فخر الدولة» خطابًا أشار إليه المؤرخون، وأثبت مضمونه «سبط بن الجوزى» ذكر فيه ما بلغ سمعه من أنباء تجدد الفتنة، وحمّله المسئولية فى وقوع المعارك الدامية واتهمه بالميل ضد الشافعية والعمل مع مناوئيهم بدلاً من مؤازرتهم.. ثم يذكّره بأنه إنما شيّد لهم مدرسة لتكون مثواهم، وأن يحسم القول فيما يتصل بها، فإمّا إغلاقها وإمّا رعاية أبنائها لئلا يجرى على من يتفيأ ظل عنايتى ويحاط بعين رعايتى ما يجرى، «ثم يتهم أصحاب» ابن حنبل بالانتحال وسوء الأفعال، وأنه برىء من ذميم طرائقهم وأقوالهم، وتجاسرهم على سبّ الأئمة وإيقاعهم فى علماء الأمة دون منع ولا معاقبة.. وأنه لم يغض الطرف عما يبدو منهم إلاّ ترفقًا أن يجرى فى جوار الخليفة وسدة الإمامة المكرمة ما يخلّ بلوازم الهيبة ويقلّل جوانب التعظيم والرتبة. ويقول «السبط»: «إنه ختم رسالته بعد عتاب طويل ممزوج بالتهديد».. وكذلك كتب لابنه ـ عميد الدولة أبى منصور[١].

الرسالة رقم (٦) :

وفى مخطوطة قديمة باسم «مجموعة منشآت أبو على حيدر»[٢] عدة رسائل اعتمدها وعلّق بهامش صفحاتها، وذيّل فى خاتمتها كثير من العلماء فى مختلف العصور، وعدّها بعضهم نموذجًا صحيحًا للنثر الفارسى حينذاك فضلاً عن كشفها لأمور كانت مجهولة لدى المؤرخين فى ذلك العصر...وما يثبته الناسخ فى هذه المجموعة:

أ ـ رسالة الخواجة «نظام الملك» إلى السلطان ملكشاه.

ب ـ جواب السلطان ملكشاه إلى الخواجة «نظام الملك».

(١) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٦-٤٧٠هـ، وانظر: الملحق رقم ١١ من البحث.

(٢) كذلك فى مجموعة مكتبة ملّى ملك تحت رقم ٤٥، وانظر: الملحق رقم ١٢ من البحث.

ومع العلم بأن الرسالتين معًا لم تتجاوزا ثلاث صفحات بالقطع المتوسط.. فإن «النظام» يطلب فى رسالته من السلطان إعفاءه من الوزارة والسماح له بالسفر إلى الحج ليقضى بقية عمره فى كنف بيت الله الحرام، ويقوم بواجب الدعاء لدوام السلطنة إلى الأبد. أمّا السلطان فإنه يشيد بوزيره، ويثنى على حسن تصرفه ويعترف له بأن راحة الرعايا واستقرار الأمور لم تحصل لولا صواب تدبيره وصحة رأيه «ولم ينتظم نظام الملك بغيره....»، ثمّ يشير ملكشاه فى جوابه إلى أن التوجه الخسروى الملوكى لم يزل مصروفًا نحوه ومقرونًا به، وهو سيبقى كذلك مادام حيًا موجودًا.. ثمّ يثنيه فى نهاية رسالته عن السفر إلى الحج مشيرًا إلى أن: «قضاء حاجات الناس من الفقراء العاجزين بهمة الوزير تعادل حجات كثيرة».

ولم أعرف أحدًا من المؤرخين أشار إلى هذه الرسالة التى بسببها قد تأجل مشروع حجّه إذ لم يقبل طلبه ليكون حرّ التصرف فى حضره وسفره، والتى أشارت هذه الرسالة ولو من طرف خفى إلى رغبة «النظام» فى التخلى عن منصبه فى الوقت الذى تؤكد فيه تمسك السلطان به وعدم استغنائه عنه إلى هذا الوقت وهو عام ٤٨٠هـ.

وبهذا تنتفى تلك الأسطورة التى تناقلها معظم المؤرخين من العرب والفرس والتى تدّعى: بأنه جاء إلى «النظام»، وهو على أهبة السفر للحجّ شخص بزى صوفى وأوصل إليه رقعة مفادها: أنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول له: «امنع الخواجة من السفر وإلزمه البقاء إلى جنب السلطان التركى لقضاء حاجات المظلومين».. فأذعن لأمر رسول الله ﷺ ولم يسافر.

والذى يلاحظ أن الرسالة الملكشاهية والرؤيا النبوية يتضمنان تعليلاً واحدًا لتأجيل فكرة السفر أو العزوف عنه.

* * *

ومن خلال هذا العرض الخاطف لرسائل «النظام» يتبين لنا أنها تتصل بوصاياه من وجوه، كما تتصل بكتابه «السياسة» من وجوه أخرى، حتى ليظن القارئ أنها سلسلة ذات ثلاث حلقات يكمل أحدها الآخر فهو يورد القصة فى سياستنامة كما يوردها فى الوصايا، ويورد الفكرة فى الاثنين معًا ويعيدها ولو بأسلوب آخر فى بعض رسائله كمسألة المرأة ومشكلة العطالة وقضية الألقاب[1].

ومن المحتمل أن يكون «النظام» قد ضمّ بين رسائله لأبنائه تلك، وأضاف إليها خلاصة تجاربه وأحداثه الجديدة بآداب الوزارة، وواجب الوزراء واختصاصاتهم ولاسيما فى الفصل الأول وما تعرض له من مخاطر هذا المنصب ومساوئه وجعل منه كتيبًا صغيرًا قدّمه لابنه «فخر الملك».[2]

غير أننا لا نستطيع القول جازمين بأن هذه الرسائل هى الأصل الوحيد لكتاب ـ الوصايا ـ لأن غالبية ما يحتويه يختلف عما فيها كل الاختلاف، ولأن النقاط الفارقة تعبّر عن تجارب ونظرات فى السياسة والاجتماع لاتوجد كما بحثها فيه.. ولأن شخصية الوزير النافذة تبرز بروزًا قويًا فى ثنايا فصوله، كما تشف بعض فقراته عن الأصداء الحزينة.

وسواءٌ صحّ ما احتملناه فى الحالتين: أوّلاً فإن وصول هذه الرسائل إلينا وما تضمنتها من آراء وتوصيات متشابهة لتدعّم صحة نسبة الكتاب إلى «النظام»، كما تثبت صدق انتساب هذه الرسائل إليه ثانيًا.

* * *

(١) انظر: سياستنامة، والوصايا.

(٢) وهناك رسالتان لابنه فخر الملك وثالثه لابنه مؤيد الملك، ورابعة وخامسة بينه وبين السلطان ملكشاه بالفارسية وقد عربتها مع مقدمة ضافية لها. انظر: مجلة ـ معهد المخطوطات العربية المجلد السابع الجزء الثانى فى: جمادى الأولى ١٣٨١ هـ = نوفمبر ١٩٦١م.

ب- أماليه في الحديث:

لقد كان أول ما عنى به المسلمون من تدوين هو جمع الحديث وتسجيله خشية ضياعه وخوفًا من الانتحال فيه.. ثم عنوا برواته عندما طال السند وتوفى أكثر رجاله وألّفوا فى ذلك الكتب الضخام خلطوا فيها بين الصحيح والموضوع، حتى قيل بإن الأحاديث التاريخية صارت بعد قليل أساسًا لما ألّف من كتب السيَر والمغازى، بدليل وجوه الشبه الكثيرة فى الأسلوب، وفى طريقة سرد الوقائع وحكاياتها[1]. وربما صارت هذه أساسًا لكتب التاريخ ولاسيما بعد حذف الأسانيد منها.

وكان مردّ عنايتهم فى الحديث يرجع إلى ناحيتين: الأولى: لأنه يلقى ضوءًا على آى القرآن، فيفسر الغامض ويوضح المبهم والمتشابه من آياته ويفصّل المجمل ويقيّد المطلق ويخصّص العام من بيّناته. والثانية: لأنه يحتوى على أحكام أخر متممة لما جاء فى الكتاب بالإضافة إلى أنه شريعة كاملة فى مكارم الأخلاق والحثّ على البر والتعاون والتحلى بأفضل الصفات.

ولم يدوّن الحديث فى عصر النبوة كغيره من علوم العربية فنشأ عن هذا أن اصطنعت أحاديث كثيرة لأغراض سياسية ومذهبية مختلفة، وظهر الوضّاعون فى الحديث كما ظهروا فى الشعر مثل «ابن أبى العوجاء» الذى قال: «لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرّم فيها وأحلّل»[2] وبهذا دخل السنّة من الأحاديث المكذوبة ما صعب حصرها والتمييز بين الصادق والمنتحل. ولهذا اهتم العلماء بتدوينها، ووضعوا قواعد التعديل والتجريح لنقد رجال السند ولكن دون اهتمام كبير فى نقد الحديث نفسه، من حيث موضوعه ومعانيه وأسلوبه، وبذلك دخلت من الأحاديث الضعيفة ما لا يقل عن الصحيحة إن لم تَزِد عليها، وكان منها ما هو أقرب فى دلالته إلى الأساطير منها إلى منطق العقل، وأصبحت مصادر الحديث من السعة بحيث لا تتناسب وعمر الرسول ولا تتفق ومنطق رسالته.

(١) احمد أمين ـ فجر الإسلام ص ١٥٧.

(٢) نفس المصدر ص ٢١١.

وما أن طلع القرن الثانى للهجرة حتى بدأ شعور الخلفاء بمسيس الحاجة إلى تدوين الحديث يتضح سنة بعد أخرى فيشيرون على أعلام عصورهم بجمعه، ولعل ما فى الأحاديث من تأييد لمركز الخلافة وإطاعة الفئة الحاكمة من دواعى تنّبه الخلفاء لضرورة تدوينه كما كانت من دوافع الإضافة عليه. فتحدث - المنصور - بذلك إلى الإمام - مالك بن أنس - لينشر كتابه «الموطأ» فى الأمصار، وحدّثه الرشيد فى أن يعلّقه فى الكعبة فمنعهما عن ذلك[(١)].

ولم ينته هذا العصر حتى رأينا حلقات السماع والإملاء فى دور العلماء والمساجد وغيرهما تزدحم برجال الحديث تمليه وتدوّنه، وسمعنا برحلات هواة الحديث إلى بلد قصى من أجل السماع لحديث واحد يرويه معدّل عالى السند إذ ابتدأ التعليم فى الإسلام تملية وتحديثًا، وكان الدرس فيهما لا يخلو من فوائد لغوية وأدبية وتاريخية، ومن أمثلة ذلك فى هذا العصر أمالى الشريف المرتضى، كما وضعوا لهما قواعد وأحكام يجب على المملى والمستملى اتباعها مثل: كتاب - أدب الإملاء والاستملاء لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى[(٢)]. وصار الحديث بفنونه التمهيدية الموضوع الذى شغل أذهان القوم وأقلامهم طوال القرن الثالث والرابع الهجريّين وأصبح سببًا لايجاد فنون أخرى دعيت بعلوم الحديث كعلم الرجال ومصطلح الحديث ضمت إلى علوم القرآن المعروفة.. وصار الارتحال فى سبيل الاستماع على شيخ اشتهر بعلوّ سنده وصدقه من وسائل التعلّم المألوفة، فقد رحل «ابن ظاهر» من مصر لأجل - الفضل بن المحب - صاحب الخفاف، المتوفى سنة ٤٧٣هـ[(٣)]. وممن شدّ الرحال إلى بغداد فى طلب الحديث «أبو الوليد الباجى القرطبى» المتوفى سنة ٤٧٤هـ[(٤)].

وسواءٌ أكان الحديث منتحلاً أم صحيحًا فلم يغب على الحاكمين أثره فى

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) وقد طبع فى أبريل - ليدن سنة ١٩٥٢م.

(٣) أبو القاسم الفضل بن عبد الله بن المحب النيسابورى. قال عنه ابن ظاهر: «إنه قرأ عليه فى أول مجلس جزءين من حديث السراج فلم يجد لذلك حلاوة، وأنه لم يمتنع عليه أو طالبه بشىء، وكل حديث من الجزءين يساوى رحلة»: (الذهبى - السير، مجلد ١١ ص ٤٦٣).

(٤) سمع ببغداد والموصل وعاد إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر سنة، وصنّف وناظر ابن حزم فى مجالس كثيرة. (الذهبى - السير، مجلد ١١ ص ٥٣٩).

نفوس الناس، وربما كان هذا من دواعى وضعه كما ذكرنا آنفًا، لذلك فقد مُنع المحدِّثون والوعاظ من التحديث والوعظ، كما يمنع الخطباء والشعراء من إلقاء كلماتهم وقصائدهم أحيانًا خشية من إثارتهم، فقد منع السلطان ـ محمود ـ الوعاظ غير أبى حاتم بعد دخوله الرى وقتله الباطنية فيها، إذ كان لا يقدم شخص إلاّ ويعرض عليه اعتقاده[1]. وكذلك منعت الدولة الفاطمية ـ أباإسحاق الحبّال ـ المتوفى سنة ٤٨٢هـ من التحدث بجامع عمرو بن العاص، كما منعوا من الدخول عليه إلاّ بشرط عدم السماع عليه أو الإجازة منه[2].

وكان لعنايتهم بالحديث ظاهرة اهتمام أخرى تبدو لنا فى تحرّجهم من السماع على رجالات المذاهب المتطرفة، فكانوا يتخوّفون من الرواية عن المعتزلة، كما يخشونها عن الباطنية فكان «ابن الأبنوسى» المتوفى سنة ٥٠٥هـ المحدّث الصادق يقول: «كنت لا أسمع مدة من التنوخى لما أسمع من ميله إلى الاعتزال ثم سمعت منه». [3] وكذلك كان موقف علماء كل فرقة عن غيرها، فإذا تحدّثوا عن ابن البناء البغدادى قالوا: «إنه نقل عن خمسمائة مصنف سنة ٥٧١هـ» مشارًا إليه فى القراءات واللغة والحديث إلاّ أنه حنبلى المعتقد، وإذا ترجموا للعكبرى الأديب الإخبارى قالوا: «غير أنه كان يتشيّع»[4].

«نظام الملك» المحدّث:

أما «النظام» فقد غمرته موجة الإقبال على الحديث والتهافت على دراسته وحفظه فكان ولوعًا به سماعًا ورواية ـ فقد سمعه بأصفهان من محمد بن على ابن مهر مزد الأديب، وأبى منصور شجاع بن على بن شجاع، وبنيسابور عن

(١) الذهبى ـ السير، ترجمة أبى اسماعيل الهروى الأنصارى.
(٢) المصدر السابق ص ٥١٨، ٥١٩.
(٣) المصدر السابق جـ ١٢ ورقة ٦٤. هو أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله النعمان المغربى. قال الصدفى: «دخلت عليه فظننى مدسوسًا عليه حتى بسطته وأعلمته أننى أندلسى فأجاز لى لفظًا. فقلت قبّح الله دولته أماتت السنة ورواية الآثار النبوية وأحيت الرفض والضلال وبثت دعاتها فى النواحى، تغوى الناس ويدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية وبهم ضلت جبلية الشام، فنحمد الله على السلامة فى الدين».
(الذهبى – السير جـ ١١ ورقة ٥١٨، ٥١٩).
(٤) الذهبى ـ السير، مجلد ١١ ص ٤٦٣-٤٧٠.

الأستاذ القشيرى أبى القاسم، وفى بغداد من أبى الخطاب بن البيطار وغيره[1]. وروى عن أبى مسلم الأديب صاحب - المقرى - وأبى سهل الحفص وإسماعيل بن حمدون، وبندار بن على، وأحمد بن الحسن الأرموى، وأميرك العروضى، ويوسف الخطيب وقاضينا أحمد بن عبد الكريم الخطيب.. إلى أن يقول ابن قاضى شهبة[2] نقلاً عن شيرويه فى تاريخ همدان: وسمعت منه بقراءة أبى الفضل القومسانى. وروى عنه جماعة منهم: أبو الفضل الأرموى، ومصعب بن عبد الرزاق الصيعمى، وعلى بن طواد الزينبى، وأبو محمد الحسن ابن منصور السمعانى وكان آخرهم أبو القاسم نصر بن نصر العكبرى[3].

وغير هؤلاء من الأعلام من استملى على «النظام» مثل: الشحامى النيسابورى[4]، ومنهم من سمع عليه مثل: شيرويه بن شهردار فى اسفيدروذ بار[5]، وأبو الفتح محمد بن أبى الحسن البسطامى[6]، والرمانى الدامغانى بنيسابور[7]، والشيخ أبو الفتح المصيصى[8]، وأبو القاسم القاينى فى أصبهان[9]، وأبو القاسم عبد الله بن على بن إسحاق الطوسى[10] أخو «النظام» فى الرى، وأبو محمد السهلوكى[11]، وأبو نصر الشجاعى السرخسى[12] ببغداد، ثم أبو عبد الله الجوبانى المتوفى سنة ٥٣٠هـ.

---

(١) السبكى - الطبقات جـ ٣ ص ١١٥.

(٢) ابن قاضى شهبة - مناقب الإمام الشافعى وطبقات أصحابه ورقة ١٦٥.

(٣) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨- حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٤) الذهبى - السيّر جـ ١١ ص ٤٩٦.

(٥) السمعانى - الأنساب - مادة بسطام.

(٦) ياقوت - معجم البلدان - مادة «اسفيدروذبارز»، وطبقات الشافعية لابن الصلاح ورقة ٥٦.

(٧) السبكى - الطبقات جـ ٤ ص ٤٦١.

(٨) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣١٦.

(٩) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٨.

(١٠) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٤٥.

(١١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر، وفى الطبقات أبو الحسن: خطيب بسطام، مدينة بقومس وقاضيها تفقّه ببغداد عن الدبوسى. ولد سنة ٤٠٥هـ وهكذا، وتوفى سنة ٥٣٦هـ (المنتظم جـ ١٠ ص ١٠٠ والسبكى جـ ١ ص ١٨٣).

(١٢) هو محمد بن محمود بن الشجاع السرمرد. قدم من خراسان إلى بغداد وتفقّه على أبى يعلى الدبوسى، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعانى والطائى، و توفى سنة ٥٣٤هـ (السبكى - الطبقات جـ ٤ ص ١٨٤).

وقد وصف لنا المعنيون بسيرته ومجلسه وهو وزير وكيف كان يجلس بعد صلاة الظهر لوعظ الناس ويقرأ بين يديه جزء من الحديث على شيخ كبير عالى الإسناد ويكرمه ويجلسه الى جنبه، ويكلّم الفقهاء فى المسائل ويقعد مطأطئ الرأس ويسمع جميع ما يجرى فى المجلس[1].. وكان ممن عرفناه ممن يقرأ «للنظام» ويفيده الإمام المحدث أبو عبد الله السمرقندى[2].

ويورد لنا السمعانى قصة جرت فى إحدى مجالس الإملاء النظامية ذكرها بصدد شروط المستملى وألاّ يكون بليدًا مغفلاً. قال نقلاً عن شيخه بأصبهان: كنا فى مجلس «لنظام الملك» أبى على الحسن بن على بن إسحاق الوزير فأملى: «أف للدنيا الدّنية، دار همّ وبلية». فقال المستملى، وهو سليمان بن إبراهيم الحافظ: «ونلية». فقيل له: «وبلية». فقال: «وغلبة». فقيل له: «وبلية». فقال: «وقلية». فضحك الجماعة. فقال «النظام»: «اتركوه»[3].

وكاد يتفق الذين ترجموا «للنظام» بأنه أملى مجالس عدة فى مدن مختلفة ومناسبات عديدة فحدّث فى أصبهان والرى ومرو ونيسابور وبغداد فى جامع المهدى ومدرسته بالرصافة[4]، وليس من شك بصواب ذلك لأن السماعات التى مرّ ذكرها تدل على حقيقته.. ولهذا عدّه «عبد الغافر» فى كتابه ـ السياق ـ من رجال الطبقة الثالثة، وقال عنه: «سمع وأملى سنين»[5].

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٢ ص ١٣٩ ـ مادة «جوبان».

(٢) هو ابن المقرئ المحقق أحمد بن عمر بن أبى الأشعث الدمشقى المولد البغدادى الدار، سمع من الكثيرين فى بغداد ونيسابور ومرو وجرجان وأصبهان وحدّث عن السلف وكتب الكثير، وكان يفهم ويروى مع الإتقان والتحرى والدين وسعة الأدب إذا اقرأ وأغرب. مات سنة ٥١٦هـ. (الذهبى ـ السير جـ ١٢ ورقة ١٠٨).

(٣) عبد الكريم بن محمد السمعانى ـ أدب الإملاء والاستملاء ص ٦٣.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ١ ص ١٤٠-١٤٥، والمنتظم جـ ٩ ص ١٦٤-١٦٨، والكامل جـ ١٠ ص ٨٤-٨٦، . ومرآة الزمان، ورقة ٢٠٨ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) اعتمدنا فى هذا على مخطوطة «المنتخب من سياق تأريخ نيسابور» لإبراهيم بن محمد بن الأزهر الشريفى ورقة ٥٥.

وكان لولعه بالسماع وتحقيق الروايات أنه لم يسمع بمقرئ إلاّ وأحضره إليه وقرّبه منه وأقرئ عليه. حكى أنه لم يعرف بوجود الشيخ المعمر محمد بن أبى عمران المروزى آخر من روى صحيح البخارى عاليا فى زمانه إلاّ وطلبه، وحمل إلى الوزير ليقرأ عليه فقرأ بعض الحديث ثم رمته البغلة فمات سنة ٤٧١هـ[1].

ولشغفه بالحديث وتقديره لرواته كان يحضر مجالس المتحدثين ويستمع إليهم ويرتبط الفقراء منهم ويجرى الأرزاق مشاهرة عليهم. فمن هؤلاء أبو القاسم المقرء الضرير[2] فلم يصل «النظام» خبر تضلعه بالقراءات وكثرة الروايات حتى بعث ليقعد فى المسجد للقراء، وأجرى عليه المرسوم، واستفادوا منه سنين إلى أن توفى بنيسابور.. وأبو على الوخشى، فلم يسمع «النظام» وهو ببلخ أن بقرية «وخش» شيخًا ذا رحلة ومعرفة حتى استدعاه وقرأوا عليه سنن داود وسمع منه فصدّره بمدرسته فيها إلى أن مات سنة ٤٧١هـ. ويحكى لنا أحد الرواة وقد سمعه يقول: «رحلت وقاسيت الذل والمشاق ورجعت إلى (وخش) وما عرف أحد قدرى فقلت: أموت ولا ينشر ذكرى ولا يترحم أحدٌ علىّ فسهّل اللّه ووفق (نظام الملك) حتى بنى هذه المدرسة وأجلسنى فيها أحدث.. وبقيت بعسقلان أيامًا بلا أكل فقعدت بقرب خبّاز لأشم رائحة الخبز وأتقوّى بها»[3].. وأبو سعيد السجزى وكان قصير اليد فلم يسمع به «نظام الملك» حتى ارتبطه بناحية بيهق ثم بطوس للاستفادة منه ثم انتقل فى آخر عمره إلى نيسابور إلى أن توفى فيها سنة ٤٧٧هـ[4].

---

(١) الذهبى ـ سير أعلام النبلاء جـ ١١ ص ٤٦٤.

(٢) هو يوسف بن علىّ المغربى الهذلى، عالم بالقرآن، كثير الروايات، مقدم فى النحو والصرف عارف بالملل (منتخب السياق، ورقة ١٠٥).

(٣) هو الحسن بن علىّ بن جعفر البلخى الوخشى ، وكان جوّالاً فى الآفاق رحل إلى العراق والشام والجبال والثغور وذكّر الحفّاظ وسمع منهم الكثير، ومن أساتذته الخطيب البغدادى (الذهبى ـ السير جـ ١١ ص ١٥٦).

(٤) هو مسعود بن ناصر بن أبى زيد السجزى المحدث الرحّال، سمع الكثير وجمع فأوعى من شيوخ الخطيب وما كان فى المحدثين أجود إتقانًا ولا أحسن ضبطًا منه (السياق ورقة ٩٢، والسير جـ ١٢ ص ٥٣٧-٥٥٨).

مجلسا إملاء الحديث:

فلا غرابة - بعد أن تزود «النظام» بثقافة دينية واسعة، وعاش فى عصر ازدحم بالمحدثين، بين ظهرانى أعلامه حتى ولع بالحديث وشغف بروايته - فلا غرابة بعد هذا كله أن نعرف «النظام» حافظًا محدّثًا كما عرفناه سياسيًا موهوبًا وأن يملى على الناس عدة مجالس فى الحديث، كما كتب فى السياسة ونظم الإدارة وأصول الحكم، ولا عجب - إذن - أن رأينا - ابن الصلاح - فى طبقاته يقول عنه: «سمع الحديث فأكثر وروى وأملى، وأملى بالعراق وخراسان وأصبهان وآران وسائر البلاد وحضر مجلسه الحفّاظ وغيرهم. ورغبوا فى السماع منه والرواية عنه»[1]. وكان يقول: «إنى أعلم أنى لست أهلاً لذلك، ولكن أريد أن أربط نفسى فى قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ» [2].

غير أنه لم يصل إلينا من مجالس إملائه الكثيرة التى أشار إليها معظم المؤرخين سوى اثنين: أولهما: وقد ألقاه فى نظاميته ببغداد عندما زارها لأول مرة وأعجب بطلبتها وأبدى استحسانه بها إلاّ أنه استصغرها. ويحدد لنا - العينى - مكان إلقائه وهو خزانة مكتبتها[3] كما يعين لنا - سبط بن الجوزى - وغيره الشهر والعام اللذين ألقى مجلسه الأول فيهما، وهو المحرم من سنة ٤٨٠هـ.

أمّا الثانى: فلابد أنه قد ألقاه فى العام نفسه حيث لم يكن فى زيارته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ ما يدل على طول مكثه وفراغ باله لإلقاء مجالس الحديث كما لم نجد أحدًا أشار لذلك، فضلاً عن النص الذى يؤرّخ لهما على لسان الرواة فى مقدمة المجلسين، والذى يدلنا على أنه ألقى الأول في مدرسته يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم، والثانى فى جامع المهدى يوم الجمعة لثمان خلون من صفر من العام نفسه.

لقد احتوى المجلسان على أربعة وعشرين حديثًا وقد ضمّن المجلس الأول اثنى عشر حديثًا[4]، والثانى مثله. وسلسل السند فى كل منها وأشار إلى من

(١) طبقات الشاذلية - اختصار النووى ورقة ٥٢.
(٢) ابن خلكان - الوفيات جـ ١ ص ٣٩٥.
(٣) العينى - عقد الجمان - حوادث سنة ٤٧٩، ٤٨٠هـ ورقة ٣٩٤.
(٤) منها واحد ينتهى بالسماع عن عُيينة، واثنان ينتهيان بالرواية عن الإمام الشافعى.

أخرجها من رجال الصحاح والمسانيد كما ذيّل كلا منها بأبيات رواها فى الأول عن الشافعى، وفى الثانى عن عثمان تدل على تذوقه للشعر العربى وحسن الانتقاء مع ملاحظة المناسبة والمطابقة لما يقتضيه المقام مما يضعف الدعوى القائلة بعدم فهم «النظام» للشعر وتقديره للشعراء.

إن نظرة شاملة لما تضمّنه هذان المجلسان من أحاديث تدلنا على أن «النظام» لم يكن يمليها ليربط نفسه فى قطار نقلة الحديث عن الرسول ﷺ فحسب، وإنما اختارها من بين مئات الأحاديث ليحلّ بها مشكلات الساعة التى كانت مثار اختلاف ومعارك بين الطوائف الإسلامية، والتى كانت تقلق راحة الدولة وتشغل بال كبار الموظفين. وكان فى اختياره ناجحًا إلى حد بعيد إن لم يكن موفقًا كل التوفيق إذ إنه في الوقت الذى كان يرمى من وراء إملائها إلى توحيد الصفوف ونبذ أسباب الشقاق والنزاع، فإنها كانت دعوة رقيقة لعقيدته ودفاعًا هادئًا عن سياسته، وردًا متزنًا على الاتهامات التى قيلت فى تعصبه وتحيّزه لمذهبه.

فقد أملى فى مجلسه الأول على طلبة النظامية وأساتذتها من الأحاديث ما يفيدهم فى التشريع وآداب العبادات كالصلاة وفضل رواية الحديث والحثّ على الاستقامة، وطلب الحكمة والإيمان بالقضاء والقدر ويوم المحشر، ويغتنم الفرصة فيروى لهم حديث الرؤية لله تعالى التى هى من أسباب الخلاف بينهم وبين الحنابلة وأنه سيُكشف الحجاب لأهل الجنة فينظرون إليه تعالى ولم يكن شىء أحب إليهم من رؤيته.. ثم يختمه بسماع عن شاهد عيان مع الإمام الشافعى حينما دخل مصر، وكيف خاف أهلها لأنهم مالكية فقيل له: «يا أبا عبد الله لو خرجت وجلست للناس وسمعوا كلامك لرجعوا عن قول مالك فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأنشد أبياته الميمية المعروفة»[1].

ولكنه انتقى لمجلسه الثانى فى جامع المهدى أحاديث من لون آخر أملاها على الحاضرين وهم من الطبقات المختلفة بدأها فى قيمة النفس وحرمة الروح وأن من أنفق روحه فى سبيل اللّه نودى عليه فى الجنة هذا خير، ثم يوصله بمكرمة

(١) انظر: الملحق رقم ١٣ من البحث.

لأبى بكر أول الخلفاء تدل على منزلته عند اللّه والرسول، ثم يلحقه بحديث للدلالة على فضل عمر، وثالث للدلالة على منزلة عثمان، ثم يرفعه برابع فى مقام «علىّ» فى الإسلام وحمله الراية يوم القيامة كما حملها فى الدنيا، وبخامس فى دعوة النبى لهم جميعًا، وآخر فى حبّه لأبناء علىّ ـ الحسن والحسين ـ وأن من أحبهما كان مع الرسول يوم القيامة. ثم يأتى بحديث فضل زوجة النبى عائشة وصحابته وأن من سبّهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين.. ثم يورد حديثًا آخر فى أن الاختلاف بين أصحاب الرسول كاختلاف أضواء النجوم فمن أخذ بشئ مما هم عليه فهو على هدى.. وأن خلفاء الرسول إنما هم رواة أحاديثه وسننه، والذين يعلّمونها للناس.

ثم يختم مجلسه بمأثرة أخرى لأبى بكر وثانية لعمر ومثلها لعثمان، وكيف وجدوا بعد اغتياله ورقة فى صندوق له، كتب فى باطنها شهادته، وفى ظاهرها أربع أبيات فى الحثّ على غنى النفس عند الفاقة والصبر على المكاره عند الشدة، فإن مع العسر يسرا، وإن من لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى[1].

ولئن كنا لم نهتد إلى النسخة الأم من أمالى «النظام» التى خطت فى عهده وعليها إجازة منه فقد حالفنا التوفيق بالعثور على مجموعتين يحتويان على أجزاء فى الحديث والتفسير والأدب قيّمة وبخطوط قديمة تعود الى أوائل القرن الثامن ـ ٧٢٢هـ - وعليها من إجازات السماع والقراءة المتسلسلة ما يعود الى العقد الرابع من القرن السادس، أى سنة ٥٣٦هـ عمن سمع من «النظام» مباشرة.. وفى كل هذا ما يطمئنّا على سلامتها وضبطها وصحة نسبتها.

كانت المجموعتان من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، وقد أرشدنى إليهما أستاذى المرحوم يحيى الخشّاب فرجعت إليهما واحتفظت بنسختين منهما. وكانت المجموعة الأولى تحت رقم ١١٥ - حرف - ١ - حديث وتشتمل على خمسة عشر جزءًا فى الأمالى المتنوعة فى أولها ـ جزء فيه مجلس

(١) انظر: الملحق رقم ١٤ من البحث.

واحد من أمالى «نظام الملك» أبى على الحسن بن على بن إسحاق (رحمه الله).. رواية الشيخ الإمام أبى نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسى عنه، رواية ولد الإمام أبى محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر رواية الشيخ شمس الدين أبى القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد ابن محمد بن عبد القاهر، رواية محمد بن أبى الفتح بن حسن النقاش الواسطى عنه. قرأه عليه إبراهيم بن أبى عبد الله بن أبى نصر الحلبى الشافعى عفا الله عنه.

وفى خاتمتة سُمع جميع هذا الجزء من أوله إلى آخره على الشيخ الصالح محمد بن أبى الفتح بن حسن النقاش الواسطى بحق سماعه عن شيوخه محمد ابن محمد بن أبى على بن عمرون الحلبى بقراءة إبراهيم بن أبى عبد الله بن أبى نصر الحلبى الشافعى فى يوم الجمعة رابع عشر رجب من سنة ثلاثة عشرة وستمائة بحلب المحروسة ثم تأتى السماعات متواصلة فى الفترة ما قبل ذلك وما بعده[1].

أمّا المجموعة الثانية فهى تحت رقم ٢٧٣ ـ حديث ـ وتشمل عدة أجزاء من الأمالى والتفسير والحديث واللغة كان ثانيها جزء فيه مجلسان من أمالى الصاحب «نظام الملك» أبى على الحسن بن علىّ بن إسحاق ـ رواية أبى القاسم نصر بن نصر بن على بن يونس العكبرى عنه، رواية أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن البنا عنه، رواية إسحاق ويعقوب ابنىّ أبى بكر الطبرى عنه سماعا، رواية أبى أحمد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطبرى عنها إجازة، رواية أبى محمد عبد الله بن محمد بن محمد البشاورى عنه إجازة، رواية أم هانئ مريم بنت على بن عبد الرحمن الهورسى عنه سماعًا.

وفى نهايةالجزء: سمع جميع هذا الجزء المشتمل على مجلسين[2] من أمالى

(١) انظر: المجلس الأول فى الملحق رقم ١٣ والسماعات عليه ٥٢٣.

(٢) وقد أعاننى على تصوير هذين المجلسين زميل الدراسة الدكتور شكرى فيصل الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق، كما نشرا مع مقدمة ضافية بمجلة معهد المخطوطات العربية فى الجزء الثانى من المجلد الخامس ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ص ٣٤٩ ـ ٣٧٨.

«نظام الملك» أبى على الحسن بن إسحاق الصاحب على الشيخة الأصيلة الحرة الكاتبة أم هانى مريم ابنة الشيخ نور الدين على بن القاضى تقى الدين عبد الرحمن الهورسى سبط القاضى فخر الدين القايانى بسماعها له على أبى محمد عبد الله بن محمد بن محمد البشاورى الملّى.. إلى أن يقول: «وصحّ يوم السبت الثامن من شعبان المكرم عام ستة وستين وثمانمائة بمنزل المستمعة بدرب ابن البابا فى القاهرة وأجازت»[1]. وقد اطلع على هذا الجزء - ابن حجر كما ورد فى معجمه[2].

وممّا يلفت النظر ويدل على أهمية تلك السماعات ليست عناية المحدثين ودقتهم فى متابعة رجال السند وتعيين الزمان والمكان الذى روى فيه الحديث والأشخاص الذين سمعوه للتثبت من صحته فقط، وإنما لدلالتها على أسماء الأماكن يومذاك وتحديد مواقعها، وبهذا يمكن الإفادة منها فى خطط المدن - طبوغرافية - الإسلامية فى تلك العصور.

ومن الطريف أن نعثر فى أثناء بحثنا كذلك على إجازة «النظام» بتسميع إملاءاته منحها لجماعة من العلماء بناء على طلبهم وقد نقلها الرافعى المتوفى سنة ٦٢٣هـ فى كتابه[3] فقال بعد أن أثبت له ثلاثة أحاديث لم ترد فى مجلسيه السابقين. وكتب إليه: «إن رأى مولانا ولىّ النعم صدر الاسلام أتابك رضى أمير المؤمنين أن يجيز لأبى المظفر عبيد الله بن الإمام أبى بكر محمد بن ثابت الخجندى وأبى المطهر حامد بن رجاء المسعدانى ولابنيه أبى القاسم وأبى طاهر، ولأبى منصور محمد بن أحمد بن عبد المنعم بن ماشاذه جميع ما يصحّ من مسموعات من الأحاديث».. فكتب تحته: أجزنا لهم أن يرووا عنّا ما يصحّ عندهم من مسموعاتنا بعد الاحتياط فيها».. وكتب: «الحسن بن علىّ بن إسحاق».

---

(١) انظر: المجلس الثانى من الملحق رقم ١٤ والسماعات عليه ٥٣٢.

(٢) ابن حجر العسقلانى - المعجم المفهرس ورقة ١٦٥ نسخة دار الكتب المصرية.

(٣) الرافعى - التدوين فى أخبار قزوين ورقة ٧٧٥.

وممّا بقى من أحاديث «للنظام» غير هذين المجلسين طائفة كبيرة تمثّل بها فى كتابه «سياستنامة» فى مناسبات كثيرة وأخرى ذكرها ـ الرافعى ـ فى تدوينه. وثالثة أشار إليها غيره فى كتب السِير خلال ترجمته.. ولما يقتضيه منهج البحث من وجوب إعداد وعرض آثار المترجم له، فقد وجدت من النافع والضرورى معًا جمع تلك الأحاديث المتفرقة فى مجلس ثالث له ليتم بها بحثنا، لأنها ـ فى أغلب الظن ـ تشمل معظم ما أملاه فى مجالسه المفقودة إن لم تكن جميعها، إذ تصرح بعض المصادر القريبة العهد من «النظام» أن ـ أحمد بن محمد بن أبى العباس الأصبهانى ـ خرّج له الفوائد فى مجلدة ضخمة[1] ولكنها ضاعت لا نعرف عنها شيئًا اليوم.

والذى يلاحظ على هذه المجموعة الثالثة من الأحاديث المتفرقة أن قسمًا كبيرًا منها مقطوع السند، ولم يعتن راويها برجاله وأنها مختلفة الموضوع لاختلاف الأغراض والمناسبات التى استشهد بها، وأن من بينها الحكم والأمثال وقد أوردهما بشكل أحاديث لعلّها من إضافات النسّاخ[2].

جـ - المؤلَّف المفقود:

وما ذكره المؤرخون من آثار ثقافية نسبوها «للنظام» كتاب رحلته إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان، وقد أطلقوا عليه اسم ـ سفرنامة[3] ـ غير أننا مازلنا نجهل حقيقته ومصيره، كما لم نجد له ذكرًا فى أمهات المصادر ومعظم الفهارس المطبوعة.

* * *

---

(١) المصدرالسابق.

(٢) انظر: ملحق رقم ١٥ من البحث / المجلس الثالث/ ٥٤١.

(٣) محمد عبد الرزاق ـ كتاب «نظام الملك» ص ٧٢، ٧٣.

■ الباب السادس ■

بداية أسرة «النظام» ونهاية حياته

نشوء أسرة «النظام» والاختلاف بين أبنائه.

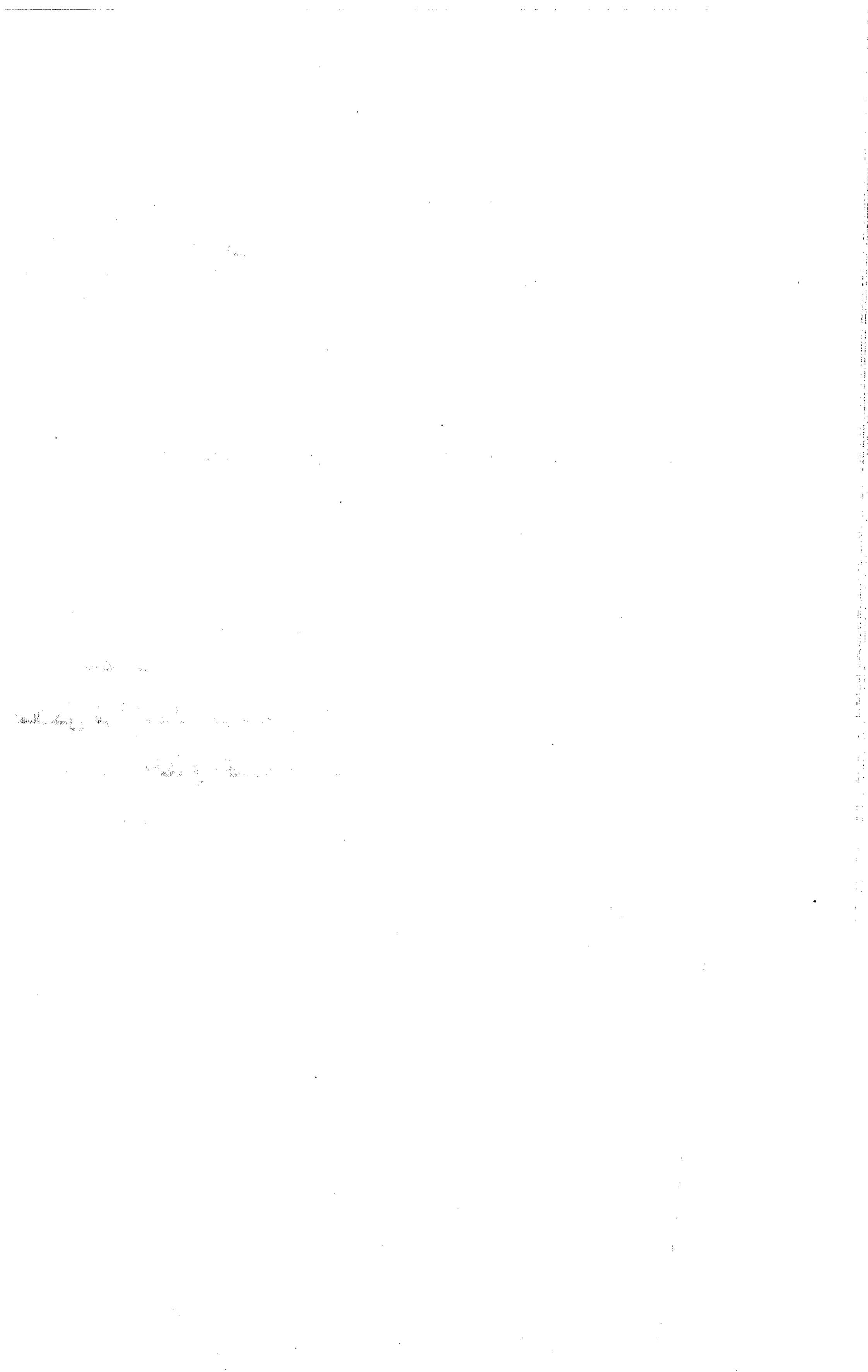
خاتمة المطاف فى حياته.

الملاحق فى البحث: مراسيم استيزاره.

مناشير تعيين إقطاع وقضاء فى عهده.

رسائله وأماليه فى الحديث.

مواعظ ونصائح تأثّر بها.



● الفصل الأول

بداية أسرة «النظام»

أثر الأسرة فى أفرادها وفى المجتمع.
ما أنجبه «النظام» من بنين وبنات وأحفاد.
تكالب الأبناء على المناصب الوزارية
وغيرها، أثرها فى حياة «النظام».

بداية أسرة «النظام» :

إن ما بين الأبناء والآباء من وشائج دموية ومؤثرات بيئية تجعل من كل منهم مرآة تعكس صورة الآخر إلى حد كبير، لأن فى وجهة نظر الأبناء ما يدل على فلسفة الآباء وفهمهم للحياة، ولأن الأسرة هى المجتمع الصغير الذى تتفاعل حياة أفراده وتلعب دورًا مهمًا فى تكوين الناشئ من حيث صحته النفسية والمزاجية والفكرية. ففى غضون مايحدث بينهما من تقليد وإيحاء ومشاركة وجدانية تتكون لغة الفرد وعاداته وتقاليده، ومُثُله وعقائده، وعن طريق احتكاكه بغيره وما يلقاه من سخط ورضا ولين وشدة تتكون عواطفه وميوله ونزعاته وبمقدار ما يصيب أسرته من فقر أو غنى، ومعرفة وجهالة وسعادة وشقاء يأخذ نصيبه من خير أو شر.

لهذا كانت دراسة الأسرة والوقوف عند سَيرْ الأبناء والأحفاد، والتعرف إلى ما يتمتعون به من مكانة فى المجتمع يضفى على الآباء نورًا جديدًا يكشف عن كثير من أسرار حياتهم الغامضة من ناحية ودقة الحكم الصادر لهم أو عليهم من ناحية أخرى.. ولذلك كان لزامًا علينا أن نقف ـ ولو قليلاً ـ عند أسرة «النظام» لنتبين مدى تأثره وأثره فى أعضائها.

لم يعرفنا التاريخ عن أسرة ـ «النظام» ـ شيئًا ذا بال قبل جده إسحاق، ولم يخبرنا من أين نزحت قبل هذا ومتى استوطنت طوس؟.. وكلّما وصلنا من أحوالها مقتبسات عن أبيه عليّ وجده إسحق لا تزيد على أن هذا كان دهقانًا ومن قرية ـ أنكو ـ التى عمرت بفضل ديانته وأمانته، وأن قلوب السكان كانت فرحة مستبشرة بوجوده.. وقد خلّف من الأولاد أربعة: أولهم وأفضلهم

- أبو الحسن علىّ بن إسحاق - والد «النظام»، ثم أحمد ومحمد وأبو نصر إخوته وهذا الأخير توفى وهو صغير[1]. وما وردنا عن أبيه لا يتجاوز وراثته الدهقنة، وأنه اشتغل بالخراج عدة سنوات ثم أخفق فى وظيفته واستدان لتسديد عجز مالى طلب إليه، وقد أشرنا لذلك فى موضعه. غير أن - ابن فندق - وهو من خيرة الكاتبين عن أسرة «النظام» وأفضلهم معرفة بها، ومن مواليد أواخر القرن الخامس الهجرى[2] عدّه من أعاظم الذين نشأوا فى ناحية بيهق.

وكان للوالد - كما تحكى الروايات ثلاثة أبناء هم: أبو على نظام الملك، وأبو القاسم عبد الله[4] وأبو نصر إسماعيل، اشتهروا بالتدين والتفقه والصلاح. أمّا أبناء وزيرنا «النظام» - فالغموض يكشف عددهم والاختلاف يشمل أسماءهم: فقد وردنا على لسان - تركان خاتون - وهى تردّد على مسامع السلطان استبداد - «النظام» - بالحكم واستئثار أبنائه فى الولايات والملك أنهم اثنا عشر كالأئمة الاثنى عشر عند الشيعة - ولكننا عندما نرجع إلى المصادر التى عنيت بذلك وندقّق ونقارن بينها لا نجد من أسمائهم سوى تسعة فقط، بينما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أسماء خمسة منهم[5]، وأوصلها «زامباور» إلى عشرة[6].

أمّا بناته فقد ذكر له - ابن فندق منهن أربع وأثبت أسماء أزواجهن، ولكنه

---

(١) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٧٣.

(٢) بيهق وتميمى سيزوار سابقًا ومؤلف تاريخها - ابن فندق - ولد سنة ٤٩٠هـ.

(٣) تاريخ بيهق ص ٢١٥.

(٤) درس فى نيسابور العلوم وحضر مجالس الحديث وسمع ولم يشارك أخاه فى شئون الدولة إلى أن توفى سنة ٤٩٩هـ=١١٠٦م. السبكى جـ ٣ ص ٢٠٦ وابنه «النظام» هذا ولد على شاكلته علمًا وزهدًا هو عبد الرزاق بن عبد الله وزر لسنجر وترك طريقة الفقهاء واشتغل بالجند وتدبير الملك. توفى سنة ٥١٥هـ. (المنتظم جـ ٩ ص ٢٢٩، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٢).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية - مادة نظام الملك جـ ٣ ص ٩٣٥.

(٦) معجم الأسرات الحاكمة - ترجمة زكى حسن.

أغفل أسماءهن[١] ولم يشر إلى زوجة ـ عميد الدولة بن جهير ـ وزير الخليفة العباسى والتى عرف اسمها ـ صفية ـ ببقاء بيتين من الشعر قالهما ابن الهبّارية فى هجائه عند عودته للوزارة[٢]: والذى يظهر أنه كان «للنظام» أكثر من خمس بنات أيضًا، تكون سادستهن التى كانت فى عصمة ـ أبو الهيجاء مقاتل بن عطية ـ الأمير الحجازى الذى رثى «النظام» ببيتيه المشهورين اللذين لا تخلو منهما ترجمة له[٣]، وسابعة كان قد تزوجها سيد الرؤساء أبو المحاسن محمد نديم السلطان ملكشاه وصاحب سرّه والذى تآمر على «النظام» طمعًا فى منصبه[٤].. وإذا صحّ ما قاله السبط بن الجوزى بأن الوزير ابن جهير ـ السالف الذكر قد تزوج من أخت زوجته بعد وفاتها[٥] يكون حينئذٍ «للنظام» من البنات ثمانية، ويكون اسم الأولى ـ زبيدة.

إن هذا العدد الوفير من البنين والبنات يدلنا على مدى الخصب وغزارة الإنجاب وسلامة البنية الجسمية الأمر الذى يستلزم ـ عادة ـ تعدّد الزيجات مع أننا لا نجد بين كتّاب الفرس والعرب وغيرهم من حدّثنا عن زوجاته وأين ومتى تزوج؟ غير أن الصفحات الأولى من سيرته تشير إلى أنه حينما هرب من ـ أبى على أحمد بن شاذان ـ فى بلخ إلى ـ جغرى بك داود ـ فى مرو قد أخفى ولديه ـ فخر الملك ومؤيد الملك[٦]. فلابد أن يكون قد تزوج قبل ذلك بمدة وأنجب هذين.. وربما كان من زوجة له يصحّ أن نظنها الأولى حيث يذكر له ـ العماد الأصبهانى- زواجًا آخر بعد هذه الفترة من تاريخ حياته، وذلك عندما أوغل السلطان ـ ألب أرسلان ـ فى بلاد الخزر ـ كورجيا ـ سنة ٤٥٧هـ

---

(١) ابن فندق ـ تاريخ بيهق.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٣٥.

(٣) ولدت سنة ٤٦٢هـ وتوفيت سنة ٤٧٠هـ، (ابن الجوزى جـ ٨ ص ٢١٧، وابن الأثير جـ ١ ص ٢٤٠، والفخرى).

(٤) انظر: ص ٤٦٨ من البحث.

(٥) سبط بن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ ـ ابن خلكان جـ ٢/ ٤٨٤، والواقى، والمخطوطة ـ باريس.

(٦) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٦ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(١٠٧٤م) فوصل إلى ابخاز بالقرب من طيس فى إقليم أرمينية وأخضع ملكها ـ بقراط بن كيوركى ـ فقدم له هذا ابنته رمزًا للإطاعة والولاء، وطلب مهادنته فتزوج بها السلطان ثم طلّق ـ الملكة الكورجية هذه ـ بعد قليل وزوجها لوزيره «النظام»[1].. وهى التى يجوز أن نطلق عليها الثانيـة التى أنجب بقية أولاده منها، وإن لم يكونوا جميعهم. ولم نعرف شيئًا آخر عن حياة «النظام» الزوجيـــة، وإنما انطوى سجلها على هذه الصفحة من سيرته وترك عليها شارات الاستفهام فضلاً عن عددها من أسئلة: فهل أحبّ مثلاً كما يحبّ الرجال؟ وهل كانت زوجته الأولى؟ ومن هى؟ ومتى توفيت؟ أو أن الثانية هى التى حظيت بحبّه؟

لم يكن «النظام» من أولئك الذين يركنون إلى الحبّ الجنسى ـ كما نظن إذ لم يكن هذا اللون من الحبّ مستساغًا فى أوساط رجال الدين ومشاهير الساسة آنذاك. لذا لم يؤثر عن هؤلاء أنهم تزوجوا عن حبّ فهو بنظرهم هوى ومجون خليق بالأدباء والشعراء وذوى الأخيلة والأحلام. أمّا المؤمنون بزيف الدنيا ،المعتقدون بعالم الواقع فإنهم بعيدون كل البعد عن تلك النزوات العاطفية الزائلة، وعند «النظام» من الأعمال ما يملأ أوقات فراغه إن كان لديه فراغ وله فى الآراء والأفكار ما يشغل ذهنه وقلبه عن مجالسة النساء والإصغاء إلى أحاديثهن.. ولهذا لا نعتقد بزوجة له ثالثة كما نميل إلى أنه تزوج بالثانية بعد وفاة الأولى، وأن زواجه منهما ليس عن سابق معرفة بهما أو بدافع حبّ غريزى لهما، وكيف يكون كذلك وهو الذى يرى أنه: ماكنست دار أُمِّرت فيها سيدتان![2]

ومهما يكن من أمر زوجاته فقد رزق عددًا لايزيد عن عشر بنين وصلتنا أسماؤهم ونبذ متفرقة عن سير معظمهم، وأن خمسة منهم بلغوا أعلى مناصب

(١) آل سلجوق ص ٢٠، والكامل جـ ١٠ ص ١١٩ ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ.

(٢) سياستنامة ف ٤٢ ص ١٢٠ ترجمة.

الدولة، ومنها الوزارة فقد خصّ الأمير - أحمد أبو نصر - بوزارة الخليفة المسترشد بالله[1]، ثم السلطان محمد بن ملكشاه، والأمير فخر الملك بوزارة السلطانين بركيارق وسنجر، والأمير عماد الملك بوزارة الملك بورى برسى بن ألب أرسلان - والأمير مؤيد الملك بوزارة السلطان محمد.. حتى قيل فيه وفيهم[2]:

يا وزير بن وزير بن وزير نسقا كالدر فى نظم النحور

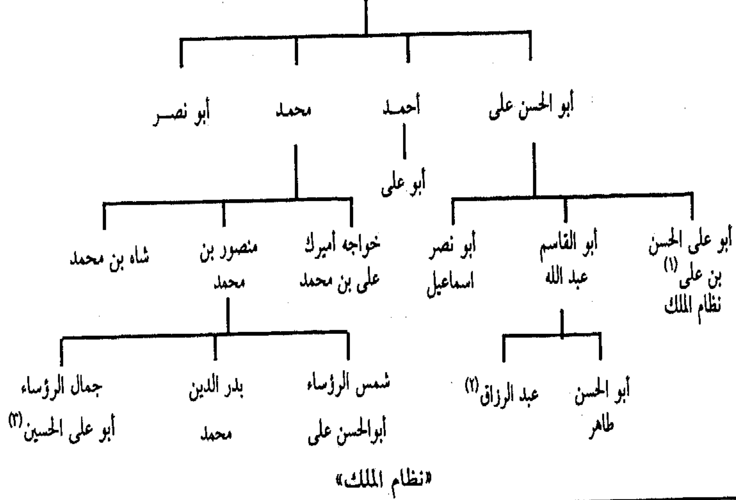
كلكم بين أمير ووزير ربّ ديوان وقصر وسرير

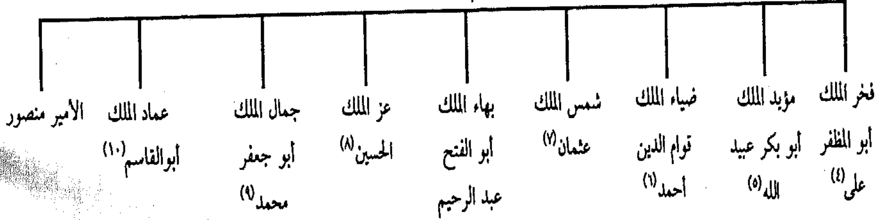
* * *

(١) الفخرى ص ٢٧٣.

(٢) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٧٤، وانظر كذلك: حيث ورد إليت الأول فقط فى مناسبة أخرى مع اختلاف يسير.

أسرة «نظام الملك» الوزير





(١) فى معجم الأسرات الحاكمة لزامباور: أبو محمد الحسن الدهستانى.

(٢) هو أبو المحاسن عبد الرزاق شهاب الإسلام وزر لسنجر من ٥١٣-٥١٥هـ وتوفى سنة ٥١٥هـ.

(٣)

(٤) سمى الفتح والمظفر وقيل هو على أيضاً أكبر أولاد «النظام» ولد سنة ٤٣٤هـ، كما ذكر زامباور وقد اغتاله باطنى بمثل الطريقة التى اغتيل بها والده حيث خرج من حجرته وسمع صوت متظلم فقال «أدنوه منى»، وبينما هو يتأمل رقعته ضربه بسكين سنة ٥٠٠هـ وهو يومئذٍ وزير لسنجر بن ملكشاه فى نيسابور وكان من قبل وزيراً لبركيارق.

(المنتظم جـ ٩ ص ١٤٨، والكامل جـ ١٠ ص ١٧٥).

(٥) وزر لمحمود بن ملكشاه ما بين سنة ٤٨٦هـ، ٤٨٧هـ.

(٦) وزر لمحمد بن ملكشاه من سنة ٥٠٠-٥٠٤هـ.

(٧) كان حاكماً لمرو.

(٨) كان وزيراً لبركيارق وتوفى سنة ٤٨٧هـ.

(٩) مات مسموماً عام ٤٧٥هـ.

(١٠) كان وزيراً لأرسلان أرغون بخراسان سنة ٤٨٥هـ - ٤٩٠هـ.

وفى ظل حكم أرستقراطى ومجتمع وراثى طبقى عماده المال والمنصب ـ ولا شيء غير هذا- يمكن أن يكون آنذاك ـ لابد وأن تنشأ أسرات تتوارث مناصب الدولة، وأن يكون أبناء الوزراء من أرقى الطبقات منزلة وجاهاً[1]. فتظهر فى وزارة خلفاء ـ بنى العباس أسرة البرامكة ـ وبنو الفرات وبنو وهب وآل خاقان وآل المهلبى[2]. . أمّا وزراء السلاطين فقد ظهرت فيهم أسرة ابن العميد[3] وأسرة «نظام الملك» الوزير.

وكان من مساوئ النظام الأسرى والموروث أن صار يستولى على الوزارة الأحداث والمبذرون من أبناء الوزراء السابقين فقد وليها للسلطان ركن الدولة أبو الفتح بن العميد بعد وفاة أبيه وله من العمر إحدى وعشرون[4] سنة، وكانت نهايته من مآسى الوزراء حيث قبض عليه السلطان عضد الدولة البويهى فسمل عينيه وقطع أنفه[5].

ليس من شك من أن «النظام» كأى أب آخر يحمل من الشفقة والعطف مما يحمل الآباء نحو أبنائهم فضلاً عن بُعد نظره واعتقاده بأفضلية قاعدة التوريث فى الوزارة قياسًا على منصب الخلافة والسلطنة. . كان يعدّ أبناءه لهذا المنصب وغيره من مراكز الدولة المهمّة ويختار لهم الأساتذة فى مختلف العلوم وقد عرفنا منهم ـ سليمان بن عبد الله[6]. وكان يحثّهم على الدراسة والاطلاع ومجالسة

(١) آدم ميتز ـ الحضارة الإسلامية ص ١٦٦، ٢٠١ عن المنتظم.

(٢) فقد تولى من البرامكة أربعة وزراء فى خمسين عاماً وقد استوزر من آل خاقان اربعة فى سبعين عاماً، وكذلك تولى من آل وهب أربعة. (آدم ميتز ص ١٢٦).

(٣) وكان وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بنى بويه ومؤسس مملكتهم، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة . (آدم ميتز - الحضارة الاسلامية ص ١٥٠).

(٤) آدم ميتز - الحضارة الاسلامية ص ١٤٩، ١٥٣ عن ابن الأثير.

(٥) المصدر السابق.

(٦) وفى الذهبى - تاريخ الاسلام «سليمان بن عبد الله أبى طالب محمد النهروانى ثم الأصبهانى ويعرف بابن الفتى» وكان رأساً فى اللغة والنحو وله كتاب ـ القانون ـ فى عشر مجلدات فى اللغة والتفسير، وتخرج به أدباء أصبهان. توفى وقد شاخ فى سنة ٤٩٣هـ (الذهبى - تاريخ الإسلام جـ ١٢ وابن عساكر - التبيين ص ٣١٨-٣٢٠).

العلماء ولكنه لم يستطع أن يجنّبهم حياة الترف والدعة ويبعدهم عن العيشة الرخية الفاترة ويصل بهم إلى الدرجة التى كان هو عليها من الخبرة فى الأمور السياسية وتدبير الملك، حيث بدأ الصراع بين الأخوة على منصب الوزارة الذى خشى من مخاطره عليهم، ودبّ الشقاق والتناحر من أجله بحيث يتنكر أحدهم للآخر ويتآمر عليه من أجله فيستوزر أحدهم لسلطان وآخر لأخيه الخارج عليه ويقود كل منهما جيش صاحبه لقتال شقيقه وسلطانه معًا حتى يقضى أحدهما على الآخر[1]. وبذلك كان مصير أكثرهم القتل إمّا على يد سلاطينهم أو الباطنية بإيعاز منهم.

وعلى الرغم من عجزهم عن مواصلة سيرة أبيهم وتمثيل دوره فى مرافق الحياة العامة فقد بقى أعضاء هذه الأسرة يتوارثون المناصب وينالون الحظوة فى تقريب الخلفاء وتقديم السلاطين واحترام سائر الطُبقات قرابة قرن من الزمان بعد اغتيال أبيهم «النظام». ففى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى نجد أحفاده منتشرين فى أنحاء بلاد إيران والعراق. ففى طوس نصير الدين أبو الفضل نصر بن أحمد، وفى بغداد نظام الدين أبو الحسن على بن أحمد وأخوه شهاب الدين محمد بن أحمد، وفى أصبهان ظهير الدين أبو الحسن على بن عثمان وأبو الفتح محمد بن صدر الدين أبو الحسن على بن فخر الملك وإخوته: أبو بكر وأبو المفاخر عثمان وعلاء الدين أحمد وكمال الدين يوسف، وفى هراة: علاء الدين أبو على الحسن بن مسعود بن مؤيد الملك، وفى جوين: مسعود ومحمد ابنا إبراهيم بن جمال المك، وفى سبزوار: ظهير الدين أبو سعد ابن أحمد بن جمال الملك. وفى الشادياخ من أولاد جمال الملك صدر الدين مسعود وأخوه تاج الدين محمود أبناء علاء الدين محمد[2]..

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٠٤-١٠٨ ـ حوادث سنة ٤٨٨هـ، ٤٩٠هـ، وابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٢.

(٢) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٧٧ ، ٧٨.

وجميع هؤلاء كما تشير ألقابهم وسير حياتهم، أنهم قد احتلوا مكانة رفيعة في المجتمع ومنزلة راقية في نفوس الحكام ومراكز الحكم إذ شملهم «النظام» بحسن سمعته وأحاطهم بهالة من عاطر ذكره وطيب صنيعه.

* * *

● الفصل الثانى

نهاية «نظام الملك»

أسباب اغتياله، من هو المسئول عن قتله؟

غرائب القدر.. ضريحه فى أصفهان.

نهاية «نظام الملك»:

قلّما نجد بين عظماء التاريخ من مات حتف أنفه، وندر أن نشهد بين كبار النفوس من انتقلت روحه إلى بارئها وهو على سرير الموت بين أهليه وعائلته.. ولكنّها كثيراً ماتسيل مع الدماء المتدفقة فى ساحة الجهاد من أجل الفضيلة والحرية فتطهر الأرض من أدران الفساد والاستبداد والأنانية.. ثمّ ترتفع إلى السماء راضية مطمئنة فتبعث فى النفوس العزة والكرامة، وفى العقول النور والهداية وفى الأجسام العفّة والطهارة.

وهؤلاء النفر من شهداء المبادئ السامية على قلتهم كثيرون، وعلى كثرتهم نادرون، فمن الخلفاء الراشدين وهم أربعة، استشهد ثلاثة. وفى عصر بنى أمية كانت أرواح الأحرار والخارجين على الظلم والطغيان تراق، ومن أمثلتهم: «الحسين بن علىّ»، وحفيده «زيد بن علىّ» وغيرهما.. وفى عهد بنى العباس لقى ذوو الأفكار الحرّة من رجال المعتزلة والشيعة أصناف التعذيب والقتل بتهمة الزندقة والكفر حتى أخذ الناس يبطنون معتقداتهم لا فرق بين سنىّ وشيعىّ فى بعض الأحيان. كأنى بالشاعر يعنى هؤلاء حيث قال:

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت فى مرامها الأجسام

وسارت عجلة الزمن لا تلوى على شىء، ولا يحول دون تقدمها حائل، وكأن تلك الدماء الزكيّة هى الوقود الذى يغلى بها مرجل الحركة الصاعدة، وكانت تلك المبادئ الطليقة هى المشعل الذى يستنير به الخلف الطالع إلى عالم أفضل، إلى أن حلّ عام خمس وثمانين بعد الأربعمائة للهجرة، إذ وقف لوزيرنا «النظام» شخص متنكر بزىّ صوفى فطعنه بخنجر فى حين يقرأ هو عريضة شكواه؛ فأرداه قتيلاً.

ومن المؤسف حقّا أن ترافق الإنسانية مشكلة السلوك الاجتماعى وإحياء الضمير على الرغم من تعاون القوانين والأديان، وتطاول الأجيال والأزمان على حلها فلا تستطيع لها حلاً.. ويبقى الصراع عنيفًا قاسيًا بين الولد وأبيه والشقيق وأخيه، والصديق وزميله من أجل المنصب والجاه وأعراض الدنيا الزائلة.

ولم يكن التنافس على المنصب وبخاصة الوزارة بالشىء الخفى أو الغريب على «النظام» فقد قرأ الكثير من أمثلته فى تاريخ الأسر الحاكمة.. ولكن الغريب لديه ـ كما يلوح لنا من سيرته ـ هو اختلاق الأكاذيب عليه والطعن فى إخلاصه للدولة والسلطان، وأن يكون باعثه من المقربين إليه والأثيرين على نفسه الذين شقّ لهم الطريق حتى ساواهم به.. فكان من المحزن الأليم عنده أن يرى أمام عينيه أو يطرق سمعه مكيدة إخوان له يحوكون الدسائس ضده ويتآمرون فيما بينهم للإيقاع به فيُقتَل هذا جزاء خيانته، ويسجن ذاك أو ينفى، ويُصادر نتيجة لسوء فعلته.. وكان كلما حاول أن يصفّى لبه من أوضار الحقد والكراهية، وبذل الجهد فى تغلّب إرادته على نوازعه، لأن مقاومة النفس الجشعة جهاد، والقتل فى ساحتها استشهاد بنظر المتصوّفة، وهو منهم فانتصر عليها، ظهر له غريم آخر يضطره للمبارزة فيجهز عليه قبل أن يفتك به لأن دفع الضرر المتوهم واجب عقلاً.. فهو كالشرر إن اعتبرته شيئًا تافهًا تسبّب فى إحداث ضرر عظيم(1).

بهذا حدّد «النظام» لنا موقفه من أعدائه ونصّ عليه فى وصاياه لابنه وهو موقف نبيل إلى حد كبير بحيث لا يتفق والسياسة بمعناها الصارم الذى كان مألوفًا يومذاك، ولا ينطبق ـ بما عرف عنه من لين ومسايرة وصفح وتغاضى على سياسى آخر، فهو يوصى ابنه أولاً بإعزاز مخالفيه وإكرامهم على ألاّ يحمل ذلك محمل الخوف والتردد واشتغالهم بمختلف الأشغال، ونقد أعمالهم الفاسدة بصورة معقولة بحيث لا يتعدى ذلك إلى ما يؤدى إلى هلاكهم، لأن هذا عقلاً وشرعًا مذموم، وأن عامله فى الدنيا والآخرة ملوم(2)، وهو بناءً على

(1) الوصايا ص ٦٩.
(2) الوصايا ص ٧٠.

خطته واعتقاده هذين كان حذراً نبيهًا فلم يوجس خيفة من أحد، أو شعر بدنوه من السلطان وتدخله فى أعمال الدولة أو شئون الخاصة إلاّ حاول إبعاده لئلا يستفحل أمره بحيث لا يستطيع إيقافه، فطلب - مثلاً - تعيين قسيم الدولة «آق سنقر» لولاية حلب، ثمّ أشار على السلطان تسليمه قلعتها وأعمالها وحماة واللاذقية ومنبج وما معهما حين شعر بقربه من السلطان واستيلائه عليه، وبهذا ضرب عصفورين بحجر - كما يقول المثل - إبعاده عن الديوان، واعتبار عمله هذا خدمة له وفضلاً عليه(١).

وبمسلكه هذا فقد اختار لنفسه - كما يبدو لنا من سيرته - مركبًا صعبًا محفوفًا بالمخاطر والمزالق.. مخاطر المتزلفين الذين يدسّون له عند السلطان ومزالق الطريق الشائك الذى اختطّه لسياسته وسار بموجبه.. فالعدل الذى يتوخّاه فى كل حكم يصدره وكل عمل يقوم به، وآراؤه التى يفرضها على دار الخلافة أحيانًا والسلطنة غالبًا فى التعيين وحل مشكلات الدولة، وموقفه الصريح فى معاضدة الخلافة ومكافحة الباطنية، ثم الإسراف فى البذخ على المتصوّفة ورجال العلم بحيث صار هؤلاء وأولئك من الدعاة له فى السفر والحضر.. هذه الأمور مع طول الأمد وتزايد المغرضين مما قضت على «النظام» وسبّبت اغتياله بل عجّلت فى قتله قبل أن يصل بغداد ليلتقى بسلطانه الذى يضمر فى نفسه ما لا يخفى على وزيره من تغيير ولاية عهد الخليفة العباسى ونقل الخلافة إلى حفيده، ومن ثمّ لأسرته(٢).

تذكر لنا المصادر أنه لم يستقر السلطان ملكشاه فى مستهل شهر رمضان من سنة ٤٨٥هـ فى أصبهان بعد عودته من زيارته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ حتى قَفَلَ راجعًا إليها بنيّة غير مرضية وهى تحقيق الفكرة التى كانت تراوده منذ سنة ٤٧٠هـ، وهى نزع الخليفة من منصبه(٣).

---

(١) المقدسى - الروضتين - جـ ١ ص ٢٤، ٢٥.

(٢) ابن الجوزى - المنتظم - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٣) ابن خلطان - الوفيات جـ١/ ٢٩٥.

وقد تخلف «النظام» عن ركب السلطان لمرض - النقرس - الذى كان يشكوه[1]. ولكنه سرعان ما اتجه وراءه خوفًا من ألسنة السوء ولشعوره بضرورة مرافقة السلطان فى زورته لعاصمة الخلافة هذه المرة، خاصة إذ كانت معه زوجته تركان خاتون ومستشاره - أبو الغنائم تاج الملك الشيرازى - فالتحق بمعسكر السلطان. . وفى ليلة الجمعة العاشر من رمضان من عام ٤٨٥هـ (١٤ أكتوبر ١٠٩٢م) بمرحلة سحنة[2] بالقرب من نهاوند[3]. اعترض موكب «النظام» وهو فى محفّته خارج من المخيم إلى الحريم بعد إفطاره وانفضاض مجلسه، شخص يحمل عريضة فوقف له وما أن سلّمها إليه وانشغل بقراءتها حتى طعنه بسكين فى خاصرته فقتله[4]، ثم قبضوا على القاتل وهو هارب بعد أن عثر بطنب إحدى الخيام وقتلوه[5]. وقيل اختفى فلم يوجد له أثر ولا سمع له خبر[6].

وبهذا اختفت المعالم الثابتة للجريمة وبقيت أقوال المؤرّخين فيها أشبه بالتكهنات والفروض يعوزها الحجة الثابتة والبيّنة القوية وصار بعضهم يميل إلى تحريض السلطان وآخرون إلى تآمر زوجته تركان مع وزيره الجديد - تاج الملك - وثالث إلى إيعاز زعيم الباطنية - الحسن بن الصبّاح - ويذهب رابع إلى أبعد من ذلك فيشرك دار الخلافة بالمؤامرة. . لأن ما وصلنا عن هذه القضية - إن استقرأناه واستعرضناه - لا يعدو اختلافًا فى كل شىء من عناصر الجريمة فى شخصية القاتل ولباسه ومكان الحادث وزمانه، ثم الدوافع المباشرة لقتله والخلاص من سياسته.

---

(١) الوصايا ص ٩.

(٢) ابن خلكان - الوفيات جـ ١ ص ٢٩٥.

(٣) ياقوت - معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٩٩.

(٤) ابن الجوزى - المنتظم - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) ابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٦) ابن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١.

فقد كان اختلافهم فى هذه الأمور أكثر مما اختلفوا فى ميلاده ونسبه، فمن قائل: أتاه ديلمى فى زىّ الباطنى[1]، وآخر صبى ديلمى على هيئة صوفى[2]. وثالث حدَثَ ديلمى من الباطنية فى صورة مستميح أو مستغيث فضربه بسكين[3]، وقيل: بخنجر[4]، وقيل: رجل باطنى ديلمى قتله وهرب من ساعته فطُلب فلم يوجد ولا ظهر له خبر ولا بان له أثر[5]، وقيل: إنما استقبله واحد من اثنين خرجا من قلعة ابن الصبّاح حينما سدّ «النظام» مسالك القلعة عليه بالعساكر فضربه وهرب فعثر بطنب الخيمة فقتلوه[6].. وأهمل اسمه هؤلاء وغيرهم وذكره أحد المؤلفين الفرس بأنه ـ أبو طاهر الأوانى[7]...

وهكذا قالوا: فى مكان الحادث إنه بالقرب من نهاوند أو فى قرية يقال لها سحنه بين كنجوار وبيستون[8]، ويسميها أحدهم ـ مهنة[9] ـ ويذكر آخر أنه قتل فى ـ بروجرد[10] ـ ويعين ياقوت موضعه ويطلق عليه قنديسمان، ويقول: إنها من قرى نهاوند[11]. وفى يوم مقتله قالوا: إنه ليلة السبت العاشر من رمضان[12]، وإنه فى يوم الخميس العاشر من رمضان[13]، وليلة الجمعة فى الحادى عشر منه[14]، وفى اثنتى عشر منه[15]. ثم قيل: إنه مات على أثر

(١) الذهبى ـ دول الإسلام جـ ٢ ص ٩-١٠.

(٢) ابن خلكان، الوفيات جـ ١ ص ٢٩٥ وابن الجوزى ـ المنتظم، حوادث سنة ٤٨٥هـ، وابن العبرى ـ مختصر الدول سنة ٤٨٥هـ.

(٣) ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) ابن خلكان ـ الوفيات ـ جـ ١ ص٣٩٥.

(٦) ابن خلدون ـ العبر ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٧) فصل من جامع التواريخ ـ سركدشت سيدنا ص ١٧، ١٨، وفى حبيب السير «عبد الله الأوانى» ص ٣٥.

(٨) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٥.

(٩) تاريخ كَزيدة.

(١٠) تجارب السلف ـ هندوشاه.

(١١) معجم البلدان جـ ٣ ص ١١٦.

(١٢) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، والوفيات جـ ١ ص ٣٩٥.

(١٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥ ترجمته.

(١٤) الخونسارى ـ روضات الجنات جـ١ ص ٢٢٢.

(١٥) تاريخ كَزيدة.

الطعنة وبعد حمله إلى مضربه بساعة، وقيل: بقى إلى اليوم التالى[1]، وكذلك اختلفوا فى عمره فقيل: إنه ٧٦عامًا[2]، وإنه ٧٦ سنة وعشرة أشهر[3]، وتسعة عشر يومًا[4]، وإنه ٧٧سنة[5]، وإنه ٧٨ سنة[6]، ويبلغ به آخر إلى ٩٣ سنة[7]، وإلى ٩٤ مؤرخ فارسى ثان[8]، وإلى ٩٦ مؤلف ثالث كما يستنتجها من أبيات نسبت «للنظام» قالها عند وفاته[9].

أمّا عوامل اغتياله فقد شملها الاختلاف أيضًا فأرجعها بعضهم إلى الصراع بين «النظام» وبين ملكشاه حول السيطرة والنفوذ وأعادها آخرون إلى النزاع بينه وبين الحسن الصباح بسبب الدعوة الباطنية، وأوعزها فريق ثالث إلى الخلاف بينه وبين تركان خاتون لرغبتها فى ولاية ابنها الصغير ـ محمود ـ العهد؛ ليتولى العرش بعد وفاة أبيه، ثم إلى استغلال هذه العوامل جميعًا من قِبَل ـ تاج الملك أبو الغنائم ـ طمعًا فى منصب الوزارة.

ومن هنا يتبين لنا أن قضية إغتيال «النظام» من أكبر القضايا المعقدة فى التاريخ الإسلامى وأنها وإن كانت واضحة فى بعض صفحاتها فإنها لم تزل يكتنف الغموض فصولها الأخرى.. فهى إذن كبقية قضايا جرائم القتل الكبرى تحتاج إلى تحقيق دقيق وبحث عميق، ووصف شامل لظروف الجريمة وملابساتها وعرض سريع لمقدماتها.. إذ الواقع إنه لا يمكننا التصديق بأن القاتل هو ذلك الشاب الباطنى المتنكر فى زىّ الصوفىّ دون شريك له يعينه

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥ : ١٤٥.

(٢) حبيب السير ص ٣٦ مستخلص شيفر.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٦.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) السبكى جـ ١ ص ١٣٥، والذهبى ـ دول الإسلام جـ ٢ ص ٩٠.

(٦) اليافعى ـ مرآة الجنان ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٧) محمد بن النظام الحسينى :ـ العراضة فى الحكاية السلجوقية ص ٦٧.

(٨) دولتشاه ـ تذكرة الشعراء ص ٩٤.

(٩) تاريخ كزيدة ص ٤٤٨.

ويحرّضه على القيام بفعلته الشائنة، ولأن هناك عدة ظواهر تضطرنا للتساؤل والتريث قبل إبداء رأى حاسم فى كل ما قيل من آراء، أو صدر من أحكام.. فحاملوا المحفّة ـ مثلاً ـ وحرس «النظام» أين كانوا عند وقوع الحادث؟! ثمّ إن شخصية الوزير ومايحوطها من هيبة ورهبة، وكيف يمكن الهجوم عليها دون نصير؟!، ثمّ ذلك الجو المكفهر فى البلاط السلجوقى الملبّد بالشكوك فى إخلاص الوزير والسأم منه.. كل هذه تدعونا إلى الظن بأن الجريمة ليست فردية بأية حال من الأحوال، وربما أسهم فيها أولئك جميعًا، كما يجوز أن تكون المصالح المختلفة قد التقت وتضافرت على تنفيذها.

وأخيرًا فمن هو المسئول ـ كما يقول القانونيوّن ـ عن مقتل الوزير إذن؟!

إن تعيين المسئول عن هذا الحادث وتحديد مقدار مسئوليته يستدعينا إيجاز الأسباب المهمّة التى مهدت لوقوعه ومناقشتها ثم ترجيح أشملها وأقواها.

لم تكن العوامل التى دفعت إلى قتل «النظام» وليدة عام ٤٨٥هـ، وإنما تنتهى إلى أبعد من ذلك بكثير إذا اعتبرنا تكتلات المنافسين للدسّ والتآمر ضد الوزير وايجاد شقّة الخلاف بينه وبين السلطان من دواعى اغتياله وهى لا ريب كذلك، فقد بدأت الشبهات تحوم حول تصرفات ـ النظام ـ كما يذكر هو نفسه منذ عهد «ألب أرسلان» بفضل عيون المغرضين التى كانت ترصد حركاته وسكناته وأصابع المرجفين التى كانت تشير إليها بأسلوب الحاقد عليه الحاسد له الطامع فى منصبه، ففى إبّان حكم سلطانه الأول هدأ تمامًا وفى أثناء الحملة التى قام بها من نيسابور لتأديب ـ قتلمش بن إسرائيل ـ عندما استولى على الرى سنة ٤٥٦هـ وبينما هو فى وادى بلخ[1]، يتفقد الجنود والقواد ويحصيهم زار الأمير ألتون تاش ـــ تقديرًا لأعماله وتلبية لدعوته، فنقل الخبر إلى السلطان فى نفس اليوم، وفسرت له الجلسة تفاسير شتى على الرغم من الخلاف بين الزائر والمزور فى أمور الديوان لدرجة أنه أرسل سيفه للسلطان كما أرسل الوزير

---

(١) وفى أخبار الدولة السلجوقية لأبى الفوارس الحسينى ص ٣١ ـ وادى الملح (بالحاء المهملة وهى الصواب).

دواته عدة مرات بسبب هذا الخلاف، ومع ذلك فقد تغيرت نيّة السلطان تجاه وزيره تغيرًا كبيرًا متأثرًا بقول الوشاة.[1].

وفى عهد هذا السلطان أيضًا كتب السعاة إخبارية اتهموا فيها «النظام» بكثرة مكاسبه وسوء تصرفه وضعوها على طرف مصلى السلطان، وما أن اطلع عليها حتى استدعاه وقال له: «اقرأ هذه فإن صدق كاتبوها فأصلح أعمالك وإن كذبوا فأشغل العاطل منهم بعمل واغفر للمذنب زلته»[2]. وبهذا نجا «النظام» من الدسيسة الثانية فى أيام سلطانه الأول ـ ألب أرسلان ـ لأنه كان واثقًا من وزيره مطمئنًا لإخلاصه وحسن تصرفه.

ولمّا لم يجد هؤلاء الأثر المأمول لوشايتهم عند السلطان اتجهوا نحو دار الخلافة، فقد ذكرت المصادر أن العميد أبا الوفا حاول أن يوقع بين فخر الدولة وزير الخليفة القائم و«النظام» وزير السلطان ملكشاه سنة ٤٦٦هـ، وقد امتلأت نفسه غيظًا لما سمع وكتب بإقطاع بعض ضياع الخليفة للغز[3] فى وقت كانت الصلة بينهما حسنة قبل ذلك بقليل حتى إنه عزل ـ آيتكين السليمانى ـ من أتباعه ومريديه وعيّن بدله سعد الدولة كوهرائين ـ لشحنة[4] بغداد تحقيقًا لرغبة الخليفة[5]، حيث لم يكن خافيًا على «النظام» ما كان يجرى هناك من أعمال يستهجنها وتقولات يستنكرها. لذلك لم يكن راضيًا عن الخليفة كل الرضا وإن كان معتقدًا بضرورة الخلافة كنظام للحكم تتمثل فيه السلطة الروحية الدينية.

ومرت السنون وجلس على العرش ملكشاه وحبائل الخصوم تحاك للإيقاع به تظهر حينًا وتختفى آخر من غير هوادة ولا انقطاع، فلم يكتف خصومه هذه المرّة باختلاق الأكاذيب عليه والوشاية به إلى السلطان وإنما أخذوا يتفنّنون فى

---

(١) الوصايا ص ٢١.

(٢) أبو الفوارس الحسينى ص ٣٠.

(٣) سبط بن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٦٦هـ.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٦٦هـ.

(٥) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٨٤.

وسائل إلحاق الضرر بأتباعه بغية إيذائه وخلق الجفوة بينه وبين سلطانه. ففى عام ٤٧٢هـ سعى - خمارتكين - الشرابى بابن علان اليهودى ضامن البصرة إلى السلطان وأطمعه فى ثروته فأمر بالقبض عليه وقتله ومصادرة أربعمائة ألف دينار من ذخائره فى أثناء مروره بالأهواز للصيد. وما أن عرف «النظام» بذلك حتى بلغ به الغضب أن احتجب فى داره وأغلق بابه ثلاثة أيام، وما أن عاد السلطان إلى أصفهان حتى دعاه الوزير وعاتبه عتابًا مرًا فردّ عليه بما طيّب نفسه[1]، ولكن «النظام» لم يترك واشيه فلم يمر بعض الوقت حتى عزله من منصبه.

غير أن كاتبه - خمارتكين - وصاحبه وأثير السلطان فى تلك الفترة - ابن بهمنيار - اغتنم فرصة استيلائه على السلطان وتقرّبه منه أن تكلم فى حق «النظام» وأفهمه باختلاس أموال الدولة وصرفها فى صالحه، ولم يقتنع بذلك بل كان أكثر جرأة من صاحبه. إذ حاول أن يدسّ السم فى قرصين يقدمهما إليه على يد رجل صوفى، وصدّق «النظام» بأنهما بقية طعام أحد الزهّاد كما قيل له وتناولهما ليأكل منها لولا أن منعه أحد الصوفية الحاضرين عنده. ولما ثبت له ذلك بالتجربة شكا أمره إلى السلطان فكحل المتكلم وكفى «النظام» أمره[2].

ولئن كان الفوز حليف «النظام» فى هذه المآزق المتكررة وكان يخرج منها ظافرًا منتصرًا إلاّ أنه فوز القوى الذى يفرض نفسه بإمكانات ومساندة طبقات الشعب المختلفة له. أمّا فى البلاط فقد كانت منزلته فى هبوط واستياء السلطان منه يتضاعف كلما مرت الشهور إلاّ أنه لم يجد للتنفيس عن مبلغ سخطه من الوزير طريقًا غير التغاضى أو التشجيع على المؤامرات قبل حدوثها وهى لم تفلح. وبلغ من إصغائه للوشاة ضده واستخفافه بمكانته أن يسمح للمهرج - جعفرك - بأن يقلّد الوزير ويسخر فى تمثيل أحواله ليضحك الحضور فى مجلسه حتى طرق الخبر مسامع «جمال الملك بن النظام» وكان يومذاك واليًا على بلخ، فجاء مسرعًا إلى أصفهان سنة ٤٧٥هـ ودخل على السلطان فوجد - جعفرك -

(١) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٢٢، وابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٧٢هـ.

(٢) المصدر السابق - حوادث سنة ٤٧٤هـ، وابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ٤٧ - حوادث العام نفسه.

يضاحكه ويضحك الجالسين فى حضرته، ولما تبين له صحة ما سمع أمر بإلقاء القبض عليه وإخراج لسانه من قفاه وقطعه إلى أن مات.. ولكن السلطان أضمرها له فلم يصل إلى نيسابور حتى طلب من عميد خراسان أن يحتال فى قتله، فقدّم له السمّ فى - الفقاع - على يد أحد خدّامه ولماّ مات عزّى السلطان والد المتوفى بقوله: «أنا ابنك وأنت أولى من صبر واحتسب»[1]، فلم يجد الوزير بدّاً من الصبر على مضض، ولكن ظروف الحادث وصيغة التعزية لا تخفى دلالتها على شخص كـ«النظام» فكتم ألمه وحزنه فى أعماق نفسه وواصل السير لتأدية رسالته وانتهاج سياسته.

ولم يمض على ذلك أعوام ثلاثة عام ٤٧٦هـ حتى جرأ سيد الرؤساء - أبو المحاسن معين الملك بن أبى الرضا كمال الدولة - من أكابر ندمان السلطان وزوج ابنة «النظام»، أن يصارح ملكشاه بضمان الوزير بألف ألف دينار فلم يكن منه بعد أن بلغه الخبر إلاّ أن أعدّ مائدة فخمة دعا إليها السلطان وحاشيته وأحضر غلمانه من المماليك والأتراك على خيولهم. وما أن خلا به حتى عرض عليه ما سمعه وقال له: صحيح ما بلغك أنى أقتطع عشر أموالك ولكنى أصرفه على هذا العسكر الذى بين يديك، وقدّم له قائمة بذلك.. ثم قال: «فإن شئت تأمر بنقلهم إلى من تشاء من حجّابك لأستريح من أموالهم ومتاعبهم. أمّا أنا فقد خدمت أباك وجدك من قبلك ولى حق خدمة ولكنى مشفق فى مضيّك على ما أنت عليه وخائف من عقبى ما أنت خائض فيه، ومع ذلك فأنى أكتفى بمرقعة وزاوية، وأموالى جميعها تحت تصرفك»[2].

وما أن شعر باطمئنان السلطان لكلامه حتى أبدى استياءه لهذه الأخبار الكاذبة عنه.. وامتعاضه من مروّجيها وناشريها. فلم يكن من السلطان إلاّ أن تظاهر بثقته فى وزيره وأصدر أمره بالقبض على أبى المحاسن وسمل عينيه،

---

(١) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ٤٣، والبندارى ص ٦٨.

(٢) ابن الجوزى - حوادث سنة ٤٧٦هـ جـ ٩ ص ٦.

ونفيه إلى السجن فى سأوه، التى بقى فيها إلى أن قتل سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م. وهرع أبوه ـ كمال الملك ـ صاحب ديوان الإنشاء والطغراء إلى دار «النظام» مستنكرًا صنيع ابنه ومستنجدًا به وعرض عليه مائتى ألف دينار هبة للخزينة فقبلها منه بعد أن عزله من منصبه وعيّن ابنه ـ مؤيد الملك ـ بدلاً عنه(١).

وكانت تصرفات أبناء «النظام» نتيجة لغرورهم وشعورهم بمركز أبيهم فى الدولة مما أزاد فى مشكلاته، ووجد فيها المغرضون ثغرة يمكن النفاذ منها إلى قلب السلطان وإشعال نار الكراهية والحقد فى أعماقه.. فإنه ما أن تمّ تعيين مؤيد الملك فى ديوان الإنشاء حتى سحب يد ـ أبى المختار الزوزنى ـ الأديب وعيّن مكانه ـ إسماعيل الأصبهانى ـ فذهب المعزول بعد أن ضاقت به الحيل شاكيًا أمره إلى السلطان الذى لمعرفته بقدمه وإخلاصه وفضله فقد أمر بإعادته وأرسله مع قاضيه ـ المظفر ـ إلى مؤيد الملك برسالة شفوية لإعادته، فلم يكن منه إلاّ الاعتذار بدعوى أنه حلف ألاّ يعطيه أية عمل، وأنه لو خالف يمينه للزمه الحنث.. وكلما حاول اقناعه بخطأ تصرفه لم يكترث.. فلمّا سمع السلطان بردّه غضب وأصدر أمرًا بتعيين أبى المختار رئيسًا للديوان مكان مؤيد الملك، وأهداه لقب ـ كمال الملك ـ واعتبر هذا أول حادث لتدخل السلطان فى أعمال «النظام»(٢).

ومما يلاحظ على «النظام» فى أخريات أيامه سعيه فى تعيين أبنائه فى المراكز الخطيرة وإعطائهم الولايات المهمة.. ومن الجائز أن يكون دافعه إلى ذلك الاطمئنان إليهم، وليس حنان الأبوة فقط حيث لم يجد من يثق به أحسن منهم، بخاصة حينما أخذت مؤامرات إزالته بل القضاء عليه تنكشف له بين يوم وآخر كما ادعى ذلك هو نفسه فى وصاياه(٣). وقد اتخذ المناوئون من عمله هذا وسيلة للنيل منه والقدح فى نواياه وسوء إدارته ـ وكانت ـ تركان خاتون ـ

(١) ابن الأثير ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ، وطبقات الشافعية للسبكى جـ ٣ ص ١٤٢، والبندارى ص ٥٧.

(٢) محمد عبد الرزاق ـ حياة «النظام» ص ١٦٨.

(٣) الوصايا ـ كتاب بندنامة.

حظية السلطان التى تزوجها عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م من أوائل الذين استغلوا ذلك، وأخذت تشنّع عليه أمام السلطان بأنه أصبح يستأثر بالسلطة كلها ويوزّعها بين أبنائه الاثنى عشر ويولّيهم على البلاد كأنهم الاثنى عشر إمامًا، ويستبدّ بأموال الخزينة ويصرفها كيف يشاء على المقربين إليه، وكان السبب فى عدائها له، أنه كان يرى أن تكون ولاية العهد لأكبر أولاد السلطان سنًّا وأكثرهم خبرة وتمكنًا بغضّ النظر عن أمهاتهم وكان يجد هذا الشرط الأساسى متوفرًا فى ابنه ـ بركيارق ـ من زبيدة السلجوقية. بينما كانت تريد أن يكون ابنها ـ محمود ـ البالغ من العمر خمس سنوات وارثًا لعرش أبيه، فحملت «للنظام» البغضاء والكراهية وصارت تعمل لإيجاد الجفوة بين السلطان ووزيره معتمدة فى مساعدتها على مشيرها ـ تاج الملك أبو الغنائم ـ الذى فوّض إليه عدة وظائف منها أمر الخزانة ودور الحريم وديوان الطغراء والإنشاء[1].

وقد اغتنم أبو الغنائم هذه الفرصة وطابت لها نفسه، فأخذ يعمل لإيقاد نار الفتنة بين الوزير وسلطانه ويسعى لتوسيع شقة الخلاف بينهما لأن فى إقصاء «نظام الملك» عن الوزارة أمل أكيد لأن يحلّ محله بعد أن رضيت عنه زوجة السلطان المعروفة بنفوذها القوى وتسلطها على إرادة زوجها فكان من جملة سعايته أن قال له يومًا: «إن «النظام» ينفق فى كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلثمائة ألف دينار[2]. ولو صرف هذا المال على جيش لرفع رايته على أسوار القسطنطينية» فاستجوب السلطان وزيره فقال له: «يابنى أنا شيخ أعجمى لو نودى علىّ لما زادت قيمتى على ثلاثة دنانير، وأنت تركى لتلك تبلغ المائة دينار[3].. وقد أنعم اللّه عليك وعلىّ بواسطتك ما لم يعطه أحدًا من خلقه،

---

(١) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ١٩، ٢٠، والبندارى ص ٥٨، وابن الأثير ـ الكامل، حوادث سنة ٤٨٩هـ.

(٢) الطرطوشى ـ سراج الملوك ستمائة ألف دينار فى كل سنة ص ٢٢٧هـ.

(٣) فى سراج الملوك خمسة دنانير.. وثلاثين دينارًا بدلا من ثلاثة ومائة سنة ٣٣٧ - ٣٣٩هـ.

أفلا تعوّضه عن ذلك فى حَملةَ دينه وَحفَظة كتابه بثلثمائة ألف دينار.. ثم أنك تنفق على الجيوش المحاربة فى كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلاّ ما قرب منه. وأنا أقمت لك بهذا المال جيشًا يسمى - جيش الليل - قام بالدعاء إذا نامت جيوشك، ومدّوا إلى الله أكفهم وأرسلوا دموعهم فتصل من دعائهم سهام[1] إلى العرش لا يحجبها شىء عن الله، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وببركاتهم ترزقون».. فبكى السلطان وقال: «شا باش يا أبت شا باش، استكثر من هذا الجيش»[2].

وقصة جيش الليل هذه حكاها كثير من المؤرخين القدامى والمتأخرين، ورواها لنا مؤلف معاصر «للنظام» نشأ فى الأندلس وتعلّم على أساتذتها ثم رحل إلى الشرق فى سبيل العلم ودخل بغداد بعد موت «النظام» بأعوام قلائل، وعدّ هذه القصة من أجلّ مناقبه، وأثنى على صاحبها الثناء الذى لا نظير له، وغالى فى إطرائه بالنثر السلس المسجوع ما يعجز عنه الشعر المصنوع والمطبوع، فممّا قال عنه فى هذا الصدد: «إنه لم يكن حامل علم أو طالبه أو زاهد فى زاوية إلاّ وكرامته شاملة له وسابغة عليه، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة»[3].

وإذا لم يستطع جيش الليل أن يحمل السلاح ويشارك فى الحرب فإنه

---

(١) ورد هذا التعبير مضافًا - أى سهام السحر - ضمن كلمة قالها أحد مشايخ بغداد للمعتصم شاكيًا ظلم الأتراك «جاورتنا مدة فرأيناك شر جار، جئتنا بهؤلاء العوام من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا والله لنقاتلك بسهام السحر (يعنى الدعاء)».. وكان من أجل ذلك بنى مدينة «سامراء» لما استكثر من المماليك حتى ضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناس وتعرضوا بالنساء فكان فى كل يوم يقتل منهم جماعة (الفخرى ص ٢١١).

(٢) الحسينى أبو الفوارس - أخبار الدولة السلجوقية ص ٦٦، ٦٧.

(٣) الطرطوشى - سراج الملوك ص ٢٣٧-٢٣٩، ونقل هذه الحكاية مع تصرف يسير: النهروانى فى كتابه الإعلام فى أعلام بيت الله الحرام ص ١٧٥-١٧٧ عن كتاب «وصل الحبيب ونديم اللبيب». لم يذكر مؤلفه.

ـ ولاشك ـ كان يومـذاك جيشًا كثيفًا وقـف صـابرًا محتسبًا أمـام كـوارث الطبيعـة ومصاعب الحياة بجنان ثابت وإليه يعود الفضل فى تهدئة الرأى العام والدعوة «للنظام»، ومنه يتألف الرعيل الأول من كتائب الدعاة للجهاد فى سبيل اللّه عند المحنة.

ولـم يضعف المنافس الجديد من جرّاء خذلانه فى هذه الشائعة التى أرجف بها أمام السلطام ولـم يستطع نكرانها أمام الوزير وإنما أخذ يسعى حثيثًا وبتؤدة ورفق لئلا ينكشف أمره مرّة أخرى فتحلّ به الكارثة التى نزلت بأمثاله قبله، فكان يمزج فى تودده للسلطان وإظهار ولائه واحترامه للوزير لينطلى هذا المسلك المزيف عليه إلى أن استطاع أن يضم إلى حزبه من كبار الموظفين «مجد الملك القمى» صاحب ديوان الزمام والإستيفاء، وجبر الدولة الأردستانى صاحب ديوان الرسائل ونائبه على ديوان الإنشاء، وسديد الملك العارض صاحب ديوان الخبر[1]. وأخذ يضرب معهم على نفس الوتر الذى وضعته «تركان خاتون» ويرددون جميعًا نفس النغم على مسامع السلطان وأنه حَسَبَ المملكة إرثًا له فقسّمها بين أولاده وصدّ كل معارضة[2] حتى امتلأ حقدًا وشكـًّـا فى وزيره.

وكان مما ساعد على هذا وعلى تحقيق خطة هؤلاء وأثارت نوازع السلطان الكامنة أن صادف إنفاذ أحد أمراء مماليكه ـ قودن ـ إلى عثمان بن «نظام الملك»[3] حاكم مرو آنذاك. فحدث بينهما خلاف أدّى بالوالى إلى سجنه ثم أطلقه فعاد إلى السلطان شاكيًا فلم يستطع حينئذ كتم غضبه وغيظه وأرسل تاج الملك على رأس وفد إلى «النظام» يحمل رسالة شفهية باطنها التهديد وظاهرها العتب الشديد يقول فيها: «إن كنت شريكى فى الملك فلذلك حكم، وإن كنت تابعى فيجب أن تلزم حدّك، وهؤلاء أولادك قد استولوا على الدنيا، ولا يقنعهم حتى يخرجوا من الحرمة».. فلمّا أبلغوه ثار ولم يطق كتمان غضبه

---

(١) البندارى ص ٥٨، ٥٩.

(٢) العراضة ص ٦٥، وحبيب السير ص ٣٥ من مستخلص شيفر كزيدة ص ٤٤٧.

(٣) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨.

وما تضطرب من هواجس فى أعماق نفسه فأجابهم قولوا له: «أما علم أنى شريكه فى الملك، وأنه ما بلغ ما بلغ إلاّ بتدبيرى، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف جمعت الناس عليه وعبرت بالعساكر النهر وفتحت الأمصار، وصار الملك بحسن تدبيرى بين راج الرأفة ووجل من المخافة.. فلمّا قدمت الأمور إليه، وجمعت الكلمة عليه وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة وإطاعة الدانى والقاصى أقبل يتجنّى لى الذنوب ويسمع فىّ السعايات، وبعد هذا قولوا له: إن ثبات تاجك مغدوق بفتح هذه الدواة ومتى أطبقت هذه زال ذاك[1]. وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة، وسبب كل غنيمة فإن عزم على التغيير فليتزوّد بالاحتياط قبل وقوعه. وليأخذ الحذر من الحادث قبل طروقه». ثم قال: «قولوا له عنى مهما أردتم فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه وفتّ فى عضدى[2]. فأنا شيخ كبير وقد قاربت شمسى الغروب ولم يبق لى غرض فى الدنيا لعلمى بقرب مفارقتها». ولمّا حكى للسلطان ما بدر على لسان وزيّره أخذ يدبر عليه، وتواطأ مع - تاج الملك - على قتله[3].

فى هذا الوقت العصيب وقد تألب عليه رجال البلاط وسيدهم وأحاطت به المشكلات السياسية فلا يجد لها حلاً، ولا يرى منها مفرّاً، كان ابن الصبّاح يسعى كذلك للتخلص من «النظام» إذ سدّ عليه المسالك[4]، وضيّق على صحبه ومريديه سبل العيش، وكانت جنوده تحيط بقلعة «ألموت» على وشك فتحها والقضاء على زعيمها.. وكان من قبل قد فتح المدارس وشجع التأليف لمكافحة دعوته وهو الذى سعى لمغادرته البلاط السلجوقى وسخط السلطان عليه.

---

(١) فى مختصر تاريخ الدول: عثمان بن جمال الملك الذى عيّنه جده أميراً على مرو

(٢) ابن الأثير - الكامل جـ ١٢ ص ٨٤-٨٦، وتجارب السلف ص ١٧٠ المستخلص، والعراضة ص ٦٦، وتاريخ كزيدة ص ٤٤٧.

(٣) ابن الجوزى وابن الأثير - حوادث سنة ٤٨٤، ٤٨٥هـ، وابن خلكان جـ ١٤ ص ٣٩٥، واليافعى - مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٥، وابن العبرى - مختصر الدول ص ٢٣٥-٢٣٨.

(٤) سبط بن الجوزى - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

وبهذا التقت ضغائن القوم وخططهم على صعيد واحد. . فالسلطان قد سئمه وارتاب فى تصرفاته، وطمعه فى نفوذ الخلافة يتزايد، وزوجته ـ تركان خاتون ـ ترى من الضرورى تنحيته ليخلو لها الجو من المعارضة على تعيين ابنها وليّا للعهد وخلفًا للوالد على العرش، وتاج الملك يتلهف للصعود إلى سلم المجد والجاه ولو كان على أشلاء الشيخ المتداعية، ولا يراه إلاّ فى كرسى الوزارة الذى يحتله «النظام» منذ ثلاثين عامًا أو تزيد. ثم «الحسن بن الصبّاح» وقد ضاقت به السبل فلا يجد منجاة إلاّ بالخلاص من «النظام» ولو كان هذا بإراقة دمه وإزهاق نفوس الأبرياء معه.

وفى هذه الظروف الراهنة كان «النظام» ـ كما تروى المصادر الوثيقة ـ مصابًا بالنقرس داء الملوك وأهل النعم[1]. وكان هذا المرض قد لازمه مدة طويلة واشتدّ عليه فى أخريات أيامه، ففى سنة ٤٦٨هـ خرج إليه من بغداد ابنه- مؤيد الملك يعوده ومعه البيضاوى رسولاً من الديوان[2]. وفى أواخر سنة ٤٨٤هـ مرض وهو فى بغداد وعالج نفسه بالصدقة على الفقراء والمساكين وتصدّق عنه الأعيان والأمراء فعوفى وأرسل إليه الخليفة خلعًا نفيسة[3]. ولم يبارحه المرض إلى عام وفاته حتى اضطره للتخلف عن ركب السلطان قليلاً.

ولا نعرف أحدًا من المؤرخين أشار إلى مرض لازمه غيره، وأنه ـ من غير شك ـ مرض له نتائجه فى تصرفات الوزير كلمّا تقدمت به السن، وكان من آثاره تلك الثورة النفسية التى لم يقدر على كبتها أو تهدئتها أمام أعدائه.

وكان لاستفحال المرض وشدة وطأته ثم لشيخوخته وجزعه لما يشاهد من أعمال فى المملكة تخالف رغبته فقد تحطم جسمه وأخذ يحس بالأجلّ يدنو منه، وأنه ساع إليه، ولئن كنّا ـ حتى اليوم ـ لاندرك سرّ هذا التحسس بالموت قبل حلوله، ولكن التاريخ سجّله لبعض أعاظم الرجال، كما أثبته لوزيرنا «النظام» وقد رويت لنا فى هذا الشأن نصوص:

---

(١) وورد هذا المعنى بين الشعراء (وشاع استعماله حتى اشتقّوا منه الفعل تنقرس بمعنى أثرى).

(٢) ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠٠.

(٣) ابن الأثير – الكامل جـ ١٠ ص ٨٢.

أ - ما أشار به إلى ذلك وهو يقدّم كتابه ـ سياستنامة إلى الخطّاط على جناح السفر إلى بغداد فى أواخر شعبان سنة ٤٨٥هـ. وقد عدّها براون نبوءة غريبة جاءت فى خاتمة رسالته[١]، لأنها قد حصلت وغدت حقيقة واقعة بعد أن كان يخيل لسامعها أنها كلمة عابرة.

ب - ما ذكره فى «وصاياه» عندما توجه السلطان من أصبهان إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ حينما تخلف هو لمرض كان قد ألمّ به وطلب بيانًا بالأموال التى يجب أن تصرف على المستحقين وهل صرفت أم لا فظهر له أنها قد تعطلت فتذكّر حديث الشيخ ـ أبى سعيد ـ فى مهنة ـ وهو أن علامة انصرام دولتك بانقطاع الأرزاق عن أصحابها، فعلم أن زوال ملكه قد حان، وميعاد وفاته قد أوشك. وحينئذ استدعى حضور ابنه فخر الملك وأوصاه، ويزعم جامع الوصايا أن هذه الحكايةَ مدوّنة فى كتب التاريخ ومشهورة لدى المؤرخين[٢].

جـ - ما حكاه لنا ـ العروضى ـ فى صدد حديثه عن المنجمين ورصد طوالع المواليد وأحكام المنجمين الصائبة. . أن «النظام» أعفى منجمه ـ الحكيم الموصلى ـ حينما بلغ أرذل العمر، وطلب إليه أن يبعث فى كل عام تقويمًا وتحويلاً، ثم رجاه أن ينظر متى يحلّ به القضاء، وتفيض روحه إلى السماء، فأجابه الحكيم: «بعد وفاتى بستة أشهر». . واستقر الموصلى فى نيسابور و«النظام» يغدق عليه برّه وخيره ويسأل عنه كل غادٍ وآت. . إلى أن حلّت سنة ٤٨٥هـ وجاء قادم فسأله عنه فقال: «ليبقى صدر الإسلام وارثًا للأعمار، لقد مات الموصلى فى نصف ربيع الأول»، فانتبه «النظام» وأعاد النظر فى أعماله وكتب وصيته ووفّى ديونه، وحرّر عنه من عبيده وبقى ينتظر الموت حتى استشهد فى رمضان على يد تلك الجماعة الصبّاحية أنار اللّه برهانه وأسبغ عليه رضوانه[٣]، وكان عمره آنذاك مابين ٧٥، ٧٧ عامًا.

(١) براون ـ أدب الفرس ص ١١٢.

(٢) الوصايا ص ٩.

(٣) نظامى العروضى ـ جهار مقالة ص ٦٨ (ترجمة عزّام والخشّاب).

ومهما قيل عن المرض الذى كان يعانيه، وذكر أمارات ودلائل فى موته، وتكهنه بنهاية حياته فإن الخطة قد أحكمت هذه المرّة واغتيل «النظام» قبل وصوله بغداد على يد ذلك الصبى الباطنى وكان من ورائه زعيمه وملقّنه ومدربه «الحسن بن الصبّاح»، وكان وراء الحسن محرّضه ومشجّعه تاج الملك[1]، وكان من وراء هؤلاء الثلاثة السلطان ملكشاه وزوجته إذ كان لكل واحد منهم غرض لا يتحقق: إلاّ بمقتله، وبذلك اشترك فى مؤامرة اغتياله كما نرجّح حسب إدانتهم: تاج الملك، فالحسن الصباح، ثم السلطان ملكشاه، فتركان خاتون[2]. . لأنهم بعد التشاور والمفاوضة انتهوا إلى وضع تلك الخطة لقتله.

فقد عرف الأول أن بلوغ أمنيته لا يكون إلاّ بالصعود على أكتاف ذلك العجوز الداهية، وأنه إن بقى فى الحياة فسيفتضح أمره ويكون القتل مصيره، إذ السلطان لا يجرؤ أن يعلن بغضاءه ومشاركته معهم، ولأن الجنود وغيرهم يميلون إلى «النظام»، فضلاً عن قدرته واضطلاعه فى المهمات فلابد وأن يجهز عليه سريعًا قبل فوات الفرصة وشاع هذا بين الناس والنظامية حتى هجم على قاتله غلمان «النظام» فقطّعوه إربًا فى ذى الحجة من هذه السنة[3]. وممن يؤكد هذا من أقدم المؤرّخين ـ أبو بكر المعافرى ـ فى «عواصمه» حيث يذهب إلى أنه قتل على يد التاجية، وأن تاج الملك كان باطنيّا[4].

وقد علم الثانى أى الحسن بن الصبّاح أنه لا يمكن لدعوته أن تتم وتنتشر إلاّ بهلاك خصمه العنيد الذى لا يعرف الرحمة والمواربة تجاه المبادئ الخبيثة الهادمة والخارجين على الدولة. والذى ضيّق عليه الخناق فلا يجد له متنفسًا ولا مهربًا، فليس بدّ من المسارعة لاغتياله قبل أن تنهدّ قلعته عليه وعلى أتباعه، خصوصًا وأن سلطانه قد عزم على غزو مصر الفاطمية هذا العام بوحى منه.

---

(١) العراضة ص ٧٦، وحبيب السير ص ٣٦ مستخلص شيفر.

(٢) انظر: ترجمتها فى المنتظم جـ ٩، وفى حوادث ٥١٥هـ.

(٣) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ جـ ٩ ص ٧٤.

(٤) المعافرى: العواصم ص ٧٣.

ومما يعزّز هذا ما اشتهر به الباطنية من حوادث الاغتيال وتنظيم فرق الفدوية للقضاء على كل من يقف فى طريقهم لاسيما كبار الرجال أمثال الخلفاء والوزراء وبنفس الأسلوب الذى اغتيل به «النظام»، وبقيت هذه الطريقة سائدة إلى ما بعد قتلهم «النظام» بأجيال. فقد ذكروا أن مسعود السلجوقى واطأ الباطنية على قتل - الخليفة المسترشد بالله لأنه خافه[1]، وأنه بينما كان عضد الدين أبو الفرح محمد بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة المستضىء بالله فى محلة - قطفتا - وهو يستعد للحجّ، إذا برجل ينادى «يا مولانا، مظلوم، مظلوم» وناوله قصة - ظلامة - فتناولها الوزير منه، فوثب عليه وضربه بسكين فى ترقوته[2]. وهكذا كان الباطنية بعد مقتلهم «للنظام» يرددون: «قتل منا نجاراً فقتلنا به وزيراً»[3]. وممن يؤيد هذا من المؤرّخين: ابن الجوزى وابن الأثير والسبكى[4].

أمّا السلطان ملكشاه فقد كان يضمر فى دخيلته شيئًا إدًا وقد أعدّ له عدّته منذ شهور وهو فى زورته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ حيث دخلها فى رمضان من هذا العام وبقى فيها حتى شهر ربيع الأول قام أثناءها بجولات وزيارات استطلاعية وأمر ببناء سوق المدينة ببغداد والجامع، وشجّع «النظام» هذه الحركة العمرانية حيث استأجر بستان الجسر[5] وما يليه من وقوف المارستان مدة خمسين عامًا، وأهدى له أبو الحسن الهروى خانه. وتولى عمارة ذلك أبو سعد ابن سمحا اليهودى الذى قتل بعد اغتيال «النظام» فى نفس العام وبنَتَ تركان خاتون دار الضرب. واشترى منافسه تاج الملك - دار الهُمام - وما يليها بقصر بنى المأمون ودار خُتْلُغْ أمير الحاج وبنى جميع ذلك داراً وتولى عمارتها الرئيس

(١) الفخرى ص ٢٧١.
(٢) نفس المصدر ص ٢٨٦.
(٣) المنتظم.
(٤) الكامل جـ ١٠ ص ١٣٠-١٣٣، والسبكى جـ ١ ص ١٤٢.
(٥) ولعلها «الخس» التى لازال يطلق على موضعها هذا الاسم فى الباب الشرقى من جانب الرصافة وليسترانج ص ٧٥، ٧٦.

أبو طاهر بن الأصباغى[1]. ثم صحب السلطان معه حفيده أبا الفضل جعفر ابن المقتدى واتجه نحو أصفهان ولم يستقربه المقام خمسة أشهر ونصف فى أصفهان حتى همَّ راجعًا إلى بغداد فى مستهل رمضان من العام التالى سنة ٤٨٥هـ، وذلك لتنفيذ ما كان يضمره من تغيير ولى عهد الخلافة وتعيين حفيده جعفرا، وتشعيث أمر الخليفة ـ المقتدى[2] ـ لتجتمع الخلافة والسلطنة فى آل سلجوق وهو يعلم تمامًا أن «النظام» لايوافقه على رأيه[3]، بل ربما يضع العراقيل فى طريق الوصول إليه فلم يكن بدّ من معاجلة «النظام» قبل إحباط المؤامرة وافتضاح السرّ، وقبل دخوله بغداد لتنفيذ رغبته..

ومما يسند هذا ـ فضلاً عما سبق ـ ويثبت مشاركة السلطان فى مقتل وزيره أولاً ما روى عنه أنه قد أفسد عقيدته بالباطنية[4]، وبذلك أصبح يميل إلى البواطن بعد تأثره بمبادئهم وأن السفارة بينهما كانت مستمرة حتى قيل: إن السفير ـ أبو طاهر الإيوانى ـ هو قاتله[5]، ثم تلك الشائعة التى سرت بين الناس وترددت على ألسنة شعراء الفرس[6] حتى أدت إلى موت السلطان عقب وصوله بغداد وإعلان نواياه نحو الخليفة وموته ميتة غامضة بعد خمسة وثلاثين يومًا على اغتيال وزيره «النظام» وفى نفس اليوم الذى حدده للاحتفال ـ بتاج الملك ـ وزيرًا له، ودفن فى وجوم وصمت فى الشونيزة دون أن يصلى عليه[7].

---

(١) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) نفس المصدر ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٣) نفس المصدر ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٤) نكارستان ص ١٧٤-١٨٧، وسركذشت سيدنا ص ١٧ ، ١٨ فصل من جامع التواريخ.

(٥) نكارستان ص ١٧٤-١٨٧، وسركذشت سيدنا ص ١٧ ، ١٨ فصل من جامع التواريخ.

(٦) معزّى شاعر البلاط السلجوقى يقول:

مردمان كفتن شوريد، لست جه عجب — بود أراين معنى دل معنى شناسان راخبر

فواعجبا لقول الناس أن شوال مضطرب — ففى قلوب العارفين خبر لذلك المعنى

(٧) تجارب السلف ص ٢٠ مستخلص شيفر.

وما كانت تركان خاتون[1] أقل حماسًا وملاحقة لتنفيذ خطة الفتك «بالنظام» تحقيقا لمآربها، وهذا مما أحسّ به «النظام» وأشار إليه فى وصاياه وكتابه السياسة[2]. فإن مجرى الحوادث التى وقعت بين أبناء السلطان ملكشاه على إثر وفاته وبخاصة الجيش الذى قادته والتضحيات المالية التى سخت بها والمواعيد المغرية التى قدّمتها للأمير «قطب الدين إسماعيل الياقوتى»[3].. كل ذلك يدلنا على مقدار تحمسها لنقل العرش إلى ولدها محمود مهما كلفها الأمر ومدى مشاركتها فى قضية اغتيال الوزير.. ولولا مدد المماليك النظامية وانحّيازهم إلى «بركيارق» لصار الأمر لابنها كما أرادت.

عجائب الأقدار :

ويذكرنا موقف تركان خاتون هذا بموقف السيدة زبيدة زوجة الرشيد من وزيره ـ جعفر البرمكى ـ وسعايتها للوقيعة بين الخليفة وبينه، الأمر الذى كانت به نهاية جعفر وخاتمة البرامكة.. ومن طريف المشابهات أيضًا أن يختلف الناس فى سبب نكبة البرامكة ومشاركة الخليفة فيها كما اختلفوا فى أسباب اغتيال «النظام» ومساهمة السلطان فى إيجادها.. وأطرف منه فى وجوه الشبه أن يتردد القول على ألسنة المؤرخين بأنهم قبضوا على ناصية الأمور كلها وزاحّموا الخليفة فى إدارتها وتصرفوا فى أموال الدولة دون رقيب[4] مثلما كان يشيِّع المغرضون ضد «النظام» ويشون بإسرافه وبذخه إلى السلطان حتى أوغروا صدره.. ومن ناحية الصراع على وراثة العرش فإن تركان خاتون أم محمود خاقانية من خانات تركستان كخيزران أم المأمون فإنها فارسية، فى حين أن

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٦٩-٧٤ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) يروى صاحب تاريخ كزيدة أن السلطان ملكشاه تزوجها عندما حاصر مدينة سمرقند واستولى عليها سنة ٤٧١هـ وأسر سليمان خان. وهى تركان خاتون بنت طغماج خان بن بغرا خان بن إيلم خان. ص ٢١٨ بند ٢٩١.

(٣) الوصايا، وسياستنامة ـ فصل الألقاب.

(٤) خال ـ بركيارف ـ وقد وعدته بالزواج منه إذا ما حارب بركيارق ولكنه أسر (ياقوتى بالقرب من الكرخ وقتله سنة ٤٨٦هـ. تاريخ كزيدة جـ ١ ص ٤٥٠).

زبيدة بنت ياقوتى بن داود أم بركيارق هى بنت عم السلطان كزبيدة أم الأمين فإنها بنت جعفر بن المنصور عباسية. ومن غريب المصادفات بعد طرائفها أن الرشيد كان إذا حدّث وزيره يحيى يخاطبه: يا أبى[1] كما كان السلطان ملكشاه إذا أراد الحديث مع وزيره «النظام».. وأنه يروى عن الرشيد قبيل نكبته بالبرامكة كان يردد: «لقد استبدّ يحيى بالأمر دونى، فالخلافة فى الحقيقة له وليس لى منها إلاّ اسمها فقط» كما كان يقول السلطان ملكشاه[2].. ومن الغريب أن يستغل الفضل بن الربيع مركزه فى الحجابة ويلعب دوراً كبيراً فى إنزال كارثة الاغتيال بجعفر ليظفر بالوزارة[3]، كما وقع لتاج الملك ضد «النظام». ثم إن الموت لم يمهل الخليفة الرشيد بعد نكبته بالبرامكة، كما لم تطلّ حياة السلطان ملكشاه بعد مقتل وزيره «النظام». وبهذا تصدق نظرية القائلين بأن: «التاريخ يعيد نفسه فى بعض الاحيان» إذا تشابهت الأسباب وتماثل الأشخاص».

ضريحه فى أصفهان:

تدلنا الأخبار الواردة إلينا فى معظم المصادر التاريخية أن السلطان «ملكشاه» استأنف سفره بعد أن ودّع جثمان الفقيد متظاهراً بالحزن والأسى لفقده وبلغت أنباء نعيه بغداد فى يوم الأحد ١٨ رمضان فجلس عميد الدولة للعزاء به فى الديوان ثلاثة أيام وحضر الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين نزعاتهم وخرج التوقيع يوم الثلاثاء. وفى آخره: فى بقاء «معز الدولة» مما يجبر المسلمين ويعضّد أمير المؤمنين[4].

وحمل نعشه على أكتاف غلمانه عائدين به إلى أصفهان - واستقبله أهلها بحرارة وألم.. وفى ركن من مدرسته فى محلة - كَران - التى يشقّها نهر عظيم غاية فى الحسن والجمال[5]، وضع جثمان الراحل العظيم. وكانت هذه

(١) ابن الطقطقى - الفخرى ص ١٨٦.

(٢، ٣) المرجع نفسه ص ١٩٠، ١٩٣.

(٤) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨ - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) عن كنج دانش ص ٣٥٠، وروضات الجنات، وطبقات السبكى جـ ٣ ص ١٤٣.

المحلة آنذاك عامرة بالسكان مزدحمة بأعلام الشافعية ومنهم: «صدر الدين الخجندى» الذى بنى «النظام» مدرسته من أجله، ويطلق الأصفهانيون على ضريحه اسم «تُربت نظام».

ولم يبق من آثار هذه المدرسة سوى إيوان طرأ عليه بعض التصليحات فى عهد ـ ظل السلطان ـ الصفوى، ويضم تحت سقيفته عدة قبور فى مقدمتها مرقد الوزير «نظام الملك» كما ترشدنا آثار الكتابات التى لم تزل باقية على جدرانه الجانبية وبخاصة الأمامية.

إن بقايا الخطوط المحفورة على رخام القبر تدلنا على أنه يحوى رفات الوزير إذا وصلناها واستنتجنا ما تآكل من حروفها وانطمس من كلماتها بمرور الأعوام، وهو قليل وأنه حقًا عندما كان يُطلق على هذا المقام «تربة النظام»[1] . . . . فالكتيبة التى تواجه الزائر تشهد بذلك إذ تنص على ما يلى:

«واصل كشته بجوار مرحمت وغفران وفايزشد بغرفات جنان وروضة الرضوان حضرت مغفرت مآب. . . المفاخر بافتخار الأكابر والأعاظم والأصاغر. . . وزير خواجه. . . الملك المؤيد. . . بتوفيق الله».

وبمقارنة النص بنظائره من الكتائب المألوفة فى مثل الألواح التى توضع على قبور كبار الرجال عند الفرس نستطيع أن نصل إلى الترجمة الكاملة قريبة من الأصل أو هى الأصل فى أغلب الظن: «وصل إلى جوار الرحمة والغفران وفاز بغرفات الجنان وروضة الرضوان حضرة المغفور له تاج المفاخر فخر الأكابر والأعاظم والأصاغر وزير السلطان (ملكشاه) الخواجة نظام الملك المؤيد بتوفيق الله».

ثمّ إن ضخامة الضريح وفخامة المرمر الذى اكتسى به واختيار موضعه وانتقاء

(١) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ٢٨٠، ويرى أستاذنا نشأت أنه «قاجارى».

الآيات القرآنية المنقوشة على جانبيه فضلاً عن العبارات الفارسية والعربية التى تتضمن بعض الدعوات والصفات والألقاب وعدم وجود أحد ولا سيما مؤرّخى أصفهان[1] من يذكر صاحب هذا القبر أو يذكره ثم ينسبه لشخص آخر.. جميع هذه الأمور ترشدنا إلى أنه مدفن وزيرنا «النظام» وأنه مثواه الأخير.

ها هنا اضطجع الذى قال فيه إمام الحنابلة فى عصره أبو الوفاء بن عقيل: «رأينا فى أوائل أعمارنا ناسًا طاب العيش معهم من العلماء والزهّاد».. وأمّا (النظام) فإن سيرته بهرت العقول جودًا وكرمًا وحشمة وإحياء لمعالم الدين فبنى المدارس ووقف عليها الوقوف، ونعش العلم فكان سوقها فى أيامه قائمة، والعلماء مستطيلين على الصدور من أبناء الدنيا وعمّر الحرمين ودور الكتب، وما ظنّك برجل كان الدهر فى خفارته لأنه كان قد أفاض من الإنعام ما أرضى الناس، وإنما كانوا يذمّون الدهر لضيق أرزاق واختلال أحوال فلمّا عمّهم إحسانه أمسكوا عن ذم زمانهم».

وقال فى وصفه مرّة أخرى نقلاً عن كتابه ـ الفنون: «ترك الناس بعد موته، أمّا أهل العلم والفقراء ففقدوا العيش بعده بانقاطع الأرزاق، وأمّا الصدور والأغنياء فكانوا مستورين بالاستغناء عنهم، فلمّا عرضت الحاجات عجزوا عن تحمل بعض ما عوّدوا من الإحسان فانكشفت معايبهم من ضيق الأخلاق فهؤلاء موتى بالمنع وهؤلاء موتى بالذم.. وهو حىّ بعد موته بمدح الناس لأيامه. ثم ختم له بالشهادة فكفاه اللّه أمر آخرته كما كفى أهل العلم أمر دنياهم.. ولقد كان نعمة من نعم اللّه على أهل الإسلام فما شكروها فسلبوها»[2].

---

(١) تاريخ أصفهان.

(٢) من الكتب الضائعة قيل إنه فى أربعين مجلدة ضمنّها مذكراته ومشاهداته ومعارفه فى مختلف العلوم والفنون ونقل عنه الكثيرون منهم: ابن الجوزى.. إلخ.

ـ ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٦٨ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، والسبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ١٢٥.

ورثاه كثير من الشعراء العرب والفرس بعد موته كما مدحوه فى حياته فمن أولئك أبو الهيجاء شبل الدولة[1] بهذين البيتين اللذين تناقلهما المترجمون له فى ختام سيرته:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة   يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها   فردّها غيرة منه إلي الصدف

ومن هؤلاء الشاعر الفارسى الشهير - أنورى[2] - إذ كان فى ركابه يوم اغتياله فقال[3] ما تعريبه شعراً:

لظلم الفلك القاسى مضى حامى الورى لما   مضى من عالم الأرض نظام الملك حاميه
وراحت عندما راح من الأرض السفارات   وقد كان لسّم الدهر ترياقًا يداويه

أمّا - «النظام» - فممّا يحكى عنه أنه كان يردد الأبيات، الفارسية التالية قبل أن يلفظ نفسه الأخير[4]، فقال ما ترجمته نثراً.

مرت ثلاثون سنة محوت بها من جبين الدهر - الأيام - الظلم فخوراً بعظمة السلطان المحظوظ، ولمّا حُمّ القضاء وقد مرّ من عمرى ست وتسعون - خطأ فى العمر -، ومتّ على إثر ضربة سكين فى هذا السفر فقدّمت الصحيفة الناصعة

---

(١) هو مقاتل بن عطية بن مقاتل البكرى الحجازى. انظر: ترجمته فى وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤٤، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٤.

(٢) أمين أحمد الرازى - هفت اقليم - مادة خراسان.

(٣) والأصل الفارسى هو:

حامى جهان زجور أفلاك برفت   بينى ونظام عالم خان برقت
آن زهر زمانه راجو ترياق بُوَدْ   او رقت وسفارت جهان باك برفت

(٤) والأصل الفارسى:

سى سال باقبال نواى شاه جهان بجور كردستم اذ جهده ايام ستردم «نهاية البيت الفارسى» جون شدز
قضامدت عموم نوز وشش اندوسفر اذضربت يك كاردبمردم
منشورنكو نامى وطغراى سعادت بيش ملك الفرس بتوقيع ثوبردم
بكده اشتم انى خدمت مردانه بفرزنداورا نجد اوند سيردم

البيضاء وخاتم الحكم لملك الفرس موقعة بتوقيعك ووضعتها أمامك، وهذه الخدمة الخالصة لنجله الكريم، أُحيلها إلى اللّه تعالى[1].

رحم الله تعالى وزيرنا ـ نظام الملك ـ وتغمّده بفيضٍ من حنانه ورحمته بقدر ما عمل للإنسانية والإسلام من خير، ودرأ عنها من بؤسٍ وشرّ. إنه سميع مجيب.

* * *



(١) مراجعة التعريب وتدقيقه للمرحوم ـ جعفر الخليلى ـ الأستاذ الأديب، وله مؤلفات فى اللغتين وأثرهما المتبادل فى الشعر والنثر.

● الفصل الثالث

الملاحق

مراسيم ومناشير.

رسائل ومواعظ.

أمالي في الحديث.

نصائح.

توطئة ختامية : (فى إثبات هذه الملاحق جزء من البحث)

ممّا يجدر بى وقد بلغتُ ـ التوطئة الختامية للفصل الثالث من الباب السادس حول سيرة ـ نظام الملك ـ وزير السلاجقة الأوائل، أن أعرض على القارئ الكريم مكانة هذه الملاحق من البحث، معتقدًا أنها جزء منه تفوق المراجع العامة لأنها بمنزلة المصادر الخاصة المباشرة، فضلاً عن أنها مخطوطات ـ ولم تزل ـ بقلم أصحابها ثم عربت إلى لغة القارئ.

وممّا يظن بعضهم إنّ معظم الملاحق يقصد بها توسيع الكتاب وزيادة عدد صفحاته إذ يمكن الاستغناء عنها وبخاصة إذا كانت مكررة. . ولئن صدق ظنهم حينًا فإنّه قد خاب فى أحيان أخر كثيرة حيث إن هذه الملاحق فى معظم البحوث تختلف عمّا فى تضاعيف البحث من ناحية التحليل والمقارنة والاستنتاج، كما إنها تعدّ نصوصًا تاريخية مستقلة يستفيد منها المتخصص من ناحية أخرى.

إن النصوص الملحقة فى هذا البحث كالمراسيم والرسائل والأمالى وأمثالها، لا تقل أهميّة عن المراجع العامة الأخرى بنظر الباحث والقارئ المتخصص لاسيما إذا كانت مخطوطة بل تفوقها؛ لأنها الجزء المتمّم الذى يؤيد ما توصل إليه الدارس من آراء وما استنتجه من أحكام مما لم يجده القارئ فى المطبوعات من كتب ودوريّات ـ مجلات.

ثمّ إن الوثائق الملحقة بالدراسة تختلف أهميتها وقيمتها بأختلاف شكلها وموضوعها وبمقدار ما يبذله الدارس من جهد فى الحصول عليها، وبما أفاده ويستفيده القرآء منها، واستدل به على دقة استنتاجه بواسطتها، فتكون بذلك

جزء من البحث، وإضافة شىء ولو كان يسيراً إلى التاريخ، وإن كان قليلاً فى عدده، بسيطًا فى محتتواه: وكيف. . لا. وهو من ثمار دراسة لحياة أكبر وزير إسلامى، كانت سيرته نموذجًا حيًّا للعقيدة الخالصة حوالى ثلاثين عامًا، والتفانى فى سبيل تحقيق العدل بين المواطنين، والمساواة بين الأجناس، وألاّ فرق بين الناس إلاّ بالتقوى والعلم والتعاون والعمل الصالح.

وحينما وصلت فى دراستى إلى موضوع ـ استيزار نظام الملك ـ خطر لى ضرورة البحث عن مراسيم وزارته لسلطانيه ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ ليكون منصبه هذا شرعيًا، حيث لم أقرأ بين المترجمين له ـ على كثرتهم ـ من ذكر ذلك فلم أجد بُدًا من السفر إلى إيران صيف ١٩٥١م، وعند مراجعتى لأهم المكتبات فى طهران عثرت على مجاميع مخطوطة تحتوى على مراسيم استيزاره وكذلك نماذج من رسائله. . ثم سافرت إلى دمشق فحصلت على مخطوطة مجلسيه فى الحديث فى المكتبة الظاهرية. . والحمد لله على توفيقه.

وإذا كانت أهميّة المصادر والمراجع للتدليل على دقّة ما يراه الباحث، وأهميّة الفهارس المطّولة للتيسير على القارئ إذا أراد معرفة الآية أو الحديث أو المقل أو العَلَم أو المكان وغيرها فإن الملاحق التى بقلم أصحابها بعد إثباتها تكون أكثر أهميّة للقارئ المتخصص، وخصوصًا أنها كشفت عن كثير من الأحداث التاريخية الغامضه فى سيرة الوزير وفى تلك الفترة الحاسمة من القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر ميلادى ـ لذلك عَددَت هذه الملاحق جزء من البحث وأعددت لها هذا الفصل. . ومن الله التوفيق ومن القرآء التأييد أو التفنيد

* * *

أولاً : المراسيم : الوثائق معربّة

-١-

منشور السلطان ألب أرسلان في تفويض وزارة ولده الأعز السلطان ملكشاه إلى الخواجة «نظام الملك»[1]

لما اقتضت دواعى همّة ملوكيتنا وبواعث شفقة أبوتنا فى حق ولدنا الأعز الأكرم الخاقان المعظم ناصر الدنيا والدين السلطان[2] ملكشاه أحسن اللّه به الأتباع وأدام له الانتفاع، الذى هو حاصل لذة الحياة ومحصل غاية الأمانى وعنوان صحيفة المسرات وجمال طلعة السعد ومدار العمل وذخيرة الزمن، أن نضيف فى كل يوم فى تعظيم قدره وتنويه ذكره وأن نهيئ له أسباب استقامة مملكته واستدامة دولته وأن نعدّه ونهيئه لنعمة الملوكية المفوّضة من اللّه تعالى والتى حصّلها بواسطة تربيتنا له.

وحيث عرفنا بالقياس وعلمنا وجوه التجارب أن استقرار قواعد الحكم فى الدنيا واستحكام دعائم نيل المقاصد موكول ومفوّض إلى منصب وزارة أرباب الأقلام، كما أن تقرير مصالح العالم وتيسير الأعمال العظام منوط بكمال كفاءة هؤلاء ونور عقليتهم وهداهم، لأن مصالح المملكة لاتستقر إلاّ باستمرار جريان أقلامهم ومهمات الدولة لا تتضح إلاّ باقتباس أنوار رأيهم الواضح، واستقامة السيف وقوته يلزمها مساعدة يد القلم ومعاضدته، وثبوت قوائم الملك مفروض

(١) عن المجموعة رقم ٣.

(٢) لعلّها من وضع الناسخ بعد أن صار سلطانًا، أو أن الوالد كان يهيئ ابنه للسلطنة فمنحه لقب «سلطان».

له بثبوت قَدمَ صاحب الرأى السديد وشجاعته فى صحيفة العلم وتقرر لدى أرباب العقل أن مركز قاعدة الملك لا يثبت دون وزير صالح يهتدى بآثار عقله الوافى وأن أساس المملكة لا يؤكد ولا يستقيم دون مشير كامل يستضاء بأشعة رأيه الصافى ليفتح الملك خزانة أسراره أمامه وينشط قلبه بهداية نصائحه ويضع مفاتيح أبواب مصالح ملوكيته بين كفاءته، فإن إصابة الخلفاء فيما حاولوا مقرونة بكفاءة الوزراء.

ومن هنا علمنا أن طراز العواطف وعنوان صحيفة العوارف في حق ولدنا الأعز الأسعد ـ بلّغه اللّه ما يرتجيه وأناله غاية مايريد ـ هو أن نزيّن مقامه باختيار وزير تلوح على محياه كفاءة الولاية وتظهر على ناصيته مخايل الرأفة والحفاوة، ومن شاع صيت مقامه المشهود فى الأزمان وانتشر ذكر مناحيه المحمودة بين الخاص والعام، لأن يقيننا من يعشق هذه المهمّة العظيمة ويتقلد زمام هذا المقام الخطير لابد وأن يكون رجلاً عظيمًا قد استنارت برأيه المضىء صحيفة الزمن وتعطرت بمساعيه النفّاحة عرصة الممالك كما أشار إليه الحديث المصطفوى الشريف الذى ما قدّمه العباد إلاّ تقدموا وهو قوله ﷺ: «اذا أراد الله بملك خيراً قيّض له وزيراً صالحًا، إن نسى خيراً ذكّره، وإن عمل خيراً صالحًا أعانه».

ونحن بموجب سياق هذه الكلمات وبحكم اتساق هذه المقدمات قد ارتأينا وأنطنا هذا النصير العظيم إلى حضرة العظيم نصير الدولة أكمل أهل الزمان وأعقل أمرآء الديوان ظهير سرير السلطنة ومشير مصالح المملكة ومدبر أمور الممالك وناظم عقود المسالك ناصر عباد اللّه وملاذ الفقراء وعين الضعفاء نظام الملّة والدنيا والدين أدام اللّه تمكينه وجعل التوفيق قرينه، واسطة عقد الأحرار وغرّة جبهة الأعصار والذى هو نسيج وحده فى أنواع الفضائل وإبداع محاسن الشمائل فريد العصر ووحيد كفاءة العالم حاصد بيادر الكفاءة وملتقط دهاء العالم من منثور موائد الفوائد، وهو مع هذه الخلال المختارة والخصال الحميدة كان مراعيًا للحقوق القديمة والعناية العظيمة فى البت المملوكى المبارك مخلدًا شوارد النعم بروابط الشكر.

وقد فتحنا له باب التصرف وقلدناه الوزارة لكفاءته وصدق نصيحته؛ لأنه المستحق لها لا عن غرض والمشفق عليها دون مثبل، وذلك ليشتغل فى هذا العمل الخطير بقوة قلب وفراغ بال، وليستقبل هذه الأمانة العظيمة بانشراح صدر واتساع خاطر كما هو المعهود والمألوف من ديانته واحتياطه وأمانته وصدقه، وليرتب مصالح الديوان برأيه المنير وعقله الواسع ويحافظ عليه بما هو معروف وموصوف به؛ وليقدم أمثال أوامر الخالق ورعاية المخلوق على كل عمل له، وليقضى حق هذه النعمة التى أنعمنا بها عليه بإظهار الشفقة والحفاوة وإفشاء العدل والإنصاف؛ وليصدّق ظننا فيه بالصرامة والشهامة والرأى الصائب والألمعية الثاقبة عندما يبدى كفاءته فى المهمات الخاصة لولدنا الأعز الأكرم،

وفى رعاية مصالح الرعايا عامة من تفويض الأعمال لأهلها وحراسة أموال الدولة، وإنجاح الآمال وترغيب المصلحين وتهذيب المفسدين وسلوك مناهج العدل وهدم مبانى الظلم وكسر عادية الأعداء وطلب الخير لكل مسلم. وأن يحقق فراستنا بكمال كياسته، وأن يرى من واجبه فى كل أفعاله وأعماله ترفيه حال الرعية وصلاح دولة ولدنا ورضانا نحن وامتثال أوامر اللّه تعالى حتى يحصل هو على الحشمة والاحترام وسيادة الدنيا وسعادة الآخرة، وكل هاتيك من نتائج تلك المقدمات المذكورة.

أما جناب ولدنا الأسعد ـ وقاه اللّه من الآفات ووفّقه للخيرات ـ فإنه وإن كان مرتديًا بشعارالحصافة ومقتديًا بنا فى أفعاله الجليلة ومؤيدًا بالتوفيق الربّانى وملحوظًا بالعناية السبحانية فإن من اللازم أن ينبّه أحيانًا إلى التطبع بالأفعال الحميدة وتتبع الأقوال السديدة والأعمال الخيرية بالإرشادات اللائقة والعبارات اللائقة، فإن الدال على الخير كفاعله. كما أن من اللازم أيضًا أن يبعّد قلبه وعينه عن التصورات الفاسدة والصور الدنيئة، لأن قلوب السلاطين كالمرآة ينطبع عليها كل ما يقدمه لها الوزراء، إن خيرًا فخير، وان شرًا فشر، وإن ذلك الأثر فى المرآة ليشاهد من قريب ومن بعيد، وإن صدور الملوك ما هى إلاّ

أحقاق[1] نتعرف بها آراء النواب والوزراء. أمّا العقاب والثواب فهو منوط بأمانتهم أو خيانتهم، وبإنصاف الخدم المواظبين على أعمال الديوان وبعنايتهم فى إزاحة عوارض العلل وإزالة دواعى الخلل المتعلق بهم. أمّا إذا خيف منهم أن يخلّوا بعملهم أو أنهم كانوا قد أخلّوا فليتدارك بالنصيحة أولاً ثم بالفضيحة فى ختام أمرهم حتى يبتعدوا عن مظنّة الاختلاف بالنظام أو اختزال الأموال أو فتور فى أحوال الديوان. ثم عليه أن يسعى فى كفاءة أمور المملكة لا بالتعجيل الموهن للعزائم فى مواقع الإصابة، ولا بالتأخير المذهب للفرصة فى كسب المصلحة.

وبالجملة فان مقصودنا من ذلك كله أن يعمل الوزير الخبير بما فيه صلاح الديوان وراحة الرعايا حتى يشمل الصلاح جمهور العباد وتعبق نفحات الأمن فتصل لأناف الدولة. وإن ذلك الجناب العالى وإن كان مستغنيّا عن الإطناب لأن حركته وسكناته لم تقم إلاّ على قاعدة السداد وقانون الرشاد ولكنّا أرجعنا أصول هذا العمل وتنويع شرائط هذا الأمر المهم إلى عقله وذكائه وعلمه ذاكرين المثل السائر: «أرسل حكيمًا ولا توصه»، واللّه يوفقه لرعاية ما عقدنا وينعم عليه بطوله وحوله وقوته ونعمته.

أمّا ولدنا العزيز الأرشد أعطاه اللّه مناه وأسعده وأبقاه فعليه أن ينظر بعين العناية والاهتمام والشفقة إلى من شعاره الحصافة ملاذ الدولة، فلا يعدل عن جادة التوفير المستدعى لتوقير الحال، وأن يعرف أنه وديعة حضرتنا الهمايونية ونائب ديواننا الأعلى وألاّ يصمم على تنفيذ أىّ عزيمة وإمضاء أى أمر من عظائم المهمات وسوانح المصالح دون استشارة عقله الكامل واستصواب ذكائه وعلمه الشامل، وليتيّمن برأيه الصائب فى افتتاح مهمات الدولة واستفتاح أبواب المقاصد، حيث إن اتباع الاستبداد ندم وحسرة وثمرة الاسترشاد نجاح وبلوغ المرام. وليعلم أن من واجب وصيته للخدم والحشم والأمراء والكبراء والنواب والحجاب خصوصًا وعمومًا بخدمة الوزير ورعاية جنابه الشريف. وألاّ يهمل دقيقة واحدة دون تبجيله وتعظيمه لدى مقربيه، ولا يدع أى مخلوق

(١) جمع حُقّ، علبة صغيرة للمساحيق.

يعترضه فى كلمة يتوجه بها لإصلاح الديوان حتى ولو كانت فى نظره خلاف مصلحة الديوان ليمكنه عند ذلك أن يعمل لمهمات ديوان ذلك الولد العزيز بقلب فارغ ورفاهية خاطر.

وعلى الإجمال ليمكنه أن يقوم بشرائط هذا العمل الخطير بكل نشاط وإخلاص لتكون مصالح أمور ولدنا مرعيّة وحاجات المسلمين مقضيّة وآثار الخدمة وأعمال الدولة مرضيّة. واللّه عزّ اسمه ولىّ التوفيق.

* * *

- ٢ -

مرسوم (فرمان) وزارة الخواجة «نظام الملك»[1]

إلى قوام الدين لملكى السعود (كذا)، وقواعد نظام الملك أبدى الخلود، فاتحى معاقد حبل القيادة المتين، ومنظمى مصالح الممالك المفتوحة بالرأى الرزين، أعنى قرناء كيوان الرفعة وأبناء الحشمة العالين، مخدومى النجم والأمراء المحظوظين فى فتوح العالم، والوزراء ذوى الرأى الكافى والتدبير الصائب، قاطنى سدة العرش السامى، وساكنى عتبة فضاء الدنيا، مع ساير ذوى الشوكة، وباقى حجّاب العرش الحالى، وجمهور الأنام من الخاص والعام (نصب الله تعالى فى خلود السلطنة ألوية بقائهم وزايد لعوائد الإحسان مراد رجائهم).

ليعلموا حسب الآية الكريمة: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[2].

أساليب ضوابط السياسة العالمية وقوانين مناهج فتح البلدان وتدبيرها. إن الزمرة الشريفة المتوّجة بتاج ابتهاج: ﴿ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾[3].

والمشرقة بوهاج سراج آيته: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾[4].

قد زيّنت أكتاف آرائك الخلافة والسعادة ووسادة السلطنة والقيادة بأقدام

(١) عن المجموعة (٧) كتابخانة ملى ملك - مكاتيب ورسائل متفرقة تحت تسلسل ٤٥.

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٦٢.

(٣) سورة البقرة - من الآية ١٣٠.

(٤) سورة البقرة - من الآية ٢٥١.

احتشامهم، كما عرف سابقًا أن خدّام السعادة الذين تشرق فى ناصية آمالهم وأمانيهم لوامع إشراقات: ﴿ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾ (١).

وهم المستعدون قدر قابليتهم الفطرية لإفاضة تجليات أنوار: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢).

وهم المحصلون بيمن العواطف الخسروانية ومكارم الاصطناعات السلطانية طبقًا لخطاب: (أنزل الناس منازلهم) على رتبة التصاعد والتعارج الى أوج المدارج السنيّة وفوق المراتب الجليّة: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴾(٣).

يصلح المرء للسعادة والإقبال إن كان فى المربىّ صلاح
مثل قطر الربيع يصلح فى الاصدا ف حتى تزان فيه الملاح(٤)

ثم إن طلوع أشعة الصبح الصادق من هذه الدولة العالية القباب ولموع شعشعة برق هذه الشمس الظاهرة على العالم وإن كانت تنير هذه السعادة على جبين المقرّبين وذوى المنزلة السامية، غير أن ظهور هذه البارقة الجليّة ووقوع هذه العاطفة الجميلة فى حق عالم نبيل كان قد امتحنت زواهر إخلاصه وعرضت نفود اختصاصه على محك الاعتبار كرّة بعد أخرى، وثانية بعد أولى أليق وهو أولى بأن يكون مستعدًا لأنواع فيوض العواطف. ومستحقًا لأصناف فنون اللطائف، وان شبهة حب الدولة وخصلة طلب الحق لخير وسيلة له فى الخلاص من مكئد الزمان وشدائد الحدثان.

---

(١) سورة الأنبياء ـ من الآية ١٠١.

(٢) سورة الواقعة ـ الآيتان ١٠، ١٢.

(٣) سورة الصافات ـ الآية ١٦٤.

(٤) الأصل الفارسى لهذين البيتين هو:

آدمى راكد بيمن نظر ترتيب است كد بغير نرى اقبال مزاد اد شود
قطره آب كه إذا بر جكد فصل بهار كوصدف برود دش لولؤ شهرار شود

الثابت القدم المحب لمن هواه إذا رآه

لم يلو عنه وإن هوت من فوق هامته السيوف[(١)]

وبناءً على وجوب هذه المقدمة ولزوم هذه التوطئة:

فإن أمين الدولة القاهرة - خواجة قوام الدين نظام الملك - الذى كان منتسبًا إلى غرّة شمس السلطنة الأبدية الغرّاء المشرقة على العالم ذات الظفر والإقبال وملازمًا لركابها ومرتبطًا إلى مقاعد رتبة الوزارة العليا بمقتضى قول: (إذا أراد الله بملك خيرًا جعل له وزيرًا صالحًا إن نسى ذكّره وإن ذكر أعانه) قد كانت مراسم شفقته على كافة الأنام مقبولة مما سبّب له القرب ورفع الدرجات عندنا.

ولأجل هذه المنزلة فقد افترت عليه بمفتريات متنوعة وذمّته لدينا زمرة من الحسّاد وأخيرًا ظهرت بموجب حكمة: (إن الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله بالمحسود) براءته. ثم ابتلت أرباب الإفك والبهتان بالوقوع فى ظلمة: (من حفر بئرًا لأخيه وقع فيه) حتى استقر له هذا المنصب الرفيع الشأن القويم البنيان مع شرف خلقه: ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(٢)].

ثمّ إنه لمّا كان مقتنعًا حسب دواعى همّته العالية وأسباب نسبته السعيدة بقوله: (إن الله يحب معالى الأمور ويبغض سفاسفها) مصغيًا إلىٰ مضمون دستور أعاظم الوزراء والأمراء وهو قوله:

إن كنت تطلب رتبة الأشراف فعليك بالإحسان والإنصاف

جاعلاً العمل بالآية الكريمة ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٣)].

شعارًا له ودثارًا. فقد أرجعنا إليه منصب أشراف الديوان الأعلى الذى هو من أعظم أمهات مهمات مصالح السلطنة العظيم والذى هو رتبة يجب أن يميز فيها انضباط مهام الخلافة النظامية وتبان فيها مراسم الرفاهية بين الأنام بنوع لا يتصور فيه مزيدًا للتصور والتعقل أكثر من ذلك.

---

(١) والأصل الفرسى لهذا البيت هو:

طالب ثابت قدم انكى بيد در كوى دوست رونكود اند اكر شمنبر بار دبرسرش

(٢) سورة النحل - من الآية ١٢١.

(٣) سورة الشعراء - الآية ٢١٥.

فلا جرم إذا ما ادّعت المكرمة الخسروانية الكاملة وفرط المروّة السلطانية السامية، بأن أيادى تربية مناهج انتظامه المستمرة ومصالح ناموسه واسعة سوف تسير بنوع تكون هى صحائف أعماله وجرائد آماله بعد مرور الدهور، كما ستكون دستوراً صادق الإخلاص لأرباب المعالى الخواتين وللسلاطين الذين عليهم مدار فلك الملوكية فى عملهم لرعاية الرعايا.

والصدق يمن ومنجاة ومحمدة   فيه الكرامة والإقبال والشرف

والكذب أجمعه كفر ومحرمة   والصدق سلم وإيمان ومعترف

والآن اعتناءً بشأنه وجزاءً لإحسانه، فإن الحكم السلطانى العالى المطاع قد نال عز الإصدار والنفاذ بتمكن العنايات والاصطناعات الخاقانية الرفيعة، فعلى الوزير أن ينظم صحيفة أعماله بتعيين صناديد الأمراء المشهورين، وينصّبهم فى ديوان الإمارة الجليل، وليكونوا من الخبيرين المستحضرين لمهمات هذا العمل السلطانى الكبير.

وعلى كل فرد من المتصدين للأمير والأعمال السلطانية أن لا يلوون عن طاعته ومثاليته فى كل ما يراه صلاحًا وصوابًا، إذ لابد وأن يكون ما يراه هو عين الفكر الحسن والرأى السديد، فإن محضره محضر خير البتّه، وأن يقدم كل من شاغلى أعمال ديوان الخلافة من الصدور العظام والوزراء ذوى الاحترام وساير متقلدى الأعمال ومما بيدهم مقاليد قوائم العرش من وضيع وشريف وصغير وكبير بالنسبة إليه كل شروط الاستخدام ووظائف التبجيل والاحترام، وأن لا يفتروا دقيقة واحدة من الدقائق عن إعزازه وإكرامه.

أمّا هو فعليه أن يصدق فى نفسه مفهوم كلام أردشير بابك حيث يقول[١]: «لا مُلك إلاّ بالرجال ولا رجال إلاّ بالمال ولا مال إلاّ بالعمارة ولا عمارة إلاّ بالعدل. وأن يغتنم قول: (أفضل المعروف نصرة الملهوف)».

(١) إن هذه الجملة مترجمة عن الفارسية، وقد كانت فى الأصل إشارة إلى هذه الجملة بكلمة واحدة وهى (بالعمارة) فقط وبعد البحث وجدنا العبارة كلها هكذا.

وخلاصة المعنى: أن يلحظ وينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[1].

وأن يختم صحائف أعماله بتقويم العدل والإنصاف ويعنونها بقوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾[2].

وأن يجعل أمامه ومقتداه فى تصفية آراء مقاصد أمور الملك وتزكية آمال الطوائف والرعايا فى المملكة فحوى قولهم: «بالإنصاف يصلح الرعية وبالعدل يملك البرية»، وأن يتخذ مشكاة شفقته المنيرة ومصباح إنصافه المستنير شمع بستان حسن عاقبته المحمودة.

فليسرّ على هذا المنهاج القويم والصراط المستقيم بطريقة يستحسن معها الجواب عند السؤال لدى الخالق والخلائق، وليزّين هذه الجملة برفيع أشرف توقيع أعلى، وليعتمد عليها.

* * *

(١) سورة النساء ـ من الآية ٥٨.

(٢) سورة ص ـ من الآية ٢٦

- ٣ -

منشور السلطان ألب أرسلان إلي أحد أولاده عندما منحه حكومة قيـلان[1]

لما كنا نشاهد على تجدد الأيام وتعاقب الأعوام من محاسن أخلاق ولدنا الأعز الأعظم متعنا الله بطول عمره ووفور استحقاقه وكمال تفرده واستقلاله ومخايل عزه وإقباله، وذلك الولد الذى هو ثمرة دوحة الدولة وغصن بستان السلطنة وعنوان صحيفة الإقبال وواسطة عقد الملوكية وزهرة روض الفضيلة الإلـهية وفارس ميدان المملكة وسوار يد القوة والقدرة وعضد العدل ونور عين المكرمة.

ولما كنا نعاين من توشحه بالنور السلطانية واستعداده لارتقاء المدارج الملوكية الخسروانية حيث لا استطاعة لغيره الوصول إلى ذروة كماله الأعلى قدّم أباطيل الآمال ولم يمكنه أن يقبض على ذيل جلاله الأثيل أضاليل الأمانى. أحببنا أن ننعم مرّة ثانية على مثل هذا الولد الذى هو زينة كل المسرّات ومطمح نظر الأمانى والغاية المقصودة فى الدارين وسلوى القلب ولذة الشفاه ومسكن الروح، وأن نتحفه بهبة جديدة، وأن نضيف إلى مجلس حكم ذلك الولد المالك للقلب والذى قصر مجال البحار والمعادن بعد أن ضاقت عن بلوغ ما فى طبعه وخاطره الفيّاض وقلبه الرحيم ويده المبسوطة السخيّة وهمّته العالية وقدره السامى.

لذلك فقد وهبنا له بموجب هذه المقدمة مملكة قيلان التى كانت مملوكة لغيرنا وقد ملّكناها الآن ملكًا شرعيًا مطلقًا وهى من البلاد الممتازة والمواضع المختارة

---

(١) أبو القاسم أبو اغلى حيدر: مجموعة الإنشاء. كتابخانة ملى/ مخطوطة رقم ٣.

من إقليم (خوارزم) لذلك الولد على سبيل الملكية له وأجرينا له حكم نواب ديوانه وتصرفاتهم ـ حماهم اللّه ومكّنهم.

ونرجو من فضل اللّه تعالى أن ينقطع من حضرتنا وأن يوافقه التوفيق مع مساعدة الزمن وترادف النعم، لكى نرفع حشمة هذا الولد الغالى المستحق لكل تربية والأهل لكل عطية وأن نوصله إلى منتهى الهمّة ونبلّغه قصارى مهمته التى لا يمكن أن يكون لها حد وذلك من فضل اللّه، إنه ولىّ التوفيق والتيسير.

وإذا بالعناية اللانهائية الإلـهية الربانية عظُم وَعمّ سلطانه لأجل تربية غصن العدل والإنصاف وتنمية أعمال الملك بأصل الجبلة ومبدأ الفطرة قد حصل لنا داع قوى وجاذبية تامة لأن نوصى ولدنا الأسعد عن طريق الشفقة الأبوية بالوصايا الملوكية، لتأوى الرعايا إلى ظل رحمته ورأفته ولينشر جناح جميله وإسناد ترفيهه على حال هؤلاء الدعاة له وليذيقهم لذة الأمان وحلاوة الإنصاف.

وليلوى عنان إشفاقه ورحمته إلى جهة مصالحهم حتى يكون نوابه مسرورين بامتثال وتبليغ أوامره كأنهم لا يعرفون سوى طريق الصدق وجادة العدل، ولايعدّون أقصى ذخيرة حسن الذكر فى باب التعظيم والإكبار إلاّ قليلاً ثم لا يعدلون عن القانون المعهود والرسم القديم فى تحصيل أموال الديوان أبدًا، وبذلك فسينال من حضرتنا ومن الزمن حسن الأحدوثة المجددة لحياة الملك ودعاء الخير المؤكد لقاعدة الدولة والثناء الجميل المسبّب للسعادة، والثواب الجزيل المنتج لكمال الإقبال والسيادة.

وهناك سيعرف أعيان المملكة وأشرافها وأرباب الملك والدهاقين والزرّاع وأرباب الحرف وسائر طبقات الناس من النواحى ـ أحسن اللّه حياطتهم- أنه المالك لهذه الناحية، ويعلم نواب الديوان أن ولدنا الأمجد الأسعد ـ مدّ الله

فى عمره - هو المتصرف فى تلك البقعة ولا يجهل رعايا ذلك الموضع رئاسته - رعاهم الله - أنهم المأمورون بإطاعة ذلك الجناب ومتابعة أوامره - لتصل حاشيته المختصين بالحكم على الرعايا إلى غايتهم المعهودة إليهم حسب الإمكان فتجبى لهم أموال المعاملات دون أى فتور أو تقصير أو تأخير.

ولأجل هذا الاختصاص الذى حملوه وهذه السعادة التى ساعدتهم وهذه الدولة التى حصلت بأيديهم يجب عليهم أن يسجدوا لله شكراً، وأن يؤدوا حق اشفاقنا عليهم بالدعوات الصالحة وأن يمتثلوا حكمنا ليستحقوا زيادة الترفيه والراحة - والله أحكم وهو خير الحاكمين.

* * *

- ٤ -

منشور السلطان ألب أرسلان في إقطاع قهستان وتوابعها ونواحيها إلى الأمير عبد الملك أحد أمراء الديوان تقديرًا لحسن خدماته

إن من أعانته السعادة الأبدية على تمهيد قواعد المقاصد فقد وفقته ورافقته التأييدات السماوية فى تأكيد مبانى العالم لأن صنع الله مثال طاعته، وطاعته مرشحة بتوقيع قوله: ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(١).

ولقد شرح اللّه عنايته الإلـهية وتعظيم قدره وتنويه ذكره بقوله: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(٢).

ثم جعل القدرة والنصرة فى دفع الأعداء ونفع الأحباب مقرونة بالرأى والرويّة، فعليه أن يرى الواجب عليه هو العمل بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(٣).

فى كل تصاريف الأحوال وتضاعيف الأعمال. فإنه متى عقد الإحرام فى خدمته ومدّ إليه يمين طاعته وارتقى إلى التمسك بحبل دولته المتين وعمل بشرايط الإخلاص والطاعة وقام بوظائف الخدمة، فإن دواعى المهمّة الملكية ومساعى الكرم الخسروانية لابد أن توفر عليه الإنعام والإكرام مقربة له مرحبة به وذلك بمقتضى قوله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾(١).

(١) سورة النساء ـ من الآية ٥٩.

(٢) سورة الشّرح ـ الآية ٤.

(٣) سورة الزلزلة ـ الآيتان ٧، ٨.

لتظهر على جبهة أحواله ثمرة الإخلاص وسعادة محبة الاختصاص. كما أن من خرج عن ربقة الطاعة ومقتضى الأمر ثم مسافة الزمان إلى خذلان العصيان فقابل سوابق الحقوق بكفران العقول حتى غمر قلبه وخاطره سوء الطالع والشقاء، فإن العزم السلطانى الثاقب المخصوص بالمهابة ستحركه بواعث السياسة والحميّة نحو الواجب: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[2].

فهاتان القاعدتان إن استمرتا، وهذان القانونان إن استقرا فسيلقى كلّ منهما جزاءه وسيحصد كلّ ثمرة زرع عمله وستمضى فتوى كلام اللّه تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [3].

وسيميّز الصديق الموافق من العدو المنافق..

وعلى هذا فلابد وأن تعلّم قوّة الحاكم الواعى بطراز المنى وأن تحصل مقاصد الأمانى على أحسن الوجوه، كما سيظهر اتفاق الرعايا من قاص ودان ومطيع وعاص على امتثال الأوامر، وستزداد طاعة العباد ساعة بعد ساعة بحكم سياق هذه المقالة وبمقتضى هذه الحالة، لأن اللّه تعالى عمّت نعمته وتمّت كلمته قد جعل سلطنة الأرض لنا فإن: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[4]

ثم فتح خزائن رحمته أمام وجوهنا ونثر دقائق نعمته على رؤوسنا حتى بلغت جبروت مملكتنا الى درجة: (لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، ثم تكرّم علينا بالقدرة على مراعاة ومداراة خدامنا والقوة على جزآء من يسىء الظن بنا ويعصى أمرنا ـ والحمد للّه على ذلك.

فإن من واجب الحصافة والكياسة أن نجازى من خرج عن الطاعة بلائق جزائه وأن نكافئ من أظهر الخدمة بالسوابق المرضية حسب استحقاقه فتوفّر عليه بمقتضى حقوقه ليزيد فى شكره ـ والشاكر يستحق المزيد.

---

(١) سورة الأنعام ـ من الآية ١٦٠.

(٢) سورة النساء ـ من الآية ٦٢.

(٣) سورة الإسراء ـ من الآية ٧.

(٤) سورة الأعراف ـ من الآية ١٢٨.

وبناءً على هذه المقدمة فإن جناب ذى الإمارة والمناعة صاحب الشوكة والجلال والرفعة، العظيم المقام الأمير عميد الملك، أدام اللّه تأييده، وإن كان من الأمراء الشهيرين والقواد المعروفين فى العالم والمقدمين الممتازين فى مضمار سباق أعاظم الرجال والمبرزين فى صف كماة الدهر وشجعانه فإنه مع هذه الصفات الجليلة من شجاعة ونبل ومبارزة ثابت القدم فى خدمتنا وطاعتنا، وله حق الخدمة حيث تواصلت سوابق طاعته بلواحق خدمته كما كانت لأجداده عندنا المنزلة المرموقة والمحل المغتبط والدرجة العالية والمنصب الرفيع، وإن فى هذه الخدمة لنا طوال تمكنّه من مسند الإمارة بسعادة عاطفتنا ويمن تربيتنا على تعاقب الأيام وترادف الأعوام فقد كان قائمًا بجميع أنواع الخدمات المرضية والطاعات المتمثلة التى كنا نعهدها من عادته المحمودة يوم كان يشفع الذرايع بالشوافع فى استعطاف رأينا. لذلك فقد كان سعيدًا عندما حاز مكانة من التصور فى خاطرنا المبارك حتى ذكرناه. وقد قررت عزيمتنا أن نراعى بوفور الاعتناء حقوقه الأكيدة ليكون محمودًا من بين أقرانه مغتبطًا لدى أكفائه.

والآن نظرًا لخدمات ذلك الجناب الآمر الشجاع فقد سلمناه ايالة قهستان وتوابعها ونواحيها على أن يعرض منافع هذه البقعة وأموالها ومحصولاتها وخراجها على الديوان الأعلى أعلى اللّه شأنه، وقد فوضنا ذلك إليه على سبيل الإقطاع وقد أرجعنا الحل والعقد وسلّمنا مفاتيح أمر ونهى تلك المواضع إلى خصاله الحميدة وخلاله المرضية.

ونظرًا إلى العاطفة الملوكية والحفاوة السلطانية فإنّا ننصحه نصيحة المشفق عليه ليكون فى جميع الأوقات والحالات ظاهرة وباطنة متحليًا متمسكًا بالتقوى التى هى العروة الوثقى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١).

ليكن دائمًا متذكرًا وحدة ذلك اليوم الذى يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه، وذلك عندما يرى بيمن خدمتنا ما حصل لديه من الخدم والحشم والقوة والقدرة. وليكن ساقيًا مرويًا غصن دولته بدوام شكر نعمة اللّه تعالى وإقامة شروط خدمتنا.

---

(١) سورة البقرة - من الآية ٢٣٣.

وأن يشمل الرعايا ومن تحت يده من أهإلى تلك المواقع الذين هم من عباد الله، ومن الدعاة لدولتنا والمقيمين لديوانه بالملاحظة وتيسير الأوامر عليهم، وبالعدل الذى فيه رضا البارى تعإلى، لأن العناية بحق هؤلاء الفقراء ورعاية جانبهم المحبوب لدى العقل والوجدان والفطرة، كما أن من قصّر فى أداء وظيفته المطلوبة بالنسبة إلى ايالته فهو مسئول مؤاخذ بمقتضى وارد الحديث: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

فاللازم عليه أن يتمسك بعروة العدل الوثقى فى استبقاء دولته واستدامة نعم الله عليه واستقامة أحواله، وأن لا يجعل نفسه هدفًا لحالة قلوب المساكين والآهات فى السحر من دعاء المظلومين فقد ورد: (اتقوا دعوة المظلوم فإنها تخرق الحجاب).

وليوص النواب أن يعفو الرعايا عن الرسوم المجهدة الخارجة عن رسوم الدولة المقررة، وأن لايكلفوهم فوق طاقتهم ودرجة تحملهم إذ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

وأن يجعلوا أموال الديوان بكل رفق وهدوء، وأن ينهضوا بالرعايا قبل أن يسقطوا فإن التعجيل يوجب التنفير ولا يثمر التوفير.

وليحسب هذه الأوامر والإشارات والإرشادات من مفاخر دهره وينظرها بعين الطاعة والامتثال ليحظى بشرف اعتمادنا وامتثال أوامرنا ولتزداد رغبتنا فى إكرامه وإعزازه وراحته.

والله يوفقه لتقبّل ما أوصيناه عليه وقبول ما هديناه إليه والله الموفق الميسر.

هذا وعلى الرؤساء والأعيان والرعايا من سكان تلك المواضع أن يعلموا أنه هو الدال علينا والمنقطع الينا والمرجع والمآل الشريف من قبلنا فلا يتجاوزوا حدود الانقياد لأوامره وطاعته فإن طاعته مقرونة بطاعتنا ورضانا وليحترموه ويوقّروه لتظهر لهم مكارم أخلاقه وحسنْ شفقته وليستحقوا مزيد الرآفة ويستوجبوا دوام العطف.

إن شاء الله وحده العزيز.

(١) سورة البقرة ـ من الآية ٢٨٦.

- ٥ -

منشور السلطان ألب أرسلان إلى قاضى الإسلام(١)

إن أجمل خصلة مرضية لأرباب الدولة وأحسن عادة محمودة لأولى الأمر من السنن السديدة التى تعطف عنان المصالح إلى جانب الصواب وتهتز لها أعطاف الممالك وتقوى بحسن مظاهرها الأعضاء الظاهرة وتثبت بيمن مؤازرتها أقدام الدولة لهى تربية الدين الحنيف وتثبت دعائم مهماته وتمشية أموره، لأن قوام أعمال الشريعة ودوام نظام المملكة توأمان واطراد أعمال الأمة مع اتساق أحوال الحكومة متلازمان كما أن حراسة الخالق هى المظهر لرونق الإسلام. أمّا إهمال مصالح الأمة فهو بلاشك مخلّ بنظام المملكة والإخلال بأركان الشريعة مستأصل لقواعد الدولة، وإلى هذا أشار صاحب الرسالة ببيانه الشافى حيث قال:

«المُلْك أسّ والدين حارس فما لا أسّ له فمهدوم وما لا حارس له فضايع».

ومن عادات الملوك الحميدة أنها لاترى سنّة من السنن هى أقدم وأولى من الاكتفاء بالأمور الدينية وضبط المصالح الشرعية.. تلك السنّة التى توجب دوام الإقبال وفراغ البال فى الدنيا وتثمر النجاة ونيل الدرجات فى الآخرة وأنها لا ترى من المهمات الدينية مايستحق صرف العناية والاهتمام أحق من ترتيب أعمال القضاء، وإحكام قواعد الأحكام لما فى ذلك من صيانة جملة من الأمور والأحوال العامة كحفظ الفروج والدماء والأموال، ولأن تحقيق وجوه الحلال والحرام وإثبات حقوق الخواص والعوام متعلق بمقتضى رأى متولى ذلك القضاء

(١) أبو القاسم أبو اغلى حيدر: مجمع الإنشاء رقم ٣.

الذى هو نائب المصطفى، كما أن مدار مصالح كافة أهل الإسلام من جواز المعاملات والمناكحات وتقرير المخاصمات والمصالحات وغيرها منوطة بنفاذ حكم الحكّام الذين هم حرّاس الدين وأمناؤه، فإذا تطرق الخلل والعياذ بالله إلى أعمال القضاء فقد ظهر الوهن فى قواعد الأمور الإسلامية واشتعلت نيران الخصومات وتبددت عقود المصالح وأصبحت أموال المسلمين عرضة للتلف والضياع وعقارهم وضياعهم معرضًا للسلب والنصب وتعطّل الحلال والحرام وتسرّب الفساد إلى مصالح الدنيا والآخرة.

وحيث إننا بحمد الله قد شملتنا معرفة هذه الأمور الدقيقة فقد فوضت إلينا التأييدات الربانية تحفة رعاية هذا الخلق وأنعمت علينا بهذه الخطوة وقُرّت عين المملكة بإقرار دولتنا وجعلت قلوب الخلائق مشمولة بعواطفنا، لذلك جعلنا عين رقابتنا على مصالح الدين المحمدى وطرّزنا لباس العدل بتطبيق هذا المهم العظيم ولم نرض قط فى أى حال من الأحوال بإهمال مجلس القضاء أبدًا.

وقد كنّا فوّضنا هذا المحل الشريف والمنصب المنيف فى أوائل عقد هذه الدولة وفى تباشير عهد هذه السلطنة فى جميع الممالك إلى الأب الشريف الأعقل الأفضل الأعلم دام شريفًا والذى كان رأس سجل الأئمة والأمم ونقيب صدور مشايخ العالم، من امتازت ذاته الشريفة فى أصناف المآثر على أماثل الدنيا وأعيانها، وتفردت فى قبول المناقب عن ساير الأقران فكان لائقًا لهذه العاطفة الملوكية ومحلاً لهذه المرحمة الخسروانية، ولقد أمضى عنفوان شبابه الذى هو خلاصة العمر فى الخدمة والدعاء لحضرتنا، كما ازداد رونق هذا العمل الخطير وظهرت طراوته من البداية إلى النهاية بتلك الذات العديمة النظير وتمتّ مصالح المسلمين مرضيّة منقّاة بإفاضات أحكامه وإفادات إصلاحاته فى بسط الولايات وتعميرها.

والآن حيث قضى منه عهد الشباب فى الدعاء لبيتنا العامر فقد كتبت له يد الدهر فى زمن كهولته حليفة قواره واستقراره متوجهًا من دار الاجتماع إلى

طريق الوداع وسلّمه تعاقب الأحوال وتجدد الأطوار صحيفة مسببة بيده حتى أثّرت أعراض الشيخوخة فى حركاته وسكناته تأثيرًا عظيمًا. واقتصرت همته على الخلوة والانزواء، ورفض الأغراض والأهواء ونفرت طبيعته كل عمل يشغله عن ذكر الحق مخاطبًا هذا الخلق بقوله ﴿ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1]. منشدًا:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فى مثل هذا الوقت أنهى أمره إلى حضرتنا بواسطة أركان الدولة ثبّتها اللّه ومكّنهم ورفع إلينا استرحامه مستعفيًا من إشغال هذا العمل الخطير. وقد عيّن بعده لذلك العمل زبدة أولاده وقدوة أحفاده والذى هو زهرة روضة فضله وثمرة دوحة أصله أعنى به جناب أقضى القضاة. الفضلاء ناصر الدين أدام اللّه تمكينه وزاد فى فهم الأحكام يقينه فرع أصل العلم وثمرة حقل الشرع وجوهرة معدن الفضل من كان ينوب عن أبيه فى تكفلّ هذا العمل العظيم وإجراء القضاء المرسوم بدلاً عنه صارفًا كل عنايته فى هذا الأمر.

وقد طلب إلى حضرتنا ورفع رجاءه إلى أعتابنا متوسلاً إلينا فى تنفيذ أمره بحق خدمته ودعائه وباستحقاقه وكمال أهليته جاعلاً ذلك وسيلة لإجابة ملتمسه.

وحيث كنا نحن قد اختبرنا ميزان أفعاله فى المملكة وجدنا سيره وسيرته فى تلك الأيام المتطاولة، وعرفنا على الحقيقة مقدار تحرّجه فى المصالح الدينية وتوغله فى العلوم الشرعية وأيقنّا أنه المستقر فى قرار العفّة والمتحلى فى دهره بوقار الشيوخ وسكينتهم والمولع الحريص فى تعويد جسمه وقلبه على التعبد موزّعًا أيام عمره على أنواع التورع مقصرًا جوامع همته على تقصير يد المعترض على أحكامه لتكون آيات الحق الظاهرة مؤيّدة بآيات الشرع المنيف.

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٩١.

فبمقتضى رأينا الأنور فى اتضاح استحقاقه والتماس أبيه الشريف دامت بركاته وبعد الاستمداد من الفضل الربانى لتكون خواتم الأعمال موصولة بالخير مع فواتحها والآراء المشرفة فى إمضاء العزائم بتفويض الأعمال إليه مقرونة بالاصابة: (وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1].

فقد أرجعنا قضاء جملة الممالك زادها الله بسطة إلى المشار إليه بعد أن دلت على كمال استحقاقه لهذا المنصب دلائل واضحة حيث لم يرتب فى ذلك أى قادح أو مفنّد، كما فوضنا إليه أمر المساجد والأوقاف التى كانت توليتها بيد القضاة الأقدمين لا سيما مسجد الجامع الجديد وأوقافه، وكذلك أسندنا تمام مهمات المصالح والاهتمام بهذا العمل الكبير إلى وفور أمانته وديانته التى تفتح بميامينها أبواب المقاصد.

وهو وإن كانت خدمته مع العلم الشامل الشافى والعقل الكامل الكافى مستغنية عن تعديد الشروط وتحديد مراسم هذا العمل لابتناء كل أفعاله وأقواله على قواعد الرشاد والسداد ولكن ليتضح بيان تلك الأمور والأبواب لدى نوابه ذلك. وليجعلها هو فى مراسيمه التى يكتبها لهم أمامه ولتكون دقائقها ومحتوياتها كمقرر خفى لم يزل يذكره ولا ينساه.

وهنا نورد له كم نقطة هى سناد العلماء والعقلاء وبها تتم عموم الفوائد والعوائد لكى يتزين بالتقوى التى هى وسيلة النجاة فى العقبى وسبيل السعادة العظمى فى الدنيا ولذة أهل المعنى فى سرّ فعله ونيته وعلانيتهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[2].

فان الدنيا تغرى الإنسان بزخارفها حتى تغطى على الآخرة: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾[3].

وإن خشية الله الواجبة على كل أحد هى على العلماء الحائزين لمواهب

(١) سورة غافر ـ من الآية ٢٩.
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ١٠٢.
(٣) سورة القصص ـ من الآية ٦٠.

المعرفة والمرتدين خلع الكرامة أوجب: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾(١).

وإن من أخر قدمه عن طريق ارتكاب المعاصى خشية من الله وجذب عنان شهواته من يد الطبيعة فسوف يقف: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾(٢).

فى صف رجال العمل ويصبح فى زمرة السابقين الأولين ويصل إلى الدرجات الكريمة فى جنات النعيم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(٣).

فليجرّد نفسه عند استماع الدعاوى وفعل الخصومات وإجراء الحكم من الأغراض النفسانية والأغراض الإنسانية وليتبع فى ذلك حكم الشريعة رافضًا مطاوعة الهوى وميل الطبيعة مفترضًا فى حكمه الصدق والأمانة مطبّقًا مضمون الباطن على الصورة الظاهرة فى أفعاله وأقواله معتقدًا أن مكنون الضمائر لا يعامل عليه إلا: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾(٤).

وأن جزاء عمل الخير والشر سوف يعطى للمحسن والمسيء من خزانة الفضل والعدل الإلهى يومذاك: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(٥).

وعليه أن يستنتج مشورة الطبع العقيم بلوامح الإرشاد ويهدى الخاطر السقيم بالمداراة والكياسة ويكشف صحة المعرفة بالمكالمة ويفصح خفى العلوم بالاقداح.

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريشُ الخوافى قوّة للقوادم

(١) سورة فاطر ـ من الآية ٢٨.
(٢) سورة عبس ـ من الآيتان ٣٤، ٣٥.
(٣) سورة النازعات ـ الآيتان ٤٠، ٤١.
(٤) سورة الطارق ـ الآية ٩.
(٥) سورة الزلزلة ـ الآيتان ٧، ٨.

ولينظر إلى قوله تعالى فى حق أكمل الخلائق وأفضل الموجودات من رزانة العقل ومتانة الرأى، وكيف لم يرض له الاستبداد بالرأى بل أمره بالاستعداد من آراء أصحابه حين أمره بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[1].

وأن يفتح باب مجلسه لأرباب الدعاوى وأصحاب الدواعى، وليعمل بموجب قول النبى (عليه أفضل الصلاة والسلام) عند استماع كلام الحكمين حيث يقول: (إذا اختصم إليك اثنان فاحكم بينهما فى الخط واللفظ). وبالجملة فإن خاطرنا الشريف لم يلتفت إلاّ إلى أن يكون الجانبان لديه على السواء، تجنبًا كل ترجيح مشوب بغرض أو تفضيل منسوب إلى رشوة وأن لا يتجاوز حد المساواة فى الحكم بين الشريف والوضيع والغنى والفقير وقد قال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2].

وذلك ليسعى ذوو الحاجات بكل قوة قلب واتساع أمل فى استنتاج مقاصدها واستفتاح أبواب طلباتها وحاجاتها حتى تحظى بثبوت حقها عن طريق الشرع المنيف.

وأن يحترز من تنفيذ الحكم بالعجلة التى تخرج الباطل بصورة الحق وتبعد الرأى الصحيح عن موارد الإصابة وتجانب الطبع النفّاذ عن مواقع التحقيق، ولا أن يكون التوقف والتثبت بعد نضوج البيّنة ووضوحها وتقديم شروطها إلى حد يستولى بسببه الشبهات ويكون هذا التردد فى سوء الظن بالحقيقة والصواب فإنه غير محمود لأن أكثر الأفعال إذا تجاوزت حد الكمال مالت إلى جهة العيب والنقصان (وخير الأمور أوساطها).

(١) سورة آل عمران ـ من الآية ١٥٩.

(٢) سورة النساء ـ من الآية ١٣٥.

وأن يحتفظ بالأمانة ويصون الودائع التى تودع لديه من حجج ووصايا وأوراق مصالحات وصحائف قرارات وأمثالها، وأن يتجنبها من كل تصرف غير مشروع حتى يرجعها إلى أصحابها عند طلبهم إيّاها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1].

وأن يختار لمجلس القضاء عمالاً لهم سابقة فضل يستحقون بها تفويض تلك الأشغال الدينية إليهم وذلك بعد اختبار قابليتهم لحمل تلك الأمانة العظيمة، وليكن تحقيق حالهم مقدمًا على تقليدهم ذلك العمل لأن معرفة أهليتهم وحسن سجيتهم منوطة بالتجربة، ومن ينوب عن القاضى العدل يجب أن يكون إلى المعرفة والعلم أميل وفى حكومة العدل أعدل حاويًا وعيًا تامًا وفضلاً وكمالاً ودينًا صحيحًا ومعرفة بدقائق العلوم التى تؤهله لتكفل هذه العمدة وتقبل هذه العهدة.

أمّا كاتب العرائض والقبالات فيجب أن يكون مكسوًا بالديانة متذرعًا بشعار الورع عارفًا بشروط التحرير واقفًا على مرسوم المقالات الشرعية لدى المحكمة ماهرًا بأساليب الكتابة وإصدار السجلات: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾[1].

ولينتخب وكلاءه ممن لهم خبرة بالعلوم الدينية ليطلعوا على أسرار الدعاوى الشرعية ويضطلعوا بتقارير رجال الحكومة وتصوير صور الوقائع.

وبهذا الترتيب سوف تزداد هيبة مجلس القضاء ويحصل الثواب والثناء لمن يطلب سعادتى دولتنا وعصرنا.

وليعلم أن هذه الأمور التى ذكرناها وعدّدناها لهى دعائم العمل وبها ينشر صيته ويخلد ذكر اسمه بالحسنى.

---

(١) سورة النساء ـ من الآية ٥٨.

(٢) سورة البقرة - من الآية ٢٨٢.

إذا ما شاع ذكرك فى البرايا فإن جميل فعلك فى خلود

وأن ساكنى هذه الدنيا إذا ما سلكوا طريق الشرع كانت غايتهم الذكر الحسن بل وحتى الأنبياء المختارين من قبل الله تعالى والعالمونه بأنهم على حق مع تلك الهيئات الربانية فإنهم لايزالون يبتهلون إلى الله تعالى فى الفلوات بذيوع اسمهم وصيتهم الحسن بين الناس ويجعلون ذلك نسيمًا لنعيمهم فى الجنان: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1].

وليعلم أن هذا العهد الذى عددنا منه نعمة ديانته وأمانته سيكون: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[2]. جوابًا لنا عند الله.

هذا وإننا كما نتتظر من حسن سجيته ويمن رويته وصدق نيته وكمال أهليته تقبل أوامر هذا المرسوم وقبول وصايا هذا المنشور فإنّا ننتظر منه أن يسعى بقدر الميسور فى أن لا تفوته دقيقة من دقائقه وأن لا يدخر وسعًا فى تنفيذها وإنجازها وأن يحصل بما يحصل له به حسن الذكر فى العاجلة والنجاة فى الآجلة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[3].

وبالغ العصمة والتوفيق.

«هذا ما عهدنا إليك ووثيقتنا لديك واقامتنا الحجج بين يديك فأعتبر هداها واجتهد أن تبلغ مداها ولا تتّبع النفس وهواها لتتنسم صواب السيادة الكبرى وتستنشق نفحات السعادة العظمى وتحوز ما هو بك أولى وتفوز بالآخرة والأولى، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ويوفق عباده على اكتساب آلاء العظيم».

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيتان ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة الانفطار ـ الآية ١٩.

(٣) سورة المزمل ـ الآية ١٩.

وعلى كافة الأعيان وأركان الدولة والمشاهير من تلك المملكة والعمال والرؤساء فى كل النواحى وساير طبقات الرعايا خصّهم اللّه بكمال عواطفه وأفاض عليهم سجال عوارفه، أن يعرفوه أقضى القضاة مطلقًا فى كافة الولايات الموحى إليها أدام اللّه تأييده وزاد تسديده، وأن يكونوا محتشدين على احترامه مسارعين إلى طاعته لاسيما الأمراء والكبراء من الخدم والخواص والمقربين، فإن اجتهادهم فى إشادة هذا النظام الدينى من موجبات نظام الدنيا، لتكون يده ويد نوابه مبسوطة فى تنفيذ الأحكام الشرعية، وإذا ما توسلوا فى طلب رضاه توصلوا إلى جميل شكره.

وعلى القضاة وحكام أطراف المملكة على تفاوت درجاتهم أن يعرّفوا أنفسهم أنهم نوابه ومختاروه، وأن ينفذّوا أمره وحكمه فى ضمهم وعزلهم فليطلبوا قضاء حوائجهم بتحصيل رضاه وليس لأحد منهم أن يحكم دون إجازته.

هذا هو أمر الباب العالى نصره اللّه تعالى فلا يستطيع أحد أن يعصيه حتى يقف فى امتثال هذا المرسوم على قدم المثول لتدوم لهم أسباب الراحة وتفتح لهم أبواب العطاء والرحمة إن شاء اللّه العزيز وحده.

تم بالخير وكتبت فى شهر محرم سنة ٤٥٧هـ ، والحمد للّه أولاً وآخرًا.

الإمضاء .

* * *

أولاً : الرسائل :

– ٦ –

(أ) رسالة السلطان جلال الدين ملكشاه إلى حسن الصبّاح[١]

أنت حسن صباح قد أظهرت دينا وملّة جديدة فأغريت الناس وخرجت على ولى عصرك فجمعت حولك بعض سكان الجبال ثم أغويتهم بكلامك حتى حملتهم على قتل الناس وطعنت فى الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام وبهم استحكم قوام الملك والملّة ونظام الدين والدولة. فعليك أن ترجع عن هذه الضلالة وتكون مسلمًا وإلاّ فقد عينّت لك جيوشًا وأرجأت توجهها حتى تجيئ إلينا أنت وجوابك. وحذار حذار على نفسك ونفوس تابعيك فارحمها ولا تلقيها فى ورطة الهلاك ولا تغتر باستحكام قلاعك ولتعتقد حقيقة أن قلعة (الموت) المستحكمة لو كانت برجًا من بروج السماء لجعلتها أرضًا يبابًا ولساويتها مع التراب بعناية الله تعالى.

الإمضاء

(١) عن مجموعة منشآت أبوْ القاسم أبو اغلى حيدر.

(ب) جواب حسن الصبّاح إلي السلطان ملكشاه السلجوقي

عندما ورد إلى هذه الزاوية حضرة الصدر الأعظم ضياءالدين خاقان وشرفنا بالمثال السلطانى أكبرت مراده على الرأس والعين ورفعت رأس الفخر إلى أوج كبوان أن ذكر السلطان هذا العبد وخطر على فكره.

والآن أشرح شيئًا من أحوالى واعتقادى متمنيًا أن يصغى السلطان إلىّ ويعيرنى فكره وأن لا يشاور فى أمرى أركان دولته لاسيما «نظام الملك» لأن عدائى وخصومتى معهم غير خافية على السلطان. ثم بعد ذلك لابد لى ولا مفر من اتباع رأى الملك المطاع الذى يحصل لديه كلامى ويتحققه من كتابى وإذا خالفت أنا حسن ذلك الرأى السديد فإنى أعدّ نفسى خارجًا عن دين الإسلام. أمّا إذا اتبع السلطان فى أمرى هؤلاء الخصوم فإنه يجب علىّ حينذاك أن أحتاط لنفسى وأفكر فى أمرى لأن أمامى خصم قوى يجعل الباطل حقًا ويضع الحق محل الباطل كما فعل كثيرًا ولاسيما بالنسبة إلىّ فلا يكن ذلك خفيًا عن رأى السلطان وفكره.

أمّا حال هذا العبد فإن أبى كان مسلمًا على مذهب الإمام الشافعى المطلبى، ولمّا بلغت الرابعة من عمرى أرسلنى أبى إلى المكتب لتحصيل العلوم ولم أبلغ الرابعة عشر حتى مهرت فى ساير أنواع العلوم خصوصًا. علوم القرآن والحديث، ثم جاء دور الدين فنظرت فى كتب الشافعى فرأيت فى فضل أولاد النبى (صلى الله عليه وسلم) وآله وإمامتهم روايات كثيرة فملت إلى جانبهم وأصبحت أفحص وأتجسس وأفتش عن إمام الوقت. ثم بلغ بى الحال بواسطة حكام العصر أن وقعت فى أعمال الدنيا التى يستكبرها ويستعظمها الناس حتى نسيت تلك الفكرة وغفلت عن ذلك الجد والعمل الأولى وأصبح قلبى كله

منصرفًا إلى الدنيا وخدمة المخلوق. أمّا عمل الآخرة فقد جعلته ورائى ظهريًا. ولكن اللّه تعالى لم يرض لى بذلك فحرّك علىّ خصمائى حتى أخرجونى منه بالقهر والاضطرار فهربت وسحت فى البلدان والصحارى وقد لحقتنى من ذلك أتعاب وزحمات كثيرة. كما لم يخف على السلطان حالى مع «نظام الملك»[١].

ولمّا أخرجنى اللّه من تلك الهلكة علمت أن الإعراض عن الخالق والتوجه إلى المخلوق لايثمر إلاّ كما أثمر لى، لذلك قمت بعزم الرجال إلى العمل الدينى وطلب الآخرة وانتقلت من الرى إلى بغداد وأقمت هناك مدة غير قصيرة حتى اطلعت على الأحوال والأوضاع وتفحصت عن حال الخلفاء وزعماء الدين فرأيت أن هؤلاء العباسيين خارجون عن مراتب المروءة والفتوة الإسلامية حتى أيقنت أن بناء الإسلام والديانة إن كان قائمًا على إمامة هؤلاء وخلافتهم فإن الكفر والزندقة أولى وأحسن من ذلك الدين، فغادرت بغداد إلى مصر وفيها خليفة الحق الإمام المستنصر باللّه ففتّشت حاله وقست خلافته بخلافة العباسيين فرأيته أحق فأقررت به ورفضت خلافة العباسيين، لذلك فقد أرسل بنو العباس إلى أمير الجيوش[٢] ثلاثة بغال ذهبًا عدا سواها من الأموال والهدايا وأوعزوا إليه أن يرسل إليهم حسن صباح أو يبعث إليهم برأسه، وحيث إن عناية المستنصر كانت تشملنى يومذاك فقد نجوت من تلك الهلكة.

ثمّ لمّا كان العباسيون قد حرّكوا أميرالجيوش وأغروه بالأموال ارتأى ترشيحى إلى الروم داعيًا للإفرنج والكفار إلى دين الحق. ولمّا سمع الإمام بذلك جعلنى فى كنفه وتحت رعايته ثم بعد ذلك دفع إلىّ منشورًا وأمرنى بإرشاد الناس إلى طريق الحق بكل ما أوتيت من قوة ومعرفة وأن أطلعهم على إمامة خلفاء مصر وحقيقتهم، فإذا ما نظر السلطان إلى سعادة: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[٣].

---

(١) إشارة إلى سعاية «نظام الملك» به عند السلطان ملكشاه حتى هرب من البلاط الملوكى.

(٢) وهو بدر الجمالى أمير الجيوش ووزيرالمستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر كان فى الأصل أرمنيًا، وفى سنة ٤٦٩هـ استوزره المستنصر وتوفى سنة ٤٨٧هـ قبل وفاة المستنصر بخمسة أشهر.

(٣) سورة النساء ـ من الآية ٥٩.

فلابد وأنه لم يعرض عن كلامى بل يقوم كما قام السلطان محمود سبكتكين بدفعهم وقمعهم[1] ليكفى المسلمين شرهم وإلاّ فسيأتى زمان يقوم غيره بهذا العمل ويدخر ذلك الثواب لنفسه.

ثمّ يتفضل السلطان بقوله إنك وجدت دينًا وملّة أخرى، نعوذ باللّه من ذلك - وأنا حسن صبّاح - بل إن هذا الدين الذى أنا عليه اليوم هو هو الذى كان فى زمن رسول اللّه ﷺ وأصحابه وسيبقى هذا مذهب الحق حتى يوم القيامة، والآن فإن دينى هو دين الإسلام. أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأشهد أن محمدًا رسول اللّه. لم ألتفت إلى الدنيا ولا إلى أعمالها بل كل عمل أعمله وكل قول أقوله لم يكن إلاّ خالصًا مخلصًا لدين الحق، وإنى لأعتقد أن أولاد النبى ﷺ أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم، فإن رضيت أنت (ملكشاه) أن تكون هذه المملكة العظيمة التى تحملت فى قبضها واستملاكها هذه الزحمات والمشقّات الكثيرة وبذلت نفوس هاتيك الجنود المجندة حتى ملكتها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن محاذاة القطب الشمالى إلى الهند تصبح خارجة من أيدى أولادك ويصبح أولادك مشردين فى أنحاء المعمورة أينما وجدوا قتلوا وصلبوا. أقول: إذا رضيت بهذا فسترضى بالخلافة لهؤلاء. فكيف ببنى العباس وهم أناس أذكر لك قليلاً مماشاهدته أنا بنفسى منهم فأقول: إنهم فى كل دين وملّة لا يرتضيهم كل أحد ولن يرتضيهم وإذا حصل من لم يقف على حالهم فيعتقد بهم ويرى أحقية خلافتهم فإنى قد وقفت على أعمالهم وأحوالهم كيف يسوغ لى أن أقبلهم وأعتقد بأحقيتهم؟.

---

(١) فى تاريخ الغزنويين أن السلطان محمود الغزنوى لما غزى الهند وتقدم منها فى أواخر عمره ثم قصد إيران والعراق وأخذ أصفهان والرى بعث رسولاً إلى الخليفة العباسى - القادر باللّه وطلب منه ألقابًا جديدة فتوقف الخليفة عن ذلك، فاستفتى السلطان قاضى قضاة بغداد - إذا غزى ملك بلاد الكفر واستولى عليها وكانت المسافة بين الخليفة وبينه كبيرة ولم يمكنه اطلاع الخليفة على أحوال تلك الممالك فهل له أن يختار أحد شرفاء بنى العباس ويجلسه بالنيابة عن الخليفة ثم يقتدى به؟. وعلى ما يظهرمن رسالة حسن الصبّاح أنه اختار («السيد علاء» للملك) فى خراسان أوغزنه ونصّبه خليفة. والتفصيل فى كتاب (سياستنامة، لنظام الملك) موجود.

فإذا كان السلطان بعد اطلاعه ووقوفه على هذا الحال لن ينهض إلى دفعهم ورفع شرهم عن رؤوس المسلمين فإنى لا أعلم كيف يجيب ربه يوم القيامة عندما يسأله عنهم؟ وكيف ينجو فى جوابه؟

هذا هو دينى منذ كنت ومادمت حيّا، لم أنكر ولا أنكر الخلفاء الراشدين الأربعة ولا العشرة المبشرة بل إن حبّهم فى قلبى كان ويكون وهو كائن ولم أجد دينًا جديدًا لم أكن اتخذته قبلاً ولم أظهر دينًا ومذهبًا لم يكن قبلى، وأن مذهبى هو المذهب الذى كان لدى الصحابة فى زمن الرسول ﷺ وسيكون إلى يوم القيامة.

والآن نأتى إلى القول بأنى وأتباعى قد عصينا بنى العباس وطغينا عليهم: إن كل مسلم مطّلع عارف بدينه وملّته، كيف لا يشنّع على قوم بدؤهم ونهايتهم كان وهو كائن وسيكون على التزوير والتدليس والتلبيس والفسق والفجور والفساد وإن أحوالهم وأفعالهم وإن لم تكن مستورة ومختفية على العالم، غير أنى أجملها لتكون لى الحجة على حضرة السلطان.

نذكر أولاً أعمال أبى مسلم الخراسانى، ذلك الرجل الذى سعى ذلك السعى الحثيث وتحمل تلك الزحمات العظيمة ولم يبق من عقله وتدبيره وقوته حتى قصّر يد ظلمة بنى مروان عن إراقة الدماء وأخذ أموال المسلمين وأزال عن بيت النبوة الطاهر ذلك اللعن الذى كان أليق بهم من آل الرسول، ورفع الظلم عن الدنيا، ثم أقامها بالعدل والإنصاف.

انظر إلى هذا الرجل المحسن كيف غدروا به حتى أراقوا دمه ظلمًا وقتلوا الألوف من أولاد رسول الله الطاهرين فى أطراف البلاد وأكنافها وخلّفوا الآخرين مشردين وفى الزوايا مختفين حتى خلع بعضهم ثوب السيادة حفظًا لأرواحهم ومات الكثير منهم على ذلك الحال ولم يعرفوا. ثم لم يبلغوا الخلافة (أى بنو العباس) حتى شغلوا بشرب المدام والزنا واللواط وقد بلغ فسادهم إلى أن هارون الرشيد وهو أعلمهم وأفضلهم كان يحضر النساء فى

مجلس شرابه، ولم يمنع ندماءه من ذلك المجلس حتى إن جعفر بن يحيى البرمكى الذى كان من المقيمين فى مجلسه قد تصرف أو قل زنى بأخت الرشيد (العباسة) وولدت منه ولدًا أخفوه عن الرشيد إلى أن حجّ فى سنة من السنين ورآه هناك فقتل جعفرًا. وكانت له أخت أصغر منها فائقة الحسن والجمال قد قرّبها إليه ذات يوم وزنى بها. ومن اللطائف المشهورة: أن الأمين بن الرشيد لمّا ولى الخلافة بعد أبيه قرّب هذه الجميلة إليه وهى عمته فزنى بها ظانًّا أنها لم تزل بكرًا، ولمّا سألها عن ذلك، أجابت: أى بكر فى بغداد لم يفضها أبوك حتى يدع أخته بكرًا.

وبالجملة فلو أردنا تعداد أعمال هؤلاء لما وفّى العمر بعددها، هؤلاء هم الخلفاء الراشدون وهؤلاء هم أركان المسلمين الذين بهم يكون قوام الملك والملّة ونظام الدين والدولة فلتعط النصف إذا طعنتُ بهم أنا أو طعن بهم غيرى، إنّا عصيناهم فهل هذا حق منا أم باطل؟

وأمّا القول: بأنّا أغرينا الجهّال، فإن من الواضح لدى أرباب البصائر أن ليس من شىء أشرف من الروح وما من أحد يعاف نفسه ولاسيما رجل مثلى قليل البضاعة قليل الاستطاعة فى إنجاز مثل هذا العمل[1].

من حدود خراسان جمع من غلمان السلطان ومن النظامية وأرباب المعاملات كانوا قد انحرفوا أكثر من هذا بين المسلمين عن العرف والمرسوم فبعضهم مدّ يده إلى عورات المسلمين وحريم الزهّاد والعباد حتى اختطفوا النساء بحضور أزواجهن وبعضهم خان معاملات الديوان ولم ينصفه. وكلّما استغاث الناس بأركان الدولة لم يغاثوا بل كان البلاء ينزل عليهم وعلى من تكلم وصرّح بحقّه.

هذا «نظام الملك» مدير المملكة ووزيرها قد قتل الخواجة أبا نصر الكندرى وهو الوزير الوحيد الذى لم يعهد مثله فى أى مُلك وفى أى عصر، إذ كان

(١) الظاهر أنه هنا قد سقطت عبارة تربط الكلام.

عاملاً ناصحًا وذلك بتهمة تصرفه فى أملاك السلطان وأمواله حتى أعدمه من الوجود. أمّا اليوم فقد أشرك معه الظلمة فى أعماله إذ كان الخواجة أبو نصر يقبض العشرة دراهم فيوصلها إلى الخزينة، أمّا هذا فإنه يقبض الخمسين درهمًا ولا يعرف النصف درهم من أعمال السلطان. أمّا ما يضيعه فى الطين والآجر فى أطراف المملكة فذلك أظهرمن الشمس. أين كان للخواجة أبى نصر من ولد أو بنت وهل صرف دينارًا واحدًا فى الخشب والطين؟. فهل لهذا العصر مع هذا العجز والصنعة أمل فى النجاة؟ فإذا ما اضطر أحدهم لرفع العار أن يبذل روحه ويتركها ليدفع واحدًا أو اثنين من هؤلاء الظلمة فليس ذلك ببعيد، وإذا فعل فهو معذور.

(وقت ضرورت جوناند كريز رست بكيرد سر شمشير تيز)[1]

فما لحسن الصبّاح وهذه القضايا وما حاجته بها وما هو نافع له إذا أغرى أحدًا وأي عمل من أعمال الدنيا يمكنه إيجاده ما لم يتعلق به تقدير سماوى.

وأمّا أمركم بأنى أترك هذا النوع.. وإلاّ.. نعوذ بالله أن يصدر منى عمل يخالف رأى السلطان ولكن لما كان لى أضداد وكانوا يسعون فى طلبى، اخترت هذه الزاوية وجعلتها ملجأ لى وسكنًا حتى أنهى حالى إلى أعتاب السلطان بعد السكون والدعة واستقرار البال. فإذا فرغت من أمر خصومى فسأتوجه إلى عتبة حضرة السلطان وأنخرط فى سلك خدامه لأعمل بكل ما أوتيت من قوة النصح بما أوجبته النصيحة من تحسين دنيا السلطان وما تبقى من أمر آخرته. أمّا إذا صدر منى خلاف، ولم أطع أوامر السلطان فسأكون ملومًا فى الدنيا مطعونًا من البعيد والقريب، وسيقال إنى خالفت ولى الأمر ولم أحظ بسعادة: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[2].

كما أن خصومى سوف يفترون علىّ عند السلطان بما لا علم لى به وينزلون

---

(١) يقابله بالعربية:

إذا لم يكن غير الأسنّة مركب فما حيلة المضطر إلاّ ركوبها

(٢) سورة النساء ـ من الآية ٥٩.

قدرى وحريتى لديه، كما يشهرون أعمالى على الناس بالسوء والشناعة، وإن كانت حسنة حتى يقضوا على سمعتى وذكرى الحسن.

وإذا قدمت على السلطان ومثّلت بين يديه مع وجود «نظام الملك» وخصومته لى وما عمله معى من الظلم، وما سيعمله غير مبالٍ بكل ذلك مضافًا إلى التزام السلطان بمتابعة بنى العباس وعدم مخالفته أوامرهم ونواهيهم ومع علمه بسعيهم الخبيث فى طلبى والقبض عليّ حتى ذهبت إلى مصر ولم يظفروا بى فى الطريق رغم كثرة رسلهم خلفى وجواسيسهم علىّ حتى خدعوا أمير الجيوش وأقنعوه بالأموال ليقصدنى ولولا عناية المستنصر بالله الخليفة الحق لكنت من الهالكين.. وأخيرًا أرسلنى أمير الجيوش إلى الإفرنج من طريق البحر لأدعو الكفار إلى الحق، وبفضل الله نجوت أيضًا من تلك الورطة، ثم توجهت إلى العراق بعد جهد جهيد وبعد تلك المشقّات والزحمات وكان بنو العباس لم يزالوا ساعين فى طلبى.

واليوم وقد بلغت هذا المقام وأظهرت دعوة الخلفاءالعلويين وحصلت على عدد من المجتمعات فى طبرستان وقهستان والجبال، واجتمع حولى كثير من الأحباب والمؤنسين والشيعة والعلويين حتى أصبح بنو العباس يخشون جانبى ويخافون سطوتى، وإذا ما تغيّرَّ مزاج السلطان علىّ وسعى فى قصدى لإمكان طلب العباسيين إيّاى منه. فإنه لا يعلم ماذا سيكون وماذا سيحدث. وإذا حدث شىء على أى نوع كان فإنه لا يخلو من شناعة إذ لو أجابهم السلطان إلى طلبهم فإنه لا يعذر فى شرع المروءة والإنصاف وإن لم يجب التماسهم تقوّل عليه بعض الجهال ونالوا منه وامتد على السلطان لسان التشنيع وقيل فيه: «ما هذه الغاشية التى تحمّلها السلطان منهم وما هو عدم تسليمه حسن صباح لهم»[1]. ومن المحتمل أيضًا أن تحصل بينهم المقاومة والنزاع وفى الأخير لا تعلم نهاية الأمر.

(١) فقد ورد فى حوادث سنة ٤٥٨هـ أن السلطان «ألب أرسلان» ولّى ابنه ملكشاه، وحمل بين يديه الغاشية.
(الذهبى: دول الإسلام جـ ١ ص ٤٠٧، وكذلك ابن الأثير ـ حوادث نفس العام).

أمّا حديث (سرسنك) وأمركم بأنه لو كان برجًا من بروج السماء.. فإن أهالى سرسنك يعتقدون ويثقون من قول الدهر الحق[1] بأن هذا البرج لا يخرج من أيديهم إلى زمن بعيد ومدة غير قصيرة لأنه يتعلق بعناية اللّه تعالى.

والآن وأنا قابع فى هذه الزاوية عاملاً بكل فرض وسنة أرجو وأطلب من اللّه تعالى ورسوله أن يهتدى السلطان وأركان دولته إلى طريق الصواب وأن يرزقهم اللّه دين الحق وأن يرفع فسق بنى العباس وفجورهم عن الناس، فإذا رافقت السلطان سعادة الدين والدنيا كما رافقت سلطان الإسلام الغازى محمود رحمه اللّه حينما قام بدفع شرهم.

ثم أتى بالسيد «علاء الملك» خداوند زادة من ترمذ ونصّبه للخلافة، فيقوم بهذا العمل العظيم ويقطع شرهم عن عباد اللّه تعالى. فذلك هو المأمول، وإلاّ فسيأتى زمان يجيئ فيه ملك عادل ويعمل هذا العمل ويخلص المسلمين من الظلم والجور والسلام على من اتبع الهدى.

خادم أعتاب آل محمد وعلى

الحسن بن الصبّاح

* * *

(١) المقصود من المحق: هو المستنصر باللّه الخليفة الفاطمى فى مصر، وإلى هذا أشارت كتب التاريخ الإسماعيلية، ولهذا السبب تسمى قلعة (المؤت) بلدة الإقبال.

- ٧ -

رسالة «النظام» إلى ابنه «فخر الملك»[١]

قال الخواجة «نظام الملك» (الحسن بن علىّ الطوسى) فى أول الكتاب:

فى الوقت الذى أمرنا ولدنا الأعز أن يذهب إلى طوس كتبنا له كتابًا بخطنا وذكرنا فيه شروط ذلك العمل، وعليه فإن كانت هذه التذكرة مما تهذّب وتعلّم الأولاد بساير أصول الكتب، فإن عَمِل ذلك الولد ببعضها وترك أكثرها فهو طريق غير مرضى، بل إن ذلك العمل مما لا يعدّ فى عداد ما يقاس عليه.

الملك هو سلطان الدنيا وذلك الولد هو ولى العهد والتابع له، وإن لفظ الملك المبارك أعز اللّه أنصاره ليعطى ويفهم دائمًا بأن كل ما عملناه وما جمعناه من خزائن ومُلْك وجند هو منه وله ودون غيره، ولكن الملِك قد راعى حق خدمتى إياه وإنى لأتصور أنه لما كانت خدمتى له مقبولة لديه فستكون خدمة ولدى أيضًا مرضية عنده وسوف يقتدى به إن شاء اللّه.

إن العقلاء من الناس إذا ما أرادوا الشروع فى عمل نظروا إلى تحصيل الجاه وحسن الذكر حتى إذا ما انتشر ذكرهم الجميل ومالت القلوب إليهم فى المحبة حصل لهم ما طلبوا ولم يضع عملهم ولم يستطع هناك أى حاسد أو مفسد أن يزيل ذلك الذكر الجميل عنهم أبدًا.

أمّا الجهلاء منهم لا يقصدون فى عملهم إلاّ كسب المال وذلك مما يلوّث النفوس بمحقّرات الأمور ورذائل الأعمال فلا على جاه حصلوا ولا غير سوء الذكر اكتسبوا، وعندئذٍ يكون مجال الطعن والطاعن فيهم وسيعًا.

وعلى هذا فإن حظى (يعنى ولده) بالمثول أمام الملِك فليجلس مؤدبًا مصغيًا

(١) مخطوطة باسم تحفة بهائى، مؤرّخة فى سنة ٧٦٣هـ.

إلى كلامه بكل حواسه ليفهم مرامه جيدًا فيعرف كيف يجيب إذا سُئِل، وليكن غير مفارق حلمه ووقاره فى كل آن. وليسمع كلام الناس وشكواهم بسرعة، وليساعد الفقراء ويعينهم، وليكن حسب المستطاع مالئًا قلوبهم بالمحبة. أمّا باب سرايه ومحله فليكن مفتوحًا للجند والرعايا دون أى حجاب ليتمكنوا من الوصول إليه متى شاءوا عرض حوائجهم عليه، فإن حجبوا أو صدّوا دون عذر مشروع مقبول فإن ذلك مما يوحشهم منه وينفرهم.

وليرتب فى كل وقت من طرائف ما يميل إليها السلطان من سلاح وخيل ويبدى إخلاصه، كما عليه أن يلحظ العائلة الملوكية فيرسل إليهم فى كل شهر مرتين أو ثلاث مرات مما يرغبون فيه من مأكول أو مشروب أو حلوى أو فاكهة فإن ذلك مما يجعله عزيزًا عندهم، وإذا صدر أمر من داخل العائلة فليبادر بالإجابة بكل سرعة ممكنة له. بل عليه أن يجعل تعهدهم وملاحظتهم من فروضه وواجباته فيبعث إلى باب الحرم من يسألهم عن لوازمهم ويعرض نفسه وخدماته عليهم، وأن يوصل إليهم تبركاته فى أوقاتها وأحيانًا يضم إلى تلك التبركات بعض الهدايا اللائقة من ملبوس وأشباهه خصوصًا فى الحفلات التى يخدم فيها الملك هو بنفسه وأن يجعل جميع معاريفه ومتعلقيه يترددون إلى داخل الحرم الملوكى لتبركهم وقضاء حوائجهم اللازمة.

وإذا عرض عليه أحد جنوده حاجة فإن كانت مختصرة قضاها له من مصروفه الخاص، وإن كانت عظيمة فليراجع بها المَلِك نفسه. وإذا جاء إلى داره أحد الحجّاب أو السيّاس أحيانًا فليضفهم ولا يدعهم يخرجون ثم يكرمهم بالألبسة المناسبة لهم ولتصل إليهم مبراته فى كل سنة مرتين أو ثلاث، وليظهر المحبة مع جميع موظفى الدولة ويحترمهم، وإذا جاءوا لزيارته فليكسوهم وليركبهم الخيول، وإذا كانوا من الحجّاب المقربين فليركبهم الخيول المسرجة بالذهب.

إن للخواجه العميد أبى سعد المستوفى حقًا علينا قديمًا فليرع حرمته ومكانته وليأمر أن تكون محاسبات الصادرات بخطه وليحاسبه بنفسه فى كل شهر وينهى حسابه.

وليعلم أن خدم السراى يكونون فى الغالب جهلاء ومغفلين ومثل هؤلاء يكون رضاهم وسخطهم بسيط مختصر فليسهّل رواتبهم ويتعهدهم فى المواسم والمهرجانات وليبعد عن حضرته جهلة الرجال وقليلى الهمة منهم. ولا يكفل أحدًا فى أى بلدة أو ولاية لاحتمال ألاّ يكون المكفول صادقًا فيكون هو المعاتب، وليشهر نفسه ويعرّفها بحسن الآراء، فإن أخذ ما كان قليل القيمة فليؤده نقدًا لئلا يطالب به وهو قليل، وليوص خادمه ووكيل صرفه وخرجه بتلك الطريقة، فإن حسن معاملة الخادم وسوءها ينسب إلى مولاه، بل اللازم أن يكون له على الناس طلب لا للناس عليه لاسيما المحل الذى يكثر معاملته وأخذ الحاجيات منه للمطبخ والإصطبل.

إن لنا هناك مصاريف كثيرة ومزارع يتصرف بها الخواجة «أبو سعيد البيهقى» وقد وهبناها كلها لك، فاسع لتكون لك هناك أملاك تدّر عليك ما يكفيك مصاريفك اليومية خصوصًا الخبز والشعير اللذان هما مقدمة لكسب العظمة وأكبر مقوّم لطالب التبجيل والاحترام. وليجعل مراسم الخوان من أهم أموره وأعظمها وأن يرعاها فى كل وقت حتى إذا ما حضر أجنبى داره لم يعب عليه ولم ينتقصه وليسع أن لاتخلو مائدته من أجنبى تركى أو تاجيكى.

إن الولاية التى توجهت إليها هى ولاية فارس وجلّ أهلها فضلاء ينتقصون كل من لم يعرف العربية ولم يتكلمها ولم يكتب بها أو لم يكن خطه جيدًا فى العربية خصوصًا صاحب الحكم فيها بل يستهزأون به. وقد أرسلنا إليك الأديب أبا المكارم وهو وحيد الدهر فى أنواع الفضائل والآداب، فاللازم أن تشتغل عليه فى القراءة والكتابة بعد الفراغ من أعماله وأن تتكلم مع الأديب بالعربية وأن تتبادل معه بالرسائل والرقاع العربية حتى تحصل لك ملكة الإنشاء

العربى، وليُطلب الأستاذ عبد اللّه الطهرانى فإنه رجل خطّاط معروف لتتعلّم عليه الخط، وليكن هذا الذى ذكرته من أهم مهماته بل مقدمًا على سائر وصاياى له. وليختر عددًا من المعتمدين لديه ويعين لهم مقرراً من المال ليتاجروا له ويظهروا كفاءتهم واقتدارهم فى التجارة. فإذا سمعنا بحسن طريقته وجودة سلوكه وكانت لدينا مرضية لم يخل من تفقدنا له فى كل وقت، وعلى كل حال فليقوّ قلبه وليكن عند حسن ظننا.

هذا ما سنح فى الخاطر وأمّا ما بقى فبالمشاهدة لأن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب، أمّا نحن فلسنا ببعيدين عنه ولم تنقطع المراسلة بيننا فى كل وقت، ثم ليسع أن تكون بضاعته مرسلة على ظهور الحيوانات الخاصة به من بغال وإبل وغيرها وأن يكون مع غلمانه المختصين به، وليصرف فى كل سنة مبلغًا لا يقل عن عشرة إلى اثنى عشر ألف ديناراً على غلمانه وحيواناته، وأن يراعى على الدوام حال العمال فلا يغفل عن أعمالهم حتى إذا ما حصل قصور أو تقصير فليتداركه بسرعة، وإذا احتاج ذلك إلى أن تعرضه على الملك فلا يتسامح فى عرضه عليه وليجامل فى ذلك العرض قولاً أو كتابة.

ثم ليحترز جد الاحتراز فى أن يتصرف بخزانة الدولة فلا تحوّل عليها أبدًا إلاّ بأمر الملك نفسه وليوص الخازن بعدم التصرف وأن يفهمه أنه لو تصرف أحد فى أموال الخزينة فقد وشى يدمه وعرّض نفسه للفشل وأنه يجب أن يخبره بكل ما يصرف منها أو يدخل فيها حتى القطمير والتقطير، ولتكن صناديق الذهب مختومة بختمه ومهره ولا يتصرف بها إلاّ بحضوره.

وليذكر على الدوام معنى الخير والصلاح من أصحابه إن شاء اللّه تعالى.

- ٨ -

رسالة أخرى إلي ولده «فخر الملك»

فى مطلع العمر تحصل السمعة الحسنة من الافتتاح بالعمل الطيب ويصل خبر ذلك للبعيد والقريب فتميل إليه قلوب العسكر والرعية، فإن يصدر فى أثناء الأمور سهو منه وأراد الخصوم أن يوصموه به لم يستطيعوا. هذه تذكرة لولدى الأعز فخر الملك فإن يجر على هذه القاعدة يجد السعادة فى العالمين إن شاء اللّه تعالى.

يجب عليك أولاً أن ترتاح منك كل الرعايا وكلما لزمت المستوف لهم وجب قضاؤها كى يشتغلوا بكسب معاشهم فارغى القلب (البال) فينالوها منهم بهدوء، وأن لا يسدّ عليهم باب الحوادث عبثًا ولا يدع أى شخص يريد منهم شيئًا بعد أمر الديوان، ويجب ألا يؤذيهم عابرو السبيل، ثم يجب أن يفتح باب قصره للمتظلمين وأن يمارس هذا العمل يومًا فى الأسبوع بحيث لا يقوم فيه بعمل (مصلحة) ويجب أن يتأتى فى العمل حتى يعرف مم شكاية المتظلم وكيف يجب تدارك ذلك ليكون ما يأمر به صادراً عن حقيقة وبصيرة.

ثمّ يجب أن يحترم أمراء عسكره وخواصه ويعزهم ويجب أن ينظر إلى الشيوخ والموالى والأئمة بعين الحرمة أيضًا، وأن يتفقدهم جميعًا وأن يتعهدهم وأن يسأل عن سبب غيبتهم وأن يعودهم إذا مرضوا وأن يعينهم ويمدهم إن عملوا مصلحة أو سلكوا أمرًا مهمًا - بالمال والخدم والتجمل (الزينة والتزيين) والرسم (الأسلوب والطريقة والقاعدة) الذى يليق بذلك المهم، ويجب أن يعرف الجميع وأن يحفظ ألقابهم وأن يكون معهم بشوشًا حتى يحرصوا على متابعته وخدمته ويشفقوا عليه إذ (الإنسان عبد الإحسان) وأن يطعم كل يوم معروفيهم على سفرته وأن يحيا مع ندماء الملك ومقربيه بحياء وأن يعزّهم وأن يمنحهم شيئًا،

ثمّ يجب عليه أن يأكل مرتين فى الأسبوع مع أركان الدولة وأصحاب المناصب، وأن يحكى لهم خلال ذلك حكايات تتضمن المصالح. فإذا أكل معهم أكثر من مرتين كان ذلك هتكًا للحشمة وأن يتعهد حق التربية والمصلحة لكل شخص وفى عيد النوروز والعيدين يخلع على ملازميه وأصدقائه و(حرفائه أو رفقائه) ومساعديه وأن يبسط سفرة حسنة لهم، ثم يجب أن يسمع من المقربين والندماء حين يشفعون فى حق شخص بكلام يقولونه أو فى حاجة يطلبونها مما هو ممكن (التنفيذ). ويجب أن يعتذر بأن يخدم ويكتب ولو لم تكن المصلحة في ذلك ويجب العمل بمقدار تطييب الخاطر (القلب) ولا يجب الإصرار فى أية حال من الأحوال على المنع، ثم يجب العلم أنه لن يأخذ أحد مالاً معه إلى العالم الآخر إلاّ ما يحصل به حسن الذكر.

ويجب عليه أن يوصل إلى الخدم والحشم الجوائز والخلع فى وقتها بدون احتباس. ولا يجب الغفلة عن حال رؤساء النواحى والعمال إذ يكون منهم على الرعايا حيف عظيم فيصبح الفقراء لهذا السبب معذبين مثقلين فإن دفعهم وصل ذكره الحسن إلى كل الآفاق ولا ينبغى له أن يغفل عن السابلة والقافلة حتى تكون الطرق آمنة والغادون والرائحون سالمين، وأن يعمر الربط.

ثمّ إن عمل الذهب والدرهم لطيف أيضًا، ونصرة ذلك تصل إلى الجميع. فيجب أن يكون متولى دار الضرب شديدًا وأن يكون وازن العيار أمينًا، وعلى متعهد العيار أن يتعلق برقاب الباعة والدلاّلين، وعليه كل شهر أن يصنع مقدارًا من الدينار.

ويجب الاحتفاظ بالغلمان والخدم حشمًا كى يكونوا ذوى أدب وعقل، وأن يؤدبّهم إذا أساءوا الأدب، وأن ينظر إلى الجميع بإنصاف تام كى يأخذوا حقهم كما هى العادة ولا يستزيدوا ولا يكثروا من الشراب ويحتاطوا فى الكمية والكثرة إذ عمارة الدنيا بالماء، فإن حصل فى ذلك ظلم فقد خانوا وترتفع بذلك البركة كلها، وفى الصدق (الاستقامة) بين الدهقنة (الدهاقين) صلاح العمل، وللزرع فائدة عظيمة ولا يجب الإبقاء على السارق وقاطعى الطريق فى أى وجه من الوجوه، وأن يعدّ القضاء عليهم أهم المهمات.

ولا يسمع الكذب والبهتان فى حق النساء وأن يقهر قهرًا بالغًا أولئك الذين يهتكون حرمة النساء ويقصدون إساءة سمعتهن وهتك أعراضهن وأن يسعى لقهر النمام أو النديم إذا قصد عرض أحد، فإن السمعة والناموس تحصلان فى سنين ثم يبطلان بكذبة واحدة.

ويجب عليه أن يدعو الناس دعوة عامة صباح الجمعة وأن يختم القرآن وأن يصلى الظهر فى الناس فى الجامع، وأن يطلب التوفيق من اللّه تعالى فى كل حال حتى يصل إلى كل الخيرات وتظهر بركة رضا الخلاّق جلّ جلاله على أحواله فى العالمين إن شاء اللّه وحده العزيز.

* * *

- ٩ -

رسالة «النظام» إلى ولده «مؤيد الملك»

إعلم أيها الولد أن أساس الخير فى العالمين هو الاعتقاد الحسن والاعتراف للحق تعالى بالوحدانية، فقد كان دائمًا وهو كائن ويكون، ومحال عليه التغيير والانتقال والزوال، والإيمان باللّه تعالى مقرون بالإيمان بالرسل ﷺ. وليعلم أن محمدًا المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء وأحسن الخلق وأن دينه حق وأن تحبه وتحب أصحابه وأهل بيته الذين هم أئمة الحق. وينبغى ألاّ يكون فى قلبك عداوة لأى شخص يقول لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه، ويجب أن تعرف جيدًا حرمة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ولاسيما المخصوصون بالتطهير والتشريف من شجرة النبوة.

وبعد ذلك يجب أن تستيقظ قبل الصباح وأن تعلم أن للاستيقاظ المبكر بركة عظيمة وأنه يفتح الأعمال المسدودة ويطيل الحياة وأن تسوق على اللسان كلمة الشهادة وأن تؤدى الصلاة وأن تلزم نفسك بورد من القرآن وأن تقرأ من الدعوات المأثورة حتى ينقضى اليوم بالسرور عليك، وأن تجلس دائمًا مع أديب جامع بارع أو مع فنان لطيف ظريف حتى يعلمك شيئًا ويحفظك المحفوظات بالتكرار وينفتح باب اللطف مع النديم الطيّع وأمْرُر على الخاطر ما تستطيع من الشعر العربى والفارسى والرسائل والآداب.

وبعد صلاة الصبح يجب أن تروّض الطبع بمسائل النحو والتصريف وأشكال الهندسة والقياسات المنطقية وأن تقوم بمشق[1] الخط (بتدوينه) حتى يستقيم

(١) المشق هو تدوين الكلمات بحروف بارزة.

الخط ولا تقنع بما هو موجود ويجب فى أول الليل أن تجلس ساعة للمباحثة والاستفادة، ولمخالطة الفنانين والظرفاء وأن تتعلم شيئًا من اللطائف والآداب والحكايات والأمثال والأبيات. وحين تسلك بمقتضى هذه الجملة ترجح على أقرانك بسرعة.

ويجب أن تحفظ اللسان عن الكذب والغيبة، ولا تعب الناس ومن ظرافة ترتيب الكلام بعمل مقدماته (مقدم) تعيد (ترجع) اللسان فى حرمة شخص أو ماله، إذ إنه إذا اشتهر إنسان بالصدق إذا كذب وقتًا لمصلحة قبلوا منه ذلك وإذا اشتهر بالكذب فلو أنه قال صدقًا لم يقبلوه منه أيضًا، فيفشل عمله.

ويجب أن تفى بالمواثيق والعهود وأن يكون لك عزم صحيح كى تعزّ فى عيون الجميع.

واشتراء قبح السمعة بالفائدة الدنيوية ضرر مخيف، وكل درهم يحصل من المكاسب الدون يحجب مائة ألف دينار، فإن قرر أحد بخلاف هذه الأبواب عندك من الغيبة وعيب الناس وإفشاء التوقير من سوء السمعة والكسل فى تحصيل الفن فعدّه من شياطين البشر وابتعد عنه، وحقًا لا تعط طريقًا عندك للنمّام الساعى وإطرده وتجنب الندماء والأصدقاء ذوى الوجهين المتملقين فهم يضلونك بالضحكة والحديث الرقيق والمجالسة الحلوة فتصير خاسر الدنيا والعقبى.

وأن تحافظ على الخدم بأدب المشفق وأن تخالط الأصدقاء أصحاب مكارم الأخلاق كى يكون تواضعك وخدمتك باستحقاق، ولا تطمع فى حرمة الناس ومحارمهم بأى وجه من الوجوه. ولتعدّ كل من يحرضك على هذاالأمر خصم روحك ولتكن فى كل الأوقات بشوشًا حسن الخلق ليميل كل الناس إليك: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٢].

(١) سورة آل عمران ـ من الآية ١٥٩.

ولا تقدم على ظلم فليس دون دعاء المظلوم حجاب ولتكن مع الخلق منصفًا حسن المعاملة وأن تعيش مع الشركاء بالتبرع والتفضل كى تكون حسن السمعة ولا تجعل للحقد والحسد إلى قلبك سبيلاً «إذ الحسود لايسود»، ولا تتكلف كل وقت، فقد قالوا: «التكلف شؤم لأنه لا يدوم».

ويجب أن تسمع كلام العقلاء وتجالس أهل الصلاح وتسير سيرتهم حتى تمدح بكل لسان، وصل ما عُيِّن ورتّب من الهبات والمخصّصات والرواتب للخدم، وتجب القناعة مدة والانشغال بتحصيل العلوم لتتصرف بمرادك فى الجميع بعد أن تصل إلى درجة الاستقلال والانفراد إن شاء اللّه تعالى.

* * *

- ١٠ -

رسالة «نظام الملك»

إلى أبى إسحق الشيرازى: عميد نظامية بغداد

ورد كتاب من «النظام» إلى أبى إسحاق الشيرازى فى جواب بعض كتبه الصادرة إليه، فى معنى الحنابلة وفيه:

«ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعتزلة إلى أن نميل فى المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلاّ لصيانة أهل العلم والمصلحة لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه فى هذه الأسباب - أي الوسائل كالمدرسة - فليس إلاّ التقدم بسدّ الباب.

وليس فى المكنة الإتيان إلى بغداد ونواحيها، ونقلهم عما جرت عليهم عاداتهم فيها، فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبى عبد اللّه أحمد بن حنبل رحمة اللّه عليه ومحلّه معروف بين الأئمة، وقدره معلوم فى السُنّة، وكان ما انتهى إلينا أن السبب فى تجديد ما تجدّد مسألة سئل عنها - أبو نصر القشيرى - فى الأصول فأجاب عنها بخلاف ماعرفوه فى معتقداتهم. والشيخ الإمام أبو إسحق وفقه اللّه رجل سليم الصدر، سلس الانقياد ويصغى إلى كل ما ينقل إليه، وعندنا من توارد كتبه وتواليها ما يدل على ما وصفناه من سهولة تجتذبه والسلام.

* * *

(١) ابن الجوزى - المنتظم - حوادث سنة ٤٧٠هـ جـ ٨/ ٣١٢.

- ١١ -

مضمون كتاب إلى «ابن جهير فخر الدولة»
وزير الخليفة المقتدى بأمر الله(١)

مضمون الكتاب إلى فخر الدولة: كتابى أطال الله بقاء سيدنا الوزير الأجلّ السيد مؤيد الدين فخر الدولة، شرف الوزراء أدام الله رفعته وتمكينه وبسطته.. وذكر ما جرت به العادة من الدعاء. ثم قال: بلغنا ماتجدد ببغداد من القضايا المتعلقة بالدين التى تظهر فى «أنبائها» على الصدقة واعتقاد المداهنين ما يشعر بأن الضمائر المنطوية على النفاق أبت إلاّ ما يكنّه أولو السراير المعقودة على الخلاف والغل لم تصبر على استحفاظ «ماتخفيه»(٢) حتى ورد إثْرَ ذلك عدد من الفقهاء ونفر من العلماء فأوضحوا مايجرى هناك مما كانت تخفى حقيقته وجليته وما ظهرت بذلك صورته.

ولعمرى أن هذه الطائفة «يعنى الشافعية» إذا قلّت أعوانهم ولم يجدوا فيما دهمهم من ينصرهم ويظافرهم ولم يقم معهم حزبهم يؤازرهم، وإن كانوا لم يزالوا مقدمّين مميزّين مكرّمين فلم يصبحوا أغراضًا لهام النوايب يطغى فيهم كل مخالف ومجانب لا ترعى لهم حرمة ولا يرقب فيهم إلاّ ولاذّمة غير اعتقاد المذهب الذى هم به موسومون، ومن علومه يتعلمون، وقد بنينا لهم مدرسة تصير مأواهم ويتخذونها فى السراء والضراء مثواهم، وإن هؤلاء الذين ينتحلون مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله وإن كان هو بريئًا من سوء دخلهم وأفعالهم منتفيًا من ذميم طرائقهم وأقوالهم مع كثرة عددهم فى تلك البقعة واشتداد

(١) سبط ابن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٩، ٤٧٠هـ، ورقة ١٦٨، ١٦٩.

(٢) فى الأصل ماتحبه ولعلها تخبئه أوتجده.

شوكتهم وإتقان أقاويلهم فى الضلال وكلمتهم، لم يتجاسروا فى زمن من الأزمنة على ما جعلوه الآن بينهم سورة يتدارسونها، أو صنيعة يمارسونها من سبّ الأئمة والوقيعة بين علماء الأمة من غير منع ولا معاقبة ولا تخوف ولا مراقبة.

والعجب من إقدامهم فى تلك البقعة الحرجة عن أهل السنّة وإلقائهم إياهم فى كل محنة، وعندنا بخراسان وبلاد الترك مع تباعد أقطارها واتساع أكوارها لايعرف فيما سوى مذهب الإمامين الشافعى وأبى حنيفة.

وممن سمعت منه كلمته عودًا فى ساير كورها تخالف المذهبين وتباين اجتماع الفريقين ترى دمه حلالاً وتوسعه حربًا وإذلالاً. وليس إلاّ غضًا عما يبدو منهم من البدع، ويضاف إليهم من شر مجتمع إلاّ ترفقًا أن يجرى فى جوار الخليفة وسدة الإمامة المكرمة ما يخلّ بلوازم الهيبة ويقلّ جوانب التعظيم والرتبة. وأمّا ما يخصنى أنا فى ذلك فما أجد أصلح من حسم القول فيما يتعلق بتلك المدرسة لئلا يجرى على من يتفيأ ظل عنايتى ويخلط بعينىّ رعايتى ما يجرى.

وذكر عتابًا طويلاً ممزوجًا بتهديد، وكذا كتب إلى عميد الدولة[1].

* * *

(١) ورقة ١٦٨، ١٦٩ من المجموعة المخطوطة.

- ١٢ -

أ - رسالة الخواجة «نظام الملك» إلى السلطان «جلال الدين ملكشاه»[(١)]

الحقير عبدكم القديم «نظام الملك» برفع الاحترام والعزّ، عرض من حظى بالمثول (أمام) خليفة الأرض، ملتمسًا من ملازمى عتبة ذلك البلاط الذى هو محط آمال الأرض والزمن وكعبة إقبال ذوى الحاجات.

إنى لمّا كنت منذ مدة مديدة وعهد بعيد من المهد إلى اللحد داخلاً فى سلك محبى هذه الدولة حقيقة. وممن شدّ أزرها وشمّر عن ساعد الجد فى خدمتها وعبوديتها، ومن جلس على مسند العز فى صدق وإخلاص دون أن يرى عليه أثرًا من غبار العار أو العيب فى دولة حضرته منذ أيام الشباب إلى أوان المشيب مهتمًا بتنفيذ مهام الملك وإنجاز مهمات الرعايا، والحمد للّه فى هذه الأربعين[(٢)] سنة التى كان قائمًا فيها على قدم الخدمة والملازمة لامتثال أوامر حضرة الملك الأعدل الأعظم كان موفقًا من اللّه تعالى فى أنه لم يدع ولا دقيقة واحدة تمضى دون مراعاة الرعايا وتربيتهم ورعايتهم.

والآن وقد بلغ من العمر التاسعة والثمانين، فإنه يرجو أن يرفع القلم عن دفترالتفرقة وبقصر القدم عن واضح الطريق ورسم التردد ليتوجه بإذن من الجناب العالى إلى افتداء كعبة المراد والمقصود ويقضى هذه الأيام القليلة الباقية من العمر فى كنف بيت اللّه الحرام، ويقوم فى تلك الأيام والليالى التى يشتغل فيها بالطواف حول البيت العظيم بواجب الدعاء لدوام الدولة المنظمة إلى الأبد.

وليس لى الآن من المرحمة سوى مايقرّه رأى الملك فى حق هذا العبد والأمر أعلى.

---

(١) عن المجموعة ٧ ملى ملك مكاتيب ورسائل متفرقة تحت تسلسل ٤٥ وعن مجموعة منشآت أبو علي حيدر.

(٢) يشير بذلك إلى السنين العشر التى قضاها مع ـ ألب أرسلان ـ قبل أن يصبح سلطانًا.

ب - جواب السلطان ملكشاه على رسالة الخواجة «نظام الملك»[1]

ذو الجاه الأصفى ملجأ الإقبال، وزير الوزراء فى الآفاق والصاحب الأعظم الأكرم رئيس (خواجة) الدنيا المعظّم صاحب الرأى المكرم مربّى الرعيّة ناشر العدل معتمد الملك ركن السلطنة ناظم مناظم الملك والخلافة معز الدين «نظام الملك» وقوامه، زيد قدره ودولته.

ليعلم من كان عندنا ممتازًا مستوثقًا (موثقًا) مرفوع الرأس مخصوصًا بوفور العنايات السلطانية. إن الشفقة فى حق ذلك الركن للسلطنة قد بلغت الدرجة العليا، وليعرف أن التوجه الخسْروى المملوكى لم يزل مصروفًا نحوه ومقرونًا به وهو كذلك مادام حيًا موجودًا.

وليكن واضحًا لدى معتمد الملك أن الخاطر الأنور لم يزل متوجهًا إلى ذلك الوزير الحسن البر والتدبير، وأن رأيه الصائب هو الموافق للدولة الأبدية، وأنه هو البالغ من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين، وأن سلسلة أفكاره قد وصلت إلى تنفيذ مهام المملكة وراحة الرعايا واستقرارهم لم تحصل دون تدبير ذلك الوزير الصافى الضمير ودون صواب رأيه السديد بل ولم ينتظم «نظام الملك» بغيره.

فابق كى نلقى على مفرقك اللطف وكن فى رتبتك وابق حتى ترى الأفلاك طرًا طأطأت فى عتبتك[2] فاللازم عليه أن يدعو اللّه تعالى والملك أكثر من ذى قبل وأن يطلب رضا عباد اللّه، وأن يسعى فى دلالة الخير ومنع الشر

---

(١) عن المجموعة ٧ ملى ملف مكاتيب، ورسائل متفرقه تحت رقم ٤٥، وعن مجموعة منشآت أبو على حيدر.

(٢) وأصله الفارسى:

باش تا أز لطف ما بر فرق تومتر نهد ... باش تاث هان همه برآ ستانت سر نهتد

سعيًا موفورًا حثيثًا فإذا لم يحصل على ثوابه وأجره فى الدنيا فليطلبه من اللّه فى الآخرة فإنه إذا قُضيْت حاجة فقير واحد عاجز محتاج بهمّة ذلك الوزير الحسن الإشارة، ثم إذا أبلغها إلى مسامعنا المباركة فسوف يكون ثوابه معادلاً لحجّات كثيرة مبرورة.

واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

ثالثاً: الأمالـى:

أماليه فى الحديث والأخبار

- ١٥ -

المجلس الأول وقد أملاه فى المدرسة النظامية ببغداد فى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة ٤٨٠هـ

رواية الشيخ الإمام أبى نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسى.

رواية والد الإمام محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن الطوسى عنه.

رواية الشيخ الإمام شمس الدين أبى القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسى.

رواية محمد بن أبى الفتح بن حسن النقاش الواسطى عنه.

قرأه عليه إبراهيم بن أبى عبد الله بن أبى نصر الحلبى الشافعى، عفا الله عنه.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين

أخبرنا المولى نظام الدين صدر الإسلام قوام العالم غياث الدولة، شمس الملّة، أبو على الحسن بن على ابن إسحق، رضى أمير المؤمنين، رضى الله عنه، وختم بالخير مدّته، يوم الثلاثاء، الثالث عشر من المحرم من سنة ثمانين وأربعمائة فى مدرسته المعمورة من شرقى بغداد، قال أخبرنا الشيخ أبو بكر أحمد بن منصور بن خلف المغربى[١] بنيسابور رحمه الله. قال: حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة رحمه الله قال: حدّثنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج قال: حدّثنا قتيبة بن سعيد قال: حدّثنا مالك بن أنس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن عمرو بن سليم الأنصارى عن أبى قتادة السلمى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا جاء[٢] أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)[٣].

رواه البخارى ومسلم (رضى الله عنهما)[٤] فى صحيحهما من حديث مالك ابن أنس وغيره، رواه مسلم أيضًا (فى المسند)[٥] الصلاة.

عن أبى بكر بن أبى (شيبة)[٦] عن حسين بن على الحقى[٧] عن زايدة[٨] بن

(١) هكذا في الأصل.

(٢) كذا فى الأصل، والصواب «جاء»، وفى نسخة أخرى «أتا»، وفى نسخة ظ «جاء».

(٣) يراجع الحديث فى «طبقات السبكى» جـ ٣ ص ٣٧. وفى هداية البارى ص ٣٥ حرف الهمزة: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس» رواه الجماعة.

(٤) مابين القوسين ساقطة من نسخة (ظ).

(٥) ساقطة من نسخة (ظ).

(٦) فى (ظ) سلمة.

(٧) كذا فى الأصل بدون نقط ولعلها «الحنفى».

(٨) فى (ظ) زايدة بدون نقط وما أثبتناه الصحيح.

قدامة الثقفى عن عمرو[١] بن يحيى الأنصارى عن محمد بن يحيى بن حيّان عن عمرو بن سلمة[٢]، فكأنى سمعته من هذا الطريق من مسلم (رضى الله عنه)[٣]. أخبرنا أبو منصور شجاع[٤] بن على بن شجاع الشيبانى بأصفهان[٥] قال: حدّثنا أبو بكر محمد[٦] بن عبيد الله الكسائى المقرى وعلى بن محمد بن الحسن ابن عوف[٧] قرأه عليهما، قالا: حدّثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الحافظ قال: حدّثنا إبراهيم ابن عبد الله (بن مسلم)[٨] الكاتب، قال: حدّثنا محمد ابن عبد الله بن حفص وعبد الرحمٰن بن حماد الشعبى[٩] قال: سمعت النعمان ابن شير رضى الله عنه[١٠] يقول: سمعت رسول الله ﷺ[١١] يقول:[١٢] إن الحلال بيّن وإن[١٣] الحرام بيّن، وبين ذلك أمور[١٤] متشابهات)[١٥]. وربما قال

---

(١) فى (ظ) عمر.

(٢) فى (ظ) سليم.

(٣) ما بين القوسين ساقط فى (ظ).

(٤) فى (ظ) سجاع ولعلها شجاع.

(٥) فى (ظ) بأصبهان.

(٦) فى (ظـ) أبو بكر بن محمد.

(٧) فى (ظ) عرفة.

(٨) مابين القوسين ساقط فى نسخة (ظ).

(٩) مابين القوسين ساقط فى (ظ).

(١٠) قالا: حدّثنا عبد الله بن عوف عن عامر الشعبى. وفى نسخة (ظ) الشعيثى.

(١١) ما بين القوسين ساقط فى (ظ).

(١٢) فى (ظ) يقول ثم يقول.

(١٣) هكذا فى الأصل وساقطة فى (ظ).

(١٤) فى (ظ) اسور.

(١٥) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهة، فمن ترك ما شبّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه).

(مصطفى محمد عمارة ـ جواهر البخارى ص ٨٥).

مشتبهة. وسأضرب لكم فى ذلك مثلاً: (إن اللّه حمى[١] حماوان، حمى اللّه تعالى ما حرم وأن من يرع[٢] حول الحمى يوشك أن يخالط الحمى)[٣].
صحيح متفق عليه من حديث الشعبى أخرجه البخارى فى كتابه فى عدة مواضع، أحدها فى البيوع عن محمد بن المثنى عن ابن[٤] أبى عدى عن ابن عوف[٥] وأخرجه مسلم فى كتابه فى عدة مواضع أيضًا منها فى البيوع عن عبد الملك بن شعيب بن الليث عن أبيه عن جده عن خالد بن يزيد عن سعيد ابن أبى هلال عن عون بن عبد اللّه كلاهما عن الشعبى فكأنى سمعت هذا الحديث من هذا الطريق من شيخ مسلم (رحمه اللّه)[٦] ووقع لنا بحمد اللّه ومنه[٧]. قال: حدّثنا على بن حرب قال حدّثنا الحسين الأشيب قال[٨]: حدّثنا أبو بكر محمد بن أحمد[٩] بن الحسن الطاهرى قال: حدّثنا محمد بن عياش[١٠] العباسى[١١] قال: حدّثنا حمّاد بن سلمة عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة: إن لكم عند اللّه موعدا[١٢]. فيقولون:

(١) فى (ظ) حمى.
(٢) فى (ظ) يرعى.
(٣) يراجع الحديث فى طبقات السبكى جـ ٢ ص ٣٧.
(٤) «ابن» ساقطة فى (ظ).
(٥) فى (ظ) أبى عون.
(٦) ما بين القوسين فى (ظ).
(٧) فى (ظ) زاد كلمة «عاليا».
(٨) مابين القوسين ساقطة فى نسخة (ظ).
(٩) (المعروف بالأخوين، حدّثنا) هذه الجملة زيادة فى نسخة (ظ) بعد كلمة «أحمد».
(١٠) ناقصة فى (ظ).
(١١) (حدّثنا على بن حرب حدّثنا الحسن الأشيب حديثا) هذه الجملة زيادة فى (ظ).
(١٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال حديثًا هذه الجملة زيادة فى (ظ) قال رسول اللّه ﷺ: (إن اللّه تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة: يقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول جلّ وعلا: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك فيقول سبحانه وتعالى: (أنا أعطيتكم أفضل من ذلك). قالوا يارب وأى شئ أفضل من ذلك فيقول جل جلاله: (أنزل عليكم رضوانى =

وما هو؟ ألم يثقّل موازيننا[1]، ويبيّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة وينجينا من النار. فيكشف الحجاب تبارك وتعالى فينظرون إليه جل"[2] وعز فما أعطاهم الله تعالى[3] شيئًا أحبّ إليهم من النظر إليه جلّ وعزّ)[4].

انفرد مسلم بإخراجه فرواه فى كتابه عن القواريرى عن ابن مهدى وعن أبى بكر عن يزيد بن هرون كلاهما عن حماد بن سلمة.

أخبرنا شجاع بن علىّ الأصبهانى، قال: حدّثنا محمد بن إسحق بن محمد[5] الحافظ.. قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن الراوى. قال: حدّثنا محمد بن فارس[6] أبو عبد الله البلخى.. قال: حدّثنا حاتم الأصم عن شقيق[7] بن إبراهيم عن إبراهيم بن أدهم عن[8] مالك بن دينار عن أبى مسلم الخولانى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لو صليتم حتى تكونوا كالحفايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ثم كان الاتفاق أحب إليكم[9] فى الواحد لم تبلغوا الاستقامة).

أخبرنا محمد بن أحمد أبو بكر[10] بأصبهان.. قال: حدّثنا محمد بن

= فلا أسخط عليكم بعده أبدًا). (جواهر البخارى ص ٢٧٨).

وأورده أيضًا ص ٢٧٧: عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم).

(١) ميزاننا.

(٢) ما بين القوسين ساقط من (ظ).

(٣) ساقطة فى (ظ).

(٤) فى (ظ) «عز وجل».

(٥) فى (ظ) منده.

(٦) فى (ظ) بعد كلمة فارس زاد كلمة «حدّثنا».

(٧) فى (ظ) شفيق.

(٨) مابين القوسين زيادة عن نسخة (ظ).

(٩) فى (ظ) من.

(١٠) فى (ظ) ابن أبى بكر.

أحمد)[1] بن الحسن. . قال: حدّثنا محمد بن عياش[2] الجصاص. . قال: حدّثنا أبو هاشم (بن أبى)[3] خداش. . قال: حدّثنا المعافا[4] عن عبد الأعلى ابن أبى المساوت قال: قدم عدى بن حاتم الكوفة[5] فأتيته فى أناس من فقهائهم وأنا شاب لنأخذ حديثًا[6] سمعه من رسول اللّه ﷺ قال: نعم. قال: قلت يا رسول اللّه: ما الإسلام؟ قال: (شهادة أن لا إله إلاّ اللّه وأنى[7] رسول اللّه وتؤمن[8] بالأقدار خيرها وشرها وحلوها ومرّها).

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن عبد اللّه بن إبراهيم الفقيه (رحمه اللّه)[9] قال: حدّثنا محمد بن أحمد بن القسم[10]. . قال: حدّثنا محمد بن الحسن أبو بكر المقرى قال: حدّثنا محمد بن الفضل الطبرى قال: حدّثنا هرون البزاز قال: حدّثنا الفضل بن دكين[11]. . قال: حدّثنا خلد بن الياس[12] عن المقرى عن أبى هريرة (رضى اللّه عنه)[13] قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (أتانى جبريل عليه السلام (فعلّمنى الصلاة)[14]، فقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم فجهر فيها.

---

(١) مابين القوسين ناقص من (ظ).

(٢) فى (ظ) عباس.

(٣) ما بين القوسين زيادة عن (ظ).

(٤) فى (ظ) المعافى وهى الصحيح.

(٥) كذا فى الأصل وفى (ظ) الكوفة وهى الصحيح.

(٦) فى (ظ) قلنا حدّثنا حديثًا سمعته من رسول اللّه ﷺ قال: نعم.

(٧) فى (ظ) وأن محمد محمد.

(٨) فى (ظ) ونؤمن.

(٩) ما بين القوسين زيادة عن (ظ).

(١٠) فى (ظ) القاسم.

(١١) فى (ظ) سركين.

(١٢) فى (ظ) خالد بن خداش عن المعرى.

(١٣) ما بين القوسين زيادة عن (ظ).

(١٤) ما بين القوسين زيادة عن (ظ).

أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد بن على القاضى قال إبراهيم بن عبد الله ابن محمد البزاز، قال (إلى)[١] عبد الله بن محمد بن زياد الحافظ، قال: حدّثنا حاجب بن سليمان، قال: حدّثنا أبو أسامة، قال: حدّثنا الوليد بن كثير عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله[٢] بن عمر عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الماء[٣] يكون بأرضى الفلاة وما ينوبه من السباع والدواب فقال رسول الله ﷺ: (إذا كان الماء قلتين[٤] لم ينجسه شيء).

أخبرنا أبو نصر على بن عبيد الله الكاغدى قال: أخبرنا أبو إسحق إبراهيم ابن عبد الله بن خورشيد[٥] قوله.. قال: إلى أبو بكر النيسابورى.. قال: حدّثنا أحمد بن يوسف السلمى.. قال: حدّثنا عبيد الله بن موسى.. قال: حدّثنا أبو جعفر الرازى[٦] عن الربيع بن أنس (عن أنس بن مالك رضى الله عنه)[٧] أن رسول الله ﷺ قنت شهراً يدعو عليهم ثم تركه وأنا[٨] فى الصبح فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا إلى[٩] أبى منصور محمد بن أحمد الشبتى[١٠] وأبى نصر على بن عبيد الله الأصفهانيان[١١] قالا: أخبرنا إبراهيم بن عبيد الله[١٢] أبو إسحق قال: إلى[١٣] عبد الله بن محمد بن زياد الفقيه.. قال:

---

(١) (إلى) زيادة عن (ظ).

(٢) فى (ظ) زاد كلمة «عن» بعد عبد الله.

(٣) فى (ظ) الماء ملون وأظنها لا تستقيم.

(٤) فى (ظ) خرشيد.

(٥) فى (ظ) ملس بدون نقط.

(٦) فى (ظ) الدارى.

(٧) ما بين القوسين زيادة عن (ظ).

(٨) فى (ظ) وأما.

(٩) فى (ظ) أخبرنا.

(١٠) فى (ظ) السينى.

(١١) فى (ظ) الأصبهانيان.

(١٢) فى (ظ) عبد الله بن إسحق.

(١٣) فى (ظ) أنبأنا.

حدثنى بحر بن نصر.. قال: حدّثنا يحيى بن حسان.. قال: حدّثنا الليث بن سعد عن أبى الزبير عن سعيد بن جبير وطاووس عن ابن عباس أنه قال: كان رسول اللّه[1] يعلمنا التشهد كما يعلمنا القرآن فكان يقول: (التحيات المباركات الصلوات الطيبات للّه، سلام عليك أيها النبى ورحمة اللّه وبركاته، سلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين، أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمداً رسول اللّه).

أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن زاهر الطوس.. قال: أنبأنا أحمد بن الحسين[2] الجرشى قال: حدّثنا حاجب بن أحمد الطوسى.. قال: حدّثنا محمد ابن حماد قال: سمعت أن عيينة يقول: إن للحكمة أهل[3] إن منعتها (أهلها)[4] كنت جاهلاً تكن كالطبيب العالم لم يضع دواه حيث ينفع.

حدّثنا أحمد بن على الإمام كتابة.. قال: قرأت على أحمد بن محمد الفقيه عن أبيه[5] ثم بنى محمد بن يحيى.. قال: سمعت محمد بن إسحق بن خزيمة يقول: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعى رحمة اللّه عليه.. يقول: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنى رأيت (النبى)[6] رسول اللّه ﷺ، سمعت أبا الحسن[7] علىّ بن عبد اللّه (بن أحمد)[8] يقول: سمعت إبراهيم بن أحمد البلخى يقول: سمعت أبا نصر أحمد بن محمد الشاشى بالشاش[9] يقول: سمعت عمر بن القسم[10] البصرى يروى عن الربيع بن سليمان المرادى.. قال: كنت مع أبى عبد اللّه محمد بن إدريس

(١) بياض فى الأصل وفى (ظ) ﷺ.

(٢) فى (ظ) الحسن الحرش.

(٣) فى (ظ) أهلاً وهى الصحيح.

(٤) (أهلها) زائدة عن (ظ).

(٥) فى (ظ) عن إبراهيم بن محمد.

(٦) (النبى) زيادة عن (ظ).

(٧) فى (ظ) الحسين.

(٨) ما بين القوسين زيادة عن (ظ).

(٩) هكذا فى الأصل، وفى (ظ)، ولعلها الشاشى المعروف بالشاش.

(١٠) فى (ظ) القاسم.

الشافعى رحمة اللّه عليه[1] لمّا دخل مصر خاف المالكية وجلس فى داره ولم يخرج إلى الناس فقال له جماعة من أصحابه: «يا أبا عبد اللّه: لو خرجت وجلست للناس[2] وسمعوا من كلامك لرجعوا عن قول مالك وأخذوا بقولك» قال: «فأطرق الشافعى رحمة اللّه عليه[3] إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه وجعل يقول[4]:

أأنثر درا وسط سارحة النِعَمْ	وأنظم منثورًا لراعية الغنم
لعمرى لئن[5] ضُيِّعت فى شرّ بلدة	فلست مضيعا بينهم غرر الكلم
فإن فرج اللّه اللطيف بلطفه	وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
لبثتُ سعيدًا واستفدت ودادهم	وإلاّ فمحزون لدّىَ ومكتتم
ومن منح الجهّال علمًا أضاعه	ومن منع المسترحمين فقد ظلم[6]

آخر الجزء: «وللّه الحمد والمنة».

سمع جميع هذا الجزء من أوله إلى آخره على الشيخ الصالح محمد بن أبى الفتح بن حسن النقاش الواسطى، لحقّ سماعه عن شيوخه محمد بن محمد بن أبى على بن عمرون الحلبى له بقراءة إبراهيم بن أبى نصر الحلبى الشافعى فى يوم الرابع عشر من رجب من سنة ثلاثة عشرة وستمائة بحلب المحروسة.

* * *

(١) ساقطة من (ظ).

(٢) فى (ظ) إلى الناس.

(٣) فى (ظ) فأطرق الشافعى رحمه اللّه ساعة إلى الأرض.

(٤) فى الأصل «ولقد».

(٥) فى (ظ) وأنشأ.

(٦) قد أورد هذه القصة وتلك الأبيات السبكى فى طبقاته جـ ١ ص ١٥٥ .

السماع صحح عليه النقّاش

سمع هذا الجزء على العاصى الأجلّ العالم فخر العصاة أبى الفضل محمد ابن عمر بن يوسف الأرموى(١) نحو ساعة من «نظام الملك» أبى على - رحمه اللّه - بقراءة الشيخ الإمام أبى الحسن على بن يعيش بن سعيد بن الحسن بن القواريرى أبو الفضل عبد الواحد بن عبد يكن سلطان التبّاغ، وأبى زكريا يحيى بن الحسين بن أحمد الأوانى وأبو الرضا أحمد بن طارق بن سنان الكركى وأبو بكر محمد بن أبى عبيد اللّه بن مكى النهروانى وأبو الفايز مظفر ابن داود بن بركة البار بارى وابنته مريم وعبد الرزاق وعيسى أولاد الشيخ محيى الدين عبد القادر وخادمهم موفق بن عبد اللّه الحلبى، وأبو بكر مسمار ابن عمر بن محمد القويس البتار، وأبو عبد اللّه محمد وأبو العباس أحمد ابنا عمر بن محمد عبيدة الأزجى، وهذا خطه وعبد الملك بن على المقرى، وذلك فى يوم الخميس الثامن من صفر من سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وصح ذلك فى الأصل.

وسمعه من يقرأه سعد اللّه بن الراوى أبو البركات داود وصفية وحفصة بنو المهذب أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن ملاعب ومثبت الاسما نصر اللّه بن سلامة بن سالم الهيتى، وذلك فى يوم الأحد السادس عشر من شهر رمضان من سنة ست وأربعين وخمسمائة بدار المهذب المذكور بدار البساسيرى بحضرة باب الأرج.

وسمعه منه أبو القاسم زيد بن الحسن اللندى وأبو الفتوح على بن رستم بن أبى رجا الأصبهانى، وأخوه أبو شجاع زاهر وأبو الفتوح عبيد اللّه أبى الحسن ابن على الدوامى ويعيش بن هبة اللّه بن وهبان بقراءة المنازل عن كامل وأولاده

(١) وقد روى الأرموى أشياء كثيرة منها الفوائد الصحاح والغرائب تخريج أبى بكر أحمد الخطيب.

يوسف وعبد الرحيم[1] ولامه ويونس فى جمادى الأولى من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

وسمعه من الأرموى جماعة، وسمع من حديث عدى بن حاتم إلى آخره أبو العز يوسف بن محمد بن على وأخواه سليمان وعلىّ. وذلك فى يوم الجمعة قبل الصلاة التاسع عشر من شعبان من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة.

وسمعه بقراءة أبى البقا محمد بن طهمور أخوه عمر وأبو البركات محمد بن أحمد بن أبى غالب الصائغ وأبو القسم عبد الرحمن بن أبى حامد بن عبد الرحمن بن عضد الحر ببار. وكاتب السماع يزيد بن أحمد بن منبه، وذلك فى يوم الأحد فى شهر ذى القعدة من سنة ست وثلاثين وخمسمائة فى منزله.

نقله فى الأصل مختصراً بعض الشىء على بن مسعود الموصلى من نقل جعفر بن عبد الباقى بن على.

سمع جميع الإملاء على الشيخ مهذب الدين أبى البركات داد بن أحمد بن محمد بن ملاعب بسماعه من الأرموى بقراءة الإمام العالم ضياء الدين أبى عبد اللّه محمد بن عبد الواحد بن أحمد ابن أخته إبراهيم بن بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم والمولى الملك المحسن محيى الدين أبو العباس أحمد ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب وصّاه أحسن بن عبد اللّه الزكى وبدر بن عبد اللّه بن الحلس ووالده أبو العباس أحمد بن عبد الملك عثمان وإخوته محمد وعبد العزيز وعبد اللّه وأحمد وعبد اللّه ابنى عمر بن أبى بكر والبدر محمد بن سالم وأخوه عبد اللّه وأحمد بن عز الدين أبى الفتح محمد بن عبد الغنى بن عبد الواحد بن على وعبد الرضى محمد بن عبد الجبار وولده عبد اللّه، وأحضر ولده أحمد وهو فى السنة الثالثة وعبد الرحمن بن الشيخ الصالح أبى عمر محمد بن أحمد، وحمزة بن أحمد بن عمر وعلى بن الشمس أبى العباس

(1) بياض فى الأصل، ولعلها (وأخوه)، كما لعلها ـ لامة ـ أخته وليس أخوه لأمه.

أحمد بن عبد الواحد، ومحمد بن عبد الملك شمس الدين محمد بن سعد وأخوه أحمد وعبد الوهاب بن محمد بن ابراهيم، وعبد اللّه بن عبد الهادى بن يوسف وأخوه عبد الرحمن المقدسيون وأبو عبد اللّه بن عبد الرحمٰن بن عماد العسقلانى وتقى الدين محمد بن طرخان وولده بن الولى.

وكاتب السماع عيسى بن عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى، وصحّ ذلك فى يوم الخميس الثانى من جمادى الأولى من سنة اثنتين وستمائة.

وسمع مع الجماعة يونس بن عبد الرحمٰن بن نصر.

نقله كما شاهده بنصه من غير اختصار على بن مسعود عفا اللّه عنه بعد المعارضة.

قرأت جميع هذا المجلس على الشيخ الإمام العالم الفذّ فخر الدين أبى الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسى سماعه له من ابن ملاعب عن الأرموى عن المملى فسمع التقى عبد اللّه بن أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادى. . . . إلخ الأسماء إلى أن يقول:

وصح ذلك وثبت فى يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال من سنة ثلاث وستّين وستمائة بالمدرسة الصائية بسفح قاسيون ظاهر دمشق المحروسة. أفقر عباد اللّه على بن مسعود بن يعيش الموصلى الحلبى عفا اللّه عنه.

سمع جميع هذا المجلس من أمالى «نظام الملك» على الشيخ شرف الدين أبى محمد صالح بن إبراهيم بن أبى بكر الحافظى سماعه قرأه بقراءة المحدث الفاضل المفيد ناصر الدين أبى عبد اللّه محمد بن طغرمل بن عبد اللّه بن شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن مؤمن الأذرعى الحريرى ومحمد بن يحيى ابن محمد بن سعد بن عبد اللّه المقدسى، وهذا خطه فى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شهر صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة على باب داره بسفح جبل قاسيون وأجاز لنا ما يرويه.

سمعه على الشيخ أبى محمد علم بن عبد الرحمن الكريم حازم المقدسى ساعة قرأه بقراءة الفقيه الإمام العالم الفاضل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعى شمس الدين محمد بن ثابت بن ثابت الحلبى، وعمر وخديجة ولدا عمار بن أدهم قيِّم دار الحديث ومحمد بن سعد المقدسى. وهذا خطه فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بدار الحديث الأشرفية بسفح قاسيون وأجاز لنا ما يرويه.

* * *

المجلس الثانى

وقد أملاه فى جامع المهدى يوم الجمعة

لثمان خلون من صفر سنة ٤٨٠هـ

قرأت على الشيخة الصالحة الخيرة المسندة الكاتبة المعمرة «أم هانى»[(١)] مريم ابنة الشيخ نور الدين على بن القاضى عبد الرحمن بن عبد المؤمن الهورسى والدها بحق سماعها من العفيف أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن محمد بن سليمان البشاورى عن الشيخ رضى الدين أبى أحمد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الطبرى ثم المكى أجازة، ابنا السند العلامة إسحق ويعقوب ابنا أبى بكر الطبرى وأبو الحسن علي بن محمد الكور بن موهوب بن جامع قالوا: حدّثنا أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن البناء سماعًا أنبأنا أبو القاسم نصر بن نصر العكبرى قال الرضى الطبرى: وأنبأنا عاليا أبو الحسن علىّ بن الحسين بن على بن المغير أجازه عن نصر بن نصر أجازه أنبأنا «نظام الملك» الصاحب «أبو على الحسن بن علىّ بن إسحق» إملاء فى جامع المهدى يوم الجمعة لثمان خلون من صفر سنة ثمانين وأربعمائة قال: أخبرنا أبو مسلم محمد بن على بن محمد الأديب بأصبهان أنبأنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن على بن عاصم بن زادان حدّثنا محمد بن الحسن بن قتيبة حدّثنا حرملة بن يحيى حدّثنا عبد اللّه بن وهب حدّثنا يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: (من أنفق روحين فى سبيل اللّه نودى فى الجنة يا عبد اللّه هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل

الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريّان).. فقال أبو بكر بأبى أنت وأمى أيدعى أحد من تلك الأبواب كلها.. فقال رسول الله ﷺ: (نعم، وأرجو أن تكون منهم)[1].

هذا حديث صحيح متفق عليه من حديث الزهرى عن حميد، وحديث وهب عن يونس عن الزهرى. انفرد به مسلم فرواه فى الزكاة عن أبى الطاهر وحرملة عن ابن وهب عن يونس.

أخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله المروزى أنبأنا منصور بن عبد الله بن خالد بن حازم الغفارى أنبأنا إسماعيل بن أبان حدّثنا أبو عبد الله حدّثنا ناصح المحكمى عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: قالوا يارسول الله: من يحمل رايتك يوم القيمة؟.. قال: (من عسى أن يحملها يوم القيامة إلاّ من كان يحملها فى الدنيا علىّ بن أبى طالب).

أخبرنا أبو القاسم يوسف بن محمد بن يوسف بُهذان أنبأنا أحمد بن إبراهيم أبو العباس حدّثنا أحمد ابن عرس[2] حدّثنا محمد بن عبد الغفار أنبأنا أبو الخطاب إياس بن محمد البصرى وعمر بن على قالا: حدّثنا أبو عباب سهل بن حماد حدّثنا المختار بن نافع أبو إسحق التيمى حدّثنا أبو حيان التيمى عن أبيه عن علىّ قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله أبا بكر زوجنى ابنته وحملنى إلى دار الهجرة وأعتق بلالاً من ماله. رحم الله عمر يقول الحق وإن

---

(١) حدّثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال: حدّثنا ولأبى ذر أخبرنا شعيب (وهو بن أبى حمزة) عن الزهرى (محمد بن مسلم بن شهاب) أنه قال: أخبرنى بالافراد حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أنفق زوجين من شىء من الأشياء فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة ونودى يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام.. باب الريّان).. فقال أبو بكر: ما على هذا الذى يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله. قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر). (القسطلانى جـ ٦ ص ٩٠، ٩١).

(٢) محمد بن أوس.

كان مرّاً وما له من صديق. رحم اللّه عثمان تستحى منه الملائكة. رحم اللّه علياً، اللّهم أدر الحق معه حيث دار[1].

أخبرنا أبو عبد الرحمن بن أبى بكر المذكر حدّثنا أبو على الخالدى حدّثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن أحمد الهمذانى حدّثنا زكريا بن يحيى الساجى حدّثنا نصر بن على حدّثنا على بن جعفر بن محمد عن أخيه موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عن على بن الحسين عن أبيه عن على بن أبى طالب أن النبى ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين رضى اللّه عنهما فقال: (من أحبّ هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة).

أخبرنا أبو سهل محمد بن أحمد بن عبد اللّه أنبأنا أبو الهيتم محمد بن مكى حدّثنا محمد بن يوسف القريرى[2] حدّثنا محمد بن إسماعيل البخارى حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا الليث عن أبى شهاب أخبرنى أبو إمامة سهل بن حنيف عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا علىّ، وعليهم قُمُص (النص: قمص) منها ما يبلغ الثدى، ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض علىّ عمر وعليه قميص يجره، فقالوا: ما أولته يا رسول اللّه، قال: الدين[3].

أخرجه مسلم في الفضائل عن منصور بن أبى مزاحم، عن إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب.

---

(١) وفى حديث ابن عباس عن الطبرانى رفعه: (ما أحد أعظم عندى يداً من أبى بكر واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته).

وفى حديث مالك بن دينار عند ابن عساكر عن أنس رفعه: (أن أعظم الناس علينا منا أبو بكر زوجنى ابنته وواسانى بنفسه، وأن خير المسلمين مالاً أبو بكر أعتق بلالاً وحملنى إلى دار الهجرة).

(شرح القسطانى جـ ٦ ص ٨٧).

(٢) لعلها: القزوينى.

(٣) (بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علىّ وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك وعرض علىّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره)، قالوا: فما أولت ذلك يارسول اللّه، قال: الدين.

(هداية البارى الى ترتيب أحاديث البخارى ص ١٩٧).

أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن حمدون. . حدّثنا الحاكم عبد الجبار بن أحمد حدّثنا عبد اللّه بن جعفر حدّثنا يونس بن حبيب. . حدّثنا أبو داود الطالبى ما سكن بن المغيرة عن الوليد بن أبى هشام عن فرقد أبى طلحة عن عبد الرحمٰن بن خباب، قال: سمعت رسول اللّه ﷺ وهو يحضّ على جيش[1] العمرة، فقام عثمان رضى اللّه عنه، فقال: «مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل اللّه». ثم حضّ الثانية، فقال عثمان «مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل اللّه». ثم حضّ الثالثة، فقال: «ثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل اللّه»، قال: فرأيت رسول اللّه ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: (ما على عثمان ما عمل بعد هذا مرتين أو ثلاثًا).

أخبرنا أبو الفتح نصر بن على الحاكم. . حدّثنا محمد بن أبى عمران التاجر. . حدّثنا محمد بن يعقوب الشيبانى. . حدّثنا بكر بن شهل قال حدّثنا عبد الغنى بن سعيد الثقفى. . حدّثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى عن ابن جريج عن عطا عن ابن عباس قال: قالت عائشة: «أعطيت عشر خصال لم تعطهن ذات خمار قبلى: صورت لرسول اللّه قبل أن أصوّر فى رحم أمى، وتزوجنى رسول اللّه ﷺ بكرًا ولم يتزوج بكرًا غيرى، وكان ينزل على رسول اللّه ﷺ الوحى وهو بين سَحَرى ونحرى، ونزلت براءتى من السماء، وكنت أحبّ الناس إليه، وكان أبى أحبّ الرجال إليه، وخيِّر رسول اللّه ﷺ وهو بين حاقتى وداقنتى، وتوفى فى يومى، ودفن في بيتى صلوات اللّه عليه وسلامه».

أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد بن عمر كتابة. . حدّثنا محمد بن عبد الرحمٰن بن العباس. . حدّثنا عبد اللّه بن عولم بن ساعدة عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللّه ﷺ: (إن اللّه تعالى اختارنى واختار لى أصحابًا فجعل منهم وزيرًا وأنصارًا وأصهارًا فمن سبّهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل اللّه تعالىٰ منه حرفًا ولا عدلاً).

---

(١) فى الأصل حيس بدون نقط.

أخبرنا أبو مسعد عبد الكريم بن أحمد الطبرى.. حدّثنا أبو العباس أحمد ابن محمد البصرى.. حدّثنا الحسن بن جعفر بن هلال الحميرى.. حدّثنا بن محمد الكاتب.. أنبأنا نعيم بن حماد.. حدّثنا عبد الرحيم بن زيد عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (سألت ربى عز وجل فيما اختلف فيه أصحابى من بعدى فأوحى الله إلىّ يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم فهو عندى على هدى).

أخبرنا أبو الحسن على بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد.. حدّثنا محمود ابن عمر بن جعفر بن إسحق.. حدّثنا أحمد بن محمد التميمى.. حدّثنا محمد بن الحسن بن حبيب الهمذانى.. حدّثنا أحمد بن عيسى العلوى حدّثنا ابن أبى فدنك عن هشام بن مسعد عن زيد بن أسلم عن عطا بن يسار عن ابن عباس عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله خلفاى) قيل: ومن خلفاؤك يا رسول الله، قال: (الذين يأتون من بعدى، يروون أحاديثى وسنتى ويعلمونها الناس).

أخبرنا أبو القاسم يحيى بن على المروزى.. حدّثنا الإمام أبو بكر القفال[1].. حدّثنا الإمام أبو عبد الله المعزى.. حدّثنا أبو أحمد يعنى المروزى.. حدّثنا عبد الله بن جعفر بن خاقان.. حدّثنا على بن خشرم حدّثنا عبد الله بن إدريس عن ليث بن أبى أسلم أنه قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب عوتب فى جهده نهارًا فى أمور الناس وفى اجتهاده ليلاً فى أمور آخرته فقال لهم: إن أنا نمت نهارى ضاعت الرعيّة، وإن نمت ليلاً ضيعّت نفسى فكيف بالنوم معهما».

أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسن.. حدّثنا عبد الله بن محمد بن حمود.. أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد.. حدّثنا إبراهيم بن محمد.. حدّثنا أبو الحسين أحمد بن عمرو بن محمد الدنبقى.. حدّثنا زكريا بن يحيى.. حدّثنا الأصمعى

(١) أظنها القفال أى بائع الأقفال، وفى الأصل: النقّال أو الثقّال..

عن العلاء بن الفضل بن أبى سوية عن أبيه، قال: أخبرت أنهم لمآ قتلوا عثمان بن عفان فتّشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقًا مقفلاً ففتحوه فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فى باطنها عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة حقّ، وأن النار حقّ، وأن اللّه يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه، وأن اللّه لا يخلف الميعاد، عليها نموت وعليها نبعث إن شاء اللّه. ووجدوا فى ظاهرها مكتوبًا:

غنى النفس يغنى النفس حتى يكفّها ... وإن عّضها حتى يضرّ بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها ... بكاينةٍ إلاّ سيتبعها يسر
ومن لم يقاس الدهرلم يعرف الأسى ... وفى غِيَر الأيام ما وعظ الدهر

* * *

آخر المجلس الثانى وبتمامه تّم الجزء.

الحمد لله وحده، وصلى اللّه وسلم على أشرف خلقه

محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين.

حسبنا اللّه ونعم الوكيل.

* * *

السمـاع :

الحمد للّه وسلام على عباده الذين اصطفى، سمعت من غير هذه النسخة جميع هذا الجزء المشتمل على مجلسين من أمالى «نظام الملك»، وهما الأول والثانى على الشيخ المسند الأصيل، زين الدين أبى الطيب أحمد المدعو شعبان ابن محمد بن محمد بن حجر العسقلانى، بسماعه على الجمّال عبد اللّه بن عمر بن على بن مبارك الحلاوى.. قال أنبأتنا أم محمد عائشة بنت على بن عمر بن شبل الصنهاجية.. أنبأنا أبو إبراهيم إسحق بن محمود بن ملكون البروجردى (ح) قال الحلاوى، أخبرتنا بهما أم محمد زهرًا وتدعى «تقية» أو «نقيّة» بنت عمر بن حسين الختنى الحنفى.. أنبأنا الإخوان أبو الطاهر إبراهيم وأبو الزكا عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم.. أنبأنا بليسان سماعا قالا هما والبروجردى. أنبأنا أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن موهوب بن جامع بن البقاء البغـدادى الصـوفى وبإجـازة الحـلاوى غالبًا مـن زينـب بنـت الكمـال عبد الخالق بن أبىّ بأحاديثه وسماع بن البقا من نصر بن نصر بسماعه من «نظام الملك» بقراءة الشيخ المحدث شمس الدين محمد بن على بن جعفر بن قمر الحسينى بلدًا.

وصحّ ذلك فى يوم الأحد فى السابع من المحرم سنة ثمان وأربعين وثمانمائة بمنزل شيخ الإسلام ابن حجر بن عم المسمع وأجاز. قاله وكتب عبد الرحمن ابن أحمد بن إسـماعيل بـن القلقشنـدى الشـافعى حامـدًا ومصليًا ومسـلمًا. الحمـد لله.

سمع هذين المجلسين من أمالى «نظام الملك» على أبى عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن موهوب بن جامع بن البقا الصوفى بسماعه من نصر العكبرى بسماعه من مليهما بقراءة إسماعيل بن عبد اللّه بن الأنماطى، ابنه[1] محمد بن إسماعيل فى السنة الثالثة. وصحّ فى الثالث من شعبان سنة إحدى عشر وستمائة.

---

(١) هو الفاعل.

وسمعهما عليه بقراءة كاتب السماع إسحق بن محمود بن ملكويه البروجردى محمد بن مسعود بن نجد الدهستانى فى الخامس من ذى القعدة سنة سبع وستمائة.

وسمعهما على أبى إسحق إبراهيم بن محمود بن ملكويه بن أبى الفياض البروجردى بقراءة كاتب السماع أحمد بن موسى بن نصر[1] أبو الحسن علىّ بن عمر بن شبل الحمدى وولداه عبد اللّه وعائشة فى العشر الأخير من شعبان سنة خمس وستين وستمائة، بمنزل المسمع بالدقى بالقاهرة.

وسمعهما على أبى طاهر إسماعيل بن عبد اللّه بن عبد المحسن الأنماطى بقراءة الفقى عبيد بن عباس الاسعردى، وولداه أبو نعيم أحمد، وعلى بن عمر ابن شبل الصنهاجى وولده عبد اللّه وأبو العباس أحمد بن محمد بن عبد اللّه الطاهرى وولده عثمان فى الخامسة وأحمد ولد المسمع وأحمد بن البصير ابن[2] المقرى ومنه لخصت وآخرون فى العشرين من ربيع الآخرة سنة أربع وسبعين وستمائة.

وسمعهما على الشيخين العفيف إبراهيم والقطب عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن على بن جعفر الدهريين النابلسيين بسماعهما من إبى البقاء[3] كمال الدين محمد بن حسين بن أبى بكر الخشنى وأخوه عمر بن حسين وولداه يوسف وزهرا فى أول الخامسة وآخرون فى سابع عشر ربيع الأول لسنة تسع وخمسين وستمائة.

وسمعهما على أم محمد زهرا وتدعى تقية ابنة الجمآل عمر بن حسين بن أبى بكر الختنى بقراءة أبى عقبة محمد بن على بن السروجى... أبو جعفر عمر بن على بن الشيخ أمين الدين مبارك الحلاوى وولداه عبد اللّه

(١) بياض فى الأصل.

(٢) بياض فى الأصل ولعلّها «ابن البنا».

(٣) بياض فى الأصل.

وعبد الرحمٰن ومحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب وابنه إسماعيل وناصر الدين محمد بن أبى القسم بن اسماعيل الفارقى وآخرون.

وصحّ فى يوم الأحد سادس جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بزاوية الحلاوى.

وسمعهما على أبى الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد بن البخارى بسماعه على أبى البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب.. أنبأنا أبو الفضل محمد بن عمر الأرموى.. أنبأنا «نظام الملك» جماعة منهم ست العرب ابنة محمد بن المسمع حاضرة فى الثامنة.

وصحّ فى يوم الاثنين السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٨٩هـ بمخيزك.

سمعهما على الجمال عبد اللّٰه بن عمر بن على الحلاوى بقراءة الإمام أبى زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الغزالى شهاب الدين أحمد بن عثمان العلودانى وآخرون فى الثامن عشر من صفر سنة إحدى وتسعين وسبع مائة.

وسمعهما عليه بقراءة الحافظ أبى الفضل أحمد بن علىّ بن حجر بن عمه شعبان بن محمد بن حجر وآخرين.

وصحّ فى (   )(١) سنة اثنتين وثمانمائة.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

أحاديث متفرقة
فى مؤلفاته ورسائله

وفى الخبر عن الرسول ﷺ أنه قال: (إذا حشرت الخلائق يوم القيامة جيىء بمن كانت له على الناس يد وأمر ويداه مغلولتان، فإذا كان عادلاً أطلق العدل يديه وأدخله الجنة، وإذا كان ظالمًا ألقى فى النار مغلول اليدين بالأغلال)(١).

وفى الخبر أنه قال: (يسأل يوم القيامة من كان له أمر على الخلق أو على أهل بيته أو على من هم دونه، وكل راع مسؤول عن رعيته)(٢).

وفى الخبر أن النبى صلوات اللّه عليه قال: (العدل عز الدنيا، وقوة السلطان، وفيه صلاح العامة والخاصة، وفيه صلاح الجند والرعية وهو ميزان الخيرات جميعًا)(٣).

وفى الخبر أن الرسول ﷺ قال: (المقسطون باللّه عز وجل يكونون على منابر اللؤلؤ يوم القيامة)(٤).

عنَ ابن عمر رضى اللّه عنه: قال الرسول ﷺ : (إن للمقسطين فى الجنة قصوراً من نور عدلهم فى أهلهم ومنْ كانوا دونهم)(٥).

---

(١) رواه البزاز والطبرانى فى الأوسط وأورده الغزالى فى نصيحة الملوك ص ١٢ مع اختلاف فى اللفظ.

(٢) المصدر السابق مرويا عن أبى هريرة مع اختلاف فى اللفظ.

(٣) رواه الغزالى مع اختلاف فى اللفظ فى كتابه النصيحة ص ٧٢.

(٤) أخرجه مسلم والنسائى عن ابن عمرو بن العاص عنهما عن الرسول ﷺ . وذكره الغزالى فى نصيحته ص ٧٤.

(٥) وفى نصيحة الملوك ورد الحديث فى ص ٧٤.

عن الإمام المشطّب بن محمود الفرغانى الفقيه، عن عبد اللّه بن عباس أنه قال: قال النبى صلوات اللّه عليه وسلامه لعلىّ بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: (إن أدركت قومًا يقال لهم الرافضة يرفضون الإسلام فاقتلهم فإنهم مشركون).

وقال القاضى أبو بكر: روى أبو امامة[1] عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: (فى آخر الزمان قوم يقال لهم الرافضة فإذا لقيتموهم فاقتلوهم).

وقال النبى ﷺ: (إن اللّه تبارك وتعالى جعل لى أصحابًا ووزراء وأصهارًا فمن سبّهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللّه لهم عدلاً ولا صرفًا)[2].

قال القاضى أبو بكر: «روى عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو الجهنى الصحابى (٥٨هـ) رضى اللّه عنه فقال: قال رسول اللّه ﷺ: (لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب)[3].

وقال مشطّب: روى جابر بن عبد اللّه بن عمر بن حرام الأنصارى السلمى المعروف بأبى عبد اللّه وأبى عبد الرحمن وأبى محمد (٧٨هـ) رضى اللّه عنه أنه قال: إن النبى ﷺ مرّ بجنازة فلم يصل عليها، قالوا: يارسول اللّه ما رأيناك تركت الصلاة لجنازة إلاّ هذا، قال: (إنه يبغض عثمان، ومن أبغض عثمان أبغضه اللّه تعالى)[4].

(١) صدى بن عجلان بن الحارث الباهلى.

(٢) رواه ابن الأنبارى فى المصاحف والطبرانى والحاكم عن عويمر بن ساعدة بلفظ «ان اللّه اختارنى واختار لى أصحابًا، فجعل لى منهم وزراء وأنصارًا، فمن سبهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللّه منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً». (انظر: الجامع الكبير للسيوطى).

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن عقبة بن عامر الجهنى. (الجامع الصغير للسيوطى ١٤٨/٤) ورواه أيضًا ابن الجوزى فى «تاريخ عمر بن الخطاب» عن عقبة أيضًا.

(٤) إن كان يبغض عثمان فأبغضه اللّه. رواه الترمذى عن جابر.

رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر بلفظ «القدرية مجوس هذه الأمة ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم (السيوطى - الجامع الصغير جـ ٣ ص ٤٢٧).

وقال مشطّب: روى عبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما، أن النبى ﷺ قال: (ليس للقدرية وللرافضة فى الإسلام نصيب).

قال القاضى أبو بكر: وعن إسماعيل بن سعد رضى اللّه عنه أنه قال: قال النبى عليه السلام: (القدرية مجوس هذه الأمة، إذا مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوا جنازتهم).

وقال مشطّب: وعن أم سلمة (هند بنت أبى معاوية بن المغيرة القرشية المخزومية (٦٢هـ) رضى اللّه عنها عن رسول اللّه ﷺ قالت: «كان رسول اللّه ﷺ عندى يومًا فجاءه علىّ وفاطمة رضى اللّه عنهما معًا يسألان رسول اللّه مسألة، فبرز رسول اللّه ﷺ إليهما وقال: (يا علىّ أبشر فإنك وحزبك فى الجنة ولكن قومًا يخرجون من بعدك بمحبتك وينطقون الشهادة بأفواههم إن أدركتهم فاجتهد فى قتلهمْ فإنهم مشركون). . قال علىّ: وما علامتهم يا رسول اللّه؟ قال: (لا يحضرون صلاة الجمعة، ولا يصلون الجماعة، ولا يصلون على الميت، ويطعنون فى السلف).

وقال القاضى أبو بكر عن أبى الدرداء[١] رضى اللّه عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ فى حق علىّ بن أبى طالب كرم اللّه وجهه وحق من عاداه: (الخوارج عليك كلاب النار)[٢].

قال رسول اللّه ﷺ: (خير الأمور أوسطها) رواه فى مناسبة إخبار السلطان بالاعتدال فى كل شىء.

ومصداقًا لقول الرسول صلوات اللّه عليه: (التعظيم لأمر اللّه والشفقة على خلق اللّه).

---

(١) عويمر بن عامر بن مالك الأنصارى (+ ٣٢ هـ).

(٢) «الخوارج كلاب أهل النار» أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبى أوفى. (السيوطى - الجامع الصغير جـ ٤ ص ١٤٥).

وقوله ﷺ: (من استعمل على المسلمين عاملاً وهو يعلم أن فى المسلمين من هو خير منه فقد خان اللّه ورسوله)[١]

وأنبأنا والدى رحمه اللّه أذنًا أنبأنا عبد الصمد بن عبد الرحمن . . أنبأنا الصاحب الشهيد أبو على . . أنبأنا أبو حامد المزكى . . حدّثنا أبو نصر محمد بن على بن الفضل الخزاعى حدّثنا أبو محمد صاحب بن مزاحم . . حدّثنا أحمد بن نصر بن أحمد حدّثنا سليمان بن سلمة الحمصى . . حدّثنا يوسف بن السقر عن الأوزاعى عن الزهوى عن عائشة رضى اللّه عنها أن رسول اللّه قال: (ما جُبِل ولىّ للّه إلاّ على السخاء وحسن الخُلُق)[٢].

أخبرنا أبو القاسم[٣] إسماعيل بن حمدون . . أنبأنا أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد القاضى . . حدّثنا على بن إبراهيم بن سلامة . . حدّثنا أبو حاتم الرازى . . حدّثنا محمد بن عبد اللّه الأنصارى . . حدثنى حميد عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال: جاء عبد اللّه بن سلاّم رضى اللّه عنه إلى رسول اللّه ﷺ مقصده المدينة فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلاّ نبى قال: ما أول أشراط الساعة ومّا أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أبيه وإلى أمه. قال: ﷺ: (أخبرنى بهن جبريل عليه السلام آنفًا) قال: عبد اللـه ذاك عدو اليهود من الملائكة . . قال: (أمّا أول أشراط الساعة فنار تخرج[٤] من المشرق إلى المغرب، وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنة فزَبَد كبد الحوت، وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه وإذا سبق ماء المرأة نزعته) قال: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأشهد أنك رسول اللّه. ثم قال: يا رسول اللّه إن اليهود قوم بهت

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس بلفظ: (من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى للّه فقد خان اللّه ورسوله والمؤمنين).

(٢) التدوين فى أخبار قزوين ـ ورقة ٢٧٥ عن مجلدة الأصبهانى فى الفوائد المخرجة «للنظام».

(٣) الرافعى ـ التدوين فى أخبار قزوين، ورقة ٢٧٥ عن مجلدة أحمد بن محمد بن أبى العباس الأصفهانى التى خرج بها الفرائد «لنظام الملك».

(٤) فى الأصل «تحشرهم».

فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك فجاء اليهود. فقال النبى: (أىّ رجل عبد اللّه بن سلام فيكم؟).. قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: (أرأيتم إن أسلم عبد اللّه بن سلاّم). قالوا: أعاذه اللّه من ذلك. فخرج إليهم عبد اللّه. فقال: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه. قالوا: شرنا وابن شرنا. فقال: هذا ما كنت أقول يا رسول اللّه: احذره[1].

قرأت على محمود بن إبراهيم بن أبى الفضل.. حدّثنا عبد اللّه بن عمر بن محمد البلخى.. أنبأنا والدى إجازة.. أنبأنا «نظام الملك» أبو على.. حدّثنا أبو منصور محمد بن أحمد بن الخضر الفقيه:. حدّثنا أبو الحسن على الصقلى.. حدثنى أبى سمعت عمر القطان.. سمعت الخراص يقول: قرأت فى التوراة يقول اللّه تعالى: «ويح ابن آدم يذنب ويستغفرنى فأغفر له، ثم يعود فيستغفرنى فأغفر له. ويحه لا هو يترك الذنب ولا هو ييأس من رحمتى، أشهدكم ملائكتى أنى قد غفرت له»[2].

وفى الفوائد المخرّجة أنبأنا أبو منصور محمد بن أحمد البيهقى.. أنشدنا عبد الرحمن بن محمد السراج.. أنشدنا الإمام أبو سهل.. أنشدنا محمد بن يحيى الصولى لعبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر

وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: (شاوروهن وخالفوهن).

أعاتبُ من أحْبَبْتُ فى كل هفوة ليجتنَب الذنَب الذى معه العتب
وإنى أرى التأديب عند وجوبه بمنزلة الغيث الذى قبله الجدب[3]

(١) انظر: أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن حجر فى إسلام عبد اللّه بن سلام، وأبو حيان فى تخير الصحابة.

(٢) الرافعى ـ التدوين عند ترجمة الحسن بن محمد بن عبد اللّه الصقلى القزوينى والد أبى الحسن الصقلى، ورقة ٢٨٠: أشبه بالأحاديث القدسية، وفى الأمثال فى التوراة.

(٣) الرافعى ـ التدوين، ورقة ٢٧٥.

وقوله ﷺ مخاطبًا عائشة وحفصة وهو على فراش الموت: (ما مَثْلكما إلاّ كمثل يوسف وكرسف، لن آمر بما تريدان، وإنما آمر بما أرى فيه الصلاح والصواب)[1].

* * *

(١) أخرجه البخارى عن عائشة فى أبواب صلاة الجماعة «إنكن صواحب يوسف».

رابعًا: المواعظ والنصائح:

- ١٣ -

أ - خطبة الجمعة: لأبى سعد بن أبى عمامة الواعظ[1]

لمّا دخل «نظام الملك» وزير السلطان ملكشاه إلى بغداد سنة ٤٨٠هـ وأملى مجلسيه فى الحديث صلّى فى جامع المهدى الجمعة فقام أبو سعد بن أبى عمامة فقال:

الحمد للّه ولىّ الإنعام وصلّى اللّه على من هو للأنبياء ختام، وعلى اللّه سراج الظلام وعلى أصحابه الغرّ الكرام، والسلام على صدر الإسلام ورضى الإمام الذى زيّنه اللّه بالتقوى، وختم عمله بالحسنى، وجمع له بين الآخرة والدنيا..

معلومٌ يا صدر الإسلام أن آحاد الرعية والأعيّان مخيّرون فى القاصد والوافد إن شاءوا وصلوه وإن شاءوا فصلوه، فأمّا من توشح بولائه وترشح لآلائه فليس مخيّرًا فى القاصد والوافد لأن من هو على الحقيقة أمير فهو فى الحقيقة أجير، قد باع نفسه وأخذ ثمنه، فلم يبق له من نهاره ما يتصرف فيه على اختياره ولا له أن يصلى نفلاً ولا أن يدخل معتكفًا دون التبتل لتدبيرهم والنظر فى أمورهم؛ لأن ذلك فضل وهذا فرض لازم.

وأنت يا صدر الإسلام وإن كنت وزير الدولة فأنت أجير الأمة، استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة لتنوب عنه فى الدنيا والآخرة، فأمّا الدنيا ففى

(١) هو المعمّر بن علىّ بن المعمر أبو سعد بن أبى عمامة الواعظ، ولد سنة ٤٣٩هـ وسمع ابن غيلان والخلال والجوهرى وغيرهم. وكان بعظ وجمهور وعظه حكايات السلف، وكان له خاطر حاد، وذهن بغدادى، وكان يحاضر المستظهر باللّه. (المنتظم جـ ٩ ص ١٧٣ - حوادث سنة ٤٨٠هـ).

مصالح المسلمين. وأمّا فى الآخرة فلتجيب عند رب العالمين، فإنه سيقفه سيوقفه بين يديه ويقول له: ملّكتك البلاد، وقلّدتك أزمة العباد، فما صنعت فى إقامة البذل وإفاضة العدل؟ فلعلّه يقول: يارب اخترت من دولتى شجاعًا عاملاً حازمًا وسمّيته قوام الدين، «نظام الملك»، وهو ها هو قائم فى جملة الولاة، وبسطت يده فى السوط والسيف والقلم ومكّنته فى الدينار والدرهم فاسأله يارب ماذا صنع فى عبادك وبلادك؟ أفتحسن أن تقول فى الجواب، نعم تقلدت أمور البلاد وملكت أزمة العباد فبثثت النوال وأعطيت الأفضال حتى إنى أقربت لقائك ودنوت من تلقائك، اتخذت الأبواب والنواب والحجّاب ليصدوا عنّى القاصد، ويردوا عنى الوافد فأعمر قبرك كما عمرت قصرك وانتهز الفرصة مادام الدهر يقبل أمرك، ولا تعتذر فما ثمّ من يقبل عذرك، وهذا ملك الهند وهو عابد صنم ذهب سمعه فدخل عليه أهل مملكته يعزونه فى سمعه. فقال: ما حزنى لذهاب هذه الجارحة من بدنى، ولكن لصوت مستغيث كيف لا أسمعه فأغيثه. ثم قال: إن كان قد ذهب سمعى فما ذهب بصرى فليؤمر كلّ ذى ظلامة أن يلبس أحمر حتى رأيته عرفته فأنصفته.. وهذا أنو شروان قال له رسول ملك الروم: لقد أقدرت عدوّك عليك بتسهيل الوصول إليك. فقال: «إنما أجلس هذا المجلس لأكشف ظلامة وأقضى حاجة»..

وأنت يا صدر الإسلام أحق بهذه المأثرة وأولى بهذه المعدلة وأحرى من أعدّ جوابًا لتلك المسألة فإنّ اللّه الذى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾[1].

فى موقف ما فيه إلاّ خاشع أو خاضع أو مقنَّع ينخلع فيه القلب ويحكم فيه الرب ويعظم فيه الكرب ويشيب فيه الصغير، ويُعْزل الملك والوزير ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾[2].

(١) سورة مريم ـ من الآية ٩٠.
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ٣٠.

وقد استجلبت للّه الدعاء وخلّدت لك الثناء مع براءتى من التهمة فليس لى فى الأرض ضيعة ولا قرية ولا بينى وبين أحد حكومة[1]. ولا بى بحمد اللّه فقر ولا فاقة»[2].

فلمّا سمع «نظام الملك» هذه الموعظة بكى بكاء طويلاً وأمر له بمائة دينار فأبى أن يأخذها وقال: «أنا فى ضيافة أمير المؤمنين، ومن يكون فى ضيافته يقبح أن يأخذ عطاء غيره»، فقال له: «فضّها على الفقراء»، فقال: «الفقراء على بابك أكثر منهم على بابى، ولم يأخذ شيئًا».

(توفى أبو سعد فى ربيع الأول من سنة ٥٠٦هـ).

* * *

(١) فى الشذرات «خصومة».

(٢) المنتظم جـ ٩ ص ١٧٣ ـ حوادث سنة ٤٨٠هـ. وابن رجب ـ ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٣٢.

- ١٤ -

ب - «النصيحة النظامية

لأبى عبد الله الأنصارى الهروى

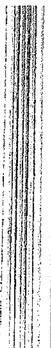
أيها «النظام» إسّع فى رعاية القلوب وإقبل عذر من اعتذر إليك ولا تبع الآخرة بالدنيا. سألوا ماذا تقول فى حق الدنيا. فأجاب: ماذا أقول فى شىء لا يجلب إلاّ المتاعب والحسرات ولا يضعنا إلاّ فى الأسقام والآفات.. وأضاف إلى قوله: إجعل رأس مال العمر مغنمًا وطاعة الله غنيمة ومن العلم سلاحًا ولا تستشعر الذل فى طلبه. واجتهد فى خلاص نفسك بالعبادة ولا تعطها هواها الذى لا ينتهى، وتذكّر ساعة موتك، ولا تعتبر الجاهل حيًا، ولا تثق بزاهد جاهل واعتبر معرفتك الخاصة رأس مال كبير فإنها فى جميع الأعمال تكون الحصن الحصين فى طلب الفضل، وأن التقوى من الله تجنبك مكائد الأعداء..

ولا تتحدث بما لم ترى ولم تسمع، ولاتسع فى تتبع عيوب الناس وانظر إلى عيب نفسك ولا تبالغ فى صدق يشبه الكذب، ولا تعجل فى الإجابة، ولا تصدّق بمقال من يتلاعب بالحق، ولا تتبع الشخص قبل أن تعرفه، وأبعد عن نفسك أوهام الحزن والبلاء لأنه من الهوى، ولا تتخذ حسابًا لما لم يحدث، ولا تحاسب على ما لم يعمل، ولا تجعل قلبك مسرحًا لوساوس الشيطان، وحاسب نفسك قبل محاسبة الآخرين. فإن ما لم تجد له ثمنًا فى نفسك لا تجد له ثمنًا فى نفس غيرك، ولا تغتصب عيش أحد وتبعد الرزق عن

الناس، ولا تخف من الدراويش، ولا تضيّع العافية بإطاعة هوى نفسك، ولا تحتقر كيد العدو وإن كان حقيراً، واحذر عداوة العدو الفاسق ولا تكن مع الذين لا يقدّرون المعروف، واعتبر القليل عندك خيراً من الكثير عند الآخرين، وحبّ اللّه ولا تغفل عن نفسك، واعلم أن سعادة الدنيا والآخرة إنما هى فى مصاحبة العلماء ، ومباعدة الجهلاء، وإن شاء اللّه تعالى يكون التوفيق رفيقك[1].

* * *





ثبت المراجع

ا - المخطوطات:

أ- العربية :

١- ابن أبى الدم - تاريخ المظفرى - معهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية.

٢- ابن الصلاح ـ طبقات الشافعية ـ اختصار: النووى، وإخراج: المزى.

٣- ابن ظافر ـ أخبار الدول المنقطعة ـ دار الكتب المصرية رقم ٨٩٠.

٤- ابن قاضى شهبة ـ مناقب الإمام وطبقات أصحابه من تاريخ الإسلام للذهبى ـ دار الكتب المصرية.

٥- الاسنوى ـ طبقات الفقهاء الشافعية ـ دار الكتب المصرية.

٦- البيهقى ـ وشاح دمية القصر ـ نسخة مصوّرة بمعهد المخطوطات رقم ٨٦٤.

٧- الثعالبى «أبو منصور» ـ تحفة الوزراء المنسوب إليه خطأ ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية.

٨- الخربيتى «محمود بن الشيخ إسماعيل» ـ الدّرة الغرّاء فى نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية.

٩- الرافعى القزوينى ـ التدوين فى أخبار قزوين ـ مصوّرة بدار الكتب المصرية رقم ٢٦٤٨.

١٠- الذهبى - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٩٨.

١١-سِيَرْ أعلام النبلاء ـ معهد المخطوطات بالجامعة العربية ٢٨٧.

١٢- سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ـ دار الكتب المصرية رقم ٥٥١.

١٣- الصرفينى إبراهيم بن محمد بن الأزهر ـ منتخب من سياق تاريخ نيسابور لأبى الحسن عبد الغافر الفارسى ـ معهد المخطوطات بالجامعة العربية.

١٤- عبد اللّه بن فتح اللّه الغياثى البغدادى ـ التاريخ الغياثى ـ مخطوطة بمكتبة دار الآثار ببغداد.

١٥- العينى ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ مخطوطة دار الكتب المصرية.

١٦- الفنارى ـ الوزارة، اشتقاقها وتطورها ـ مخطوطة مكتبة الأوقاف ببغداد.

١٧- النويرى ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ مخطوطة دار الكتب المصرية.

ب – الفارسية:

١٨- أبو القاسم أيواغلى حيدر ـ مجمع الإنشاء ـ كتابخانة ملى ـ طهران.

١٩- أمين أحمد الرازى – هفت إقليم ـ مكتبة ملى ـ طهران.

٢٠- سيف الدين عقيبى ـ آثار الوزراء ـ كتابخانة مجلس شوراى ملى ـ طهران.

٢١- غياث الملك إسماعيل بن «نظام الملك» ـ أبرقوى ـ تحفة بهائى[1] ـ كتابخانة ملى ـ طهران.

٢٢- مجموعة رسائل ومنشورات متفرقة (فيها مسوّدة مرسوم وزارة الخواجة «نظام الملك»، وخطاب الوزير للسلطان ملكشاه وجواب السلطان عليه) ـ كتابخانة ـ ملك ـ طهران.

١- والكتاب مؤلف باسم بهاء الدين الجوينى الوزير أحد أحفاد عطاء ملك.

٢٣- مراسيم سلطانية عن المجموعة (أيواغلى حيدر) - كتابخانة ملى - طهران.

٢٤- عريف وليس بفارسى سكون ضمن المخطوطات العربية ـ نظام الملك الطوسى ـ آمالى فى الحديث عن المجموعة ١١٥ـ المكتبة الظاهرية ـ دمشق ـ مجلسان.

٢٥- نظام الملك الطوسى ـ رسائل عن المجموعة «ملى ملك» ـ طهران.

٢٦- نظام الملك الطوسى ـ قانون الملك ودستور الوزارة عن مخطوطة نسخت سنة ٧٧٣هـ ـ كتابخانة ملى.

٢٧- محمد بن زين الثقاة عيسى بن كنان ـ حدائق الياسيمن فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ـ مصوّرة دار الكتب المصرية.

٢- المطبوعات :

أ - العربية:

٢٨- ابن الأثير ـ الكامل ـ طبع مصر سنة ١٢٠٣هـ.

٢٩- ابن الأثير ـ النهاية ـ طبع مصر.

٣٠- ابن إياس ـ شقّ الأزهار فى عجائب الأقطار.

٣١- ابن أبى أصيبعة ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ـ طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.

٣٢- ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة ـ القاهرة.

٣٣- ابن جبير ـ الرحلة ـ مصر سنة ١٣٢٦هـ.

٣٤- ابن بطوطة ـ الرحلة ـ مصر سنة ١٦٨٧هـ.

٣٥- ابن الجوزى ـ المنتظم فى تاريخ الأمم ـ حيدر آباد ـ الدكن سنة ١٢٥٧هـ.

٣٦- ابن حزم ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ مصر.

٣٧- ابن خلدون ـ المقدمة: بولاق ـ القاهرة ١٢٧٤هـ.

٣٨- ابن خلدون ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ مصر.

٣٩- ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ مصر.

٤٠- ابن الدبيني - المختصر المحتاج اليه - تحقيق: مصطفى جواد - بغداد سنة ١٩٥٣م.
٤١- ابن رجب البغدادى - ذيل طبقات الحنابلة - دمشق سنة ١٩٥١م.
٤٢- ابن الساعى - تاريخ الخلفاء - مصر.
٤٣- ابن سعد - الطبقات - مصر.
٤٤- ابن طباطبا المشهور بابن الطقطقى - الفخرى فى الآداب السلطانية - القاهرة ١٣١٧هـ.
٤٥- ابن عبد ربه - العقد الفريد - مصر.
٤٦- ابن العديم - زبدة الحلب فى تاريخ حلب - دمشق سنة ١٩٥١م.
٤٧- ابن عساكر - تبيين كذب المفترى فيما نسب للإمام الأشعرى - مصر.
٤٨- ابن العماد الحنبلى - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - القاهرة سنة ١٣٥٠هـ.
٤٩- ابن الفرات - تاريخ الدول والملوك - نشر قسطنطين زريق - بيروت ١٩٤٢م.
٥٠- ابن الفوطى - الحوادث الجامعة - بغداد.
٥١- ابن كثير الدمشقى - البداية والنهاية - القاهرة ١٣٥١هـ.
٥٢- ابن منجب الصيرفى - الإشارة إلى من نال الوزارة - المعهد الفرنسى.
٥٣- ابن ميسر «محمد بن على» - أخبار مصر - القاهرة ١٩١٩م.
٥٤- أبو حيان الحسن الطرائفى - رد أهل الأهواء والبدع.
٥٥- أبو التوحيدى - الإمتاع والمؤانسة - تحقيق: أحمد أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٥٦- أبو شامة المقدسى - الروضتين فى أخبار الدولتين - القاهرة سنة ١٢٨٧هـ.
٥٧- أبو الفدا - المختصر فى أحوال البشر - مصر.

٥٨- أبو الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ـ حيدر آباد.
٥٩- أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٦٠- ضحى الإسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٦١- الأسفرائينى، أبو المظفر ـ التبصير فى الدين ـ مصر ١٩٥٥م.
٦٢- الأريلى ـ عبد الرحمن قنينو ـ خلاصة الذهب المسبوك.
٦٣- أرنولد - الخلافة الإسلامية.
٦٤- أسامة بن منقذ ـ الاعتبار ـ بريستون ـ أمريكا.
٦٥- أغابزرك ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ ط النجف وطهران.
٦٦- الألوسى ـ تاريخ مساجد بغداد ـ بغداد.
٦٧- الباخرزى ـ دمية القصر ـ حلب ١٣٤٨هـ.
٦٨- بارنولد ـ الحضارة الإسلامية ـ ترجمة: حمزة طاهر ـ القاهرة.
٦٩- البغدادى «عبد القاهر» ـ الفرق بين الفرق.
٧٠- البلاذرى ـ فتوح البلدان.
٧١- البيهقى ـ أبو الفضل ـ تاريخ البيهقى ـ ترجمة: يحيى الخشّاب صادق ونشأت ـ القاهرة سنة١٩٥٦.
٧٢- البيهقى «ظهير الدين» ـ تاريخ حكماء الإسلام أو تتمة صوان الحكمة ـ دمشق ١٩٤٦م.
٧٣- تنسر ـ ترجمة: الخشّاب ـ القاهرة ١٩٥٤م.
٧٤- التنوخى ـ أبو المحسّن ـ الفرج بعد الشدة ـ مصر.
٧٥- نشوار المحاضرة ـ مصر سنة ١٩٢١م.
٧٦- جرونيهاوم ـ حضارة الإسلام ـ ترجمة: جاويد والعبادى.
٧٧- الجيهشيارى ـ الوزراء والكتاب ـ مصر.
٧٨- حسن الباشا ـ الألقاب ـ مصر.
٧٩- يحيى الخشّاب ـ حكايات فارسية ـ مصر.

٨٠- الخفاجى «شهاب الدين أحمد» ـ شفاء الغليل ـ السعادة بمصر سنة ١٣٢٥هـ.

٨١- الخطيب البغدادى ـ تاريخ بغداد.

٨٢- «حسن بن علىّ» ـ روضات الجنات ـ طهران ١٣٤٧هـ.

٨٣- الدورى «عبد العزيز» ـ تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ـ بغداد.

٨٤- دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ـ بغداد ١٩٤٥م.

٨٥- دى بور ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ـ ترجمة: أبو ريده ـ القاهرة.

٨٦- الذهبى ـ دول الإسلام.

٨٧- رضا شفيق زاده ـ تاريخ الأدب الفارسى ـ الترجمة ـ القاهرة.

٨٨- الرسغنى ـ مختصر الفرق بين الفرق.

٨٩- السبكى «تاج الدين» ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ الحسينية بمصر ١٣٢٤هـ.

٩٠- السمعانى «عبد الكريم» ـ الأنساب (منشورات سلسلة جب ١٩١٢م).

٩١- السيوطى ـ حسن المحاضرة ـ القاهرة ١٢٩٩هـ.

٩٢- بغية الوعاة ـ القاهرة ١٣٢٦هـ.

٩٣- الشاطبى ـ الاعتصام.

٩٤- الشهرستانى ـ المللّ والنحلّ.

٩٥- شمس الدين بن الأكفانى السنجارى ـ إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد ـ بيروت ١٢٣٢هـ.

٩٦- الشيزرى «عبد الرحمن» ـ المنهج المسلوك فى سياسة الملوك.

٩٧- ———— ـ نهاية الرتبة فى معالم الحسبة.

٩٨- الصابى «أبو هلال» ـ تاريخ الوزراء.

٩٩- الصفدى ـ الوافى بالوفيات ـ إستانبول ١٩٣١م.

١٠٠- الصوفى ـ الآثار والمبانى فى الإسلام ـ الموصل.
١٠١- طه باقر ـ مقدمة فى تاريخ العراق القديم ـ بغداد.
١٠٢- طه حسين ـ ذكرى أبى العلاء.
١٠٣- الطبرى «ابن جرير» ـ تاريخ الأمم والملوك ـ مصر.
١٠٤- الطرطوشى «أبو بكر محمد» ـ سراج الملوك ـ مصر.
١٠٥- الظاهرى «خليل بن شاهين» ـ زبدة كشف الممالك ـ باريس سنة ١٨٩٤م.
١٠٦- عارف تامر ـ أربع رسائل إسماعيلية ـ المقدمة ـ طبع بيروت ١٩٥٢م.
١٠٧- العاملى «السيد محسن الأمين» ـ أعيان الشيعة ـ دمشق.
١٠٨- عباس القمى ـ الكنى والألقاب ـ العرفان - صيدا.
١٠٩- عبد الوهاب عزّام.ـ التصوف وفريد الدين العطار ـ مصر.
١١٠- عروضى سمرقندى ـ جهار مقالة ـ ترجمة: عزام والخشّاب ـ القاهرة سنة ١٩٤٩م.
١١١- عماد الدين الأصبهانى ـ دولة آل سلجوق أو زبدة النصر ـ اختصار البندارى ـ مصر ١٣١٨هـ.
١١٢- عماد الدين الاصفهانى الكاتب ـ خريدة القصر وجريدة أهل العصر ـ قسم العراق ـ بغداد ١٩٥٥م.
١١٣- الغزالى «أبو حامد» ـ التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ـ مطبعة الآداب بالقاهرة ١٣١٧هـ.
١١٤- الرد على الباطنية.
١١٥- الفراء «أبو يعلى محمد» الأحكام السلطانية ـ مصر.
١١٦- فلهاوزن ـ الدولة العربية ـ ترجمة.
١١٧- القزوينى ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ نشر: جوتنجن سنة ١٨٤٨م.
١١٨- القلقشندى ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ـ مصر ١٩١٧م.

١١٩- القفطى ـ أخبار الحكماء أو أخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ ليبزج ١٣٢٠هـ.
١٢٠- إنباء الرواة على أنباء النحاة ـ مصر.
١٢١- كريستسن ـ إيران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة يحيى الخشّاب ـ القاهرة ١٩٥٧م.
١٢٢- الكنانى «عبد الحى» ـ التراتيب الإدارية.
١٢٣- كيكاوس ـ قابوس بن وشمجير الزيارى ـ قابوسنامة ـ ترجمة: صادق نشأت.
١٢٤- لوستربنج ـ بلدان الخلافة الإسلامية ـ ترجمة: أوجيرجيس عوّاد ـ بغداد.
١٢٥- المافروخى ـ محاسن أصفهان ـ طهران ١٣١٢هـ.
١٢٦- الماوردى ـ أدب الوزير أو قانون الوزارة ـ مصر.
١٢٧- الأحكام السلطانية ـ القاهرة ١٣٢٧هـ.
١٢٨- مسكويه ـ تجارب الأمم ـ القاهرة ١٣٣٢هـ.
١٢٩- المسعودى «أبو الحسن» ـ التنبيه والإشراف ومروج الذهب ـ مصر.
١٣٠- المقدسى ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ ليدن ١٩٠٦م.
١٣١- المقريزى «تقى الدين» ـ الخطط ـ مصر ١٢٧٠هـ.
١٣٢- المحبى ـ خلاصة الأثر.
١٣٣- محمد عبد الله عنان ـ ابن خلدون حياته وتراثه ـ مصر.
١٣٤- محمد كرد على ـ القديم والحديث ـ مصر.
١٣٥- المعافرى «أبو بكر» ـ العواصم من القواسم ـ المغرب.
١٣٦- المنجّد «صلاح الدين» المنتقى من كلام المستشرقين ـ القاهرة.
١٣٧- «ميتز آدم» ـ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ ترجمة: د/ عبد الهادى أبو ريدة.

١٣٨- مير على ـ مختصر تاريخ العرب.
١٣٩- ناصر خسرو ـ سفرنامة ـ ترجمة: يحيى الخشّاب ـ مصر ١٩٤٥م.
١٤٠- نشوان الحميرى ـ الحور العين ـ مصر.
١٤١- نللينو ـ تاريخ الآداب العربية (الترجمة) ـ مصر
١٤٢- النهروانى ـ الإعلام فى أعلام بيت الله الحرام ـ القاهرة.
١٤٣- ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ ترجمة بدران ـ القاهرة.
١٤٤- اليافعى المكى «مرآة الجناة وعبرة اليقظان» ـ حيدر آباد ١٣٢٧هـ.
١٤٥- ياقوت الحموى ـ معجم البلدان.
١٤٦- معجم الادباء.
١٤٧- اليمانى ـ كشف أسرار الباطنية.

ب - غير العربية:

١٤٨- ابن إسفنديار «بهاء الدين محمد» ـ تاريخ طبرستان ـ طهران.
١٤٩- ابن فندق «أبو الحسن على بن زيد» ـ تاريخ بيهق ـ نشر: أحمد بهمنيار سنة ١٣١٧هـ ـ طهران.
١٥٠- سعد الله مستوفى ـ تاريخ كزيدة ـ مجموعة أوقاف جب التذكارية ـ نشر: براون سنة ١٩١٠م.
١٥١- الحسينى محمد بن النظام ـ العراضة فى الحكاية السلجوقية ـ نشر: كارل زوسبايم ١٩٠٩م.
١٥٢- خواند أمير «غياث الدين محمد» ـ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ـ ملحق شيفر لسياستنامة.
١٥٣-دستور الوزراء ـ طهران.
١٥٤- الراوندى «أبو بكر محمد» ـ راحة الصدور وآية السرور ـ ملحق شيفر.
١٥٥- الشوشترى ـ مجالس المؤمنين ـ طهران.

١٥٦- الشيرازى «أبو العباس أحمد بن أبى الخير زركوب» - تاريخ شيراز - طهران.

١٥٧- الغزالى «أبو حامد» - غزالى نامه يا نصيحة الملوك - جلال همائى - طهران ١٣١٢هـ.

١٥٨- هندوشاه - تجارب السلف - طهران ملحق شيفر.

١٥٩- قفص أولغو إبراهيم - الإمبراطورية السلجوقية الكبيرة فى عهد ملكشاه - إستانبول سنة ١٩٥٣م.

١٦٠- مكرمين خليل - تركيا تاريخ سلجوقلردوزى - إستانبول ١٩٤٤م.

١٦١- محمد عبد الرزاق - نظام الملك الطوسى «أوردو» - كانبور بالهند ١٩١٠م.

١٦٢- نظام الملك الطوسى - سياستنامة - تصحيح وتطبيق: مرتضى جهار دهى - طهران ١٩٥٦م.

١٦٣- نظام الملك الطوسى - وصايا - بنواى ١٣١٥هـ.

١٦٤- Barthold. w: turkestan. London. 1928

١٦٥- Brawn. M.lit - Hist of persi London. 1920.

١٦٦- مادة - سلجوق ونظام الملك: Ency. of Eslam

١٦٧- سياستنامة والمقدمة ط باريس سنة ١٨٩١م والملحق - المستخلص - ط سنة ١٨٩٧م Scheffer.

١٦٨- أسعد طلس: Al- madrassa al nizamiyya de Bagdad

* * *

محتويات الكتاب

الباب الرابع

الباب الخامس

* * *